جامع الأسرار ومنبع الأنوار


بسم الله الرحمن الرحيم

جامع الأسرار ومنبع الأنوار

في علم التوحيد وأسراره وحقائقه وأنواره

ويليه

رسالة نقد النقود في معرفة الوجود

تأليف

السيد العارف المحقق الأوحدي صاحب الكشف الحقيقي

السيد حيدر آملي

٧٢٠هـ - ٧٨٧هـ

مقدمة

هنري كوربان وعثمان اسماعيل يحيى

صححه واعتنى به

محسن عقيل

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - ٠١/٥٤١٢١١

E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

توطئة

يزداد الإهتمام بفلسفة التشيّع يوماً بعد آخر، حتى أضحت الملهمة للكثير من الدراسات التي ساهمت بدورها في تجديد حياتها. ونحن بدورنا نساهم ببعض الشيء في هذا التجدد. لذلك لا بد من توصل فلسفة التشيع بوفاء كامل لأصولها، أن توصل رسالتها التي ما يزال معظم فلاسفة العالم يجهلونها. وينبغي أن تبرز هذه الفلسفة في مواجهة القضايا الفعلية للفلاسفة، ليس من أجل التطابق مع الحركة الفعلية للأمور؛ بل من أجل تثمين نظراتها الأصلية وإبرازها إلى حيز الفعل، حيث تنشأ من الهدف السامي ومن السنّة الماضية.

لهذه الأسباب نفخر أن نبدأ بهذا الكتاب أول طبعة من تأليفين للسيّد حيدر الآملي أحد أكبر مفكري مذهب التشيع. وقد ولد هذا المفكر عام (٧٢٠ هجري) وقد إشتهر اسمه، لكن مؤلفاته بقيت حتى يومنا هذا على شكل نسخ خطية غير معروفة، وما زالت أماكن وجود معظم النسخ الخطية لهذا المفكر الكبير خافية علينا، لذلك فإننا نرجو القراء مراجعة المقدمة العربية والفرنسية لهذا الكتاب للإطلاع أكثر على سيرة هذا المفكر وفهرست مؤلفاته الأصيلة، وقد ذكرنا فيهما المشاكل التي واجهتنا خلال التحقيق، وشرحنا أسباب تفصيل جدول الأخطاء غير المتوقع.

ونستغل هذه الفرصة لتقديم الشكر إلى السادة الذين شاركوا في طباعة هذا الكتاب، ونشكر سلفاً جميع الذين سيبلّغونا عن محل وجود النسخ الخطية المجهولة لهذا المفكر، غير ما ذكرناه في مقدمتي الكتاب من مخطوطات بل الرسائل التي لم يعثر حتى الآن على مخطوطاتها، ليقول بذلك القراء بمساعدتنا على إحياء مؤلفات السيّد حيدر الآملي بشكل كامل، فهو أحد أركان فلسفة مذهب الشيعة الإثنا عشرية.





وصية المؤلف

اعلم أنّ هذا (الكتاب) مشتمل على وصيّة، وهي متضمّنة لوصايا متعدّدة:

منها: أنّه لا ينبغي لأحدٍ أن يشرع في مطالعة هذا الكتاب بقوّة عقله ورأيه والمقدّمات القياسيّة العقليّة، فإنّه لا يفهم منه شيئاً أصلاً، ويقع بواسطته في الكفر والضلال، ويصل بسببه إلى مرتبة الأهواء والاضلال، ويكون ممّن خسر الدنيا والآخرة، نازلاً في حقّه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[١].

وهذا الكتاب ليس أعظم من كتاب الله، وقد ورد فيه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٢]. وسبب ذلك لأنّ كلمات هؤلاء القوم صادرة من مشرب الولاية ومنبع الذوق ومعدن الشهود، وادراكها موقوف على افتتاح عين البصيرة بكحل عناية الله ونور توفيقه، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[٣] لا على الفكر والدراية بمعانة العقل وادراكاته. ولهذا لا يحصل منها (أي من كلمات القوم) شيء إلا لأهلها، لقولهم: «لا يحمل عطاياهم إلا مطاياهم».

ومع ذلك، أي مع أنّها أي كلمات القوم صادرة عن مشرب الولاية، وادراكها موقوف على افتتاح البصيرة، فهي مغلقة محتملة لوجوه كثيرة، كما ورد في شأن القرآن أنّه: «**حمّال ذو وجوهٍ**».

وورد أيضاً: «**أنّ للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه أبطن إلى سبعة أبطن وسبعين بطناً**». ولهذا كانوا دائماً مبادرين إلى النصيحة فيها، كقول بعضهم لبعض مريديه المتقدّم ذكره: «**ألا، لا يلعبنّ بك اختلاف العبارات! فإنه** ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾[٤] وحضر

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٤) سورة العاديات، الآية: ٩.

البشر عرصة الله يوم القيامة، فلعلّ من كلّ ألفٍ تسعمائة وتسعاً وتسعين يبعثون من أجداثهم وهم قتلى بأسهم العبارات، ذبحى بسيوف الإشارات، وعليهم دماؤها وجراحها. غفلوا عن المعاني فضيعوا المباني».

فحينئذٍ كلّ من أراد الحظّ من مطالعة هذا الكتاب والذوق من مشاهدته، فينبغي أن يتوجّه إليه إمّا بالتوجّه التامّ وصفاء الباطن وخلوص الاعتقاد والتسليم الكامل والتصديق الخالص، أو بمعاونة شخص عارف كامل محقّق، واصل إلى مقام الاستقامة والتمكين، أعني مرتبة التكميل، ليوصله إلى حقائقه ودقائقه، لأنّ «لكلّ مكان مقال، ولكلّ مقال رجال». وإليه أشار - جل ذكره: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وأهل الذكر هم هؤلاء القوم بعد الأنبياء والأولياء عليهم السلام كما عرفتَ في القاعدة الثالثة من هذا الأصل.

ومنها أنّ هذا الكتاب مشتمل على أعظم أقوال الصوفيّة والشيعة، ومعارضاتهم ومجادلاتهم، وأقوال علماء الظاهر أيضاً استشهاداً، وأقوال الأنبياء والأولياء عليهم السلام كذلك.

وكان الغرض من ذلك أن يصير الشيعة صوفيّة والصوفية شيعة! ومعلوم أنّ هذا أمر صعب وشغل خطير، لأنّ كلّ واحد منهما في حيّزٍ ضيّق لا يمكن اخراجه إلا بألف حبل من حبال البراهين العقليّة والاستشهادات النقليّة، منضمّةً إليها الاستدلالات الكشفيّة والدلائل الذوقيّة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[2] فحينئذٍ لا ينبغي أن يشنّع أحد على صاحبه بأنه قد أكثر من نقل كلام الغير فيه، لأنّ في كلّ نقل حكمة بالغة ونكتة دقيقة لا يعرفها إلا أهلها.

وأيضاً لو لم يسمع الشيعة كلام الصوفيّة بألفاظهم المعيّنة، لما اطمأنّت قلوبهم؛ وكذلك الصوفيّة، لأنّهم أي الصوفيّة يريدون أيضاًأن يسمعوا كلام الشيعة بعباراتهم المعيّنة.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

وبعد ذلك، لو لم ينضمّ إلى هذه الأقوال قول الله وقول الأنبياء والأئمّة والعارفين من عباده، لما اطمأنّ قلب أحد منهم ومن غيرهم، لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1].

ومنها أنّه لا ينبغي أن يحكم أحد بتكرار فيه لفظاً أو معنىً، فإنّه لو تحقّق، لعرف أنّه ليس تكراراً، بل فيه حكمة وسرّ ونكتة ورمز. ويتوّهم أيضاً بعض الجهّال هذا المعنى في القرآن الكريم لتكرار بعض الآيات فيه، كقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2]، وكقوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3] وأمثال ذلك.

وليس هو في الحقيقة كذلك، لأنّ القرآن لا يمكن فيه تكرار لفظ ولا كلمة ولا آية أصلاً، لأنّه على صورة الوجود كلّه، وليس فيه تكرار لا صورة ولا معنى، لأنّ الصورة التي وجدت لا يمكن مثلها أبداً وأزلاً، وكذلك المعنى. وهذا البحث مفروغ منه:

وفـي كـلّ شـيءٍ لـه آيـة ... تـدلّ عـلـى أنّـه واحـد

وهذا يعلم من تفسير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[4].

ومع ذلك فحيث نحن في مجموع هذا الكتاب في صدد اثبات مطلوب واحد الذي هو التوحيد، فلو تكرّر لفظ أو تكرّر معنى، فلا يكون فيه عيب، لأنّه بالحقيقة لا يكون تكراراً بل يكون مشابهاً، أو يكون سهواً، أو يكون فيه معنى آخر.

ومثاله أنّي ذكرتُ كلام عليّ عليه السلام وهو قوله: «**أوّل الدين...**» في موضع: **لأجل**: **اثبات الصفات**، وفي موضع: **لأجل تحقيق التوحيد**، وفي موضع: **لأجل نفي الصفات**.

ومعلوم أنّ هذا كلّه ليس بتكرار، والاعتماد في ذ لك على أهله لا غير. والسلام!.

ومنها: أنّه إذا وجد أحد في تركيبه وألفاظه عجمة أو لكنة فيمكنه أن يقوم

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٥.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٩.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٩.

باصلاحه إن كان من أهله، ولا ينسبْ صاحبه إلى الجهل بمعناه، فإنّ هذه الطائفة تعتبر بلاغة الألفاظ وجزالة التركيب غرضاً أصيلاً، بل غرضهم ايصال المعنى المقصود إلى المستحقّين، خالصاً مخلصاً لله تعالى، لا اظهار الفضيلة ولا اشتهاراً بالفصاحة والبلاغة، كما تقدّم في باب التوحيد. فعلى أيّ وجه اتّفق وعلى أيّ لسان ظهر، فهو جيّد

عباراتنا شتّى وحسنك واحد وكلّ إلى ذاك الجمال يشير

لأنّه لا يختلف باختلاف: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾(١).

فإن لا يختلف أي قول الله باختلاف إلا لسنة حقيقةً وإن اختلف مجازاً، حيث ظهر بالعبرانيّة والسريانيّة والعربيّة وغير ذلك - ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٢) - فكذلك قول هؤلاء القوم، فإنّه لا يختلف باختلاف العبارات وتشتيت الألسنة، عربيّةً كانت أو عجميّةً، هنديّةً كانت أو روميّةً. فاذن لا ينبغي لهم أن يذمّوه أي كلام المصنّف بركاكة الألفاظ وضعف التركيب، فإنّه أي المصنّف مقرّ بذلك وهو في قدم العذر «والعذر عند كرام الناس مقبول».

وأيضاً لو لم يكن طالبوا هذا الكتاب مستأنسين بالعربيّة، آلفين بها، لما كتب المصنّف المعنى المقصود بالعربيّة، فهو ما أظهره إلا بلسان أراده منه طالبوه لأنسهم به وسرعة تعقلهم له، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾(٣)، ولقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾(٤).

ولهذا كم من كتب ورسائل كتبتُها بالفارسيّة حيث كان طالبوها أعجام والتمسوا ذلك، مثل: «جامع الحقائق» و «رسالة التنزيه» و «أمثلة التوحيد» وغير ذلك.

ومنها: أن لا يتوّهم من الصوفيّة، إذا سمع بذكرهم قبل الاطّلاع على أصولهم

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٤.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

وقواعدهم، الصوفيّة الذين هم في هذا الزمان، لأنّهم ليسوا في الحقيقة بصوفيّة، كعلماء هذا الزمان أيضاً ليسوا بعالمين حقيقةً، بل إذا خطر بخاطره أو سمع من غيره أو طالع من الكتب أحوالهم، يتصوّر منهم أقدمهم وأعلمهم وأعظمهم، مثل: سلمان الفارسي وأُويس القرني وأهل الصفّة، الذين ورد فيهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١) وكذلك المقداد وأبو ذرّ وعمّار وأمثالهم، وبعدهم كميل بن زياد النخعيّ وأبو يزيد البسطامي والجنيد البغدادي، الذي كانوا تلامذة للأئمّة المعصومين عليهم السلام وكانوا مريديهم ومودعي أسرارهم، كما عرفته في الفصل الأوّل.

وكذلك من الشيعة، أعني لا ينبغي أن يتوّهم أيضاً من الشيعة الشيعة المختلفة من الفرق الباطلة عند الشيعة أيضاً، المتقدّم ذكرهم: مثل الإسماعيليّة والغلاة والزيديّة وغير ذلك، فإنّهم ليسوا بشيعة حقيقةً؛ بل ينبغي أن يتصوّر من الشيعة طائفة مخصوصة، أعني الذين تقدّم ذكرهم وثبتت حقيّتهم: الموسومين بالاثني عشريّة، الإماميّة، المثبتة أُصولهم وقواعدهم في الأصول على النصّ والعصمة، واسنادهم ورواياتهم في الفروع على النقل الصحيح من النبيّ والأئمّة عليهم السلام لأنهم في التحقيق هم القوم الذين ورد في حقّهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾(٢) الآية.

وشرف الطائفتين المذكورتين أي: الشيعة الإماميّة والصوفيّة ومنزلتهما، بل حقيقتهما، هو بأنّهما حاملا أسرار الأنبياء والأولياء عليهم السلام ظاهراً وباطناً، لأنّ الأنبياء والأولياء كانوا جامعين لجميع الأسرار الإلّهية ظاهراً وباطناً.

فالشيعة قاموا بحمل أحكامهم وأسرارهم بحسب الظاهر والشريعة، والصوفيّة قاموا بحمل أسرارهم وحقائقهم بحسب الباطن والحقيقة، وإن كانت الصوفية بالحقيقة أيضاً هي الشيعة، كما عرفته عند بحث المؤمن الممتحن وغير الممتحن.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

وهذا بالحقيقة من ترتيب الوجود وكمال الشريعة الإلهيّة واقتضاء المراتب المذكورة: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(١) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٢). وقد عرفتَ بعض هذا البحث عند بحث الشريعة والطريقة والحقيقة فارجع إليه.

ومنها: أنّه ينبغي أن لا يحكم باعتقاد صاحبه أي: صاحب هذا الكتاب أو هذا المقام إلا على الوجه الذي تقرّر في هذا الكتاب من أوّله إلى آخره، لكن بعد تأمّله وتحقّقه على ما ينبغي، أعني لا ينبغي أن يُعرَف إلا جامعاً بين أسرار الأنبياء والأولياء عليهم السلام بحسب الظاهر والباطن، المعبّر عنهما: بالشريعة والطريقة والحقيقة، والجمع بينهما أي بين الظاهر والباطن بالحقيقة، الذي هو أكمل المقامات وأعظم المراتب، المشار إليه مراراً، بحيث لا يُعَدّ من الشيعة الصرفة ولا من الصوفيّة المحضة، بل متّصفاً بالمقام المحمّدي الذي هو الجامع بين المقامين، لقوله عليه السلام: «قبلتي ما بين المشرق والمغرب» المعبّر عنه بالدين القيّم في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣) لأنّ غير ذلك يكون ظنّاً في حقّه، و﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(٤) و﴿ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾(٥) ولذلك أقول فيه ما قد قال أكمل الخلق وأعظمهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٦). و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(٧). ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٨).

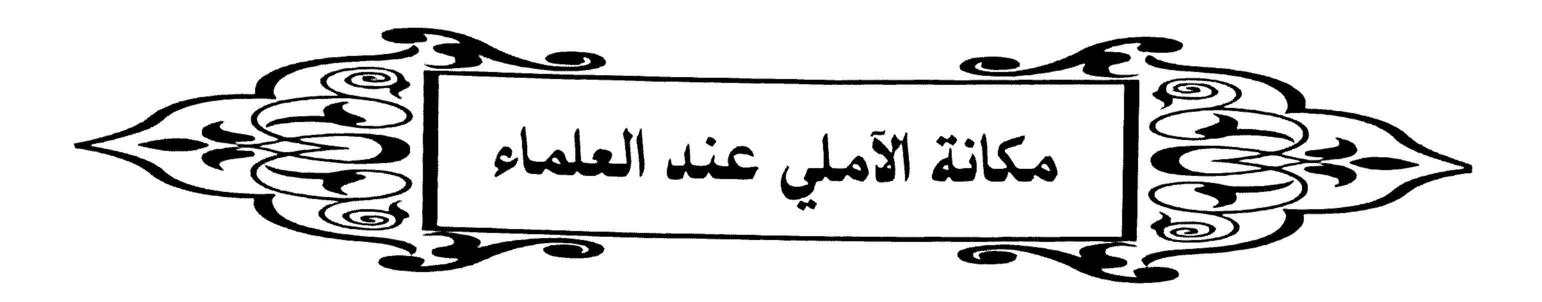
---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.
(٢) سورة قٓ، الآية: ٣٦.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٥) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٧) سورة الأعراف، الآية: ٤١.
(٨) سورة الحديد، الآية: ٢١.

وأقول أيضاً في هذا الكتاب:

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن قلبي إلى دينه دان
لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة فمرعى لغزلان وديراً لرهبان
وبيتاً لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحبّ أني توجّهتْ ركائبه أرسلتُ ديني وإيماني





مكانة الآملي عند العلماء

لم تكن محاولة الآملي لتوحيد التصوف والتشيع، ولا شخصيته بشكل عام محط وفاق في الرأي بين العلماء. مدحَ سيرته كثيرون، وقدروا جهوده، واعترفوا له بالفضل والمنزلة.

وصفه قطب الدين نيريزي: بأنه من أتباع طريقة الفقر والسلوك، وأنه سيد فاضل مكاشَف، وأنه منبع العلوم والمعارف، وأن له فضلاً غير محدود، أنه صاحب مقام وشهود[1].

وقال عنه ابن أبي جمهور: «أنه علاّمة المتأخرين، وصاحب الكشف الحقيقي»[2].

وقال الخوانساري: هو من أجله علماء الظاهر والباطن، وأعاظم فضلاء البارز والكامن»[3]، لكنه خلط في ترجمته له بينه وبين حيدر بن علي التوني، فنسب للآملي ما ينسب للأخير من كرامات خطأ واشتباهاً[4].

ووصفه القمي فقال: «عارف كامل ماهر، من علماء الباطن والظاهر، سيد الأفاضل والمتألهين»[5].

ومدحه الأصفهاني فقال: «كان من أفاضل علماء الصوفية، وكان إمامي

---

(١) مقدمة أسرار الشريعة، ص ٢٩، هامش ١.

(٢) مجالس المؤمنين، ج ٢، ص ٥٢. ويقارن: طبقات أعلام الشيعة، ص ٦٦. وروضات الجنات، ج ٢، ص ٣٧٧، نقلاً عن مجالس المؤمنين. ويلاحظ النص في: ابن أبي جمهور، المجلي، طهران، ١٩١١م. ص ١٩٢. وص ٣٨١.

(٣) روضات الجنات، ج ٢، ص ٣٧٧. وقارن: رياض العلماء، ج ٢، ص ٢٢٢. وينقل العاملي في: الأعيان، ج ٦، ص ٢٧٢، عن الأحسائي قوله: «إن علو مرتبته (الآملي) في علوم الظاهر والباطن، ظاهر كالنور على شاهق الطور».

(٤) روضات الجنات، ج ٢ ص ٣٨٠.

(٥) فوائد الرضوية، ص ١٦٥.

المذهب. فاضل فقيه مفسر محدث، وهو من أعاظم علماء الإمامية»[(١)]، لكنه استدرك بالقول: «ثم إنه كان غالياً في التصوف»[(٢)].

وقال التستري: «أنه من أصحابنا الإمامية المتألهين، وأنه سيد أوحدي..»[(٣)].

ولم يرتض آخرون طريقته، ولا كانوا معجبين بفكره ومذهبه، ناقشه بعضهم في جملة من آرائه، فاعتبر الأصفهاني مثلاً أن مدح الآملي للحسن البصري غريب، وخالفه في اعتباره إياه من تلامذة علي[(٤)].

وقال أيضاً في وصفه لجامع الأسرار: «وله كتاب جامع الأسرار، وقد جمع فيه بين الأقوال المتعارضة المتضادة المناقضة للشريعة الحقة، وفيه فوائد نافعة وحشوٌ كثير من مطالب الصوفية ضائعة»[(٥)].

وقال السيد محسن الأمين العاملي: مناقشاً طريقته ومفنداً مذهبه: «طريقة التصوف إن خرجت عن مجرد الزهد في الدنيا والتفكر في عجائب قدرة الله تعالى فهي من تسويلات الشيطان، وهذا السيد حاول كما سمعت تطبيق شطح الصوفية وأقوالهم المعارضة المناقضة للشرع على ظاهر الشريعة، وما الذي يدعو إلى ذلك؟؟ وما الفائدة منه؟؟ وهل نزلت فيهم آية أو وردت فيهم رواية تقدسهم حتى نحتاج إلى تطبيق أقوالهم على ظاهر الشرع؟؟ وهل جاء التصوف في الشريعة الإسلامية وأمر به صحابي وإمام بشكله الذي ظهر في الإسلام؟؟ كلا وألف كلا.

ومن أدلة غلوه [الآملي] في التصوف شرحه لفصوص محيي الدين [يقصد ابن عربي][(٦)].

---

(١) رياض العلماء، ج ٢، ص ٢٢٢، لاحظ كيف خلط كوهري في: تصوف الشيعة، ص ٢٣، بينه وبين غيره.

(٢) رياض العلماء، ج ٢، ص ٢٢٢. وقارن: م. ن.، ج ٢ ص ٢١٩.

(٣) ينقله الأصفهاني عن مصائب النواصب للتستري، انظر: م. ن.، ج ٢، ص ٢١٩. وقارن وصف البهائي له ومدحه لتفسيره في أعيان الشيعة، ج ٦، ص ٢٧٢.

(٤) رياض العلماء، ج ٢ ص ٢٢٠.

(٥) م. ن.، ج ٢، ص ٢٢١.

(٦) أعيان الشيعة، ج ٦، ص ٢٧٢.

وينقل صاحب كشف الحجب عن السيد دلدار علي الهندي صاحب كتاب الشهاب الثاقب في الرد على الصوفية كلاماً في ذمّه فيقول: «. . . كما صرَّح به آية الله في العالمين، أعلى الله ذكره في أعلى عليين، في الشهاب الثاقب، وقال: إنه [أي الآملي] اختار القول بوحدة الوجود، وأنا منه بريء، وهو ليس من علمائنا الذين يرجع إليهم ويعتمد عليهم. . .»[١].

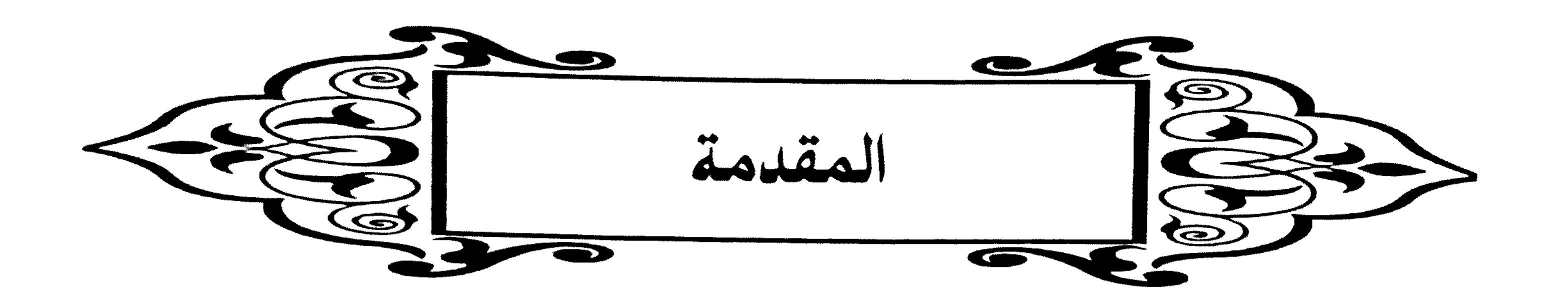
وبالرغم من هذا الذي قيل في حق الآملي، يبقى شخصيته مثيرة للاهتمام، وتجربة تستحق الدراسة والفحص، وظاهرة تستدعي الوقوف عندها وقراءة أبعادها وما تركته من أثر وحركته من أوضاع، وحالة تكشف عن جملة ما كان يضطرب به الواقع الفكري والثقافي للبيئة الإسلامية في القرن الثامن وما سبقه من قرون، وعن ما ستكون عليه صورة ذاك الواقع في القرون التالية.

وإنه لمن المؤكد أن المناحي المعرفية التي شغلت الآملي مدة عمره، وطبعت كل إنتاجه بطابعها سوف تتبدى في صورتها الأعمق في القرون اللاحقة في نتاجات مفكرين صوفيين وعرفاء وشعراء، وسوف تتغذى بها وتتمثلها مدارس فلسفية وتيارات، تشكّل مدرسة أصفهان الفلسفية في القرن العاشر إحدى أكبر مصاديقها على الإطلاق.



(١) كشف الحجب، ص ١٥١. وانظر وصف الكتاب والتعريف بمصنفه في: م. ن.، ص ٣٦٣. يقول: «صنفه في إبطال أقوال المتصوفة في الوجود المطلق واعتباراته، ومطاعنهم وتلبيساتهم والاجتناب عن مشربهم وتحريم الاقتداء بهم وجواز لعنهم والحكم بارتدادهم».





المقدمة

بحث في كتاب

إن إحياء كتاب ومرافقة عالم معنوي من خلال أحد أعماله يستتبع لذة تنسي المرء عناء بحثه وجهده المضني. وكتاب السيّد حيدر الآملي هو نموذج بارز لكتب تستحق أن يصرف المرء السنين عليها فذكر اسم السيّد حيدر الآملي قد جرى على ألسنة الفلاسفة طوال عدة عقود، لكن كتابه هذا بقي مجهولاً بالكامل. ولولا علمنا بأن كتاب السيّد حيدر الآملي قد عانى كباقي كتب الآخرين من الإهمال الطويل للفلسفة الشيعية، لكنّا نعجب من هذا الوضع. لكن رغبة أصدقائنا من الفلاسفة الإيرانيين التي أبدوها تجاه نشر هذا الكتاب، جعلتنا نستجيب لها لتحقق بذلك أحد المطالب الفعلية والحاجات الملحّة.

مؤلفات السيّد حيدر الآملي كانت كثيرة، لكنها لم تلق الإهتمام والتحقيق، ولم يعثر حتى الآن على أكثر من ستة كتب، بعضها كتب باللغة الفارسية والقسم الأعظم منها باللغة العربية، وقد جرى على الكتب العربية لسيد طرستان العظيم نفس الوضع اللائق الذي تحدث عنه المرحوم (و. منيورسكي) «Lingua arbica mente persica» أنها حررت باللغة العربية، لكنها صيغت بأسلوب الحديث الإيراني، مما ينبهنا إلى وجود نوع من الأدب الإيراني باللغة العربية من بين الوجوه المتفاوتة للأدب الإيراني، وقد إنبثق ذلك النوع الخاص من الأدب من بطون مؤلفات المتكلمين والفلاسفة والحكماء والعارفين، من خلال مجموعة مؤلفات كبيرة جداً لا تخفى أهمية أي منها على محقق الفلسفة والعلوم الدينية. ونظراً لأبعاد هذين الكتابين وأهمية المخطوطات لمؤلفاته الأخرى والتي عثر عليها أخيراً، وأهمية العناوين والرسائل التي لم يعثر عليها بعد؛ يمكن الحدس أن أفق وسعة إنتشار مؤلفات السيّد حيدر الآملي قبل العهد الصفوي يعادل سعة إنتشار مؤلفات الملا صدرا الشيرازي في العهد الصفوي. كما أن أهمية مؤلفات السيد حيدر الآملي من الناحية الفلسفية

تعادل أهمية مؤلفات الملا صدرا لهذا من الآن فصاعداً لا يمكن البحث في الفلسفة الشيعية بل وحتى الإسلامية بشكل عام دون الإهتمام بمؤلفات السيّد حيدر الآملي.
ولعل بعض الملاحظات والنظرات المحدودة والخاضعة للأوضاع والأحوال التاريخية، والتي خضعت للترميم والتحليل والغريبة بشكل كامل عن العلماء الشيعة إعتبرت أن المذهب الشيعي في إيران نتاج سياسي للعهد الصفوي. هذه النظرات لا يمكنها أن تحيط بالفيلسوف الباحث في كنه الأمور، أو أن تدرك كيف تصدّت المؤلفات الفكرية الشيعية الكبرى- كمؤلفات الملا صدرا الشيرازي والقاضي سعيد القمي وغيرهما- من تصدّى الخصوصيات والتكوين الداخلي لكل من الطامحين من سلاطين السلالة الصفوية. فيكفي أن نقرأ مؤلفات أولئك الكتّاب لنجد هذه الواقعية بين صفحات تلك الكتب، ولندرك حقيقة أن هؤلاء العلماء وأهل المعنى لم ينعموا في هذا العالم أبداً.

علاوة على ذلك فإنّ مؤلفات حيدر الآملي تدل على أنّ الفكر الشيعي استطاع قبل قرن من العهد الصفوي أن يبني قصراً رفيعاً من الفكر، تصعب دراسة المؤلفات الكبرى للعهد الصفوي دون الإلتفات لما سبقها.

لا شكّ أنّ (الحكمة الإسماعيلية) قد وضعت مؤلفاتها المهمة خلال القرنين الرابع والخامس، ورغم أن هذه البرهة سعى التشيع الإمامي إلى وضع مؤلفات مهمة أيضاً، لكن هذه المؤلفات المهمة شكلت جمعاً لأحاديث وروايات الأئمة، وكان لجمعها هذا أهمية خاصة في مستقبل الفكر الشيعي وعلينا أن نتذكر هنا أنّ النظرية القائلة - بأنّ الحكمة الإسلامية قد بينّت في المؤلفات الإسماعيلية على أفضل وجه - كانت مقبولة لمدة طويلة.

إني أعتقد أنه يمكن القول اليوم بأن أهمية الحكمة الشيعية الإمامية لا تقل أبداً عن الحكمة الإسماعيلية، ومن الأفضل من الآن فصاعداً أن تدرس تلكما الحكمتين كتوأمين. ولا نريد بذلك أنّ العرفان والحكمة الشيعية الإمامية قد ظهرا فجأة مع نشر مؤلفات السيّد حيدر الآملي. فكثير من أحاديث الأئمة- وخاصة الأحاديث التي إنكب حيدر الآملي على تفسيرها وشرحها بشغف خاص - تحوي على الحكمة الشيعية كلها.

وعلاوة على ذلك فإنّ الأقوال التي نقلها السيّد حيدر في كتبه يمكنها أن تشكل مشروعاً لتاريخ الفلسفة برواية حيدر الآملي. ومشروع تاريخ الفلسفة هذا سيكون تاريخاً إنتقادياً بدقة، ذلك لأنّ السيّد حيدر يشير إلى كيفية عودة المفكرين الكبار إلى العرفان الشيعي الذي كان يدرّسه ليتجنبوا بذلك الإفلاس الفلسفي.

ويظهر إسم العلاّمة نصير الدين الطوسي (المتوفي ٦٧٢) في مرتبة عالية دون شك. وكان السيّد حيدر تلميذاً لابن أفضل تلامذته أي العلامة الحلي (المتوفى ٧٢٦). ومن بين علماء الشيعة الآخرين الذين أشار إليهم السيّد حيدر الآملي ورد إسم: (صدر الدين تركه الأصفهاني) كفرد برز من بين أقرانه. وكان (صدر الدين) هذا فيلسوفاً وعارفاً عاش قبل السيد حيدر الآملي بزمن قصير، وألّف (رسالة في الوجود المطلق).

وفي حيّز آخر اعتبرنا أن تطور الفكر الشيعي الإمامي تمَّ في أربعة مراحل هي[1]:

١ - مرحلة الأئمة المعصومين ومن تبعهم دون واسطة.

٢ - مرحلة بدأت بالكليني (المتوفى ٣٢٩هـ) وانتهت بالعلاّمة نصير الدين الطوسي.

٣ - مرحلة بين نصير الدين الطوسي وحتى الميرداماد ومدرسة أصفهان في القرن الحادي عشر.

٤ - وأخيراً مرحلة ما بعد الميردامار حتى زماننا هذا حيث تبدأ مرحلة جديدة خامسة.

ورداً على السؤال الذي يقول: ما هي أهم حادثة شكلت معلماً لشكل ومضمون الفكر الشيعي في المرحلة الثالثة؟ يبدو أنه يمكن القول بخلاصة: أنّ تلك الحادثة هي إدغام: (ابن عربي) في الفكر الشيعي.

ويبرز سؤال آخر وهو: إلى أي حدّ تأثر فكر ابن عربي بالفكر الشيعي؟ فقد ذكر (عثمان بن يحيى) مائة وخمسين شرطاً على (فصوص الحكم) منهامائة وثلاثون

---

(١) راجع كتابنا.
Histoire de la philosopgie islamique,panis, Gallimand 1964 vol. LP.54-6..

شرحاً قام بها الإيرانيون. هذا الأمر يؤكد الواقعية التي طغت على تاريخ الفكر الإسلامي، ولا يمكن فهم تاريخ الفلسفة الإسلامية بشكل كامل إلاّ من خلال إجراء التحليل التطبيقي لهذه الشروح.

في الرسالتين اللتين وردتا في هذا الكتاب يبدو حيدر الآملي كأحد أهم الذين عملوا على هذا الإدغام بشكل مؤثر (أي خلال مرحلة ما بعد ابن أبي الجمهور) فكل فلسفة وجود حيدر الآملي ونظريته حول التوحيد الباطني والظاهري وحول الأسماء الإلّهية ومظاهرها جاءت إستمراراً لتعليمات ابن عربي، ولكن في الموارد وهي مسألة النبوة والإمامة والتفضيل بينهما فإنّ حيدر الآملي رغم إحترامه العميق لابن عربي، لكنه انتقده فيها بشدّة. وهي قضية تتعلق بخاتم الأولياء وشخصيته، وسنستعرضها لاحقاً.

وعليه فرغم أن حيدر الآملي يطرح العلاقة بين التصوّف والتشيّع بأسلوب تقليدي من خلال الشواهد التي يوردها، لكن بالنظر إلى المقولات الرائجة في معرفة الإسلام غربياً يمكن القول أن هذا الأسلوب غاية في الأصالة. فالتعريف الشيعي لخاتم الولاية يضعضع بعض الخطوط الأصلية لتعليمات ابن عربي التي أدغمت في الحكمة الشيعية، لهذا فإنّ مؤلفات السيد حيدر الآملي تظهر اللحظة الحساسة في هذا التحوّل.

تبدو أهمية مؤلفات حيدر الآملي من زاوية تصدّيها لإصلاح مسألة الإمامة والنبوة في تعليمات ابن عربي وتضعنا أمام السؤال الذي طرحناه آنفاً وهو: كيف تم إدغام تعليمات ابن عربي - التي طرحها في كتبه بأبعاد كبيرة جداً - بسهولة في الفكر الشيعي، بحيث بدا الأمر وكأن الفكر الشيعي قد اعتبر تعليمات ابن عربي جزءً منه؟ وهي المسألة التي يجب أن تجيب عليها البحوث اللاحقة في الفلسفة الشيعية. وتطرح هذه المسألة سؤالاً حول بدايات دراسة ابن عربي ومصادره، وتشير إلى نفوذ وتغلغل التشيّع الإسماعيلي والإمامي في عرفان الأندلس، وخاصة عند: (ابن مسرّة) ومدرسة المريا، حيث تمكّن (آسين بالاسيوس) أن يعيد بناء أساس تعاليمهم من خلال نقل كلام ابن عربي.

ويحسُّ بوجود دائرة كبيرة كانت قائمة آنذاك، فالفكر الشيعي الذي كان قد تغلغل

حتى الحدود الغربية للعالم الإسلامي؛ عاد مع ابن عربي إلى المشرق، وعلة ذلك أن ظروف الأندلس لم تكن مناسبة لاحتضان العلماء وأهل الحكمة ولعل اضطرابات المغول هي التي وقفت حائلاً أمام بلوغ ابن عربي إلى أرض إيران. لكن بعد قرن واحد من موت ابن عربي في (دمشق) توجه: سيد إيراني من موطنه في (آمل) وسواحل بحر قزوين متوجهاً نحو العتبات العالية في العراق، ليكون هناك أبرز شارح لنصوص ابن عربي، وهو الشارح الذي وجه عرفان الشيخ الأكبر بأفضل وجه وحسبما تصوّر أنه كان يريد أن يصل به.

هذه الملاحظات المجملة التي أوردناها كافية لتوضح سبب الإهتمام الخاص للمحقق بالفلسفة الشيعية بمؤلفات حيدر الآملي. ونضيف أن المقياس الذي أفرزته الإشارات الواردة في مؤلفات حيدر الآملي والتي تمكن القارىء من التعرف إلى شخصيته، فهي تظهر وجهاً معنوياً أكثر جاذبية. ولا ضير هنا أن نشير إلى مراحل البحث التي أدت لاكتشاف مؤلفاته، وأفضل أسلوب لتوضيح ذلك أن نستعرض ظروف ومطابقة هذا الكتاب، وذكر الوضع والجهود المطلوبة منا.

إنّ الإهتمام بمؤلفات ابن عربيٰ والفكر الشيعي جعلنا منذ سنوات حساسون تجاه نقل الأقوال والإرجاعات المتفرقة لحكماء الشيعة. يبدو أن مؤلفات السيد حيدر الآملي تقف على رأس المؤلفات التي يجعل من الممكن الإقتراب من الفكر الشيعي الذي يعدّ مظهراً للفلسفة والمعنوية الإسلامية الإيرانية. ففي إيران تفاعل الفكر الشيعي في حين كان مجهولاً في دول أخرى وقد سعينا إلى تأمين صور لعدة مخطوطات تم إكتشافها، لكننا لم نعثر على أي كتاب في إيران خلال تحقيقاتنا سوى هاتين الرسالتين. وقد خصصنا دروسنا في قسم العلوم الدينية لمدرسة تتبعات العليا بجامعة السوربون لتوضيح مؤلفات حيدر الآملي.

الكتاب الأول هو جامع الأسرار في بيان كيفية التوحيد، والكتاب الثاني في النبوة والولاية ومقدمة شرح فصوص ابن عربي الذي يبحث في موضع خاتم الأولياء بتفصيل أكثر [١]، من ناحية أخرى قمنا بتوضيح بعض الوجوه الملفتة من الفلسفة

---

(١) cf.Ecole pratique des hantes études, Section Sciences religieuses, Annuaire 1916-62,p75 sq; 1962-63,p.77 sg; 1963- 64.p.77sq..

الشيعية لدى حيدر الآملي خلال المحاضرتين اللتين ألقينا في حلقة أورانوس بآسكونا - سويسرا[(١)] وجوه «الفعلية» (actualitée) في المعنى الفلسفي) بحيث كان إبراز تلك الوجوه خلال المحاضرة التي ألقيتها في جامعة طهران كافياً للبحث في «فعلية الفلسفة التقليدية في إيران»[(٢)].

أخيراً فإنّ إعداد (Mèlanges offerts ahenri Massè) شكّل فرصة لنقدم طرحاً عاماً قد فقد أهميته اليوم[(٣)]. ففهرس وترجمة مؤلفات حيدر الآملي لم يتجاوزا يوم تقديم الدراسة عام ١٩٦١م عشرة مؤلفات. ويكفي للإطلاع على مدى التقدم الحاصل أن نقارن بين ما أعدّ سابقاً في هذا المجال وما سيقدم هنا.

وسنشير لاحقاً للوضع الذي كنّا فيه آنذاك. وإننا مطمئنون إلى ضرورة تدقيق هذين الكتابين. لكن إهتمامات ضرورية أخرى لم تسمح لنا بالقيام بهذا الأمر لوحدنا. فما أقصر الحياة! فها هو السيد (عثمان يحيى) الذي شارك في جميع دروسنا في مدرسة التتبعات العالية حول حيدر الآملي، والذي شاركنا فكر أهمية مؤلفات حيدر الآملي وطلب منا التعاون معه. وكان السيد عثمان يحيى معروفاً قبل ذلك كمتخصص في مؤلفات ابن عربي. بسبب بحوثه السابقة فيها، وبسبب أبحاثه تلك كان أهلاً لتدقيق في كتاب لم تخلو أية صفحة فيه من أثر الشيخ الأكبر، وقد قضت هذه المتابعة الثمينة على كل تردد. فاستطعنا أن ننسق جهودنا، وقد تصدّى السيد عثمان يحيى للأبحاث التي إستحالت عليَّ. قبل عشرة أعوام كلّفت من قبل المركز الوطني للأبحاث العلمية (C.N.R.S) بمهمة برفقة السيد عثمان يحيى للبحث في خزانة المخطوطات التركية، فوجدنا أول مجلد من تفسير حيدر الآملي العظيم على فصوص الحكم لابن

---

(١) cf Le combat spirituel du shi'isme (Eranos- Jahrbuch xxx), Zurich 1962 p. 69- 125 et De la philosophie prophétique en islam Iranien, Livre IV ch.I..

(٢) محاضرة في كلية الآداب بجامعة طهران، ١٣/ ١١/ ١٩٦٧م النص الفرنسي في: Acta Iranica 1, Téhéran, Bibliothéque Impériale pahlavi 1968. والترجمة الفارسية في برزگ نادر زاد في المعارف الإسلامية، العدد٤، طهران ١٩٦٨م.

(٣) cf, notre étude Surseyyed Hayda Amoli, théologien shi'ite du soufisme in Mélanges Henri Massé publiés par L'Université de Téhéran 1964.

عربي، وكان هذا الإكتشاف مهماً جداً لأنه قد أورد في مقدمة شرح السيد حيدر وترجمته فهرساً بمؤلفاته، ورغم أن هذا الفهرس ليس شاملاً، لكنه في الحد الأدنى يحل مشكلة أصالة المؤلفات التي أوردها حيدر الآملي. ودخل السيد عثمان يحيى في الجزئيات وهو ما لم يتسنّ لي، فاستطاع أن يرمم الفهرس الذي أعدّه المؤلف.

وظهر اكتشافين آخرين بعد هذا الإكتشاف بيمن المهمة التي أوكلها المركز الوطني للأبحاث العلمية لزميلنا في إيران والعراق. حيث عثر السيد عثمان يحيى في النجف بإشارة من الشيخ آقابزرك الطهراني وفي مكتبة الغروي على نسخة من التفسير العرفاني الكبير لحيدر الآملي على القرآن وبخط المؤلف. وهو كتاب مهم في التفسير العرفاني والتأويل الشيعي الصوفي. وقد أضيف إلى هذه النسخة الخطية عدة مجلدات من رسالة متأخرة أخرى (٧٨٧هـ) بخط المؤلف تحت إسم: (رسالة العلوم العالية) وهي تضم مجملاً من حكمته. في حين أن المجلّد الأول من التفسير لم يعثر عليه. واستناداً إلى الإشارات التي جمعت من مكتبة النجف عثر السيد عثمان يحيى على هذا المجلّد في مدينة قم بإيران (تشرين الأول ١٩٦٨م) في مكتبة آية الله السيد شهاب الدين المرعشي النجفي. وانتهز هذه الفرصة لتوجيه الشكر له لسماحه بإعداد ميكروفيلم عن ذلك المجلّد، وسنذكر توضيحات أخرى حول ذلك في ترجمة كتبه.

عندما يقرأ المرء ترجمة حياة مؤلف قد سطرها بنفسه وتبرز مؤلفاته وتتألق، فإن المرء يرغب أن يطلع على المحيط الذي عاش فيه ذلك المؤلف، وهو أمر ممكن بالنسبة للفلاسفة المتأخرين. فعلى سبيل المثال: يمكننا العثور على المدرسة التي درّس فيها كل من: الميرداماد أو الملاّ صدرا وتلقى فيها الدرس طلابهم. لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لحيدر الآملي، فسنرى تباعاً أن أكثر من حادثة واحدة جعلت حياة حيدر الآملي تنقسم إلى قسمين: حيث قضى حيدر الآملي القسم الأكبر من شبابه في مدينة آمل بولاية طبرستان، وبسبب تعقيدات الحياة وحملة المغول لم يبق أثر من الآثار القديمة، ورغم ذلك فإنّ مدققي كتاب حيدر الآملي رغبوا بالسفر سويّاً إلى (آمل) وسواحل بحر قزوين، ونوجه هنا شكرنا الخالص للسيد (محمد تقي دانش بجوه) رئيس المكتبة المركزية لجامعة طهران وهو من أهل آمل، حيث استقبلنا في مدينته، وأرشدنا إلى أزقتها القديمة وبيوتها، وكان من قبل قد رافقنا إلى مدينة قم

للبحث عن مخطوطة المؤلف. وكذلك شكرنا للسيد (هوشنغ بشارت) الذي رافقنا بمحبة في سفرنا إلى آمل.

للوصول إلى مدينة آمل لا بد من المرور من الطريق الجديد الذي افتتح أخيراً، ثم العبور وسط سلسلة جبال البرز لبلوغ آمل على بُعد مائتي كيلو متر شمال مدينة طهران. وكان هدفنا هو البحث عن آثار السيد حيدر الآملي وأماكن تواجده وما شاهده خلال حياته. هناك مقام: (سه سيد) أو (مير حيدر) وهي مقبرة تقع داخل بستان فيه ساقية ماء، وقد بنيت في القرن السابع أو الثامن. ويحتمل أن يكون السيد حيدر قد عرف هذه المقبرة، وليس هناك إحتمال كهذا بالنسبة لأي بناء آخر. فسواحل نهر (هزار رود) الذي يعبر من آمل قد بنيت بشكل محبب، لكن ترى كيف كانت عندما كانت آمل مركز إمارة طبرستان؟ لا شك أن الذي بقي هو المنظر العام للمدينة: غابة تغطي سفوح الجبال، وطريق يمر منها ليصلها بهضاب مازندران الواسعة، طراوة تمسح بيدها الصدر الجاف لصحراء إيران الشمالية، وسماء تتغير دوماً مع تغير البحر. هذا ما كان يراه السيد حيدر الآملي مع بعض الإختلاف البسيط ولعلنا لن ندرك أصداء إعترافات ذلك الشاب النشط الذي أعرض عن كل شيء وهو في عقده الثالث ليضحي (الزائر إلى الله) إلاّ لو طالعنا هذه المواقع برفقته.

تزامن هذا القرار مع لحظة مؤلمة مرت على تاريخ مازندران (والتي تشمل طبرستان الإسم الذي يطلق حينها على المنطقة الجبلية منها كما ورد في تذكرة السيد حيدر الآملي المازندراني) وبالإلتفات إلى الوضع العائلي والأعمال التي كان يزاولها حيدر الآملي خلال شبابه في بلاط الأمير، فإن وضعه كان مرتبطاً مع وضع أغنى وأرفع الأسر الحاكمة في مازندران أي أسرة الباونديين.

وعندما يذكر حيد الآملي ذكرياته عن الأمير الذي كان في خدمته كان يصل بنسبة إلى الساسانيين متفاخراً بذلك. كما أنه يذكر الأسماء الإيرانية الأصل لهذه الأسرة والمشتقة من أسماء أبطال ملحمة وطنية، ويورد أسماءهم الإسلامية إلى جانب تلك الأسماء.

نذكر هنا عدة ملاحظات نسعى من خلالها إلى وضع المخطط العام لترجمته- التي سنوردها آنفا - بشكل أدق:

حيدر الآملي يذكر أسماء وحوادث لا تتطابق كلياً مع ما ذكر في مصادر أخرى. طبعاً لا بد من الإقرار أن المفروض هو أن تكون ذكريات حيدر الآملي عنها دقيقة. لكن لا يمكننا هنا الخوض في هذا المجال. وسلالة الباونديين حكموا طبرستان لسبعة قرون (٤٦-٧٥٠هـ) ويتصل نسبهم بأنوشيروان وبرويز ويزدجرد إلى الساسانيين. وتنقسم هذه السلالة إلى ثلاثة فروع حسب المتواتر. الفرع الثالث: (كينه خواريه) حكم خلال الأعوام (٦٣٥-٧٥٠) وكان إسم جدّهم حسام الدولة أردشير وآخر حكام السلالة كان فخر الدولة حسن بن شاه كيخسرو بن يزدجرد، وقد حكم لمدة ستة عشر عاماً (٧٣٤-٧٥٠) وهو الأمير الذي دعا السيد حيدر الآملي إلى بلاطه، ثم نصبه على الوزارة. وقد ذكر السيد حيدر هذا الأمير ووالده بالخير. وكان فخر الدولة قد حل محل أخيه أشرف الملك بن شاه كيخسرو، الذي حكم لمدة ستة أعوام عهداً قصيراً لكنه وافراً، ومات عام ٧٣٤هـ. حينئذٍ كان السيد حيدر شاباً عمره ١٤ أو ١٥ عاماً، لذلك لا عجب أن ذهنه قد طبع ذكريات دقيقة عن ذلك الأمير.

وكان فخر الدولة قد تزوج من أخت كيا افراسياب الشلبي. وقام كيا افراسياب بتوجيه تهمة كاذبة على فخر الدولة وأمام العلماء، ليمهد السبيل لقتله، وفي (٢٧/ محرم/ ٧٥٠هـ) قتل فخر الدولة على يد أخي زوجته أو على يد اثنين من أتباعه. وترك فخر الدولة أربعة أبناء وابنة واحدة، وكان أكبرهم يعرف: بملك كاووس، وكان عمره عند موت أبيه ستة أعوام.

ولم يتمكن مؤيدو فخر الدولة من السيطرة على آمل، فأسس اسفنديار سلالة جديدة في مازندران عرفت بسلالة: بني اسفنديار.

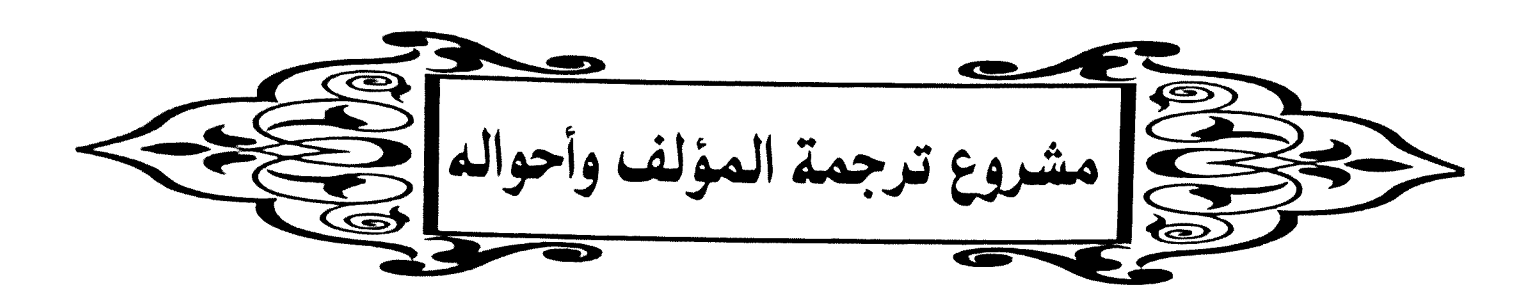
هذه الجزئيات ترشدنا أكثر إلى إكتشاف مؤلفات وشخصية السيد حيدر الآملي، ذلك لأنه ومن العجيب جداً، أنه خلال العام ٧٥٠ هـ، والذي قتل فيه الأمير وزالت فيه سلالة الباونديين، قرر حيدر الآملي أن ينهي حياته الموفقة الدنيوية وأن يتوجه إلى الله. ومع ذلك فإنه رغم حديثه عن جزئيات الأوضاع والأحوال المعنوية والتوجه إلى الله، إلاّ أنه لا يشير مطلقاً إلى الحادثة المؤلمة التي أدت لذهاب سلالة الباونديين.

فمن خلال التدقيق بتوضحياته حول شرح الأحوال يمكن الاستنباط أن قرار حيدر الآملي قد إتخذه قبل فترة وجيزة من الحوادث المؤلمة وخلال عهد فخر الدول أمير

آمل، وفيما بعد عندما يدون حيدر الآملي تقريره عن سيرته ومذكراته فإنه يذكر الأمير باحترام كبير، دون أن يتطرق للحوادث النهائية. وكأن هناك فاصلاً بينه وبين تلك الحوادث. فهل عاد حيدر الآملي حينها إلى مسقط رأسه مازندران التي تعرضت حينها لحملات خيالة تيمورلنك؟ فليس هناك أي خبر حول موته، لكنه غادرنا بعد كتابة رسالة العلوم العالية عام ٧٨٧هـ.

هذه المقدمات تمهِّد الطريق لكتابة سيرة وأحوال حيدر الآملي التي سترد آنفاً. وقد قام السيد عثمان يحيى في مقدمته بترميم وذكر فهرس كتب حيدر الآملي مرحلة بعد أخرى. وقد أورد فهرساً غير كامل حسبما أورده المؤلف نفسه في مقدمة شرح فصوص الحكم لابن عربي، وجاء بتكملة له من التذكرات. كما قدم السيد عثمان يحيى تقسيماً زمانياً وموضوعياً لهذه الكتب، ثم فهرساً عاماً مبوباً لها. سنورد خلاصة لهذا الجهد اللازم والدقيق في قسم التعريف بالكتب. وسنذكر في هذا القسم بعد عنوان كل أثر توضيحاً مفصلاً حوله.





مشروع ترجمة المؤلف وأحواله

عندما لم تكن هناك مصادر متوفرة سوى التذكرات كانت معلوماتنا حول حياة حيدر الآملي قليلة جداً. ولكن بوجود التقريرين اللذين دوّنهما حيدر الآملي بنفسه حول سيرته زادت معلوماتنا أكثر. التقرير الأول من الناحية الزمانية سميناه (Autobiographie A) قد ورد في نهاية مقدمة التفسير العرفاني الكبير: (المحيط الأعظم) والذي أنهاه حيدر الآملي عام(٧٧٧هـ). وقد ذكرنا آنفاً كيف عثر السيد عثمان يحيى على المجلّد الأول من هذا التفسير بخط المؤلف بمساعدة سماحة آية الله السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، والمجلّد لا يزال في مدينة قم حالياً.

هذا التقرير يضم تفاصيل سنوات الدراسة والشباب، والأسباب التي دفعت حيدر الآملي لاتخاذ قراره المهم ليكون الزائر الأوحد الذي يغادر أرض إيران متوجهاً إلى الأماكن الشيعية المقدسة في قم. وللأسف الشديد فإن هذا التقرير ينتهي بهجرة المؤلف إلى مكة متناولاً فيه جزئيات إقامته الطويلة في أصفهان. وبما أن التقرير جاء ناقصاً في نسخة المؤلف نفسه لذلك ينقطع الأمل بالعثور يوماً ما على تتمته. فهل بقي التقرير ناقصاً ولم يدوّن تتمته؟ على أي حال فإنّ هذا التقرير الناقص يحرمنا من المعلومات التي كان ينوي حيدر الآملي أن يسطّرها حول الجزء الثاني من حياته.

والتقرير الثاني الذي أطلقنا عليه اسم: B (Autobiographie) قد ورد في مقدمة نص النصوص أي: تفسير فصوص الحكم ابن عربي، والذي فرغ منه حيدر الآملي عام (٧٨٢هـ) في النجف. يتحدث فيه حيدر الآملي بإيجاز عن ذكرياته في مرحلة الشباب، والأزمة الروحية التي دفعته لزيارة الأماكن المقدسة. لكن هذا التقرير كامل، ويضمّنه المؤلف نشاطاته الكتابية وفهرساً بكتاباته وهو أمر مهم جداً لدينا. وبالجمع بين هذين التقريرين يظهر لنا مؤشر حياة السيد حيدر جلياً. وبالتعاون مع السيد عثمان يحيى قررنا وجود تمايز بين المرحلة الإيرانية إلى توجهه إلى الله عام (٧٥٠هـ) والمرحلة العراقية بدءاً بدخوله إلى الأماكن المقدسة عام (٧٥١هـ).

وبالنظر إلى ملاحظات العلوم المكتبية فإنّ المرحلة العراقية تنقسم بدورها إلى قسمين: وعليه ينبغي أن ترسم ثلاثة مراحل متمايزة في حياة حيدر الآملي، سنطلق عليها حسب الترتيب أسماء أ، ب، ج.

وإستناداً إلى التقرير الثاني (B) يبدو لنا أن ولادة السيد حيدر في آمل كانت عام (٧١٩هـ أو ٧٢٠هـ) باختلاف عام واحد، وإن كان الإحتمال الأقوى هو (٧٢٠هـ).

السيد حيدر بن علي بن حيدر عبيد الحسيني الآملي يعود نسبه إلى واحدة من الأسر العلوية الشهيرة في آمل، وكان سكان آمل منذ البداية من المسلمين الشيعة. إذا أسقطنا العام الفاصل بين حركته من آمل عام (٧٥٠هـ) ووصوله إلى الأماكن الإسلامية المقدسة عام (٧٥١هـ) يمكننا القول أن المرحلة الإيرانية للسيد حيدر كانت بين (٧٢٠ - ٧٥٠هـ) وفي عام (٧٥٠هـ) غادر السيد حيدر. وفي نفس العام قُتل أميره. إنه يقول أن عمره كان حينها (٣٠) عاماً. وخلال هذه الفترة تلقى السيد حيدر تعليمه الأساس، واكتسب تجربته في الحياة. فهو يقول في جامع الأسرار أنه كان منذ بداية شبابه، بل وحتى في طفولته مقبل بشغف على مطالعة عرفان الشيعة الإمامية الإثنا عشرية. وقد رسم التقرير الأول الخطوط الأساسية لشخصيته الأخلاقية والمعنوية على أفضل وجه، وسنوجز فيما يلي ما جاء فيه:

بسبب تعلقه بأسرته الهاشمية لذلك بدأ السيد حيدر الآملي بسرد شجرة نسبه المتصلة بالإمام الرابع الإمام زين العابدين عليه السلام ابن الإمام الحسين عليه السلام شهيد كربلاء. في هذه المخطوطة وكجامع الأسرار أيضاً يقول حيدر الآملي أنه قام بدراسة ظاهر الشريعة وتحصيل عقائد أجداده المعصومين منذ طفولته وحتى بلوغه الثلاثين، ثم تلقى العلوم المعقولة والمنقولة. بدأ دراسته في (آمل) ثم توجه إلى (استراباد خراسان) ومن هناك إلى (أصفهان) حيث أقام فيها لمدة. واستمرت دراسته مدة (٢٠) عاماً، وعليه فقد عاد السيد حيدر إلى مسقط رأسه(آمل) في عمره (٢٥) عاماً. وحينها كان حاكم طبرستان فخر الدولة حسن بن شاه كيخسرو بن يزدجرد، وقد ذكرنا فيما مضى موقعه من سلالة الباوندين(1). وبشير السيد حيدر بصراحة إلى

---

(١) حول مجموع هذه الحوادث راجع: M. Rabino, Les dgnasties du Mazandaran in Journal asiatique, tome 228 juilsept, 1936p. 409-437. وكذلك ص ٤١٦ شجرة نامه باونديان. وكذلك راجع مقالة فراى در دانشنامه اسلام التدقيق الثاني لذيل باوند، والترجمة=

أصل هذه السلالة، ويفخر السيد حيدر بأن نسب هؤلاء الأمراء يعود إلى الملوك الساسانيين الإيرانيين إلى ما قبل الإسلام، مما يبرز وجود الوجدان الإيراني لديه، كما أن وفاء الشيعة الإيرانيون إلى نسب الأئمة ولأصل الملوك الإيرانيين القدامى لا يعود إلى إدعاءات سياسة صرفة كما يدعي البعض.

قام الملك فخر الدولة بتكريم السيد حيدر كثيراً، وجعله في زمرة المقرّبين منه وأمناء سرّه، ثم عينه وزيراً له[(١)].

يبدو أن السيد حيدر قد استغل حينها كل مواهب هذه الحياة من وضعه الأسري والفخر والثروة والسلطة والعلاقات والإقامة الفاخرة والأصدقاء والأعوان الموالين، مما يدل أنه لم يكن محروماً من أي شيء، لكنه روحياً كان يحس بالمرارة والآلام وهو في قمة حياة مرفهة حيث يقول: (واستمر الأمر على هذا المنوال حتى غلب في باطني دواعي الحق، وكشف الله لي فساد ما أنا فيه من الغفلة والجهل والنسيان، وظهر لي ضلالي عن طريق الحق، والإستقامة على سبيل الزيغ والطغيان. فناجيت ربي في السرّ، وطلبت منه الخلاص عن الكل، وحصل لي شوق تام إلى الترك والتجريد والتوجه إلى حضر الحق بقدم التوحيد، وما كنت أتمكن من هذا في صحبة هؤلاء الملوك، ولا في الوطن الأصلي المألوف مع صحبة الإخوان والأصحاب).

زائرنا يتخلّى عن كل الدنيا وزخارفها مكتفياً بالخرقة، متوجهاً نحو زيارة الأماكن المقدسة للتشيّع، ثم إلى بيت المقدس ومكة، ويمرّ حيدر الآملي في طريقه على

=العربية لكتاب زامبور: كتاب معجم الأنساب والأسرار الحاكمة في التاريخ الإسلامي لإدوار فون زامبور. الترجمة العربية، القاهرة، ج٢، ص٧ ـ ٢٧٦ -M. Rabino, op. cit.p. 435 .
.NO.31 et 33.

علاوة على حيدر الآملي يذكر جدهم حسام الدولة اردشير الذي امتدحه شعراء مثل: ظهير الدين فاريابي، وسراج الدين قمري (رابينو، نفس المصدر، ص٤٣٠).

(١) يذكر حيدر الآملي أنه كان في خدمة أخوة الحاكم أيضاً: جلال الدولة اسكندر، وشرف الدولة جُستهم. في شجرة الأنساب الملحقة بكتاب رابينو (ص٤١٦) ذكر اسم شرف الملك رستم فقط. الذي حكم لمدة ستة سنوات فصلت بين عهدي شاه كيخسرو وفخر الدولة.

قزوين وري وأصفهان، وكان قد قضى مدة من الزمان مقيماً في أصفهان من قبل مستفيداً فيها من مواهب شبابه، لكن السيد حيدر هذه المرة لا يتلقي إلاّ الصوفيين، ويعقد عهد المودّة مع أهل الفتوة. وقد تعلق السيد حيدر بشكل خاص بالشيخ نور الدين الطهراني[١]. (هذا الشيخ كان عارفاً كبيراً وزاهداً عدّه من خواصه. . .) وللأسف فإنّ التقرير ينتهي بهذه العبارة الناقصة، وكما أسلفنا لا نتوقع العثور على تكملته في مكان آخر.

وحول التجارب الروحية للسيد حيدر في أصفهان أيضاً لم نعثر على معلومات كثيرة، عدا منامين سنشير إليهما لاحقاً، يفهم من التقرير الثاني B̀ أنهما يعودان إلى مرحلة بعد إتخاذه قرار الهجرة، يظهر منهما ما سيقوم به السيد حيدر في المرحلة الثانية من حياته.

وهكذا تبدأ المرحلة العراقية أو القسم الأول من المرحلة الثانية B̀ فيتوجه السيد حيدر إلى مكة والمدينة وينوي الإقامة هناك(ذكر أن تاريخ هذه الزيارة عام ٧٥١هـ) لكن مرضه يجبره على العودة إلى العراق. وبما أن تاريخ تدوين الرسالة الثانية كان عام (٧٦٨هـ) في النجف، لذلك فإنا نعتبر هذا التاريخ مؤشراً لتعيين المرحلة العراقية الثانية (المرحلة٢) بالنسبة لتحديد كتبه كحد أدنى.

يقول كتّاب التذكرة[٢] في بداية القسم الأول من هذه المرحلة تلقّى السيد حيدر دروسه على الشيخين الكبيرين مولانا نصير الدين الكاشاني الحلي (متوفى (٧٧٥هـ)

---

(١) هذا الشيخ من أهالي طهران الحالية لإيران. يوضح حيدر الآملي أن طهران هي (قرية قرب بوابة أصفهان نحو الصحراء، ويطلق على سكانها تِران) وقد سألنا كثيراً عن تلك القرية، لكن محلها الدقيق لم يتضح. ويقال أن مسجد الجمعة موجود في محلة يقال لها تِران. لكن المسجد احترق عام ١١٢١م وأعيد ترميمه ويحتمل أن حيدر الآملي قد زاره خلال إقامته في أصفهان، لكنه لم يصرّح أنه المكان المقصود.

(٢) محمد علي التبريزي ذكر المؤلف مرتان. ريحانة الأدب، ج١، ص٣٠، الرقم ٥٤. وج٢، ص٤٩٨، الرقم ٨٩٢، والمرة الثانية أكثر تفصيلاً من الأولى (التبريزي لا يوضح هل يتذكر المرة الأولى أم لا؟) راجع القاضي نور الدين الشوشتري. مجالس المؤمنين، الطبعة الحجرية، بومباي، ص ٢٥٥-٢٥٦، الخونساري، روضات الجنات، طهران ١٣٠٦هـ، ص ٢٠٣-٢٠٤. طرائق الحقائق، ج١. ص١٠٤-١٠٥ وص ١٩٩.

والشيخ فخر الدين محمد بن حسن بن مطهر الحلي المعروف بفخر المحققين (٦٨٢-٧٧١هـ)[١].

فخر المحققين هو ابن العلامة الحلي (٦٤٨-٧٧١هـ) وقد ذكرناه آنفاً، وقد تلقى علومه عند نصير الدين الطوسي والكاتبي القزويني، وكان أحد أساطين الكلام الشيعي في زمانه[٢].

في عام (٧٦١هـ) حصل السيد حيدر على إجازة من فخر المحققين[٣]. ودوّن: رسالة رافعة الخلاف (الرقم ١٦ في الفهرس) بطلب من فخر المحققين، وقضى مدة في مكاتبته العلمية (الرقم ٣١ من الفهرس) وهذه المعلومة الوحيدة المعتبرة في فهرسة كتب السيد حيدر وهي ما أوردها السيد حيدر نفسه في تقريره الثاني. ونشير إلى أن آخر تاريخ يعود لتحريره رسالة العلوم العالية عام (٧٨٧هـ) وكان عمره آنذاك ٦٥ عام شمسي (٦٧ عام قمري) ولا نملك أية معلومات عن حيدر الآملي بعد هذا التاريخ ولا ندري متى وكيف غادر هذه الدنيا.

صحيح أن زمان تدوين الكتب جاء في بداية تدقيق هذا الكتاب ضمن شرح أحواله وهو أمر مهم بالنسبة لنا، وسنذكر آنفاً كيف يمكن تقسيم كتب السيد حيدر إستناداً إلى هذه المعلومات لكن عندما نتحدث عن شخص إستثنائي كالسيد حيدر الآملي فإن أيّ توضيح حول كتبه لا يشتمل على إشارة ولو مجملة حول شخصيته بحيث تتجلى روحه من خلال تلك الكتب سيكون توضيحاً ناقصاً. لذلك فإننا من خلال التقريرين اللذين يبينان الآفاق المعنوية لحياته وفكره نضيف فقرات من الكتاب هذا، لتقوم هذه الفقرات بتبيان هدف وأسلوب السيد حيدر، ليتضح لنا من خلال ذلك أنه كان نموذجاً بارزاً للإسلام الشيعي في القرن الثامن، بل شكّل الحكمة الخالدة (PHilosophia Perennis) أيضاً.

ذكرنا آنفاً أن التقرير الثاني (B) الذي ورد في مقدمة شرح فصوص الحكم لابن

---

(١) مكرر- فقيه ومتكلم إمامي. ريحانة الأدب، ج٤، ص٢٠٢، رقم ٣٥٩.
(٢) ريحانة الأدب، ج٤، ص١٩٧-١٩٩، رقم ٣١٩.
(٣) نفس المصدر، ١٠٦-١١٦، رقم ١٩٠.

عربي جاء فيه أن السيد حيدر الآملي قد أنهاه عام(٧٨٢هـ). وكان عمر حيدر الآملي حينها(٦٢) عاماً، وقد مضى (٣٢) عاماً على مغادرته لمسقط رأسه. يقول فيه السيد حيدر:

(إن الله تعالى لمّا أمرني بترك ما سواه، والتوجه إلى حقّ التوجه[1]، ألهمني بطلب (كذا) مقام ومنزل أسكن فيه وأتوجه إلى عبادته وطاعته، بموجب أمره وإشارته، (مكان) لا يكون أعلى منه ولا أشرف، في هذا العالم).

(فتوجهت إلى مكة - شرّفها الله تعالى - بعد ترك الوزارة والرياسة والمال والجاه والوالد والوالدة، وجميع الأقارب والإخوان والأصحاب، ولبست خرقة ملقاة خلقاً لا قيمة لها. وخرجت من بلدي الذي هو آمل وطبرستان من طرف خراسان).

(وكنت وزيراً للملك الذي (هو) بهذا البلد، وكان من أعظم ملوك الفرس، لأنه كان من أعظم أولاد كسرى، وكان اسمه الملك السعيد فخر الدولة ابن الملك المرحوم شاه كتخذا[2] - أطاب (كذا) الله ثراهما وجعل الجنة مثواهما- وكان عمري في هذه الحالة ثلاثين سنة).

(وقد جرى عليّ إلى حين الوصول إلى مكة، في هذه الصورة، أنواع من البليّات، وأصناف من المجاهدات، لا يمكن شرحها إلاّ بمجلّدات، ومع ذلك كان أكثر

---

(١) راجع علي نقي منزوي، فهرس كتب مشكاة المهداة، ج١، ص٧٠ الأوراق التي كتبها سيد حيدر تحمل تاريخ ٧٦٢هـ. وتشمل المخطوطة إجازة مؤرخة ٧٦١هـ من فخر المحققين لحيدر الآملي. راجع فهرس الكتب، الرقم ٣١.

(٢) كما ذكرنا آنفاً أن اسم والد فخر الدولة هو شاه كيخسرو. راجع رابينو، نفس المصدر، ص ٤٣٥، رقم ٣١، حكم ركن الدولة شاه كيخسرو بن يزدجرد لمدة (١٤) عاماً، وتوفي عام ٧٢٨هـ. (اشترى قرية بيمت قرب جنجاوروز من المحافظ نصير الدولة شهريار، واتخذ فيها مقراً لأسرته. وعاش فيها أفراد من أسرته حتى عام ٨٨٠هـ) لماذا جعل حيدر الآملي اسم المختار مكان اسم كيخسرو؟ هذين الاسمين إيرانيين بالكامل. هنا علينا لفت الإنتباه إلى أهمية المختار oikodepotes اليونانية في مجال علم النجوم. وقد كتب المترجمون والنسّاخ اللاتينيون هذه الكلمة بأشكال مختلفة. على سبيل المثال كامبانلا أوردها على هذا النحو colcodea. راجع مقدمتنا الفرنسية على مصنّفات الشيخ شهاب الدين السهروردي (خزانة المخطوطات الإيرانية، الرقم ٢) ص ٤٩، وكذلك: .Nallino, Raccoltidi, VIP. 264 sf.

الحالات جارياً على لساني قول الله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾[١] وقول العارف المشتاق مثلي:

تركت الخلق طرّاً في رضاكا ... وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطّعتني إرباً فإرباً ... لما حنّ الفؤاد إلى سواكا

(وعلى الجملة (ما زال هكذا شأني) حتى وصلت إلى مكة. وحججت وجوباً. وقمت بالفرائض والنوافل من المناسك وغيرها، سنة إحدى وخمسين وسبع مائة من الهجرة. وأردت المجاورة بها، فحصل لي شوق إلى المجاورة بالمدينة، فإني ما كنت زرت رسول الله ﷺ ولا أولاده وأصحابه).

(فتوجهت إلى المدينة، وزرت رسول الله ﷺ وعزمت على المجاورة. فحصل لي أيضاً مانع من الموانع، أعظمها المرض الصوري، بحيث وجب الرجوع إلى العراق، وإلى المكان المألوف الذي هو المشهد الغروي المقدس سلام الله على مشرّفه).

(فرجعت بالسلامة إليه، وسكنت فيه، مشتغلاً بالرياضة والخلوة والطاعة والعبادة، التي لا يمكن أن يكون أبلغ منها، ولا أشد ولا أعظم. ففاض على قلبي من الله تعالى، ومن حضراته الغيبية[٢] في هذه المدة غير ما قلته من تأويل القرآن وشرح الفصوص، من المعاني والمعارف والحقائق والدقائق، التي لا يمكن تفصيلها بوجه من الوجوه، لأنها من كلمات الله الغير القابلة للحصر والعد والإنتهاء والإنقطاع).

هذه الفقرات لا تستعرض لنا حالاً خارجية وعلماً بحادث روحياً فقط، بل تظهر لنا سرّاً باطنياً لرجل كان في قمة الصلابة والأصالة. فهذه الفقرات تفيض بهيجان

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٠.

(٢) حضرات الغيبة: المقصود بالحضرات مراتب الوجود والتجلي في علاقتها مع مراتب الوعي والإدرك. إستخدمنا هنا المصطلح الذي استخدمه رامون لول (نلفت النظر أن كوربان ترجم الحضرات الغيبة بـ Dignités suprasensibles توضيح من المترجم).

يبيّن إستعداداً وقريحة خاصين بحيدر الأملي. ولتوضيح ما يمكن أن يبين شخصيته بأفضل وجه يمكننا الإشارة إلى خياله الخلاّق أي قدرته على مشاهدة عالم المعقول في مرتبة عالم المثال. هذه القوة تصل إلى مرتبة من الإدراك الشهودي من خلال الرؤيا أحياناً ومن خلال عالم المثال أحياناً أخرى. وقد دوّن حيدر الآملي تقارير حول رؤاه وخلساته، وخاصة منامين رآهما في أصفهان خلال سفره من مسقط رأسه (طبرستان) إلى الأماكن الشيعية المتبركة.

أعلم أني كنت في حالة السلوك بأصفهان، وكنت عازماً إلى بغداد لزيارة المشاهد المقدسة للأئمة... في وسط سوق البزازين به (كذا) وأشاهد جسمي على الأرض... ممدوداً بالطول وهو ميت، ملفوف بالكفن الأبيض، وأنا أتفرج عليه وأتعجب من هذا: بأني كيف أنا واقف وكيف أنا ميت مرمى؟ ولا زلت على هذه الحالة حتى انتبهت... ورأيت مرة أخرى أيضاً في أصفهان، أني قاعد على دكان بعض الأصحاب... وعلى كتفي ظرف من الرصاص المذهّب، كظرف بعض السقائين الذين يدورون على الناس ويسقونهم... وأنا أسقي الحاضرين كذا هناك، وأتفرج على نفسي...).

كل واحد من تلك المنامات يبيّن الحالة الباطنية للسيد حيدر بعد أن قطع علاقته بحالات الشباب من أجل عبادة الله. وعليه فإنّ حيدر الآملي يرى بعينه في منامه تجربة تسمّى في علم النفس العرفاني الولادة المعنوية للإنسان الجديد.

وهنا تقرير آخر للسيد حيدر الآملي عن مناماته الأخرى، وخاصة منامه الذي رأى فيه جدولاً مشتعلاً في سماء بغداد ليلاً (ولا يصرّح السيد حيدر أنه رأى ذلك في منامه أم في عالم المثال) وكلها تبرز شوقه وحماسه الشيعي: أسماء المعصومين الأربعة عشر قد كتبت بحروف من نور في دوائر لاجوردية، وقد إجتمعت في زوايا كبيرة من السماء المليئة بالنجوم[1].

وكما يقال فإن الإنسان بما يحب ويعشق، لذا فإن منامات السيد حيدر الآملي وأقرانه كروزبهان وشمس اللاهيجي وميرداماد وغيرهم لا تفسّر إلا بالإلتفات إلى

---

(١) تفصيل هذه الرؤيا جاء في مقدمات شرح الفصوص. راجع كتابنا:
Aspects spisituels de L'Islam iranien, Livre IV..

عشقهم وعلة وجودهم ومعنى حياتهم وآثارهم. لذا فإنّ مشروع حيدر الآملي واضح جداً وهو عشقه وارتباطه. فحيدر الآملي شيعي إمامي، والتشيع يمثل عنده الإسلام كله وباطنه. فالتشيع بنظره هو الإسلام الكامل والقائم على أساس الشريعة والطريقة والحقيقة كما أن التشيع في هذه النظرة هو باطن الإسلام، فالحقيقة هي باطن الشريعة، والشريعة هي ظاهر الحقيقة، وخزانة المعرفة الباطنية وخزّانها هم الأئمة المعصومون الوضع القائم أمام ناظري حيدر الآملي كان كما يلي: أن الشيعة يهاجمون الصوفيين والصوفيون يهاجمون الشيعة. الشيعة اكتفوا بالشريعة وظاهر الديانة، والصوفيون نسوا أصل خرقتهم وتخلّوا عن الحقيقة في الخلاء. ويخطىء الشيعة والصوفيون بقولهم أن تعاليم الأئمة المعصومين، ليست من العلوم العالية- في حين أن الأئمة كانوا أساتذة العلوم العالية-. والمؤمن الممتحن هو الذي يعتقد بأهداف وتعاليم الأئمة المعصومين والشريعة الكاملة التي تشمل الطريقة والحقيقة. لذلك هناك في مقابل الشيعي الذي يكتفي بالشريعة هناك التشيع الحقيقي الصوفي. لكن في مقابل العارف الذي نسي أصل خرقته هناك الشيعي التام (intègral) الصوفي الحقيقي.

جميع جهود حيدر الآملي انصبت في (جامع الأسرار) على إقناع الطرفين الصوفية والشيعة أنه لا يمكن لأي منهما أن يستغني عن الآخر والبحث الأساس لكتاب جامع الأسرار الكبير هو أن الشيعة الحقيقيون هم الصوفيون - وهي العبارة التي لا يفهم معناها إلا بالنظر عكسها حيث الصوفيون الحقيقيون هم الشيعة - فقراءة الفاتحة وخاتمة الكتاب بعدها أمر ملفت جداً. وقد ترجمنا فاتحة الكتاب في موضع آخر(١)، وهنا سنبرز الصفحات النهائية (خاتمة الكتاب) على شكل وصيَّة معنوية، وخير ما نورده في هذه الصفحات التعريف بشخصية السيد حيدر، وتوضيح عالمه المعنوي لتبرز أهمية مشورعه وجرأته.

في ٥٠٦ الصفحة ٢٥٠- ٢٥٤ من هذا الكتاب يقول السيد حيدر:

(وينبغي أن تعرف أيضاً أنه ليس مرادنا من هذا البحث معك ومع غيرك العصبية

---

(١) راجع مقالتي في: Mélanges H. Massé p. 17 - 29 وقد نشرت نفس المقالة في الكتاب المذكور، الرقم ١٨.

والجدال، نعوذ بالله منه! بل المقصود إصلاح ذات البين، وإيصال كل واحد منكم إلى حقّه، لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(١) وإلاّ بعناية الله وحسن توفيقه، فأنا فارغ من أمثال ذلك، لأني، منذ عشرين سنة، شاهدت الحال على ما هي عليه، كما ذكرت في المقدمة، وخلصت من هذه الظلمات، وخرجت عن هذه الدركات، أي ظلمات المعارضة والمجادلة، ودركات العصبية والجدال، والحمد لله على ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾(٢) ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾(٣) ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٤) وفيه (أن في هذا الحال الذي أنا عليه) أقول ما قد قيل (سابقاً) فإنه مناسب لحالي، وهو في أكثر الأوقات جارٍ على لساني شعراً:

أحبّك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا(٥)

في هذه السطور كما في الفقرات الأخرى تظهر شخصية حيدر الآملي بوضوح فجأة. نورد لاحقاً عبارات من خاتمة الكتاب يوضح فيها المؤلف سبب كتابته باللغة العربية حيناً وباللغة الفارسية حيناً. ثم يخاطب الشيعة والصوفيين موضحاً اتجاه إهتمامه من بينهم، وينبههم إلى بيان قد أورده في مقدمة الكتاب، ويكرر في آخر صفحة أشهر أشعار ابن عربي لتكون بمثابة صدى يدوّي قد صوته قطعة موسيقية قوية بلغت أقصى حدّها:

(فإنه لا يختلف - أي قول الله - باختلاف الألسنة حقيقية وإن اختلف مجازاً، حيث ظهر بالعبرانية والسريانية والعربية وغير ذلك: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(٦) فكذلك قول هؤلاء القوم، فإنه لا يختلف باختلاف العبارات وشتيت الألسنة، عربية كانت أو عجمية، هندية كانت أو رومية، فإذاً لا ينبغي لهم أن

(١) سورة النساء، الآية: ١١٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٤.
(٥) شعر لرابعة، راجع فهرس الأشعار المنقولة في كتاب حيدر الآملي، ذيل الحرف كاف.
(٦) سورة النساء، الآية: ٨٢.

يذمّوه - أي كلام المصنف - بركاكة الألفاظ وضعف التركيب، فإنه - أي المصنف - مقرّ بذلك وهو في قدم العذر «والعذر عند كرام الناس مقبول».

ولما كان طالبوا هذا الكتاب مستأنسين بالعربية، آلفين بها، لما كتب - المصنف - المعنى المقصود بالعربية، فهو ما أظهره إلاّ بلسان أراده منه طالبوه لأنسهم به وسرعة تعقّلهم له، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾(١) ولقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾(٢) ولهذا كم من كتب ورسائل كتبتها بالفارسية حيث كان طالبوها أعجام والتمسوا ذلك مثل: «جامع الحقائق» و «رسالة التنزيه» و«أمثلة التوحيد» وغير ذلك.

ومنها: أن لا يوهم من الصوفية، إذا سمع بذكرهم قبل الإطلاع على أصولهم وقواعدهم، الصوفية الذين هم في هذا الزمان، لأنهم ليسوا في الحقيقة بصوفية، كعلماء هذا الزمان أيضاً ليسوا بعالمين حقيقة، بل إذا خطر بخاطره أو سمع من غيره أو طالع من الكتب أحوالهم، يتصوّر منهم أقدمهم وأعلمهم وأعظمهم، مثل سلمان الفارسي وأويس القرني وأهل الصفة، الذين ورد فيه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣) وكذلك المقداد وأبو ذر وعمار وأمثالهم، وبعدهم كميل بن زياد النخعي وأبو يزيد البسطامي والجنيد البغدادي، الذين كانوا تلامذة للأئمة المعصومين عليهم السلام، وكانوا مريديهم ومودعي أسرارهم، كما عرفته في الفصل الأول).

ويخاطب حيدر الآملي الشيعة موضحاً أن قصده هم الشيعة الإمامية الإثنا عشرية وليست باقي فرق التشيع، ذلك لأن الشيعة الإمامية هم الذين جعلوا أصولهم قائمة على النص وعصمة الأئمة وفروعهم قائمة على النقل الصحيح من النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة. وهم الذين وردت بحقهم هذه الآية: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾(٤).

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.
(٢) سورة فصلت: الآية: ٤٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

وبهذا الترتيب يورد في آخر صفحات جامع الأسرار خلاصة آرائهم التي أوردها مفصلة في متن الكتاب، ومن بين أولئك من يمكن أن يسمّى: بالصوفيين المحض والشيعة الصرف. وعلى هاتين الفئتين أن تعلمان أنهما تكملان بعضهما البعض الآخر، وعليهما أن يتبادلا الإحترام، تلك هي أول المرحلة التي يختم الكتاب على أساسها بتعريف مكرر للشيعي الحقيقي والشيعي الكامل (intègral) وباختصار.

(وشرف الطائفتين المذكورتين - أي الشيعة الإمامية والصوفية - ومنزلتهما، بل حقيقتهما بأنهما حاملتا أسرار الأنبياء والأولياء عليهم السلام ظاهراً وباطناً، لأن الأنبياء والأولياء كانوا جامعين لجميع الأسرار الإلهية ظاهراً وباطناً، فالشيعة قاموا بحمل أحكامهم وأسرارهم بحسب الظاهر والشريعة، والصوفية قاموا بحمل أسرارهم وحقائقهم بحسب الباطن والحقيقة، وإن كانت الصوفية بالحقيقة أيضاً هي الشيعة، كما عرفته عند بحث المؤمن الممتحن وغير الممتحن).

في الواقع اعتمد حيدر الآملي على سنة الأئمة ففصل البحث الأساسي في متن الكتاب: فالمؤمن الممتحن هو الشيعي الكامل، وليس الشيعي صرفاً الذي أشار إليه آنفاً والذي يكتفي بالعمل بظاهر الديانة. كما أن المؤمن الممتحن ليس ذلك الصوفي المحض الذي يتناول الشيعة بالسوء والذي نسي خرقته وأن أول الصوفيين المريدين هم الأئمة. وقد تحدث حيدر الآملي عن الصوفيين الحقيقيين آنفاً. وكان يمكنه أن يضيف إلى تلك الأسماء اسم (سعد الحموئي) ذلك لأنه أورده في مكان آخر. وكان ينبغي لحيدر الآملي أن يتحدث عن علاقته المعنوية والشخصية مع الإمام الغائب.

فمفهوم المؤمن الممتحن هو الذي يسمح بإبراز تطلّعات التصوّف والتشيّع ومنعهما من المواجهة. فالفرد المعنوي هو الشيعي الكامل الذي يصفه هذا البيان، وهو حسب مقدمة الكتاب نفس الشخص الذي يعتبره حيدر الآملي مثله في هذا العالم. والسيد حيدر الآملي يعلم أن من حوله يتطلعون لمثل هذا الشخص، وإذا كان بعض الإخوة قد طلبوا منه تأليف كتاب جامع الأسرار فذلك لأنهم رأوا فيه معنوية الشيعي الكامل للشريعة والحقيقة، الذي لن يقوم إلاّ بتدوين تعاليم الأئمة المعصومين[١]، هنا ينبغي التخلّي عن القضاوة المشتركة للشيعة صرفاً والصوفيين

---

(١) جامع الأسرار، ص ٤، ٥.

السنّة (الذين هم - نوعاً ما - ممثلوا التشيع بين أهل السنة دون أن يدروا) القائلة بأن الأئمة المعصومين لم يكونوا مطلعين على العلوم العالية. فحيدر الآملي كمتحدث عن جميع العرفاء الشيعة يقول: (لا توجد في الحقيقة معرفة قد صدرت عن غير الأئمة، وليس فيها سرّ ليسوا هم مستودعه، فالأئمة هم رؤساء الشريعة وأهل الطريقة وأقطار أساطين الحقيقة) (الفصل ١٤).

مقصود الحكيم الشيعي من هذا البيان ليس الشخص الجسماني للأئمة وظهورهم التاريخي، بل وجودهم الأزلي وتعلقهم بعالم الحقيقة المحمدية. فيكتب حيدر الآملي (إنهم خلفاء الله في الأرض والسماء، ومظاهر كبريائه وجلاله في الملك والملكوت) (الفصل١٤). وعليه فإن الشيعي لن ينال حقيقته إلاّ إذا أصبح فرداً كاملاً معنوياً أراده الأئمة منذ البداية.

حيدر الآملي ليس فرداً مبدعاً ولا فريداً. فالأحاديث التي أوردها في كتبه تدل أنه مفسّر وأمين على التعاليم الكاملة للأئمة. فهدفه المعنوي في حياته وشخصه- حتى عندما يتخذ قرارات مؤلمة نحو أهدافه - هو الفرد المعنوي المتمثل في التشيع الإيراني - رغم تشتتهم - في أفراد مثل الميرداماد والملا صدرا ومحسن فيض والقاضي سعيد القمي والشيخ أحمد الإحسائي وغيرهم.

(منها أنه ينبغي أن لا يحكم باعتقاد صاحبه - أي صاحب هذا الكتاب أو هذا المقام - إلاّ على الوجه الذي تقرر في هذا الكتاب من أوله إلى آخره، لكن بعد تأمله وتحققه على ما ينبغي، أعني لا ينبغي أن يعرف إلاّ جامعاً بين أسرار الأنبياء والأولياء عليهم السلام، بحسب الظاهر والباطن، المعبر عن ما بالشريعة والطريقة والحقيقة، والجمع بينهما - أي بين الظاهر والباطن - بالحقيقة، الذي هو أكمل المقامات وأعظم المراتب، المشار إليه مراراً، بحيث لا يُعَد من الشيعة الصرفة ولا من الصوفية المحضة، بل متصفاً بالمقام المحمدي الذي هو الجامع بين المقامين، لقوله عليه السلام: «**قبلتي ما بين المشرق والمغرب**» المعبر عنه بالدين القيّم في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] لأنّ

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

غير ذلك يكون ظنّاً في حقه، و ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(١) و﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾(٢).

ولذلك أقول فيه ما قد قال أكملُ الخلق وأعظمهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣) و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾(٤) ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٥).

وأقول أيضاً في آخر الكتاب ما قد قلت في أوله، لأنّ النهايات هي الرجوع إلى البدايات، وأقطع الكتاب عليه، وهو هذا:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن قلبي إلى دينه دانِ

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة ... فمرعى لغزلانٍ وديراً لراهبِ

وبيتاً لأوثانٍ وكعبة طائفٍ ... وألواح توراةٍ ومصحف قرآنِ

أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه أرسلت ديني وإيماني(٦)

يبدو أن السيد حيدر اعتبر أن هذا الشعر المعروف لابن عربي علامة للإيمان الباطني (المؤمن الممتحن) و (الشيعي الكامل) ودليلاً على التحاق ابن عربي بالحكمة الشيعية. تكرار هذا الشعر في خاتمة كتاب اشتمل على مباحث جافة فلسفية وحكمية أمر خاص بأسلوب حيدر الآملي، وهو أسلوب يميل إلى التحرير الموسيقي مباشرة، وهو يأتي في معرض الإجابة عمن يسأل عن سبب تكرار شعر ابن عربي هنا، ليكون كنغمة تحاول أن تبين أمراً تعجز الكلمات عن تبيانه.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٥) سورة الجمعة، الآية: ٤.

(٦) هذه الأشعار مأخوذة عن القصيدة رقم (١١) من ترجمان الأشواق. راجع طبعة نيكلسون، لندن ١٩١١، ص ١٩ و٦٧. في هذا المجال راجع كتابي L'imagination créatrice dans le soufisme d'ibn'Arabi Flammarion 1958 p. 103-4, 235-6.

شرح الحال الموجز الذي ورد هنا بحاجة لتوضيحات أخرى ليتحول إلى مقدمة تعريف لهذا الكتاب. وكما ذكر آنفاً فإن السيد عثمان يحيى قدم بصبر العناوين التي عرفت من مؤلفات حيدر الآملي- في شرح حالة التقرير (B) وفي الفهارس التي نقلها - للأسف - كل واحد عن غيره وسعى إلى تحديد تواتر تلك المؤلفات إستناداً إلى التواريخ التي ذكرها حيدر الآملي. فعلى سبيل المثال في الرسالة الأولى المطبوعة في هذه المجموعة ذكر حيدر الآملي في جامع الأسرار أسماء ثمانية رسائل كان قد حررها قبل ذلك. وفي الرسالة الثانية ذكر المؤلف في نقد النقود أربعة أسماء كتب لم يتكرر منها سوى اسم واحد جاء في الرسالة الأولى.

وفي حديثه عن سيرته أي في مقدمات نص النصوص في شرح فصوص الحكم لابن عربي كتب نقلاً عن مخطوطة جار الله (١٠٣٣) اسطنبول أن حيدر الآملي سيذكر فيما يلي (٢١) اسماً من مؤلفاته.

وكما ذكرت من قبل أنني والسيد عثمان يحيى قد قسّمنا النشاط الحياتي لحيدر الآملي إلى مرحلتين، بل وبشكل أدق إلى ثلاثة مراحل هي (A-B-C) المرحلة الأولى هي المرحلة الإيرانية، والمرحلتين الثانية والثالثة يمكن إدخالهما بنظرة كتبية في المرحلة العراقية بدءاً بهجرة السيد حيدر من آمل في سنّه الثلاثين.

١- المرحلة (A): كما ذكرنا من قبل ولد السيد حيدر عام ٧٢٠ في مدينة آمل، وبعد أسفاره الدراسية بقي مقيماً في آمل حتى بلوغه الثلاثين عام (٧٥٠هـ) وبما أن السيد حيدر قد ذكر أن كتاب جامع الأسرار هو أول مؤلفاته التي فرغ من تأليفها بعد وصوله العراق ببرهة قصيرة، يمكن القول أن جميع المؤلفات التي ذكرت في جامع الأسرار كان قد ألفها خلال المرحلة الإيرانية، أي بين سنة (٢٥- ٣٠) عاماً، أو كحد أقصى مع بدء المرحلة العراقية.

ونعود هنا ثانية إلى توضيح سيرته (B) من حيث توقفنا. توجه حيدر الآملي إلى مكة والمدينة، وكان ينوي الإقامة هناك، لكن وضعه الصحي أجبره على العودة إلى العراق. هذه المرحلة كانت مثمرة ومليئة بالإلهامات. يقول حيدر الآملي عنها. (فأمرني [الحق تعالى] بإظهار بعض ذلك على عبيده الخواص له. فشرعت في تصنيف كتاب في التوحيد وأسراره على ما ينبغي، فكتبته في مدة، وسميته: «بجامع

الأسرار ومنبع الأنوار»، ثم بعد [شرعت] في رسالة الوجود في معرفة المعبود. ثم بعدها في رسالة المعاد في رجوع العباد، ثم بعدها في رسائل وكتب إلى أن بلغت أربعين رسالة وكتاباً عربية وعجمية) و (راجع المقدمة).

من هنا يبدو أن أول رسالة هي هذا الكتاب أي: جامع الأسرار كما كرر ذلك حيدر الآملي في: نص النصوص قد ألفها في بدء المرحلة العراقية. لذلك يمكن اعتبار تاريخ تحرير هذه الرسالة عام (٧٥٢هـ) فالسيد حيدر الآملي يقول: في مقدمة جامع الأسرار:

(أما بعد: فإني لمّا فرغت من رسالة منتخب التأويل المشتملة على بيان كتب الله الآفاقية والأنفسية، وحروفها وكلماتها وآياتها، ومطابقة كل واحد منها بالآخر، ورسالة الأركان المشتملة على بيان الأركان الدينية الخمسة التي هي: الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد، شريعة وطريقة وحقيقة، ورسائل أخر مثل: رسالة الأمانة ورسالة التنزيه وغير ذلك، التمس منّي جماعة من إخواني الصالحين، السالكين سبيل الله لطلب مرضاته، أن أكتب لهم كتاباً جامعاً مشتملاً على معظم أسرار الله تعالى وأسرار أنبيائه وأوليائه عليهم السلام [حاوياً لا] سيّما على أسرار التوحيد وأقسامه وتوابعه ولوازمه، وما يتعلق به من الأحكام والأسرار، مخبراً عن حقائقه ودقائقه ونكته ورموزه، مشيراً إلى لبّه وخلاصته وأصوله وفروعه، مومياً إلى شعبه وشبهه وشكوكه ومغالطه، [ويكون] مرتباً على فضيلته وتعريفه وتقسيمه وكيفيته، موشحاً بالأمثلة المحسوسة اللائحة، والإستشهادات الموضحة اللائقة، مبنياً على قاعدة الموحدين، المحققين من أهل الله، المسلمين بالصوفية، موافقاً لمذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، مطابقاً لأصول كل واحد منهم وقواعدهم، بحيث يرتفع به التنازع من بينهم بالكلية، ولا يحتاجون بعده إلى كتاب آخر فيه).

وعليه فإنّ الأسماء التي ذكرت في جامع الأسرار قد حررت قبل عام (٧٥٢هـ) وهذه الكتب حسب الترتيب الألفبائي ومع تغيير طفيف هي[1]:

١ - أسرار الشريعة وأنوار الحقيقة (رقم٢).

---

(١) راجع الملاحظات المتعلة بفهرس الكتب.

٢ - أمثلة التوحيد (رقم٤).

٣ - جامع الحقيقة (رقم٨).

٤ - رسالة الأركان (رقم٩).

٥ - رسالة الأمانة (رقم ١١).

٦ - رسالة التنزيه (رقم١٢).

٧ - رسالة التوحيد (رقم ١٣).

٨ - رسالة منتخب التأويل (رقم٢٣).

٢ - المرحلة (B): وهي القسم الأول من المرحلة العراقية، ونقترح أن تميّز حسب ملاحظات الفهرس الكتبي في هذه المرحلة من حياة حيدر الآملي من (٧٥٢هـ - ٧٦٨هـ).

وفي تقريره عن سيرته (B) يقول: حيدر الآملي أنه بعد فراغه من جامع الأسرار شرع بتأليف (نقد النقود). لكن عند مراجعة مقدمة الرسالة الثانية من هذا الكتاب (نقد النقود) يتبيّن أن هذه الرسالة هي: خلاصة لكتاب (رسالة الوجود) المفصل. والرسالة المفصلة هي التي شرع بتأليفها بعد جامع الأسرار حسب سيرته الذاتية (B). وألف الرسالة المختصرة عام (٧٦٨هـ) في النجف. وهو ما يتقارن مع فهرسة الكتب لتحديد المرحلة (B) وفي الرسالة المختصرة هذه ذكر إلى جانب جامع الأسرار رسالتين أخريين (رقم١١-و٢٣) وخاصة رسالة الوجود التي ذكرت في جامع الأسرار.

يبدو أن الكتب المذكورة أدناه قد حررت في المرحلة (B) أي خلال الأعوام: (٧٥٢-٧٦٨هـ) وقد أوردناها في هذه المجموعة:

١ - جامع الأسرار (رقم٧).

٢ - رسالة المعاد التي ذكرها حيدر الآملي آنفاً (رقم٢٢).

٣ - رسالة رافعة الخلاف (رقم١٦) وقد كتبها حيدر الآملي في بداية المرحلة العراقية بناءاً لطلب أستاذه فخر المحققين المتوفى عام (٧٧١هـ).

٤ - مسائل الآملية (رقم٣١)، أو الأسئلة والأجوبة المتبادلة مع فخر المحققين الذي منح حيدر الآملي الإجازة في الإجتهاد عام (٧٦١هـ).

٥ - رسالة الوجود في معرفة المعبود (رقم٢٦) أو الرسالة المفصلة في باب مسألة الوجود.

٦ - رسالة نقد النقود في معرفة الوجود (رقم٢٥)، وهي خلاصة لرسالة الوجود المفصلة، وقد أرِّخت بعام ٧٦٨هـ في النجف.

المرحلة ٢: هذه المرحلة من حيث الفهرسة الكتبية تعد القسم الثاني من المرحلة العراقية، وتمتد من عام (٧٦٨هـ) إلى عام (٧٨٧هـ) أي من عام (٧٦٨هـ) حتى تاريخ آخر كتب حيدر الآملي التي عرفناها.

ويقول حيدر الآملي عن سيرته الذاتية:

(ثم أمرني [الحق تعالى بعد ذلك] بتأويل القرآن الكريم، فكتبته بعد هذا كله. فجاء في سبع مجلدات كبار، وسمّيته: «المحيط الأعظم والطود الأشمّ في تأويل كتاب الله العزيز المحكم» وكذلك خرج [هذا الكتاب] في غاية الحسن والكمال، وظهر في نهاية البلاغة والفصاحة بعناية الملك ذي العزَّة والجلال، بحيث ما سبقني أحد مثله بمثله، لا ترتيباً ولا تحقيقاً ولا تلفيقاً [اقرأ: توفيقاً] وقد سبق بيانه في الفهرست أيضاً)[١].

(ثمّ أمرني - الحق تعالى - بشرح فصوص الحكم الذي هو منسوب إلى رسول الله ﷺ وأعطاه للشيخ الأعظم محيي الدين العربي... قدّس الله سرّه في النوم، وقال له: أوصله إلى عباد الله المستحقين المستعدّين كما بيّناه في الفهرست).

فشرعت في شرحه هذا، بموجب ما تقدم تقريره وسبق تحقيقه. وهذا كان بعد مجاورتي بالمشهد المقدّس المذكور ثلاثين سنة على الوجه المذكور. وكان الإبتداء فيه سنة إحدى وثمانين وسبع ماية من الهجرة، والإنتهاء سنة اثنين وثمانين وسبع مائة، أعني تمّ في سنة واحدة، وبل أقل منها. وكان عمري في هذه الحالة ثلاثً وستين سنة)[٢].

---

(١) أي في الفهرس الذي أورده حيدر الآملي في مقدمات شرح الفصوص، والمتعلق بشرح حاله.

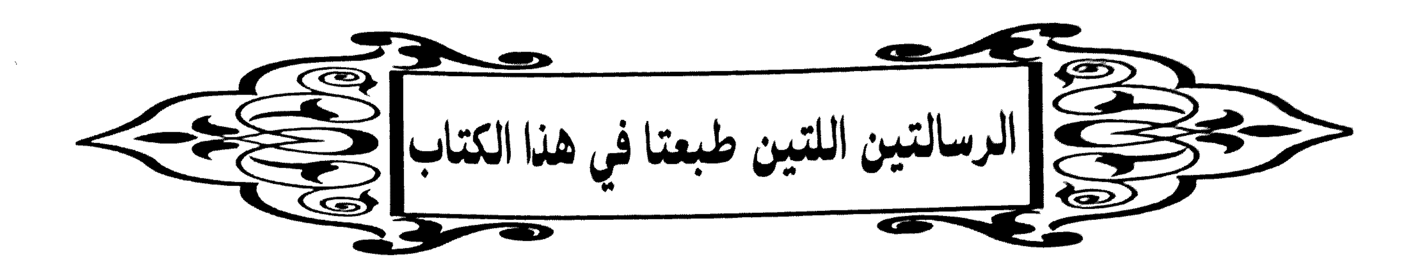
(٢) أي ٦٣ سنة قمرية، وهذا الأمر يؤيد صحة تاريخ ولادة السيد حيدر الآملي عام ٧١٩ أو ٧٢٠.

وعليه فإن حيدر الآملي خلال هذا الجزء من المرحلة العراقية قام قبل كل شيء بتحرير التفسير الكبير للقرآن في سبعة مجلدات (رقم٣٠) واستناداً إلى قوله: فقد انتهى منه قبل شرح فصوص الحكم الذي ذكر فيه اسم التفسير وفرغ منه عام (٧٧٧هـ). بعد ذلك شرع حيدر الآملي بكتابة نص النصوص أو شرح فصوص الحكم ابن عربي (٣٤) واعتبره إلهاماً لأن النبي ﷺ استقبله في الملكوت، ونقله إلى الشيخ الأكبر في الرؤيا. الحكمة الشيعية تتقبل مثل هذا الإلهام بعد غلق دائرة النبوة وتوضحه. وإذا كان حيدر الآملي يتحدث عن هذا الكتاب في مقدمات هذا الشرح ككتبه السابقة، فمعنى ذلك يمكن أن يكون قد كتب المقدمات بعد الشرح، أو أنه أعاد كتابة نفس هذه المقدمات.

لذلك لا يمكننا أن نقول: أنه انتهى من رسالة العلوم الإلّهية (رقم١٩)، عام (٧٨٧هـ) كما قال المدرس التبريزي[1]. ولا شك أن هذا الكتاب هو خلاصة لتمام الحكمة الإلّهية عند حيدر الآملي الذي كتبه في قمة نضجه، ونأمل في المستقبل القريب أن يتسنى لنا الحديث في هذا المجال أكثر، ذلك لأن السيد عثمان يحيى قد رأى مخطوطة المؤلف مع مجلّدات التفسير السبعة بخط المؤلف في مكتبة الغروي بالنجف. بعد عام(٧٨٧هـ) لم نجد لحيدر الآملي أي كتاب في هذا العالم. ولا تبعد هذه المرحلة عن هجوم تيمورلنك على مازندران، وليس لدينا ما يقطع بعدم عودة السيد حيدر إلى مسقط رأسه. على أي حال أدى السيد حيدر الآملي واجبه في هذا العالم بالكامل. والحكمة الشيعية مدينة له كأحد أشمخ قصور المعرفة والمعنوية.



(١) ريحانة الأدب، ج٢، ص٤٩٨، وهو تكرار لما ورد في جميع التذكرات.



أ - جامع الأسرار ومنبع الأنوار:

جامع الأسرار ومنبع الأنوار هو الكتاب السابع في فهرست الكتب الواردة آنفاً. واختيار هذا الإسم لم يكن صدفة، وتمكن مقارنته مع مجموعة عناوين سائر كتب المؤلف. والأسرار المستلزمة للشريعة ولوجهها المبطن عن ظاهرها، والتأويل يمكنه أن يطلق تلك الأسرار من الشريعة. ومجموعة النظرات الباطنية التي تعلّم الحقيقة الباطنية لظاهر الديانة لها مثل هذا الوضع. والأسرار تكشف الحقيقة والحقائق فوق الحسية. والأسرار هي الأنوار الحقيقية التي تسطع في الأفق المعنوي عندما يطلق التأويل أسرار الشريعة.

لذلك عندما نستخدم مصطلح (الفلسفة الشيعية) لتحديد مضمون هذا الأثر الكبير، يعني أن مصطلح (الحكمة الإلهية) يعادل العنوان اليوناني (Theosophia)، أو بتعبير أدق بمعنى مصطلح الحكمة النبوية في المحيط الشيعي. وكذلك مصطلح الحكمة أو الفلسفة لبيان البُعد التأويلي الذي يستعرض جامع الأسرار نماذج متعددة منه. إذاً فالموضوع المقصود في البحث ليس الفلسفة والإلّهيات بالمعنى الرائج لهما في الغرب. وليس من المنطق أن نجعل معنى الفلسفة المفهوم المحدود الذي حدده الإنسان الغربي المعاصر. لأن ذلك يعني إستبعاد مساحات من تاريخ الفلسفة لأن الإنسان الغربي يجد نفسه غريباً عنها. وهذا الإستبعاد العمدي لا يعدو كونه مسخرة. نشير إلى أن العرفان الشيعي لا يعني الفلسفة والإلّهيات بالمعنى الدقيق للمصطلح، ويقضي على الثنائية بين الفلسفة والإلّهيات، تلك الثنائية التي اعتبرت لمدة طويلة شرطاً لوجود أي منهما.

خلال المقدمة هذه نتحدث كراراً عن جامع الأسرار، ونترجم فقرات منه تتناول شرحاً لحال السيد الآملي. وعليه فإن ما يظهر من كلام المؤلف نفسه أن تاريخ تحرير هذا الكتاب يمكن أن يكون في بداية المرحلة الثانية من حياة المؤلف، أي في حدود

العام (٧٥٢هـ) أو بعده بقليل وقد ذكرنا آنفاً الهدف من تحرير هذا الكتاب، وموقع جامع الأسرار في تاريخ العلاقة بين التشيّع والتصوّف. فالمؤلف كسائر العرفاء يعتقد أن الشيعي الحقيقي هو العارف، وأن العارف الحقيقي هو الشيعي. فهو يقول:

(ليس بين الفرق الإسلامية والطوائف المحمدية المختلفة من ينكر الطائفة الصوفية كالشيعة، ولا من ينكر الشيعة كطائفة الصوفية، في حين أن مأخذهما ومشربهما ومرجعهما واحد. لأن مرجع جميع الشيعة - وخاصة الشيعة الإمامية - هو أمير المؤمنين علي عليه السلام، ومن بعده أبنائه وأحفاده... وكذلك الصوفيون الحقيقيون فإنهم يسندون علومهم إلى أمير المؤمنين ويعودون بخرقتهم إليه وإلى أبنائه وأحفاده واحداً بعد آخر) الفصل ٤.

إذا لا بد من تذكير الصوفية والشيعة بهدفهم المشترك، ولذلك ألف المؤلف كتاباً (لتبيين قاعدة الموحدين... الصوفية، موافق لمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، ومطابق لأصول وقواعد كل منهما، بحيث يذهب بكل الإختلافات، ولا يحتاجون بعده إلى كتاب غيره) الفصل الرابع.

ولا يستطيع أي مؤلف أن يبين أهدافه بأوضح من هذا البيان.

وحسب العادة قمت في البحوث السابقة والدروس التي ألقيتها في مدرسة الدراسات العليا بترجمة قسم كبير من هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية، وآمل أن ننشر في المستقبل القريب هذه الترجمة لجامع الأسرار مع المؤلفات الأخرى لباقي المؤلفين ليتمكن بذلك الفيلسوف الذي لا يعرف اللغة العربية من التعرف على فكر حيدر الآملي دون واسطة. لذلك يكفي هنا أن نستعرض هيكل (الفلسفة الشيعية العامة (Somme de La Philosophie Shi'ite). حيث أورد المؤلف في مقدمة هذا الكتاب الهيكل، وتابع الشرح في متن الكتاب. وهذا الأثر يشمل في الحقيقة ثلاثة كتب تحمل عناوين أساسية، وكل كتاب ينقسم إلى أربعة فصول أو قواعد. وعليه فقد تشكلت هذه المجموعة من أثني عشر.

الكتاب الأول: خصص لدراسة التوحيد ماهيته وحقيقته. ويتناول هذا الكتاب الفرق بين التوحيد الألوهي (monothèisme exotèrique) والتوحيد الوجودي أي وحدة الوجود. ويشير المؤلف إلى أن التوحيد الألوهي يخفي في نفسه نوعاً من

الشرك الخفي. وقد بين التوحيد الوجودي بما يتطابق مع نظرية ابن عربي، ويفسر الآية٣٣/ ٧٢ التي أشرنا إليها سابقاً (فهرس الكتب. الرقم١١(إلحاقاً فيبدو من التفسير أن ثقل الأمانة التي تحملها الإنسان (المجنون) هو سرّ الأئمة حيث قالوا كراراً): «**إنّ أمرنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلاّ ملك مقرب أو نبي مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان**» الفصل ٥٩. ويبدو من كل هذه المقدمات أن الصوفيين الذين يهتمون بالمعرفة الحقيقية للأئمة هم الشيعة الحقيقيون، وكذلك الشيعة الذين يقرّون بكل تعاليم الأئمة هم من المؤمنين الممتحنين والصوفيين الحقيقيين.

الكتاب الثاني: يتابع تحليل التوحيد بالإعتماد على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والروايات المولوية وكلام المشايخ الكبار.

الكتاب الثالث: فيه توازن ملفت، فكل واحد من الفصول الأربعة للكتاب الثالث يبحث في المفاهيم الأساسية للعرفان الشيعي بنحو ما بحيث يدل على تساوي مصطلحات كل من القواعد الثلاثة الرباعية:

١ - الشريعة، الطريقة، الحقيقة.

٢ - الرسالة، النبوة، الولاية (ولي الله).

٣ - الوحي، الإلهام، الكشف.

٤ - الإسلام، الإيمان، الإيقان.

والفصل المتعلق بالنبوة والولاية له أهمية خاصة. فالسيد حيدر الآملي الذي أسلفنا كراراً أنه كان يمتدح ابن عربي، يوضح سبب عدم قبوله من الناحية التاريخية والماهوية لكلام ابن عربي أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان خاتماً للولاية المطلقة ورفضه لكلام بعض مريدي ابن عربي بقولهم: أن ابن عربي كان خاتماً للولاية المقيدة أو خاتماً للولاية المحمدية. فخاتم الولاية المطلقة لا يكون إلاّ الإمام الأول، وخاتم الولاية المحمدية ليس سوى الذي تعتبره الشيعة الإثنا عشرية الإمام الثاني عشر المهدي الموعود والإمام الغائب ابن الإمام الحسن العسكري (عج).

وبعد ثلاثين عاماً من هذا البحث يتكرر تفصيل هذا الإحتجاج في مقدمة نص النصوص (جاء ذكره آنفاً في الرقم ٣٤ من الفهرس) وبما أن مفهوم الولاية هو من المفاهيم الأساسية لمعرفة الإمامة عند الشيعة، لذلك فإنّ موقف حيدر الآملي يبين

الموقف العرفاني الشيعي في مواجهة ابن عربي. ومن بين الشروح الكثيرة لفصوص الحكم والتي لا يمكن كتابة تاريخ كامل الفلسفة الإسلامي دون التعرُّف إليها، نجد أن كتاب حيدر الآملي يبرز كشاخص واضح من (الفلسفة النبوية).

وقد أشرنا إلى أن السيد حيدر قد انتقد أحد أبرز الشروح السنّية في باب قضية الولاية، أي شرح داوود القيصري، لكن لهجة إنتقاده هذا كانت معتدلة. ويشاهد في إنتقاده هذا تعجبه وتأسفه لعدم إهتمام المخالفين بالأئمة المعصومين. وبما أن كتاب حيدر الآملي يشرف على جميع نتائج هذا الأمر أي أن الولاية الباطنية هي النبوة، فإنه يشكل أهم نقاط تحول (الفلسفة النبوية) في عالم الإسلام، ولهذا السبب كان مستمراً في النقل والأشارة.

مخطوطات جامع الأسرار القليلة والموجودة هنا وهناك. فعلاوة على المخطوطتين اللتين سنصفهما لاحقاً هناك عدة مخطوطات أخرى يمكن الإشارة إليها. ففي المكتبة المركزية لجامعة طهران توجد أربع مخطوطات كاملة (محمد تقي دانش بجوه) فهرست كتب مشكاة المهداة. ج٣، القسم١، ص٤٢٥. وكذلك المقدمة العربية لهذا الكتاب، الإستدراكات ٣، ص٥٣).

وهناك نسختان أخريان في مكتبة المرقد الرضوي بمشهد (نفس المصدر ص ٤٢٧).

وقد عثر السيد عثمان يحيى على نسخة أخرى في مكتبة الإمام أمير المؤمنين بالنجف (المقدمة العربية، ص٢١) ويبدو أن هناك نسخ أخرى، وبلغنا أن مخطوطة بيد المؤلف نفسه قد بيعت في مدينة قم أو طهران، وهي شائعة مبهمة جداً، ولم يتيسّر التحقيق فيها.

التدقيق الحاضر قد أعد بشكل كامل إستناداً إلى مخطوطتين موثوقتين في طهران. وعليَّ هنا أن أشير إلى أمور:

أ - إن جمع كل المواد لا يكون دوماً أمراً سهراً.

ب - بالنسبة للنصوص الفلسفية يمكنني القول أن لا ضرورة لجمع النسخ البدل والبحث في أخطاء الكتاب، المهم أن تتوفر نسختان أو ثلاثة من النسخ الموثوقة.

إننا نعتبر النسختين اللتين اعتمدناهما موثوقتين، وبالنظر إلى فهرس الأخطاء الذي يصعب تجنبه، قد استطعنا تقديم نص صحيح ومطابق لآراء المؤلف.

علامات الإختصار التي وردت في المخطوطتين هي:

F طهران، مكتبة الفردوسي الوطنية العامة، الرقم ٢٦٦ (وكانت هذه النسخة محفوظة من قبل في مكتبة دولة إيران العلية تحت الرقم ١٧٤٣) ٣١٥ ورقة (٦٣٠ صفحة) في كل صفحة عشرون سطراً، بخط النسخ المقروء، لم يشر الكاتب لاسمه وتاريخ تحرير الكتاب. يبدو أن الناسخ نفسه كان من العارفين وكتب نسخته للإستخدام الشخصي ويعد ذلك ضماناً لصحة النص. وسبب ذلك أن الناسخ زاد بعض الهوامش أحياناً، وهذه الحواشي تدل أن الناسخ كان عارفاً بالمسائل التي بحثها المؤلف، وتدل هذه الحواشي أيضاً على الميل العرفاني الشديد لدى الكاتب ببحوث الإمامة.

FH: الحواشي التي دونها الناسخ قد جمعت بدقة (وتشمل هذه الحواشي نقلاً بالفارسية). هذه العلامة المختصرة على الحاشية تدل أنها دونت بخط آخر، لكن ما وضعناه بين هلالين يعني إن الحاشية من تدوين الناسخ أو من قبل شخص آخر.

والخلاصة هي أن هناك أفراد آخرين قد اشتغلوا بهذه النسخة من قبل. هذه المخطوطة موثوقة، عدا بعض الموارد حيث يكون تكرارها مصححاً لموارد أخرى. وعلى سبيل المثال: ما ورد بعد اسم الله وأسماء النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام قد حذف أو اختصر. ولتنسيق المتن قد أوردنا جميع هذه العبارات في المتن حسب العادة دون الإشارة إليها في الهوامش والكلمات أو الأجزاء من الجملة التي وردت بين قوسين استعراضيين قد زيدت من قبل المدققين لتوضيح المتن (على سبيل المثال توضيح مرجع الضمائر) ومن ناحية أخرى لتكون العبارة صحيحة إعرابياً. وقد نبهنا إلى أن لغة حيدر الآملي العربية لم تكن سليمة دوماً من ناحية القواعد والإعراب، لذلك كان من الضروري إيراد بعض التصحيحات في الهوامش.

M: طهران، مكتبة مجلس الشورى الوطني العامة، الرقم ١٤١٥، وصفت هذه المخطوطة في المجلّد الرابع من الفهرست الذي أعده السيد عبد الحسين الحائري (الفهرس ٤، طهران ١٣٥٥، ص ١٥٠-١٥١) هذه النسخة جديدة كباقي النسخ

الأخرى التي ذكرت آنفاً، وذلك يدل على إهتمام دائم في إيران بمؤلفات حيدر الآملي. قياس ١٠×٢٣ سم، ٣٣٤ صفحة ٢٠ سطر في كل صفحة، الخط جميل وواضح. الكاتب: الميرزا حسين بن أحمد الكرجي، تاريخ النسخ (١٢٧٤ هـ.ق (١٨٥٧-١٨٥٨م) النص بشكل عام دقيق، والمأخذ الأساس على الناسخ أنه أسقط أحياناً بعض الفقرات (وأغلب الفقرات المحذوفة بسبب التشابه الظاهري بين بداية الفقرات وداخلها).

MH: الحواشي تندر الحواشي في هذه النسخة. وفي الفهارس أدرجت الآيات القرآنية وأحاديث الأئمة وأسماء الكتب والمؤلفات التي نقل عنها حيدر الآملي. إضافة إلى فهرس بالمصطلحات والكلمات التي استعملها المؤلف، وعدد المرات التي تطرق فيها لأي موضوع. لكن مثل هذا الفهرس لا يمكن أن يكون كاملاً مهما كان مفصلاً. والآيات القرآنية دققت حسب الأسلوب الإيراني، وأرقام الآيات حسب طبعة فلوكَل.

فهرس الأخطاء: صف الأحرف وطبعة صفحات الكتاب أضحت مانعاً من التصحيحات اللاحقة. فنقل الصفحات المصفوفة لمسافات بعيدة، وانمحاء الحروف الرصاصية خلال الطباعة سببت وجود أخطاء كثيرة، لذلك أضفنا إلى النسخة فهرس أخطاء أكثر تفصيلاً مما كنا ننوي. نعتذر عن ذلك، لكنه كان الحل الوحيد.

ب - رسالة نقد النقود في معرفة الوجود

نقد النقود هي الرسالة الخامسة والعشرون من فهرست المؤلفات الذي ذكر آنفاً، وقد سمّاها باختصار برسالة في معرفة الوجود، ويقول حيدر الآملي في نص النصوص: أن هذا الكتاب خلاصة لرسالة أكثر تفصيلاً في معرفة الوجود سميتها: رسالة معرفة المعبود(فهرست الكتب رقم ٢٦).

وكان من المناسب أن تطبع رسالة نقد النقود هنا بعد جامع الأسرار ذلك لأن المؤلف يتحدث في كتابه الأخير عن رسالة مفصّلة في معرفة الوجود، وأن رسالة نقد النقود هي خلاصتها. عند الإنتهاء من جامع الأسرار لم يكن قد كتب تلك الرسالة المفصّلة، لذلك فقد جعلنا هذه الرسالة المفصّلة في الترتيب السابق بين عام

(٧٦٢هـ) أي التاريخ التقريبي للفراغ من جامع الأسرار عند بدء المرحلة العراقية للسيد حيدر، وعام (٧٦٨هـ) أي عند فراغه من خاتمة الرسالة الخلاصة التي ألحقناها هنا حسبما يشير إلى ذلك بنفسه. هذه الرسالة هي خلاصة لرسالة مفصّلة في فلسفة الوجود (métaphysique de l'ětre) وحتى الآن لم يعثر على أي نسخة من هذه الرسالة. **وقد فرغ من رسالة في معرفة الوجود في ١٥ جمادي الثاني** عام (٧٦٨هـ) **في النجف (المشهد الشريف الغروي).**

وجاء تحرير هذه الرسالة بناءاً لطلب أحد الأصدقاء المقرّبين من المؤلف، لكنه لم يذكر اسمه في الرسالة. وفي مقدمة رسالة نقد النقود (الفصل٢، ص ٦٢٠-٦٢١) يقول السيد حيدر: أنه أعد رسالة مفصلة في مباحث الوجود، بيّن فيها اختلاف آراء المتكلمين والحكماء الذين يقولون بوحدة الوجود، وأورد شواهد من الكلام الإلّهي وأحاديث النبي ﷺ والأولياء، حتى (طلب منّي من هو أعزّ علي من حدقة عيني أن أعدّ خلاصة مفيدة قليلة الحجم كبيرة المعنى).

الرسالة الأولى في فلسفة الوجود كانت مفصلة كثيراً: مقدمة في ثلاثة أركان، وكل ركن يشمل عدة مسائل. وعليه فإن هذه الرسالة على هيئة جامع الأسرار تتكون من مقدمة وثلاثة أصول: وقد استعمل المؤلف نفس الأسلوب وبدقة في الرسالة التي طلب منه أحد أصدقائه كتابتها مع فرق واحد هو أن الرسالة الأولى - التي نتمنى أن نعثر في يوم ما على نسخة منها - تشمل مقدمة في باب الشريعة والطريقة والحقيقة، لا شك أن المؤلف اعتبر أن لا حاجة لتكرار كلامه حول هذه المفاهيم الثلاثة الأساسية، لذلك لم يوردها في مقدمة الرسالة المختصرة، بل بدأ مباشرة بالبحث في فلسفة الوجود.

وجاء الكتاب على الشكل التالي:

الأساس الأول: بحث الوجود، تحرير محل النزاع والبحث في البداهة وإطلاقها. مصطلح البداهة بمعنى supnise Ò improvisation ومعناها هنا عدم إمكانية إستنتاج الوجود وتقديم الجواب الشافي لمسألة الترجيح: لماذا يرجح الوجود على العدم؟.

الأساس الثاني: البحث في وجوب ووحدة الوجود.

الأساس الثالث: البحث في ظهور الوجود وكثرته. ويشير المؤلف مع بداية الفصل الخامس أنه يعتمد في بحث فلسفة الوجود على رؤية العقل والنقل والكشف. وهذا الأمر مطابق لموقف المؤلف الخاص الذي إستخدمه في كتابه المهم جامع الأسرار.

ويطرح المؤلف لعنوان الكتاب يذكر أنه يقدم هذه الرسالة **إلى** أرباب الإستعداد الكامل والذكاء التام و**إلى** أصحاب الفطرة الحقيقية، دون أي أحد من الجاحدين والمبعدين عن الحق وأهله (الفصل ٣).

ويصعب في هذه السطور إيراد تحليل مهما كان وجيزاً عن هذه الرسالة القيمة جداً. ولا حاجة هنا للتأكيد على أهمية الفلسفة الإسلامية التي تصور مؤرخو الفلسفة لمدة مديدة أنها إنتهت مع ابن رشد في الأندلس. وحيدر الآملي لا يبحث فلسفة الوجود بأسلوب ابن سينا وابن رشد. ومع ذلك فإنه يبحث نفس المشكلة التي يبحثها ميراث الفلسفة اليوناني. لكن حيدر الآملي يواجه فلسفة الوجود بأسلوب واهتمام بالمصادر الخاصة التي أخذها من خلال معرفته العميقة بمؤلفات ابن عربي وتأمله المستمر بكتاب الله والسنة وحديث أئمة الشيعة. الخلاصة هي أن بحثه في فلسفة الوجود كان بأسلوب يمكن أن يبرر إطلاق اسم: (الفلسفة الشيعية) على هذا المجلّد.

إن التجربة الشخصية لحيدر الآملي (حيث شرح أحواله يدل على أصالة تلك التجربة) جعلت الفصل بين الفلسفة والإلهيات (théologie) أمر غير ممكن بعد أن كان ذلك رائجاً في الغرب. فمن هذه الناحية كان حيدر الآملي متعلق بالمتألهين الأفلاطونيون الجدد في مرحلة إنطلاقهم (théologiens néoplatoniciens de la renainance). فحيدر الآملي كأفلاطوني متجدد تأمل في الوجوه الثلاثية (triade) لبسم الله. الله يدل على الواحد المطلق، في حين الرحمن تشير إلى الواحد المتكثر، والعقل هو الإمام أو الإنسان الحقيقي، والرحيم تشير إلى النفس الكلي، وحواء الحقيقية (L'Eve métaphysique). الفلسفة الشيعية التي كان حيدر الآملي ممثلاً كاملاً عنها قد شرحت أكثر على يد الملا صدرا الشيرازي والقاضي سعيد القمي وغيرهم، ولهذه الفلسفة في رأينا أهمية قصوى في علم التجديد والتحفيز للوجدان الديني.

التدقيق الحالي لنقد النقود مطابق لنسخة كانت تعد لفترة وجيزة نسخة فريدة. وهذه النسخة تابعة حالياً لمكتبة جامعة طهران المركزية: المخطوطة رقم ١٧٦٤ (محمد تقي دانش بجوه، الفهرس ج٨، ص ٢٩٥) قياسها ١٤× ٩/ ٢١سم، النص المكتوب ١٣× ١٨سم، في كل صفحة ٢٠ سطراً (علامتها المختصرة F) خطت بالمعلق ومقروءة جيداً. وقد نقل الناسخ عبارة خاتمة الرسالة عن حيدر الآملي نفسه، لذلك يظن من يراها لأول وهلة أنها بخط المؤلف نفسه، وفيها يقول:

واتفق الفراغ من تسويد هذه الورقات... خامس جمادي الآخر سنة ثمان وستين وسبعمائة (٧٦٨) على يد مؤلفاتها... حيدر بن علي بن حيدر العلوي الحسني الآملي بالمشهد الشريف الغروي...) (الفصل ٢١٩). ولكن يظهر من حاشية الصفحة الأولى من الورقة الأخيرة أنها نسخة عن مخطوطة المؤلف، وهو ضمان ثمين.

من الطبيعي أن تدقيق نسخة وحيدة يعدّ حدثاً، لكن ما يكتسبه أي مدقق ناقد هو أن الطريق الوحيد للعثور على النسخ المجهولة هو طبع النسخة الوحيدة الموجودة. وما حصر أخيراً لم يكن استثناءاً لهذه القاعدة ففي اللحظات الأخيرة دلنا السيد محمد تقي دانش بجوه على نسخة أخرى في مكتبة سبهسالار للدراسات العليا[1] (المخطوطة رقم ٣/ ٦٥٢٧) ثم عثر على نسخة أخرى في مكتبة ملك بطهران. لكن هذه المعلومات الثمينة جداً بلغتنا متأخرة، لذلك لم نتمكن من الإستفادة منها في هوامش النقد والتعليق. لذلك اقتضى منّا تقديم هذا التوضيح.

فهرست أخطاء (المقدمة العربية، ص ٥٨- ٦٢) نسختنا يعود إلى مجموعة خاصة (في طهران) وضع قبل وصولها إلى المكتبة المركزية لجامعة طهران. كنّا قبل عشرين عاماً قد أعددنا فيلماً مصغراً عنها، وقد تعرض الفيلم لأضرار كبيرة، وعند طباعة صوره أخيراً ظهر الصفار على أجزاء منها. هذا الإشكال جعل قراءة النص أكثر صعوبة وأقل اطمئناناً، بعد أن كان خطها ركيكاً ومضطرباً. ولم يكن هناك أمل في الحصول على فيلم مصغر آخر عنها، وبعد طباعة الرسالة علمنا أن المخطوطة

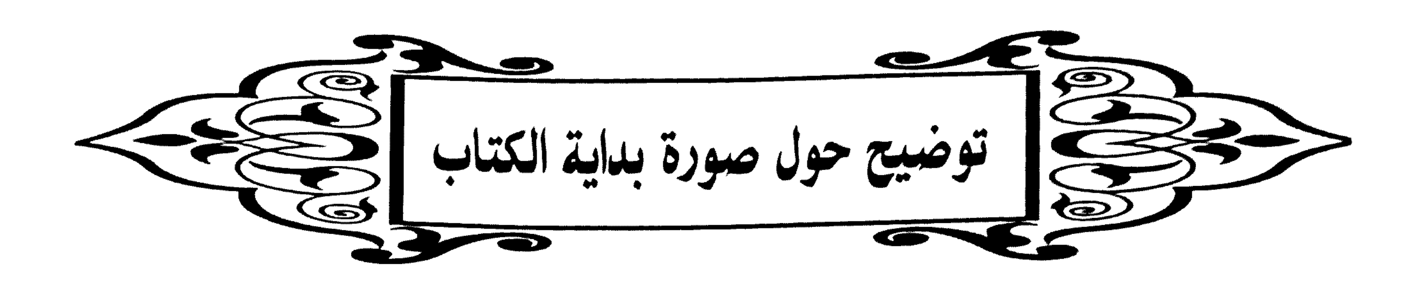
(١) بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران أطلق على هذه المدرسة اسم مدرسة الشهيد المطهري للدراسات العليا (المترجم).

أضحت بحيازة مكتبة جامعة طهران المركزية. وماذا كان يمكننا أن نفعل ونحن لا نمتلك سوى صوره مشوهة الألوان؟ إما أن ننصرف عن طباعة نسخة فريدة، مما يعرض آثار حيدر الآملي للخطر، أو أن نتقبل المخاطرة التي تكمن لكل فرد ونقدم تدقيقنا. وقد إختار السيد عثمان يحيى الشق الثاني دون تردد. وعلامات الإستفهام التي وردت في أماكن من الكتاب تشير إلى شكّنا عند القراءة. وقد زال هذا التردد عند مقارنة هذه النسخة بالنسخة الأصلية التي حازت عليها المكتبة المركزية لجامعة طهران. وقام السيد عثمان يحيى خلال مهمته العلمية في طهران (أكتوبر ١٩٦٨م) بالمقارنة الدقيقة لنصوص نسختنا المصورة مع النسخة الأصلية الواضحة جداً. فزال بذلك الشك، لكن نتج عنه فهرساً مطولاً بالأخطاء. بعض تلك الأخطاء غير مهمة، لكن بعضها الآخر مهم (على سبيل المثال في ص ٦٢٧، س٣، ينبغي أن تأتي كلمة (غير) مكان (عين) (...الوجود المطلق من حيث هو عين الوجود الذهني والخارجي...) فمسألة الوجود الذهني لها أهمية خاصة لدى الحكماء).

لذلك نعتذر للقراء ونرجوهم الإطلاع على الإستدراكات التي أوردها السيد عثمان يحيى في نهاية مقدمته (ص٥٨-٦٢) خلال قراءتهم لنص نقد النقود. ورغم أن ذلك عمل سهل، لكن به يصح النص. ولعلنا تصرفنا بجرأة، لكن كتاب حيدر الآملي كان يستحقها. وحجم المجلّد الحالي منع من شرح المباحث النظرية. وقد بيّنا في بداية هذه المقدمة الوضع الحالي للدراسات حول حيدر الآملي، وقلنا أننا نأمل في القريب العاجل أن نطبع الترجمة الفرنسية لكتاب حيدر الآملي ليأخذ مكانه. ونأمل من أصدقائنا الإيرانيين أن يسعوا في ترجمة الكتب العربية لحيدر الآملي إلى اللغة الفارسية، لأن التعرف على هذه الأعمال أمر ضروري لإدراك تاريخ الفلسفة في إيران. كما أن هذه الأعمال ستؤدي إلى تجديد بحوث الفلسفة التقليدية. لذلك فإن حفظ كتابي حيدر الآملي الكبيرين أي التفسير العرفاني ورسالة العلوم العالية في خزانة المرقد المطهر للإمام علي عليه السلام في النجف له قيمة معنوية فقط.

هنري كوريان

طهران، نوفمبر ١٩٦٨



توضيح حول صورة بداية الكتاب

الصورة التي وردت في بداية الكتاب ثم اختيارها لأنها تؤرخ لحوادث أدت إلى توجه السيد حيدر الآملي إلى العتبات العالية في العراق، هذه الحوادث كانت نهاية للحوادث التي أوردناها والتي أدت إلى مقتل فخر الدولة آخر ملوك سلالة الباوندیين في آمل حيث كان السيد حيدر الشاب وزيره.

وكما نعلم فإن مصطلح (إمام زاده) أي ابن الإمام. وهذا المصطلح بمعناه المجازي يوضع على مقابر أحد أبناء أو أحفاد الأئمة (والسادة أيضاً) ممن كانت حياتهم معبرة. وعليه فإن المقبرة هذه محل مقدس ومكان للزيارة. والشخصية المقدسة وأشهر (إمام زاده) في آمل هو مير قوام الدين من السادة المرعشيين، ويسمى: بالأمير الكبير، كان ميرقوام الدين يعيش في ناحية من آمل، وكان شيخاً منشغلاً بالعبادة وإرشاد المريدين. خلال عهد أفراسياب الشلابي اشتهر الشيخ وزاد مريدوه، بالتزامن مع تصاعد سخط الناس على غاصب الحكم. فدب الرعب بافراسياب وساءت الأوضاع. فوقعت الحرب وقاد السيد كمال الدين أحد أبناء المير الكبير المواجهة ضده، وأصيب الغاصب برصاصة إصابة بليغة، ووقع ذلك عام ٧٦٠هـ أي بعد عشر سنوات من مقتل فخر الدولة وهجرة السيد حيدر الآملي. فلم يتمكن أفراسياب أن يتمتع بجريمته لأكثر من عشرة أعوام.

ذاع صيت المير الكبير وقدرته المعنوية وبلغت شهرة أبنائه الذروة. فتوجه مريدوه من كل حدب وصوب، واستقرت حكومة مازندران عليه. وبذلك بدأ عهد السلالة المرعشية واستمر حتى عهد الصفويين في مرحلتين.

المرحلة الأولى: من ٧٦٠هـ ٧٩٤هـ المير الكبير كان منشغلاً فيها بالأمور الروحية، وقسّم ولاية ساري وآمل ورستم دار بين أبنائه الثلاثة، وسلمهم الحكومة. في شهر محرم عام ٧٨١هـ (السنة التي بدأ فيها السيد حيدر بكتابة الشرح المفصل

لفصوص ابن عربي وانتهى منها بعد عام) مرض المير الكبير بشدة، وعين ابنه الأكبر السيد كمال الدين وصياً من بعده، وعند موته حمل جسده إلى آمل ودُفن فيها، ونصبت قبة فوق مزاره. وسمّي البناء: (إمام زاده المير الكبير) واستمر أولاد المير الكبير بحكمهم حتى عام ٧٩٤هـ عند هجوم تيمورلنك على مازندران. عندها لجأ السادة إلى ما وراء النهر، وعيّن أمير تيمور اثنين من أعوانه مكانهما. أحدهما: إسكندر الشيخي ابن أفراسياب الشلابي. وورث إسكندر حقد أبيه فقام بهدم مزار المير الكبير وتسويته بالأرض.

استمرار الحوادث الأليمة التي أنهت عهد فخر الدولة تؤكد أن السادة المرعشيين كانوا على شاكلة مصاصي الدماء نجون بخت. فهل كان السيد حيدر حياً آنذاك؟ هل اطلع على تلك الأحوال؟ لا يمكننا الإجابة عن هذه الأسئلة، لأن آخر خبر وصلنا عنه يعود إلى العام ٧٨٧هـ عند تحرير آخر كتابه وكان عمره ٦٧ عاماً (٦٥ عاماً شمسياً) أي قبل هجوم أمير تيمور على آمل بسبعة أعوام.

المرحلة الثانية: من عهد السلالة المرعشية بدأت عام ٨٠٧هـ مع موت أمير تيمور. عندئذٍ سمح سلفه شاهرخ للسادة أن يعودوا إلى مازندران. وفي عام ٨٠٩ هـ استلم الحكم حفيد المير الكبير السيد علي قوام الدين (ابن السيد رضي الدين حاكم آمل السابق) واستمرت سلالة المرعشية بالحكم حتى عام ١٠٠٥هـ مع إدغام مازندران في الدولة الصفوية.

(إمام زاده) الذي خربه إسكندر بن أفراسياب أعيد بناؤه في عهد الشاه عباس الأول، وكان (de Morgan) قد زار المنطقة قبل ذلك فوجده مهدّماً. واليوم تبذل الجهود لإعادة تشييده، لكن كما يبدو في الصورة فقد اختفت القبة من فوقه.

وكان المبنى من حجر الآجر، وتغطيه من الداخل والخارج الكاشي بنقوش هندسية. لكن لم تبق آثار مهمة من بناء إمام زاده. في وسط البناء يقع قبر المير الكبير وفوقه مزيّن بالكاشي ونقوش الورود الزرقاء والحمراء. وعلى القبر قطع قماشية طرّزت بآيات قرآنية بخط جميل.

وبناء إمام زاده المير الكبير الذي كان منذ حياة السيد حيدر الآملي قائماً حتى اليوم وقد اقترن بتاريخ آمل، وجدناه خير ما نبدأ به كتب السيد حيدر.

(راجع: عباس شايان: مازندران، الجغرافيا التاريخية والإقتصادية، ج٢، طهران ١٩٥٧م، ج٢، ص٢١٥-٢٢٢، وإسماعيل المجهوري (؟) تاريخ مازندران، طهران ١٩٦٦م، ج٢، ص١٤-٢٤).





تصدير عام

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

الآثار العلمية للشيخ الآملي

يعتبر الانتاج العقلي لشيخ آمل؛ السيد حيدر بن علي بن حيدر العلوي الحسيني، من قمم التفكير الإسلامي في القرن الثامن للهجرة، فمؤلفاته التي حفظها لنا الزمن وأمكن الاطلاع على بعضها، تصور نضوج الحكمة العرفانية في الإسلام، وانتظامها سائر النشاط الفكري والديني على السواء. وهذه الآثار العلمية الفذة، مع نظائرها في نفس عصر الشيخ الآملي وما يليه، إن في شرق العالم الإسلامي أو في غربه، هي أصدق برهان على تهافت الرأي السائد في بعض الأوساط الفكرية، الزاعم بفقدان الأصالة في الروح الإسلامية وانتاجها العلمي، ابتداء من أواخر القرن السادس للهجرة حتى الوقت الحاضر.

وغرضنا الأخص في هذا التصدير العام لكتابين ينشران لأول مرة، هو اقامة ثبت شامل لجميع ما خطته يراع شيخ آمل في حقول المعارف الإنسانية والآداب الإسلامية. ولكن يجب أن نصرح، قبل كلّ شيء، أن محاولتنا هذه ليست نهائية، بل بالأحرى هي في طور البداية، كما أنها ليست قطعية، ولكن ظنية يشوبها الغموض والحدس والافتراض. وعذيرنا في ذلك كلّه، أن الجانب الأعظم من انشاء هذا المفكر الإسلامي الكبير، لا يزال حتى الآن مفقوداً، أو على الأقل غير معروف. وجميع الذين ترجموا له لم يأتوا بما يشفى الغليل، في هذا السبيل. فنحن، مثلاً، لا نعلم عن تكوينه العقلي والروحي إلا لمحات ضئيلة، من خلال كتب التراجم والتاريخ، لا تشبع مطلقاً رغبة الباحث المتعطش. كما أنّ السمات الخاصة لحياته ونشأته الزمنية، هي مجهولة لنا في خطوطها الكبرى.

ومهما يكن في الأمر من شيء فإنّ بعض النصوص التي تركها لنا شيخ آمل عن

حياته الفكرية والزمنية وعن آثاره العلمية، كانت بمثابة النبراس في هذا الطريق المظلم. وهي - أعني هذه النصوص الخاصة - بالإضافة إلى الذين ترجموا له من قدامى ومعاصرين، ستكون عمدتنا في هذه المحاولة الأولى لارساء الحجر الأساسي في هيكل انتاجه العلمي الخصيب، وصياغة الاطار العام لآثاره الخالدة.

١ - المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي

في مطلع المقدمة العامة لكتاب «نص النصوص في شرح الفصوص» سجل لنا شيخ آمل، بخط يده، واحداً وعشرين كتاباً من تصانيفه السابقة على شرحه الكبير لفصوص الحكم للشيخ ابن العربي الحاتمي. ومما يضفي على هذه الوثيقة الخاصة من أهمية تاريخية وقيمة علمية، أن المصنف ذاته، حين تعداده مؤلفاته السابقة، أرفق ذكر كل كتاب أو رسالة له بوصف موجز عن موضوعه ومسائله، وذكر بعض القرائن الزمنية لذلك الكتاب أو تلك الرسالة. من أجل هذا، فقد رأينا في مستهلّ هذا التصدير العام، أن نثبت نصّ هذه الوثيقة الهامة بحذافيره. وهو في الحقيقة فهرس مفصّل لعدد كبير من آثار الشيخ. وهذا النص مستخرج من مخطوط خزانة جار الله، إحدى خزائن دار كتب السليمانية العامرة في مدينة اسطنبول، ورقمه ١٠٣٣، وهو ثابت في ورقتين، رقمهما: ٢ب - ٣ ألف من المخطوط المذكور. وسنراعي في تعداد مصنّفات الشيخ الآملي نفس الترتيب الوضعي الذي ورد في مطلع مقدمة «نصّ النصوص في شرح الفصوص».

١ - **كتاب مجمع الأسرار ومنبع الأنوار(٢)**: وفي التوحيد وأسراره وحقائقه وما يتعلّق به من تعريفه وتقسيمه وشكوكه وشبهاته ونكاته ورموزه واشاراته؛ - وبيان أنه منحصر في (التوحيد) الألوهي و (التوحيد) الوجودي لا غير؛ (وأنه) منقسم (أيضاً) إلى (التوحيد) الذاتي والوصفي والفعلي، أو (التوحيد) العلمي والعيني والحقي؛ - وما يتبعه من بحث النبوة والرسالة والولاية؛ وبحث الشريعة والطريقة والحقيقة، وبحث الإسلام والإيمان والإيقان - وأمثال ذلك.

٢ - **رسالة الوجود في معرفة المعبود**: وما يتعلّق به (أي الوجود) من اطلاقه وبداهته ووجوبه ووحدته وظهوره وكثرته؛ - واثبات أنّه (أي الوجود) واجب [ورقة

٣ ألف] الوجود لذاته وممتنع العدم لذاته، وليس في الخارج غيره؛ - «وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهي بكلّ شيء عليم».

٣ - **رسالة المعاد في رجوع العباد**: وما يتعلّق به (أي المعاد) من القيامات الثلاث وتحقيقها، ، التي هي (القيامة) الصغرى والوسطى والكبرى؛ - واثبات أنها (أي القيامات) **تنقسم إلى اثني** عشر (كذا) **قيامة، صورية ومعنوية**، بحكم التطبيق (أي المطابقة والموافقة) بين (عالم) الآفاق و (عالم) الأنفس.

٤ - **كتاب الأصول والأركان في تهذيب الأصحاب والاخوان**: المشتمل على الأصول الخمسة، الدايرة (كذا) كل واحدة (كذا) منها على مراتب ثلاث: من الشريعة والطريقة والحقيقة؛ - وعلى الفروع الخمسة، الدايرة (كذا) كل واحدة (كذا) منها على مراتب ثلاث كذلك.

٥ - **رسالة العلم وتحقيقه بطريق الطوائف الثلاث**: من الصوفي (كذا) والحكيم (كذا) والمتكلّم (كذا)؛ - وبيان موضوع كل علم منهم (كذا) ومحموله، مع مسائله ومباديه وما يتعلّق بذلك من الأبحاث الدقيقة والنكات الشريفة.

٦ - **رسالة العقل والنفس**: والفرق بينهما بحسب الكلّي والجزئي، وغير ذلك من الأبحاث المتعلقة بهما.

٧ - **رسالة الأمانة الإلّهية في تعيين الخلافة الربانية**: بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾[١]، الآية؛ - وبيان أنّ «الظلومية» و «الجهولية» مدح له (أي للإنسان) ليس فوقه مدح آخر، بخلاف ما ظنّ الجاهل أنّه مذمة في حقّه.

٨ - **رسالة الحجب وخلاصة الكتب**: في تحقيق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾[٢] وقول نبيه ﷺ: «**إنّ لله تعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة**» - الحديث؛ فإنّ التطبيق (أي التوفيق) بين هذين القولين في غاية الصعوبة، (لا) سيما على حسب الكلّي والجزئي؛ - وتعبيرهما (أي القرآن والسنة) بألف سنة، وخمسين

---

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٧٢.
(٢) سورة الحاقة: الآية ٣٢.

ألف سنة، وثلاث مائة ألف سنة لقولهم (أي بعض العارفين): «**أنا أقل من ربّي بسنتين**» ولقولهم: «**ليس بيني وبين ربّي فرق إلا أني تقدمت بالعبودية**».

٩ - **رسالة الفقر وتحقيق الفخر**: والتطبيق (أي التوفيق) بين الأحاديث الثلاثة الواردة فيه، لقوله عليه السلام: «**الفقر فخري وبه أفتخر على سائر الأنبياء والمرسلين**» ولقوله: «**الفقر سواد الوجه في الدارين**»، ولقوله: «**كاد الفقر أن يكون كفراً**».

١٠ - **رسالة الأسماء الإلّهية وتعيين المظاهر لها من الأشخاص الإنسانية**: من آدم إلى محمد ﷺ وما بينهما من الأنبياء والرسل عليهم السلام.

١١ -**رسالة النفس في معرفة الربّ**: بحكم قوله ﷺ: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»، وبمقتضى التنزيل، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1]، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2].

١٢ - **رسالة أسرار الشريعة وأنوار الحقيقة**: وبيان كل واحدة (كذا) منها مع أهلها، لقوله ﷺ: «**الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي**»، ولقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾[3].

١٣ - **رسالة الجداول الموسومة بمدارج السالكين في مراتب العارفين**: المشتملة على المائة من المقامات الأصولية (كذا)، وعلى الألف من المراتب الفروعية (كذا)، لدوران المائة، في الأقسام العشرة، عشر مرات.

١٤ - نقد النقود في معرفة الوجود: المنتخب من رسالة الوجود لنا.

١٥ - نهاية التوحيد في بداية التجريد: المنتخب من مجمع الأسرار ومنبع الأنوار لنا.

١٦ - منتقى المعاد في مرتقى العباد: المنتخب من كتاب المعاد لنا.

١٧ - رسالة التنبيه في التنزيه: بالنسبة إلى الله تعالى.

١٨ - أمثلة التوحيد وأبنية التجريد: في مقابلة «اللمعات» للعراقي.

---

(١) سورة الحديد: الآية، ٤.

(٢) سورة الذاريات: الآية، ٥١.

(٣) سورة الواقعة: الآية، ٧.

١٩ - رسالة كنز الكنوز وكشف الرموز.

٢٠ - **كتاب تعيين الأقطاب والأوتاد**: وحصرهم في تسعة عشر لا غير، دون الثلاث مائة، والأربعين، والسبعة، والثلاثة، والواحد، - الراجعة عند التحقيق إلى **التسعة عشر، التي هي الأصل في الكلّ**.

بعد أن جرّد الشيخ الآملي هذا الجزء من ثبت مصنفاته، على قدر ما وعته ذاكرته في ذلك الحين، ختم هذا الفهرست بذكر آخر كتاب له، قبل شروعه في شرحه الكبير الذي وضعه على فصوص الحكم للشيخ ابن العربي. غير أنه استطرد فذكر، فيما بين ذلك، أشياء خاصة لها صلة بحياته في العراق وتواليفه فيها، فقال: «وأمثال ذلك (من الكتب والرسائل التي يبلغ تعدادها) إلى نحو أربعين كتاباً ورسالة، عربية وعجمية. ثمّ بعد الكلّ، في هذه المدّة الطويلة، التي هي ثلاثون سنة كاملة (التي قضاها الشيخ في العراق وفى المشاهد المقدسة) تفرغ لوضع تأويل القرآن الموسوم:

٢١ - **المحيط الأعظم والطود الأشمّ في تأويل كتاب الله العزيز المحكم**: المرتّب على سبع مجلدات كبار، بازاء تأويل الشيخ الأعظم نجم الدين رازي، المعروف بداية - قدّس الله سرّه - فإنه رتب كتابه على ست مجلدات كبار، بعد تسميته «ببحر الحقائق ومنبع الدقائق». ونحن أردنا أن يكون لنا (كتاب) على قرنه، من كل الوجوه - وبمقتضى الحديث الوارد فيه أيضاً: «**إنّ للقرآن ظهراً وبطناً، إلى سبعة أبطن**»؛ . واشتماله على السبعات المعلومة، وغير ذلك مما أوجب ترتيبه عليها. واشتهر ذلك (التفسير) في الأقاليم والبلدان، وتحقق (كذا) صورته عند أعاظم أهل التحقيق والعرفان، وتقرر بينهم أنه عديم المثل والنظير (لا) سيّما في علوم القررن، وأنّه ليس بكسب ولا اجتهاد، بل افاضة غليبية، بطريق الكشف من حضرة الرحمن».

٢٢ - **نصّ النصوص في شرح الفصوص**: جعلته هدية إلى حضرة السلطان العالم العادل، والملك الفاضل الكامل، سلطان سلا طين العرب والعجم... ممهّد القواعد الدينية والقوانين الإسلامية على الطريق المستقيم... مطاع إيران وتوران، صاحب قران الأدوار والأكوان، محيى دولة جنكز قان، انشروان الأوان، اسكندر

الزمان... السلطان بن السلطان، القان بن القان... أحمد بهادُرْ خان...» (ورقة ٢ ألف - ٢ب).

هذه الوثيقة الخاصة بمؤلفات الشيخ الآملي، على الرغم من أهميتها الكبرى، تثير بعض المشاكل التاريخية بالنسبة إلى قسم من مصنفات شيخ آمل وترتيبها الزمني وسنتعرض إلى هذه المسألة المعقدة، بشيء من التفصيل، فيما بعد.

وفي نطاق المصادر المباشرة لمصنفات شيخ آمل، يجب أن نذكر أيضاً ما عثرنا عليه من أسماء آثار علمية له ذكرها في كتابيه: «جامع الأسرار ومنبع الأنوار» و «رسالة نقد النقود في معرفة الوجود»، اللذين ينشران الأول مرة، مع الرجال أن يكونا باكورة طيبة لنشر جميع آثار هذا المفكر الإيراني العظيم.

إنّ كتاب «جامع الأسرار ومنبع الأنوار» - وهو من أوائل تواليف الشيخ الآملي في العراق - يذكر ثمانية كتب سابقة له، وهي، على حسب ترتيبها الأبجدي لا على حسب ورودها في الكتاب السالف الذكر: أسرار الشريعة وأنوار الحقيقة، وأمثلة التوحيد، وجامع الحقائق، ورسالة الأركان، ورسالة الأمانة، ورسالة التنزيه، ورسالة التوحيد، وأخيراً رسالة منتخب التأويل: - أمّا في «رسالة نقد النقود في معرفة الوجود» التي دبجها الشيخ بالمشهد الشريف «الغروي» بعد كتابه الكبير «جامع الأسرار...» فيتعرض لذكر أربعة من آثاره العلمية، وهي: كتاب جامع الأسرار، ورسالة الأمانة، ورسالة الوجود، ورسالة منتخب التأويل.

بناء على ما تقدم، يكون عدد الكتب والرسائل التي عرفت للشيخ الآملي، عن طريق مصنفاته ذاتها، ستاً وعشرين كتاباً ورسالة. وذلك بعد حذف المكرّر منها.

٢ - المصادر غير المباشرة لتواليف الشيخ الآملي

نقصد بذلك طائفة من كتب التراجم والتاريخ التي تعرضت لذكر شيخ آمل وسرد حياته وتعداد مصنفاته. نذكر منها: كتاب الفوائد الرضوية، ومعجم المؤلفين، وايضاح المكنون، وريحانة الأدب، ومجالس المؤمنين، وأعيان الشيعة، وروضة الجنات، وطرائق الحقائق، والذ ريعة إلى تصانيف الشيعة -. ومن بين الدراسات المعاصرة - وهي وحيدة في بابها - يجب أن ننوه بصورة خاصة بالأبحاث الهامة

التي اضطلع بها أستاذنا الكبير هنري كربين حول هذه الشخصية العلمية، والذي يرجع إليه الفضل حقاً في معرفتنا بحياة شيخ آمل وآثاره الفكرية، كما أنّ إليه تعود فكرة نشر هذين الكتابين للشيخ الآملي.

ومجموعة الكتب والرسائل المستخرجة من هذه المصادر غير المباشرة يبلغ تعددها ثمانية عشر. وهي: المحيط الأعظم في تفسير القرآن، وفص الفصوص في شرح فصوص الحكم لابن العربي، وجامع الأسرار ومنبع الأنوار، وتلخيص اصطلاحات الصوفية، والبحر الخضمّ في تفسير القرآن الكريم، والكشكول فيما جرى على آل الرسول، ومنتخب التأويل، والتأويلات، ورسالة العلوم العالية، والأركان في فروع شرائع أهل الإيمان، ورسالة رافعة الخلاف، ورسالة في الأمانة، ورسالة التنزيه، والمسائل الآملية، واصطلاحات الصوفية، وجامع الحقائق، ونص النصوص، ومنتخبات أنوار الشريعة.

وكذلك يكون ثبت تواليف شيخ آمل، بالنسبة إلى مصادرها المباشرة وغير المباشرة، مكوّناً من أربع وأربعين كتاباً ورسالة. وإذا ما أسقطنا من هذا المجموع ما هو مكرر أو متعدد الرواية، يكون ما نعرفه اليوم عن عدد مؤلفاته هو خمس وثلاثون كتاباً ورسالة. وهذا رقم يقرب جداً مما يذكره الشيخ نفسه في مستهل مقدماته لشرح الفصوص وفي آخرها كذلك.

٣ - الترتيب الزمني لمؤلفات الشيخ الآملي

كما أبقى لنا شيخ آمل في ثنايا كتبه ورسائله، دلالات واضحة استطعنا على ضوئها تشييد صرح تواليفه وآثاره العلمية، كذلك لقد ترك لنا، من خلال كتبه ورسائله أيضاً، مجموعة طيبة من النصوص، من شأنها أن تعين الباحث على تتبّع مجرى حياته وتطوّره الروحي، وبصورة خاصة على ما له صلة مباشرة بانتاجه العلمي وتأريخه الزمني. وسنقتصر في هذا المقام على نص واحد، مستخرج من أواخر مقدماته على شرح الفصوص، نذكره بتمامه. وهذا النصّ رقمه في مخطوط جار الله: ١٠٧ ألف ١٠٧ ب.

«إنّ الله تعالى لمّا أمرني بترك ما سواه، والتوجّه إليه حقّ التوجّه، ألهمني بطلب

(كذا) مقام ومنزل أسكن فيه وأتوجّه إلى عبادته وطاعته، بموجب أمره واشارته، - (مكان) لا يكون أعلى منه ولا أشرف، في هذا العالم.

«فتوجهت إلى مكة - شرّفها الله تعالى - بعد ترك الوزارة والرياسة والمال والجاه والوالد والوالدة، وجميع الأقارب والاخوان والأصحاب.

ولبست خرقة ملقاة خلقاً، لا قيمة لها. وخرجت من بلدي الذي هو الآمل والطبرستان، من طرف خراسان.

«وكنت وزيراً للملك الذي (هو) بهذا البلد. وكان من أعظم ملوك الفرس، لأنّه كان من أعظم أولاد كسرى. وكان اسمه الملك السعيد فخر الدولة بن الملك المرحوم شاه كتخدا - طاب (كذا) الله ثراهما وجعل الجنة مثواهما - وكان عمري في هذه الحالة ثلاثين سنة.

«وقد جرى عليّ إلى حين الوصول إلى مكة، في هذه الصورة، أنواع من البليات، وأصناف من المجاهدات، لا يمكن شرحها إلا بمجلّدات. ومع ذلك كان أكثر الحالات جارياً على لساني قول الله - جل ذكره: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1]، وقول العارف المشتاق مثلي، وهو قوله:

تركت الخلق طراً في رضاكا وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعتني أرباً فأرباً لما حنّ الفؤاد إلى سواكا

«وعلى الجملة، (ما زال هكذا شأني) حتّى وصلت إلى مكة. وحججت وجوباً. وقمت بالفرائض والنوافل، من المناسك وغيرها، سنة إحدى وخمسين وسبع مائة من الهجرة. وأردت المجاورة بها، فحصل لي شوق إلى المجاورة بالمدينة؛ فإني ما كنت زرت رسول الله ﷺ وعزمت على المجاورة. فحصل لي أيضاً مانع من الموانع، أعظمها المرض (ورقة ١٠٧ ب) الصوري، بحيث وجب الرجوع إلى العراق. و (إلى) المكان المألوف الذي هو المشهد الغروي المقدس - سلام الله على مُشرّفه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٠.

«فرجعت بالسلامة إليه. وسكنت فيه، مشتغلاً بالرياضة والخلوة والطاعة والعبادة، التي لا يمكن (أن يكون) أبلغ منها، ولا أشدّ ولا أعظم. ففاض على قلبي من الله تعالى، (ومن) حضراته الغيبية، في هذه المدّة، غير ما قلته من تأويل القرآن وشرح الفصوص، من المعاني والمعارف والحقائق والدقائق، التي لا يمكن **تفصيلها بوجهٍ من الوجوه، لأنها من كلمات الله الغير القابلة للحصر** والعدّ والانتهاء والانقطاع.

«فأمرني (الحقّ تعالى) باظهار بعض ذلك على عبيده الخواصّ له. فشرعت في تصنيف كتاب في التوحيد وأسراره على ما ينبغي؛ فكتبته في أدنى مدّة وسميته «بجامع الأسرار ومنبع الأنوار». ثمّ بعده (شرعت) في «رسالة الوجود في معرفة المعبود». ثمّ بعدها في «رسالة المعاد في رجوع العباد» ثمّ بعدها في رسائل وكتب إلى أن بلغت أربعين رسالة وكتاباً، عربية وعجمية.

«ثمّ أمرني (الحقّ تعالى بعد ذلك» بتأويل القرآن الكريم، فكتبته بعد هذا كلّه. فجاء في سبع مجلدات كبار؛ وسميته: «بالمحيط الأعظم والطود الأشمّ في تأويل كتاب الله العزيز المحكم». وكذلك خرج (هذا الكتاب) في غاية الحسن والكمال، وظهر في نهاية البلاغة والقصاحة، بعناية الملك ذي العزة والجلال، بحيث ما سبقني أحد مثله بمثله، ولا ترتيباً ولا تحقيقاً ولا تلفيقاً (اقرأ: توفيقاً). - وقد سبق بيانه في الفهرست أيضاً.

«ثمّ أمرني (الحقّ تعالى) «بشرح فصوص الحكم»، الذي هو منسوب إلى رسول الله ﷺ وأعطاه للشيخ الأعظم محيي الدين الأعرابي (كذا) - قدّس الله سره - في النوم، وقال له: أوصله إلى عباد الله، المستحقّين المستعدّين كما بيّناه في الفهرست.

«فشرعتُ في شرحه هذا، بموجب ما تقدم تقريره، وسبق تحقيقه. وهذا كان بعد مجاورتي بالمشهد المقدّس المذكور ثلاثين سنة، على الوجه المذكور. وكان الابتداء فيه سنة إحدى وثمانين وسبع مائة من الهجرة، والانتهاء سنة اثنين وثمانين وسبع مائة أعني (أنّه) تمّ في سنة واحدة، وبل (كذا) أقلّ منها. وكان عمري في هذه الحالة ثلاثاً وستين سنة».

على ضوء هذا النصّ الهام والمفصّل، ومع الاستعانة بنصوص أخرى للمصنف ذاته في كتبه الأخرى، نستطيع أن نتلمس الخطوط الكبرى لحياة شيخ آمل، وبالتالي يمكننا تحديد الاطار العام لتواليفه وآثاره العلمية، في ترتيبها الزمني المتلاحق.

كانت ولادة شيخنا في بلدة آمل، حوالي سنة **٧١٩ أو** سنة **٧٢٠** للهجرة. والحقبة الممتدة من هذا **التاريخ حتّى سنة ٧٥١**، **أي ما يزيد قليلاً** على ثلاثين عاماً، هذه الحقبة الخاصة من وجود الشيخ يمكن تسميتها بالدور الفارسي الأول، لنشأته الزمنية. وفي خلال هذه الفترة المحدّدة أتمّ شيخ آمل تكوينه الفكري وثقافته الإسلامية في المراكز العلمية الفارسية، ولا سيما بأصبهان، إحدى عواصم الفكر الإسلامي الخالد، على ممر الأجيال. وفي هذه الفترة أيضاً، وبتعبير أكثر دقة في مستهل شبابه المتفتح، مارس شيخنا بعض الوظائف الاجتماعية المرموقة، وهي، على حد قوله، تصدره للرياسة والوزارة، ومن المحتمل أن يكون هذا في حدود عام **٧٤٠ - ٧٥١** للهجرة.

وفي المراحل الأخيرة من حياة الشيخ الأولى بإيران، بدأت تغشاه بعض الظواهر النفسية والوجدانية، التي هي بمثابة الارهاصات لا تجاهه الصوفي والعقلي في المستقبل. ولنترك هنا أيضاً شيخنا يحدثنا عن نفسه بنفسه: «اعلم أنّي كنت في حالة السلوك بأصفهان. وكنت عازماً (على السفر) إلى بغداد لزيارة المشاهد المقدسة اللائمة... وزيارة بيت الله الحرام، على سبيل الوجوب والمجاورة. فرأيت ليلة من الليالي، في النوم، أنّي واقف في وسط سوق البزازين به (كذا)، وأشاهد جسمي على الأرض... ممدوداً بالطول، وهو ميت، ملفوف بالكفن الأبيض، وأنا أتفرج عليه، وأتعجب من هذا: بأني كيف (أنا) واقف، وكيف أنا ميت مرميّ؟ (ولا زلت على هذه الحالة) حتّى انتبهت» (مخطوط جار الله، نص النصوص في شرح الفصوص، رقم ١٠٣٣ ورقة ٢١ ب).

«ورأيت مرّة أخرى أيضاً، في أصفهان، أنّي قاعد على دكان بعض الأصحاب... وعلى كتفي ظرف من الرصاص المذهب، كظرف بعض السقائين الذين هم يدورون على الناس ويسقونهم... وأنا أسقي الحاضرون (كذا) هناك، وأتفرج على نفسي...» (نفس المصدر والورقة).

كما أنّه أثناء وجود الشيخ بإيران يمكن القول أنّ الرسائل والكتب الوارد ذكرها في «جامع الأسرار» هي في معظمها، إن لم يكن كلّها، من نتاج هذه الفترة الخاصة، في حياة شيخنا. ودليلنا على هذا التقدير، هو أنّ هذا المصنّف كان من بواكير تواليفه في العراق، كما صرح بذلك مرتين في مقدماته على شرح فصوص الحكم. فالكتب والرسائل المذكورة فيه تكون إذاً بمجموعها أو بمعظمها سابقة على هذه الفترة. ويمكن الافتراض أن هذه الفترة تتراوح بين عام ٧٤٢ وعام ٧٥١ للهجرة، أي في الوقت الذي كان شيخنا يستقبل حياته الشابة الفتية وهو في السن الثاني والعشرين والثلاثين.

من أجل هذا، يتحتم علينا أن لا نأخذ الترتيب الوضعي لفهرس مؤلفات الشيخ الآملي الذي أثبته في صدر شرحه لفصوص الحكم، على علانه، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق. فإنّ بعض الكتب والرسائل الواردة في هذا الفهرست، والتي جاء ذكرها بعد كتاب جامع الأسرار، هي في الحقيقة من المصنفات السابقة عليه.

وابتداء من عام ٧٥١ للهجرة حتى عام ٧٨٢، أو بعده بقليل، برز دور جديد من حياة الشيخ، وهي فترة تتراوح بين إحدى وثلاثين سنة قضاها شيخنا كلها في العراق وفي المشاهد المقدسة. ويمكن تسمية هذا الجزء من حياة شيخ آمل بالحقبة العراقية؛ وفيها أنجز الشطر الأعظم من آثاره العلمية. وهذه الحقبة من حياة الشيخ يمكن تجزئتها أيضاً إلى قسمين القسم الأول، يمتدّ من عام ٧٥١ إلى عام ٧٦٨، وهو تاريخ تأليف كتابه «نقد النقود في معرفة الوجود»؛ القسم الثاني، يمتدّ من هذا التاريخ حتى عام ٧٨٢ وفيه أتم بصورة خاصة وضع تفسيره الكبير للقرآن الكريم وشرحه المفصل لفصوص الحكم لابن العربي الحاتمي.

أمّا الكتب والرسائل التي كان تأليفها في القسم الأول من حياته في العراق فالذي نعلم منها على وجه التحديد: كتاب جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ورسالة الوجود في معرفة المعبود، ورسالة المعاد في مرتقى العباد، ونهاية التوحيد في بداية التجريد، ومنتقى المعاد في مرتقى العباد، ونقد النقود في معرفة الوجود. - أمّا آثار الشيخ في القسم الثاني من حياته العراقية، فلا نعلم منها على وجه التحديد سوى

كتاب نص النصوص في شرح الفصوص، الذي أنهاه عام ٧٨٢ للهجرة، وتفسيره الكبير للقرآن الذي كان أتمه قبيل هذا التاريخ، وعلى الغالب، كان ذلك بين عام ٧٧٧ - ٧٨١ للهجرة.

هذا، وينبغي قبل أن نغادر هذا الموطن، أن نشير إلى أنّ «رسالة رافعة الخلاف...» - على ما يرى الأستاذ كربين، هي من تصانيف الفترة العراقية الأولى، إذ هي قد أنشئت أثر وصول الشيخ إلى العراق، بناء على رغبة الشيخ فخر المحقّقين محمّد بن الحسن بن المطهر الحلي المتوفى عام ٧٧١ للهجرة، كما أن رسالة: «العلوم العالية»، في رأي الأستاذ كربين، تاريخ تحريرها سنة ٧٨٧، أي في الفترة الأخيرة من حياته.

٤ - الترتيب الموضوعي لمؤلفات الشيخ الآملي

ما دام الجانب الأعظم من تصانيف شيخ آمل لا يزال مجهولاً لدينا، فإنّه لمن الصعوبة بمكان اقامة مخطط شامل، يحدد بدقة موضوعات آثاره العلمية ومسائلها وغاياتها. ولكن ما تيسر لنا الاطلاع عليه من تواليف الشيخ، بالإضافة إلى وصفه التحليلي لمنشآته في فهرسه، وإلى ما استشهد به مراراً من آثاره السابقة في ثنايا كتابية «جامع الأسرار» و«نقد النقود» - كل هذا، كان من شأنه أن أتاح لنا تسهيل غرضنا البدائي في هذا السبيل. وفي السطور التالية بيان موجز وتسمى عن الموضوعات العامة لآثار الشيخ الآملي.

الطابع العام لتواليف شيخ آمل هو الحكمة العرفانية. وهذا نمط أو منهج في التفكير بتميز تماماً من علم الكلام والفلسفة. وهذه النزعة الخاصة تسيطر على آثار شيخنا كلها، حتّى على كتبه النادرة في التاريخ والجدل. والحكمة العرفانية عند الشيخ. كما هي عند جميع العرفاء قبله وبعده، طريقة كلية متكاملة، أساسها وحدة الحقيقة ووحدة الوجود «الايجادي» وهي تنتظم جميع ضروب النشاط العقلي والروحي، من آلهيات وشرعيات ونفسانيات وأخلاقيات، وغير ذلك.

على ضوء ما تقدم، يمكن أن نحدد نسبياً آثار الشيخ الآملي في الموضوعات التالية.

١ - **نقد المعرفة**.

رسالة العلم وتحقيقه: العلوم العالية.

٢ - **الفلسفة الدينية**: رسالة التوحيد؛ كتاب الأصول والأركان... رسالة الأمانة الإلهية... **أسرار الشريعة** وأنوار الحقيقة؛ **جامع الحقائق**؛ رسالة كنز الكنوز... جامع الأسرار... **نهاية التوحيد**... نص **النصوص**... **أمثلة** التوحيد...

٣ - **الإلّهيات**: رسالة الأسماء الإلّهية... رسالة التنبيه في التنزيه؛ رسالة الحجب الإلّهية.

٤ - **الفلسفيات**: رسالة الوجود في معرفة المعبود؛ رسالة نقد النقود... رسالة العقل والنفس...

٥ - **الروحانيات**: رسالة المعاد في مرتقى العباد؛ رسالة النفس في معرفة الرب؛ مدارج السالكين... منتقى المعاد...

٦ - **السرّيات**: كتاب تعيين الأقطاب والأوتاد...

٧ - **التأويلات**: منتخب التأويل... المحيط الأعظم... البحر الخضم...

٨ - **التاريخيات**: الكشكول فيما جرى على آل الرسول.

٩ - **الجدليات**: رسالة رافعة الخلاف...

١٠ - **اللغويات**: اصطلاحات الصوفية؛ تلخيص اصطلاحات الصوفية.

٥ - الفهرس العام لمؤلفات الشيخ الآملي

الأركان: رسالة الأركان.

١ - الأركان في فروغ شرايع أهل الإيمان:

مذكور ضمن ترجمة المؤلف في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣ وايضاح المكنون ٢/ ١٩٣، ٤٩٣ ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤ ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١ والفوائد الرضوية ص ١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ رضا الأميني مدير مكتبة الإمام أمير المؤمنين ﷺ العامة بالنجف الأشرف). وانظر فيما بعد رسالة الأركان وكتاب الأصول والأركان...

٢ - أسرار الشريعة وأنوار الحقيقة:

مذكور في جامع الأسرار ومنبع الأنوار ص٨٨، ٣٧٧ وفي نص النصوص مخطوط جار الله ١٠٣٣ ورقة ٣ ألف - وانظر وصف الكتاب فيما سبق: المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي، كتاب رقم ١٢.

الأسماء الإلهية: رسالة الأسماء الإلهية.

٣ - اصطلاحات الصوفية:

مذكور ضمن ترجمة المؤلف في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ رضا الأميني).

الأصول: والأركان في تهذيب الأصحاب والاخوان = كتاب الأصول والأركان. . .

الأمانة الإلهية: في تعيين الخلافة الربانية = رسالة الأمانة الإلهية. .

٤ - أمثلة التوحيد وأبنية التجريد:

مذكور في «جامع الأسرار» ص٦١٤، وفي نص النصوص ورقة ٣ ألف، وضمن ترجمة المؤلف بعنوان «رسالة أمثلة التوحيد» في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني، وفي بحث الأستاذ كربين عن الآملي،٦ - انظر وصف الكتاب فيما سبق: لمصادر المباشرة لتواليف الآملي، كتاب رقم ١٨ - ويصرح المصنف في «جامع الأسرار» بأنّ هذا الكتاب ألف بالفارسية حيث كان طالبوه أعجاماً.

٥ - البحر الخضم في تفسير القرآن:

مذكور ضمن ترجمة المؤلف في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١ والفوائد، الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني). - ويقارن هذا

العنوان بعنوان الكتابين الآتيين: المحيط الأعظم في تفسير القرآن الكريم، والمحيط الأعظم والطود الأشمّ في تأويل كتاب الله العزيز المحكم.

التأويلات: رسالة منتخب التأويل.

تعيين الأقطاب والأوتاد = كتاب تعيين الأقطاب والأوتاد.

٦ - تلخيص اصطلاحات الصوفية:

مذكور ضمن ترجمة المؤلف في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣، / وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص ١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني).

التنبيه في التنزيه= رسالة التنبيه في التنزيه.

التنزيه: رسالة التنبيه في التنزيه.

التوحيد: رسالة التوحيد.

٧ - جامع الأسرار ومنبع الأنوار:

مذكور في رسالة نقد النقود للمصنف ص ٦٩٣، ونص النصوص٢ ب (بعنوان «مجمع الأسرار. . . .») وبحث الأستاذ كربين عن الآملي رقم٩، وضمن ترجمة المؤلف في أعيان الشيعة ٢/ ٢٥ - ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني)، وريحانة الأدب ٢/ ٤٩٨ رقم ٨٩٢.

النسخ الموجودة: ١ مكتبة الإمام أمير المؤمنين ﷺ العامة بالنجف الأشرف، الرقم العام ١١٣٠، قياسه ٥/ ٢١ سم × ٥/ ١١ سم، عدد أوراقه ٢٣٦ ورقة، بخط محمد باقر بن محمد كاظم القائيني الخراساني، كتبه بطهران بتاريخ ١٣ صفر سنة ١٢٦٤ هجرية (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني) ٢ - مكتبة المجلس بطهران، رقم ١٤١٠ ورقة ١ - ١٦٨، مسطرته ٢٠ سطراً، بخط نسخ واضح، ناقص الآخر ٣ - كتابخانه ملّى طهران، رقم ٢٦٦ ورقة ١ - ٣١٧ مسطرته ٢٠ سطراً، بخط نسخ واضح، عليه تعليقات ٤ - كتابخانه دانشگاه طهران فهرست ٣، ١، ص ٤٢٥ (نقلاً

عن الأستاذ كربين في بحثه عن الآملي، رقم ٩. ويضيف الأستاذ كربين بأن للكتاب نسختين محفوظتين في مدينة مشهد في مكتبة الإمام الرضا (عليه السلام).

انظر وصف الكتاب فيما سبق، المصادر المباشرة لتواليف الآملي، رقم١ وفي مقدمة الكتاب نفسه - هذا ويحتوي الكتاب على أشياء هامة خاصة عن حياة المصنف ودراسته وآثاره السابقة: ٣، ٤ - ٥، ٧، ٨٨، ١٠٨، ٢٥٤ - ٢٥٥، ٥٤٩، ٥٥١، ٦١٤. وللكتاب مختصر من وضع المصنف نفسه بعنوان «نهاية التوحيد في بداية التجريد» انظره فيما يأتي رقم ٣٥.

٨ - جامع الحقائق:

مذكور في كتاب «جامع الأسرار» للمصنف ص٦١٤. وفي بحث الأستاذ كربين عن الآملي، رقم٥. ويذكر المؤلف أنّ الكتاب وضع باللغة الفارسية حيث كان طالبو تأليفه أعجاماً (جامع الأسرار ص٤١٤).

الجداول: الموسومة بمدارج السالكين = رسالة الجداول الموسومة بمدارج السالكين...

الحجب: وخلاصة الكتب = رسالة الحجب وخلاصة الكتب.

رافعة: الخلاف عن وجه سكوت أمير المؤمنين عن الاختلاف = رسالة رافعة...

٩ - رسالة الأركان:

مذكور في «جامع الأسرار» ص٣ وفي بحث الأستاذ كربين عن الآملي، رقم٢. - وموضوع الكتاب: «بيان الأركان الدينية الخمسة: الزهد، الصلاة، الصوم والزكاة والحج والجهاد، شريعة وطريقة وحقيقة» (جامع الأسرار، ص٣). - يقارن هذا العنون بما تقدم رقم٢، وبما يأتي، رقم ٢٧ = كتاب الأصول والأركان..

١٠ - رسالة الأسماء الإلهية:

مذكور في كتاب نص النصوص للمؤلف، ورقة ٣ ألف (مخطوط جارالله ١٠٣٣). والعنوان الكامل: رسالة الأسماء الإلهية وتعيين المظاهر لها من الأشخاص الإنسانية من محمد إلى آدم... (والكتاب بهذا العنوان وعلى هذا الوصف، شبيه بفصوص الحكم لابن العربي الحاتمي).

رسالة الأمانة: رسالة الأمانة الإلهية في تعيين الخلافة الربانية.

رسالة الأمانة في الخلافة: رسالة الأمانة الإلهية في تعيين الخلافة...

١١ - رسالة الأمانة الإلهية في تعيين الخلافة الربانية:

مذكور في جامع الأسرار ص٣، ٢٢ (بعنوان رسالة الأمانة في الخلافة)، وفي رسالة نقد النقود... ص٦٩٣ (بعنوان رسالة الأمانة) وفي نص النصوص ورقة ٣ ألف وفي بحث الأستاذ كربين عن الآملي، رقم ٣ (بعنوان «رسالة الأمانة») وضمن ترجمة المؤلف (بعنوان «رسالة في الأمانة») في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني).

ويصف المؤلف هذا الكتاب بجامع الأسرار بمثل الوصف المذكور في نص النصوص انظر ما تقدم: المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي، كتاب رقم ٧ وانظر تحليل فكرة المصنف H. Corbin, Le Combat Spiritule du Shi'isme, (Eranos - Jahrbuch 30) Zurich 1962, TOUT Le Chapitre III.

رسالة أمثلة التوحيد: أمثلة التوحيد وأبنية التجريد.

١٢ - رسالة التنبيه في التنزيه:

مذكور في نص النصوص ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣) وفي جامع الأسرار ص٣، ٦١٤ (بعنوان رسالة التنزيه) وفي بحث الأستاذ كربين عن الآملي (نفس العنوان السابق) رقم ٤، وضمن ترجمة المؤلف (نفس العنوان السابق أيضاً) في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني) - انظر وصف الكتاب فيما سبق: المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي، كتاب رقم ١٧. ويذكر المصنف في جامع الأسرار (ص٦١٤) بأن الكتاب حرر باللغة الفارسية لكون طالبي كتابه أعجاماً.

رسالة التنزيه: رسالة التنبيه في التنزيه.

١٣ - رسالة التوحيد:

مذكور في جامع الأسرار . . . ص٥٥١. وورد ذكره في هذا الكتاب بخصوص التمييز الذي يجب أن يراعى في الألوهية من حيث هي هي، أي بالنسبة إلى ذاتها، ومن حيث أسماؤها وصفاتها، أي بالنسبة إلى مظاهرها وتنزلاتها في أطوار الوجود. - هذا، ويقارن موضوع هذا الكتاب بعنوان مصنفين له: «أمثلة التوحيد وأبنية التجريد» الذي تقدم فيما سبق، و «نهاية التوحيد في بداية التجريد» الذي سيأتي فيما بعد.

١٤ - رسالة الجداول الموسومة بمدارج السالكين في مراتب العارفين:

مذكور في نص النصوص، ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣). - انظر وصف الكتاب فيما سبق: المصادر المباشرة . . . كتاب رقم ١٣ - هذا وتقارن هذه الرسالة بكتاب منازل السائرين لعبد الله الأنصاري الهروي، المتوفى عام ٤٨١ للهجرة.

١٥ - رسالة الحجب وخلاصة الكتب:

مذكور في نص النصوص، ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣) - وانظر وصف الرسالة فيما تقدم: المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي، كتاب رقم٨.

١٦ - رسالة رافعة الخلاف عن وجه سكوت أمير المؤمنين عن الاختلاف:

مذكور في بحث الأستاذ كربين عن الآملي، كتاب رقم ٧؛ وضمن ترجمة المؤلف بعنوان: «رسالة رافعة الخلاف» في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني). - ويذكر الأستاذ كربين أنّ هذه الرسالة ألّفها الشيخ الآملي في العراق، أثر مجيئه إليها اجابة لرغبة الشيخ فخر المحققين محمد بن الحسن بن المطهر الحلي (المتوفى عام ٧٧١ للهجرة).

١٧ - رسالة العقل والنفس:

مذكور في نص النصوص، ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣). - وانظر وصف الرسالة فيما سبق: المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي، كتاب رقم ٦.

١٨ - رسالة العلم وتحقيقه:

مذكور في نص النصوص، ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣). - وانظر وصف الرسالة فيما سبق: المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي، كتاب رقم٥.

١٩ - رسالة العلوم العالية:

مذكور في بحث الأستاذ كربين عن الآملي، كتاب رقم١٠؛ وضمن ترجمة المؤلف في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني). - ويذكر الأستاذ كربين في بحثه السابق، نقلاً عن ريحانة الأدب (٢/ ٤٩٨ ترجمة رقم ٨٩٢) أن الرسالة ألفت في حدود عام ٧٨٧ للهجرة.

٢٠ - رسالة الفقرة وتحقيق الفخر:

مذكور في نص النصوص ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣)- وانظر وصف الرسالة فيما سبق: المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي، كتاب رقم٩.

٢١ - رسالة كنز الكنوز وكشف الرموز:

مذكور في نص النصوص ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣).

٢٢ - رسالة المعاد في رجوع العباد:

مذكور في نص النصوص ورقة ٣ ألف وورقة ١٠٧ ب (مخطوط جار الله ١٠٣٣). - وانظر وصف الرسالة فيما سبق: المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي، كتاب رقم٣.

٢٣ - رسالة منتخب التأويل في بيان كتاب الله وحروفه وكلماته وآياته:

مذكور في جامع الأسرار ص٣، ١٠٨، ١١٦، ٥٤٩ (بعنوان «رسالة منتخب التأويل»)؛ وفي نقد النقود ص٦٩٥؛ وفي بحث الأستاذ كربين عن الآملي، كتاب رقم١ (بعنوان «التأويلات» أو «منتخب التأويل»)؛ وضمن ترجمة المؤلف في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/

٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني) - وفي هذه المراجع: «منتخب التأويل» و «التأويلات» مذكوران لا كعنوانين لكتاب واحد، بل لكتابين مستقلين.

٢٤ - رسالة النفس في معرفة الربّ:

مذكور في **نص النصوص**، ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣). - انظر وصف الرسالة **فيما سبق: المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي**، كتاب رقم١١.

٢٥ - رسالة نقد النقود في معرفة الوجود:

مذكور في نص النصوص، ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٢٣). انظر وصف الرسالة فيما سبق: المصادر المباشرة. . . كتاب رقم ١٤. - والرسالة تمّ انشاؤها في المشهد الشريف الغروي عام ٧٦٨ (انظر آخر الرسالة). - النسخ الموجودة: مخطوط دانشگاه تهران (جلد هشتم ص ٣٨٥)، بخط ديواني مسطرته ٢١ سطراً، بقلم دقيق، عسير القراءة، مطموس بعض الأحرف والسطور، منقول عن أصل المصنف. - والرسالة المتقدمة هي اختصار لكتاب الوجود للمؤلف نفسه، كما صرّح بذلك في المقدمة.

رسالة الوجود: رسالة الوجود في معرفة المعبود.

٢٦ - رسالة الوجود في معرفة المعبود:

مذكور في نص النصوص، ورقة ٢ ب و١٠٧ (مخطوط جار الله ١٠٣٣)، وفي نقد النقود ص٦٢٠، ٦٢٩، ٦٩٩. - انظر وصف الرسالة فيما سبق: المصادر المباشرة. . . كتاب رقم٢، وفي مقدمة رسالة نقد النقود. - وفي جامع الأسرار يذكر المؤلف أنه سيكتب رسالة في بحث الوجود (ص١٢٥) مما يدل على أن هذا الكتاب متأخر عن جامع الأسرار كما أنه متقدم على نقد النقود، لأن هذه الرسالة الأخيرة هي اختصار له.

العقل والنفس: رسالة العقل والنفس.

العلم وتحقيقه: رسالة العلم وتحقيقه.

العلوم العالية: رسالة العلوم العالية.

فص الفصوص في شرح فصوص الحكم: نص النصوص في شرح الفصوص.

الفقر وتحقيق الفخر: رسالة الفقر وتحقيق الفخر.

٢٧ - كتاب الأصول والأركان في تهذيب الأصحاب والاخوان:

مذكور في نص النصوص، ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣). - انظر وصف المخطوط فيما سبق: المصادر المباشرة... كتاب رقم ٤. - انظر ما تقدم أيضاً، الفهرس العام... رقم١ ورقم٩.

٢٨ - كتاب تعيين الأقطاب والأوتاد:

مذكور في نص النصوص، ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣. - انظر وصف الكتاب فيما سبق: المصادر المباشرة.... كتاب رقم ٢٠.

٢٩ - الكشكول فيما جرى على آل الرسول:

مذكور في بحث الأستاذ كربين عن الآملي، كتاب رقم ١١ (نقلاً عن ريحانة الأدب ٢/ ٤٩٨ بعنوان «الكشكول... على آل محمّد»): وضمن ترجمة المؤلف في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٧٣٣ وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الشيخ الأميني). وفي بروكلمان، الذيل ٢/ ٢٠٦، ترجمة رقم٣.

النسخ الموجودة: ١ - مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامة، بالنجف الأشرف، الرقم العام ١٣٦، قياسه ١٩/٥ سم × ١٣ سم، عدد أوراقه ١١٥ ورقة بخط محمّد باقر بن هاشم، كتبه سنة ١٢٦٤ هجرية؛ - ٢) نسخة أخرى في نفس المكتبة، بعنوان الكشكول، الرقم العام ١٥٨، قياس ٢٧/٤ سم = ١٨/٤ سم عدد أوراقه ٨٥ ورقة بخط القاضي عبد الرحيم، بدون تاريخ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني). - وفي رسالة الشيخ الأميني لنا، يذكر الأستاذ - حفظه الله - بأن للكتاب نسخة مكتوبة في القرن الثامن، محفوظة في مكتبة الأستاذ عبد الحميد مولوي، في مدينة من خراسان. - والكتاب مطبوع في النجف الأشرف عام ١٣٧٢/ ١٩٥٣ (بحث الأستاذ كربين عن الآملي ص١٣ رقم١١). - هذا ويبدي الأستاذ كربين تحفظاً بخصوص نسبة الكتاب إلى الآملي، ومما يؤيد هذا التحفظ أنّ الكتاب

ألف سنة ٧٣٥، أي في الوقت الذي كان فيه شيخنا لا يزال فتى في الخامسة عشرة من عمره. - ونجد في «أمل الآمل» للشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي أنّ الكتاب منسوب، مع الشك في ذلك، إلى الشيخ جمال الدين الحسن بن يوسف بن **علي بن المطهر الحلّي** (٢/ ٨٥، ٣٦٤ - ٣٦٥؛ ط. بغداد سنة ١٣٨٥). ولا شك أن **هذه النسبة أيضاً غير صحيحة**، لأن الشيخ جمال الدين متوفى سنة ٧٢٦ هجرية، أي قبل تأليف الكتاب بتسع سنوات.

الكشكول: فيما جرى على آل محمد = الكشكول فيما جرى على آل الرسول.

كنز الكنوز وكشف الرموز: رسالة كنز الكنوز وكشف الرموز.

مجمع الأسرار ومنبع الأنوار: جامع الأسرار ومنبع الأنوار.

المحيط الأعظم في تفسير القرآن الكريم: المحيط الأعظم والطور الأشمّ، في تأويل كتاب الله العزيز المحكم.

٣٠ - المحيط الأعظم والطود الأشمّ في تأويل كتاب الله العزيز المحكم:

مذكور في نص النصوص، ورقة ٣ ألف وورقة ٢٨ ألف - ٢٨ ب وورقة ١٠٧ ب (مخطوط جار الله ١٠٣٣)؛ وضمن ترجمة المؤلف (بعنوان «المحيط الأعظم في تفسير القرآن الكريم) في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ٤٩٣، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥، (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني). - وقد جاء في رسالة الشيخ الأميني لنا بأنّ للكتاب نسخة محفوظة بمدينة قمّ في المكتبة العامة التس أسّسها العالم الحجة السيد الشهاب الدين المرعشي. انظر ما تقدم وصف هذا التفسير الكبير: مصادر مباشرة لتواليف الشيخ الآملي، كتاب رقم ٢١. - وقد جاء وصف هذا الكتاب في نص النصوص أيضاً على النحو الآتي: «وأمّا الذي لنا (من الكتب) فذلك أيضاً كتابان: الفائض علينا والصادر منا. أمّا الفائض علينا، فهو التأويلات للقرآن الكريم المشتمل على العلوم والمعارف الإلهية القرآنية من أنفسها وأشرفها، المحتوى على الرموز والكنايات المصطفوية، والدقائق والحقائق المحمّديّة، الصادق عليها ما قال الحقّ في حقّ بعض عبيده الخواصّ: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». ومن

هنا صار (هذا الكتاب) موسوماً بالمحيط الأعظم والطود الأشمّ في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، وصار مرتباً على مجلدات سبعة تبركاً بسبعة من الأنبياء الكبار، وسبعة من الأقطاب، وبسبعة من الأبدال؛ بحيث تكون مقدماته مع الفاتحة مجلداً واحداً، وكل سدس منه (أي من القرآن) مجلد آخر. وهذا (التفسير لنا) كالفصوص بالنسبة إلى الشيخ (ابن العربي الحاتمي) وكالقرآن بالنسبة إلى النبي. وترتيبه أنه (أي التفسير المذكور) مقدم على تسعة عشر من المقدمات والدوائر، لأن المقدمات سبعة، والدوائر (اثنا) عشر، تطبيقاً (= مطابقة) بالعالم الصوري والمعنوي، والكتاب الأنفسي والكتاب الآفاقي، فإنّ كلّ واحد من هذه العوالم منحصرة (كذا) في تسعة عشر» (نص النصوص ورقة ٢٨ ألف - ٢٨ ب، مخطوط جار الله ١٠٣٣). وقارن هذا النص بنص آخر، في نفس المعنى والمورد ورقة ١٠٧ ب من المخطوط السالف الذكر).

مدارج السالكين في مراتب العارفين = رسالة الجداول الموسومة بمدارج السالكين.

٣١ - المسائل الآملية:

مذكور ضمن ترجمة المؤلف في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥ - ٣٣، وايضاح المكنون ٢/ ١٩٢، ومجالس المؤمنين ٢/ ٥١ - ٥٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ٩١، والفوائد الرضوية ص١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني). - ويذكر الأستاذ كربين في بحثه عن الآملي وفخر المحققين محمد بن الحسن بن المطهر الحلي (المتوفى عام ٧٧١ للهجرة) ومصدره في ذلك: فهرست كتابخانه اهدائي آقاى سيّد محمّد مشكوة به دانشگاه تهران، جلد أوّل، ص ٧٠. وهذه النسخة هي بتاريخ ٧٦٢ للهجرة فلعلها تكون «المسائل الآملية» - انظر بحث الأستاذ كربين عن الآملي ص١٠ وتعليق ٣.

المعاد في رجوع العباد: رسالة المعاد في رجوع العباد.

منتخب التأويل: رسالة منتخب التأويل في بيان كتاب الله وحروفه...

٣٢ - منتخبات أنوار الشريعة:

مذكور في فهرست كتابخانه اهدائي سيّد محمّد مشكوة، جلد سوم بخش يكم،

ص ٥٠٢، نقلاً عن الأستاذ كربين في بحثه عن الآملي ص١١ وتعليق رقم١، ويضيف الأستاذ كربين بأنّه من المحتمل أن يكون هذا العنوان جزءاً من تفسير الآملي؛ منتخب التأويل. ومهما يكن في الأمر، فإنه يحسن مقارنة هذا العنوان بكتاب للمؤلف: **أسرار الشريعة وأنوار الحقيقة**. انظر فيما تقدم الفهرس العام رقم٢.

٣٣ - منتقى المعاد في مرتقى العباد:

مذكور في نص النصوص، ورقة ٣ ألف (مخطوط جار الله ١٠٣٣). - وانظر وصف الكتاب فيما سبق: المصادر المباشرة لتواليف الشيخ الآملي، كتاب رقم١٦.

٣٤ - نص النصوص في شرح الفصوص:

مذكور في ذيل كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادي ٢/ ١٩٢ (بعنوان «نصوص الفصوص في شرح الفصوص» ويذكر أنّه فرغ من تأليفه في بغداد عام ٧٨٢، وهو مكون من مجلدين؛ والكتاب مذكور ضمن ترجمة المؤلف (بعنوان «فص النصوص في شرح فصوص الحكم») في أعيان الشيعة ٢٩/ ٢٥، ومعجم المؤلفين ٢/ ٩١، والمجالس الرضوية ص ١٩٥ (بارشاد الأستاذ الكبير الشيخ الأميني)؛ ومذكور في بحث الأستاذ كربين عن الآملي، رقم ٨. النسخ الموجودة:

١ - مخطوط جار الله (سليمانية، اسطنبول) ١/١٠٣٣ - ٣٣٠، مسطرته ٣٥ سطراً، بخط نستعليق واضح، برسم خزانة الملك الأفضل، بقلم فضل الله بن محمد العبادي، سنة ٧٨٣. وهذه النسخة تحتوي على المجلد الأوّل من الكتاب وفيها المقدمات على شرح الفصوص وشرح الفصوص الخمسة الأولى فقط. ونجد على الغلاف بخط مخالف للأصل: «ولا شبهة في أنّ مؤلف هذا الشرح مذهبه مذهب الإمامية من الشيعة، ويدل على ما قلناه ما ذكره الشارح في القاعدة الثانية. . . كتبه لي الدين جاره».

٢ - مخطوط شهيد علي باشا (سليمانية اسطنوبل) ١٤٣٨. وهذه النسخة لا تحتوي إلا على المقدمة، وباختصار.

٣ - مخطوط مكتبة المجلس، طهران، شمار: ١٧١٤. وهذه النسخة كالسابقة.

٤ - مخطوط مكتبة آقاى فخر الدين نصيرى، طهران، مكتوب في عصر المؤلف (بارشاد الأستاذ الإميني).

بداية الكتاب: «الحمد لله الذي زين خاتم الوجود بفص حكمته، المعبّر عن ذلك الفصّ بالإنسان الكامل، الموسوم بخليفته. وسخر له ما في السماوات وما في الأرض بمقتضى خلافته... أمّا بعد: فهذا كتاب موسوم بنص النصوص في شرح الفصوص.... جعلته هدية إلى حضرة السلطان... أحمد بهادر خان...، ورقة ٢ ألف - ٢ ب (من مخطوط جار الله ١٠٣٣).

مقدمات الكتاب:

١ - «الوصية في كتمام العلوم الإلهية... على غير أهلها.

٢ - التمهيد الأوّل في فضيلة نبينا وشرفه على سائر الموجودات.

٣ - التمهيد الثاني في فضيلة الشيخ ابن الاعرابي (كذا) وتفضيله على سائر المشايخ المتقدمين والمتأخرين...

٤ - التمهيد الثالث في فضيلة الأنبياء والرسل والأئمّة، ثمّ فضيلة الأقطاب والأبدال.

٥ - الركن الأوّل في التوحيد وأسراره....

٦ - الركن الثاني في الوجود المطلق وتحقيقه.

٧ - الركن الثالث في العلوم وأقسامها وأنواعها.

٨ - الدائرة الأولى في سرّ الوجود وترتيبه وتقسيمه.

٩ - الدائرة الثانية في تحقيق التوحيد الذاتي الوجودي.

١٠ - الدائرة الثالثة في سرّ البسملة وحروفها التي وقعت بازاء ترتيب العالم الصوري والمعنوي....

وهكذا إلى سبع وعشرين دائرة، وبها تنتهي مقدمات الكتاب التي تقع ابتداء من الورقة ٤ ألف - ١٠٧ ب.

نصوص الفصوص في شرح الفصوص: نص النصوص...

النفس في معرفة الربّ: رسالة النفس في معرفة الربّ.

نقد النقود في معرفة الوجود: رسالة نقد النقود في معرفة الوجود.

٣٥ - نهاية التوحيد في بداية التجريد:

مذكور في كتاب نص النصوص (مخطوط جار الله ١٠٣٣) ورقة ٣ ألف. ويذكر المصنف هنا أنّ كتابه هذا هو اختصار لجامع الأسرار ومنبع الأنوار، انظر ما سبق، الفهرس العام، رقم ١٦.

الوجود في معرفة المعبود: رسالة الوجود في معرفة المعبود

عثمان اسماعيل يحيى

باريس ٢٠/ ٥/ ٦٨

تعليقات

١ - وردت ترجمة المؤلف في المصادر الآتية: مجالس المؤمنين للقاضي نور الله ششتري، ٢ ص٥١ - ٥٤؛ وفي روضات الجنات لمحمد باقر الخوانساري، ص٢٠٣ - ٢٠٤؛ وفي أعيان الشيعة لمحسن العاملي، ٢٩ ص٢٥ - ٣٣؛ وفي ريحانة الأدب لمحمد علي التبريزي١ ص٣٠ (ترجمة رقم ٥٤) ٢ ص٤٩٨ (ترجمة رقم ٨٩٢)؛ وفي الفوائد الرضوية لمحمد بن الحسن المشهدي الخراساني ص ١٩٥، وفي «معجم بروكلمان»، الذيل ٢ ص٢٥٩. - أمّا الدراسات عنه باللغة الأروبية، فانظر الأبحاث والدراسات للأستاذ هنري كربين (Corbin) المذكورة في المقدمة الفرانسوية للكتاب الحاضر.

٢ - هكذا ورد العنوان هنا وفي ورقة ١٠٧ ب: جامع الأسرار ومنبع الأنوار، وهو كذلك العنوان الثابت في مقدمة كتاب جامع الأسرار، ص١٧، الذي هو موضوع هذه النشرة.

٣ - يقارن هذا الوصف للكتاب مع ما جاء في ورقة ١٠٧ ب ومع البيان التفصيلي له وبعض المناسبات التاريخية له، في صدر «جامع الأسرار»، ٢، ٤، ٥، ٧ - ٩، ١٣ - ١٦.

٤ - يقارن هذا الوصف أيضاً مع ما جاء في ورقة ١٠٧ ب، وكذلك مع ما جاء في مقدمة: «رسالة نقد النقود»، التي هي منتخبة من هذا الكتاب، إذ فيها بيان مطول لموضوعات «رسالة الوجود» وفصولها ومسائلها.

٥ - آية رقم ٣ من سورة رقم ٥٧ (سورة الحديد). - ومن المهم أن يلاحظ هنا كيف أطلق الشيخ الآملي هذه الآية الكريمة، التي هي وصف لله تعالى، على الوجود نفسه، الذي هو في نظر الشيخ ليس سوى الحقّ تعالى، من حيث صفاته وأفعاله. وسترد هذه الآية بالذات مراراً وتكراراً على صفحات «جامع الأسرار» و «نقد النقود». - انظر «فهرس الآيات القرآنية» في آخر الكتاب.

٦ - الصواب في هذه المواطن كلها: «الدائر كلّ واحد منها». . . - وعديدة هي الأخطاء اللغوية والنحوية التي يلاحظها القارىء على صفحات تواليف الشيخ الآملي؛ وهذه ظاهرة معلومة عند مؤرخي الأدب العربي في العصور الوسطى، ابتداء من القرن السادس الهجري، وخاصة لدى الكتاب غير العرب.

٧ - الصواب: «من الصوفية والحكماء والمتكلمين. . . علم منها. . .».

٨ - آية رقم ٧٢ من سورة رقم ٣٣ (الأحزاب). - وكلمتا «الظلومية والجهولية» من الصيغ المجردة للظلم والجهل، غير معروفتين لغةً، ويستعملها مراراً الشيخ الآملي في مصنفاته، انظر «جامع الأسرار» ص٢١.

وبخصوص الموضوع الأساسي لهذه الرسالة، يراجع من أبحاث أستاذنا الكبير هنري كربين المذكورة سابقاً (تعليق رقم٣) H. Corbn, وخاصة الفصل الثالث برمته Le Combat Spirituel Du Shi'isme.

٩ - آية رقم ٣٢ من سورة رقم ٦٩ (الحاقة).

١٠ - انظر مصادر هذا الحديث في سنن ابن ماجة ١/ ٤٤ (ط. مصر سنة ١٣١٣ هـ). ورسالة القشيري ص٤٧ (ط. مصر سنة ١٣١٨ هـ) وشرح الأحياء لمرتضى الزبيدي ٢/ ٧٢ - ٧٣ (ط. مصر سنة ١٣١٢ هـ). وسفينة الراغب ١/ ٢٩٢، ٣٠٠ (ط. بولاق سنة ١٢٨٢ هـ).

١١ - النص الأول من هذين النصين ورد في رسالة نقد النقود (ص٦٦٣) بهذا الفظ: **«أنا أقل من ربّي بشيئين»** (بدل: سنتين) ويفسره الشيخ الآملي: «يعني بالفقر الذاتي والامكان الذاتي، الذين هما من شرط القابلية. . .».

هذا، والنص منسوب إلى الشيخ حسن الخرقاني على غلاف رسالة الانتصار لابن

العربي الحاتمي، مجموع شهيد علي باشا (اسطنبول) رقم ١٣٤١، ورقة ١٤١ ألف، بخط مخالف للأصل.

وأمّا النص الثاني: «ليس بيني وبين ربّي...» فقد ورد أيضاً، بنفس الرواية في «رسالة نقد النقود» من ٦٦٢ مع هذا التفسير: «يعني ليس فرق بين الحقّ والمظاهر إلا أنّه مقدم عليها بالذات، وهي متأخرة عنه بالاعتبار...» (ص٦٦٢ - ٦٦٣).

١٢ - ورد الجزء الأوّل من هذا الحديث: «**الفقر فخري**» في «رسالة در بيان ولايت ونبوّت» ضمن مجموعة «الإنسان الكامل» لعزيز الدين نسفي، تصحيح ماريزان موله، جلد ١١ كنجينه نوشته هاى ايراني، تهران ١٩٦٢، ص٣٣٢ س٩.

١٣ - وارد في احياء الغزالي ١/ ١٨٧، ٢٣٤؛ ويخرجه الحافظ العراقي على هذا النحو: رواه أبو مسلم الكشي (أو الليثي) في سننه والبيهقي في شعب الإيمان من طريق يزيد الرقاشي من حديث أنس بن مالك؛ ورواه الطبراني في الأوسط في لفظ آخر: «**كادت الحاجة أن تكون كفراً**»؛ ويحقق الحافظ العراقي: يزيد الرقاشي ضعيف، ورواية الأوسط ضعيفة أيضاً. انظر المغني عن حمل الأسفار، على هامش الأحياء ٢ ص١٨٧ حديث رقم٥ و٢ ص٢٣٤ حديث رقم٢.

١٤ - حديث يتردد كثيراً في كتب الصوفية، انظر كتاب «بيان الفرق بين الصدر والقلب...» للحكيم الترمذي، القاهرة سنة ١٩٥٨، تحقيق الدكتور نقولا هير.

١٥ - جزء من الآية الرابعة من سورة الحديد (٥٧).

١٦ - آية رقم ٢١ من سورة رقم٥١ (الذاريات).

١٧ - ورد الحديث في كتاب «الإنسان الكامل» لعزيز الدين نسفي، ص٣ سطر ٩ - ١٠، تصحيح ماريزان موله.

١٨ - نص الآية الكريمة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[(١)]

١٩ - نص الآية الكريمة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾[(٢)].

٢٠ - بخصوص كتاب: «اللمعات» لفخر الدين إبراهيم همداني عراقي، المتوفى

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٧.

عام ١٢٨٧/٦٨٦، انظر: H. Ritter, Der Islam XXIPP. 95 - 99 والذيل (بروكلمان) ١ ص٧٩٢ - ٧٩٣.

٢١ - اسمه الكامل: عبد الله بن محمد بن شاهور الرازي الأسدي، المعروف بنجم الدين دايه. **ولد في خوارزم عام ٥٦٤ وتوفي في بغداد عام ٦٥٤** (ترجمته ومصادرها **في بروكلمان: الأصل** ١ ص٥٨٣ (ترجمة رقم ٢٨)؛ الذيل ١ ص٥٠٣ - ٥٠٤ (ترجمة رقم ٢٨).

وبخصوص تفسيره هذا، عنوانه المذكور في بروكلمان: بحر الحقايق والمعاني في تفسير السبع المثاني (المصدر المتقدم). والواقع أن هذا

التفسير لشيخه نجم الدين كبرى (المتوفى شهيداً في خوارزم عام ٦١٨) وقد أتمه تلميذه نجم الدين دايه (من سورة البقرة حتّى نهاية سورة الطور). ثمّ أتمة تلميذه علاء الدولة السمناني (المتوفى عام ٧٣٦).

انظر تفصيل ذلك في Osman Yahia Histoire Et Classificantion De L'oeuvre d'ibn Arabi PP. 242 - 43 Damas, 1964.

٢٢ - هي «حاء الحواميم» التي في صدور الكتاب السماوي سبع مرات: صدر سورة غافر (٤٠) وصدر سورة فصلت (٤١) وصدر سورة الشورى (٤٢) وصدر سورة الزخرف (٤٣) وصدر سورة الدخان (٤٤) وصدر سورة الجاثية (٤٥) وصدر سورة الأحقاف (٤٦). وهذه «الحاءات» السبع هي رمز امتداد ساق العرش على السماوات السبع وسريان سرّ روحه وحياته فيها. انظر كشف الغايات في شرح ما اكتنف عليه التجليات لمؤلف مجهول، مخطوط باريس (المكتبة الوطنية) رقم ٤٨٠١ ورقة ١١ ألف.

٢٣ - السلطان أحمد بن السلطان حسين من الدولة الجلائرية، قتل عام ٨١٣/ ١٤١٠ لما أراد أن يسترد مملكته التي اجتاحها Tamerlan وبعد وفاته بعام دخل الأتراك Oara - quyumnlu بغداد وقضوا نهائياً على دولة الجلائرة فيها.

- انظر F.m. Pareia, Islamologie, P. 175 Beyrouth 1957 - 1963 وبخصوص لقب «بهادر» الذي معناه «البطل» انظر دائرة المعارف الإسلامية (انظر النص الفرنساوي) الطبيعة الثانية، مقالة: بهادر Bahadur ١/ ٩٤٠.

٢٤ - ذلك لأن المصنف صرح في مطلع الفهرس أنه بدأ بتأليف جامع الأسرار، ثم برسالة الوجود، ثم برسالة المعاد. . . إلى آخر القائمة. ثم عاد فأكد هذا المعنى في نهاية مقدماته على شرح الفصوص (ورقة ١٠٧ ب من مخطوط جار الله ١٠٣٣). وهذا كلّه يدل على أن ثمت ترتيباً زمنياً في وضعه هذه القائمة. ولكن نجد في ضمن هذا الفهرس كتابين (رسالة التنزيه ورسالة أمثلة التوحيد) هما مذكوران في «جامع الأسرار» مما يدل على أنهما سابقان عليه.

٢٥ - انظر ما سبق، التعليق الأول.

٢٦ - انظر وصف هذه البلدة في بحث الأستاذ كربين عن الآملي ص٩، وفي دائرة المعارف الإسلامية (النص الفرانساوي)، الطبعة الثانية ١/ ٤٧٢، والمصادر الملحقة بالمقالة.

٢٧ - هي ثمانية كتب ورسائل، تقدم ذكرها فيما مضى.

٢٨ - في ورقة ٢ ب وورقة ١٠٧ ب من مخطوط جار الله ١٠٣٣، وقد تقدم هذا أيضاً فيما مضى.

٢٩ - هي رسالة التنزيه (بالفارسية) ورقمها في الفهرست ١٢ وعنوانها: «رسالة التنبيه في التنزيه»؛ وأمثلة التوحيد (بالفارسية) ورقمها في الفهرست ٤ وعنوانها الكامل: «أمثلة التوحيد وأبنية التجريد».

٣٠ - صحيفة ٦١٤ سطر ٧ من نشرتنا هذه.

٣١ - انظر آخر الرسالة ص٧١٠ - ٢ و ٣) حيث يصرح المصنف نفسه بأنه تم تسويد الكتاب في الخامس عشر من شهر جمادى الأخرى سنة ثمان وستين وسبع مائية بالمشهد الشريف الغروي.

٣٢ - انظر مخطوط جار الله (اسطنبول) رقم ١٠٣٣ ورقة ١٠٧ ب.

٣٣ - كتاب «جامع الأسرار» كان من أوائل تواليفه في العراق، كما صرح بذلك الشيخ الآملي مرتين في مقدماته على شرح الفصوص (ورقة ٢ ب ورقة ١٠٧ ب من مخطوط جار الله ١٠٣٣). ورسالة الوجود جاء ذكرها مرتين (المصدر السابق في فهرست مؤلفاته بعد جامع الأسرار مباشرة.

ورسالة المعاد، كذلك ذكرت مرتين مباشرة بعد رسالة الوجود. أمّا نهاية التوحيد ومنتقى المعاد فهما منتخبان من جامع الأسرار ورسالة المعاد.

وأخيراً رسالة نقد النقود، هي - كما ذكر سابقاً - تم انشاؤها عام ٧٦٨.

٣٤ - انظر نص النصوص في شرح الفصوص، ورقة ١٠٧ ب من مخطوط جار الله (اسطنبول) رقم ١٠٣٣.

٣٥ - انظر بحث الأستاذ كربين (Corbin) عن الشيخ الآملي ص ٩ - ١٠.

٣٦ - نفس المرجع، صحيفة ١١.

٣٧ - نفس المرجع صحيفة ١٢ - ١٣.

استدراكات

أثناء رحلتنا العلمية إلى العراق وإيران، خريف عام ١٩٦٨ - وكتابا جامع الأسرار ونقد النقود في المرحلة الأخيرة من الطبع - أمكننا العثور على مصادر جديدة خاصة بحياة الشيخ الآملي ومؤلفاته، كما تيسر لنا أيضاً مقابلة نص كتاب «نقد النقود»، الذي تم طبع ملازمه، على النسخة الأصلية التي كنّا أخذنا منها صورة شمسية كانت عمدتنا في تحقيق رواية النص. وها نحن نذكر نتائج هذه المصادر مجملاً في هذا الموطن.

١ - مصادر جديدة عن حياة الشيخ الآملي:

١ - نسب الشيخ الآملي ونبذة عن حياته مستخرجان من تفسيره الكبير «المحيط الأعظم» المحفوظ في خزانة آية الله المرعشي النجفي بمدينة قمّ في المجلد الثاني (ورقة ١٩٠ ألف) والمجلد ليس له رقم.

(ورقة ١٩٠ ألف) «. . . فأنا ركن الدين حيدر بن السيد تاج الدين علي پادشاه بن السيّد ركن الدين حيدر بن السيد تاج الدين علي پادشاه بن السيد محمد أمير بن علي پادشاه بن أبي جعفر محمد بن زيد بن أبي جعفر محمد بن الداعي بن أبي جعفر محمد بن إبراهيم بن محمد بن الحسين الكوسج بن أبراهيم بن سناء الله بن محمد الحرون بن حمزة بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن الإمام علي بن الحسين زين العابدين بن الحسين الشهيد بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(ورقة ١٩٠ ألف) «... اعلم أني من عنفوان شبابي، بل من أيام طفولتي، إلى مدة ثلاثين سنة، أو قريب منها، كنت في تحصيل عقائد أجدادي المعصومين عليهم السلام من حيث الشريعة وطريق الظاهر المخصوص بالطائفة الإمامية من بين الشيعة، حتى **حصلت لبّها وخلاصتها**، ومراتب العلوم المتعلقة (بها) من المنقول والمعقول، على **أساتيذها (الأصل: أستاذيها)**. بعضها (أي بعض هذه العلوم حصلتها) في بلدي الآمل الذي هو مولدي ومسقط رأسي ومسقط رأس آبائي وأجدادي، وبعضها (حصلتها) في خراسان واستراباد، وبعضها في أصفهان.

«وهذا كان في مدة عشرين سنة، حتى رجعت من أصفهان إلى آمل مرة ثانية. واجتمعت بخدمة الملك العادل فخر الدولة بن الملك السعيد المرحوم شاه كيخسرو - طيب (الأصل: طاب) الله ثراهما وجعل الجنة مثواهما. وخصني (الملك فخر الدولة) بالكرامة والجلالة، وجعلني من أقرب أصحابه وندمائه، ثم من أخص خواصّه، ثم من أعظم نوابه وحجابه. وهم من أولاد كسرى وأنوشروان إلى يزدجرد إلى پرويز. وجدّهم القريب كان الملك (الأصل: ملك) اردشير بن الحسن بن تاج الدولة، الذي كان ممدوحاً لظهير الدين الفاريابي وسراج (الدين) القمري، وأمثالهم من الشعراء الكبار.

«ومضتُ برهة من الزمان على هذا. ثم طلبني الملك العادل، قهرمان الوقت، ملك الملوك الرويان، فخر الدولة شاه غازي - خلد الله دولته - الذي هو الآن موجود، وكنتُ في خدمته على الوجه المذكور، وفي خدمة اخوته: الملك الأعظم جلال الدولة اسكندر - طاب ثراه - والملك المعظم شرف الدولة كُستَهَم، وطُوس مَلك - أعز الله أنصارهما. ومضتُ على هذا أيضاً مدةً. وحصل لي من الجاه والمال فوق التصور ببركة صحبتهم. وكنتُ كذلك في أرغد عيش وأطيب حال، بين الأهل والأوطان والأصحاب والخلان.

«(واستمر الأمر على هذا المنوال) حتّى غلب في باطني دواعي الحقّ، وكشف (الله) لي فساد ما أنا فيه من الغفلة والجهل والنسيان، وظهر لي ضلالي عن طر يق الحقّ، والاستقامةُ على سبيل الزيغ والطغيان. فناجيتُ ربّي في السرّ. وطلبت منه الخلاص عن الكلّ. وحصل لي شوق تام إلى الترك والتجريد، والتوجّه إلى حضرة

الحقّ بقدم التوحيد. وما كنتُ أتمكن (من) هذا في صحبة هؤلاء الملوك، ولا في الوطن الأصلي المألوف، مع صحبة (الأصل: لا في صحبة) الاخوان والأصحاب.

«فرأيتُ المصلحة (في) تركهم بالكلّية، والخروج من عندهم إلى موضع يتيسر ذلك (أي القيام بواجبات الحياة الحقيقية) على أحسن الوجوه (وأكملها). فتركتهم على هذه الحال. وتركت الأهل والمال والملك والجاه والوالد والوالدة والاخوة والصديق والرفيق. ولبست دَلقاً كانت (الأصل: يكون) قيمته أقل من درهم، لأنّه كان ملقى (الأصل: ملقاه) في بعض الدروب.

«وتوجّهتُ على هذا المنوال إلى زيارة جدّي رسول الله ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام بنيّة الحجّ وزيارة بيت الله الحرام وبيت المقدّس. وكان ذلك بطريق الري (اقرأ: رَيْ) والقزوين (اقرأ: وقزوين) والأصفهان (اقرأ: أصفهان ياسپاهان) حتّى وصلتُ إلى أصفهان، بعد أن كنت فيها (الأصل: فيه) مدّة طويلة، في زمان الشباب وكثرة الجاه والمال. واجتمعت بخدمة (كذا) المشايخ الذين كانوا فيها (الأصل: فيه)، ووقع من بينهم عقد الاخوّة والفتوّة بيني وبين الشيخ الكامل المحقق نور الدين طهراني. وهو (أي طهران) قرية على باب أصفهان من طرف دَردَشت، يسميها (الأصل: يسمونها) العوام بتران، وهو في الأصل طهران - بكسر الطاء. وكان (الشيخ نور الدين طهراني) عارفاً وزاهداً، مقبولاً عند الخاصّ...» (وهنا تنتهي فجاةً، لسوء الخط، سلسلة الكلام في نهاية الورقة).

ب - ترجمة الشيخ الآملي في رياض العلماء لميرزا عبد الله بن عيسى (منقولة عن النسخة المصورة المحفوظة في مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام بالنجف الأشرف، رقم (متسلسل) ٢٨٩٥ ورقة ١٥٠ ألف ١٥٢ ب).

(ورقة ١٥٠ ألف) «السيّد حيدر بن علي بن حيدر بن علي العلوي الحسيني الآملي المازندراني الصوفي المعروف بالآملي، كان من أفاضل علماء الصوفية، وقد كان إماميّ المذهب.

واعلم أنّ الآملي هذا غير الآملي الذي كان شارح القانون للشيخ الرئيس، بل قد يقال: أنّه غير الآملي صاحب كتاب نفائس الفنون وغيره من الكتب. فلا تغفل! وقد ذكره نور الله في «مصائب النواصب» وقال في مدحه: «أنّه من أصحابنا الإمامية

المتألهين، وأنّه السيّد العارف المحقق الأوحدي، وأنّه من علماء الشيعة، وله كتاب جامع الأسرار، وشرح الفصوص.

وقال فيه أيضاً: «إنّ مشايخ الصوفية قد كانوا في الشيعة كسيّد حيدر الآملي، صاحب كتاب جامع الأسرار ومنبع الأنوار وشارح الفصوص (ورقة ١٥٩ ب) المسمى شرحه بنص النصوص، الذي هو من أكابر الشيعة. بل ادعى السيّد حيدر المزبور فيه أنّ الصوفي الحقيقي لا يكون إلا شيعياً (كما أن الشيعي الحقيقي لا يكون إلا صوفيّاً)... (ورقة ١٥٢ ب) ثم أني رأيت طائفة من المسائل الفقهية والكلامية التي سأل عنها هذا السيّد (الأصل: التي سألها هذا السيد عن)الشيخ فخر الدين، ولد العلاّمة (الحلّي) وجوابه عنها، وعندنا منها نسخة أيضاً.

وقال (السيد الآملي) فيها: إن ابتداء ذلك في الحلة السيفية في سلخ رجب سنة تسع وخمسين وسبعاية.

وأنا العبد الضعيف حيدر بن علي بن حيدر العلوي الحسيني الأملي. انتهى».

٢ - ثبت مؤلفات الأملي في بعض كتب التراجم

١ - في مقدمة الكشول لعبد الرزاق الموسوي المقرم (ج - د):.

١ - المحيط الأعظم.

٢ - البحر الخضم.

٣ - منتخب التأويل.

٤ - التأويلات، وكلّها في تفسير الكتاب المجيد، والأخير أجمعها.

٥ - جامع الأسرار ومنبع الأنوار.

قال في الرياض: «أنّه في علم التوحيد وأسراره...» وحكى عن خط الشيخ البهائي ما صورته: هذا الكتاب للسيّد حيدر المازندراني. وله تفسير كبير بلسان الصوفية يدلّ على علو شأنه وارتفاع مكانه.

٦ - رسالة العلوم العالية.

قال في الذريعة: ألفها سنة ٧٨٧.

٧ - رسالة أمثلة التوحيد.

٨ - الأركان في فروع شرائع أهل الإيمان.

٩ - الأمانة، بالنون كما في الرياض، أو بالميم كما في الذريعة.

١٠ - رسالة التنزيه.

١١ - المسائل الآمليّة، وسماها في خاتمة المستدرك «المسائل الحيدرية».

١٢ - فصّ الفصوص في شرح فصوص الحكم لمحي الدين بن العربي، وسماه في ايضاح المكنون «نص الفصوص» بالنون. قال: هو في شرح الفصوص لحيدر بن علي العلوي الحسيني الآملي في مجلدين، أوله: الحمد لله الذي زين خاتم الوجود... وفرغ منه في بغداد سنة ٧٨٢ (٢/ ١٩٢).

١٣ - تلخيص اصطلاحات الصوفية. قال في كشف الظنون(١/ ١٠٧): لخص حيدر بن علي الآملي اصطلاحات الصوفية للشيخ عبد الرزاق الكاشي، المتوفى سنة ٧٣٠، ورتبة ترتيباً آخر، أوّله: «الحمد لله الذي خلق الخلق الخ».

١٤ - رافعة الخلاف عن وجه سكوت أمير المؤمنين. قال القاضي التستري في مجالس المؤمنين: «ألفها بأمر فخر المحققين... وهي من أنفس مؤلفاته».

١٥ - الكشكول فيما جرى لآل الرسول.

ب - في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، المكتبة العربية، دمشق ١٩٥٧، ٤/ ٩١:

١ - المحيط الأعظم في تفسير القرآن الكريم.

٢ - فص الفصوص في شرح الفصوص.

٣ - جامع الأسرار.

٤ - تلخيص اصطلاحات الصوفية للكاشاني.

٥ - البحر الخضم في تفسير القرآن العظيم.

ج - في الفوائد الرضوية في أحوال علماء مذهب الجعفرية، للشيخ عباس القمي، كتابخانه من كزى دانشگاه طهران، ص١٦٥ - ١٦٦:

١ - نص النصوص في شرح الفصوص.

٢ - جامع الأسرار.

٣ - تفاسير قرآن مجيد.

٤ - تفسير تأويلات.

٥ - جامع الحقائق.

٦ - كتاب الكشكول.

٧ - رسالة رافعة الخلاف.

د - في هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين لإسماعيل باشا البغدادي، استنبول ١٩٥١، ١/٣٤١:

١ - أمثلة التوحيد.

٢ - تفسير القرآن.

٣ - جامع الأسرار ومنبع الأنوار.

٤ - جامع الحقائق.

٥ - رافعة الخلاف.

٦ - المعتمد من المنقول فيما أوحى إلى الرسول... فرغ من تأليف كتابته سنة ٧٣٣(!).

٧ - رسالة الأركان في فروع شرائع أهل الإيمان.

٨ - رسالة الأمانة.

٩ - الكشكول فيما جرى على آل الرسول.

١٠ - لبّ الاصطلاحات الصوفية، جردها من كتاب عبد الرزاق الكاشي، القسم الأول منها.

١١ - مدارج السالكين في مراتب العارفين، القسم الثاني من الاصطلاحات المذكورة؛ رأيت نسخة (منها) مكتوباً (الأصل: مكتوبة) في آخرها: فرغت من كتابته بالربيع (كذا) الثاني من سنة أربع وتسعين وثمانمائة (٨٩٤).

١٢ - نص الفصوص في شرح الفصوص للشيخ الأكبر، فرغ منه في بغدد سنة ٧٨٢.

هـ - في أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين العاملي، مطبعة الاتقان، دمشق ١٣٦٧ هـ ٢٩/ ٣١ - ٣٣:

١ - المحيط الأعظم في تفسير القرآن الكريم. ويوجد في الخزانة الغروبة....

٢ - البحر الخضم في تفسير القرآن الأعظم.

٣ - منتخب التأويل. واحتمل صاحب «الذريعة» أن يكون هو كتاب التأويلات الآتي ذكره، ولكن الظاهر أنه منتخب منه.

٤ - التأويلات وهو رابع التفاسير المقدمة.

في الرياض: «أنه أوّل فيه آيات القرآن الكريم على مذاق الصوفية».

- وفي مجالس المؤمنين: «إن مؤلفه قال: أن نسبة تفسيري هذا إلى التفاسير الثلاثة المقدمة عليه، الباهرة الشرف والنور، كنسبة القرآن الكريم إلى التوراة والإنجيل والزبور. فكما أنّ القرآن ناسخ للكتب الثلاثة، فتفسيري ناسخ للتفاسير الثلاثة».

أقول: قد كان في غنية عن هذا التشبيه الذي لا محل له (ص ٣١ - ٣٢).

٥ - جامع الأسرار ومنبع الأنوار. في الرياض: «إنه في علم التوحيد وأسراره وحقائقه وأنواره. كبير. مشتمل على ثلاثة أصول، وكل أصل على أربع قواعد، وكونه من مؤلفاته مما لا شك فيه».

- ولكن صاحب الذريعة جعله خامس تفاسيره، وقال: إنه ألفه بعد منتخب التأويل، مع أن كلام الرياض - كما سمعت - يدل على أنه غير التفسير.

٦ - جامع الحقائق. ونسب إليه جامع الحقائق، واحتمل صاحب الرياض أن يكون هو جامع الأسرار.

٧ - فص الفصوص في شرح فصوص الحكم للشيخ محيي الدين بن العربي، أكثر فيه من الرد على الماتن.

٨ - رسالة العلوم العالية. ذكر في الذريعة: أنه ألفها سنة ٧٨٧.

٩ - رسالة أمثلة التوحيد.

١٠ - رسالة الأركان.

١١ - رسالة رافعة الخلاف.

١٢ - رسالة الأمانة، بالنون أو بالميم.

١٣ - رسالة التنزيه.

١٤ - **المسائل الآملية التي سأل عنها فخر الدين،** ولد العلامة، في الحلة سنة ٧٥٩ (ص ٣٣).

١٥ - اصطلاحات الصوفية أو تلخيص اصطلاحات الصوفية لكمال الدين أبي الغنائم عبد الرزاق الكاشاني. في كشف الظنون: «لما كان القسم الأول منه (أي من كتاب اصطلاحات الصوفية للكاشاني) مشتملاً على اصطلاحات غريبة وحشية، والثاني غير محرر عن تكرار وتطويل، لخصه حيدر بن علي بن حيدر العلوي الآملي، ورتبه ترتيباً آخر».

١٦ - وقد نسب إليه جماعة، منهم القاضي نور الله في «المجالس»، كتاب «الكشكول فيما جرى لآل الرسول»، وستعرف أن الظاهر كونه لغيره.

و - في الذريعة إلى تصانيف الشيعة تأليف العلامة الشيخ آقا بزرك طهراني نجفي:

١ - «الأركان في فروع شرائع أهل الإيمان بلسان أرباب الشريعة وأهل العرفان، للسيد العارف حيدر بن علي الحسيني العبيدلي الآملي، الشهير بالصوفي، صاحب جامع الأسرار، المعبر عنه بجامع الحقائق أيضاً. عبر عنه في ديباجة «جامع الأسرار» برسالة الأركان في شرائع أهل الإيمان».

ذكره في الرياض وفي مجالس المؤمنين. وله التأويلات والمحيط الأعظم. وقد فرغ عن بعضها سنة ٧٨٧. وهو غير السيد ركن حيدر، المجاز من فخر المحققين ابن العلامة الحلي، كما مر، وغير السيد حيدر بن علي مؤلف «الكشكول فيما جرى على آل الرسول» الذي فرغ من تأليفه سنة ٧٣٥ (١/ ٥٢٥ ترجمة رقم ٢٥٦٠).

٢ - اصطلاحات الصوفية للسيد حيدر بن علي بن حيدر العبيدي العارف الآملي، الشهير بالصوفي، المتوفى بعد سنة ٧٨٧. وهو مختصر من اصطلاحات الكاشاني... اختصره لأجل ما كان في القسم الأول من الاصطلاحات الغريبة الوحشية، وفي القسم الثاني من التكرير والتطويل، فهذبه ورتبه ترتيباً آخر، أوله:

«الحمد لله الذي خلق الخلق»، ذكره في كشف الظنون في ذيل الاصطلاحات للكاشاني. (٢/ ١٢٢ ترجمة ٤٩٠).

٣ - الإمامة للسيد العارف حيدر بن علي.. الآملي، تلميذ فخر المحققين، ومؤلف التأويلات ومنتخبها (الأصل: ومنتخبه) والمحيط الأعظم - ألفه (أي كتاب الإمامة) بعد كتابه جامع الأسرار كما صرح به في أول جامعه الآتي في حرف الجيم. ويظهر من الرياض أن اسمه الأمانة (٢/ ٣٦٥ ترجمة ١٢٨٩).

٤ - الأمانة للسيد حيدر بن علي... صاحب جامع الأسرار، الآتي ذكرها (أي رسالة الأمانة) في جامعه (= جامع الأسرار) المذكور، كذا في رياض العلماء وكشف الحجب، ومر بعنوان الإمامة، آنفاً. (٢/ ٣٤٤ - ٣٤٥ ترجمة ١٣٦٨ مكرر).

٥ - أمثلة التوحيد... حكاه في الرياض عن بعض الفضلاء (٢/ ٣٤٨ ت ١٣٨٨).

٦ - التأويلات، هو رابع التفاسير الثلاثة التي ألفها السيد المتأله الحكيم العارف الصوفي.. مؤلف المحيط الأعظم سنة ٧٧٧ وصاحب جامع الأسرار الذي ذكر في أوله أنه ألفه بعد كتابه منتخب التأويل، المحتمل أنه هذه «التأويلات» عما سبقه من التفاسير وله «رسالة العلوم العالية» التي ألفها سنة ٧٨٧.

قال في أول التأويلات: إن نسبته إلى التفاسير الثلاثة السابقة عليه، الباهرة الشرف والنور، نسبة القرآن إلى الكتب السماوية السابقة عليه من التوراة والإنجيل والزبور: يعني في نسخه لها، كما ذكره في مجالس المؤمنين، أو أنه خالص وصفوة وزبدة منها.

- والمؤلف مؤخر عن السيد حيدر بن علي، مؤلف الكشكول... سنة ٧٣٥، وهو غير السيد حيدر بن علي بن حيدر، المجاز من فخر المحققين سنة ٧٥٩، كما يظهر من تأليفاته، وإن كانا من عصر واحد. (٣/ ٣٠٧ - ٨ ت ١١٣٧).

٧ - تفسير السيد حيدر الآملي الذي فسر القرآن مراراً، وسمى رابع تفاسيره بالتأويلات، كما مر في الجزء الثالث (ص ٣٠٧ - ٣٠٨). وقد قال: إن نسبته إلى الثلاثة المؤلفة قبله كنسبة القرآن إلى الكتب السماوية السابقة عليه. وألف بعد

(التفسير) الرابع (تفسيراً) خامساً سماه: جامع الأسرار، كما يأتي. (٤/ ٢٧٣ ت ١٣٦٦).

٨ - جامع الأسرار ومنبع الأنوار. . . للسيد العارف. . . حيدر بن علي العبيدي الحسيني **الآملي، صاحب** التأويلات في التفسير.

ينقل عنه بهذا العنوان في «مجالس المؤمنين» في غير موضع، ويقال له: «جامع الأنوار»، كما حكى عنه كذلك في أول المجلس السادس. . . ذكر فيه أنه ألفه بعد منتخب التأويل ورسالة الأركان ورسالة الإمامة ورسالة التنزيه. . . رأيت منه عدة نسخ، منها نسخة الحاج السيد نصر الله التقوى بطهران، وهي بخط نور الدين محمد بن المولى، على تاريخها شهر الصيام سنة ١٠٧٥.

وقال في الرياض: رأيت منها نسخة عليها خط الشيخ البهائي هكذا: الذي أظن أن هذا الكتاب تأليف السيد الجليل حيدر المازندراني رحمه الله! وله تفسير كبير بلسان الصوفية، يدل على علو شأنه وارتفاع مكانه. . . (٥/ ٣٨ - ٣٩ ت ١٦٤).

٩ - جامع الحقائق للسيد العارف حيدر بن علي العبيدي الآملي. قال في الرياض: أنه نسبه إليه بعض الفضلاء. ولعل مراده ما ذكرناه أولاً. . (٥/ ٤٩ - ٥٠ ت ١٩٥).

١٠ - رافعة الخلاف في وجه سكوت أمير المؤمنين للعارف. . . حيدر بن علي العبيدي الحسيني. . . كتبه بأمر أستاذه فخر المحققين ابن العلامة الحلي، وبعد فراغه كتب أستاذه على ظهره اجازة له بخطه. والنسخة موقوفة السيد على الايرواني في تبريز، ويقال: رفع المنازعة أيضاً. (١٠/ ٦١ ت ٥٠).

١١ - رسالة في العلوم العالية. . . رأيتها بخطه. . . إلى آخر «المحيط (الأعظم)» في مجلد في الخزانة الغروية، وبخطه عليها أنه ألفها سنة ٧٨٧.

وذكر في أولها أنه كتبها بالتماس أفراد من الطوائف الثلاث على الاختصار ليحصل لهم التمييز بينهما، ويتوجهوا نحو الحق. . . (وهذه الرسالة) مرتبة على مقدمة وعشرة أنواع من الأبحاث. المقدمة في تعريف العلم بطريق الطوائف الثلاثة. البحث الأول في تعريف علوم أهل الله.

البحث الثاني في كيفية صدور الوحي والالهام والكشف؛ وفيه دائرة أسماء الله: أسماء الأفعال، وأسماء الصفات وأسماء الذات. وهكذا إلى آخر الأبحاث العشرة: في كل آخر مبحث دائرة فيها تلخيص ما فصل في البحث. (١٥/ ٣٢٦ ت ٢١٠٢).

١٢ - الكشكول فيما جرى لآل الرسول. المشهور نسبته إلى السيد العارف الحكيم حيدر بن علي العبيدي، أو العبدلي، الحسيني الآملي، المعروف بالصوفي، المعاصر لفخر المحققين، بل تلميذه، كما مر في الإجازة، بأمره كتب كتابه «رافعة الخلاف»، كما مر. ولكن في «الرياض» استبعد كونه مؤلفه الصوفي المذكور لوجوه أربعة مذكورة في ترجمة الصوفي: والحق معه بل المؤلف هو السيد حيدر بن علي الحسيني الآملي، المقدم على الصوفي بقليل. . . كتبه في سنة وقوع الفتنة العظيمة بين الشيعة والسنّة وهي سنة ٧٣٥. وعده في «مجالس المؤمنين» من كتب السيد حيدر الصوفي المذكور، ولكن الشيخ المحدث الحر قال: إنه ينسب إلى العلامة الحلّي، والشيخ يوسف خطأه في الانتساب إليه، وجزم بكلام «المجالس» والله أعلم! وهو موجود في الخزانة الرضوية (خزانة السيد مولى بمدينة مشهد، بخط نسخي بقلم عبد الرحمن حسن بن محمد النجار في ٩ شعبان سنة ٧٦٢، ضمن مجموعة هو أولها، ونسبها مفهرس الخزانة إلى السيد حيدر الآملي رقم ٢٤٤ أخبار، ١٠٣ ورقات. وانظر نسخه هاى خطى، المجلد الخامس، تهران، ص٩٢ - ٩٣، رقم: ٥٦٨). ٨٢ ت ٧٧٧).

٣ - تتمة بذكر بعض الكتب الواردة في الفهرس العام أو غير الواردة

جامع الأسرار ومنبع الأنوار: (رقم ٧): يضاف إلى ما تقدم من نسخ الكتاب المخطوطات التالية: كتابخانه مر كزى دانشگاه تهران، أربع نسخ: ٢/١٥١٥. ناقص الأول، غير منمّر بخط نسخي واضح، بحبر أسود، عناوينه بأحمر، مسطرته ١٦، كلمات السطر ٩ تقريباً. يبدأ المخطوط من الأصل الثالث وينتهي بخاتمته المعروفة: لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي. . . كان الفراغ من نسخه يوم الجمعة ١٦ من شهر رجب سنة ١٢٨١هـ. بخط جواد بن ملا أبو القاسم النائلي.

٣٠٠٩، ناقص الآخر، غير منمر، بخط نسخي، بحبر أسود، مسطرته ١٧، كلمات السطر ٩ تقريباً، بدون تاريخ.

٢٢٨٠، نسخة كاملة، غير منمرة، بخط فارسي واضح، مسطرته ١٧، كلمات السطر ١٠ تقريباً. في أول المخطوط صفحتان منقولتان عن كتاب «مجالس المؤمنين»، فيهما تعريف بالمؤلف وذكر بعض مصنفاته.

٣٤١ نسخة كاملة، غير منمرة، مسطرتها ١٥، كلمات السطر ٦ تقريباً، بخط نستعليق واضح، الورقة الأولى جديدة تختلف عن الورقات التالية، ولكن الكلام متتابع، بقلم محمد كريم البهرجي بن محمد صادق.

ويوجد للكتاب نفسه نسختان في مكتبة المشهد الرضوي (مدينة مشهد) رقم ٤٣٧ (٤١٤) في ٢٣٥ ورقة بتاريخ ١٠٧٧ ورقم ٤٣٨ (٤٠٧) في ٣١٠ ورقات بدون تاريخ.

زاد المسافرين: غير مذكور في الفهرس العام، ورد في فهرس كتابخانه مجلس شوراى ملى تهران، رقم ١٤٦٨ (١٤٠٤) ويظن واضح الفهرس أنه للسيد الآملي، صاحب جامع الأسرار، بداية الكتاب: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى... ونهايته: وعلى من اتبع الهدى وعليكم ورحمة الله وبركاته. وجاء وصف المخطوط في الفهرس: «رسالة في السلوك مبنية على منهجي علم الآفاق والأنفس مع كتاب تحصين».

لبّ الاصطلاحات الصوفية: غير مذكور في الفهرس العام وقد عثرنا عليه في ثبت مؤلفات الآملي المذكور في كتاب «هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين» المتقدم ذكره في هذا المستدرك.

المحيط الأعظم والطود الأشم: (رقم٣٠): عثرنا على نسختين ناقصتين لهذا التفسير الهام هما الآن في حوزة العالم الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي المقيم بمدينة قم في ايران. النسخة الأولى بمجلد واحد تشتمل على مقدمة الكتاب (الجزء الأول) وتفسير الفاتحة والآيات الأولى من سورة البقرة) ومقدمة الكتاب تعالج المباحث الآتية: ١) بيان التأويل والتفسير وأنّ التأويل واجب عقلاً وشرعاً.

٢ - بيان كتاب الله الآفاقي (التفصيلي) وتطبيقه بكتاب الله القرآن الجمعي.

٣ - بيان حروف الله الآفاقية وتطبيقها بحروف الله القرآنية.

٤ - بيان كلمات الله الآفاقية وتطبيقها بكلمات الله القرآنية.

٥ - بيان آيات الله الآفاقية وتطبيقها بآيات الله القرآنية.

٦ - بيان الشريعة والطريقة والحقيقة.

٧ - بيان التوحيد وأقسامه ومراتبه.

- وهذه المقدمة تقع في ١٨٠ صحيفة بخط تعليق مقروء بعسر، صفحات المجلد غير متتابعة أحياناً.

أما النسة الثانية فتحتوي على تفسير الفاتحة وأوائل سورة البقرة وعلى جزء من مقدمة الكتاب ملحقة في آخر المجلد لا في أوله. وهي بخط نسخي واضح، بدون تاريخ، وصفحات المجلد غير متتابعة أحياناً: وناقصة الآخر. - وتوجد للكتاب نسخة محفوظة في عدة مجلدات في خزانة المشهد الرضوي بالنجف الأشرف، وهي بخط المصنف أيضاً ولكن لم يمكننا، أثناء زيارة المشهد المقدس، دراسة المخطوط عن كثب.

وقد جاء وصف الكتاب في مخطوط: «الحقائق الراهنة في تراجم أعيان المائة الثامنة للشيخ العلامة آقا بزرك، ص٤٧، «ومن آثاره (أي السيد الآملي) في الخزانة الغروية كتابه الموسوم بالمحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، بخطه الشريف، فرغ منه في شهر رمضان سنة ٧٧٧، برسم خزانة جلال الدين شاه شجاع. ونسبه، كما في «مجمع الفصحاء»، هكذا: الشاه شجاع بن مبارز الدين محمد بن الأمير المظفر بن منصور... الخراساني، عمر ثلاثاً وخمسين سنة، منها مدة سلطنته خمس وعشرين سنة...».

مدارج السالكين في مراتب العارفين: غير مذكور في الفهرس العام وهو ثابت في قائمة الكتب التي جردها صاحب «هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين» لمؤلفات الآملي (انظر ما تقدم).

المسائل الآملية (رقم ٣١): يوجد لهذه المسائل نسختان في مكتبة كتابخانه مركزي دانشگاه تهران. الأولى ناقصة، رقم ٢١٤٤ ص ٧ - ٩، تحتوي على ثلاث مسائل فقط، والنسخة الأخرى كاملة، رقم ١٠٢٢ ورقة ٧١ ب - ٧٦ ب، بخط نستعليق، مقروء بعسر. البداية: «بسم الله ... وبه نستعين. الحمد لله ربّ... والصلاة... وآله الطاهرين. هذه مسائل سألتها عن جناب (كذا) الشيخ الأعظم،

سلطان العلماء... فخر الحقّ... ابن المطهر... مشافهة في مجالس متفرقة على سبيل الفتوى. وكان ابتداء ذلك في سلخ رجب المرجب سنة تسع وخمسين وسبعمائة... ببلدة الحلة السيفية... وأنا العبد الفقير حيدر بن علي بن حيدر العلوي الحسيني الآملي، أصلح الله حاله...».

- المسائل تحتوي على إحدى عشر مسألة في مواضع مختلفة، كلامية وفقهية. وهي بخط الآملي نفسه وخط فخر المحققين الحلي. وهي ضمن مجموعة كلها بخط الآملي وتاريخها: ٧٦١ و ٧٦٢.

المعتمد من المنقول فيما أوحى إلى الرسول: مذكور في «هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين» لإسماعيل باشا البغدادي، ط. اسطنبول سنة ١٩٥١ المجلد الأول ص ٣٤١.

منتخبات أنوار الشريعة (رقم ٣٢): موجود في خزانة كتابخانه مركزي دانشگاه تهران، رقم ١٠٨٨/٣٨ ب - ٤٥ ألف.

- البداية: «بسم الله... من منتخبات أنوار الشريعة من افادات سيد المتألهين، سيد حيدر بن علي الآملي، ساكن المشهد الغروي... ما وقع الخلاف بين الأنبياء والرسل... في أصول الدين وأركان الإسلام، وإن وقع في الفروع والأحكام الجزئية. فاعلم أن الخلاف في كيفية الشيء وكميته لا يدل على الاختلاف في ماهيته وحقيقته...».

- النهاية: «وعرفت معنى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾(١) وعرفت سر اشارته ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(٢) والله أعلم».

- يبدو أن كتاب: «منتخبات أنوار الشريعة» ليس للآملي، بل لغيره. والمؤلف الحقيقي ينقل كثيراً عنه، كما هو واضح من قوله: «من افادات سيد المتألهين، سيد حيدر بن علي...» وموضوعات الرسالة: الاختلاف في الكيفية والكمية لا يدل على الاختلاف في الماهية أو الحقيقة - الاستعداد والقابلية.

---

(١) سورة هود: الآية، ١١٨.

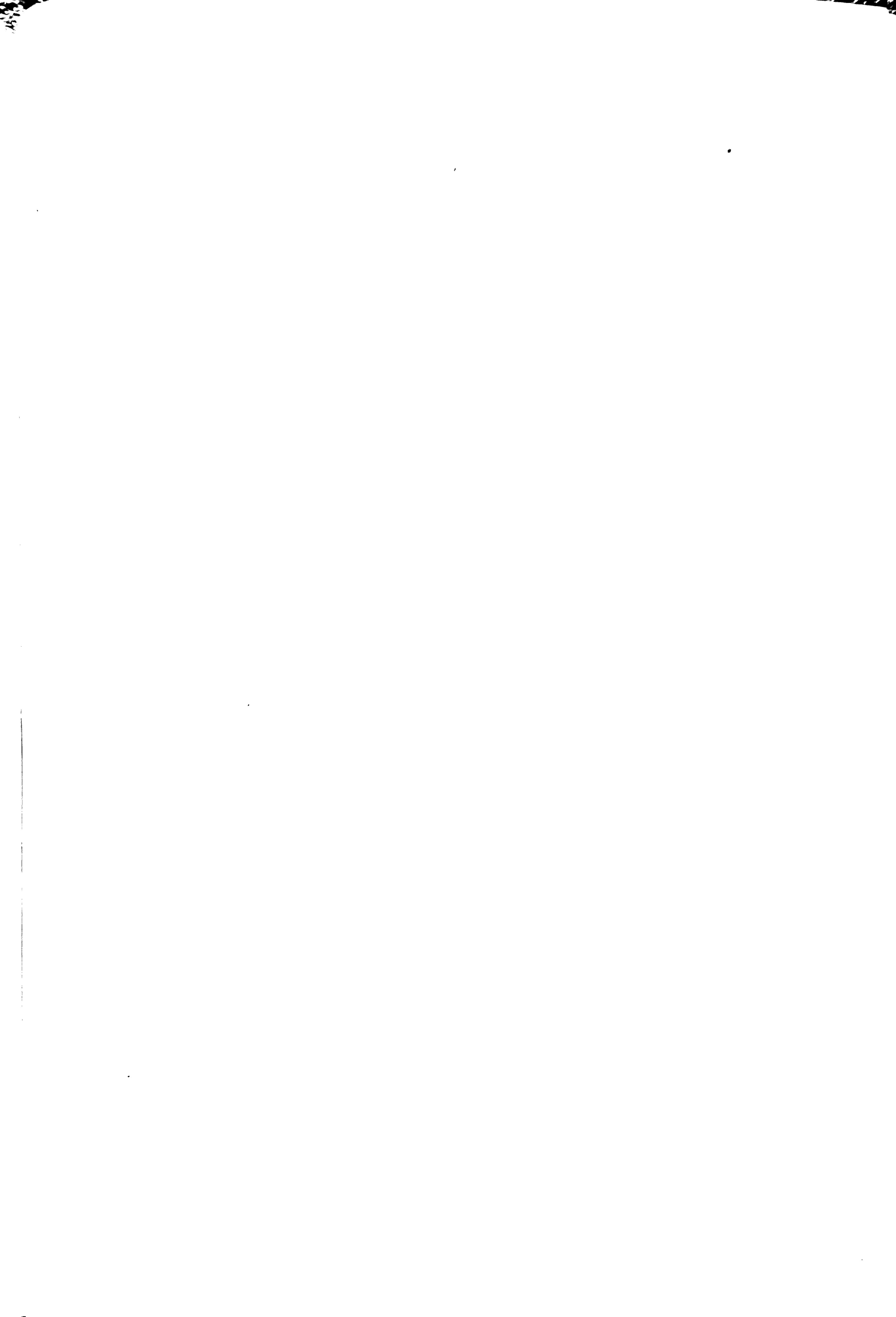
(٢) سورة هود: الآية، ١١٩.

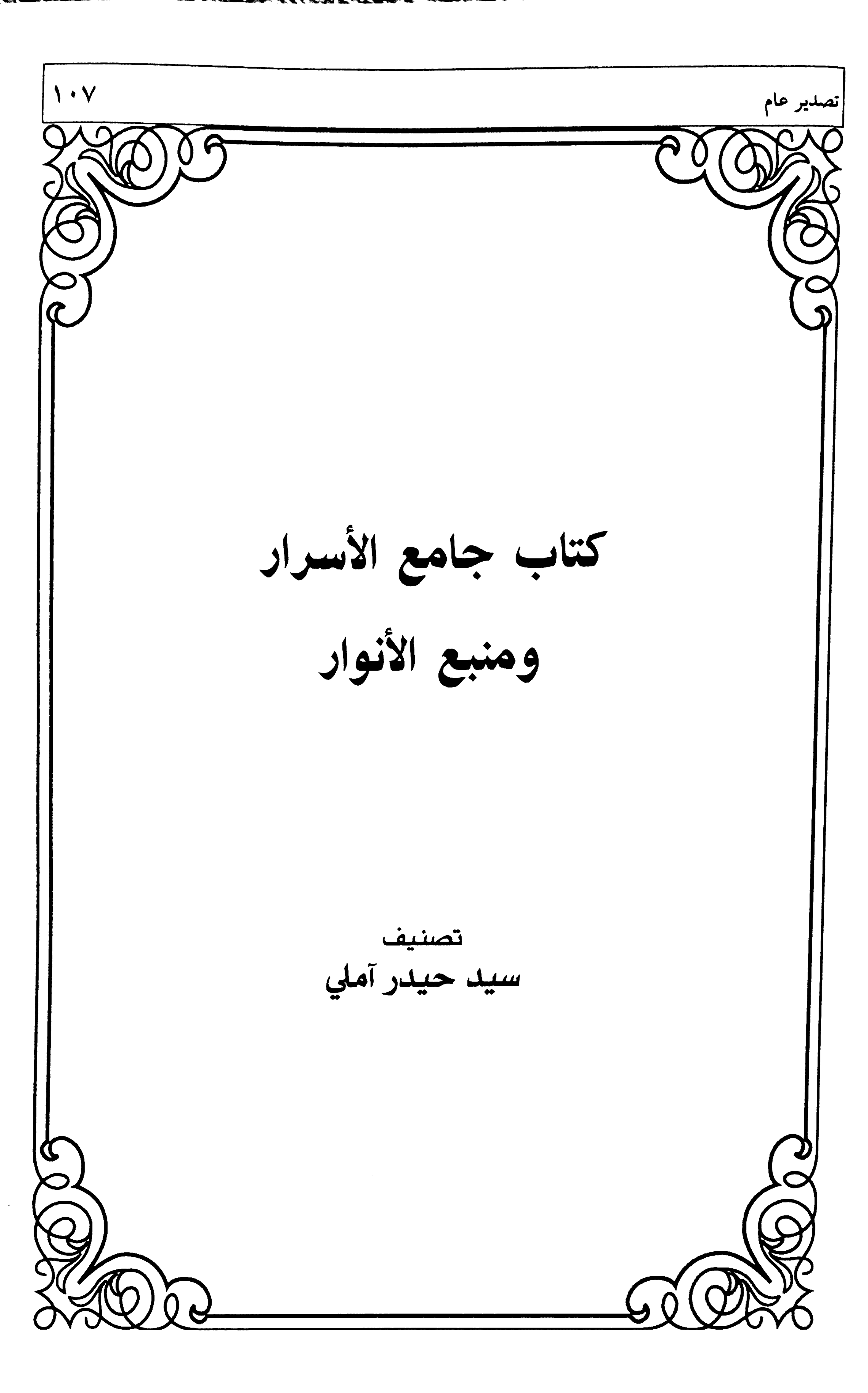
- الأعيان والماهيات، هل هي بجعل الجاعل؟ - العلم تابع للمعلوم.

- الأعيان الثابتة. - (من المحتمل أن تكون هذه الافادات الآملية منتخبة من رسالة الوجود للشيخ الآملي).

نقد النقود في معرفة الوجود (رقم ٢٥). الكتاب نسختان: كتابخانه مركزي دانشگاه تهران، رقم ١٧٦٤ (وهي أصل المطبوع)؛ - مدرسة سپهسالار (تهران) رقم ٦٥٣٧، الرسالة الثالثة.

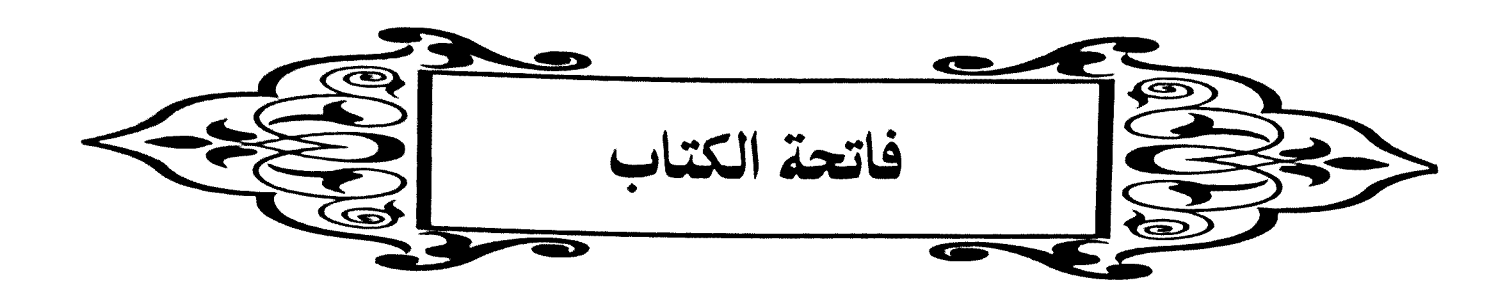






كتاب جامع الأسرار
ومنبع الأنوار

تصنيف
سيد حيدر آملي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ - الحمد لله الذي كشف عن جماله المطلق حجاب الجلال المسمّى بالكثرة، وخلّص عباده المخلصين بنور وحدته الذاتية عن ظلمات رؤية الغير في مقام التفرقة، حتى خرجوا عن دركات السبل المتفرّقة من الحلول والالحاد والكفر والزندقة، ونطقوا في توحيده الألوهيّ والوجوديّ بعد خلاصهم عن الشرك الجليّ والخفيّ في عالم الوحدة، ووصلوا في مراتب الحضرات الإلهيّة والكونيّة إلى أعلى الحضرة وشاهدوا بعينه على ما ينبغي عين ذاته المطلقة.

٢ - وصلاته الكاملة على نبيّه، الأكمل منهم في الشرف والرتبة، الذي هو السبب لظهور الموجودات إلى الفعل من القوّة، المخصوص بالمقام المحمود ولواء الحمد من حين الفطرة، المنعوت بالبرزخ الجامع، المبعوث إلى خير أمّة. وعلى «الباب الأعظم»، والمحلّ الراجح، «المولود جوف الكعبة» الذي له مرتبة أن يعيّن نفسه تحت «الباء بالنقطة». وعلى آله وأصحابه وأهل بيته، أهل بيت العلم والمعرفة والحكمة.

٣ - أمّا بعد: فإنّي لمّا فرغت من «رسالة منتخب التأويل» المشتملة على بيان كتب الله الآفاقية والأنفسية، وحروفها وكلماتها وآياتها، ومطابقة كلّ واحد منهما بالآخر؛- و «رسالة الأركان» المشتملة على بيان الأركان (الدينيّة) الخمسة، التي هي الصلاة والصوم والزكاة والحجّ والجهاد: شريعةً وطريقةً وحقيقةً؛ ورسائل أخر، مثل «رسالة الأمانة»، و «رسالة التنزيه»، وغير ذلك؛ - التمس منّي جماعة من اخواني الصالحين، السالكين سبيل الله لطلب مرضاته، أن أكتب لهم كتاباً جامعاً مشتملاً على معظم أسرار الله تعالى، وأسرار أنبيائه وأوليائه عليهم السلام (حاوياً لا) سيّما على أسرار التوحيد. وأقسامه وتوابعه ولوازمه، وما يتعلّق به من الأحكام

والأسرار؛ مخبراً عن حقائقه ودقائقه ونكته ورموزه؛ مشيراً إلى لبه وخلاصته وأصوله وفروعه؛ مومياً إلى شعبه وشبهه وشكوكه ومغالطه؛ - (ويكون) مرتّباً على فضيلته وتعريفه وتقسيمه وكيفيته؛ موشحاً بالأمثلة المحسوسة اللائحة، والاستشهادات الموضحة اللائقة؛ مبنيّاً على قاعدة الموحدين، المحقّقين من أهل الله، المسمين بالصوفيّة؛ موافقاً لمذهب الشيعة الإماميّة الاثنا عشريّة؛ مطابقاً لأصول كلّ واحد منهم وقواعدهم، بحيث يرتفع به التنازع من بينهم بالكليّة، ولا يحتاجون بعده إلى كتاب آخر فيه.

٤ - لأنّ من بين الفرق الإسلاميّة والطوائف المختلفة المحمّديّة ليس أحد ينكر على الطائفة الصوفيّة مثل طائفة الشيعة، ولا على الشيعة مثل الطائفة الصوفيّة، مع أنّ مأخذهم واحد، ومشربهم واحد، ومرجعهم إلى واحد؛ لأنّ مرجع جميع الشيعة - خصوصاً الطائفة الإماميّة - ليس إلا إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وبعده إلى أولاده وأولاد أولاده - صلوات الله عليهم أجمعين - وهو مأخذهم ومشربهم ومسند علومهم ومرجع أصولهم.

وكذلك الصوفيّة الحقّة، لأنّهم أيضاً لا يسندون علومهم، ولا ينسبون خرقتهم إلا إليه، وبعده إلى أولاده وأولاد أولاده عليهم السلام - واحداً بعد واحد، لأنّ نسبتهم أمّا إلى كميل بن زياد النّخعي رضي الله عنه وهو تلميذه الخاصّ ومريده الخالص؛ - وأمّا إلى الحسن البصريّ وهو أيضاً من أعظم تلامذته وأكبر مريديه؛ - وأمّا إلى جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام الذي هو من أولاد أولاده عليهم السلام وهو أيضاً خليفته ووصيّه والإمام المعصوم المنصوص من عند الله. وسنشير إلى كيفيّة ذلك وتفصيله، إن شاء الله تعالى.

٥ - وسبب هذا الالتماس منّي، هو أنّهم رأوا بعين بصيرتهم النافذة آثار نعم الله تعالى وألطافه عليّ، باعطاء هذه المعارف والحقائق وشاهدوا بنور هدايتهم الحقيقية أنوار فيضانه وتجلّياته فيّ بإفاضته هذه المعاني والدقائق، وعرفوا كيفيّة اطلاعي على أصول الطائفتين وقواعدهم، وعلموا حسن «مجموعيّتي» بتحصيل قوانين الفرقتين وعقائدهم.

٦ - لأنّي من عنفوان الشباب، بل من أيّام الطفوليّة إلى يومنا هذا الذي هو أيّام الكهولة، بعناية الله تعالى وحسن توفيقه، كنتُ (مُجدّاً) في تحصيل عقائد أجدادي

الطاهرين الذين هم الأئمّة المعصومين عليهم السلام وطريقهم، بحسب الظاهر - التي هي الشريعة المخصوصة بطائفة الشيعة الإماميّة من أهل الفرق الإسلاميّة، وبحسب الباطن - التي هي الحقيقة المخصوصة بالطائفة الصوفيّة من أرباب التوحيد وأهل الله تعالى - والتوفيق بينهما، ومطابقةِ كلّ واحد منهما بالآخر، حتّى تحقّقتُ حقيّة الطرفين، وعرفتُ حقيقة القاعدتين، وطابقت بينهما «**حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة**»، وصرتُ كما صرتُ جامعاً بين الشريعة والحقيقة، حاوياً بين الظاهر والباطن، واصلاً (إلى) مقام الاستقامة والتمكين، قائلاً قول من كان مثلي من أرباب اليقين وأهل التحقيق ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1] شعر:

كانت لقلبي أهواءٌ مفرّقةٌ فاستجمعتْ مذ رأتك العينُ أهوائي

فصار يحسدني من كنتُ أحسده وصرتُ مولى الورى مذ صرت مولائي!

تركتُ للناس دنياهم ودينهم شغلاً بذكرك، يا ديني ودنيائي!

٧ - وليس ذلك بدعوى ولا رعونة، بل تحدّثاً بنعم الله تعالى وألطافه، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2]، وتذكراً بكرم الله تعالى وأنعامه لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

ومع ذلك، كلّ ما أتحدّثُ من هذه الأقسام في هذا الكتاب - ومثل هذا الكتاب - أضعافاً مضاعفة بمرار متعدّدة، لا يكون إلا ذرّةً من جبل وقطرةً من بحر، لأنّ نعم الله تعالى غير قابلة للاحصاء، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[4].

٨ - والله! ثمّ والله! لو صارت أطباق السماوات أوراقاً، وأشجارُ الأرضين أقلاماً، والبحورُ السبعة - مع المحيط - مداداً، والجنُّ والانس والملك كتّاباً، لا يمكنهم شرح عُشرٍ من عشير ما شاهدتُ من المعارف الإلهيّة والحقائق الربّانيّة،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٢) سورة الضحى: الآية، ١١.
(٣) سورة الذاريات: الآية، ٥٥.
(٤) سورة إبراهيم: الآية، ٣٧.

الموصوفة في الحديث (القدسيّ): «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، المذكورة في القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

٩ - ولا يتيسّر لهم بيانُ جزء من أجزاء ما عرفتُ من الأسرار الجبروتيّة والغوامض الملكوتيّة المعبّر عنها في القرآن بما لم يعلم لقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[2]، المومى إليها (أيضاً) بتعليم الرحمن، لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾[3]، المسمّاة بكلمات الله التي لا تبيد ولا تنفد، لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾[4]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5].

١٠ - وأقلّ ذلك هو أنّي شاهدتُ - بعد مشاهدة حقيقة الطائفتين المذكورتين - حقيّة كلّ طائفة وباطليّتها، وأنّه من أيّ وجه (كلّ واحدة) حقّ، ومن أيّ وجه (كلّ واحدة) باطل. و (علمتُ) توجّه كلّ واحد منهم إلى «النقطة الحقيقيّة التوحيديّة» كتوجّه الخطوط من الدائرة المحيطة إلى النقطة المركزيّة. واطلعتُ على معنى قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[7] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[8].

---

(١) سورة السجدة: الآية، ١٧.
(٢) سورة العلق: الآيتان، ٣ . ٤.
(٣) سورة الرحمن: الآيات، ١ . ٣
(٤) سورة الكهف: الآية، ١٠٩.
(٥) سورة لقمان: الآية، ٢٦.
(٦) سورة هود: الآية، ٥٦.
(٧) سورة البقرة: الآية، ١٤٨.
(٨) سورة البقرة: الآية، ١١٥.

١١ - وعرفتُ سرّ قول نبينا ﷺ: «**الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق**».
وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**العلم نقطة كثّرها جهل الجهّال**». وصرتُ كالهيولى القابلة صور العقائد كلّها.

وهذا كثير جداً، لأنّه من قبيل (قول النبيّ ﷺ: «**أرنا الأشياء كما هي**» - الذي هو أقصى نهاية **مراتب التوحيد**، وأعلى مدارج الكشف: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1]. شعر:

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن قلبي إلى دينه دان
لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورةٍ فمرعى لغزلان وديراً لرهبان
وبيتاً لأوثانٍ وكعبة طائفٍ وألواح توراة ومصحف قرآن
أدينُ بدين الحبّ أني توجّهتْ ركائبه، أرسلتُ ديني وايماني!

١٢ - ولا شكّ أنّ هذا - أي اثبات حقيقة (أمر) الصوفية - يصعب على بعض الأذهان المحجوبة عن الحقّ من أهل الشيعة، لأنّه يتصوّر أنّي أساعد مذهب أهل الباطل بالباطل، وأجتهد في اثبات حقيّتهم بغير الحقّ، مع أنه ليس كذلك، لأنّي بالحقيقة ما أساعد إلا مذهب آبائي وأجدادي الطاهرين - صلوات الله عليهم أجمعين - (وذلك) من حيث الظاهر والباطن، كما تقدّم ذكره.

١٣ - لأنّ أكثر الصوفيّة، من جهلهم، يتصوّرون أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا عارين عن هذه الفضيلة.

وكذلك الشيعة، فإنّهم أيضاً يتوهمون أنّ فضيلة أئمّتهم كانت منحصرةً في هذه العلوم المتداولة بينهم. وليس كذلك، لأنّ كلّ واحد منهما مخطىء في تصوّره، غير مصيب في توهمه. نعوذ بالله منهما ومن تصوّرهما!.

١٤ - لأنّه ليس هناك علم إلا وهم منبعه، ولا سرّ إلا وهم معدنه. وهم رؤساء أرباب الشريعة، وأئمّة أهل الطريقة، وأقطاب أساطين الحقيقة. وهم خلفاء الله في أرضه وسمائه، ومظاهر كبريائه وجلاله في ملكه وملكوته..

---

(١) سورة الحديد: الآية، ٢١.

والله! ثمّ والله! لولاهم، ما كانت السماوات قائمة، ولا الأرضون ثابتة، ولا ما بينهما من المخلوقات موجودةً، كما شهد به الكلام الواردُ من الله تعالى خطاباً إلى النبيّ ﷺ: «**لولاك، لما خلقتُ الأفلاك**».

و(كما شهد به أيضاً) الكلام الواردُ منه (تعالى) أيضاً إلى داود: «**يا داود! إنّي خلقتُ محمّداً لأجلي، وخلقتُ أولاد آدم لأجل محمّد، وخلقتُ ما خلقتُ لأجل أولاد آدم**» الحديث؛ لأنّ المراد بهما (يعني بهذين الخبرين) أنه يقول: «**لولا محمّد وأهله ما خلقت آدم وأهله**».

(وأيضاً): أنّ المراد بالأفلاك، الأفلاك وما فيها من الموجودات. وهذا أخبار بالظرف عن المظروف؛ وهو جائز عند العرب.

وأمّا أنّ محمّداً وأهله من نفس واحدة وحقيقة واحدة، وحُكمهم حكمُ محمّد في هذا (الأمر)، فهو ظاهر، غير خفيّ على أحد؛ وهو قد ثبت عقلاً ونقلاً وكشفاً، كما ستعرفه في هذا الكتاب.

١٥ - وأيضاً معلوم أنّه قد تقرّر عند المحقّقين أنّ العالم كلّه قائم بحقيقة الإنسان الكامل، والأفلاك تدور بأنفاسه، كما أشار إليه الشيخ (الأكبر يعني محيي الدين ابن العربيّ) - قدّس الله سرّه - في رسالة المسمّاة بـ«نسخة الحقّ» في أوّل خطبته وقال: «الحمد لله الذي جعل الإنسان الكامل معلّم الملك، وأدار - سبحانه وتعالى - تشريفاً وتنويهاً بأنفاسه الفلك». إلى آخره.

وليس هناك أكمل من هؤلاء المذكورين - عقلاً ونقلاً وكشفاً - بالاتّفاق.

١٦ - والدليل عليه أنّ الإنسان أشرف الموجودات وأكملها. والأنبياء عليهم السلام هم أشرف أنواع الإنسان، وبعدهم الأولياء. ونبيّنا وأهله - بالاتّفاق أيضاً - أشرف الأنبياء والأولياء. فيكون هو وأهله أشرف الموجودات وأعظمها، وخلاصة أهل العالم وأكملهم، (لا) سيّما نفسه وخليفته، العالم الربانيّ الذي صرّح بهذا في «خُطبته الافتخاريّة» وقال: «**أنا آية الجبّار، أنا حقيقة الأسرار، أنا دليل السماوات، أنا أنيس السّبحات، أنا خليل جبرائيل، أنا صفيّ ميكائيل، أنا قائد الأملاك، أنا سمندل الأفلاك، أنا صادق الوعد، أنا حافظ الرعد، أنا البرق اللموع، أنا السقف**

المرفوع!» إلى قوله: «**أنا وجه الله، أنا جنب الله، أنا يد الله، أنا الأوّل، أنا الآخر، أنا الظاهر، أنا الباطن!**» إلى آخره.

١٧ - وظاهراً بالنسبة إليّ (أنّه) لا يكون بعيداً أن قلتُ في هذا المقام ما قال **السيّد الرضيّ** - رحمه الله - في خطبته:

أؤلئك آبائي! فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ، المجامعُ

١٨ - وأيضاً يكفي في هذا الباب قول خصمائهم، نثراً ونظماً، فإنّه ملاء الآفاق بكثرته، وامتلاء الأفلاك لشهرته. أمّا النثر، فكقول بعضهم، وهو الأخطب الخوارزمي «لمّا قدم عليّ على رسول الله ﷺ بفتح خيبر، قال رسول الله: «**لولا أخاف أن تقول فيك طائفة من أُمّتي ما قالت النصارى في المسيح، لقلتُ اليوم فيك مقالاً لا تمرّ بملاء إلا أخذوا من تحت قدَمك ومن فضل طهورك يستشفون به! ولكن حسبك أن تكون منّي وأنا منك، ترثني وأرثك؛ وأنّك منّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنّه لا نبيّ بعدي!**» الحديث بطوله.

١٩ - وأمّا النظم، فكقول بعضهم، وهو عمرو بن العاص. شعر:

بآل محمّد عرف الصوابُ وفي أبياتهم نزل الكتاب
وهم حجج الإلّه على البرايا بهم وبجدّهم لا يستراب
طعام سيوفهم مُهج الأعادي وفيض دم الرقاب لها شرابُ
ولا سيما أبو حسن عليّ له في العلم مرتبة تهابُ
إذا نادتْ صوارمُه نفوساً فليس لها سوى نعمٍ جوابُ
فبين سنانه والدرع صلحٌ وبين البيض والبيض اصطحابُ
هو النبأ العظيم وفلكُ نوحٍ وباب الله وانقطع الخطابُ!

٢٠ - وبالجملة، لمّا رأيتُ الاشتغال بهذا (العلم الإلّهيّ) من أسباب التهيئة لتحصيل السعادات العظمى، والتوجّه إليه من المعدّات الموصلة إلى الدرجة العليا، لأنّه كان سبباً لاصلاح ذات البين الذي هو أفضل العبادات وأشرفها، لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ

ٱلنَّاسِۚ﴾(١)، - وموجباً لارشاد الطائفتين الذي هو أعظم الكمالات وأنفسها، لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾(٢).

- و(لمّا) رأيتُ أيضاً (أنّ) دفع هذا الالتماس والبخل به من أكبر الكبائر، ومنع هذا الاستدعاء والامساك عنه من أعظم القبائح، لأنّ العلم كالمال مثلاً، بل (هو) أشرف منه، فكما أنّ صاحب المال إذا بخل بحقوقه الواجبة عليه وأمسك عنه، صار مذموماً عند الله تعالى وعند الناس، دنيا وآخرةً، فكذلك صاحب العلم بالنسبة إلى حقوقه الواجبة عليه وانفاقه على مستحقيه وطالبيه كما أشار إليه - جلّ جلاله - في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾(٣)، - شرعتُ (آنئذٍ) فيه، وتوجّهت إليه، وجزمتُ على ترتيبه بالعزم الجازم والتوجّه التامّ. وقلت: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٤).

٢١ - وبيّنتُ فيه التوحيد وأقسامه كلّها مع توابعها ولوازمها مطابقاً لالتماسهم، موافقاً لاستدعائهم، على وجهٍ ما اتّفق لأحد من المتقدمين والمتأخرين، في حسنه ولطافته وجزالة ألفاظه ونفاسة معناه، لأنّ الذي شرع منهم في تعريفه، انحرف عن تقسيمه؛ والذي اشتغل بتقسيمه، انعزل عن تحقيقه. ولم يكونوا قاصدين هذا المقصد، ولا طالبين هذا المطلب، أيْ مقصد «الجامعيّة» ومطلب «المجموعيّة» الذي هو أحسن الطرق وأكمل السبل.

٢٢ - وأشرتُ في أثنائها إلى معرفة الذات والصفات والأفعال - وما شاكل ذلك - وإلى بعض أسرار القدر وكيفيّة أخذ القوابل - التي هي الأعيان الثابتة - حقوقها من الفواعل - التي هي الأسماء الإلهية - وسبب السعادة والشقاوة، والكمال والنقصان في الدارين، وإسنادها إلى القوابل دون الفواعل. واستعنتُ في تقرير ذلك كلّه بالأمثلة المحسوسة اللائقة، المقربة المعاني المعقولة إلى الأذهان.

---

(١) سورة النساء: الآية، ١١٤.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٦٠ - ٦١.
(٣) سورة التوبة، الآيتان: ٧٥ . ٧٦.
(٤) سورة الشورى: الآية، ٤٠.

وأشرتُ إلى انتساب علوم هذه الطائفة وخرقتهم إلى الأنبياء والأولياء عليهم السلام خصوصاً إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي هو قطب دائرة أهل التوحيد ومرجعهم؛ وبعده، إلى أولاده وتلامذته، ظاهراً وباطناً، أي صورةً ومعنىً. واستشهدتُ على كلّ مقصد من هذه المقاصد - أي مقاصد التوحيد - بكلام الله تعالى وكلام أنبيائه وأوليائه عليهم السلام وكذلك بكلام المشايخ - رضوان الله عليهم أجمعين.

٢٣ - وأشرتُ بعد ذلك إلى كيفيّة الشريعة والطريقة والحقيقة؛ وأنّها أسماء مترادفة، صادقة على حقيقة واحدة باعتبارات مختلفة، وأنّه ليس في نفس الأمر تغاير وتخالف.

ثمّ (أشرتُ) إلى سرّ النبوة والرسالة والولاية، ومراتبها ومعانيها وحقائقها. وإلى معنى النبيّ والوليّ والرسول، والفرق بينهم.

٢٤ - و (أومأتُ) إلى كيفيّة انتقال سرّ الولاية والنبوّة من الوليّ المطلق والنبيّ المطلق إلى الأنبياء المقيّدين والأولياء التابعين لهم من هذا المقام، وكيفيّة رجوعه إليهما بعد انقطاعهم عن النشأة الدنيويّة.

٢٥ - وأشرتُ أيضاً إلى خاتم الأنبياء وخاتم الأولياء ومراتبهما ومقامهما؛ وا الخلاف الذي وقع بين المشايخ والعلماء في تعيينهما.

٢٦ - ثمّ (أشرتُ) إلى الوحي والالهام والكشف وترتيبها ومراتبها، والفرق بين كل واحد منها، مع الفرق بين العلوم الكسبيّة الرسميّة وبين العلوم الإرثيّة؛ والفرق بين أهلها صورةً ومعنىً ومقاماً ومرتبةً. وأشرتُ إلى كيفيّة تحصيلهما ، الخلق والحقّ، وشرفِ الثانية وخسّة. الأولى، وفائدتهما. ثمّ (أومأتُ) إلى لإسلام والإيمان والإيقان وكيفيتها ومراتبها، وتقديم كلّ ، حدة منها على الأُ ، شرعاً وعقلاً، وغير ذلك من الأسرار العالية والحقائق الإ ية.

٢٧ - ورتّبتُه على ثلاثة أصول واثني عشرة قاعدة عني (أنّي) جعلتُ أصلٍ منها مشتملاً على أربعة قواعد:

الأصل الأوّل من الأصول هو مشتمل على بحث ا حيد وأقسامه، و مبنيّ على أربعة قواعد:

القاعدة الأولى: في فضيلة التوحيد **والثانية**: في تعريفه؛ **والثالثة**: في تقسيمه؛ **والرابعة**: في كيفيّته.

- والأصل الثاني منها مشتمل على الاستشهاد بكلام الله تعالى وكلام أنبيائه وأوليائه عليهم السلام وكلام المشايخ في حقيقة التوحيد واثباته، وهو أيضاًمبنيّ على أربعة قواعد:

القاعدة الأولى: في الاستشهاد بكلام الله تعالى.

القاعدة الثانية: في الاستشهاد بكلام الأنبياء عليهم السلام.

القاعدة الثالثة: في الاستشهاد بكلام الأولياء عليهم السلام.

القاعدة الرابعة: في الاستشهاد بكلام المشايخ - رضوان الله عليهم أجمعين.

والأصل الثالث منها مشتمل على أسرار الشرائع الإلٰهيّة وأسرار أرباب الشريعة والطريقة والحقيقة من الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

(وهي الأسرار) المتعلّقة ببحث التوحيد، (الذي) هو أيضاً مبنيّ على أربع قواعد:

القاعدة الأولى: في الشريعة والطريقة والحقيقة.

القاعدة الثانية: في النبوّة والرسالة والولاية.

القاعدة الثالثة: في الوحي والإلهام والكشف.

القاعدة الرابعة: في الإسلام والإيمان والايقان، وفي هذا الترتيب سرّ للخواصّ، وهو لا يخفى على أهله لأنّ: **«الحرّ تكفيه الإشارة»**.

٢٨ - وأمّا الغرض من انضمام بحث الشريعة والطريقة والحقيقة، وبالجملة الأبحاث المشتمل عليها الأصل الثالث إلى بحث التوحيد وأقسامه، ومن اشتمال الكتاب أيضاً على بحث التوحيد دون غيره من الأسرار، فهو أنّه ليس هناك سرّ أعظم من سرّ التوحيد وتوابعه ولوازمه، حتّى نشير إليه، أو نتوجّه نحوه.

وثانياً: أنّ الملتمس ما التمس غيره. وأمّا الأسرار المخصوصة بالأصل الثالث، فلأنّ التوحيد له غوامض ودقائق بعضها مناسب بأهل الشريعة، وبعضها بأهل الطريقة، وبعضها بأهل الحقيقة. وليس يعرف هذا المعنى إلا أهله، فبيّنتُ مراتبه ليتحقّقوه، ويتركوا انكار بعضهم على بعضٍ.

٢٩ - أمّا النبوّة والرسالة والولاية، فلأنّها هي منشأ الكلّ ومبدؤها، وما صدر التوحيد إلا منها، وما ظهر إلا من صاحبها، فبيان معرفتها كان واجباً. وكذلك الوحي والإلهام والكشف، والإسلام والإيمان والإيقان، لأنّها من توابعها ولوازمها.

وبالحقيقة مجموع هذه الأبحاث بحث واحد، بحيث لو أهمل بواحد من هذه المقاصد، لم يظهر المقصد على ما ينبغي، ويبقى المطلوب مخفيّاً، غير معلوم على ما ينبغي، كما لا يخفى على أهله. وأحسن الوجوه في علّة هذا الترتيب أنّ بيان التوحيد اقتضى بيان أهله، فصار الكتاب مشتملاً على بيانه وبيان أهله، لأنّ الأصلين (الأولين) من الأصول الثلاثة مشتملان على بيان التوحيد، والأصل الثالث (مشتمل) على بيان أهله.

والحقّ أنّه لا ينبغي إلا كذلك. والحمد لله على ذلك.

٣٠ - ووشحته بمقدّمة شريفة، مقدّمة على الأصول والقواعد كلّها مشتملة على كتمان الأسرار المودعة في هذا الكتاب عن غير أهلها. و (ذيّلته) بخاتمة جليلة مشحونة بوصية، متعلّقة بأهل هذه الأسرار.

وسمّيته بـ«**جامع الأسرار ومنبع الأنوار**». والتمستُ من الله تعالى في اتمامه العون والتوفيق، وفي اتقانه الكشف والتحقيق.

٣١ - فالمسؤول من عظماء أهل الذوق وأساطينهم، والملتمس من ملوك أرباب الكشف وسلاطينهم، أن ينظروا في هذا الكتاب نظر اصلاح وتنقيح، لا نظر مسامحة واغماض، وأن يتصرّفوا فيه تصرّف الشيخ في تلميذه، لا تصرّف المحبّ في محبوبه، لأن ثمرة هذا بالحقيقة لا يرجع إلا إليهم، لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾(١). وفائدته لا تصل بالتحقيق إلا إلى حضرتهم، لقوله تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾(٢) شعر:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٤.

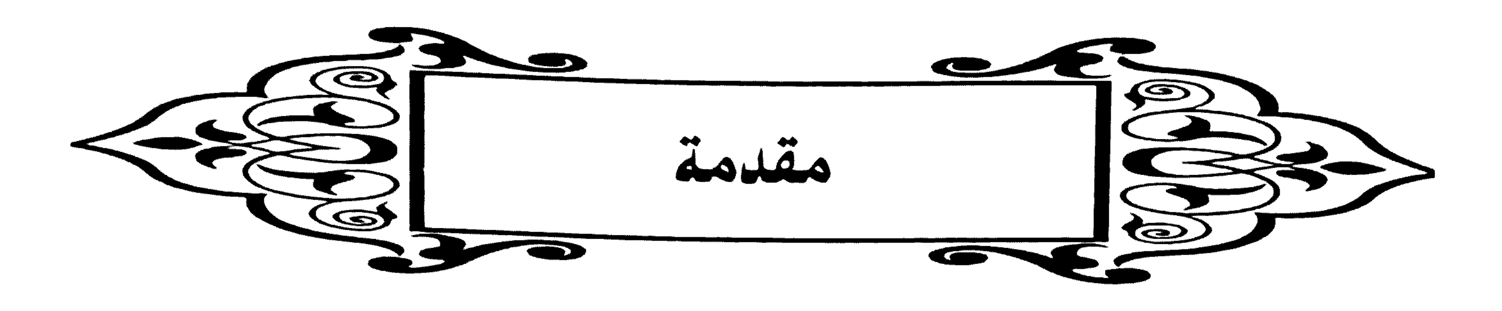
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

جزى الله خيراً من تأمّل صنعتي وقابل ما فيها من السهو بالعفو
وأصلح ما أخطأتُ فيها بفضله وفطنته واستغفر الله من سهوى

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع بالمآب، والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

وإذا تحقّق هذا وتقرّر، فلنشرع أوّلاً في المقدّمة وما اشتملت عليه؛ ثمّ بعد ذلك في الأصول والقواعد على الترتيب المذكور.





مشتملة على كتمان الأسرار المودعة في هذا الكتاب عن غير أهلها

٣٢ - اعلمْ، أيّها الطالب - هداك الله إلى سبيله وأرشدك إلى طريقه - أنّ هذا الكتاب مشتمل على معظم أسرار الله تعالى وأسرار أنبيائه وأوليائه عليهم السلام و (مشتمل على) لبّها وخلاصتها، وحسنها وأحسنها، دقيقها وجليلها، التي لا اذن لأحد في كشفها واظهارها إلا عند أهلها، ولا اجازة لهتك سرّها وكشف قناعها إلا بين يديْ صاحبها الذي هو بعلها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾(١).

٣٣ - وأسرار الله تعالى كلّها أماناته في أرضه وقلوب أوليائه، كما ستعرفه، فأوصيك بكتمانها واخفائها وصيّةً واجبةً؛ تحفظ بها نفسك ونفس غيرك من الضرر العاجل الذي هو القتل أو الصلب أو الرجم، والضرر الآجل الذي هو النار أو السخط أو العذاب، لأنّ الاهمال بالأمر الواجب موجب للسياسة الشرعية في الظاهر، والسياسة الإلَهيّة في الباطن بمقتضى حكمته ومشيئته و﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾(٢).

٣٤ - وهذا أمرٌ أمر الله تعالى به عباده المخلصين من الأنبياء والأولياء عليهم السلام وبالغ معهم. وأمرهم أيضاً أن يأمروا بذلك ويبالغوا فيه. ولذلك لم يزالوا آمرين به مبالغين فيه، حتّى قالوا: «**أفشاء سرّ الربوبيّة كفر، وهتك أستار الألوهيّة زندقة**».

وقالوا: «**لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها، فتظلموها؛ ولا تمنعوها عن أهلها، فتظلموهم. كونوا كالطبيب الشفيق يضع الدواء موضع الداء**».

وقالوا شعر: «فمن منح الجهال علماً أضاعه، ومن منع المستوجبين فقد ظلم». وأقوالهم الشاهدةُ بذلك واشاراتهم الدالّة عليه أشهر وأظهر من أن تخفى على أحد.

---

(١) سورة النساء: الآية، ٦١.

(٢) سورة الأنعام: الآية، ٩٦.

٣٥ - ومع ذلك نحن نذكر بعض ذلك استظهاراً لك ولغيرك، لئلا يهمله أحد ويوقع نفسه في الهلاك الأبدي والشقاء السرمدي. ويكون كلامنا هذا حجّة عليه عند الله تعالى يوم العرض والجزاء، لقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(١).

ومنها قوله تعالى تعليماً لعباده وتأكيداً لهم في أداء الأمانة التي هي أسراره إلى أهلها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(٢).

٣٦ - والمراد أنّه يقول: إنّا اطلعنا على استعداد أهل السماوات وأهل الأرض وأهل الجبال، الذين هم الملائكة والجنّ والحيوانات والوحوش والطيور، وغير ذلك - أو على استعداد كلّ واحد من السماوات والأرض والجبال بنفسها، لأنها عند الأكثرين شاعرة بذاتها - لأجل ايداع أمانتنا التي هي أسرارنا، فما وجدناهم أهلاً لها ومستعدّين لحملها لعدم قابليتهم وضعف استعدادهم، لأنّ حمل الشيء وقبوله موقوف على قابليّة ذلك الشيء واستعداده. ووجدنا الإنسان أهلاً لها ومستعداً لحملها.

فأمرناه بحملها، وأشرنا إليه بقبولها، لأنّه «كان ظلوماً جهولاً» أي بسبب أنّه كان مستعدّاً لها ومستحقّاً لحملها «بظلوميّته وجهوليّته».

٣٧ - فكأنّه يقول: إنّ السبب الأعظم والممد الأعلى في أهليّته لهذه الأمانة المعروضة على السماوات والأرض والجبال وما فيها من المخلوقات، بعد جامعيّته المعنويّة ومجموعيّته الصوريّة، كان «ظلوميّته وجهوليّته»، لأنّه لو لم يكن مستحقّاً لحملها ومستعدّاً لقبولها، (لكان) كغيره من الموجودات لعدم هاتين الصفتين فيه.

وعلى هذا التقدير تكون صفتا «الظلوميّة والجهوليّة» مدحاً له (يعني للإنسان) لا مذمّة، كما ذهب إليه أكثر المفسرين. ولا شك أنّه كذلك، واللام في «لأنّه» لام التعليل لا غير ليعرف به هذا المعنى.

---

(١) سورة النساء: الآية، ١٦٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٧٢.

والمراد بالإنسان نوعه، وبالحمل استعداده للحمل وقابليّته له. وهذا هو المعنى المطابق للأمانة والعرض والحمل والقبول والإباء اجمالاً، لا غير. وإلا، الأمانة ما كانت شيئاً محسوساً معروضاً على كلّ واحد من الموجودات حسّاً وشهادةً، ولا (كان) اباؤهم عنها قولاً وفعلاً، كما يرسخ في أذهان المحجوبين عنها.

٣٨ - وفي الأمانة وتحقيقها وحملها وكيفيّة العرض واباء الموجودات عنها، أبحاثٌ شريفة وأسرارٌ جليلة ليس هذا موضعها.

ونحن قد كتبنا في هذا الباب رسالة برأسها، موسومة بـ«رسالة الأمانة» مشتملة عليها، فارجع إليها. فإنّه ليس غرضنا في هذا الموضع هذا البحث.

٣٩ - بل الغرض أنّه تعالى مع عظمة شأنه وجلالة قدره، إذا لم يودع الأمانة إلا عند أهلها، ولم يأذن بها إلا إلى صاحبها، فلا ينبغي أن يفعل غيره بخلاف ذلك، وإلا يكون مخالفاً لأمره سالكاً غير طريقه. وأيضاً، لو لم تكن رعاية الأمانة عنده عظيمة، ما مدح بنفسه للراعين أمانته، وما سلكهم في سلك المصلين الصلاة الحقيقية، وما جعلهم من الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤﴾[١] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١﴾[٢] فحيث مدحهم على ذلك، وسلكهم في سلك هؤلاء المعظمين، بل قدمهم عليهم وجعلهم من الوارثين ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾[٣]، فعرفنا أن رعايتها (يعني رعاية الأمانة) معتبرة، وقدرها جليل، وشأنها عظيم.

٤٠ - وسبب ذلك أنهم كانوا عالمين بأن الخيانة في هذه الأمانة - التي هي ايداعها عند غير أهلها ومنعها عن أهلها - عظيمةٌ مؤدية إلى سخط الله تعالى وبعده، والطرد عن بابه، واستحقاق اللعنة والعذاب والنار..

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات، ١ . ٤.

(٢) سورة المؤمنون: الآيات، ٨ . ١٢.

(٣) سورة المؤمنون: لآية، ١١.

وهي أيضاً: موجبة للكفر والفسق، والخروج عن أمر الله تعالى، الذي هو الظلم الكذب، لأن الخائن - بالاتفاق - فاسق. والفاسق فاجر، والفاجر ظالم، والظالم كافر، والكافر مستحق للخلود في النار، ومستوجب لعذاب الله وسخطه وبعده وطرده عن بابه.

٤١ - لأن الفسق عبارة عن خروج العبد عن أمر الله وحكمه، كما قال - عزّ وجلّ - في حق الشيطان: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[١] والظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٢] والخائن في هذه الخيانة موصوف بهما، لأنه خرج عن أمر الله تعالى بايداعها عند غير أهلها، ووضعها في غير موضعها، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[٣]، لا إلى غير أهلها، وهو أدّى إلى غير أهلها، فهذا يكون خيانة فيها، لا أداء لها.

٤٢ - وأما أن الفاسق فاجر، والظالم كافرٌ فلقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٤] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٥]، وأيضاً كلّما صدق عليه الظلم، صدق عليه الفسق. وكلّما صدق عليه الكفر، صدق عليه الفسق. لأن الشيطان - بالاتفاق - كافر، ووصفه الحق تعالى بالفسق، ومراده الكفر، وإن لم يجز عند الغير اطلاق الكفر على الفاسق والظالم، لأن كل كافر ظالم فاسق، لا بالعكس. وهذا بحث اصطلاحي، ليس هذا موضعه.

٤٣ - وبالجملة، الخيانة في هذه الأمانة هي ايداعها عند غير أهلها، وامساكها عن أهلها، وكلاهما غير جائز. وإليه أشار - جلْ ذكره - في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٦] أي ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[٧]

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٦) سورة الأنفال: الآية، ٢٧.

(٧) سورة الأنفال: الآية، ٢٧.

بايداع أسرارهم عند غير أهلها، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة الخائن وصعوبة عذابه وشدّة عقوبته: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١). أيْ ذلك القول: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عنها، أي تحترزون عن الخيانة بعد ذلك، وتعظمون مكانتها. جعلنا الله من الحاملين أمانته، الراعين عهده، الموفين به الوارثين جنته، بمحمد وآله أجمعين!.

٤٤ - وإذ فرغنا من كلام الله تعالى في هذا الكتاب، فلنشرع في كلام الأنبياء عليهم السلام ومنها قول النبي صلى الله عليه وآله: «**من وضع الحكمة في غير أهلها جهل، ومن منع عن أهلها ظلم**».

«**إنّ للحكمة حقاً، وأنّ لها أهلاً: فأعط كلّ ذي حقّ حقّه!**» وقوله: «**إنّ من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله. فإذا نطقوا به، لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله**»، وغير ذلك من الأقوال المعلومة لأهلها.

٤٥ - والغرض أنّه صلى الله عليه وآله أمر بذلك وفعل بنفسه، لأنّه إذا أراد ايداع مثل هذه الأسرار في قلوب أصحابه وخواصه، كان يخلو بهم ويقول في آذانهم، كما فعل بأمير المؤمنين علي عليه السلام، وسمّاه بالذمّة، وأخبر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**تعلّمت من رسول الله ألف باب من العلم، وفتح الله تعالى لي بكلّ باب ألف باب**». وإلى كتمانه واخفائه بنفسه عن الأغيار أشار أيضاً بقوله: «**اندمجت على مكنون علم. لو أبحت به، لاضطربتم اضطراب الأرشية، في الطوى البعيدة**». وإلى ثمرة اظهاره - أعني من الفساد - أشار أيضاً وقال: «**والله! لو شئت أن أخبر بكلّ رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه، لفعلتُ. ولكنّي أخاف أن يكفروا برسول الله**».

وهذا أمر منه باخفاء أسرار الله وكتمانها وكناية عن اخفائها. ولهذا، لمّا قال له الخصم: «**أنت تتكلم بالغيب**»، قال: «**ويحك! إنّ هذا ليس بغيب، ولكنّه علم تعلّمتُ من ذي علم**». أراد به النبي صلى الله عليه وآله.

٤٦ - وكما فعل بسلمان أيضاً، أي جعله صاحب سرّ، وقال فيه: «سلمان منّا أهل البيت» أي من أهل بيت التوحيد والعلم والمعرفة والحكمة، لا من أهل بيت النسوان والصبيان والأهل والأولاد.

---

(١) سورة الأنعام: الآية، ٥٤.

وقال تأكيداً لهذا المعنى: «**لو علم أبو ذرّ ما في بطن سلمان من الحكمة، لكفّره!**» وروى: «**لقتله!**» وكلاهما صحيح. فانظر إلى عظمة قدر أبي ذر، وإلى هذا الكلام في حقه، واستشهد به علي عظمة السرّ المودع عند سلمان، وعلى المبالغة في كتمان أسرار الله تعالى، حيث عرفت أنّ كبار الصحابة كانوا يخفون بعضهم عن بعض حتّى النبيّ ﷺ. ولعظمة شأن سلمان وقربه إلى حضرة الرحمن، قال عليه السلام: «**الجنّة أشوق إلى سلمان من سلمان إلى الجنّة**».

٤٧ - ولجلالة قدر أويس القرني - رحمة الله عليه أيضاً - لاطّلاعه على أسرار الله تعالى كشفاً وذوقاً، قال ﷺ في حقّه، حين كان يستنشق من طرف اليمن روائح أنفاسه الشريفة، من حيث الباطن أو الظاهر: «**أنّي لانشق روح الرحمن من طرف اليمن**»، ووود «**من ناحية اليمن**» و «**من قبل اليمن**». وقد سأله سلمان عن هذا الشخص، فقال له عليه السلام: «**إنّ باليمن لشخصاً يقال له: «أويس القرني»؛ يحشر يوم القيامة أمّة وَحْدَهُ، يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر. ألا من رآه منكم، فليقرأه عنّي السلام، وليأمره أن يدعو لي**».

٤٨ - وإلى غلبة هذه الأسرار بالنسبة إليه في بعض الأوقات، قال: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل**». والمراد أنّ لي مع الله حالات وأوقات لا يمكن أن يطلع عليها أحد، لا ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا غيرهم من المخلوقات. وكأنّه يشير إلى أنّه ما تنكشف عليه هذه الأسرار ولا تتجلّى له هذه الأنوار إلا عند تجرّده عن جميع التعلّقات الروحانيّة والجسمانيّة - حتّى النبوّة والرسالة - وعن جبرائيل وابلاغه أيضاً، لقوله ﷺ: «**لو دنوتُ أنملة لاحترقت**».

٤٩ - وبالحقيقة المعراج عبارة عن هذا المقام، إن أريد به المعراج المعنويّ؛ وإن أريد به (المعراج) الصوريّ، فهو ظاهر. و(قد عبّر، عليه السلام) عن شدّة تعلّقه بالنبوّة والرسالة ومنعهما (إيّاه) عن الوصول إلى حضرة الحقّ- جلّ جلاله - (و) قال حين خلاصه عنهما لحظةً: «**لا يسعني فيه ملك مقرّب**» أي جبرائيل وابلاغه، «**ولا نبيّ مرسل**» أي النبوّة ورسالتها، لأنّ الرسالة ابلاغ ما حصل عن النبوّة. وإلى هذا

المقام أشار - جلّ ذكره: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[١]، ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾[٢]. وأمثال ذلك كثيرة.

٥٠ - والغرض منه أنّ اخفاء أسرار الله تعالى - خصوصاً الأسرار المودعة في هذا الكتاب - واجب عن غير أهلها، لأنّها لا زالت كذلك، أي مخفيّة عن غير أهلها، مودعة عند أهلها.

٥١ - وإذا عرفت هذا، فلنرجع إلى قول الأولياء عليهم السلام ونبيّن هذا بقول أعظمهم وأكملهم الذي هو أمير المؤمنين عليه السلام كما فعلنا في الأنبياء، أعني اكتفينا منهم بأعظمهم وأكملهم الذي هو نبيّنا صلى الله عليه وآله وهو هذا. ومنها قول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأقواله في هذا الباب كثيرة. نذكر منها أحسنها وألطفها، وهو ما جرى بينه وبين كميل بن زياد النخعيّ - رحمه الله - الذي كان من أخصّ تلامذته وأعظم أصحابه - وإليه تنسب خرقة الموحّدين وطريقة المحقّقين - حين سأله عن «**الحقيقة**».

٥٢ - وهو أنّه مرويّ عن كميل أنّه سأل أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام عن «الحقيقة»، بقوله: «**ما الحقيقة؟**» فقال له عليه السلام: **ما لك والحقيقة؟**» يعني: من أنت والسؤال عن الحقيقة، ولست بأهلها! فقال كميل: «**أوَلستُ صاحب سرّك؟**» قال: «**بلى! ولكن يرشح عليك ما يطفح منّي**» يعني: نعم، أنتَ صاحب سرّي ومن أخصّ تلامذتي، ولكن لستَ بأهل لمثل هذا السرّ والاطلاع عليه، لأنّه «**يرشح عليك ما يطفح منّي**» (وإلا كان الأمر) يضرّك ويضرّني، لأنّ ظرفك لا يحتمل فوق قدرك، وأنا مأمور بوضع الشيء (في) موضعه. فقال كميل: «**أوَ مثلك يخيب سائلاً؟**» أي مثلك في العلوم والحقائق والاطّلاع على استعدادكلّ سائل، «**يخيب سائلاً؟**» أي يمنعه عن حقّه، ويجعله محروماً عن مراده، خائباً عن مقصوده، ساكتاً عن جوابه؟ لا، والله! بل يجب عليك وعلى مثلك جواب كلّ واحد منهم بقدر استعداده وفهمه وادراكه، مطاوعةً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[٣] وأسوةً بنبيّه صلى الله عليه وآله لقوله: «**كلموا الناس على قدر عقولهم**».

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الجن: الآية، ٢٣.
(٣) سورة الضحى: الآية، ١٠ . ١١.

٥٣ - فشرع الإمام بعد ذلك في بيانه وقال: «**الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة**». فقال كميل: «**زدني فيه بياناً**». قال الإمام: «**صحو الموهوم مع محو المعلوم**» قال كميل: «**زدني فيه بياناً**».

قال الإمام: «**هتك السرّ لغلبة الستر**».

قال كميل: «**زدني فيه بياناً**».

قال الإمام: «**نور يشرق من صبح الأزل، فيلوح على هياكل التوحيد آثاره**».

قال كميل: «**زدني فيه بياناً**».

قال الإمام: «**اطف السراج، فقد طلع الصبح**».

٥٤ - وهذا الكلام يحتاج إلى شرح طويل وبسط عظيم، وسنبيّنه في الأصل الثاني من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى، ولكن معنى الكلام الأخير أنّه يقول: «**اسكت بعد ذلك**» أي بعد هذا البيان التامّ والاظهار الكامل والكشف الجليّ العياني، عن السؤال من لسان العقل ومقام القلب ومرتبة السلوك، لأنّه قد طلع تباشير شمس الحقيقة وظهر شعاعها في الآفاق. ولست أنت، بعد ذلك، محتاجاً إلى السؤال من لسان العقل الذي هو كالسراج بالنسبة إلى الشمس.

٥٥ - والمراد أنّ الشخص إذا وصل إلى مقام المشاهدة والكشف، فلا ينبغي له أن يطلب المقصود من طريق المجادلة والمباحث، لأنّ الكشفيّات و الذوقيّات غير قابلة للعبارة والإشارة والسؤال والجواب، كما أشار إليه أوّلاً، وقال: «**كشف سبحات الجلال من غير اشارة**».

فكأنّه أمره بالسكوت والصمت والتوجّه الكلّيّ إلى حضرته تعالى، حتّى يدرك مقصوده بالذوق الذي هو أعلى مراتب الوصول إلى الله تعالى.

وعن هذا المقام قال العارف: «**مَن عرف الله كلّ لسانه**» أي «**مَن عرف الله**» على سبيل المشاهدة والذوق «**كلّ لسانه**» عن العبارة والإشارة.

٥٦ - والغرض من هذا كلّه أنّ الإمام عليه السلام إذا كان بافشاء الأسرار الإلّهيّة عن أعظم خواصّه وأكبر تلامذته بهذه المثابة، فلا يجوز لغيره افشاؤه مع كلّ أحد من العوامّ والجهّال.

فأذن عليك بكتمانها واخفائها عن غير أهلها اتّباعاً لله تعالى ولرسوله ولإمام المسلمين كافّة.

٥٧ - ويروى عن كميل رضي الله عنه مثل ذلك أيضاً وأبلغ منه، في كتمان الأسرار واخفائها، كما هو مذكور في «نهج البلاغة». وهو أنّه قال - رضي الله عنه: «**أخذ بيدي أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فأخرجني إلى الجبّانة، فلمّا أصحر، تنفّس الصعداء. ثمّ قال لي: يا كميل بن زياد! إنّ هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظْ عنّي ما أقول لك. الناس ثلاثة: فعالم ربّانيّ، ومتعلّم على سبيل النجاة، وهمجٌ رعاعٌ أتباعُ كلّ ناعقٍ يميلون مع كلّ ريحٍ، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيقٍ**».

يا كميل! العلم خير من المال. العلم يحرسك، وأنت تحرس المال. والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الانفاق، وصنيع المال يزول بزواله. يا كميل! معرفة العلم دينٌ يُدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته.

العلم حاكم، والمال محكوم عليه. يا كميل بن زياد! هلك خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. ها! إنّ ههنا لعلماً جمّاً - وأشار بيده إلى صدره - لو أصبتُ له حَملةً! بلى! أصبتُ لقناً غير مأمون عليه، مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله تعالى على عباده وبحججه على أوليائه؛ أو مُنقاداً لحملة الحقّ، لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشكّ في قلبه لأوّل عارضٍ من شبهةٍ: ألا! لا ذا ولا ذاك؛ أو منهوماً باللّذة، سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادّخار، ليسا من رعاة الدين في شيءٍ، أقرب شيءٍ شبهاً بهما الأنعامُ السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه. اللهمّ بلى! لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بحججه، أمّا ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيّناته. وكم ذا؟ وأين أولائك - والله - الأقلّون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً، بهم يحفظ الله تعالى حججه وبيّناته، حتّى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم. هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى. أولائك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه. آه آه! شوقاً إلى رؤيتهم!» هذا آخره. وسنشير إلى

بعض أسرار هذا الكلام في آخر هذه المقدّمة، إن شاء الله تعالى، ونبيّن أنّ هؤلاء القوم الموصوفين بهذه الصفات، من هم؟ والعلم الذي هم حاملوه، أيّ علم هو؟.

٥٨ - وإذ فرغنا من كلامه في كتمان الأسرار والمبالغة فيه بقدر هذا المقام، فلنشرع فيه من كلام الأئمّة المعصومين من أولاده عليهم السلام تأكيداً ومبالغة في هذا الباب. وإن قيل: يكفي في هذا الباب آية أو آيتان، وخبر أو خبران، لأنّ المقصود يحصل منهما، فلا فائدة في التطويل وزيادة الكلام، - أجيب عنه بأنّ المراد ليس نفس الاخفاء ولا الكتمان، بل هناك غرض آخر يفهم من البحث الآتي في آخر المقدمة، وهو المعارضة بين الطائفتين، والتمسّك بهذا الكلام، لئلا ينكر أحد، حين التمسّك، بأنّ هذا الكلام ليس كلامه - والباقي من الأغراض ستعرفه، إن شاء الله تعالى.

٥٩ - ومنها قول الأئمّة المعصومين من أهل بيت النبيّ - صلوات الله عليهم أجمعين - وهو أنّه مرويّ برواية صحيحة عن كلّ واحدٍ واحدٍ منهم أنّه قال: «**إنّ أمرنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلا ملك مقرّب، أو نبيّ مرسل، أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان**».

وقال: «**وخالطوا الناس بما يعرفون، ودعوهم بما ينكرون، ولا تحملوا على أنفسكم وعلينا. إنّ أمرنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلا ملك مقرّب، أو نبيّ مرسل، أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان**».

٦٠ - وروى محمّد بن عبد الجبّار عن الحسن بن الحسين اللؤلؤيّ عن محمّد بن الهيثم، عن أبيه عن أبي حمزة الثماليّ، قال «سمعتُ أبا جعفر (يعني الإمام محمّد الباقر) عليه السلام يقول: **أمرنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلا ملك مقرّب، أو نبيّ مرسل، أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان. ثمّ قال: يا أبا حمزة! ألست تعلم أنّ من الملائكة مقرّباً وغير مقرّب؟ ومن النبيّين مرسلاً وغير مرسل؟ وفي المؤمنين ممتحناً وغير ممتحن؟**» قال: «قلتُ بلى!» قال: «**ألا ترى صعوبة أمرنا؟ إنّ الله تعالى اختار له من الملائكة المقرّب، ومن النبيّين المرسل، ومن المؤمنين الممتحن**».

٦١ - وروى محمّد بن الحسين، عن محمّد بن سنان، عن عمّار بن مروان، عن جابر، عن أبي عبدالله (يعني الإمام جعفر الصادق) عليه السلام أنّه قال: «**أمرنا سرّ مستور في سرّ، وسرّ مستسرّ، وسرّ لا يفيده إلا سرّ، وسرّ على سرّ، مقنّع بسرّ**».

وروى أيضاً أنّه قال: «**إنّ أمرنا سر مستور في سرّ، مقنّع بالميثاق؛ من هتكه أذلّه الله**».

٦٢ - وروى ابن محبوب، عن مرازم، قال: «**قال لي أبو عبدالله** عليه السلام: **أمرنا هو الحقّ، وحقّ الحقّ، وهو الظاهر، وباطن الظاهر، وباطن الباطن، وهو السرّ، وسرّ السرّ، والسرّ المستسرّ، وسرّ مقنّع بسرّ**».

٦٣ - وإلى كتمان هذا السرّ، أشار بقوله عليه السلام: «**التقيّة ديني ودين آبائي. فمن لا تقيّة له، لا دين له**» يعني: الاتّقاء والاحتراز من افشاء الأسرار الإلّهيّة «**ديني ودين آبائي**» من الأنبياء والأولياء عليهم السلام «**فمن لا تقيّة له**» في اخفائها «**لا دين له**».

٦٤ - وإلى هذا أشار علماؤنا في كتبهم وقالوا: التقيّة واجبة، لا يجوز رفعها إلى أن يخرج الإمام القائم الذي به يظهر الدين كلّه، ويكون من المشرق إلى المغرب على ملّة واحدة، كما كان (الشأن) في زمان آدم عليه السلام.

فمن تركها (يعني التقيّة) قبل خروجه، فقد خرج من دين الإماميّة، وخالف الله تعالى ورسوله والأئمّة عليهم السلام. وهذا الكلام منقول من «اعتقادات ابن بابويه» رحمة الله عليه.

٦٥ - وروى عمران بن موسى عن محمّد بن عليّ وغيره، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر، عن أبيه عليه السلام قال: «**ذكر عليّ** عليه السلام **التقيّة في يوم عيد**».

قال: والله! لو علم أبو ذرّ ماذا في قلب سلمان، لقتله!» ولقد آخى رسول الله، بينهما؛ فما ظنّك بسائر الخلق؟ «إنّ علم العلماء صعب مستصعب، لا يحتمله إلا مَلَك مقرّب، أو نبيّ مرسل، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان».

قال: **وإنّما صار سلمان من العلماء، لأنّه امرؤ منّا، أهل البيت**» فلذلك شبه العلماء.

٦٦ - وإلى هذا كلّه أشار الإمام المعصوم زين العابدين عليه السلام في أبيات منسوبة إليه، وهو قوله:

إنّي لأكتم من علمي جواهره   كيلا يرى الحقّ ذو جهل فيفتتنا

وقد تقدّمنا فيها أبو حسن مع الحسين ووصيّ قبلها الحسنا

يا ربّ جوهر علم لو أبوح به لقيل لي: أنت ممّن يعبد الوثنا!

ولاستحلّ رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وروى أمثال ذلك عنهم بحيث يكاد يخرج عن الحصر. وليس هذا الموضع محتاجاً إلى أكثر من هذا. و «**خير الكلام ما قلّ ودلّ ولم يملّ**».

٦٧ - وأيضاً مرادنا يحصل بهذا المقدار وأقلّ منه، إن كان المخاطب منصفاً. وإن لم يكن منصفاً، فما يفيده شيء أصلاً، لا هذا ولا غيره، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[١]. هذا آخر ما أردنا ايراده من كلام الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

٦٨ - وإذا تحقّق هذا، فعليك بحفظ هذه الأسرار وكتمانها واخفائها عن غير أهلها، لأنّه ليس علينا غير الذي فعلنا ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٢]. ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[٣]، والله المستعان، وعليه التكلان، وهو ﴿يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[٤].

٦٩ - تنبيه: وإن قيل: أنت قلت: نحن نكتفي من الأولياء بواحد منهم، وهو أمير المؤمنين عليه السلام وقد ذكرت بعدد كلام الأئمة عليهم السلام وهذا خلاف الشرط، ويلزم منه فسادان: أمّا أنّ الأئمّة ليسوا من الأولياء، وهذا خلاف الحقّ؛ وأمّا أنت تغفل عن أمثال هذا، وهذا أيضاً ليس بمناسب؛ - أجيب عنه بأنّ هذا ليس كذلك، لأنّ الأئمّة عليهم السلام من كبار الأولياء، لكن فعلتُ هذا رعايةً لطريق أصحابنا الشيعة، لأنّهم لا يفرقون بين كلام النبيّ وكلام أمير المؤمنين وكلام الأئمّة عليهم السلام لأنّ الكل عندهم بمثابة نفس واحدة وكلام واحد.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٢) سورة النور: الآية، ٥٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية، ١٠٤.

(٤) سورة الأحزاب: الآية، ٤.

وإلا، أنا ما أغفل عن هذا المقدار، بعناية الله تعالى وحسن توفيقه.

٧٠ - وأمّا المعارضة الموعودة بين الطائفتين المذكورتين، وهي أنّ أصحابنا الشيعة لا يسلّمون أنّ هذه الطائفة المخصوصة بحمل أسرار الأئمة عليهم السلام هم الصوفية؛ ولا يقرّون أيضاً بأنّ هذه الأسرار توجد في غير الأئمّة، وينكرون عليهم في هذه الدعوى غاية الانكار، وينسبونهم بذلك إلى الكفر والزندقة.

فنريد أن نستدلّ على حقيّتهم بالدلائل النقليّة والبراهين العقليّة اجمالاً، قبل الشروع في المعارضة بينهم تفصيلاً. ونثبت أنّ هؤلاء الجماعة (الذين) هم الصوفيّة، (هم) الموسومون بالشيعة الحقيقيّة و «المؤمن الممتحن» وغير ذلك، ليعرفوا (يعني أصحابنا الشيعة) قدرهم، ويتركوا انكارهم، ويتحقّقوا أنّهم منهم.

٧١ - فنقول: كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «**الناس ثلاثة: فعالم ربّانيّ، ومتعلّم على سبيل النجاة، وهمج رعاع**» إلى قوله: «**أولئك، والله! الأقلّون عدداً والأعظمون قدراً، بهم يحفظ الله حججه وبيناته حتّى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها ي قلوب أشباههم**» إلى آخره، - دالّ على أن هناك جماعة مخصوصة بحمل أسرارهم وحفظها، وهم قليلون، ومع أنّهم قليلون، (فهم) الأعظمون قدراً، والأكملون وصفاً.

٧٢ - فهؤلاء الجماعة لا يجوز أن يكونوا من القسم الأوّل، الذي هو «**العالم الربّاني**» لأنّ هذا اسم مخصوص بعد النبيّ صلى الله عليه وآله به وبالأئمة المعصومين من أولاده عليهم السلام ولا يجوز أن يكونوا من القسم الثالث، الذي هو «**الهمج**»، لأنهم موصوفون بأنّهم «**أولياء الله وخلفاؤه**» وقدرهم أعلى وأجلّ من أن يعدّوا منهم. فما بقي إلا أن يكونوا من القسم الثاني، الذي هو «**المتعلّم على سبيل النجاة**».

فثبت أنّ هناك جماعة مخصوصة بحمل أسرارهم (يعني أسرار الأئمة)، وهم غيرك (أيّها الشيعيّ اسماً!)، لأنّك مقرّ بأنّك لست بحامل أسرارهم هذه، ولا غيرك.

٧٣ - فنقول: هؤلاء الجماعة، هم الصوفيّة الموسومون بالشيعة الحقيقيّة و «**المؤمن الممتحن**»، لأنّهم هم المخصوصون بحمل هذه الأسرار من بين الطوائف كلّها، لأنّها لا تظهر إلا منهم، ولا يقرّ بها إلا هم. ويشهد بذلك بعد حكم الضرورة

قول الأئمة عليهم السلام: **«الناس يعدّون على ثلاثة: عالم ومتعلّم وغُثاء، فنحن العلماء، وشيعتنا المتعلّمون، وسائر الناس غُثاء»**.

وبعبارة أُخرى: **«الناس رجلان: عالم ومتعلّم؛ وسائر الناس غُثاء. فنحن العلماء؛ وشيعتنا المتعلّمون؛ وسائر الناس غُثاء»**.

٧٤ - وإن قلتَ: هذا برهان على اثبات حقيقتنا، لأنّ (اسم) الشيعة لا يصدق على غيرنا.

قلنا: نعم! لا يصدق على غيرك بحسب الظاهر. فأمّا بحسب الباطن، فلا! فإنّه يصدق عى غيرك. وليس بينهما منافاة، لأنّ للشيعة اعتبارين:

الأوّل: من حيث الظاهر والشريعة.

والثاني: من حيث الباطن والطريقة، كما أشار إليه الأئمة عليهم السلام في أخبارهم، وقسموهم قسمين وسموهم بـ «المؤمن الممتحن والغير الممتحن»، كما سنبيّنه. فالاعتبار الأوّل، لك؛ والثاني، لغيرك.

وبالحقيقة كلاهما واحد، لأنّ اسم «الشيعة» شامل للكلّ، أهل الظاهر وأهل الباطن. وإن لم تقبل هذا التقسيم، فاجعل «روحك» من القسم الثالث، الذي هو «**الهمج**»، وإلا، غير هذا لا يمكن، لأنّ حمل أسرارهم (يعني أسرار الأئمّة) خصّ بالجماعة التي (هي) من القسم الثاني، وأنت لست منهم ولا من القسم الأول، فما بقي إلا القسم الثالث!.

٧٥ - وإلى هذا التقسيم أشار - جلّ جلاله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾(١)، لأن «**السابقون**» اشارة إلى الأنبياء والأولياء والأئمّة عليهم السلام - الموسومين بـ «**العالِم الربّاني**». و«**أصحاب الميمنة**» (اشارة) إلى المؤمنين والموحّدين من «**الشيعة**»، الموسومين بـ «**المتعلّم على سبيل النجاة**». و «**أصحاب المشأمة**» هم العوامّ وأهل الباطل، الموسومون بـ «**الهمج**» و «**الغُثاء**» وغير ذلك. وكذلك (الأمر بالنسبة إلى) «**الظالم لنفسه**» و «**المقتصد**»، و «**السابق بالخيرات**» في

---

(١) سورة الواقعة: الآيات، ٧ - ١١.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[1]. هذا وجه واحد مستخرج من قول أمير المؤمنين عليه السلام.

٧٦ - وأمّا من قول أولاده المعصومين عليهم السلام وهو أنّهم بأجمعهم قالوا: «**أمرنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلا ملك مقرّب، أو نبيّ مرسل، أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان**»، كما تقدم ذكره وإسناده، فهذا «**المؤمن الممتحن**» ليس من «**طائفة السنّة**»، ولا من غيرها من الطوائف، لأنّه صار خارجاً عن الجميع (يعني جميع الطوائف والفرق) بتخصيصه بـ «**المؤمن**».

٧٧ - ومعلوم أنّ المؤمن لا يطلق من حيث الاصطلاح إلا على «**الشيعة**»، وإن كان من حيث اللغة يصدق على كلّ مسلم ومؤمن وبحثنا من حيث الاصطلاح، لا من حيث اللغة. فأهل السنّة لا يصدق عليهم اسم «**المؤمن**» ولا على غيرهم من الطوائف.

و (هذا «**المؤمن الممتحن**») ليس أيضاً من طائفة «**الشيعة**» مطلقاً، لأنّه صار أيضاً خارجاً عنهم بتخصيصه بـ «**الممتحن**».

لأن «**الشيعة**» اسم جامع لجميع أنواعها، والنوع الخاصّ من «**الشيعة**»، لأن «**الشيعة**» اسم جامع لجميع أنواعها، والنوع الخاصّ من «**الشيعة**» هم الصوفيّة، كما تقدم. فيكون «**المؤمن الممتحن**» صادقاً عليهم، وهو المطلوب.

٧٨ - ووجه آخر، وهو أنّ الأوّل يكون صادقاً على عوامّهم، والثاني على خواصّهم، أعني: إن جعلت «**المؤمن الغير الممتحن**» - الذي هو العامّ -

اسماً لفرقة أُخرى غير «**الإماميّة**»، يكون «**المؤمن الممتحن**» - الذي هو الخاصّ - اسماً للفرقة «**الإماميّة**». وإن جعلت «**الشيعة**» نوعاً خاصّاً لا جنساً عامّاً، وجعلته عَلَماً «**للإماميّة**» فقط، كما هو مقرّر في أصولهم - إنّ «**الشيعة**» بالحقيقة لا يطلق إلا عليهم فحينئذٍ «**الإماميّة**» تنقسم إلى قسمين: «**المؤمن الممتحن**» و «**المؤمن الغير الممتحن**»، ويصدق العامّ على أهل الظاهر منهم، والخاصّ على أهل الباطن، كما تقدّم.

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٥.

٧٩ - وهذا التقسيم أنسب من الأوّل، لأنّ من الأوّل (ما) لا يصدق على «**الإماميّة**» بالمطابقة أنّها «**المؤمن الممتحن**»، بل بالالتزام، لأنّ «**المؤمن الممتحن**» هو الذي يكون حامل أسرارهم، والإماميّة مطلقاً ليسوا بحاملي أسرارهم، بل حامل أسرارهم منها صنف خاصّ، وهو «**المؤمن الممتحن**». ولا شكّ أنّ هذا البحث محتاج إلى بسط غيرهذا، (يكون) أوضح وأبين منه.

٨٠ - فنقول: اعلمْ أنّ الفرقة «**الإماميّة**» على قسمين: قسم قائم بظاهر علومهم، التي هي عبارة عن الشريعة والإسلام والإيمان. وقسم قائم بباطن علومهم، التي هي عبارة عن الطريقة والحقيقة والإيقان. والأوّل موسوم بالمؤمن فقط.

والثاني بـ «**المؤمن الممتحن**»، والشيعة والصوفيّة عبارة عنهما، لأنّ الشيعيّ والصوفيّ اسمان متغايران (يدلاّن) على حقيقة واحدة، وهي الشريعة المحمديّة.

٨١ - وإن قيل: إنّ الصوفيّة على طريقة «**أهل السنّة**» وأصولهم وقواعدهم، فكيف جعلتهم «**شيعيّين**» حقيقيّين؟ - أجيب عنه بأنّ الصوفيّة وإن كانت فرقاً كثيرة، مثل الشيعة، لكنّ الفرقة الحقّة منها واحدة، وهي الفرقة الموصوفة بهذه الأوصاف، أي بحمل أسرارهم على ما ينبغي، والإيمان بهم (يعني بالأئمة عليهم السلام) ظاهراً وباطناً، كما أنّ الشيعة، وإن كانت فرقاً كثيرةً، لكنّ الفرقة الحقّة منها واحدة، وهي الفرقة «الإماميّة».

٨٢ - وإن اعترض واحد من الإماميّة على هذا، وقال: لا نسلّم صدق هذه الخصوصيّة، ولا صحّة هذا التقسيم، لأنّه ليس هناك أحدٌ آخر غيرنا يصدق عليه هذا الاسم، بل نحن «**المؤمن الممتحن**» و «(**المؤمن**) **غير الممتحن**»، قلنا: إن سلّمتَ وإن لم تسلّم، فكلام الأئمّة عليهم السلام يشهد بأنّ «**المؤمن الغير الممتحن**» غير «**المؤمن الممتحن**»، لأنّ «**المؤمن الممتحن**» هو الذي يكون حامل أسرارهم، لقولهم «**أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان**». والمؤمن الغير الممتحن (أنت) مقرّ بأنّه ليس من حاملي أسرارهم، ولا غيره، فلا يكون هو منهم.

٨٣ - ولو قال: لمَ قلتَ أنّه ليس هو بحامل أسرارهم، ولا بأهلها؟ بل أسرارهم هي ما هو عليه.

قلنا: لو كانت علوم الأئمّة وأسرارهم منحصرة في ما أنت عليه، لما كانوا

محتاجين إلى الوصيّة بكتمانها إلى هذه الغاية، والمبالغة الشديدة فيها إلى أقصى النهاية، لأنّ علوم الشريعة - التي أنت عليها - اظهارها واجب، وسترها كفر، لأنها علوم واجبة الاظهار والاشتهار على رؤوس المنابر، وصدورالمحافل، وبطون المجالس، وواجبٌ القيامُ ببعض أركانها بالطبول والأعلام والتكبير والصلوات، مثل الحجّ والجهاد، والبعض الآخر بالدفوف والصياح، مثل الزفاف والأعياد وغير ذلك، رغماً لأنف أعدائها وقَصْمَ ظهر حسادها.

٨٤ - وأيضاً لو اعتقدتَ أنّ أسرارهم وعلومهم منحصرة في ما أنت عليه فقط، - فهذا اعتقاد فاسد، وظنّ كاذب، وجهل تامّ بكمالاتهم ومراتبهم، لأنّ الذي أنت عليه مرتبة من مراتبهم ودرجة من درجاتهم، بل أدناها وأسفلها، والذي غيرك عليه كذلك، لأنّ علم الشريعة بالنسبة إلى علم الطريقة كالقشر بالنسبة إلى اللبّ، و (علم) الطريقة بالنسبة إلى الحقيقة كذلك. وأين القشر من اللبّ ولبّ اللبّ؟ ومن أراد أن يعرف الفرق بين هذه المراتب، فليطالع في هذا الكتاب، من الأصل الثالث القاعدة الثالثة منه.

٨٥ - وإن قلتَ: لَم لا يجوز أن يكون هذا الأمر، أو هذه الأسرار المذكورة في كلام الأئمّة عليهم السلام في «**الإماميّة**» ومذهب الطائفة «**الاثنا عشرية**» من حيث الظاهر؟ - قلنا: لو كان الأمر كذلك، لما بالغوا في كتمانه إلى هذه الغاية، لأنّهم ما خرجوا بالسيف إلا لاظهاره و (قصد) اشتهاره. ومعلوم أنّ علياً عليه السلام من حين وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان في المخاصمة والمحاربة إلى حين وفاته، حتّى قتل أُلوفاً من المنكرين المخالفين لطريقته وشريعته. وهذا السؤال ليس جيّد، لأنّه قريب إلى كلام الصبيان والمجانين.

٨٦ - وإن قلت: سلّمنا أنّ: «**المؤمن الغير الممتحن**»، هو صاحب هذه الأسرار، وهو أعلى مرتبة من «**المؤمن الغير الممتحن**»؛ لكن، لم قلتَ أنّه صوفيّ، لأنّه يمكن أن يكون غيره؟ - قلنا: أنت، إذا سلّمت أنّ هنالك طائفةً مخصوصةً - وهم حاملوا أسرار الأئمّة، وأنت غيرهم، وهم غيرك - فهذا القدر يكفينا في اثبات دعوانا، لأنّا ما نريد غير هذا - فحينئذٍ، إنْ ثقل عليك اطلاق اسم الصوفيّة عليهم، فبأيّ اسم شئت سمّهم، لأنّ المضايقة (يعني الخلاف الحقيقي) ليس في الاسم

فقط، بل في المسمّى الذي هو المعنى المخصوص والسرّ المعلوم، أعني: معنى التوحيد وسرّ الوجود.

٨٧ - ومع ذلك، لو عرفتَ معنى التصوّف وسبب تسميتهم بهذا الاسم، لما استنكفتَ من اسمهم ولا من طريقتهم، لأنّ التصوّف عبارة عن التخلّق بالأخلاق الإلَهيّة قولاً وفعلاً وعلماً وحالاً. وأيّ كمال يكون أعظم منه؟ وبالحقيقة، ما كانت بعثة الأنبياء والرسل، وتعيينُ الأولياء والأوصياء بأجمعهم، إلا للأمر بتحصيل ذلك، كما هو معلوم لأرباب الأصول. ويشهد بذلك رياضاتُهم ومجاهداتهم، وتركهم اللذات الدنيويّة والأخرويّة، ورجوعهم إلى الفناء، وتركهم اضافة شيءٍ إلى أنفسهم، وغير ذلك من الأوصاف الحميدة والأخلاق الجميلة.

٨٨ - والكلام الوارد في معنى التصوّف وأهله كثير، وهو لا يخفى على الأذكياء المستعدّين. ولكن (ها هي نبذة من) بعض ما قيل له.

(فمن ذلك) قولهم: **«الصوفيّ من لا يخالف ظاهره أحكام الشريعة، ويطالب باطنه بحقائق الحقيقة؛ لا يكون له شيءٌ، ولا يدّخر شيئاً لشيءٍ، ولا يسأل غير الضرورة شيئاً من الأشياء، ولا يكون معه شيءٌ يعطى أحداً منه شيئاً»**.

وقولهم: **«الصوفيّ من عاش في الدنيا من غير مشغلة، ودخل القيامة من غير مطالبة، وكفى مولاه من غير وحشة»**. وقولهم **«للتصوّف ظاهر وباطن، فظاهره قطع العلائق، وهو أن يجذب كلّ شيءٍ إلى الله تعالى، ولا يجذبه شيء عن الله تعالى. وباطنه هجران الخلائق. وسرّه مجرّد، متعلّق بعيون الحقائق»**.

وقولهم: **«التصوّف (هو) التخلّق بأخلاق الربوبيّة، واستعمال الآداب الشرعيّة، والتمسّك بسنّة خير البريّة، محمّد ﷺ»**.

٨٩ - وقال بعضهم: **«عَبَرَ الشبليّ يوماً في بعض شوارع بغداد. فناداه رجل من ورائه، فمضى (الشبليّ) على وجهه، وجعل يقول: الصوفيّة لا يلتفتون إلى الورى، ولا يجيبون من ناداهم خلف القفا. ومرّ أيضاً على امرأة، فقالت له: اجعل لي عندك موضعاً، فقال: يا هذه! لا يكون لنا موضع (حتى أجعل لك عندي موضعاً). الصوفي أكله أكلُ المرضى، وكلامه كلام الجرحى، وجلوسه جلوس الروعى، ونومه نوم الغرقى. الصوفيّ ليله ليل المظلومين، ونهاره نهار المحزونين. الصوفيّ**

ظاهره خلقيّ، وباطنه خالقيّ وقلبه وحدانيّ، وفكره عرشيّ، وهمّه علويّ، وسرّه سرمديّ. الصوفيّ ظاهره مسيحيّ، وباطنه خليليّ، وهمّته كليميّ، وسرّه حبيبيّ. الصوفيّ كلامه الله، وعلمه لله، ونظره إلى الله، وسماعه من الله، وأُنسه بالله، ومنزله عند الله، وكلّه (وتوكله؟) على الله، وعيشه مع الله. الصوفيّ ظاهره محرر، ووجهه مُصفرّ، وبطنه مُضمَر، وخُلقُه معبّر، وقولته مقتّر، ولباسه مشمّر، وعقله منوّر، وقلبه أحسن من قنديل يزهر. الصوفيّ ظاهره قد ارتحل عن الدنيا، وقلبه قد انتقل إلى العقبى، وسرّه قد نزل على المولى. الصوفيّ ظاهره غريق في البلوى، وروحه مسرور بالبلاء بلا شكوى، وقلبه متلذّذ بالنجوى، وسرّه مشتغل بالمولى».

٩٠ - ولهذه الكلمات تفسير وتأويل ليس هذا موضعه. فنرجع ونقول: والله! لو تحقّقت، لعرفت بالتحقيق أنّك بالنسبة إلى غيرك هكذا، لأنّ هناك جماعة كثيرة يستنكفون من اسم «**الشيعة**» غاية الاستنكاف، بحيث يسمّونهم بـ «**الرافضة**» وينسبونهم إلى الكفر والزندقة. فلو عرفوا هم أيضاً أنّ «**الشيعة**» عبارة عن طائفة مخصوصة بعلوم الأئمّة من أهل بيت النبيّ ﷺ وأعمالهم ظاهراً وباطناً، وهم أهل الفوز والنجاة والرفعة والدرجات، - لما قالوا هذا.

٩١ - فالمؤمن الغير الممتحن - الذين هم «**الشيعة**» - لا ينبغي (له) أن يذمّ «**المؤمن الممتحن**» - الذين هم «**الصوفيّة الحقّة**» بمجرّد عدم علمه بحاله، لأنّ أسرار الأئمّة وأحوالهم أعظم وأعلى ممّا هو عليه. وإن ذمّه بواسطة جماعة أُخرى من الصوفية شاركوهم في الاسم فقط وليسوا منهم، يكن ذمّه بواسطة أفعال الغير وأقوالهم، (وذلك تماماً) كذمّ الغير له بواسطة أفعال الغير وأقوالهم (ممّن) شاركوهم في الاسم فقط.

٩٢ - وكذلك هو - أي «المؤمن الممتحن» الذي هو الصوفيّ - لا ينبغي (له) أن يذمّ الشيعة أصلاً، لأنّهم ليسوا غيره بالحقيقة، لأنّهم قائمون بالظواهر، كما هو قائم بالبواطن. فكلّ واحد منهما عند التحقيق محتاج إلى الآخر، وإن لم يعرف صاحبه، لأنّ كلّ ظاهر لم يكن مستنداً إلى الباطن، فهو كفر؛ وكلّ باطن لم يكن متمسّكاً بالظاهر، فهو زندقة، كما هو مقرر عند أهل الله تعالى، و (قد) بيّنا (هذا) عند بيان الشريعة والطريقة والحقيقة من هذا الكتاب.

٩٣ - وأمّا الجماعة التي شاركت الشيعة في الاسم وليست منهم، والناس يشنّعون عليهم (يعني على الشيعة) بواسطتها (يعني بوساطة تلك الجماعة التي شاركت الشيعة اسماً)، فهم مثل «الغُلاة» و «الإسماعيليّة» و «الزيديّة» و «الكيسانيّة»، وشُعبهم وفرقهم المذكورة في كتب الشيعة وغير الشيعة.

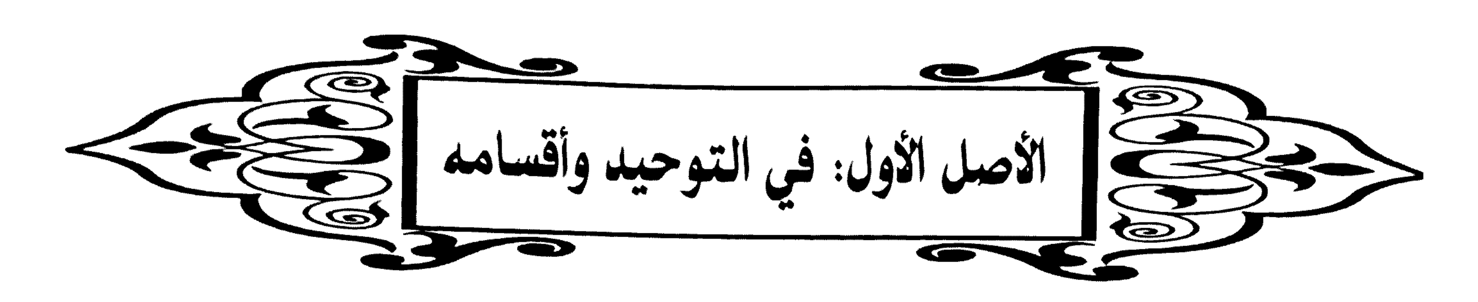
وأمّا (الجماعة) التي شاركت الصوفيّة كذلك وليست منهم، والناس يشنّعون عليهم (يعني على الصوفيّة) بواسطتها (يعني بوساطة تلك الجماعة التي شاركت الصوفيّة اسماً)، فهم مثل «الاباحيّة» و «الحلوليّة» و «الاتّحاديّة» و «المعطّلة»، وأمثالهم وأقرانهم، كما سيجيء تفصيله في موضعه، وهو عند بيان الفرق بين «العلوم الكسبيّة والأرثيّة» من القاعدة الثانية من الأصل الثالث. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

٩٤ - هذا آخر ما كان عندي من البحث بين الطائفتين على سبيل الاجمال وطريق الالزام. فأمّا تفصيل ذلك من إسناد «خِرْقتهم» الصوريّة والمعنويّة، ونسبه علومهم إلى الأنبياء والأئمّة عليهم السلام فسيجيء في الأصل الثالث، في أثناء القاعدة المذكورة (هناك)، إن شاء الله تعالى.

وإذا تحقّق هذا وتقرّر، فلنرجع إلى المقصود، ونشرع في الأصول، مستمدّاً من الله تعالى العون والتوفيق. ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].



(١) سورة هود، الآية: ٨٨



الأصل الأول: في التوحيد وأقسامه

٩٥ - و (هذا الأصل) هو مشتمل على أربع قواعد:

القاعدة الأولى: في فضيلة التوحيد.

القاعدة الثانية: في تعريفه.

القاعدة الثالثة: في تقسيمه.

القاعدة الرابعة: في كيفيّته.

ونحن نرتّب (بيان ذلك) الأوّل فالأوّل.

القاعدة الأولى: في فضيلة التوحيد

٩٦ - اعلمْ أنّ للتوحيد فضائل كثيرةً وأوصافاً جمّةً بحيث تكاد تخرج عن الحصر. وأنت - بحمد الله - لستَ محتاجاً إلى ذكر مجموعها، بل يكفيك منها أعظمها وأشرفها والأهمّ منها. فالأهمّ منها هو أن تعرف أنّ الوجود كلّه واقع على التوحيد، مشتمل على مراتبه، وأنّ جميع الموجودات مجبولة عليه، مخلوقة لأجله، وأنّ جميع الأنبياء والأولياء عليهم السلام ما بعثوا إلا لاظهاره ودعوة الخلق إليه، وأنّ مدار جميع الكمالات وأساس جميع المقامات - ظاهراً وباطناً - منوطة به وبمراتبه، وأنّ علمه خلاصة العلوم كلّها من الرسميّة والحقيقيّة، وأنّه أصل الدين والإسلام، وسبب الجنّة والنار.

٩٧ - وإذا عرفتَ هذا، فاعلم أنّ هذه كلّها دعاوى لا بدّ لها من بيّنة. فحينئذٍ كلّ واحدة منها محتاجة إلى بيانها واقامة البرهان عليها، عقلاً كان أو نقلاً.

٩٨ - وأمّا بيان (الدعوى) الأولى - وهو أنّ الوجود كلّه واقع على التوحيد، مشتملٌ على مراتبه - فقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] إلى آخره، لأنّ مجموعة عبارة

---

(١) سورة الإخلاص، الآية: ١.

عن هذا المعنى بما روي عن النبي ﷺ بأنّه قال: «**أسّست السمّاوات السبع والأرضون السبع على: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾**».

٩٩ - ومعناه على ما أوّله المؤوّلون، (لا) سيّما المولى الأعظم كمال الحقّ والملّة والدين عبد الرزّاق (الكاشاني)، - قدّس الله سرّه - كما ذكر في «تأويلاته»، وهو أنّه قال: قوله تعالى: «قُلْ» أمر من «عين الجمع» أي «**عين الجمع الأحديّة الذاتيّة**»، واردٌ على «**مظهر التفصيل الاسمائيّ**» في «**الحضرة الواحديّة**».

١٠٠ - وقوله تعالى: «هو» عبارة عن «**الحقيقة الأحديّة الصرفة**» أي «الذات من حيث هي» بلا اعتبار صفة، التي لا يعرفها إلا هو.

١٠١ - وقوله: «الله» بَدَلٌ منه، وهو «**اسم الذات مع جميع الصفات**» دلّ بالابدال على أنّ «**صفاته**» ليست بزائدة على «ذاته»، بل (هي) عين «الذات»، لا فرق إلا بالاعتبار العقليّ. ولهذا سُمّيت (هذه السورة الكريمة) «سورة الاخلاص»، لأنّ «الاخلاص» تمحيض حقيقة الأحديّة عن شائبة الكثرة، كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**كمال الاخلاص له، نفي الصفات عنه**» **لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة.**

١٠٢ - وقوله: «**أحد**» خبر المبتدأ، أي هو «**الأحد**» الذي لا كثرة فيه بوجه من الوجوه أصلاً، اعتباراً أو حقيقةً. والفرق بين «**الأحد**» و «**الواحد**» كما عرفته، أنّ «**الأحد**» هو الذات وحدها، بلا اعتبار كثرة فيها، أي «**الحقيقة المحضة**» التي هي منبع الحقائق كلّها، وهو «**الوجود من حيث هو وجود**»، بلا قيد عموم وخصوص، وشرط عروض ولا عروض. و «**الواحد**» هو الذات مع اعتبار كثرة الصفات، وهي «**الحضرة الاسمائيّة**» لكون الاسم هو الذات مع الصفة.

١٠٣ - فعبّر عن «الحقيقة المحضة»، الغير المعلومة إلا له، بـ «هو» وأبدل عنها باسم «الذات مع جميع الصفات» دلالةً على أنّها عين الذات وحدها في الحقيقة. وأخبر عنها بـ «الأحديّة» ليدلّ على أنّ «الكثرة الاعتباريّة» ليست بشيءٍ في الحقيقة، وما أبطلت «أحديّته»، وما أثرت في «وحدته»، بل «الحضرة الواحديّة» هي بعينها «الحضرة الأحديّة» بحسب الحقيقة، كتوهّم القطرات في البحر مثلاً.

١٠٤ - وقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[(١)]، أي الذات في «الحضرة الأحديّة» باعتبار الأسماء، هو السيّد المطلق لكلّ الأشياء لافتقار كلّ ممكن إليه وكونه به. فهو الغنيّ المطلق، المحتاج إليه كلّ شيءٍ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[(٢)].

١٠٥ - ولمّا كان كلّ ما سواه موجوداً بوجوده وليس بشيءٍ بنفسه، لأنّ الامكان اللازم للماهيّة لا يقتضي الوجود، فلا يجانسه ولا يماثله شيء في الوجود، فـ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، إذ معلولاته ليست موجودة معه بل به، فهي به هي: وبنفسها ليست شيئاً. ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾[(٣)] لصمديّته المطلقة، فلم يكن محتاجاً في الوجود إلى شيءٍ.

١٠٦ - ولمّا كانت «هويّته الأحديّة» غير قابلة للكثرة والانقسام، ولم تكن مقارنة «الوحدة الذاتيّة» لغيره، إذ ما عدا «الوجود المطلق» ليس إلاّ «العدم المحض»، فلا يكائفه أحد، فـ «لم يكن له كفواً» إذ لا يكافىء العدمُ الصرف الوجود المحض.

ولهذا قيل: «**ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله**». فالكلّ هو وبه ومنه وإليه.

وقيل:

وفي كلّ شيءٍ له آية تدلّ على أنّه واحد

وقيل أيضاً:

ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطل وكلّ نعيم لا محالة زائل

١٠٧ - فصدق النبيّ ﷺ في تسمّيته لهذه السورة بـ «سورة الأساس» بما (هي) عليه من أساس الدين والتوحيد، بل أساس الوجود كلّه. ونظراً إلى هذا المعنى قال فخر الدين الرازي - رحمة الله عليه - في «رسالته الإلّهيّة» وإن لم يكن من أرباب هذا القسم! «أنّ غايات عقول العلماء ونهاية مباحث الحكماء، ما جاوزتْ عن الأسرار المودعة في سورة الاخلاص، لأنّ الاطلاّع على أسرارها فوق أطوار العقول

---

(١) سورة الإخلاص، الآية: ٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الإخلاص، الآية: ٣.

والأفهام. وكلّ من تكلّم فيها بشيء، فما عثر على قطرة من بحارها وذرّة من جبالها». وصدق عليه أنّه «قد استسمن ذا ورم ونفخ في غير ضرم».

ولا شكّ أنّ هذا إشارة دالّة على عظمة قدر أرباب الكشف وأهل الذّوق، الذين لهم العلم والرسوخ فيه. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[1].

١٠٨ - **وروى مثل ذلك عن** (عبد الله) ابن عبّاس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[2].

١٠٩ - وقيل أنّه كان على جبل «عرفات» يوم «عرفة»، فرفع عصاه وقال بأعلى صوته: «**يا قوم! لو فسّرتُ هذه الآية كما سمعتُ من رسول الله** ﷺ **لرجمتموني**».

ومعلوم أنّه لو قال معناه على الوجه الذي هو منقول عنه، لرجموه وقتلوه، لأنّ المنقول عنه أنّه قال مع خواصّه في تفسيرها ما قيل في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[3] بعينه. ولفظ «الأمر» في الآية يشهد بذلك، لأنّ مراده به هو أنّ «الأمر» في نفس الأمر واقع بين السماوات والأرض، أي بين ظاهر الوجود وباطنه، أو الآفاق والأنفس، أو الملك والملكوت، لتعلموا أنّه تعالى القادر على الكلّ، والمحيط بالكلّ، بل هو نفس الكلّ كما أخبر عنه أيضاً بقوله صريحاً: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[4] لأنّ النور - باتّفاق المحقّقين - هو الوجود، كما أنّ الظلمة هي العدم. فيكون تقديره أنّه وجود السماوات والأرض حقيقةً، أي هو موجود فيهما بالحقيقة. وهذا هو المطلوب من هذا البحث، وسيجيء بيانه مفصّلاً في موضعه، إنشاء الله تعالى.

١١٠ - وإليه أشار أيضاً بقوله - جلّ وعزّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[5]، لأنّ الضمير في «أنه» راجع إلى «العالم» الذي هو

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ٧.
(٢) سورة الطلاق: الآية، ١٢.
(٣) سورة الإخلاص: الآية، ١.
(٤) سورة النور: الآية، ٣٥.
(٥) سورة فصلت: الآية، ٥٣.

«الآفاق» بأسرها، وإلى الوجود المشتمل على «الآفاق والأنفس»، وكلاهما صحيح.

والتقدير أنّه تعالى يقول: سنكشف لهم حقيقة مظاهرنا الآفاقيّة والأنفسيّة، «**حتى يتبيّن لهم**» أي يتحقّق لهم باليقين التامّ أنّ «الآفاق والأنفس» هي «مظاهره» لا غير.

وبالحقيقة ليس لقاؤه الموعود في القيامة الكبرى غير ذلك.

ولهذا عقبه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾[1] ليعلم أنّ لقاءه الموعود بغير هذا الوجه مستحيل ممتنع.

١١١ - وكذلك إلى مشاهدته في «مظاهره الآفاقيّة والأنفسية» أشار وقال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾[2]، أي أينما توليتم من الأمكنة وتوجهتم من الجهات، فثمّ ذاته ووجوده، لأنّه «المحيط»، وشأن المحيط كذلك، أعني (أنّه) ليس مخصوصاً بمحاطٍ دون محاطٍ، و (لا) بموضع دون موضع. و «الوجه» بالاتّفاق وهو «الذات» وإلى بقاء ذاته وفناء غيره أشار وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]. ومعناه الحقيقيّ، أي كلّ شيءٍ مضاف إلى «الوجود المطلق» الذي هو «وجهه» و «ذاته»، (هو) هالك زائل أزلاً وأبداً، لأنّ وجوده إضافيّ غير حقيقيّ، والاضافات غير موجودة في الخارج﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. أي له البقاء الدائم والوجود السرمد، وهو الباقي على اطلاقه بعد طرح هذه الاضافات واسقاط هذه الاعتبارات. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذه الموجودات كلّها، بعد طرح إضافتهم واسقاط اعتبارهم.

١١٢ - وبالنظر إلى هذا المقام قال أرباب الكشف والشهود: «التوحيد اسقاط الإضافات». وقال النبي ﷺ: «**كان الله ولم يكن معه شيء**». وقال العارف «(وهو)

---

(١) سورة فصلت: الآيتان، ٥٣ . ٥٤.
(٢) سورة البقرة: الآية: ١١٥.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٨.

الآن كما كان»، لأنّ الإضافات غير موجودة كما مرّ. وأيضاً «كان» - في كلام النبيّ(صم) بمعنى «الحال» لا بمعنى «الماضي» مثل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

١١٣ - ولتأكيد هذه المعاني كلّها قال الله تعالى تنبيهاً لعباده: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢)، ليعلموا يقيناً أنّه لا يجنّه البطون عن الظهور، ولا يقطعه الظهور عن البطون، ولا الأوليّة على الآخريّة، ولا الآخريّة على الأوليّة، بل هو الظاهر بصور الأضداد بضدّ غيره، لأنّ كلّ ظاهرٍ غيرهِ ظاهرهُ غيرُ باطنه و (هو تعالى) ظاهرهُ عينُ باطنه؛ وكلُّ باطنٍ غيرهِ باطنهُ غيرُ ظاهره، و (هو تعالى) باطنهُ عين ظاهره. وكذلك الأوّل والآخر، لأنّ كلّ واحد منهما عين الآخر، وفيه قيل «سبحان من اشتدّ خفاؤه في ظهوره، وظهورهُ في خفائه! ظهر فبطن، وبطن فعلن، ودان فلم يدن» ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٣).

وسيجيء هذا البحث مستوفى في القاعدة الرابعة من هذا الأصل، إن شاء الله تعالى.

١١٤ - وأمّا بيان (الدعوى) الثانية، وهو أنّ جميع الموجودات مجبولة عليه (يعني على التوحيد)، مخلوقةٌ لأجله، فقوله تعالى أيضاً: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(٤) الآية، لأنّ هذا اقرار بالألوهيّة من لسان كلّ ما في السماوات والأرض، من ذوي العقول وغيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾(٥).

١١٥ - ومعلوم أنّ الفطرة هي اقرار كلّ شيءٍ بالألوهيّة والربوبيّة، وأنّ له خالقاً، وأنّه لم يخلق نفسه، ويشهد بذلك أيضاً قوله: الحمد لله ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٦) لأنّهما مخلوقتان على الفطرة «التي فطر الناس عليها» لأنّهما مكلّفتان مطيعتان له

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٠..
(٢) سورة الحديد، الآية: ٣.
(٣) سورة الشورى: الآية، ٩.
(٤) سورة لقمان: الآية، ٢٤.
(٥) سورة الروم: الآية، ٢٩.
(٦) سورة الشورى: الآية، ٩.

بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[(١)] أي أتينا شاهدين على أنفسنا بأنّك إلّهنا وخالقنا، ولا آله غيرك، بل أنت آله كلّ شيءٍ وموجده.

١١٦ - ووجه آخر، وهو قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[(٢)]. والتسبيح للشيء لا بدّ وأن يكون مؤخّراً عن معرفته، ومعرفته عن وجوده.

وعلى هذا التقدير لا يوجد شيء إلا ويكون فيه هذه الثلاث، أي العلم بوجود موجده، والعلم بأنّه واحد والتسبيح له. وإذا كان كذلك، فتكون المعرفة الحقيقية الجبليّة موجودة في كلّ شيءٍ. والمعرفة الجبليّة ليست إلا على حسب التوحيد، لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[(٣)]، لأنّها شهادة ذاتيّة. فيكون الكلّ مجبولاً على التوحيد مخلوقاً لأجله، وهذا هو المطلوب.

١١٧ - وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[(٤)] تحريض على التفقّه في تسبيحهم، لأنّ فيها فوائد:

منها: معرفة الأشياء وكيفيّة نطقها على سبيل الكشف، وهذا ليس بقليل. وعن هذا قال العارف: «إنّ كلّ شيءٍ له ثلاثة أشياء: الحياة والنطق والمعرفة».

١١٨ - وتمسّك في الأوّل بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[(٥)] لأنّ الماء كناية عن الحياة السارية في كلّ شيءٍ من الممكنات الموجودة المنسوبة إلى اسميْ: «الحيّ والقيّوم»، لأنّ قيام كلّ شيءٍ وحياته ليس إلا بهما، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[(٦)].

---

(١) سورة فصلت: الآية، ١١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٥.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

وإلى هذا الماء أشار بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1]، يعني قبل وجود «الماء الصوريّ» كان العرش على «الماء الحقيقيّ» الذي هو الحياة الحقيقيّة السارية في جميع الموجودات، سريان الماء أو الروح في الأجسام.

١١٩ - و (تمسّك) **في الثاني (يعني كلّ شيء له النطق)**، بقوله تعالى أيضاً: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2]. ولا يجوز حمله على «النطق المجازيّ» مع امكان «النطق الحقيقيّ» والنطق الحقيقيّ صادق على الكلّ، لأنّه عبارة عن الادراك مطلقاً، ذاتيّاً أو غيره، وهذا حاصل في كلّ شيء بقدره.

وورد في الحديث: «**يشهد للمؤذن كلّ رطب ويابس**» و «**يستغفر لطالب العلم كلّ شيء، حتّى الحيتان في البحر والطير في السماء**». والشهادة والاستغفار يدلان على السماع والنطق، حقيقةً ومجازاً. و «**تسبيح الحصى في كفّ نبيّنا**» ﷺ و «**أنين الخشبة**» و «**تكلّم الذراع المشويّ**» وغير ذلك من المعجزات المشهورة (يؤيّد ما ذكرنا).

١٢٠ - و(تمسّك) في الثالث (يعني كلّ شيء له المعرفة) بقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3]. و «الهداية» هي هداية كلّ شيء إلى وجوده والشهادة بوحدانيّته، كما أشرنا إليه، وفيه بحث طويل وسرّ شريف السكوت عنه أولى.

١٢١ - هذا على سبيل الاجمال. فأمّا على سبيل التفصيل، فبالنسبة إلى الأنبياء عليهم السلام فقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[4].

و «الدين» (هو) التوحيد، ومعناه أن «أقيموا» على التوحيد الذي هو «الدين الإلهيّ» والطريق الحقيقيّ والصراط المستقيم، «ولا تتفرقوا فيه» لأنّه هو الأصل الموصّى به جميع الأنبياء والأولياء عليهم السلام كما سيجيء بيانه.

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٠.
(٣) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.

١٢٢ - وبالنسبة إلى الأولياء، فقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[١] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]. وبالنسبة إلى الملائكة، فقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[٣].

١٢٣ - وبالنسبة إلى بني آدم مطلقاً فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[٤].

وبالنسبة إلى الجنّ، فقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[٥].

بالنسبة إلى جميع الحيوانات والدواب والطيور، فقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٦].

وبالنسبة إلى الأفلاك والأجرام والعلويّات والمواليد من الحيوان والمعدن والنبات والسفليّات مطلقاً، فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[٧].

وبالنسبة إلى الكل اجمالاً فقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[٨].

١٢٤ - ومعلوم أنّ الصلاة والتسبيح لا يكونان إلا بعد المعرفة بخالقه وموجده، كما تقدم ذكره. وأمثال ذلك كثيرة في هذا الباب، فاطلبها من مظانّها.

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب. وهو يقول الحقّ، وهو يهدي السبيل.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٤.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٤) سورة الأعراف: الآية، ١٧٢.
(٥) سورة الجن: الآيتان، ١ ـ ٢.
(٦) سورة الأنعام: الآية، ٣٨.
(٧) سورة الحج: الآية، ١٨.
(٨) سورة النور: الآية، ٤١.

١٢٥ - وأمّا بيان (الدعوى) الثالثة، وهو أنّ جميع الأنبياء والأولياء عليهم السلام ما بعثوا إلا لاظهاره (يعني التوحيد) ودعوة الخلق إليه، فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[(١)].

١٢٦ - هذا بالنّسبة إلى الأنبياء عليهم السلام. وأمّا بالنسبة إلى الأولياء فقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾[(٣)].

وخلافة الله لا تكون للأنبياء والأولياء المعصومين عليهم السلام لا لغيرهم، فإنّه لا يجوز.

١٢٧ - والآيات الدالّة على ذلك كثيرة. وهذا أشهر وأبين من أن يحتاج واحد فيه إلى الاستشهاد، لأنّ كلّ واحد يعرف بنفسه ويدرك بعقله أنّه لولا الدعوة إلى التوحيد والإسلام، ما ظهر أحد من الأنبياء والأولياء عليهم السلام في هذا العالم الكدر المظلم الخسيس، ولو ساعةً واحدةً. ولهذا قال العالم الربّاني، حين ضربه ابن ملجم: «**فزت ورب الكعبة**». وقال في موضع آخر: «**والله لابن أبي طالب آنسُ بالموت من الطفل بثدي أمه**».

١٢٨ - ويشهد بذلك كلّه أيضاً (أي أنّ الأنبياء والأولياء ما بعثوا إلا لاظهار التوحيد ودعوة الخلق إليه) قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(٤)].

---

(١) سورة النساء: الآيات، ١٦٣ . ١٦٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٣٢.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١).

١٢٩ - وعن مجموع هذا كلّه أخبر مولانا وسيّدنا جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام بقوله في دعائه: «**وأسألك بتوحيدك الذي فطرت عليه العقول، وأخذت به المواثيق، وأرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب، وجعلته أوّل فرائضك ونهاية طاعتك، فلم تقبل حسنةً إلا معه، ولم تغفر سيئة إلا بعده**».

ومجموع هذا الكلام برهان قاطع على اثبات الذي نحن بصدده، والله تعالى أعلم وأحكم، وهو المستعان وعليه التكلان.

١٣٠ - وأمّا بيان الدعوى الرابعة، وهو أنّ مدار جميع الكمالات وأساس جميع المقامات (مبنيّة) عليه (أي على التوحيد)

فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٢). أي من أراد غير الإسلام والتوحيد، الذي هو «الدين الحقيقي» والطريق الإلهيّ، المشتمل على الإيمان والإيقان والتسليم والتصديق، «**ديناً فلن يقبل منه**».

أي لن يحصل له عند الله قدر لا دنيا ولا آخرة، ويكون من المطرودين الملعونين.

١٣١ - لأنّ الإسلام لفظ مشترك بين معان مختلفة: كالدين والتوحيد والإيمان والإيقان والتسليم والتصديق وغير ذلك.

فتارةً يطلق الإسلام ويراد به الإيمان؛ وتارةً يطلق الإيمان ويراد به الإيقان؛ وكذلك الباقي. فكلّ من لا يكون له الإسلام، لا يكون له الدين؛ وكلّ من لا يكون له الدين، لا يكون له الإيقان. وكلّ من لا يكون له الإيقان؛ لا يكون له التصديق؛ وكلّ من لا يكون له التصديق، لا يكون له التسليم؛ وكلّ من لا يكون له هذا المجموع، يكون ناقصاً في الظاهر والباطن، والدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة آل عمران: الآية، ٧٩.
(٣) سورة الحج: الآية، ١١.

فلا يكون مدار الكمال والدين، بحسب الظاهر والباطن، إلا على الإسلام الحقيقيّ الذي هو الدين الإلهيّ المعبّر عنه بالتوحيد. وهذا هو المطلوب.

١٣٢ - وهذا البيان محتاج إلى بيان أبسط منه، وهو أن يعرف أنّ الكمالات والمقامات كلّها على قسمين: ظاهراً وباطناً. فالكمال بحسب الظاهر، هو تحصيل العلوم الدينيّة والعمل بمقتضاها.

وهذا لا يحصل بدون التوحيد والشروع في **الإسلام. فيكون** حصوله موقوفاً عليه بالضرورة. **وإليه أشار بقوله تعالى:** ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[1].

وهذا خطاب إلى اليهود والنصارى، بمعنى أنّه يقول لهم: ليس الكمال والفضيلة في توجّهكم إلى قبلتكم التي هي «المشرق والمغرب»، بغير الإيمان بالله ورسوله.

بل الكمال والفضيلة المعبّر عنهما بالبرّ، (هما) في الإيمان بالله الذي هو موجدكم وخالقكم، و (في الإيمان) باليوم الآخر الذي هو يوم عودكم ورجوعكم إليه. فتحقّق أنّ الكمال والفضيلة بحسب الظاهر، مبنيّ على «التوحيد الحقيقي» المعبّر عنه بالإسلام والإيمان.

١٣٣ - وأما الكمال بحسب الباطن، فهو تحصيل العلوم الحقيقية والعمل بمقتضاها، وهذا أيضاً لا يحصل بدون «التوحيد الألوهيّ» و «التوحيد الوجوديّ» والشروع في «الإسلام الحقيقيّ».

فيكون حصوله أيضاً موقوفاً عليه بالضرورة، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[2].

وهذا خطاب عامّ إلى المسلمين كافةً على سبيل التأكيد والشرط. ومعناه أنّه يقول: كلّ من يرجو منكم لقاء ربّه - أيّ وصوله - على سبيل المشاهدة الجليّة، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، أي يعمل عملاً خالصاً من «الشرك الخفيّ» الذي هو الرياء في الشرع، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ التي هي التكاليف

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

الشرعية، «أحداً» من المخلوقين باظهارها له على سبيل الرياء؛ أو في «التوحيد الوجودي» بمشاهدة الغير، التي هو أعظم الشرك وأكبر الكبائر، لأنّه بمثل هذا العمل، لا يصل إلى الله تعالى ولا يجد لقاءه أبداً.

١٣٤ - وعند أرباب التحقيق أنّ هذا الشرك، الذي هو مشاهدة الغير، أو الرياء المسمّى بـ «الشرك الخفيّ، **أعظم من الشرك الذي هو اثبات إلّه غيره**، المسمى بـ «الشرك الجلي».

وبيان ذلك هو أن الشرك بعبادة ربّه غير الشرك بربّه، لأنّ الشرك بعبادته عبارة عن «الشرك به» عبارة عن «الشرك الجليّ»، الذي يكون في الكفّار والمنافقين وأمثالهم. ولو كان مراده في الآية «الشرك الخفيّ» الذي يجتمع مع العمل الغير الصالح، ويكون موجوداً في المسلمين والمؤمنين. و «الشرك الخفيّ» لو لم يكن موجوداً في المسلمين والمؤمنين، ما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]. وما قال النبي ﷺ: «**دبيب الشرك في أمّتي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصّماء في الليلة الظلماء!**» وهذان الكلامان مبالغة في خفائه وكمونه وسريانه في المؤمنين والمسلمين من عباده.

١٣٥ - والغرض أنّ كمال الباطن لا يمكن حصوله إلا بالخلاص من «الشرك الخفيّ»، الذي هو بازاء «التوحيد الوجوديّ»، كما أنّ كمال الظاهر لا يمكن حصوله إلا بالخلاص من «الشرك الجليّ»، الذي هو بازاء «التوحيد الألوهي».

وسيجيء بيان هذين الشركين وهذين التوحيدين في القاعدة الثالثة من هذا الأصل مفصّلاً، إن شاء الله تعالى.

١٣٦ - وعن مثل هذا العمل الصالح والإسلام الكامل، أخبر مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**إني لأنسبنّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو التصديق، والتصديق هو اليقين، والقين هو الاقرار، والاقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح**»، حتى لا يقنع الجاهل بمجرد كلمة الإسلام والقيام بالأعمال الظاهرة المشوبة بالرياء والسمعة والعجب وغير ذلك، ويجتهد في

---

(١) سورة يوسف: الآية، ١٠٦.

تخليصه عن أمثالها وتمحيصه عن أشباهها - صلى الله على نفسه القدسيّة وذاته الكاملة، والسلام على من اتّبع الهدى.

١٣٧ - وأمّا بيان الدعوى الخامسة، وهو أنّ علمه (يعني علم التوحيد) خلاصة العلوم كلّها من الرسميّة والحقيقة، فاعلم أنّ العلم على قسمين: قسم يتعلّق بالظاهر وقسم (يتعلّق) بالباطن..

فالعلم الذي يتعلّق بالظاهر، فأشرف العلوم وأعظمها عند العلماء قسم الكلام، وعند الحكماء قسم الإلهيّات، اللّذان هما مشتملان على معرفة الله تعالى.

والعلم الذي يتعلق بالباطن، فأشرف العلوم وأعظمها عند الأنبياء والأولياء عليهم السلام والموحّدين من تابعيهم، علم التوحيد. فيكون علمه بلا شبهة خلاصة العلوم ظاهراً وباطناً. وهذا هو المطلوب.

١٣٨ - وسبب ذلك أنّ شرف العلم يكون بشرف المعلوم، وليس هناك معلوم أشرف منه، فيكون العلم به أشرف العلوم. وقس على هذا العالم به، لأنّه أيضاً يكون كذلك، أعني (يكون) أعلم العلماء وأعظمهم، لأنّ الأعظم من الأعظم يكون الأعظم ضرورةً، ولهذا انتظموا في سلك الله تعالى وملائكته لقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[١].

وفي موضع آخر، (انتظموا) في سلكه بلا واسطة غيره، لقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢].

١٣٩ - وأمّا بيان (الدعوى) السادسة، وهو أنّه (يعني التوحيد) أصل الدين والإسلام وسبب الجنّة والنار، فهذا بحسب الظاهر، ظاهر أنّه أصل الدين والإسلام، لأنّ «الإسلام الظاهر» لا يحصل إلا بنفي آلهة كثيرة واثبات إله واحد، كقولك: لا إله إلا الله. وهو كلمة «التوحيد الألوهيّ». وبحسب الباطن أيضاً (هذا) ظاهر، لأنّه (يعني التوحيد) أصل «الدين الحقيقيّ» و «الإسلام اليقينيّ»، لأنّ «الإسلام الباطن» لا يحصل إلا بنفي وجودات كثيرة واثبات وجود واحد، كقولك: ليس في الوجود سوى الله، وهو كلمة «التوحيد الوجوديّ».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

فثبت أنّه (يعني التوحيد) أصل الدين والإسلام، ظاهراً وباطناً.

١٤٠ - وأمّا أنّه سبب الجنّة والنار، فهو معلوم من الأقوال المذكورة، لأنّه من لم يكن مسلماً ولا مؤمناً بالتوحيد الألوهيّ الظاهر، لم يكن دخوله في الجنّة، ويكون من أهل النار، لقوله تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1].

وكذلك من لم يكن مسلماً ولا مؤمناً بالتوحيد الوجوديّ الباطن، لم يدخل الجنّة الحقيقيّة التي هي المشاهدة، ويكون من أهل النار الحقيقيّة التي هي الحرمان والحجاب عن المحبوب، لقوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[2].

١٤١ - ومن جملة فضائله (يعني التوحيد) التي هي فوق كلّ فضيلة، فهو أنّ الكافر - الذي هو كالكلب والخنزير لنجاسته وخسّته - يصير به (يعني بالتوحيد) طاهراً في الظاهر والباطن، ويدخل في زمرة المسلمين والمؤمنين، ولو كان كفره سبعين سنة! وأنّ المسلم الطاهر - الذي هو كالملك بشرفه وعزّته - يصير بتركه (يعني التوحيد) نجساً في الظاهر والباطن، ويدخل في زمرة المشركين والمنافقين، ولو كان إسلامه سبعين سنة! فما أحسن هذه الفضيلة العظيمة المودعة تحت سرّه، وهذه الأسرار الشريفة المكنونة تحت فضيلته! مع أنّه قطرة من بحاره ونفثة من تيّاره. جعلنا الله تعالى من أهله والمطّلعين على سره بمحمّد وآله.

١٤٢ - وإذ فرغنا من (بيان) فضيلة التوحيد، فلنشرع في تعريفه بعون الله تعالى وحسن توفيقه. وهو هذا:

القاعدة الثانية: في تعريف التوحيد

١٤٣ - اعلم أنّ حقيقة التوحيد أعظم من أن يعبّر عنها بعبارة، أو يومى إلى تعريفها بإشارة.

فالعبارة في طريق معرفتها حجاب، والإشارة على وجه اشراقها نقاب، لأنّها

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٧٢.

(٢) سورة النساء: الآية، ١١٦.

(يعني حقيقة التوحيد) منزّهة عن أن تصل إلى كنهها العقول والأفهام، مقدّسة عن أن تظفر بمعرفتها الأفكار والأوهام. شعر:

تجول عقول الخلق حول حمائها ولم يدركوا من برقها غير لمعة

١٤٤ - وإلى صعوبة ادراكها (يعني حقيقة التوحيد) وشدّة خفائها، أشار مولانا **وإمامنا أمير المؤمنين ويعسوب** المسلمين، **سلطان الأولياء** والوصيّين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، عليّ بن أبي طالب ﷺ **في قوله: «ما وحّده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثّله، ولا إيّاه عنى من شبّهه، ولا قصده من أشار إليه وتوهّمه»**.

وفي قوله: «(هو) الأحد، لا بتأويل عَدَد؛ والخالق، لا بمعنى حركةٍ ونصب؛ والسميع، لا بأداة؛ والبصير، لا بتفريق آلة؛ والشاهد، لا بمماسة؛ والبائن، لا بتراخي مسافة؛ والظاهر، لا برؤية؛ والباطن، لا بلطافة؛ بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه. من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عَدّه فقد أبطل أزله.

ومن قال: كيف؟ فقد استوصفه. ومن قال: أين؟ - فقد حيّزه. عالم، إذ لا معلوم؛ وربّ إذ لا مربوب؛ وقادر، إذ لا مقدور».

١٤٥ - وفي قوله: «أوّل الدين، معرفته؛ وكمال معرفته، التصديق به؛ وكمال التصديق به، توحيده؛ وكمال توحيده، الاخلاص له؛ وكمال الاخلاص له، نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه، فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه. ومن ثنّاه فقد جزّأه. ومن جزّأه فقد جهله. ومن جهله فقد أشار إليه.

ومن أشار إليه، فقد حدّه. ومن حدّه فقد عدّه. ومن قال: فيم؟ - فقد ضمنه. ومن قال: علامَ؟ - فقد أخلى منه. كائن، لا عن حدث. موجود، لا عن عدم. مع كلّ شيء، لا بمقارنة. وغير كلّ شيء، لا بمزايلة».

١٤٦ - وكذلك الشيخ العارف الشبليّ البغداديّ - رحمة الله عليه - في قوله: «من أجاب عن التوحيد بعبارة، فهو ملحد. ومن أشار إليه بإشارة، فهو زنديق.

ومن أومى إليه، فهو عابد وثن. ومن نطق فيه، فهو غافل. ومن سكت عنه، فهو جاهل. ومن وهم أنّه (إليه) واصل، فليس له حاصل. ومن ظنّ أنه (منه) قريب، فهو (عنه) بعيد. ومن (به) تواجد، فهو (له فاقد. وكلّ ما ميّزتموه بأوهامكم، وأدركتموه بعقولكم في أتمّ معانيكم، فهو مصروف مردود إليكم، محدث مصنوع مثلكم».

١٤٧ - وكذلك الشيخ العارف أبو عبد الله الأنصاري - قدس الله روحه - في قوله، شعر:

ما وحّد الواحد من واحد	إذ كلّ من وحّده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته	عارية أبطلها الواحد
توحيده إيّاه توحيده	ونعت من ينعته لأحد

١٤٨ - وليس مرادهم من هذه الإشارات الامتناع من حصوله، ولا اليأس من وصوله، بل المراد منها اعلاء أعلام منزلته، وارتفاع أركان درجته، وبيان أنّه ليس بقابل للإشارة ولا بمحلّ للعبارة، لأنّه عبارة عن الوجود المطلق المحض، والذات الصرف البحت المسمّى بالحقّ - جلّ جلاله - الذي لا يقبل الإشارة أصلاً ورأساً، ولا العبارة قولاً وفعلاً، وذلك لا يكون إلا عند فناء الطالب في المطلوب، والشاهد في المشهود وحين الاستغراق والاستهلاك في المطلق المحيط، ولا شكّ أنّه لا يبقى مع ذلك لا الإشارة ولا المشير، ولا من الغير أثر في العقل والضمير.

١٤٩ - وإليه أشار الإمام ﷺ بقوله أيضاً: «**الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة**»، اظهاراً بأنّه لا ينكشف الحقّ حقيقةً على أحد إلا عند ارتفاع الكثرة مطلقاً، اسماً كان أو صفة.

ولهذا قال: «سبحات الجلال» بدون «**الجمال**»، لأنّ الجمال مخصوص بالأسماء والصفات التي هي منشأ الكثرة لا الجلال، كما سيجيء بيانه.

١٥٠ - وإذا تحقّق أن التوحيد وحقيقته ليس بقابل للعبارة والإشارة والتعريف والتعيين. ومعلوم أنّ كلّ طائفة من الطوائف أشارت إليه بإشارة، (لا) سيما الطائفة المخصوصة من الموحدين، فنشير ههنا إلى بعض تلك الإشارات بعباراتهم، توضيحاً للغرض وتصريحاً للقصد، على سبيل التنبيه والأعلام، لا على طريق التحقيق والبرهان.

١٥١ - فأحسن ما قيل فيه بلسان العبارة، وأشير إليه برسم الإشارة هو قولهم: «التوحيد اثبات القدم واسقاط الحدث».

وقولهم: «التوحيد أفراد القدم عن الحدث».

وقولهم: «التوحيد اسقاط الإضافات».

وقولهم: «التوحيد اثبات أحد بلا أوّل ولا آخر».

وقولهم: «التوحيد اثبات الواحد من غير مشاركة في وصف ولا نعت».

وقولهم: «التوحيد اثبات عين بلا وصف ولا نعت».

وقولهم: «التوحيد نفي الفعل واثبات الفاعل».

وقولهم: «التوحيد لا تصحّ العبارة عنه، فإنّه (يعني صاحب العبارة من شأنه أن) لا يعبّر إلا للغير، ومن أثبت الغير فلا توحيد له».

وقولهم: «التوحيد نسيان ما سوى التوحيد».

وقولهم: «التوحيد محو آثار البشريّة وتجرّد الألوهية.

وقولهم: «التوحيد بقاء الحقّ وفناء ما دونه».

وقولهم: «ما شمّ روائح التوحيد من تصوّر أنّ عنده التوحيد وشاهد المعاني وأثبت الأسامي وأضاف الصفات وألزم النعوت.

ومن أثبت هذا كلّه ونفاه كلّه، فهو موحّد حكماً ورسماً، لا حقيقةً وحدّاً». هذا وأمثال ذلك كثيرة.

١٥٢ - وهذا كلّه على لسان المتقدّمين من أرباب التوحيد. وأمّا على لسان المتأخّرين منهم، فقد جرى على لساننا في الأزمان السالفة أمثال ذلك، وهو أنسب بهذا المقام بالنسبة إلى أبناء هذا الزمان.

وهو قولنا: «التوحيد اثبات الوجود ونفي الموجود، ورؤية العابد عين المعبود».

وقولنا: «التوحيد رؤية الكثرة في عين الوحدة، ورؤية الوحدة في عين الكثرة».

وقولنا: «التوحيد مشاهدة الجمع في عين التفصيل، ومشاهدة التفصيل في عين الجمع».

وقولنا: «التوحيد اثبات العين وافناء الغير، ورؤية الشرّ محض الخير».

وقولنا: «**التوحيد تميّز الحق عن الخلق، وافناء الخلق في الحق**»، وغير ذلك ممّا يطول ذكره.

١٥٣ - وعند التحقيق ليس في هذه العبارات اختلاف، ولا في هذه الإشارات خلاف، لأنّ الإشارة الواحدة منها تقوم مقام الكلّ وتشير إلى الكلّ، لأنّ مرادهم من المجموع ليس **إلا معنىً واحداً**، وهو **نفي وجود «الغير» ذهناً وخارجاً، واثبات وجود «الحق» كذلك**.

وهذا المعنى - على أيّ وجه اتفق وعلى أيّ عبارة ظهر - جائز، حسن، مطابق، واقع، ولا مشاحّة في الألفاظ وإلى هذا المعنى أشاروا في قولهم، شعر:

عباراتنا شتّى وحسنك واحد   وكلّ إلى ذلك الجمال يشير

وكذلك، شعر:

العين واحدة والحكم مختلف   وذاك سرّ لأهل العلم ينكشف

١٥٤ - وبيان ذلك هو أنّ المعنى المطابق للتوحيد - لغةً واصطلاحاً - هو جعل الشيئين شيئاً واحداً، أو صيرورة الشيئين شيئاً واحداً، لأنّه مصدر، والمصدر لا بدّ له من ذلك، كما سيجيء بيانه في كيفيّته (أي التوحيد). فوضعوا لفظةً بحسب الظاهر - الذي هو طريقة الأنبياء - لنفي آلهة كثيرة واثبات إله واحد. يقول أهل الظاهر: «لا إله إلا الله» لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾(١).

وهذا (هو) توحيد أهل الشريعة، الموسوم «بالتوحيد الألوهيّ».

و (التوحيد) بحسب الباطن - الذي هو طريقة الأولياء - لنفي وجودات كثيرة واثبات وجود واحد.

يقول أهل الباطن «**ليس في الوجود سوى الله**» لقوله تعالى فيه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٢).

وهذا (هو) توحيد أهل الطريقة، الموسوم «بالتوحيد الوجوديّ».

---

(١) سورة صٓ، الآية: ٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

١٥٥ - وعلى كلا التقديرين - أعني بحسب الظاهر وبحسب الباطن - (لفظ التوحيد) صحيح واقع مطابق. لأنّه نفي وجود «الغير»، من الآلهة وغيرها، ذهناً وخارجاً، ظاهراً وباطناً، واثبات وجود الحقّ فيهما، وهذا هو المطلوب. فالحاصل: لا يخرج تعريف التوحيد عن قولنا: «**التوحيد نفي وجود الغير واثبات وجود الحق، شريعةً وطريقةً**» أو «**صيرورة الشيئين شيئاً واحداً**» **أو جعل وجودين وجوداً واحداً**»، وإن اختلفت العبارات وكثرت الإشارات وسيجيء بيان هذين التوحيدين مع المشركين اللذين بازائهما، وبيان صيرورة الشيئين واحداً في القاعدتين الآتيتين مفصلاً، إن شاء الله تعالى.

القاعدة الثالثة: في تقسيم التوحيد

١٥٦ - اعلم أنّهم اختلفوا في تقسيمه (أي التوحيد)، كما اختلفوا في تعريفه، ولكن الاختلاف في التقسيم لا كالاختلاف في التعريف، أعني أنّ اختلافهم في التعريف كان عين الاتفاق. وعند التحقيق يكون (الخلاف) في التقسيم كذلك، لأنّ الاختلاف في اللفظ لا يدلّ على الاختلاف في المعنى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

ولكنّه ليس من عند غير الله، فلا يجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

١٥٧ - وإذا تحقّق هذا، فاعلم أنّ التوحيد، عند مجموع علماء الشريعة، منحصر في قسم واحد، وهو «التوحيد الألوهيّ»، أعني نفي آلهة كثيرة واثبات إله واحد.

وهذا التوحيد (ثابت) عند مجموع علماء الطريقة أيضاً كذلك، ولا اختلاف عند أحد منهم فيه ولا عند الأنبياء والأولياء عليهم السلام ولكن الاختلاف في «التوحيد الوجوديّ» الذي هو نفي وجودات كثيرة واثبات وجود واحد (وهذا هو التوحيد) المخصوص بهم (أي بعلماء الطريقة).

وهو أيضاً ينقسم إلى أقسام كثيرة وشعب متفرقة وطرق مشتتة، مع أنّه ليس فيها خلاف في الحقيقة، لأنّ الكلّ يرجع إليه وإلى مرتبته، كما ستعرفه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

١٥٨ - فعند الشيخ الكامل المكمّل محي الدين العربيّ - قدّس الله روحه - التوحيد ينقسم إلى قسمين، كما ذكره في «التدبيرات الإلهية» بقوله: «فإنّ التوحيد توحيدان: توحيد الأحديّة وتوحيد الفردانيّة. فتوحيد الأحديّة توحيد العصاة من الأمّة الإسلامية، وهو توحيد صحيح، مركّب على أصل فاسد. وتوحيد الفردانيّة هو توحيد الأنبياء والأولياء عليهم السلام والعارفين من الأمّة الإسلاميّة، وهو توحيد صحيح، مركّب على أصل صحيح».

١٥٩ - وعند الشيخ العارف المحقّق أبي عبد الله الأنصاريّ الهرويّ - رحمة الله عليه - التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد العامّة، وتوحيد الخاصّة، وتوحيد خاصّة الخاصّة» كما ذكره في «منازل السائرين» بقوله: «التوحيد على ثلاثة وجوه:

الأوّل: توحيد العامّة الذي يصحّ بالشواهد.

والثاني: توحيد الخاصّة وهو الذي ثبت بالحقائق.

والوجه الثالث: توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصّة الخاصّة».

١٦٠ - وعند الشيخ العارف عزّ الدين الكاشيّ - رحمة الله عليه - التوحيد أيضاً ينقسم إلى ثلاثة أقسام: علميّ وعينيّ وحقّيّ، كما ذكره في: «شرحه للقصيدة التائية» بقوله: «وللتوحيد مراتب ثلاثة: علم وعين وحق، كما لليقين علمه (وهو) ما ظهر بالبرهان؛ وعينه (وهو) ما ثبت بالوجدان؛ وحقّه (وهو) ما اختصّ بالرحمن».

١٦١ - وعند المولى الأعظم صدر الحقّ والملّة والدين القونويّ - قدّس الله روحه - (التوحيد) ذلك ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الأفعال، وتوحيد الصفات، وتوحيد الذات، كما ذكر في بعض رسائله، متمسّكاً بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: «**أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك!**».

١٦٢ - وعند الإمام العالم محمّد بن محمّد الغزاليّ - رحمة الله عليه - التوحيد ينقسم إلى أربعة أقسام: قشر، وقشر القشر، ولبّ، ولبّ اللبّ، كما ذكره في كتابه الموسوم بـ «احياء علوم الدين» بقوله: «فاعلم أنّ معنى التوحيد ما يترجمه قولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ والإيمان بالقدرة، التي يترجمها قولك: له الملك؛ والإيمان بالجود والحكمة، الذي يدلّ عليهما قولك: وله الحمد. فمن غلب معنى

هذه الجملة على قلبه، صار متوكّلاً. وأصل ذلك (كلّه) التوحيد، وله أربع مراتب، فهو ينقسم إلى لبّ، وإلى لبّ اللبّ، وإلى قشر، وإلى قشر القشر، كالجوز مثلاً.

فالمرتبة الأولى: الإيمان بالقول المحض، وهو قشر القشر، وهو إيمان المنافقين - والعياذ بالله منه! -.

والمرتبة الثانية: التصديق بمعنى الكلمة، وهو القشر الثاني، وهو إيمان عموم المسلمين.

المرتبة الثالثة: **أن يشاهد ذلك بطريق الكشف**، وهو اللبّ، **وهو** مقام **المقربين**. **وذلك بأن يرى أشياء كثيرة**، ولكن مع كثرتها **(هي) صادرة عن الواحد القهّار**.

المرتبة الرابعة: **أن لا يرى في الوجود إلا واحداً**، وهو لبّ اللبّ، وهو مشاهدة الصديقين، ويسميه الصوفية «الفناء في التوحيد» حتى لا يرى نفسه لكون باطنه مستغرقاً بالواحد القهّار».

١٦٣ - والحقّ أنّ هذا التقسيم ليس بحسن. وسبب هذا أنّه كان من الموحّدين القوليّ لا الفعليّ.

وكان الغرض من ذكر قوله تعداد الأقوال المقولة في هذا الباب على الترتيب المعلوم، الذي هو الترتيب الثنائيّ والثلاثيّ والرباعيّ والخماسيّ، وغير ذلك من الأعداد.

١٦٤ - وعند الإمام الفاضل والشيخ الكامل كمال الدين ميثم البحراني - قدّس الله روحه - التوحيد ينقسم إلى خمسة أقسام، كما ذكره في «شرحه الكبير لنهج البلاغة» في أوّل خطبته بقوله «اعلم أنّ معرفة الصانع - سبحانه - على مراتب.

فأوّلاها وأدناها: أن يعرف العبد للعالم صانعاً.

المرتبة الثانية: أن يصدّق بوجوده.

الثالثة: أن يترقى بجذب العناية الإلهية إلى توحيده وتنزيهه عن الشركاء.

الرابعة: هي مرتبة الاخلاص له.

الخامسة: نفي الصفات التي تعتبرها الأذهان له - عنه.

وهذه المرتبة هي غاية العرفان ومنتهى قوّة الإنسان.

١٦٥ - هذا آخر أقوال المشايخ والعارفين والعلماء والمحققين في تقسيم التوحيد بقدر هذا المقام. والذي قلنا - أنّ (تقسيم التوحيد هو) عند فلان كذا وأنّه عند الآخر كذا - لا ينبغي أن يتوهم منه

أن هذا القول (أي التقسيم) عنده فقط، وليس عند غيره كذلك، لأنّ الكلّ متّفقون عليه؛ بل المراد منه أن يتقرّر أنّ تقسيم الموحّدين المتحقّقين في التوحيد وأقسامه لا يخرج عن هذا الذي بيّناه.

١٦٦ - ومع ذلك كلّه، هو أيضاً ينقسم - بحسب المقامات العشرة - إلى عشرة أقسام، كما ذكره المولى الأعظم كمال الحقّ والملّة والدين عبد الرزّاق (الكاشانيّ) - قدّس الله سره - في ذيل المقامات وتعريفها، وهو قوله «وصورته (أي التوحيد) في البدايات شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[1].

وصور التوحيد في الأبواب تصديق الجنان بهذا المعنى، بحث لا يخالجه شكّ ولا شبهة ولا حيرة. وصورته في المعاملات، العمل بالأركان المبنيّ على اليقين الوجدانيّ، واسقاط الأسباب بحيث لا نزاع فيه للعقل، ولا تعلّق فيه بالشواهد، ولا يرى صاحبه (يعني صاحب التوحيد) للغير تأثيراً ولا فعلاً.

وصورته في الأخلاق رؤية الملكات والهيئات ومصادر الأفعال كلّها لله.

وفي الأصول رؤية القصد والعزم والسير لله وفي الله وبالله. وفي الأودية شهود العلم والحكمة من صفات الله تعالى الأوّلية، وسبقُ الحقّ بعلمه وحكمه، ووضعُ الأشياء مواضعها، وتعليقُه إيّاها بأحايينها، واخفاؤه إيّاها في رسومها. وفي الأحوال شهود الحبّ من الحقّ بالحقّ للحقّ ذوقاً. وفي الولايات الفناء من رسم الصفات في الحضرة الواحديّة، وشهودُ الحقّ بأسمائه وصفاته، لا غير.

وصورة التوحيد في الحقائق الفناء في الذات مع بقاء الرسم الخفيّ المنوّر بنور الحقّ، المشعر بالاثنينيّة، المثبت للخلّة.

---

(١) سورة الاخلاص، الآيتان: ٣ - ٤.

وصورته في النهايات أحديّة الفرق والجمع، وهو توحيد الحقّ ذاته بذاته». هذا آخره.

١٦٧ - والحقّ أنه كلام صادر من مشرب الذوق والشهود، ومعدن الفضل والكمال - رزقنا الله تعالى الوصول إلى درجته بمحمّد وآله وعترته - ويمكن أن يصعب على بعض السالكين معنى هذه المقامات وتعريفها، فينبغي أن يرجع إلى اصطلاحات القوم واشاراتهم، لأنّ هذا الموضع لا يحتمل شرحها، وأنت أخبر بذلك، والله أعلم وأحكم.

١٦٨ - فهذا التقسيم - وإن كثر بحسب العبارة واعتباراتها وطال بسبب الإشارات واختلافاتها - لكنّ كلّه يرجع إلى القسمين المذكورين، أعني التوحيد الألوهيّ والتوحيد الوجوديّ، كما ستعرفه في تعريفها، لأنّ الذي جعله (أي التوحيد) قسمين، فلا يخرج عنها، لأنّ توحيد الأحديّة بازاء الألوهيّ، وتوحيد الفردانيّة بازاء الوجوديّ.

والذي جعله ثلاثة أقسام، فلا يخرج أيضاً عنهما، لأنّ توحيد العوامّ بازاء التوحيد الألوهيّ، وتوحيد الخاصّ وخاصّ الخاصّ بازاء التوحيد الوجوديّ.

والذي جعله علمياً وعينيّاً، وحقيّاً أو فعلياً، ووصفيّاً وذاتيّاً، فكلّها من أقسام التوحيد الوجوديّ وليس للتوحيد الألوهيّ فيها مدخل، لأنّها لا تحصل إلا بعد التوحيد الألوهيّ؛ وهي مراتب زائدة عليها بحسب السلوك والمقام.

والذي جعله أربعة أقسام، فكذلك لا يخرج عنهما، لأنّ القشر وقشر القشر من التوحيد الألُوهيّ، واللبّ ولبّ اللبّ من التوحيد الوجوديّ. والذي جعله خمسة أقسام، فأيضاً غير خارج عنهما، لأنّ الاثنين منها من التوحيد الألوهيّ، والثلاثة الأخيرة من التوحيد الوجوديّ. والذي جعله عشرة أقسام، فهو أيضاً كذلك، لأن (القسم) الواحد أو الاثنين منها يتعلّق بالتوحيد الألوهيّ، والباقي بالتوحيد الوجوديّ. فيكون مجموع أقسام التوحيد منحصرة فيهما، وهو المطلوب.

١٦٩ - وهذا ضابط كليّ ما ظفر به إلا الخواصّ من المتقدّمين وبعض المتأخّرين، وهذا الفقير منهم. فعليك بضبطه وحفظه، فإنّه ينفعك في كثير من المواطن.

١٧٠ - وإذا تحقّق هذا فنرجع ونقول: اعلم أنّ التوحيد على قسمين: توحيد الأنبياء وتوحيد الأولياء.

فتوحيد الأنبياء: هو التوحيد الظاهر، وهو دعوة العباد إلى عبادة إله مطلق من عبادة آلهة مقيّدة؛ أو إلى اثبات إله واحد ونفي آلهة كثيرة، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]. - ولقول النبيّ ﷺ: «**أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**». وهذا هو الموسوم بالتوحيد الألوهيّ.

١٧١ - **وتوحيد الأولياء**: هو التوحيد الباطن، وهو دعوة العباد إلى مشاهدة وجود واحد، ونفي وجودات كثيرة، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[2] - ولقول النبيّ ﷺ: «**لو دلّيتم بحبل لهبط على الله**».

وهذا هو الموسوم بالتوحيد الوجوديّ. وليس غير هذين التوحيدين هناك توحيد ثالث أصلاً، إلا توحيد لحقّ ذاته بذاته. وليس له مدخل في هذا الباب، وإن جعله الشيخ (الأنصاريّ الهروي) وأكثر المشايخ قسماً من أقسام التوحيد، لأنّ غرضنا - من بيان التوحيد - التوحيد المخصوص المتعلّق بالسالك أو العباد مطلقاً، لا (التوحيد الذي هو قائم بـ) الحقّ جلّ ذكره.

١٧٢ - وهذا الشرك - الذي هو بازاء التوحيد - كان أيضاً كذلك، أعني الشركين اللذين هما الجليّ والخفيّ لا غير، لأنّه أمّا شرك ظاهر أو شرك باطن. فإن كان ظاهراً، كعبادة الأصنام والحجر والمدر والشمس والقمر والنجوم والملك والجنّ والانس وغير ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[3].

ولقوله تعالى: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[4]. - فهو الموسوم بالشرك الجليّ، وهو بازاء التوحيد الألوهيّ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.

(٣) سورة الفرقان، الآيتان: ٣ - ٤.

(٤) سورة نوح، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

وإن كان (الشرك) باطناً، كاثبات وجود الغير من الممكن والمحدث، أو العقل والنفس، والأجرام والأفلاك والعناصر والمواليد وغير ذلك، لقوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾[1]. فهو الموسوم بالشرك الخفيّ الذي بازاء التوحيد الوجوديّ.

١٧٣ - فظهور جميع الأنبياء من آدم إلى محمّد ﷺ ما كان إلا لدعوة الخلق إلى التوحيد الألوهيّ، الذي هو الدعوة إلى الإله المطلق من الآلهة المقيّدة، والخلاص من الشرك الجليّ الذي هو بازائه.

وظهور جميع الأولياء من آدم إلى المهدي صاحب الزمان عليه السلام ما كان إلا لدعوة الخلق إلى التوحيد الوجوديّ، الذي هو الدعوة إلى الوجود المطلق من الوجودالمقيّد، والخلاص من الشرك الخفيّ الذي هو بازائه.

١٧٤ - فكلّ من توجّه إلى الإله المطلق من المقيّد، وعدل عن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، ونطق بكلمة التوحيد الظاهر التي هي «لا إله إلا الله» - خلص من الشرك الجليّ وصار عند المسلمين مؤمناً موحّداً بالتوحيد الألوهيّ طاهراً في الظاهر والباطن.

وإن لم يكن كذلك، يكن كافراً مشركاً نجساً في الظاهر والباطن. وكل من توجّه إلى الوجود المطلق من المقيّد، وعدل عن مشاهدة المخلوق إلى مشاهدة الخالق، ونطق بكلمة التوحيد الباطن التي هي «فليس في الوجود سوى الله» - خلص من الشرك الخفيّ، وصار عند المحقّقين عارفاً موحّداً بالتوحيد الوجوديّ طاهراً في الظاهر والباطن.

وإن لم يكن كذلك، يكن مشركاً ملحداً، نجساً في الباطن بخلاف الظاهر عند البعض، لأنّ عند الأكثرين من أرباب التوحيد، هو أيضاً نجس في الظاهر والباطن.

وهذا أصل كبير وتقسيم شريف حسن. فافهم! فإنّه دقيق لطيف.

---

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٣٩ - ٤٠.

١٧٥ - ثم اعلم أنّ الغرض من تسميتهم التوحيد بالألوهيّ والوجوديّ، والشرك بالجليّ والخفيّ، أنّ توحيد الأنبياء عليهم السلام لمّا كان في غاية الجلاء والظهور الذي هو نفي الآلهة المقيّدة واثبات الإله المطلق بالقول والفعل والحرب والسيف بالمقاتلة والمحاربة على رؤوس الأشهاد - سمّوا نقيضه بالشرك الجليّ لجلائه كذلك.

وإنّ توحيد الأولياء عليهم السلام لمّا كان في غاية **الخفاء والكمون** - الذي هو نفي الوجودات المقيّدة واثبات الوجود المطلق، بالذوق والإشارة والرموز والكناية، كما هو معلوم من طريقتهم سمّوا نقيضه بالشرك الخفي لخفائه كذلك.

ولهذا قيل: «**الخلاص من الشرك الخفيّ أصعب من الشرك الجليّ، لأنّه أعظم الحجب وأغلظها**» وهو صحيح، لأنّه خفيّ مستور لا يشعر به صاحبه، لأنّه يظن أنّه مؤمن مسلم موحّد، والحال أنّه مشرك كافر نجس - نعوذ بالله منه!.

١٧٦ - ولولا الحال كذلك، أي أنّ الشرك الخفيّ موجود في كثير من المسلمين، لما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم﴾[1].

ولما قال النبي صلى الله عليه وآله: «**دبيب الشرك في أمّتي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء**».

ولا يخفى أنّ بهذين القيدين، أي المؤمن والأمّة، خرج غيرهم من المشرك والمنافق والكافر وغير ذلك، وثبت أنّه مخصوص بهم، موجود فيهم لا في غيرهم. خلّصنا الله تعالى منه بفضله وكرمه!.

١٧٧ - ولا ينبغي أن يتوهم متوهم من تخصيصنا التوحيد الألوهيّ بالأنبياء والتوحيد الوجوديّ بالأولياء، أنّ الأنبياء لم يكن لهم نصيب من توحيد الأولياء، ولا بالعكس، لأنّ كلّ واحد منهم جامع للقسمين، حاوٍ للمرتبتين.

غاية ما في الباب أنّ المخصوص بكلّ واحد منهم يكون غالباً عليه، وهو مأمور بدعوته.

فالأنبياء وإن كانوا داعين إلى التوحيد الألوهيّ في الظاهر ومأمورين به، لكن في الباطن كانوا مرشدين إلى التوحيد الوجودي، آمرين به.

---

(١) سورة يوسف: الآية، ١٠٦.

وكان الأوّل دعوة للعوامّ ورعاية لمرتبتهم، والثاني للخاصّ وخاصّ الخاصّ ورعاية لمرتبتهم، وكلاهما واجب عليهم. والأولياء وإن كانوا مرشدين إلى التوحيد الوجوديّ في الباطن ومأمورين به، لكن في الظاهر كانوا داعين إلى التوحيد الألوهيّ، هادين إليه متابعةً للأنبياء وأسوة لطريقتهم.

وكان الأوّل رعاية للخاصّ وخاص الخاصّ، والثاني للعامّ.

فيكون دعوة كلّ واحد منهم شاملةً للعوامّ والخواصّ وخاص الخاصّ، التي لا يخرج المكلّفون بأسرهم منها، ويحصل لهم طهارة الظاهر والباطن من الشرك الجليّ والخفيّ، ويصيروا بها كاملين، مكملين بالتوحيد الألوهي والوجوديّ. وهذا يعني قوله عليه السلام: «إنّي بُعثتُ إلى الخلق كافةً» الحديث.

١٧٨ - وهذا معلوم لأهله، ما يحتاج في اثباتها إلى البرهان. وقد بينا تفصيله في رسالتنا الموسومة: «بأسرار الشريعة». وسيجيء في هذه الرسالة بيانه، عند بيان الشريعة والطريقة والحقيقة، إن شاء الله تعالى.

١٧٩ - وإذا تحقق هذا، فاعلم أنّ الصراط المستقيم الذي كان عليه جميع الأنبياء والأولياء عليهم السلام وبعثوا كلّهم لأجله ودعوة الخلق إليه، هو عبارة عن التوحيد الحقيقيّ الجامع للتوحيدين المذكورين. واليمين والشمال - اللذان هما على طرفيه وبُعثوا أيضاً لمنع العباد عنهما - هو عبارة عن طرفيْ افراطه وتفريطه، المسمّين بالشرك الجليّ والخفيّ، لأنّه كالحدّ الأوسط بينهما.

ولهذا وصفوه بـ (أنّه) أحدّ من السيف وأدقّ من الشعرة، لأنّ الاقامة عليه في غاية الصعوبة، كالاقامة على حدّ السيف مثلاً؛ والانحراف عنه في غاية السهولة، كالانحراف عن الشعرة إلى أطرافها.

١٨٠ - ولهذا مدح الله الثابتين عليه بحصول الإيمان لهم والثبات فيهم بقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾[1] وذمّ الناكبين عنه المتزلزلين عليه بعدم الإيمان وقلّة الثبات بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ

(١) سورة إبراهيم: الآية، ٣٢.

ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾[(١)]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[(٢)].

أي لولا عنايته ورحمته ببعض عباده، ما خلص أحد منهم من الانحراف عن الصراط الحقيقيّ المسمّى بالمستقيم، من ميل طبائعهم ونفوسهم بالطبع إلى الانحراف إلى طرفيه، اللذين هما طرفا الافراط والتفريط، والفرار من الاقامة على الطريق المستقيم الذي هو الخط الوسط بينهما، المشار إليه في قوله عليه السلام: «**اليمين والشمال مضلّتان، والصراط المستقيم هو الطريق الأوسط**» يعني الشرك الخفيّ والجليّ مهلكتان، مضلّتان، وطريق النجاة هو حصول التوحيد المحض الخالص، الذي هو الطريق الأوسط بينهما.

ومعنى: «**أدقّ من الشعرة**» في وصفه، هو أنّ الانحراف عنه بقدر الشعرة يوجب القطع بسيف الهلاك والشقاوة الأبديّة والسقوط في النار، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[(٣)].

أي لا تميلوا إلى الذين ظلموا على أنفسهم بميلهم إلى الشرك الجليّ والخفيّ، لقوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(٤)]. ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[(٥)] أي يجرّكم الشيطان وأهله بسبب ذلك إلى النار والجحيم.

١٨١ - وورد في الخبر: أنّ النبي صلى الله عليه وآله خطّ خطّاً وخطّ حواليه خطوطاً. ثمّ أشار إلى الخطّ الأوسط فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾. ثمّ أشار إلى الخطوط حوله فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[(٦)] أي لعلّكم تحذرون عن الانحراف إلى طرفيْ التوحيد، اللذين هما الشرك الجليّ والخفيّ.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية، ٧٦.
(٢) سورة النور: الآية، ٢١.
(٣) سورة هود، الآية: ١١٣.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٢.
(٥) سورة هود، الآية: ١١٣.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٥٤.

١٨٢ - والدليل على أنّ الصراط المستقيم هو التوحيد الحقيقيّ، قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾(١) لأنّ الصراط المستقيم في اللغة هو الطريق السليم من الاعوجاج والانحراف، كما أنّ (الطريق المستقيم) في الشرع هو الجسر الممدود على متن جهنّم. والتوحيد كذلك، لأنّه الطريق السليم إلى الله، والسبيل المستقيم إلى مرضاته، الخالي عن الاعوجاج والانحراف بخلاف الطرق الأخرى. ومعلوم أنّ أقرب السبل إلى الله تعالى هو الطريق المستقيم، بل إلى كلّ مقصد. ويشهد بذلك ما أشار إليه مخاطباً لنبيّه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢). والدين القيم والملّة الحنيفيّة ليس إلا التوحيد المشار إليه المسمّى بالصراط المستقيم.

والشرك الذي تبرّأ منه، نفسه أيضاً ليس إلا الشرك المعلوم المسمّى: بالجليّ والخفيّ. وإلى هذا أشار أيضاً في موضع آخر في قوله:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾(٣)، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾(٤).

١٨٣ - فعلم من ذلك أنّ الصراط المستقيم هو الانقياد لله تعالى ولرسوله، والقيام بأركان شرعه وإسلامه على طريق التوحيد الحقيقيّ. واليمين والشمال، اللذان هما مضلّتان، هما الشرك الجليّ والخفيّ، لقوله تعالى أيضاً: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(٥).

١٨٤ - وأيضاً لولا هذا السرّ العظيم والمعنى الجليل. ما صرنا مأمورين في كلّ يوم وليلة بأن نقول سبع عشرة مرّة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٦) إشارةً إلى طريق الأنبياء والأولياء عليهم السلام والموحّدين من تابعيهم،

---

(١) سورة الشورى، الآيتان: ٥٢ - ٥٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية، ١٦١.

(٣) سورة الزخرف: الآيتان: ٤٣ - ٤٤.

(٤) سورة آل عمران: الآية، ٥١.

(٥) سورة النساء: الآية، ١١٦.

(٦) سورة الفاتحة: الآيتان: ٦ - ٧.

الذين أنعم الله تعالى في حقّهم بهدايتهم الصراط المستقيم، لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾[١].

ولقوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

ولقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[٣].

١٨٥ - وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[٤] إشارة إلى طريق الضّالين عن الحقّ، المضلّين في طريقه، المنحرفين عن توحيده، الواقفين على طرفيه، لأنّ المغضوب عليهم هم اليهود، والضالّين هم النصارى، باتفاق أكثر المفسّرين، ومن مثلهم من المشركين والمنافقين، لقوله تعالى في اليهود وأمثالهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾[٥] ولقوله تعالى في النصارى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾[٦].

١٨٦ - وروى عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه قال: «**الصراط المستقيم هو الإسلام**».
وروى الحارث بن الأعور عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «**الصراط المستقيم هو القرآن**».

وقال محمّد بن الحنفيّة: «**هو الدين القويم**».

وقال أبو بريدة الأسلمي: «**هو طريق محمّد وآل محمد** عليهم السلام».

وقال بعض العارفين: «الصراط المستقيم عبارة عن الوسط الحقيقيّ بين الأخلاق الحميدة والرذيلة، كالسخاوة بين البخل والتبذير، والشجاعة بين الجبن والتهوّر، إذ هذه الأخلاق الحميدة لها طرفا افراط وتفريط هما مذمومان. وبين الافراط والتفريط وسط هو غاية البعد من الطرفين، كالنقطة من الدائرة. وعبّر الشرع عن ذلك بالصراط

(١) سورة مريم: الآية، ٥٨.
(٢) سورة الأنعام: الآية، ٨٧.
(٣) سورة النساء: الآية، ٦٩.
(٤) سورة الفاتحة: الآية، ٧.
(٥) سورة المائدة: الآية، ٦٠.
(٦) سورة المائدة: الآية، ٨١.

المستقيم». وهذه هي «الاستقامة» التي أمر بها النبيّ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾(١) حتّى قال عليه السلام: «شيّبتني سورة هود». يشير عليه السلام إلى صعوبة تحصيل هذه الدرجة.

١٨٧ - وقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾(٢) هو بدل من «الصراط المستقيم» وبيان له.

والمعنى: اهدنا صراط من أنعمت عليهم بالتوفيق والرعاية، ومننت عليهم باللطف والعناية.

قال عبدالله بن عبّاس: «هم قوم موسى وعيسى قبل أن حرّفوا التوراة والإنجيل».

وقال شهر بن حوشب: «هم أهل بيت رسول الله وأصحابه».

وقال بعضهم إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾(٣) «من النبيين، محمّد، والصدّيقين، عليّ بن أبي طالب؛ والشهداء، حمزة وجعفر؛ والصالحين، الأئمة الهداة؛ وحسن أولئك رفيقاً، مهدي الأمة» وأمثال ذلك كثيرة من الآيات والأخبار. **«والحرّ تكفيه الإشارة»**.

١٨٨ - لا يقال: إنّ الصراط المستقيم الذي ورد في الكتاب والسنّة، هو الجسر الممدود على متن جهنّم، الموعود بالعبور عليه يوم القيامة، لا الذي أشرتم إليه، - لأنّا نقول: لو كان كذلك لما قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(٤) لأنّ الشرك ما له دخل في الجسر الممدود على متن جهنّم، لأنّ الشرك لا يكون إلا بازاء التوحيد، كما تقدّم ذكره.

وما قال النبيّ أيضاً لأمّته: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾(٥) لأنّ «هذا» إشارة إلى الحاضر لا إلى الغائب.

---

(١) سورة هود: الآية، ١١٤.
(٢) سورة الفاتحة: الآية، ٦.
(٣) سورة النساء: الآية، ٧١.
(٤) سورة الأنعام: الآية، ١٦١.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

وما قال الله تعالى أيضاً لنبيه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾(١).

١٨٩ - والحقّ أنّ الجسر الممدود هو التوحيد الممتدّ على متن جهنّم الشرك وظلماته التي هي النار الحقيقيّة. وأيضاً يعرف كلّ عاقل لبيب منصف أنّ العبور على الصراط الموعود على الوجه الذي هو مقرّر في أوهام العوام بأنّه: «جسر ممدود على متن جهنّم»، ليس فيه فائدة، لأنّ العابرين عليه إمّا أن يكونوا من الأنبياء والأولياء والمؤمنين، أو لا.

فإن كانوا منهم، فهم من أهل الجنّة، فلا يحتاجون إلى العبور عليه، لأنّ عبورهم لا يزيد شيئاً في ثوابهم ولا في درجتهم.

وإن كانوا (العابرون) غيرهم، فهم إمّا أن يكونوا كفّاراً، أو لا.

فإن كانوا منهم، فهم أيضاً لا يحتاجون إلى العبور عليه، لأنّهم من أهل النار، وعبورهم لا ينقص شيئاً من عذابهم.

وأمّا إن كان (العابر على الصراط) مؤمناً فاسقاً غير تائب ولا مشفّع في حقّه، فلا بدّ له أيضاً من النار، فلا فائدة في عبوره عليه. فثبت بهذه الدلائل العقليّة أن الصراط المستقيم هو التوحيد الحقيقيّ المتقدّم ذكره، لا غير؛ وهذا هو المطلوب.

١٩٠ - وهذا الكلام أيضاً لا يدلّ على انكاره، ولا على انكار الشرع، بل على الاقرار وفوق الاقرار بمراتب كثيرة، ولكن من لم يذق لم يعرف. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٢).

١٩١ - وههنا شبهة دقيقة ونكتة لطيفة لا بدّ من ذكرها؛ فنذكرها ونرجع بعدها إلى الغرض. وهي أنّ جماعة من المنحرفين عن الصراط المستقيم سمعوا قول الله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣) وسمعوا قول نبيّه ﷺ: - «**الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق**». فتصوّروا من ذلك أنّ جميع

(١) سورة يوسف: الآية، ١٠٨.

(٢) سورة ق: الآية، ٣٦.

(٣) سورة البروج، الآية: ٢٠.

الخلائق - بل جميع الموجودات - على الصراط المستقيم، وأنّ نسبة الكلّ إلى الله تعالى تكون نسبة واحدة، ولا يكون لأحد مزيّة على الآخر، لا من الأنبياء والأولياء، ولا من غيرهم من العلماء والعارفين والملائكة المقرّبين. وعطّلوا بذلك جميع الأحكام الشرعيّة والقوانين الإلٓهيّة.

وما التفتوا إلى العلم والعمل أصلاً، ونظروا إلى الجميع بعين واحدة. نعوذ بالله منهم!.

١٩٢ - وتصوّر أيضاً جماعة أُخرى منهم من قوله تعالى: «والله بكل شيء محيط»(١)، وقول نبيّه عليه السلام: «**لو دليتم بحبل لهبط على الله**» أنّ القرب والبعد بالنسبة إلى الله متساويان، ولا يكون لأحد مزيّة على الآخر، لا من الأنبياء والأولياء والملائكة ولا من غيرهم. ولا شك أنّ هذين التصوّرين في غاية الرداءة، وأنّهما من أكبر المفاسد وأعظم المهالك، لاسيّما في هذا الطريق، ودفعهما وإزالتهما واجب على كلّ واحد من العقلاء، خصوصاً على العلماء وأمثالهم.

١٩٣ - فنقول: ينبغي أن يعرف أنّ الطريق والقرب من الله تعالى إلى الموجودات والمخلوقات خلاف طريقهم وقربهم إليه، لأنّ طريقه وقربه إليهم من حيث الاحاطة والوجود، وقربهم وطريقهم إليه من حيث الاستعداد والسلوك.

وبينهما بون بعيد وفرق كثير، لأنّ القرب (الإلٓهي من الموجودات والمخلوقات) والطريق الذي هو من طرق الحقّ إليهم هو أزلاً وأبداً، على وتيرة واحدة، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتغيّر منه شيء، بل هو تأثير واقع من الأزل إلى الأبد، وليس مخصوصاً بزمان، وليس لأحد مزيّة (فيه) على الآخر، والحجر والمدر والشجر والحيوان والإنسان والملك والجنّ والفلك والاجرام فيه على سواء.

١٩٤ - و (أمّا) قرب آدم (من الله) وبعد ابليس (عنه)، وكذلك قرب موسى وبعد فرعون، و (قرب) إبراهيم و (بعد) نمرود، و (قرب) محمّد و (بعد) أبي جهل، وغيرهم من الأنبياء والأولياء وأعدائهم من الكفّار والمشركين، فهو من حيثيّة أُخرى، لا من هذه الحيثيّة.

---

(١) الآية هكذا في سورة فصلت: الآية، ٥٤: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾.

وذلك لأن نسبة المحيط إلى المحاط نسبة واحدة، ونسبة المُظهِر إلى المظاهر كذلك. ومثال ذلك - إن لم تفهم تقريرنا وتحيّرت في عباراتنا - مثال قرب المداد بكلّ حرف من حروف هذا الكتاب، لأنّه لا يكون حرف أقرب من الآخر بحسب الوجود، وإن كان أقرب إلى بعض بحسب الكتابة والرقوم. فافهم! فإنّه دقيق. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾(١).

١٩٥ - وأمّا القرب والطريق الذي هو من طرق المخلوقات والموجودات - أعني من حيث الاستعداد والسلوك - فهو لا يكون إلا بعد الاستعداد الذاتيّ الأزليّ والسلوك الحقيقيّ الأبديّ، أعني لا يكون قربهم وطريقهم إليه، بعد الاستعداد الذاتيّ الأزليّ، إلا بقدر سلوكهم ومجاهدتهم ورياضتهم وتحصيل كمالاتهم العلميّة والعمليّة، أعني بقدر اتصافهم بصفات الحقّ والتخلّق بأخلاقه، لأنّ القرب إليه عبارة عن الاتّصاف بصفته والتخلّق بأخلاقه فقط، لا الذي يتصوّره المحجوب عنه، أعني أنّ القرب بحسب المكان - تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً! وليس الطريق إليه للخلق إلا بهذا الوجه، وهذا هو الموسوم بالصراط المستقيم، لا غير، لأنّ غير هذا لا يكون مستقيماً، بل غير مستقيم ولا يصل صاحبه إليه (أي إلى الحقّ) أبداً.

وهذا مع سهولته لا يحصل لكلّ أحد، بل من مائة ألف ألف نفس لنفس واحدة! لأنه أخفى من عنقاء مغرب وأعزّ من الكبريت الأحمر. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٢).

١٩٦ - والسبب في ذلك هو أنّ حصوله - بعد عناية الله تعالى وحسن توفيقه - موقوف على أسباب كثيرة ومعدّات جمّة، مثل النبيّ الكامل أو الإمام المعصوم أو الشيخ الواصل المكمّل مع استعداد خاصّ ورياضة شاقّة ومجاهدة صعبة وموت إراديّ، والتنزّه عن مزخرفات دنيويّة، وعدم الالتفات إلى درجات أخرويّة، والتوجّه إلى الحق سبحانه بالكليّة، والاجتهاد في الفناء الحقيقيّ والهلاك الكليّ، وغير ذلك من الأسباب. رزقنا الله تعالى الوصول إليه بفضله وكرمه!

---

(١) سورة العنكبوت: الآية، ٤٣.

(٢) سورة الحديد: الآية، ٢١.

١٩٧ - هذا بالنسبة إلى الإنسان والملك والجنّ وذوي العقول وأمثالهم. وأمّا بالنسبة إلى موجودات أخر غيرهم، فلكلٍ سلوكُ وتوجّه، لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(١) حتى الحجر والمدر، ومع ذلك توجّه الحجر ليس كتوجّه المدر، ولا طريق المدر كطريق الحجر، وبالجملة توجّه كلّ موجود وسلوكه - بعد ذوي العقول - هوالذي هو عليه، لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾(٢) ولقوله عليه السلام: **«كلّ ميسّر لما خلق له»**.

ولهذا البحث طول، لسنا في صدده (الآن). وسيجيء بيانه في القاعدة الرابعة من هذا الأصل؛ وبعض منها (أي من هذه الأبحاث) قد تقرّر في باب فضيلة التوحيد.

١٩٨ - والحقّ أنّ هاتين الطائفتين بهذين التصوّرين - تصوّر القرب من الله والطريق إليه - في غاية البعد والطرد منه. نعوذ بالله منهما ومن أمثالهما! وكأنّه فيهما ورد ما ورد: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾(٣).

وعليهم نزل ما نزل: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾(٤).

وعنهم أخبر ما أخبر: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾(٥).

١٩٩ - وإذا تحقق هذا وثبت أن الصراط المستقيم هو التوحيد الحقيقي و (أنّ) اليمين والشمال (هما) طرفا افراطه وتفريطه المسمّيين بالشرك الجليّ ولخفيّ، فنرجع إلى الغرض ونقول: اعلم أن المراد من التوحيد الألوهيّ وأحكامه ما كان إلا التوحيد الوجوديّ وأسراره، لأنه كان هو الأصل في هذه النشأة والمراد في مقام الشريعة، لأنّ الرسالة والنبوّة التشريعيّة وأحكامهما - اللّتين هما منشأ التوحيد الألوهيّ - ينقطعان بانقطاع الدنيا والنشأة الدنيويّة وأحكامها؛ والولاية - التي هي

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٤٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية، ٨٤.

(٣) سورة فصلت: الآية، ٢٣.

(٤) سورة يونس: الآية، ٢٣.

(٥) سورة النمل: الآية، ٢٤.

منشأ التوحيد الوجوديّ - باقية في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١].

وأيضا الولاية سابقة على النبوّة والرسالة، بل هي منشؤهما ومبدؤهما. فكما كان الابتداء في الظهور بالولاية، ينبغي أن يكون الاختتام في الرجوع بها، لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾[٢] أعني كما كان الابتداء في الترتيب الوجوديّ بالتوحيد الوجوديّ، يكون الانتهاء به، لأنّ النهاية هي الرجوع إلى البداية، كما قال الجنيد - قدّس الله سرّه - حين سئل عن النهايات: «الرجوع إلى البدايات».

٢٠٠ - وههنا أسرار جمّة ليس هذا موضعها، ومع ذلك هي لا تخفى على أهلها. ولهذا في دولة المهدي عليه السلام تكون الدعوة إلى التوحيد الوجوديّ أكثر والتبرّي من الشكر الخفيّ أبلغ، حتى يكون الدين كلّه لله، أي الدين المسمّى بالخالص، لقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[٣] أي الدين الخالص عن الشرك الخفيّ والجليّ، الباقي على التوحيد الصرف الوجوديّ الحقيقيّ، ويكون الناس على ملّة واحدة، كما كان في أوّل عهد آدم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾[٤] الآية.

٢٠١ - لأنّ توحيد الأنبياء عليهم السلام ختم بنبيّنا صلى الله عليه وآله وتمّ اظهاره، وسدّ باب النبوّة والرسالة، لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾[٥]. فلم يبق إلا توحيد الأولياء.

فينبغي أن يختم أيضاً بخاتم الأولياء، الذي هو المهدي عليه السلام حتّى تكون الإعادة كالابتداء، والرجوع كالصدور، لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾[٦].

---

(١) سورة يوسف: الآية، ١٠١.
(٢) سورة الأعراف: الآية، ٢٨.
(٣) سورة الزمر: الآية، ٣.
(٤) سورة الزمر: الآية، ٣.
(٥) سورة الأحزاب: الآية، ٤٠.
(٦) سورة الأنبياء: الآية، ١٠٤.

وهذا لا يمكن إلا بظهور التوحيد الوجوديّ، وغلبة الموحّدين على غيرهم من المسلمين كغلبة المسلمين على غيرهم من الكفّار والمنافقين ولهذا أشار النبي ﷺ بقوله: «**إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله فيه السماوات والأرض**» يعني بسبب وجودي في الخارج وظهوري بالنبوّة وظهور أوليائي بالولاية وظهور التوحيد الوجوديّ على ما ينبغي، «قد استدار الزمان» أي رجع إلى هيئته «**يوم خلق الله فيه السماوات والأرض**» أي سماوات الأرواح وأراضي الأجساد، لأنّ في ابتداء زمان الإيجاد كانت الموجودات كلّها على التوحيد الوجوديّ، لاقرارهم الأزليّ «بلى» في جواب: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[1] والآن صار (الأمر) كذلك بظهور التوحيد الوجوديّ فيكون الانتهاء كالابتداء، ولهذا قال عليه السلام: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**».

٢٠٢ - وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[2] أي رضيت لكم التوحيد ديناً، لأنّ الإسلام هو التوحيد بالحقيقة، اصطلاحاً لغةً، ألوهياً كان أو وجوديّاً. والمراد باليوم ههنا هو ابتداء الكثرة الوجوديّة، المبنيّ على التوحيد الوجودي - لقوله تعالى: (في الحديث القدسي): «**كنت كنزاً مخفيّاً، فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق**» - الموقوف ظهوره على ما ينبغي بظهور أوان «القائم المنتظر» عليه السلام كما قال ﷺ: «**لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله تعالى ذلك اليوم، حتّى يخرج رجلٌ من ولدي، اسمه اسمي وكنيته كنيتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً**» أي يملأ أراضي القلوب كلّها توحيداً ومعرفة، بعدما كانت مملوءة بالشرك والجهل.

وأيّ عدل يكون أعظم من عمارة القلب بالتوحيد والمعرفة؟ وأيّ ظلم يكون أعظم من خرابها بالشرك والجهل؟ ويجوز اطلاقه (أي لفظ الحديث المتقدّم) على الظاهر أيضاً، لأنّ مقامه (أي المهديّ) مقام السلطنة الكبرى، وهي مشتملة على عمارة الظاهر والباطن.

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ١٧١.

(٢) سورة المائدة: الآية، ٣.

٢٠٣ - وإلى مجموع هذا أشار النبي ﷺ: **«زويت لي الأرض، فأريتُ مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمّتي ما زوى لي منها»**.

وروى المقداد عنه عليه السلام أنّه قال: **«لا يبقى على الأرض بيت مدر ولا وبر إلا وأدخله الله تعالى في كلمة الإسلام، بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل: أمّا أن يعزّهم الله تعالى، فيجعلهم من أهلها؛ وأمّا أن يذلّهم فيدينون لها»**.

وذكر هذين الخبرين المولى الكامل أمين الدين الطبرسي - رحمة الله عليه - في تفسيره الصغير، الموسوم بـ «الجوامع»، وهو في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1] الآية.

٢٠٤ - وذكر عقيب الخبرين، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[2] الآية، أنّه روى عن عليّ بن الحسين عليهما السلام أنّه قال: «هم، والله! شيعتنا - أهل البيت - يفعل ذلك بهم على يدي رجل منّا، وهو مهديّ هذه الأمّة، وهو الذي قال رسول الله ﷺ: **«لو لم يبق في الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله تعالى ذلك اليوم، حتى يأتي رجل من عترتي، اسمه اسمي وكنيته كنيتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»**. وروى ذلك عن الباقر والصادق عليهما السلام.

٢٠٥ - وإلى هذا أشار أيضاً عيسى عليه السلام بقوله: **«نحن نأتيكم بالتنزيل، وأمّا التأويل فسيأتي به الفارقليط في آخر الزمان»**.

و «الفارقليط» بلسانهم، هو المهديّ عليه السلام فيكون تقديره أنّه سيأتيكم بتأويل القرآن وتحقيقه كما جئنا بتفسير القرآن وتنزيله، لأنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، وتأويلاً وتفسيراً، ومحكماً ومتشابهاً وغير ذلك من الأحكام، لقول النبي ﷺ: **«إنّ للقرآن ظهراً وبطناً، ولبطنه بطناً، إلى سبعة أبطن»**، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[3].

---

(١) سورة النور: الآية، ٥٤.

(٢) سورة النور: الآية، ٥٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ٧.

٢٠٦ - وليس هذا إلا علم التوحيد الوجوديّ وكيفيّة أسراره وتفصيل جمله، كما أنّ الظاهر ليس إلا علم التوحيد الألوهيّ وكيفيّة أحكامه وتفصيل جمله.

وهذا متعلّق بالأنبياء عليهم السلام كما أنّ الأوّل متعلّق بالأولياء. ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**نحن نحكم بالظاهر، والله يتولّى السرائر**».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**والله! لو شئتُ أن أخبر كلّ رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه، لفعلتُ؛ ولكن أخاف أن يكفر برسول الله**» وههنا بحث طويل.

وليس هذا بترجيح الوليّ على النبيّ، بل بيان من مرتبتهما؛ وسيجيء تحقيقه في الأصل الثالث، إن شاء الله تعالى.

٢٠٧ - وإذ فرغنا من بيان التوحيد وأقسامه، واثبات أنّ الغرض من بعثة الأنبياء والأولياء عليهم السلام فلنشرع في بيان كيفيّته، على ما قررناه في الفهرست.

القاعدة الرابعة: في كيفيّة التوحيد

٢٠٨ - اعلم أنّ هذه القاعدة مشتملة على كيفيّة التوحيد وتفصيله، وعلى معرفة الذات والصفات والأفعال، وبيان الفواعل التي هي الأسماء، والقوابل التي هي المظاهر، وبيان السعادة والشقاوة المنسوبتين إليهما (أي إلى السعداء والأشقياء) في الدارين، وغير ذلك من الأسرار، كما تقرّر قبل ذلك.

٢٠٩ - أمّا كيفيّة التوحيد، فالتوحيد الألوهي ما يحتاج إليه، لأنّه طريق السلامة ومرتبة العوامّ، وليس فيه شيء من المفاسد والمهالك؛ بل المحتاج إليه (هو) التوحيد الوجوديّ، لأنّ فيه مفاسد كثيرة ومهالك عظيمة، مثل الإباحة والإلحاد والحلول والاتّحاد والتشبيه والتعطيل والكفر والزندقة، وغير ذلك ممّا لا يخفى على أهله.

فنريد أن نبيّنه بوجوه كثيرة مشحونة بالأمثال والنكت واللطائف وما شاكل ذلك، ليسهل على الطالب ضبطه وعلى السالك دركه. ثمّ بعد ذلك نبيّن مفاسده ومهالكه ليعرفها ويحترز عنها.

٢١٠ - فالوجه الأوّل منها هو أنّه قد تقدّم في القاعدة الثالثة، إنّ التوحيد - لغةً

واصطلاحاً - عبارة عن صيرورة شيئين شيئاً واحداً، أو جعل شيئين شيئاً واحداً؛ وقد يكون علمياً، وقد يكون عملياً، وقد يكون بالجمع بينهما، وهو أفضل منهما.

أمّا الذي يكون علميّاً، فكصيرورة أصناف كثيرة نوعاً واحداً مثلاً، وكصيرورة أنواع كثيرة جنساً واحداً، وكصيرورة أجناس كثيرة حقيقة واحدة، أعني كأصناف الإنسان وأشخاصه، فأنّها تصير نوعاً واحداً بالإنسان مطلقاً؛ وكصيرورة أنواعه أو أنواع الحيوانات جنساً واحداً بالحيوان مطلقاً؛ وكصيرورة الحيوان حقيقة واحدة بالجسم الكليّ أو الجسم البسيط؛ وكصيرورة الأجسام الكثيرة حقيقة واحدة بالجوهر؛ وكصيرورة الجواهر الكثيرة حقيقة واحدة بالوجود المحض الصرف المسمّى بالمطلق.

٢١١ - وأمّا الذي يكون عملياً، فكصيرورة أدوية كثيرة معجوناً واحداً مثلاً؛ وكصيرورة أسمائها اسماً واحداً؛ وكصيرورة أجزاء كثيرة من النباتات والمعدنيّات صورة واحدة وأكلاً واحداً، وصيرورة أسمائها اسماً واحداً؛ وكصيرورة العناصر الأربعة طبيعةً واحدة، أو جسماً واحداً، إلى غير ذلك.

وهذا المثال وإن كان بعيداً من المطلوب - لأن المطلوب بنفسه بسيط مجرّد، أي وجود مطلق غير مقيّد ولا مركّب، وهذه الأصناف مركّبات ولا يقاس البسيط على المركّب - لكن ههنا دقيقة، وهي أنّ اعتبار المطلوب ليس ههنا من حيث ذاته فقط حتّى يلزم هذا، بل من حيث ظهوره في المظاهر.

وإذا كان كذلك، فلا بأس به، فإنّه لا يكون بعيداً (عن المطلوب)، لأنّه ليس في المركب والبسيط إلا هو، كما عرفته وستعرفه، إن شاء الله تعالى، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1].

٢١٢ - ومثال آخر، وهو أنّ مثال الوجود وظهوره بصور المظاهر (هو) بعينه مثال المداد وظهوره بصور الحروف.

فكما أنّ ظهور المداد في ظهور الحروف لا يقدح في صرافة وحدته ووحدة

---

(١) سورة العنكبوت: الآية، ٤٢.

حقيقته، فكذلك ظهور الوجود في صور الموجودات لا يقدح في صرافة وحدته ووحدة حقيقته.

وإذا عرفت هذا، فالتوحيد الحقيقيّ في هاتين الصورتين - أي صورة المداد والحروف، والموجودات والوجود - يكون بقطع النظر عن كثرة صور مظاهرهما، و (ذلك بـ) الوقوف على مشاهدة حقيقة كلّ واحد منهما.

أعني التوحيد في صورة المداد والحروف، قد يكون بقطع النظر عن صور جميع الحروف وتعيّناتها وكثرتها، و (ذلك) بمشاهدة حقيقة المداد على ما سهو عليه، لأنّ وجود الحروف أمر اعتباريّ، لا وجود له في الخارج حقيقةً، لأنّ الوجود في الخارج حقيقةً ليس إلا في المداد.

و (التوحيد) في صورة الوجود والموجودات كذلك، أعني يكون بقطع النظر عن صور جميع الموجودات وتعيّناتها وكثرتها، و (ذلك) بمشاهدة الوجود على ما هو عليه، لأنّ وجود الموجودات أمر اعتباريّ، لا وجود له في الخارج، لأنّ الموجود في الخارج حقيقةً ليس إلا الوجود المسمّى بالحقّ.

٢١٣ - فالعارف بالأوّل، كما لا يشاهد بالحقيقة إلا المداد، لعلمه بأنّ وجود الحروف كلّها به موجودة وبدونه معدومة، بل ليس في الحروف إلا هو إذ الحروف ليست إلا هو، - فكذلك العارف بالثاني، فإنّه لا يشاهد بالحقيقة إلا الوجود، لعلمه بأنّ وجود الموجودات كلّها به موجودة وبدونه معدومة، بل أنّه ليس في الوجود إلا هو، فيكون حينئذٍ هذا العارف جاعل الشيئين شيئاً واحداً، علماً وعيناً، حقيقةً ومجازاً.

وهذا هو المطلوب من بحث التوحيد في هذا المقام، والله أعلم بالصواب.

وفي مثال الحروف والمداد بالنسبة إلى الوجود ومظاهره، أسرار كثيرة ليس هذا موضعها. وقد أشرنا إليها في «منتخب التأويل» مفصّلاً، كما أشرنا إلى بعضها ههنا، وعند بيان الصراط المستقيم كذلك.

٢١٤ - وإذا تحقّق هذا، فاعلم مرّةً أخرى أنّ الشيئين الموجودين في الخارج - عند جميع العقلاء - منحصران في الواجب والممكن؛ فصيرورتهما حقيقةً واحدة بصورة هذين الوجهين - أي العلميّ والعمليّ - يكون بأن ينظر الناظر أوّلاً إلى حقيقة

كلّ شيءٍ برجوعه القهقرى إلى أصله الصادر منه ذاك الشيء، حتّى يصل إلى الوجود البحث المحض الخالص القائم بذاته، الذي ليس في الخارج إلا هو.

أعني ينبغي أن ينظر الناظر إلى كلّ شيءٍ غير الواجب، حتّى يعرف حقيقته ويعرف أنّ الوجود، في كلّ واحد من الموجودات، أمر إضافيّ بشيءٍ غير حقيقيّ، لأنّه زائد على ماهيّته، مضاف إليه من الوجود المطلق الغير المضاف إلى غيره، لأنّ المطلق إذا أضيف إلى غيره خرج عن إطلاقه وأيضاً غير الوجود المطلق عدم صرف، فلا يضاف الوجود إلى العدم، فيسلب الوجود عن ماهيّة واحدٍ واحدٍ من الموجودات، حتّى يصل إلى موجود لا يمكن سلب وجوده عن ماهيّته، لأنّ وجود الواجب نفس ماهيّته وعين حقيقته، فلا يمكن سلبه، لأنّ امكان سلبه امكان سلب وجود كلّ موجود غيره، وامكانُ سلب كلّ موجود ممتنع، لأنّه يلزم منه انقلاب حقيقة الوجود بحقيقة العدم، وهذا محال. فيمتنع سلب وجوده (أي وجود الواجب) عن ماهيّته.

وإذا لم يكن (ممكناً) سلب وجوده عن ماهيّته ويمكن سلب غيره، فحينئذٍ لا يكون في نظره، أي في نظر هذا الناظر، إلا وجود واحد، قائم بذاته، غير مضاف إلى غيره. فيكون في نظر العلميّ جاعلاً حقيقة وجودين وجوداً واحداً. وهذا هو المراد من التوحيد العلميّ اجمالاً.

٢١٥ - وأمّا التفصيل، فينبغي أن ينظر إلى حقيقة كلّ موجود ووجوده، حتّى يعرفه بأنّه من أيّ وجه (هو) خلق، ومن أيّ وجه (هو) حقّ، لأنّ كلّ موجود هو حقّ من وجهٍ، وخلق من وجهٍ آخر.

أعني: حقّ من حيث حقيقته وذاته ووجوده: خلق من حيث تعيّنه وتشخّصه وتقيّده، لأنّه إذا نظر إلى حقيقة الأشياء وذواتها بهذا النظر، أي نظر معرفة حقيقتها، عرف بأنّ الكلّ راجع إلى ذات واحدة، وهي الوجود المطلق أو الحقّ تعالى، رجوع إضافة ونسبة، والنسبة والإضافة زائلتان عند ظهور المضاف والمضاف إليه ووحدتهما في مرتبة الوجود. فرأى الحقّ باقياً والخلق هالكاً فيه أزلاً وأبداً بغير توقّف على زمان أو مكان، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾[1].

---

(١) سورة القصص: الآية، ٨٨.

٢١٦ - وإذا نظر إلى تعيّن كلّ موجود وتشخّصه، نظر معرفةِ حقيقته أيضاً، عرف أنّ التعيّنات والتشخّصات - وإن كانت أُموراً اعتباريّة زائدةً على حقيقة الأشياء وماهيّاتها - لكن ليست هي زائلة في نفس الأمر، بل لا ينبغي في الواقع إلا كذلك. فعرف أنّ كلّ ذلك فانٍ بنفسه، باقٍ بوجوده، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾(١). وصار بذلك عالماً بالحقّ وبالخلق، عارفاً بما.

وهذا هو غاية التوحيد العلميّ أيضاً تفصيلاً. وسيجيء بيانه أبسط من ذلك مراراً، إن شاء الله تعالى.

٢١٧ - وأما التوحيد العمليّ، فبحصول ذلك كلّه مشاهدةً وعياناً، لا علماً وبياناً، أعني تكون هذه المعرفة حاصلة له بالذوق والمشاهدة والكشف والمعاينة، لا بالبيان والبرهان، لقول النبي ﷺ: «**لترون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر**».

والمراد بالرؤية ههنا - باتفاق المحقّقين - الكشف التامّ لا غير. ولا شكّ أنّه كذلك، لأنّ مشاهدة الحقّ والأشياء على سبيل الكشف، أوضح وأبين من مشاهدة القمر ليلة البدر على طريق النظر والحس، لأنّ الحسّ في معرض الغلط، وصاحب الكشف منزّه عنه.

ولكن لا يضرب المثل لأهل الحسّ إلا بالمحسوس، لأنهم لا يفهمون غير ذلك، وإن كان الأعلى منهم يفهم منه ذلك وغيره بمراتب لا تتناهى.

وهذا من خواصّ كلام الله وكلام أنبيائه وأوليائه، أيّ خطّ كلّ واحد منهم بقدره.

٢١٨ - وبالحقيقة إلى هذه المشاهدة أشار تعالى بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾(٢) ومعناه، وإن تقدّم، هو أنّه يقول: سأكحل عين بصيرتهم بنور هدايتي وتوفيقي يشاهدوني به في مظاهري الآفاقيّة والأنفسيّة، مشاهدةَ كشف وعيان بحيث يتبيّن لهم أنّه ليس في الوجود ولا في الآفاق ولا في الأنفس إلا آثار أسمائي وصفاتي ومظاهري

---

(١) سورة الرحمن: الآيتان، ٢٦ . ٢٧.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٥٣ - ٥٤.

وكمالاتي، ويتحقّقوا أنّي أنا الأوّل والآخر والظاهر والباطن، وليس لغيري وجود أصلاً، لا ذهناً ولا خارجاً.

٢١٩ - وقال تأكيداً لهذا المعنى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[(١)] على سبيل التعجّب والتهكّم، ليعرفوا بالتحقيق أنه على كلّ شيٍ شهيد، أي يتحقّقوا مشاهدته في كلّ شيءٍ من الأشياء مشاهدة عيان وكشف.

وقال أيضاً: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[(٢)] ومعناه أنّ هؤلاء العباد في شك من لقاء ربّهم، مع هذه المشاهدة الجليّة في مظاهره الآفاقيّة والأنفسيّة؛ وأي لقاءيكون أعظم من هذا؟ ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي أليس هو محيطاً بكلّ شيءٍ ذاتاً ووجوداً؟ وهل يمكن مشاهدة المحيط إلا بوجود محاطه؟ أي هل يمكن مشاهدة الظاهر إلا بوجود مظاهره؟ ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)] أي ذلك الكشف والبيان هو التوحيد الحقيقي والدين الحنيفيّ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ من جهلهم وعمائهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[(٤)] مثل الأنبياء والأولياء والكمّل، لأنّ هذه المشاهدة، أي مشاهدة الحقّ في الخلق ومشاهدة الخلق في الحقّ، بغير احتجاب بأحدهما عن الآخر، التي هي المشاهدة العظمى والغاية القصوى، هي مشاهدتهم ومشاهدة أمثالهم من الكمّل والأقطاب. رزقنا الله تعالى الوصول إليها!.

٢٢٠ - وصاحب هذه المشاهدة هو المسمّى عند القوم بذي العقل وذي العين، وبذي العقل والعين معاً، كما أشاروا إليه، وهو قولهم: «**ذو العقل**» هو الذي يرى الخلق ظاهراً والحقّ باطناً، فيكون الحقّ عنده مرآة للخلق، لاحتجاب المرآة بالصورة الظاهرة فيه احتجاب المطلق بالمقيّد.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٥.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٤) سورة ق: الآية: ٣٦.

و «**ذو العين**» هو الذين يرى الحقّ ظاهراً والخلق باطناً، فيكون الخلق عنده مرآة الحقّ لظهور الحقّ عنده واختفاء الخلق فيه بالصورة. و «**ذو العقل والعين**» هو الذي يرى الحقّ في الخلق والخلق في الحقّ ولا يحتجب بأحدهما عن الآخر، بل يرى الوجود الواحد بعينه حقّاً من وجهٍ وخلقاً من وجهٍ، فلا يحتجب بالكثرة عن شهود وجه الواحد الأحد؛ ولا يزاحم في شهوده الكثرةُ المظاهر أحديّة الذات التي تتجلّى فيها؛ ولا يحتجب بأحديّة وجه الحقّ عن شهود الكثرة الخلقيّة؛ ولا يزاحم في شهوده أحديّةُ الذات المتجلّية في المجالي كثرتها. وإلى المراتب الثلاث أشار الشيخ الكامل محيي الدين بن العربي - قدس الله سرّه في أبيات له:

ففي الخلق عين الحقّ إن كنت ذا عين وفي الحقّ عين الخلق إن كنتَ ذا عقل

وإن كنتَ ذا عين وعقل فما ترى سوى عين شيءٍ واحد فيه بالشكل

هذا آخر الوجه الأول.

٢٢١ - وأمّا الوجه الثاني، فهو أن يعرف أنّ التوحيد الوجوديّ هو مشاهدة الوجود الحقّ تعالى من حيث الاطلاق والتقييد والاجمال والتفصيل والجمع بينهما، بحيث لا يحتجب المشاهد بأحدهما عن الآخر، لأنّه لو وقف على أحدهما، صار محجوباً عن الآخر وخرج عن دائرة التوحيد، لأنّ كلّ من شاهد وجوده وذاته من حيث هو هو، منزّهاً عن جميع القيود، مستغنياً عن جميع الاعتبارات، وأطلقه بذلك وأجمله، وقال: «ليس في الوجود إلا هو» لأنّ غيره عدم مطلق ولا شيء محض، فحينئذٍ احتجب بالوجود والذات عن الأسماء والصفات وكمالاتهما المفصّلة والمجملة في مظاهرهما، وتقيّد بقيد الاطلاق والاجمال، ورضي بنصف من المعرفة.

٢٢٢ - وكذلك من شاهده في كلّ مظهر من مظاهر أسمائه وصفاته وأفعاله، وقال: «هذا مظهر اللطف، وهذا مظهر القهر، وهذا مظهر الجلال، وهذا مظهر الجمال» وما شاهده مجرداً عنها، أي عن هذه المظاهر، وما حصل له الفرق بين الظاهر والمظهر، وبين الذات والصفات، وقيّده بذلك وفصّله في مظاهره، وقال: «هو الكلّ وليس في الوجود إلا هو» فهو أيضاً احتجب بالمظاهر والمجالي، وتقيّد بالتفصيل والتقييد، ورضي بنصف آخر من المعرفة.

٢٢٣ - فأمّا إذا جمع بينهما وشاهده مطلقاً ومقيّداً، ومجملاً ومفصّلاً، أي مطلقاً في عين المقيّد، ومقيّداً في عين المطلق، ومجملاً في عين المفصّل، ومفصّلاً في عين المجمل، وما احتجب بأحدهما عن الآخر، (فقد) صار موحّداً عارفاً كاملاً مكمّلاً. وشاهد - مشاهدة ذوق وعيان - أنّه ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعرف بالتحقيق أنّ الكلّ هو وبه ومنه واليه، وقرأ صحيحاً بلسان الحال قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]. وأطلع يقيناً على معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[2] الآية. رزقنا الله تعالى الوصول إلى هذا المقام بمحمّد وآله الكرام!.

٢٢٤ - وبعبارة أخرى، هذا (المقام) هو مشاهدة الحقّ من حيث الوحدة والكثرة والجمع والفرق، ومن حيث الجمع بينهما، لأنّه لو شاهد وجوداً واحداً عارياً عن جميع الكثرات الاسمائيّة والفعليّة، فحينئذٍ ما شاهده على ما هو عليه في حدّ ذاته، لأنّه في حدّ ذاته موصوف بجميع الكمالات، أزلاً وأبداً، ومن جملة كمالاته ظهوره بصور جميع الموجودات ومعانيهم، أزلاً وأبداً، وصار بذلك (الشهود الجزئيّ) محجوباً بذاته عن كمالاته، وبوجوده عن خصوصياته. وإن شاهد وجوداً واحداً متكثّراً بهذه الكثرات، متعيّناً بهذه التعيّنات، وما حصل له بذلك الفرق بين الكثرة والوحدة والتمييز بين الفرق والجمع، فما شاهده لذلك على ما هو عليه من الوحدة والجمعيّة، لأنّه في حدّ ذاته منزّه عن الكثرة والتعيّنات مطلقاً، أعني (تعيّنات الوجود) الخارجيّ والذهنيّ، بل ذلك كلّه من كمالاته الاسمائيّة والصفاتيّة، الراجعة إلى ذاته في مرتبة ثانية من مرتبة الوجود، وصار أيضاً (صاحب هذا الشهود الجزئي) محجوباً بكمالاته الاسمائيّة عن الذات، وبخصوصيّاته الوصفيّة عن الوجود، وذلك غير محمود كالأوّل.

٢٢٥ - فأمّا لو جمع بين المرتبتين بحيث لا يحتجب بأحدهما عن الآخر، أعني لا يحتجب بالكثرة عن الوحدة وبالفرق عن الجمع، (فقد) صار موحّداً عارفاً كاملاً

---

(١) سورة الحديد: الآية، ٣.

(٢) سورة النور: الآية، ٣٤.

صاحب الفرقان المخصوص بموسى وعيسى عليهما السلام و(القرآن المخصوص) بمحمّد صلى الله عليه وآله لأنّ الفرقان هو العلم التفصيليّ المخصوص بموسى وعيسى عليهما السلام والقرآن هو العلم الاجماليّ مع التفصيليّ المخصوص بمحمّد عليه السلام لأنّ القرآن هو الجمع لغةً، وقد بيّنا ذلك مفصّلاً في رسالتنا المسماة بـ «منتخب التأويل».

٢٢٦ - وبيانه - بقدر هذا المقام هو أنّه تعالى قال: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[1] الآية، أي أن اتقيتم واحترزتم في معرفتي وعبادتي عن الشرك الجليّ والخفيّ، جعلتُكم أصحاب فرقان، أي أعطيتُكم ووهبتُكم علماً فارقاً بين الحقّ والباطل، ونظراً جامعاً بين الخلق والحقّ، وتمييزاً كاملاً بين الظاهر والمظهر، حتّى تشاهدوني ظاهراً في عين الباطن، وباطناً في عين الظاهر، وأوّلاً في عين الآخر، وآخراً في عين الأوّل.

وكذلك في مراتب الوحدة والكثرة، والفرق والجمع، وغير ذلك من المراتب الإلّهيّة، التي هي أعلى مراتب مشاهدة الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

والتقوى لها مراتب: أدناها الاتّقاء عن المحرمات، وأعلاها الاتّقاء عن مشاهدة الغير مطلقاً المسمّى بالشرك، جليّاً كان أو خفيّاً، الموجب لحصول العلم الفرقانيّ والقرآنيّ، المؤدى إلى التوحيد الجمعيّ الحقيقيّ المحمّديّ المتقدم ذكره.

٢٢٧ - وإلى مثل هذا التوحيد أشار الشيخ الأعظم محيي الدين بن العربيّ - قدّس الله سرّه - في قوله: «إيّاكم والجمع والتفرقة! فإنّ **الأول** يورث الزندقة والالحاد، **والثاني** تعطيل الفاعل المطلق، وعليكم بهما! فإنّ جامعهما موحّد حقيقيّ وهو المسمّى بـ (صاحب مقام) جمع الجمع، وجامع الجميع، وله المرتبة العليا والغاية القصوى».

وهذا الفرق والجمع من الفرق والجمع الثاني، الذي هو شهود قيام الخلق بالحقّ، ورؤية الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة من غير احتجاب صاحبه بأحدهما عن الآخر، لا (الفرق والجمع) الأول، الذي هو الاحتجاب بالخلق عن الحقّ، وبقاء الرسوم الخلقيّة بحالها.

---

(١) سورة الفرقان: الآية، ٢٩.

وفيه قيل أيضاً: «الجمع بلا تفرقة زندقة، والتفرقة بلا جمع تعطيل، والجمع مع التفرقة توحيد». وهذا لا يخفى على أهله، لكن هو تنبيه لبعض الطالبين، شعر:

من يدري ما قلت لم تخذل بصيرته   وليس يدريه إلا من له بصر

جمّع وفرّق فإنّ العين واحدة   وهي الكثيرة لا تبقى ولا تذر

٢٢٨ - وإذا تحقّق أنّ المراد بجمع الجمع أحدية الفرق بعد الجمع، فاعلم أنّ مقام الجمعيّة مقام عالٍ، وليس هناك مقام ولا مرتبة أعلى منه، ولا عروج لأحد من الأنبياء والأولياء عليهم السلام (أرقى) من هذا الدرج، لأنّها (أي هذه المرتبة هي) النهاية، وفوق النهاية لا تكون نهاية، وإلا لا تكون النهاية نهايةً.

وهذا هو المراد بالمقام المحمود ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾[1] و «المعراج المعنويّ» و «الوصوي الحقيقيّ» وغير ذلك من الإشارات. وفيه قيل: «ليس وراء عبّادان قرية». وإلى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «**لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً**».

وفيه قال الشيخ الأعظم في فصوصه: «وإذ ذقتَ هذا، ذقتَ الغاية التي ليس فوقها غاية في حقّ المخلوق. فلا تطمع ولا تتعب نفسك في أن ترقى أعلى من هذا الدرج، فما هو ثمّ أصلاً، وما بعده إلا العدم المحض»..

وفيه قال أيضاً: «ما يعرف هذا - وأنّ الأمر على ذلك - إلا آحاد من أهل الله تعالى. فإذا رأيتَ من يعرف ذلك، فاعتمد عليه. فذلك عين صفاء خلاصة خاصّة الخاصّة من عموم أهل الله». ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[2].

٢٢٩ - لا يقال: إنّكم إذا بيّنتم أنّ أعلى مقامات الأنبياء والأولياء والكمّل هو المقام الجمعيّ، وبيّنتم أنّه مقام الكمال الأعظم، بل مرتبة التكميل، فيلزم من ذلك مساواتهم في المعارف واتحادهم في المقام، وليس كذلك، لأنهم ليسوا في المعارف متساوين، ولا في المراتب متّحدين، - لأنّا نقول: لا نسلم ذلك، لأنّه لا يلزم من وحدة المقصد اتّحاد القاصدين ولا مساواتهم، لأنّ القاصدين إليه على

---

(١) سورة النجم: الآية، ٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ٤١.

مراتب مختلفة ودرجات متنوّعة بحسب استعداداتهم وقابلياتهم، فلا يصل أحد منهم إلى مكان الآخر أبداً، لأنّ هذا من الممتنعات لا الممكنات، لأنّ الاختلاف في الاستعدادات، بل في الوجودات الخاصّة والماهيّات الممكنة، من اقتضاء الوجود وشؤونه الذاتيّة، وتغيّر اقتضاء الوجود وتبديل شؤونه الذاتية من المستحيلات والممتنعات، لأنّ من كمالات هذا الوجود الظهور بصورة كلّ موجود يمكن وجوده، و(الظهور) كذلك بمعناه أزلاً وأبداً، فإنّه لا يظهر بمعنى واحد في صورتين، ولا يظهر بالصورة مرّتين.

والمراد أنّ التكرار في المظاهر صورةً ومعنىً محال.

٢٣٠ - وإن «حُقّق (في الموضوع)، عرف أنّ هذا من غاية جلاله تعالى وعظمة كبريائه، لا لنقص فيه ولا في ذاته. وإليه أشار بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1] أي لا تزال القوابل مختلفة ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ في الأزل بالرحمة الامتنانية واللطف الخاصّ، وحفظه من الاختلاف في العقيدة خلاف الخليقة. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي بحسب الاختلاف الواقع فيهم ظهر بصورهم وعقائدهم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ﴾[2] وتكون الحجّة له عليهم بظهورهم بصورهم على ما هم عليه، لقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[3].

ومن هذا النظر قال أرباب التحقيق: «إنّ الحقائق ليست بجعل الجاعل» وهذا بحث له طول، سيجيء أبسط من ذلك في موضعه.

٢٣١ - والغرض منه أنّ القاصدين إلى هذا المقصد ليسوا متساوين في المعارف، وإن كان مقصدهم واحداً. ومثل ذلك مثل منبع واحد ومشارب كثيرةٍ عليها: كلُّ مشربٍ على وضع معيّن، مخصوصٌ بطائفة مخصوصة، متميزةٍ عن الأخرى.

فكما أنّ وحدة المنبع لا تدل على وحدة المشارب ومساواتها، فكذلك وحدة المقصد لا تدلّ على وحدة القاصدين إليه ومساواتهم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[4].

---

(١) سورة هود: الآية، ١٢٠.
(٢) سورة النساء: الآية، ١٦٥.
(٣) سورة الأنعام: الآية، ١٥٠.
(٤) سورة النحل: الآية، ٦٢.

وإلى اختلاف المشارب مع وحدة المنبع أشار تعالى بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾(١) أي لولا منع قابليتكم واستعدادكم لجعلتكم منتظمين في طبقة واحدة؛ ولكن عدم قابليتكم واستعدادكم، والحكمة الجارية على مساق قضائي وقدري وعلمي بالأشياء على ما هي عليه من الاختلاف، منعني من هذا. وإليه أشار أيضاً: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾. الآية. وفي: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾(٢) أسرار ليس هذا موضع ذكرها، سنذكرها في الأصل الثالث إن شاء الله تعالى.

٢٣٢ - فهذا المنبع (هو) منبع الولاية و (هذه العين هي) عين الحقيقة: والمشارب (هي) مشارب الأنبياء والأولياء عليهم السلام وتابعيهم. فلا يأخذ أحد منهم إلا بقدر قابليّته واستعداده، لقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**الطرق إلى الله تعالى بقدر أنفاس الخلائق**»، ولقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾(٣) وكذلك قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾(٤) الآية، لأن «الأكل» إشارة إلى اختلاف المشارب مع وحدة المنبع.

فلا يكونون حينئذٍ متساوين أصلاً لا في المعارف ولا في المراتب. وهذا هو المطلوب.

٢٣٣ - ومثل آخر أوضح منه أنّ الشمس مثلاً، إذا طلعت على مدينة فلا شك أنّ طلوعها، بالنسبة إلى جميع البيوت التي فيها متساوٍ، لكن لا يدخل شعاعها في البيوت إلا بقدر كوّاتها وروازنها.

وأيضاً لا شك أنّها إذا طلعت عليها، فإنّ جميع الناس متساوون في مشاهدتها ورؤيتها، لكن مشاهدة كلّ واحد منهم ليست كالآخر، لأنّه لا يشاهدها إلا بقدر ضوء بصره، ومعلوم أنّ ضوء بصر كلّ واحد منهم ليس مساوياً للآخر.

---

(١) سورة المائدة: الآيتان، ٥٢ . ٥٣.
(٢) سورة الأعراف: الآية، ١٦٠.
(٣) سورة الرعد: الآية، ٤.
(٤) سورة الرعد: الآية، ١٨.

وهذا يفهم من ألف مثل في هذا الباب، وهو في غاية الدّقة.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[١]. هذا آخر الوجه الثاني.

٢٣٤ - وأمّا الوجه الثالث، فهو في معرفة ذاته وبيان توحيده الذاتيّ، وهو هذا. اعلم أنّ ذاته عبارة عن الوجود المطلق مطلقاً، أي عن الوجود من حيث هو وجود، لا بشرط شيءٍ ولا بشرط لا شيءٍ، أعني (الوجود) المنزّه عن جميع القيود الاعتباريّة وغير الاعتباريّة، عن التعريف والتعيين والجنس والفصل والحدّ والرسم والوصف والاسم وما شاكل ذلك، لأنّ الشيء إذا عرف بحيث هو هو، لا يراد به إلا ذلك الشيء من حيث ذاته فقط. واطلاق لفظ «المطلق» عليه أيضاً لأجل التفهيم والتنبيه لا غير، وليس هو تعريفاً له، لأنّه من حيث هو هو، بديهيّ باتفاق أكثر المحقّقين، والبديهيّ لا يحتاج إلى التعريف ولا إلى التعيين، لأنّ التعيين هو سبب التميّز عن غيره المشارك له في وصف ماهيّته؛ والوجود لا مشاركة له مع الغير، لأنّ غير الوجود البحت عدم صرف ولا شيء محض، فلا يشاركه في شيءٍ أصلاً، فلا يحتاج إلى التعيين.

٢٣٥ - وأمّا أنّ غير الوجود البحت عدم صرف - وهو باتفاق المحقّقين - فلأنّه مقرّر عندهم بأنّ لا واسطة بين الوجود والعدم مطلقاً، لأنّ الشيء إمّا أن يكون موجوداً أو يكون معدوماً. وإذا لم يكن بينهما واسطة، فالوجود في الخارج من حيث هو الوجود، لا يكون إلا واحداً، لأنّه نقيض العدم، والعدم واحد، ونقيض الواحد - من حيث هو واحد - لا يكون إلا واحداً، فيكون الوجود واحداً، ويكون غيره عدماً صرفاً، وهو المطلوب.

وأمّا أنّه موجود في الخارج فلأنّه لو لم يكن موجوداً، لكان معدوماً فيه، وإذا كان معدوماً فيه ما صدق عليه أنّه نقيض العدم المطلق، وقد ثبت أنّه نقيض العدم المطلق.

فلا يكون معدوماً في الخارج، بل يكون موجوداً فيه، وإلا ما بقي الفرق بينه وبين نقيضه.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية، ٤٢.

٢٣٦ - فإن قيل: الوجود الذي هو نقيض العدم وجود خاصّ، وعدمه كذلك، - أجيب عنه بأنّ الوجود الخاصّ والعدم الخاصّ لا بدّ لهما عن مطلق عامّ يدخلان تحته، وإلا لا يمكن اعتبارهما بدونه، لأنّ وجود المقيّد بدون المطلق، أو وجود الخاصّ بدون العامّ، محال.

وإذا كان كذلك، فلا يكون هذا الحكم إلا بالنسبة إلى الوجود المطلق أو العدم المطلق.

وهذا مقرّر عند العلماء، لا يحتاج إلى اثباته وبيانه.

٢٣٧ - وإذا عرفتَ هذا، فاعلم أنّ هذا الوجود واجب الوجود لذاته، وممتنع العدم لذاته.

والدليل على ذلك هو أنّه ليس بقابل للعدم لذاته، وكلّ ما ليس بقابل للعم لذاته فهو واجب، فيكون الوجود واجباً لذاته.

فأمّا الأوّل - الموسوم بالصغرى: - فلأنّه قد تقرّر في تعريف الواجب - عند الخصم - بأنّ الواجب هو الذي يجب له الوجود من ذاته، ويمتنع عليه العدم من ذاته.

والوجود كذلك، فلا يكون قابلاً للعدم لذاته، فيكون واجب الوجود لذاته.

وأمّا الثاني الموسوم بالكبرى: بحكم التعريف أيضاً - فهو قولهم: كلّ ما ليس بقابل للعدم لذاته فهو واجب.

وأمّا أنّه ليس بقابل للعدم بذاته، فهو أنّه لو كان قابلاً للعدم، للزم اتّصاف الشيء بنقيضه، واتّصاف الشيء بنقيضه محال.

فمحال أن يكون الوجود قابلاً للعدم لذاته.

٢٣٨ - وإن قيل: يستحيل اتّصاف الشيء بنقيضه إذا كان معيّة القابل مع القبول حال عدمه شرطاً.

فأمّا إذا كان هذا الشرط مفقوداً، فلا يلزم ذلك، لأنّه يجوز أن يكون العدم زايلاً عن الوجود على سبيل الطريان، - أجيب عنه بأنّ العدم ليس بشيءٍ موجود في الخارج، حتّى يكون له الطريان على الوجود، بل العدم عبارة عن امتناع وجوده في

الخارج، كما أنّ الوجود عبارة عن امتناع عدمه في الخارج. وعدم الممكن ووجوده أيضاً ليس عبارة عن اعدامه مطلقاً، حتّى يتوّهم فيه مثل ذلك؛ بل عدم الممكن عبارة عن ازالة وجوده الخاصّ عن ماهيته الخاصّة، وإلا الوجود - من حيث هو وجود - ليس بقابل للعدم أصلاً، وإلا يلزم انقلاب الوجود بالعدم، أي انقلاب حقيقة الوجود بحقيقة العدم، وانقلاب الحقائق - بالاتّفاق - محال.

فمحال أن يكون الوجود قابلاً للعدم، وهذا هو المطلوب.

٢٣٩ - وأيضاً، معلوم أنّ العدم الصرف ليس بقابل للوجود أصلاً، فكذلك الوجود الصرف، لأنّه نقيضه، ونقيض الشيء لا بدّ وأن يكون بضدّه وبخلافه.

٢٤٠ - وأيضاً لو كان قابلاً للعدم، فقابليّته له لا تخلو من وجوه ثلاثة: أمّا أن تكون من ذاته، أو من غيره من الممكنات، أو من موجود ثالث غيرهما.

فإن كان من ذاته، فينبغي أن يكون الوجود من ذاته معدوماً دايماً، لأنّ الاقتضاء الذاتيّ لا ينفكّ عن الذات، وهذا محال، لأنّ الوجود من ذاته لا يقتضى إلا ذاته ووجوده. فمحال أن يكون الوجود قابلاً للعدم من ذاته.

وإن كان من غيره من الممكنات الموجودة به، المعدومة بدونه، فيلزم اعدام الواجب من الممكن، وهذا أيضاً مجال، لأنّ الممكن لا يقدر على اعدام الواجب الذي هو موجده ومنشئه.

وإن كان موجود الثالث غيرهما، فهذا أيضاً - باتّفاق أهل العقل والنقل - محال، لأنّه قد تقرّر عند العقلاء بأجمعهم أنّ الموجود منحصر فيهما، مع أنّه قد ثبت أنّ غير الوجود البحت عدم صرف ولا شيء محض.

وإذا لم يكن الوجود قابلاً للعدم لا من ذاته ولا من غيره من الممكنات، ولا من أمر ثالث غيرهما، فيكون واجباً بالضرورة. وهذا هو المطلوب.

٢٤١ - وبحث الوجود له طول وعرض يحتاج إلى موضع غير هذا. ونحن - إن شاء الله - سنكتب فيه بعد ذاك رسالة برأسها على ما ينبغي.

٢٤٢ - وأيضاً قد ثبت في القاعدة الثانية من هذا الأصل، أنّ معرفة الذات المقدّسة خارجة عن العبارة والإشارة، لأنّها موقوفه على الذوق والكشف والشهود.

فعلى هذا التقدير كلّ ما نقول فيه بلسان العبارة ونشير إليه برسم الإشارة، لا يزيد لها إلا خفاءً ولا يزيد لنا إلا عمىً. فالسكوت عنه أولى، لقول النبيّ ﷺ: «**إذا بلغ الكلام إلى الله فامسكوا**»، ولقوله: «**من عرف الله تعالى، كلّ لسانه**».

٢٤٣ - أمّا توحيد هذا الوجود وتفريده فلا يكون إلا بتمحيضه وتخليصه عمّا سواه، أعني التوحيد الذاتيّ لا يمكن حصوله إلا بالخلاص عن رؤية الغير ومشاهدته، المسمّى بالشرك الخفيّ، لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾(١) أي من كان منكم يرجو مشاهدة ربّه في مظاهره الاسمائيّة والصفاتيّة، المسمّاة بالآفاق والأنفس، ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ قلبياً حقيقياً، أي فليشاهد وجوداً مطلقاً واحداً من جميع الجهات، مجرّداً عن جميع الاعتبارت.

أعني: ينبغي أن يشاهد هذا المشاهد وجوداً حقيقيّاً واحداً من جميع الجهات بنظره القلبيّ، المسمَّى بعين البصيرة، بحيث لا يشاهد معه غيره أصلاً، كما قال: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ أي فلا ينبغي أن يشاهد المشاهد في هذه المشاهدة غيره أبداً، حتّى يصدق عليه أنّه موحّد حقيقيّ، وإلا فلا، لأنّ العمل الصالح هو العمل الخالص من الشرك الجليّ والخفيّ، ظاهراً أو باطناً.

أعني: النظر القلبيّ الحقيقيّ الخالص عن مشاهدة الغير مطلقاً هو العمل الصالح الخالص، لا غير، لقوله تعالى أيضاً: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾(٢) أي الخالص من الدين هو لله فقط. والخالص من الدين لا يكون خالصاً إلا إذا خلص من الشركين أي الجليّ والخفيّ.

٢٤٤ - ومعلوم أيضاً أنّ الدين هو التوحيد الحقيقيّ، كما تقدّم ذكره. وتقدّم أنّ خالصيّته لا يكون إلا بالخلاص عن الشركين الخفيّ والجليّ، اللذين هما عبارة عن مشاهدة الغير.

والشرك المذكور في الآية، لو لم يكن شركاً خفيّاً، لما قال تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾(٣) بل قال: «**ولا يشرك بربه أحداً**» لأنّ المشرك بالشرك الجليّ ما له

---

(١) سورة الكهف: الآية، ١١٠.
(٢) سورة الزمر: الآية، ٣.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

عبادة ولا عمل صالح يطلب منه صلاحهما و (ترك) فسادهما - فالصلاح - في هذا الموضع - هو الخلاص من الشرك الخفيّ الموجود في أكثر المسلمين، كما مرّ ذكره. فالخلاص منه الشرك الخفيّ الموجود في أكثر المسلمين، كما مرّ ذكره.

فالخلاص منه لا يمكن إلا بمشاهدة وجود الحقّ المطلق وذاته، بلا اعتبار غيرٍ معه أصلاً، لا ذهناً ولا خارجاً.

٢٤٥ - وإلى ذلك أشار تعالى بقوله أيضاً: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[(١)] أعني: إلى فناء كلّ شيءٍ وهلاكه عند مشاهدته أشار بهذا القول، لأنّه عند مشاهدة وجهه الكريم الذي هو وجوده، لا يبقى للغير اسم ولا رسم ولا أثر. وإلى احاطته تعالى وشهوده في كلّ ذرّة من ذرّات الوجود، بعد ذلك كله - أي بعد فناء الكلّ وهلاكه - أشار تعالى أيضاً تأكيداً للغرض وتتميماً للكلام وتوضيحاً للمقصد، فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[(٢)] أي أينما توجهتم بمثل هذا التوجه، وجدتم ﴿فَأَيْنَمَا وَجْهُ اللَّهِ﴾ الذي هو ذاته ووجوده، وشاهدتم في الحال لا في الاستقبال معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[(٣)]، وصرتم عارفين به وبوجوده، واصلين إليه وإلى لقائه الموعود في القيامة الكبرى، وتحققتم أيضاً أنّ النبي ﷺ قال في دعائه: «**اللّهمّ! ارزقني لذّة النظر إلى وجهك الكريم**»، وتيقّنتم أنّه ما طلب منه إلا اللقاء المذكور.

٢٤٦ - وعند التحقيق ليس اللقاء الموعود بعد العمل الصالح - باتّفاق أهل الله تعالى - إلا هذا. وأيضاً لولا هذا، أي لولا حصول هذه المشاهدة بعده، أي بعد العمل الصالح، لما وصف الله تعالى عباده المخلصين من الأنبياء الكبار والأولياء العظام، مثل زكريا وإسماعيل وإدريس وأيّوب وموسى وعيسى عليهم السلام بالصلاح وسمّاهم بالصالحين في كتابه العزيز، وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾[(٤)] وقليل منهم قال الله تعالى في حقّه أنّه كان من الصالحين.

---

(١) سورة القصص: الآية، ٨٨.

(٢) سورة البقرة: اللآية، ١٠٩.

(٣) سورة الرحمن: الآيتان، ٢٦ . ٢٧.

(٤) سورة الأنعام: الآيتان: ٨٤ - ٨٥.

٢٤٧ - والذي حكى عن سليمان عليه السلام في قوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١] هذا معناه، لأنه يقول: «أدخلني في عبادك الصالحين» من الأنبياء والأولياء عليهم السلام أي عبادك المصلحين للغير بهدايتهم إلى توحيدك الحقيقيّ، وباخراجهم عن الشرك الجليّ والخفيّ بعد اصلاح أنفسهم، (وذلك باقامتهم على التوحيدين الألوهيّ والوجوديّ.

وهذا طلب مقام لا مقام فوقه لقوله تعالى أيضاً: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾[٢] لأنه ما كان غرضه بهذا إلا طلب مقام النبوّة الفطريّة الأصليّة ومرتبة الولاية الحقيقيّة الأزليّة، اللّتين هما منبع التوحيدين الألوهيّ والوجودي ومعدن الشهودين، أي الكثرة والوحدة.

ومعلوم أنّه لا مقام هناك فوق الولاية والنبوّة.

٢٤٨ - وبالجملة هذا ضابط كلّيّ في اصطلاح القوم، وهو أنّ الصلاحيّة في حقّ الأنبياء والأولياء عليهم السلام بمعنى المصلحين للغير، وفي حقّ غيرهم بمعنى الصلاحيّة المشهورة بين الناس، التي هي ترك المنهيات وكثرة الصوم والصلاة، لأنّ مرتبتهم أعلى وأجلّ من أمثال ذلك، لأنّهم ما يقومون باصلاح الغير إلا بعد اصلاح أنفسهم واتّصافهم بأخلاق الله، كسباً كان أو عطاءً، على اختلاف بين الناس.

وإلى هذا الصلاح المصلح للغير والعمل الصالح المثبت للحقّ الموجب للتوحيد الحقيقيّ أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في قوله المتقدّم ذكره: «**إنّي لأنسبنّ الإسلام نسبة لن ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو التصديق، والتصديق هو اليقين، واليقين هو الاقرار، والاقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح**» لأنّ هذا العمل الصالح، لو لم يكن بالمعنى المذكور، لما ذكره بعد جميع المراتب المذكورة وما جعله نهايتها.

٢٤٩ - وسبب ذلك أنّ العمل لا يكون صالحاً إلا إذا كان بعد هذه المراتب،

(١) سورة النمل: الآية، ١٩.
(٢) سورة صَ: لآية، ٣٥.

لأنّ الشخص ما دام في حجب رؤية الغير، ليس بمسلم حقيقيّ فلا تسليم له ولا تصديق ولا يقين ولا اقرار، وليس عمله بصالح أصلاً، لأنّه وإن خلص من الشرك الجليّ من حيث الشريعة، لكنّه بعد محجوب بالشرك الخفيّ الذي هو أردأ منه من حيث الحقيقة.

والمحجوب محجوب سواء (أ) كان بحجاب أو بألف حجاب.

وإليه أشار بقوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[(١)] كما مرّ ذكره.

وكذلك (أشار إليه) النبي ﷺ في قوله السابق: «**دبيب الشرك في أمّتي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في اللّيلة الظلماء**».

٢٥٠ - ومعلوم أنّ الإسلام والإيمان لا يجتمعان مع الشرك الجليّ. فاذن لا يكون المراد به في القولين (المتقدّمين) والأقوال المذكورة أيضاً إلا الشرك الخفيّ.

والذي قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[(٢)] و ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[(٣)] عند التحقيق ما أراد به إلا هذا الإسلام وهذا الدين لا غيرهما، لأنّ غيرهما يكون من قبيل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا﴾[(٤)] أي أسلمنا الإسلام الذي هو مشوب بالشرك والشك والشبهة، (أي الإسلام) الغير المنجى لصاحبه في الآخرة.

٢٥١ - فالدين الحقيقيّ والإسلام اليقينيّ والتوحيد الذاتيّ الجمعيّ هو الذي يكون خالصاً من الشركين - أي الجليّ والخفيّ - عن مشاهدة الغير في الوجود مطلقاً، ظاهراً كان أو باطناً، ذهناً كان أو خارجاً، بحيث لا يشاهد معه غيره، أي لا يشاهد مع الحقّ غير الحقّ؛ ويكون عنده الشاهد والمشهود، والعارف والمعروف، عيناً واحدةً وحقيقةً واحدةً، كما قال العارف بذلك:

---

(١) سورة يوسف: الآية، ١٠٦.
(٢) سورة آل عمران: الآية، ١٧.
(٣) سورة الزمر: الآية، ٣.
(٤) سورة الحجرات: الآية، ١٤.

أأنت أم أنا؟ هذا العين في العين حاشاي، حاشاي! من اثبات اثنين

وقال الآخر:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا!

٢٥٢ - وقال أيضاً «**سبحاني! ما أعظم شأني**». وقال هو بنفسه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(١)، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

وقال غيره: «ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالكلّ هو وبه ومنه وإليه» وأمثال ذلك كثيرة.

والمقصود من المجموع دفع الأثنينيّة، كما قيل:

لقد كنتُ دهراً قبل أن يكشف الغطا أخالك أنّي ذاكر لك شاكر

فلمّا أضاء اللّيل أصبحتُ عارفاً بأنّك مذكور وذكر وذاكر

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب. هذا آخر التوحيد الذاتيّ وشهود الوجود الحقيقيّ. رزقنا الله تعالى الوصول إلى هذا المقام، بمحمّد وآله الكرام.

٢٥٣ - وإذ فرغنا منه (أي من التوحيد الذاتيّ) فلنشرع في التوحيد الصفاتيّ وبيان كيفيّته، بعون الله وحسن توفيقه. وهو هذا الوجه الرابع في التوحيد الصفاتيّ.

اعلم أنّ صفات الله تعالى عبارة عن كمالاته الذاتيّة وخصوصيّاته الوجوديّة، أعني اطلاق الصفات عليه تعالى عبارة عن تحقّق كمال في ذاته أو سلب نقص عنه، الذي هو أيضاً كمال.

وكذلك الأسماء، لأنّها لا تصدق عليه إلا بهذا الاعتبار، أعني باعتبار كلّ كمال في ذاته أو سلب نقص عنه.

ولهذا صارت الأسماء غير متناهية، لأنّ الاسم باعتبار الصفة، والصفة باعتبار الكمالات، والكمالات غير متناهية، فتكون الأسماء غير متناهية.

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٨.

(٢) سورة الحديد: الآية، ٣.

٢٥٤ - والذي جعل الاسم عين المسمّى، أو الصفة عين الذات، كان من هذا المقام، لأنّه عرف أنّ أسماءه وصفاته عبارة عن كمالاته الذاتيّة وخصوصيّاته. وعرف أنّ كل ذلك عين ذاته.

وإليه أشار الإمام عليه السلام في قوله: «**وكمال توحيده الاخلاص له. وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه**» لأنّه أراد ذلك، كما سيجيء بيانه.

٢٥٥ - وأمّا الأسماء، فمع أنّها غير متناهية، فإنّها - من حيث الترتيب والاجمال - تنحصر في أسماء الذات، وأسماء الصفات، وأسماء الأفعال، لأنّ الاسم إنّما يطلق على الذات باعتبار نسبة وتعيّن.

وذلك الاعتبار أمّا أمر عدميّ نسبيّ محض - كالغنيّ، والأوّل، والآخر - أو غير نسبيّ - كالقدّوس، والسلام - ويسمّى هذا القسم أسماء الذات.

أو معنى وجوديّ يعتبره العقل، من غير أن يكون زايداً على الذات خارج العقل، فإنّه محال.

وهو إمّا أن لا يتوقّف على تعقّل الغير - كالحيّ، والواجب - وأمّا أن يتوقّف على تعقّل الغير دون وجوده - كالعالم، والقادر - وتسمّى هذه الأسماء أسماء الصفات.

٢٥٦ - وأمّا أن يتوقّف على وجود الغير - كالخالق، والرازق وتسمّى أسماء الأفعال، لأنّها مصادر الأفعال، ولها أيضاً أئمّة، وهي سبعة: الحيّ، والعالم، والمريد، والسميع، والبصير، والمتكلّم، وهي أصول الأسماء كلّها. والمراد بلفظة «الأئمّة» واطلاقه عليها أنّ غيرها من الأسماء بالنسبة إليها كالمأموم المحتاج إلى الإمام.

وبالحقيقة أنّ هذا من اقتضاء الكثرة الاسمائيّة وامكان وقوع التنازع بينها، المحتاج إلى الإمام لتأسيس العدل بينها واقامة كلّ واحد منها في مقامه.

ولهذه الأئمة أيضاً إمام، وهوالأعظم والرئيس الأقدم الموسوم بالاسم الأعظم، الجامع لجميع الأسماء، الذي هو اسم «الله»، لأنّه اسم الذات الموصوفة بجميع الصفات والكمالات.

وتفصيل ذلك مبسوط في كتب أصحابنا الموحّدين، خصوصاً في كتاب

«الجداول» المشهور بـ«الرقايق» للشيخ الأعظم محيي الدين (بن) العربيّ - قدّس الله سرّه - فمن أراد تحقيقها مفصّلاً، فيرجع إليها.

٢٥٧ - وهذه الأسماء أيضاً تنحصر - باعتبار الانس والهيبة عند مُطالِعها - في الجماليّة كاللّطيف، والجلاليّة كالقهّار. وليست المظاهر بأسرها بخارجة عنهما، أعني المظاهر كلّها الواقعة بحسب الأسماء منحصرة فيهما.

ومع أنّها كذلك (فهي) ليست على سواء، لأنّ منها (ما هو) مظهر اسم واحد، ومنها أكثر منه، ومنها (ما هو) مظهر جميع الأسماء؛ أعني لكلّ مخلوق أو موجود - سوى الإنسان - حظّ من بعض أسمائه تعالى دون الكلّ - فإنّ الكلّ مخصوص بالإنسان فقط - كحظّ الملائكة من اسم «السبّوح» و (اسم) «القدّوس»، فإنّهما بعض أسمائه، كما قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1] وقالوا: «نحن الصالحون المسبّحون». وهذا القول من اقتضائه التعظيم والتبجيل، ولذلك ما عصوا ربّهم قط، وقالوا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[2].

٢٥٨ - وحظّ الشياطين من اسم «الجبّار» و (اسم) «المتكبّر»، فإنّهما بعض أسمائه تعالى، كما قال رئيسهم: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[3]، وهذا القول من اقتضاء التكبّر والتجبّر، ولذلك عصى (ابليس) فتكبّر وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[4].

٢٥٩ - كذلك كلّ موجود فُرض في الوجود، فإنّ له خصوصيّة لا يشاركه فيها أحد.

وهذا ليس إلا من اقتضاء «الاسم» الذي هو (مسيطر) عليه، لقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[5]، بخلاف الإنسان، فإنّه

مظهر جميع الأسماء الجلاليّة والجماليّة، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الصافات: الآية، ١٦٤.
(٣) سورة الأعراف: الآية، ١١.
(٤) سورة صَ: الآية، ٨٣.
(٥) سورة طه: الآية، ٥٢.

كُلَّهَا﴾[١]، ولقول النبيّ ﷺ: «خلق الله آدم على صورته». ومعلوم أنّ كلّ من يكون على صورته، يكون جامعاً لجميع أسمائه وصفاته.

ولذلك أطاعه (أي أطاع الإنسان الله) تارةً، وعصاه أخرى، لقوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[٢] الآية.

٢٦٠ - والمراد بآدم ليس آدم فقط، بل المراد - باتّفاق أكثر المفسّرين في أكثر مواضع القرآن - أولاده، وبـ«تعليم الأسماء» التعليم بالقوّة لا بالفعل. ولذلك كلّ من ظهرت فيه هذه الأسماء بأسرها أو أكثرها بالفعل، كان أكمل غيره، لأنّه لا يكون إلا نبيّاً أو وليّاً أو وصيّاً من أوصياء الأنبياء أو عارفاً كاملاً من تابعيهم. فظهورها بالفعل بحسب الاستعداد، أي بحسب استعداد الشخص وقابليّته لها. ويشهد بذلك قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[٣]، لأنّه إشارة إلى الجمع لا إلى الواحد، وإن رجع بعده إلى الواحد.

٢٦١ - وعن كيفيّة تركيبهم وتعليمهم الأسماء بالقوّة أخبر تعالى بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٤] أعني ركبتُ في فطرتهم (لطيفة)، وخلقتهم من كلّ اسم من أسمائي وهيأتهم بتلك اللّطائف المنحصرة كلّها في (الأسماءِ) الجماليّة والجلاليّة المعبّر عنهما بـ«يديّ»، وجعلتهم مستعدّين للخلافة، أي مستعدّين بأن تظهر هذه الأسماء فيهم بالفعل، ويصيروا خلفاء، كما أشرتُ إليه في حقّ أبيهم آدم - وهو قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٥] الآية.

- وأمرتُ إبليس وغيره بالسجود له - لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٦] - وبذلك صاروا أشرف الموجودات وأعظمها، لا غير، لأنّ

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٩.
(٢) سورة التوبة: الآية، ١٠٣.
(٣) سورة الأعراف: الآية، ١٠.
(٤) سورة صٓ: الآية، ٧٥.
(٥) سورة صٓ: الآية، ٧٢.
(٦) سورة البقرة: الآية، ٢٨.

غيرهم مخلوق بيد واحدة، وهم مخلوقون بيدين كما تقرّر، لأنّ غيرهم إمّا مظهر الأسماء الجماليّة كالملائكة - وإمّا مظهر الأسماء الجلاليّة - كالشياطين - وكلّ واحد منهما بمثابة يدٍ واحدة.

٢٦٢ - وأمّا الإنسان فهو مظهر جميع الأسماء المنحصرة فيهما المعبّر عنهما باليدين، لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[(١)] ويظهر من هذا الكلام سرّ نسبة المؤمن إلى «أصحاب اليمين» وسرّ نسبة الكافر إلى «أصحاب الشمال»، لمن يعرف ترتيب الوجود على ما هو عليه من الصورة ويمينه وشماله.

٢٦٣ - ومثال ذلك بعينه روح الإنسان في مظاهره الجسديّة مطلقاً، فإنّ العقل مظهر أسمائه اللطفيّة، والنفس مظهر أسمائه القهريّة.

وكذلك كلّ عضو من أعضائه، فإنّه مظهر اسم من أسمائه وقوّة من قواه، بخلاف القلب، فإنّه مظهر جميع أسمائه وصفاته وكمالاته، وسُمّي بالقلب لتقلّبه صورة بعد صورة، كالإنسان مثلاً، فإنّه تارةً على صورة الحيوان، وتارةً على صورة الجماد، كما ورد في القرآن ذكر مجموعه.

فالعقل من هذه المظاهر هو على طرف اليمين، والنفس على طرف اليسار.

وطرف اليمين ههنا (هو) الطرف الذي إلى الروح أو إلى الحقّ تعالى، والمراد به طرف الأعلى والأشرف كالسماوات وعالم الأرواح، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾[(٢)].

٢٦٤ - وكلّما مال القلب إلى العقل وأوامره، فهو من «أصحاب اليمين»؛ وكلّما مال إلى النفس وأحكامها، فهو من «أصحاب الشمال»، لأنّ القلب له طرفان: طرف إلى الروح والعقل، وطرف إلى النفس والجسد، وإليه أشار (النبيّ عليه الصلاة والسلام) أيضاً (في قوله): «**قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن**».

والاصبعان ههنا عبارتان عن الصفتين المذكورتين. ويظهر من هذا أيضاً سرّ: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»، وسرّ ترتيب الوجود ومضاهاة «الإنسان الكبير» بـ

---

(١) سورة ص: الآية، ٧٥.

(٢) سورة الزمر: الآية، ٦٧.

«الإنسان الصغير» وغير ذلك، لكن لا يعرفه إلا أهله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾[١].

٢٦٥ - وبالجملة الأسماء - مع كثرتها - لا تخرج عن هذين الاعتبارين، وكذلك مظاهرها. ومع ذلك فالحقّ تعالى وحدانيّ الذات والصفات والأسماء والأفعال، بمعنى أنّ كلّ شيءٍ نُسب إليه (من) ذات أو صفة أو اسم أو فعل، فنسبتها إليه مجازيّة، لأنّها في الحقيقة عكوس أنوار تجلّيات الذات القديمة والصفات الأزليّة والأسماء الأوليّة في مظاهر الكون، وليس لمظاهرها شيء منها حقيقةً، كالمرآة (العاكسة) للصور المتجلّية فيها. وهذا كالسمع والبصر من الصفات مثلاً، فإنّهما - في أيّ موصوف كانتا - فهما لله تعالى حقيقةً.

ونحو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٢] إشارة إلى تخصيصه بالصفات والأسماء، لأنّ «الألف واللام» فيه (أي في الاسم السميع والاسم البصير) للحصر والتخصيص.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٣] إشارة إلى الوجود المطلق وتجرّده ووحدته، والذي هو مقام الجمع والتوحيد الصرف.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤] إشارة إلى الموجودات المقيّدة وتنزّل الوجود المطلق في مراتبه، الذي هو مقام الفرق والكثرة الاسمائيّة.

وكذلك قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[٥] ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٦] لأنّ الأوّل إشارة إلى الفرق والكثرة، والثاني إلى الجمع والوحدة.

وكذلك قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[٧].

---

(١) سورة طه: الآية، ٥٤ والآية، ١٢٨.
(٢) سورة بني إسرائيل: الآية، ١.
(٣) سورة الشورى: الآية، ٩.
(٤) سورة بني إسرائيل: الآية، ١.
(٥) سورة القصص: الآية، ٨٨.
(٦) سورة البقرة: الآية، ١١٥.
(٧) سورة الرحمن: الآيتان، ٢٦ - ٢٧.

٢٦٦ - فالتوحيد في هذا المقام حينئذٍ يكون بقطع النظر عن جميع الأسماء والصفات له ولغيره، بحيث لا يبقى في نظر الناظر إلا ذات واحدة ووجود واحدة منزّه عن جميع الاضافات والاعتبارات، حتّى يصل بذلك إلى مقام الاخلاص الذي هو التوحيد الحقيقيّ المشار إليه في قول الإمام عليه السلام: **«وكمال الاخلاص له في نفي الصفات عنه»**. ويصير به من الموحّدين المحقّقين الواصلين (إلى) مقام الاستقامة والتمكين. رزقنا الله تعالى الوصول إليه بمحمّد وولديه!.

٢٦٧ - وإذا تحقّق هذا، فاعلم أنّه ليس مرادنا بنفي الصفات عنه نفي الصفات مطلقاً بحيث لا نصفه بالعلم ولا بالقدرة وغير ذلك. بل مرادنا نفي الصفات الزائدة في الخارج، كما أثبتها بعض الجهال من الأشاعرة، لأنّ صفاته في الحقيقة ليست بزائدة على ذاته المقدّسة في الخارج.

بل جميع صفاته في الحقيقة هي عين ذاته، أعني ليست بينها وبين الذات مغايرةٌ حقيقةً، لا ذهناً ولا خارجاً، لأنّها هي هي.

والدليل على ذلك - أي على أنّ صفاته عين ذاته وليست بزائدة عليها في الخارج - هو أنّ الصفات لا تخلوا من وجوه ثلاثة: أمّا أن تكون عين ذاته، أو زائدة عليها، أو جزءاً لها.

فإن كانت جزء ذاته، لزم التركيب في ذاته، وهو محال بالاتّفاق. وإن كانت زائدة، يلزم احتياج الذات إليها وحلولها فيها أو قيامها بها، والكلّ محال. وأيضاً لو كانت زائدة في الخارج لا يخلو (الأمر) من وجهين: أمّا أن تكون (الصفات) واجبة أو ممكنة؛ فإن كانت واجبة، لزم تعدّد الواجب، وهو محال. ويلزم أيضاً تركيب كلّ واحد منها من جزأيْ المباينة والمشاركة، وهذا أيضاً محال.

وإن كانت (الصفات) ممكنة، لزم احتياج الواجب إلى الممكن، وذلك أيضاً محال، وإلا لا يكون الواجب واجباً. فما بقي إلا أن تكون (الصفات) عين ذاته، وهو المطلوب.

٢٦٨ - وإن قيل: هذا المحال يلزم على تقدير أن يكونا (أي الذات من الصفات) واجبيْ الوجود بالاستقلال.

أمّا إذا كان واحد منهما واجب الوجود لذاته والآخر واجب الوجود بغيره، لا

يلزم شيء من هذا، - أجيب عنه بأنّ واجب الوجود لذاته لا يكون محتاجاً (إلى ما هو) واجب الوجود به، والموصوف محتاج إلى الصفة، وإلا يلزم النقص منه لعدم وصفه بها، فيلزم نقص واجب الوجود لذاته، وهذا محال. فمحال أن تكون صفته زائدة على ذاته موجودة في الخارج.

٢٦٩ - وإن قيل: إنّ الصفة - من حيث هي صفة - عرض، لأنّها قائمة بالغير الذي هوالموصوف، لا بنفسها. واذن لا يجوز أن تكون (الصفة) نفس ذاته تعالى لأنّه يلزم منه أن تكون نفس ذاته عرضاً، أو محلاً للأعراض، وكلاهما باطلان. فحينئذ لا تكون (الصفة) عين ذاته، - أجيب عنه بأنّه ليس كذلك، لأنّا ما نريد بقولنا - إنّ صفاته غير ذاته - بأنّ هناك صفة موجودة في الخارج وهي عين ذاته، حتّى يلزم ذلك (الاعتراض).

بل نريد أنّه ليس هناك إلا ذات واحدة منزّهة عن جميع الكثرات والاعتبارات، أعني عن الاسم والرسم والنعت والصفة، لأنّه لا يصدق عليها هذه الاعتبارات إلا بالإضافة والنسبة إلى غيرها، أعني (أنّ) هذه الذات إذا أضفناها إلى المعلوم، سمّيناها عالمة؛ وإذا أضفناها إلى المقدور، سمّيناها قادرة؛ وكذلك إلى المخلوق والمزروق وغير ذلك. وإلا، فهي في نفسها منزّهة عن أمثال ذلك، كما ستعرفه من هذا الكتاب، وقد عرفته في غير هذا المقام. وقد شهد بذلك العقل والنقل والكشف.

وهذا ضابط كليّ عند أرباب التحقيق، متّفق عليه بأجمعهم.

٢٧٠ - وإلى مجموع ذلك أشار سيّدهم وأعظمهم وأقدمهم مولانا وإمامنا أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أسد الله الغالب، عليّ بن أبي طالب عليه السلام في قوله: **«أوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه، فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه. ومن قال: فيم؟ - فقد ضمنه. ومن قال: علام؟ - فقد أخلى منه. كائن لا**

عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلّ شيءٍ لا بمقارنة، وغير كلّ شيءٍ لا بمزايلة». ولهذا الكلام شرح وبسط وحقائق ودقائق، خصوصاً في بحث التوحيد، وليس هذا موضعه؛ سنرجع إليه - إن شاء الله - في موضعه.

٢٧١ - وإلى المعنى المذكور والبحث المعلوم أشار أيضاً ولده المعصوم، مولانا الباقر محمّد بن عليّ زين العابدين - صلوات الله عليهما - في بعض كلامه، وهو قوله: **«هل سمّى عالماً قادراً، إلا أنّه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين؟ وكلّ ما ميّزتموه في أوهامكم - في أدقّ معانيه - فهو مخلوق، مصنوع مثلكم، مردود إليكم. والباري تعالى واهب الحياة، مقدّر الموت. ولعلّ النمل الصغار تتوهّم أنّ لله زبانيتين كما لها، فإنّها تتصوّر أنّ عدمهما نقصان لمن لا تكونان له»**.

٢٧٢ - والمراد بذلك أيضاً الضابط الكليّ المتّفق عليه جميع أرباب التحقيق، وهو أنّ الإنسان لا يطلق على الباري تعالى شيئاً من الصفات إلا التي يجدها في نفسه، مثل العلم والقدرة وغير ذلك.

وكذلك جميع الموجودات، حتّى النملة! وفي هذا كفاية في الاطّلاع على حال العقلاء لعدم معرفتهم بالله تعالى.

٢٧٣ - وذكر هذا النقل المولى الأعظم، أفضل المتأخّرين والمتقدّمين، نصير الملّة والحقّ والدين الطوسيّ - رحمة الله عليه - في «رسالة العلم»، في معرض أنّ اطلاق الصفات على الله تعالى رعاية طرف الأشرف من طرف النقيض، كالعلم والجهل، والعجز والقدرة، والموت والحياة.

وتمسّك في ذلك بقوله عليه السلام ومراده، يعني أن العقلاء لمّا أرادوا اطلاق الصفة عليه، أطلقوا صفة العلم دون الجهل، لأنّها أشرف، وكذلك الباقي من الصفات، وإلا فليس له، في نفس الأمر، صفة تطلق عليه أو لا تطلق.

٢٧٤ - ولهذا البحث طول، وخلاصته هو أنّ كمال توحيده ومعرفته في نفي الصفات الزائدة عنه، ومشاهدته مجرّداً عن جميع الاعتبارات والاضافات من الأسماء والصفات، الذي هو مقام التوحيد الصفاتيّ. وليس وراء ذلك مرميّ في هذا الباب.

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

٢٧٥ - هذا آخر التوحيد الصفاتيّ وبيان مراتبه.

وأمّا التوحيد الفعليّ، فها نحن في صدر بيانه، وهو هذا الوجه الخامس في بيان فعل الله تعالى وتوحيده الافعاليّ.

اعلم أنّ فعل الله تعالى عبارة عن صدور الموجودات عنه، إجمالاً وتفصيلاً، غيباً وشهادةً، من الأزل إلى الأبد، صدوراً غير منقطع، لقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[١]، ولقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٢].

٢٧٦ - وبيان ذلك على حسب الترتيب، هو أنّ الله تعالى لمّا أراد التنزّل من حضرة الذات إلى حضرة الأسماء والصفات، ومنها إلى حضرة الأكوان المعبّر عنها بالعالم، والظهور بصورها (الثابت) في قوله: «**كنتُ كنزاً مخفيّاً، فأحببتُ أن أُعرف، فخلقتُ الخلق**» - ظهر أوّلاً بصورة حقيقة كليّة وتعيّن بها وتقيّد بصورتها، وهي حقيقة «**الإنسان الكبير**» المسمّى بآدم، لقول النبي ﷺ: «**خلق الله تعالى آدم على صورته**» أعني «**آدم الحقيقيّ**» لا (آدم) الصوريّ.

وهذه الحقيقة لها أسماء كثيرة بحسب اعتباراتها، منها النور، لقوله عليه السلام: «**أوّل ما خلق الله نوري**».

ومنها العقل، لقوله: «**أوّل ما خلق الله العقل**».

ومنها القلم، لقوله: «**أوّل ما خلق الله القلم**»..

ومنها الروح الأعظم، لقوله: «**أوّل ما خلق الله الروح**» وغير ذلك من الأسماء.

٢٧٧ - ثمّ بعد ذلك ظهر تعالى بصورة حقيقة أُخرى، وهي نفس هذا الإنسان المسمّاة بـ «**حواء الحقيقيّة**» المخلوقة من ضلعه الأيسر، لا الأيمن، لأنّ ضلعه الأيمن (مصروف) إلى الله تعالى لا غير، أعني (مصروفاً) إلى الحقّ لا إلى الخلق، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[٣] الآية.

---

(١) سورة الرحمن: الآية، ٢٩.

(٢) سورة ق: الآية، ١٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية، ١٨٩.

ولها أيضا أسماء كثيرة، منها النفس الكليّة، واللّوح المحفوظ، والكتاب المبين، وغير ذلك من الأسماء بحسب اعتباراتها أيضاً.

٢٧٨ - ثمّ ظهر بواسطة هاتين الحقيقتين بصورة كلّ موجود في الوجود، علماً كان أو عيناً، بسيطاً كان أو مركّباً، لطيفاً كان أو كثيفاً، من العقول

والنفوس والأفلاك والاجرام والعناصر والمواليد، لقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(١) الآية. وكذلك إلى ما لا يتناهى، أي وكذلك يظهر بصورة كلّ موجود، بحسب الجزئيّات والكليّات أيضاً، إلى ما لا يتناهى. فليس في هذا العالم، أو في هذا الوجود، فاعل بالحقيقة إلا هو، ولا فعل إلا له ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

٢٧٩ - هذا على مذهب أهل التحقيق من أرباب التوحيد وأهل الباطن. وههنا دقيقة بل دقائق، بسبب اسناد الأفعال كلّها إلى الله تعالى، لأنّه (أي هذا الرأي) قريب إلى مذهب الأشعريّ، ولكن (عند التحقيق) ليس كذلك، وسيجيء البحث عنه مفصّلاً، إن شاء الله تعالى.

٢٨٠ - وأمّا على مذهب أهل الشريعة من أرباب الظاهر، فإنّه تعالى خلق أوّلاً جوهرةً، ثم نظر إليها، فذابت وصارت نصفين. فخلق من نصفها «عالم الأمر» ومن نصفها «عالم الخلق»، لقوله تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(٣) الآية. وخلق بعد تلك الجوهرة جواهر أُخر، ثمّ الأجساد، ثمّ الأعراض، ثمّ الأفلاك، ثمّ الأجرام، ثمّ العناصر، ثمّ المواليد، أو بعكس ذلك، لأنّ عند الأكثرين منهم كان ابتداء الموجودات وايجادها من العناصر.

وليس بين العبارتين فرق، عند التحقيق. وليس غرضنا تحقيق ذلك، بل تقرير ترتيب الموجودات على مذهبهم.

٢٨١ - وأمّا على مذهب الحكيم فإنّه يقول: أوّل شيء صدر من الله تعالى هو العقل الأوّل، ثمّ النفس الكليّة، ثمّ الأفلاك، ثمّ الأجرام إلى آخرها.

---

(١) سورة النساء: الآية، ١.
(٢) سورة الأعراف: الآية، ٥٢.
(٣) سورة الأنبياء: الآية، ٣٠.

وكلّ ذلك عنده معلول له، وهو علّتها، أمّا بواسطة أو بغير واسطة. وكذلك كان في الأزل، و(كذلك) يكون إلى الأبد، لأنّ انفكاك العلّة عن المعلول - عنده - محال. والمراد بذلك أنّ صدور الموجودات منه تعالى لا ينقطع أزلاً وأبداً.

٢٨٢ - وليس ههنا أيضاً إلا اختلاف العبارة، وإلا عند النظر الصحيح حاصلة حاصل كلام المحقّقين، لأنّ «ظهر» و «خلق» و «صدر» ألفاظ متغايرة بمعنىً واحدٍ. وأمثال ذلك كثيرة في كلام العرب وكلام الله تعالى وكلام الأنبياء والأولياء عليهم السلام كما عرفت بعضه في الحديث النبويّ.

٢٨٣ - وبالجملة كلّهم قائلون بأنّ هذه الأفعال أفعال الله تعالى بلا خلال.

ولكن غاية ما في الباب أنّ بعضهم قائلون بالواسطة، وبعضهم بعدمها، وعلى جميع التقادير ليس الفاعل فيها حقيقةً إلا هو.

وهذا هو المراد بالتوحيد الفعليّ، أي أن لا يرى العبد فعلاً إلا من فاعل واحد مطلق واجب، ويقول بلسان الحال والمقال: لا فاعل إلا هو، كما قال في التوحيدين الأوّلين، أي الذاتيّ والصفاتيّ: لا ذات (إلا هو) ولا صفة إلا هو، متمسّكاً بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] بعد طرح إضافة الوجود والأفعال إليهم.

٢٨٤ - وهذا يكون بالنسبة إلى الأفعال المنسوبة إليه تعالى، من الإيجاد والتخليق.

وأمّا بالنسبة إلى الأفعال المنسوبة إلى الغير - كالأفعال التكليفيّة وغير ذلك - فهاهنا شبهة صعبة مؤدّية إلى الكفر والزندقة خصوصاً بالنسبة إلى الجهّال، نريد أن نزيلها بعناية الله وحسن توفيقه، رفعاً لمنصب مذهب الموحّدين، واظهاراً لخساسة القائلين بها.

وهذه الشبهة هي أنّ الأشاعرة ذهبوا إلى أن لا فاعل إلاهو، ونسبوا جميع الأفعال القبيحة والحسنة إليه، وأخطأوا في ذلك خطأً فاحشاً، لأنّه ليس الأمر كذلك.

٢٨٥ - فكلام هؤلاء القوم (أي أرباب التوحيد الفعليّ) قريب إلى كلامهم (أي

---

(١) سورة القصص: الآية، ٨٨.

الأشاعرة) في هذا الباب، ويمكن أن يتوهّم متوهّم من كلامهم (أي أهل التوحيد الفعليّ) هذا المعنى، وكلامهم منزّه عنه، لأنّ كلامهم - وإن كان قريباً إلى كلامهم (أي الأشاعرة) بحسب اللّفظ، لأنّ هذا يقول: «لا فاعل إلا هو» وذاك يقول: «لا فاعل إلا هو» - لكن بحسب المعنى بعيد في غاية البعد، لأنّهم (أي الأشاعرة) في هذا القول محجوبون بأنفسهم، بل مشركون بالشرك الخفيّ، لأنّهم، بعدُ، ما خلصوا من رؤية الغير الذي هو رؤية وجودهم ووجود غيرهم، المعبّر عنه بالشرك الخفيّ، وما وصلوا إلى مقام التوحيد الوجوديّ الذي هو مشاهدة وجود الحقّ بلا اعتبار وجود غير معه.

وهؤلاء (أي أرباب التوحيد الفعليّ) ما تكلّموا بهذا إلا بعد ذلك، أي بعد فنائهم من أنفسهم وخلاصهم عن رؤية الغير مطلقاً.

وبين الكلامين، بل بين الطائفتين بونٌ بعيدٌ وتفاوت كثير. فنريد أن نبيّن صورة الحال ونقرّرها على ما هي عليه في نفس الأمر، ليتقدّس جناب الموحّدين من أمثال هذا الدنس، ويتخلّص من أمثال هذه الشبهة.

٢٨٦ - فمذهبهم في ذلك - أي مذهب الموحّدين في هذا المعنى - هو أنّهم - وإن قالوا «لا فاعل إلا هو» - لكن نسبوا كلّ فعل إلى محلّه الخاصّ، أي محلّه الصادر منه ذلك الفعل، وقالوا: هذا فعل إبليس، وهذا فعل آدم، وهذا فعل موسى، وهذا فعل أبي جهل، وهذا فعل محمّد ﷺ وكذلك بالنسبة إلى جميع المظاهر، لأنّ المظاهر كلّها، وإن كانت مظهراً لحقيقة واحدة وفاعل واحد، لكن لهذه الحقيقة أو هذا الفاعل في كلّ مظهرٍ خاصيّة وكمال، أو فعل وانفعال، ليس في غيره.

فينبغي أن ينسب الفعل إلى المظهر لا إلى الظاهر فيه، وإلا لبطل الثواب والعقاب والجنّة والنار، وصار ارسال الرسل وانزال الكتب وما شاكل ذلك عبثاً ومحالاً، وصدور ذلك من الحكيم محال، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً!.

٢٨٧ - وإلى ذلك أشار بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

(١٩١)﴾[1] وقال تأكيداً لذلك: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2] لئلا يتوهّم الجاهل أنّه يفعل عبثاً، أي فعلاً بلا غرض ولا سبب، لأنّه لا يفعل مثل ذلك إلا سفيه أو جاهل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

وهذا (أمر) دقيق لا يمكن ادراكه إلا بنور الكشف الإلّهيّ، وسيجيء بيانه مفصّلاً عند بيان الفواعل والقوابل في آخر هذه القاعدة، إن شاء الله تعالى.

٢٨٨ - وإلى مجموع ذلك أشار قطب علماء الإسلام وإمام أئمّة أهل الإيمان، مسند علوم الكلّ ومقصد أصول الطوائف ومنبعهم، مولانا وإمامنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في جواب الشاميّ لمّا سأله عن مسيره إلى أهل الشام بقوله: **«أكان مسيرك إلى الشام بقضاء الله تعالى وقدره؟» - «ويحك! لعلّك ظننت قضاءً لازماً، وقدراً حاتماً. ولو كان ذلك كذلك، لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. إنّ الله سبحانه أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطعْ مُكرَهاً، ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً** ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[3].

٢٨٩ - والحقّ إنّ كلّ من قال إنّ جميع الأفعال صادرة من الله تعالى، ولم يفرّق بين فعله وفعل غيره، فهو من قبيل الشيطان وأتباعه، لقوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾[4]. وكلّ من قال: إنّ جميع الأفعال صادرة من الله تعالى، لكنّ كلّ فعل منسوب إلى محلّه وفعل العبد منسوب إليه، فهو من قبيل آدم وأتباعه، لقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[5] الآية. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[6].

وهذا رمز حسن، فافهم! فإنّه دقيق، ومع دقّته لطيف.

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان، ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية، ٩٦.

(٣) سورة صٓ: الآية، ٢٧.

(٤) سورة الحجر: الآية، ٣٩.

(٥) سورة الأعراف: الآية، ٢٣.

(٦) سورة العنكبوت: الآية، ٤٢.

وإلى دقّة هذا المعنى وصعوبته أشار مولانا جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام حين سئل عن القضاء والقدر، في قوله: «**لا جبر ولا تفويض، ولكنّ أمر بين أمرين**». وذكر خواجة نصير الملّة والدين (الطوسيّ) - رحمه الله - هذا في رسالته المسمّاة: «بأوصاف الاشراف» بالفارسية، وقال: «**لا يفهم هذا الكلام إلا بعد رياضة القوّة العاقلة حقّ رياضتها**».

٢٩٠ - ومثال مشاهدة جميع الأفعال من الله تعالى ونسبة كلّ فعل إلى محلّه مثالُ زيد أو عمرو مثلاً، فإنّه إذا صدر فعل من زيد أو عمرو، من ضرب أو شتم أو حركة، يقال إنّه ضرب بيده وشتم بلسانه وتحرّك برجله، ولا يقال أنّه ضرب بلسانه وشتم برجله وتحرّك بيده، وهكذا بالنسبة إلى كلّ عضو عضو من أعضائه.

فكذلك الحقّ تعالى بالنسبة إلى مظاهره، أعني كما لا ينسب الفعل الصادر من اليد من حيث هي يد إلى صاحب اليد مطلقاً، فكذلك لا ينسب الفعل الصادر من المظهر من حيث هو مظهر إلى الظاهر فيه مطلقاً.

ويعرف من هذا سرّ قوله: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»، وسرّ قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1] ولكن لا يعرفه إلا أهله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2]. وفيه قيل، شعر:

فلا عبث والخلق لم يتركوا سدى　　وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة

على سمة الأسماء تجري أمورهم　　وحكمة وصف الذات للحكم أجرت

وهذا آخر التوحيد الفعليّ، بقدر هذا المقام. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

٢٩١ - وإذا عرفت هذا التوحيد الفعليّ، وعرفتَ أيضاً التوحيد الذاتيّ والصفاتيّ، فاعلم أنّ الكامل المكمّل والعارف المحقّق هو الذي يكون موصوفاً بهذه المراتب كشفاً وذوقاً، قولاً وفعلاً، أعني تكون له هذه المراتب حاصلةً بالفعل من حيث الكشف والذوق، بعد مراتب القول والعمل والاعتقاد.

---

(١) سورة فصلت: الآية، ٥٣.

(٢) سورة ق: الآية، ٣٦.

وأمّا بيان تحصيل ذلك بهذا الوجه، فهو أنّه إذا تقرّر أنّ الموجودات بأسرها إمّا مظهر ذاته أو مظهر صفاته أو مظهر أفعاله، والأسماء واقعة على ترتيبها، و (إذا) تقرّر أنّ كلّ واحدة منها - أي من هذه المراتب - حجاب للآخر، أعني الأكوان حجاب للأفعال، والأفعال حجاب للصفات، والصفات (حجاب) للذات، كما قيل: «حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، وحجب الأفعال بالأكوان». وقيل أيضاً، شعر:

جمالك في كلّ الحقائق سائر ... وليس له إلا جلالك ساتر

تجلّيت للأكوان خلف ستورها ... فنمّت بما ضمّت عليه الستائر

فليجتهد السالك في رفع حجاب كلّ واحدة منها على الوجه المذكور، حتّى يصل إلى حضرة الذات التي هي حضرة الوجود المطلق المحض المسمّاة: «بحضرة الجمع»، المشار إليها في باب التوحيد الذاتيّ، لأنّ من تجلّت له الأفعال بارتفاع الأكوان، صار موحّداً بالتوحيد الفعليّ؛ ومن تجلّت عليه الصفات بارتفاع حجب الأفعال، صار موحّداً بالتوحيد الوصفيّ؛ ومن تجلّت عليه الذات بانكشاف حجب الصفات، صار موحّداً بالتوحيد الذاتيّ، الذي هو المقصود بالذات من الظهور، كما مرّ ذكره.

٢٩٢ - وهذا لا يكون إلا بعنايته الأزليّة وهدايته الأبديّة، لأنّ حصول هذا بغير ارشاده وعنايته ودون هدايته وتوفيقه ممتنع مستحيل.

فسبحان من لا يصل إليه إلا به ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[١].

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[٢] ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾[٣] ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٤] ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٥].

---

(١) سورة النور: الآية، ٤٠.

(٢) سورة النور: الآية، ٣٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.

(٥) سورة الحديد: الآية، ٢١.

٢٩٣ - ثمّ اعلم أنّ النبيّ ﷺ أخبر عن هذه المراتب وحصولها بقوله في دعائه: **«اللّهمّ! إنّي أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك»** لأنّ قوله: **«أعوذ بعفوك من عقابك»** إشارة إلى التوحيد الفعليّ، لأنّ التوحيد الفعليّ - كما عرفته - هو أفراد فعل الحقّ عن فعل غيره بمعنى اثبات الفاعليّة لله تعالى مطلقاً ونفيها عن غيره.

وقد تضمّنت إشارته (أي النبيّ) هذا المعنى.

وقوله: **«أعوذ برضاك من سخطك»** إشارة إلى التوحيد الصفاتيّ، لأنّ التوحيد الصفاتيّ هو أفراد صفته عن صفة غيره بمعنى اثبات الصفة لله مطلقاً ونفيها عن غيره.

وهذا القول (النبويّ) مشتمل عليه. وقوله: **«أعوذ بك منك»** إشارة إلى التوحيد الذاتيّ، لأنّ التوحيد الذاتيّ هو أفراد ذاته القديمة عن الذوات كلّها بمعنى اثبات الذات لله مطلقاً ونفيها عن غيره. وقد صرّح (النبيّ) في قوله (المتقدّم) بذلك.

٢٩٤ - وعلامة حصول ذلك في غيره (أي غير النبيّ) كما تقدّم تقريره، هو أن يرى صاحب هذا المقام كلّ الذوات والصفات والأفعال متلاشية في أشعّة ذاته وصفاته وأفعاله، ويجد نفسه مع جميع المخلوقات والموجودات كأنّها (أي ذات الحقّ) مدبّرة لها (أي لنفسه ولجميع المخلوقات)، وهم (أي نفسه وجميع المخلوقات) أعضاؤها (أي أعضاء ذات الحقّ)، لا يلمّ بواحد فيها شيء إلا ويراه مُلمّاً به، ويرى ذاته الذات الواحدة، وصفته صفتها، وفعله فعلها، لاستهلاكه بالكلّية في عين التوحيد. وليس للإنسان وراء هذه المرتبة مقام، ولا مرتبة في الحقائق الإلهيّة والمعارف الربّانيّة. وقد أشرنا (بما فيه الكفاية) إلى شرفها وعظيم منزلتها (فيما مضى ذكره).

٢٩٥ - وإلى هذه المراتب الثلاث ونقيضها الذي هو الشرك، أشار جلّ ذكره أيضاً في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٩٤.

لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾[1]، لأنّ قوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[2] إشارة إلى التوحيد الفعليّ، لأنّ التوحيد الفعليّ لا يكون ألا بعد الإيمان بالله تعالى والخلاص عن الشرك الجليّ، لأنّ الاتّقاء بعد الإيمان والعمل الصالح لا يكون من الشرك الجليّ الذي خلص منه، بل يكون من الشرك الخفيّ، الذي «هو أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في اللّيلة الظلماء» الغير الشاعر به أكثر المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[3].

٢٩٦ - فحينئذٍ يكون تقدير الآية أنّ يقول: إنّ من اتقى - بعد الإيمان بالله والعمل الصالح والخلاص من الشرك الجليّ - عن الشرك الخفيّ، الذي هو رؤية فعل الغير في الوجود، ليس عليه جناح «فيما طعموا» أي ليس جرح فيما يفعل به من الصغائر، لأنّه من أهل التوحيد الفعليّ الغير المأخوذ بالصغائر.

ولا شكّ أنّ هذا أفضل الأعمال الصالحة، لأنّه إيمان بعد إيمان، وتقوى بعد تقوى، لأنّ الإيمان الأوّل إيمان بوجوده مع العمل الصالح من القيام بالأركان الخمسة والاجتناب عن المحارم الشرعيّة، والإيمان الثاني إيمان برؤية الأفعال كلّها منه مع الاتّقاء عن الشرك الخفيّ.

وهذا أعظم من الأوّل، لأنّ هذا مرتبة الخواصّ، وذاك مرتبة العوامّ، والتفاوت بينهما ظاهر.

٢٩٧ - وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا﴾[4] إشارة إلى التوحيد الصفاتي، لأن بعد التوحيد الفعليّ لا يكون إلا التوحيد الصفاتيّ. ومعناه أنّ من اتّقى من المؤمنين المذكورين - بعد الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح المعلوم والتوحيد الفعليّ المذكور - عن اثبات الصفات لغير الله واثبات الصفات الزائدة له أيضاً، وصل إلى التوحيد الصفاتيّ، وآمن بالله بالإيمان الحقيقيّ المسمّى بالدين القيّم لقوله تعالى:

---

(١) سورة النساء: الآية، ١٣٦.

(٢) سورة النساء: الآية، ١٣٦.

(٣) سورة يوسف: الآية، ١٠٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] أي لا يعلمون ذلك. والحمد ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾! لأنّهم لو علموا، لأنكروا عليه وتصدّوا لصاحبه، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[2] وإليه أشار بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

٢٩٨ - وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4] إشارة إلى التوحيد الذاتيّ ونهاية المراتب ومقام المشاهدة، لأنّ بعد التوحيد الصفاتيّ لا يكون إلا التوحيد الذاتيّ. وتقديره أنّه تعالى يقول: «إن من اتقى منكم» بعد حصول هذه المراتب، عن اثبات وجود الغير مع وجوده تعالى ومشاهدة ذات الغير مع ذاته، بحيث لا يشاهد غيره وغير ذاته، لا ذهناً ولا خارجاً، فقد وصل إلى التوحيد الذاتيّ الذي هو أعلى مراتب التوحيد، وأحسن بذلك إلى نفسه، لأنّ شرفها ليس إلا به.

٢٩٩ - وبسبب (أنّ) هذا المقام كان نهاية مراتب السالكين وأقصى مدارج العارفين، قيّده بالإحسان الذي هو مقام المشاهدة الجليّة وقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5] ومعناه أنّه ينبّه عباده، إمّا على طريق الأمر أو على طريق الوصف - بكسر السين في الأول وبفتحها في الثاني - أعني أنّه يأمرهم بعد الإيمان بالتوحيد الفعليّ وحصوله، كذلك بالتوحيد الوصفيّ والتوحيد الذاتيّ، بتحصيل مقام الإحسان، الذي هو مشاهدته في المظاهر الآفاقيّة والأنفسيّة ويحرضهم عليه بقوله: ﴿وَأَحْسَنُوٓا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي اجتهدوا في تحصيل هذا الإحسان، فإنه يحبّ أمثالكم من المحسنين.

أو يكون تقديره أنه يصفهم بأنهم بعد حصولهم (في مراتب) التوحيد الفعلي والوصفيّ والذاتيّ «أحسنوا» أي أحسنوا إلى غيرهم بإرشادهم إلى ذلك. وهذا عبارة عن مرتبة التكميل و«السفر الرابع» الذي هو مقام الأنبياء والأولياء والكمّل.

---

(١) سورة يوسف: الآية، ٤٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية، ٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠١.

(٤) سورة النمل: الآية، ٧٦.

(٥) سورة البقرة: الآية: ١٩٥.

وهذا أعظم من الأول، لأنّه يقع متعدّياً إلى الغير، والنفع المتعدّي إلى الغير، بالاتّفاق، أعظم من النفع الغير المتعدّي.

٣٠٠ - وأمّا أنّ الإحسان هو مقام المشاهدة، (فذلك) باتّفاق المحقّقين كلّهم، ولقول النبي ﷺ حين سئل عن الإحسان: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وأنك لم تكن تراه، فهو يراك**». وهذا ليس إلا مقام المشاهدة المذكورة.

٣٠١ - وإذا عرفت ترتيب مراتب الإيمان والتقوى والتوحيد أيضاً، فقس عليه ترتيب مراتب الكفر والشرك المذكور في الآية المتقدّمة، فإنّك تجدها حذو النعل بالنعل، لأنّه تعالى بإزاء كّل إيمان أثبت كفراً، وبإزاء كلّ توحيد ذكر شركاً.

والآيات الدالّة على التوحيد ومراتبه المذكورة في القرآن كثيرة، ستعرف بعضها في غير هذا الموضع، إن شاء الله تعالى.

٣٠٢ - وإذ فرغنا من بيان كيفيّة التوحيد الوجوديّ بهذه الوجوه، التي هي أحسن الوجوه، فلنشرع فيه بوجه آخر، وهو وجه التفصيل والتمثيل، وذكر القوابل والفواعل، وبيان السعادة والشقاوة في الدارين اختصاراً، بعون الله وحسن توفيقه ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[1].

٣٠٣ - الوجه السادس، وهو وجه التفصيل والتمثيل: اعلم أنّ لهذا الوجود، أو الحقّ تعالى، الذي ثبتت وحدته واطلاقه وبداهته، كمالات وخصوصيات ذاتيّة لا إلى نهاية، (وهي) المسمّاة بلسان القوم: «بالشؤون الذاتيّة» وهي دائماً تطلب منه بلسان الحال الظهور في الخارج بحكم اسمه «الظاهر»، كما أنّ ذاته دائماً تطلب منه الخفاء بلسان الحال بحكم اسمه «الباطن».

فظهوره وكثرته وتقييده من اقتضاء اسمه «الظاهر»، وخفاؤه ووحدته واطلاقه من اقتضاء اسمه «الباطن»، وهو «الأوّل» بحسب «الباطن»، و «الآخر» بحسب «الظاهر».

وليس في الأوّل والآخر والظاهر والباطن إلا هو ومظاهره ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

---

(١) سورة هود: الآية، ٩٠.

(٢) سورة الحديد: الآية، ٣.

٣٠٤ - وإليه أشار القوم في قولهم: «ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالكلّ هو وبه ومنه وإليه».

ولا يلزم من هذا نقص في صفاته، ولا قدح في اطلاقه، لأنّه الآن كما كان في الأزل، والأزل أيضاً عبارة عن هذا المقام. وإلاّ كلّ آنٍ أزلٌ بالنسبة إلى ما بعده، والذي ما بعده أبدٌ بالنسبة إلى ما قبله.

والأزل عين الأبد، والأبد نفس الأزل. والأوّل عين الآخر، والآخر عين الأوّل. وكذلك جميع الاعتبارات من الظاهر والباطن وغير ذلك.

٣٠٥ - وسبب ذلك هو أنّ كل ذلك من كمالاته الذاتيّة وخصوصيّاته الوجوديّة، أعني طلبُ كمالاته وخصوصيّاته الظهور في الخارج بلسان الحال أزلاً وأبداً، هو من اقتضاء ذاته ووجوده.

واقتضاء الذات لا ينفكّ عن الذات أزلاً وأبداً. وكذلك ظهوره بصور الكثرة الخلقيّة، فإنّه أيضاً من كمالاته الذاتيّة وخصوصيّاته الغير المتناهية الوجوديّة الأزليّة الغير القادحة في كمال وحدته وصرافة ذاته.

وليس في هذا نقص أصلاً، كما تصوّر المحجوب عنه، بل هو كمال في كمال وشرف في شرف.

٣٠٦ - والذي أشار إليه تعالى في قوله: «كنت كنزا مخفيّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق» فهو بالنسبة إلى هذا السر، أي سر طلب كمالاته الظهور في الخارج على الوجه المذكور لا غير، لأن خفاءه تعالى وكمونه ليس إلا بالنسبة إلى الظهور في صور المظاهر، وظهوره وكثرته ليس إلا بالنسبة إلى البطون والوحدة، المعبّر عنهما بالذات والوجود.

ولهذا لا يتصوّر في ظهوره آن ولا زمان ولا تقدّم ولا تأخّر، لأنّه ليس مخصوصاً بزمان ولا آن حتّى يتصوّر فيه مثل ذلك، بل هو واقع أزلاً وأبداً.

٣٠٧ - وليس تقدّمه تعالى على المظاهر إلا التقدّم بالذات، كتقدّم الأمس على اليوم، وتقدّم الشمس على شعاعها، أعني ليس هناك إلا ذات واحدة؛ والأسماء والصفات، والظهور والبطون، والأوّل والآخر، والوحدة والكثرة، وأمثال ذلك أمورٌ اعتباريّة لا تحقّق لها في الخارج، ولا يتصوّر فيها تقدّم ولا تأخّر، بل هو لسان

العبارة وطريق الإشارة، تفهيماً للسامع وتنبيهاً له، ليعرف بذلك ترتيب الظهور وكيفيّة مظاهره، والفرق بينهما وجوداً واعتباراً؛ ويعرف أيضاً أنّ كمالاته المخفيّة الباطنة المقتضية للظهور، طلبت هذا الظهور منه بلسان الحال؛ ويعرف أنّ هذا الطلب وأنّ هذا الظهور لا ينقطعان أزلاً وأبداً، لأنّه من اقتضاء الذات، واقتضاء الذات لا ينفكّ عن الذات أصلاً.

٣٠٨ - وإذا عرفت هذا، فينبغي أن تعرف أيضاً أنّ من جملة كمالاته تعالى هو **أن يظهر بصورة كلّ ممكن ومعناه، وبصورة كلّ ما يمكن أن يفرض وجوده أو لا يفرض، لا إلى نهاية؛ ولا يتكرّر شيء** من هذه الصور ولا (من) معانيها بوجه من الوجوه ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾(١) ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(٣).

إشارة إلى هذا المعنى. وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٤) كذلك.

٣٠٩ - ومثال ذلك بعينه مثال البحر مع أمواجه، لأنّ البحر ما دام أن يكون بحراً، لا ينفكّ عن الموج و(لا) الموج عنه.

ومع أنّه كذلك، لا يمكن ظهوره بصورة موج إلا على خلاف صورة موج آخر، لأنّه لا يمكن ظهور موجين متّحدين في الوضع والصورة، بحيث لا يفرّق بينهما بوجه من الوجوه. وهذا ظاهر. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٥).

٣١٠ - ومن معيّة البحر من الموج، ومعيّة الموج مع البحر، ووحدة حقيقتهما عند التحقيق، يظهر سرّ التوحيد ظهوراً تامّاً كاملاً، بحيث لا يمكن أظهر منه، لكنّ (ذلك لا يكون إلا) لأهله، لا للمحجوب المطروح في الدرك الأسفل من الجهالات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٦) وفيه (أي في هذا المعنى) قيل، شعر:

---

(١) سورة الروم: الآية، ٢٩.
(٢) سورة الأنعام: الآية، ٩٦.
(٣) سورة الرحمان: الآية، ٢٩.
(٤) سورة ق: الآية، ١٥ .
(٥) سورة النحل: الآية، ٦٠.
(٦) سورة ق: الآية، ٣٦.

البحر بحر على ما كان من قدم إنّ الحوادث أمواج وأنهار
لا يحجبنّك أشكال يشاكلها عمّن تشكّل فيها فهي أستار

٣١١ - فحينئذٍ كما لا يكون موج إلا ويكون البحر ظاهراً فيه بصورته ومعناه، فكذلك لا يكون موجود إلا ويكون الحقّ ظاهراً بصورته ومعناه، أعني لا تُرى صورة ولا يُتصوّر معنى إلا وتكون تلك الصورة صورته (أي صورة الحقّ) وذلك المعنى معناه، لأنّه ليس في الوجود إلا هو وصورته ومعناه، وليس الكمال صورة ومعنى إلا له ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وهذا معنى قولهم: «أحد بالذات، كلّ بالأسماء»، ومعنى قولهم: «حجب الذات بالصفات، والصفات بالأفعال، والأفعال بالأكوان» وغير ذلك من الأقوال.

٣١٢ - وإلى ظهوره بصور الموجودات كلّها، بعد الحديث المذكور - وهو قوله: «كنتُ كنزاً مخفياً» - أشار بقوله أيضاً، «العظمة ازاري والكبرياء ردائي» ليعلم أنّه لا يحتجب بغيره، وأنّ غيره ليس بموجود، لأنّه لو كان موجوداً بالحقيقة، لكان حجاباً على وجهه الكريم، وأقلّ ذلك (كونه) حجاباً على أحديته الذاتيّة المشار إليها في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2]، وليعلم أنّ جميع الموجودات إزاره ورداؤه.

وهذا الكلام آية دالّة على معنى قولهم: «أحد بالذات، كلّ بالأسماء»، بل على جميع ما قلناه، من أنّ ظهوره بصور المظاهر من اقتضاء ذاته ولوازم وجوده وغير ذلك من الإشارات المتقدّمة ذكرها، لأنّ الإزار والرداء عبارتان عن المظاهر المسبولة على وجه ذاته المقدّسة وجمال وجوده المطلق دائماً أبداً، لا غير. وإلا، فهو تعالى منزّه على الإزار المتعارف بين الناس.

٣١٣ - وفي هذا ورد أيضاً في الخبر: «إنّ لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» لأنّ غير مظاهره ليس هناك شيء يحجبه، مع أنّه ليس بمحجوب في الحقيقة، لأنّه - عند التحقيق - في غاية الظهور كما ستعرفه، إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ٥٢.
(٢) سورة الشورى: الآية، ٩.

ونسبة المحجوب عنه كنسبة الخفافيش إلى الشمس، فإنّ الشمس في غاية الظهور، لكنّ الخفافيش من عمائهم يقولون: إنّ الشمس معدومة أو مظلمة.

وإلى كمال ظهوره ومظاهر أسمائه وصفاته وخفاء العالم، بل إلى عدمه واستتاره، أشار الشيخ الكامل محيي الدين (بن) العربيّ - قدّس الله سرّه - بإشارة لا يمكن أحسن منها وهي أنّه قال: «إنّ العالم غيب لم يظهر قطّ، والحقّ تعالى هو الظاهر ما غاب قطّ. والناس في هذه المسألة على عكس الصواب، فيقولون: العالم ظاهر والحقّ تعالى غيب.

فهم بهذا الاعتبار في مقتضى هذا التنزّل، كلّهم عبيد للسوى، وقد عافى الله بعض عبيده عن هذا الداء والحمد لله».

٣١٤ - وأمّا الحصر في السبعين أو (في) غيره من الأعداد، فهو للتكثير والتنبيه. وإلا فالمظاهر المسمّاة «بالحجاب» و «الإزار» و «الرداء» وغير ذلك، غير متناهية ولا منحصرة في عدد من الأعداد.

وليست عظمته ولا كبرياؤه - جلّ جلاله وعظم شأنه - إلا ظهوره بصور هذه المظاهر الغير المنقطعة ولا المنحصرة في عدد.

وأيّ عظمة تكون أعظم من هذه؟ وأيّ كبرياء يكون أعلى منه؟.

٣١٥ - والدليل على دوامها وعدم انقطاعها، أي دوام المظاهر وأبديتها، تسميتها بالعظمة والكبرياء، لأنّ عظمة الله وكبرياءه لا ينفكّان عن ذاته، وذاته باقية أزلاً وأبداً.

فتكون المظاهر كذلك، لأنّها من اللوازم، ولوازم الشيء لا تنفكّ عنه، كما عرفته. وإليها أشار أيضاً في كتابه، وسمّاها بالكلمات وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[1] وكذلك (سمّاها) بالمشكاة والمصباح والزجاجة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] إلى آخره، لأنّ كلّ ذلك إشارة إلى مظاهره، كما سنشير إليه في الأصل الثاني مفصّلاً.

---

(١) سورة الكهف: الآية، ١٠٩.

(٢) سورة النور: الآية، ٣٥.

٣١٦ - والعجب كلّ العجب، أنّه أشار إلى هذا الاستتار بالظهور، وإلى هذا الخفاء بالسفور في قوله: «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف**».

ومعناه أنّي كنت كنزاً مخفيّاً مستوراً؛ فأردت أن أظهر بصورة الخلق، وأبرز بتعيناتهم؛ فظهرت بصورهم، وبرزت بتعيناتهم؛ وليس فيهم غيري.

فكأنّه أراد بذلك أنّ استتاره عينُ ظهوره، وخفاءه محض سفوره، كما تقدّم تقريره، مع أنّ ظهوره ليس مانعاً عن بطونه، ولا بطونه عن ظهوره، ولا كثرته عن وحدته، ولا وحدته عن كثرته.

أعني: **هو ظاهر في** عين الباطن، باطن في **عين الظاهر**، كثير في عين الواحد، واحد في عين **الكثير**، كما قال العارف بذلك، شعر:

جَمِّعْ وفرّقْ فإنّ العين واحدة وهي الكثيرة لا تبقى ولا تذر

٣١٧ - وقد أشار القوم إلى هذا المعنى نظماً ونثراً.

أمّا النثر، فكقولهم: «**سبحان من اختفى بشدّة ظهوره وظهر بشدّة خفائه**».

وكقولهم: «**سبحان من علا في دنوّه ودنا في علوّه، وبطن في ظهوره وظهر في بطونه**». وكقولهم: «**سبحان المتجلّي من كلّ جهة، المتخلّي عن كلّ جهة**».

وكقولهم: «**كلّ ظاهر في مظهر يغاير المظهر من وجه أو وجوه إلا الحقّ، فإنّ له أن يكون عين الظاهر وعين المظهر**».

٣١٨ - وأمّا النظم، فكقولهم:

بدتَ باحتجاب واختفتَ بمظاهر على صيغ التكوين في كلّ برزة

وقولهم:

ظهرتَ فلا تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمرا

لكن بطنتَ بما أظهرتَ محتجباً فكيف يعرف من بالعرف مستترا

وقولهم:

والخلق كلّهم أستار طلعتها والأمر أجمعهم كانوا لها نقبا

ما في التستّر في الأكوان من عجب بل كونها عينها فيما ترى عجبا

وكقولهم:

سبحان من أظهر ناسوته سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثمّ بدا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل الشارب

وكقولهم:

توهمت قدماً أنّ ليلى تبرقعت وأنّ لثاماً دونها يمنع اللثما
فلاحت فلا والله! ما كان حجبها سوى أنّ طرفي كان عن حسنها أعمى

٣١٩ - وإلى مجموع ذلك - أعني ظهوره وبطونه وكثرته ووحدته والجمع بينهما، والظهور بصور التضادّ والقيام بالمتباينات والأضداد، وغير ذلك من الغرائب والعجائب في ظهوره بصور المظاهر المختلفة مع اتّحاده بها - أشار قطب أقطاب أرباب التوحيد، سلطان الأولياء والوصيّين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، عليّ بن أبي طالب عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيّات - في مواضع شتّى، منها قوله: «ولا يجنه البطون عن الظهور، ولا يقطعه الظهور عن البطون، قرب فبان، وعلا فدان، وظهر فبطن، وبطن فعلن، دان ولم يدن».

٣٢٠ - ومنها قوله: «الذي لم يسبق له حال حالاً فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً، كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل» إلى قوله: «وكل ظاهر غيره غير باطن، وكل باطن غيره غير ظاهر» إلى قوله: «لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن».

٣٢١ - ومنها قوله: «الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليّته، وباشتباههم على أن لا شبه له؛ لا تشمله المشاعر، ولا تحجبه السواتر لافتراق الصانع والمصنوع، والحادّ والمحدود، والربّ والمربوب؛ الأحد لا بتأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركة ونصب، والسميع لا بأداة، والبصير لا بتفريق آلة، والشاهد لا بمماسّة، والبائن لا بتراخي مسافة، والظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة؛ بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها؛ وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه».

٣٢٢ - وأقواله في هذا الباب كثيرة، سيجيء ذكرها في موضعه مع شرحها. وأمّا بقدر هذا المقام، فمعنى قوله الأوّل: «ولا يجنّه البطون عن الظهور، ولا يقطعه

الظهور عن البطون» هو أنّه ليس هناك شيئان متغايران، حتّى يمنعه الأوّل عن الثاني كما لغيره، لأنّ غيره بالضرورة ظهوره يمنعه عن البطون، وبطونه عن الظهور؛ بل ليس هناك في الحقيقة إلا شيء واحد، وهو وجوده.

فإذا اعتبرته إلى الظهور، فهو ظاهر؛ وإذا اعتبرته إلى البطون، فهو باطن. وكذلك (الشأن) بالنسبة إلى **«الأوّل»** و«الآخر» وبالنسبة إلى جميع الصفات أيضاً كذلك، كما عرفته مراراً. فيكون (الحقّ تعالى) أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً، بلا تغيير شيء في ذاته ووجوده.

٣٢٣ - وأكّد ذلك بقوله عقيبه: **«ظهر فبطن، وبطن فعلن، دانٍ ولم يدن»** ليعلم أنّ ذلك من كمالاته المذكورة ومن خصوصيّاته المعلومة، أي ظهوره في نفس بطونه، وبطونه في نفس ظهوره، ودنوّه في عين علوّه، وعلوّه في عين دنوّه. وكذلك (الأمر) بالنسبة إلى جميع الاعتبارات المختلفة والمراتب المتضادّة.

٣٢٤ - ومعنى قوله الثاني: **«الذي لم يسبق له حالاً»** إلى آخره، هو أنّه يشير إلى عدم الزمان واعتباره في أوليّته وآخريّته وظاهريّته وباطنيّته، وعدم التكيّف في ذاته ووجوده، وعدم تقدّم كلّ واحد من هذه الاعتبارات على الآخر بالزمان.

و(يشير هذا القول أيضاً) إلى أنّه تعالى واحد في عين الكثرة، كثير في عين الوحدة، لقوله: **«وكلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل»** إلى آخره، لأنّ كلّ مسمّى غيره بأنه واحد، يكون قليلاً، لأنّه لا يكون إلا «واحداً» من العدد، أي فرداً من الأفراد، لأنه إذا تعدّى الوحدة دخل في الاثنينيّة، فلا يكون واحداً بل يكون اثنين، والواحد قليل لأنه أقلّ العدد. فيكون تقديره: أنّ كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل إلا هو تعالى، فإنّه واحد كثير، لقوله أيضاً: **«الأحد لا بتأويل عدد»**.

وأكّد هذا القول بقوله: **«وكل ظاهر غيره غير باطن وكل باطن غيره غير ظاهر»** ليعلم أيضاً أنّه تعالى في جميع الاعتبارات كذلك، لا في الوحدة والكثرة فقط.

٣٢٥ - وأكّد هذا القول بقول آخر: **«لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال هو فيها بائن»** ليعلم أنّه ليس هذا بحلوله في الأشياء ولا بتباعده عنها حقيقةً، بل بأنّه ظهر بصور كمالاته وخصوصيّاته المسمّاة بالمظاهر، وليس غيره فيها حقيقةً واعتباراً. فحينئذٍ يكون هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن والواحد

والكثير والقريب والبعيد، أي (هو) الأول من حيث الذات؛ الآخر من حيث الأسماء والصفات؛ الظاهر من حيث الكمالات والخصوصيّات؛ الباطن من حيث الوجود والذات. وكذلك الواحد والكثير والقريب والبعيد.

٣٢٦ - ويشهد بمجموع ذلك قوله الثالث، لا سيّما قوله: **«والشاهد لا بمماسّه، والبائن لا بتراخي مسافة، والظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة.** بان من الأشياء **بالقهر لها والقدرة عليها. وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه»** لأنّ هذه إشارة إلى أنّه ليس بينه وبين مظاهره تباعد بحسب المكان، بل بحسب الاعتبار الذي هو القهر والقدرة، وكذلك من طرف المظاهر الذي هو الخضوع له والرجوع إليه، بعد سقوط الاعتبار. وهذا هو المطلوب من هذا البحث كلّه. وسيجيء بيان أقواله في موضعه (على نحو) أبسط من ذلك في الأصل الثالث، كما وعدت به مرة أخرى. وهذا آخر أقواله المذكورة في «نهج البلاغة» باتّفاق أصحابنا بأجمعهم.

٣٢٧ - وأمّا أقواله التي ليست مذكورة في «النهج»، وهي مشهورة، فهو قوله المذكور في «المقدّمة»، المخاطب به كميل بن زياد رضي الله عنه الذي هذا أوّله في سؤاله عنه **«ما الحقيقة؟ - قال: ما لك والحقيقة؟.**

- قال: أو لست صاحب سرّك؟.

- قال: بلى! ولكن يرشح عليك ما يطفح منّي!.

- قال: أو مثلك يخيّب سائلاً؟.

- قال: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة.

- قال: زدني فيه بياناً.

قال اطفِ السراج، فقد طلع الصبح!».

٣٢٨ - وهذا الكلام له معانٍ كثيرة، قد ذكرها الشرّاح في شروحهم. وأمّا معناه اجمالاً، فهو أنّه يشير إلى ظهوره تعالى بصور المظاهر، وعدمها مع ثبوتها، لأنّ قوله: **«كشف سبحات الجلال من غير إشارة»** إشارة إلى رفع الكثرة الاسمائيّة بعد رفع الكثرة الخلقيّة المعبّر عنهما بالمظاهر، وإلى اثباتها وتحقيقها من غير إشارة، عقليّة كانت أو حسيّة. وهذا رمز حسن يشير إلى إحاطته تعالى واطلاقه، لأنّ المحيط المطلق لا يكون قابلاً للإشارة أصلاً ورأساً، لأنّ (ذلك) ليس بممكن، بل هو ممتنع

مستحيل. وقيّد «السبحات» بالجلال دون الجمال، لأنّ الجلال مخصوص بالأسماء والصفات، والجمال بالذات فقط؛ أو القهريّة واللطيفة - كما عرفته - وعلى كلا التقديرين «سبحات الجلال» كان أنسب بالتقدّم من «سبحات الجمال» لأنّه لا يمكن كشف «سبحات الجمال» إلا بعد (كشف) «سبحات الجلال».

وهذا سير من الكثرة إلى الوحدة ومن الخلق إلى الحقّ، وهذا حسن جدّاً عند الكثيرين.

٣٢٩ - وقوله: «محو الموهوم مع صحو المعلوم» أيضاً كذلك إشارة إلى رفع المظاهر ومشاهدة الظاهر فيها حقيقةً، لأنّ السالك إذا شاهد محوية الموهومات التي هي عبارة عن الغير، المسمّى بالمخلوقات - الذي ليس إلا نقشاً خالياً موهوماً استقرّ ورسخ باستيلاء قوة الوهم واستيلاء الشيطان عليه - و (شاهد) ارتفاعها عنه بالكليّة، صحا معلومه الذي هو الحقّ تعالى من الشكوك والشبهات الوهميّة، وخلص عن الحجاب بالكليّة، أعني صحت سماء قلبه وروحه من غمام الكثرة الخلقيّة كصحو السماء من الغمام، وظهر له الحقّ من بينه كظهور الشمس بعد إزالة السحاب عن السماء، وشاهد الحقّ كمشاهدة القمر ليلة البدر، لقول النبي ﷺ: «**ستروون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر**».

٣٣٠ - وقوله: «**هتك الستر لغلبة السرّ**» له معنيان:

الأوّل: (أنّه) إذا غلب عليه هذا السرّ، لا يقدر أن يمسك روحه باخفائه، كالحلاج وغيره؛ بل لا يبالي باظهاره، ويمكن أن يكون بغير اختياره كأفعال السكران، في صورة الظاهر؛ وإليه أشار بقوله: «**ولكن يرشح عليك ما يطفح منّي**».

المعنى الثاني: أنّه إذا غلب عليه هذا السرّ، لا يلتفت إلى الاستار التي هي المظاهر، ولا يشاهد إلا الظاهر فيه.

فيكون المراد به حينئذٍ رفع الأستار عن وجه المحبوب، وهتكها بالكليّة، أي كشفها ورفعها عنه.

وهذا المعنى أنسب من الأوّل بالنسبة إلى الذي نحن في صدد اثباته.

٣٣١ - وقوله عقيبه: «**جذب الأحديّة بصفة التوحيد**» يشهد بذلك أيضاً، لأنّه يقول: إنّ بعد ذلك تجذبه الأحديّة الذاتيّة الغير القابلة للكثرة إلى التوحيد الصرف

والوحدة المحضة، التي هي حضرة الجمع ومقام فناء المحبّ في المحبوب الآتي بيانه. ولذلك إذ تعدّى هذا المقام، شرع في كيفيّة ظهوره وتفاصيله الذي هو مقام الفرق بعد الجمع.

وقال: «نور يشرق من صبح الأزل، فتلوح على هياكل التوحيد آثاره» أي (أنّ) الحقّ المسمى بالحقيقة هو نور يشرق، أي يظهر من طرف صبح الأزل الذي هو الذات المطلقة، فيلوح على «هياكل التوحيد» أي فيظهر على مظاهر الوجود كلّها بآثاره وأفعاله وكمالاته وخصوصيّاته. وهذا اخبار عن ظهور الذات في مظاهر الأسماء والصفات أزلاً وأبداً، وشهود الوحدة في صور الكثرة، وشهود الجمع في عين التفاصيل ووجود التفاصيل في عين الجمع المتقدّم ذكره، الذي لا مقام فوقه ولا شهود ما وراءه، المعبّر عنه بقوله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً». ويقول غيره: «ليس وراء عبّادان قرية».

٣٣٢ - ولهذا إذ طلب زيادة البيان على ذلك، قال: «اطف السراج، فقد طلع الصبح» يعني اطف سراج العقل والسؤال بلسانه عند طلوع صبح الكشف ومشاهدة وجه الحقّ فيه، لأنّ الكشف غنيّ عن العقل وادراكه، كما أنّ الصبح غنيّ عن السراج واشراقه، والعيان لا يحتاج إلى البيان «وليس الخبر كالمعاينة».

٣٣٣ - وإن قلتَ: هذه كلمات غيرية عجيبة متناقضة، ما نفهم معناها ولا نجد السبيل إليها، فقل لنا بوجه أوضح منها، أو في صورة مثال قريب إلى الذهن، بحيث نفهمه ونصل منه إلى مقصودنا ومطلوبنا، لأنّا نحن ما نشاهد إلا هذا العالم وهذه الكثرات المتباينة المختلفة (التي هي) في معرض الزوال والتغيّر، وما نعرفها إلا أنّها غير الحقّ وأنّها مخلوقة، وأنت تقول أنّها حقّ، وأنّه ليس في الوجود إلى الحقّ تعالى، وكلّ ذلك مظاهر، وليس بينه وبين مظاهره فرق في الحقيقة، وهذا أمر صعب وكلام دقيق ما نعرف معناه، ولا نفرّق بين هذه الكثرات وبين الحقّ تعالى إلا بالوجه الذي قلناه وبينهما بون بعيد.

٣٣٤ - قلتُ: هذا أمر سهل، وادراكه في غاية السهولة، ومعناه في غاية الوضوح، وقد مرّ مراراً ذكره. لكن أنت بعدُ في ظلمات الطبيعة ودركات البشريّة، بل (في) أسفل سافلي (درجات) التقليد، الذي هو أعظم الحجب.

وبالحقيقة أنت - بالنسبة إلى هؤلاء القوم الذين يفهمون هذا المعنى - كالجنين المقيّد في حبس المشيمة بالنسبة إلى الطفل المميّز، أو كالطفل المميّز بالنسبة إلى الشخص العاقل، أو كالشخص العاقل بالنسبة إلى العالم، أو كالعالم بالنسبة إلى العارف، أو كالعارف بالنسبة إلى الوليّ الكامل، أو كالوليّ بالنسبة إلى النبي؛ وبين هذه المراتب تفاوت كثير.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1]، حتى لا يطمع فيه أرباب القشور الذين هم أهل الظاهر وأهل العقول، لأنّهم - بالنسبة إلى الأنبياء والأولياء والكمّل الذّين هم أولوا الألباب - كالقشر بالنسبة إلى اللبّ.

ومع ذلك (ها نحن) نشرع فيه مرّةً أخرى، بل مراراً، بأحسن الوجوه وألطف الأمثلة، ونجتهد في ايصاله إلى ذهنك؛ ونتّكل فيه على الله تعالى.

٣٣٥ - فنقول: اعلم أنّك إذا تحققت أن الوجود واحد، وأنّه مطلق غير مقيّد، وأنّ المقيّدات مضافة إليه، عرفت أنّ المقيّدات ما لها وجود حقيقةً، لأنّ وجودها إضافة نسبيّة، لأنّه عبارة عن إضافة المطلق إلى المقيد، التي (أي هذه الإضافة) لا تحقّق لها في الخارج. وعرفتَ أيضاً أنّ المطلق هو المقيّد (بعينه ولكن) بوجه آخر، وأنّ المقيّد (هو) مطلق مع قيد الإضافة، و (أنّه) ليس في الخارج إلا المطلق، لأنّك لو أسقطت الإضافة بالنسبة إلى جميع الموجودات، لوجدت الوجود على صرافة وحدته ومحض اطلاقه، ووجدت المقيّد موجوداً بالمطلق، معدوماً بدونه. وهذا معنى قولهم: «**التوحيد اسقاط الإضافات**».

٣٣٦ - ومثال ذلك بعينه - أي مثال ذلك المطلق مع المقيّد ووجوديّته ومعدوميّته - مثال الشمس مع الظلال الموجودة بواسطتها حين ظهورها وحين خفائها، لأنّ الظلال ليس لها وجود، مع أنّ الشمس إذا ظهرت بنفسها لم يبق للظلال وجود، فوجودها بالشمس؛ ولكن تغيّبها (أي تميّزها) عنها بجرمها وشعاعها، لأنّها إذا ظهرت بجرمها وشعاعها، فنيت الظلال و (تلاشى) وجودها بأسره.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢١.

وإذا غابت عنها بالذات والجرم، وظهرت لها بالأثر، بقي وجودها على قراره، وصارت ظلّاً متعيّناً به، أي بوجود الظليّة.

فالوجود بالحقيقة ليس إلا للشمس وأثرها، والظلال ليس لها إلا الاسم والاعتبار، والاسم والاعتبار أمران عدميّان، ليس لهما وجود في الخارج.

فكذلك وجود جميع الموجودات بالنسبة إلى الحقّ، لأنّ الحقّ إذا ظهر بوجوده لم يبق للخلق وجود، لأنّ وجوده الخلق - كما تقدّم - ليس إلا وجوداً إضافيّاً اعتباريّاً، والإضافيّة والاعتباريّة غير موجودتين في الخارج.

٣٣٧ - فالوجود الحقيقيّ لا يكون إلا للحقّ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(١)] أعني كلّ شيءٍ مضاف إليه هالك في نفس الأمر إلا ذاته، فإنّها باقية أبداً؛ ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي له البقاء الحقيقيّ الأبديّ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه ترجع الموجودات بعد طرح إضافته.

والوجه بالاتّفاق هو الذات، فيكون حينئذٍ تقديره ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[(٢)].

ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[(٣)] وأراد بـ «عليها» حقيقة الوجود القائمة بها الموجودات.

وقد مرّ تفسير هاتين الآيتين مراراً. والحقّ إنّ هاتين الآيتين بعد قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(٤)] الآية، وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾[(٥)] إلى آخره، - (من) أعظم آيات القرآن وأشرفها في باب التوحيد وتحقيقه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[(٦)].

٣٣٨ - فإن قلتَ: هذا المثال ليس بمطابق لدعواك، لأنّك قلت: إنّ وجود

---

(١) سورة القصص: الآية، ٨٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٣) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٥) سورة فصلت: الآية، ٥٣.

(٦) سورة العنكبوت: الآية، ٤٢.

الظلال لم يبق إلا بغيبة الشمس عنه، - وقلتَ: إنّ وجود الخلق لم يبق إلا بوجود الحقّ، - بل قلتَ: الخلق حقّ باعتبار وخلق باعتبار؛ والظلال ليست كذلك، لأنّ الظلّ ليس بشمس بوجه من الوجوه، - قلتُ: يكفي في المثال (المطابقة ب) وجه واحد، وهو أنّ الظلال ليس لها وجود إلا بالشمس، وغيبتها عنها بالجرم والذات.

وكذلك الخلق (بالنسبة إلى الحق)، لأنّ الخلق ليس لهم وجود إلا بالحقّ، وغيبته عنهم ذاتاً وحقيقةً. فكما أنّ غيبة الشمس عبارة عن قيام الظلّ بنفسه وتعيّنه، وحضوره (عبارة) عن فناء الظلّ وعدمه، فكذلك غيبة الحقّ عبارة عن قيام الخلق بنفسهم وتقيّدهم، وحضوره (عبارة) عن فنائهم وعدمهم.

٣٣٩ - وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[١] إشارة إلى هذا المعنى، فافهم! فإنّه دقيق، ومع دقّته (هو) لطيف.

وهذا ليس مثلاً مضروباً ما مثّل به أحد غيري، بل جميع أرباب التحقيق ذهبوا إلى هذا.

وهذا لا يخفى على أهله، وستعرف من كلامهم ذلك، إن شاء الله تعالى. والحقّ - جلّ جلاله - أشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[٢] وليس مراده بالظل والشمس الليل والنهار، كما هو رأي أرباب التفسير، لأنّه قال عقيبه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾[٣] بل المراد بهما الوجود والعدم، كما أشرنا إليه في الأصل الثالث والثاني من هذا الكتاب. وتأويل هذه الآية طويل وتفسيرها عريض، ليس هذا موضعه.

٣٤٠ - والغرض أنّ المراد بالظلّ وتمديده الوجود الإضافيّ الممدود على الموجودات كلّها أزلاً وأبداً؛ وبسكونه اعدامه واهلاكه على الوجه المذكور آنفاً؛ وبجعل الشمس عليه دليلاً شمس الحقيقة، التي هي الوجود المطلق المسمّى بالنور

---

(١) سورة الرحمن: الآيتان، ٢٦ . ٢٧.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٤٥ - ٤٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤٧.

في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١) وبقبضه إليه عدم إضافته إليه واسقاطه؛ وبتيسيره يسر اسقاط الإضافة وابقاء الوجود على صرافة وحدته.

٣٤١ - والرجوع في مجموع ذلك (كلّه) إلى اصطلاح القوم، لأنّهم اصطلحوا في ذلك، وشرعوا أوّلاً في تعريف الظلّ وتحقيقه؛ ثمّ بعد ذلك قسّموا الظلال، فسمّوها بالأوّل والثاني؛ ثمّ شرعوا في التفصيل والتعيين.

أمّا قولهم في التعريف، فهو أنّهم قالوا: الظلّ هو الوجود الإضافيّ الظاهر بتعيّنات الأعيان الممكنة، وأحكامها التي هي معدومات ظهرت باسمه «النور» الذي هو الوجود الخارجيّ المنسوب إليها. فنفّر ظلمةَ عدميّتها النورُ الظاهر بصورها؛ فصارت (الأعيان الممكنة) ظلاً، لظهور الظلّ بالنور وعدميّته في نفسه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾(٢) أي بسط الوجود الإضافيّ على الممكنات.

فالظلمة بازاء هذا النور هي العدم؛ وكلّ ظلمة هي عبارة عن عدم النور عمّا من شأنه أن يتنوّر.

ولهذا سمّى الكفر ظلمة لعدم نور الإيمان على القلب الذي من شأنه أن يتنوّر به.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٣) الآية.

٣٤٢ - وأمّا قولهم في التقسيم والتفصيل، فهو أنّهم جعلوا العقل الأوّل «الظلّ الأوّل»، والعالم بأسره «الظلّ الثاني».

أمّا جعلهم العقل الأوّل الظلّ الأوّل، فهو قولهم: «الظلّ الأوّل هو العقل الأوّل، لأنّه أوّل عين ظهرت بنوره تعالى وقبلت صورة الكثرة التي هي شؤون الوحدة الذاتيّة. ولأنّ الإنسان الكامل المسمّى «بالإنسان الكبير» هو حقيقة هذا العقل أو العقل بنفسه، سمّوه «بظلّ الإله» فقالوا: ظلّ الإله هو الإنسان الكامل المتحقّق بالحضرة الواحديّة. وكذلك (الأمر أيضاً في) تسميتهم: «خلفاء الله» بالظلّ، في

---

(١) سورة النور: الآية، ٣٥.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

قولهم: أولئك ظلّ الله في الأرض. وكذلك ما يقال في السلاطين المجازيّين: «أنهم ظلك الله في الأرضين». وأمثال ذلك.

٣٤٣ - وأمّا جعلهم العالم بأسره «الظلّ الثاني» فهو قولهم: العالم هو الظلّ الثاني، وليس إلا وجود الحقّ الظاهر بصور الممكنات كلّها؛ فلظهوره بتعيّناتها سمّى باسم: «السوي» و «الغير» باعتبار إضافته إلى الممكنات، إذ لا وجود للمكن إلا بمجرّد هذه النسبة؛ وإلا فالوجود عين الحقّ، والممكنات ثابتة على عدمها في علم الحقّ، وهي شؤونه الذاتيّة.

فالعالم صورة الحقّ، والحقّ هويّة العالم وروحه. وهذه التعيّنات في الوجود (هي) أحكام اسمه «الظاهر» الذي هو مجلى لاسمه: «الباطن». والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

٣٤٤ - هذا آخر الوجه السادس، وإذا تحقّق هذا، فلنشرع في الوجه السابع وبيان الفواعل والقوابل، وكيفيّة السعادة والشقاوة، ورجوعهما إلى القوابل دون الفواعل، وهو هذا الوجه السابع في بيان الفواعل والقوابل.

٣٤٥ - اعلم أنّ الإلّه دائماً يطلب المألوه، والربّ (يطلب) المربوب علماً وعيناً، لأنّ الألوهيّة والربوبيّة - اللتين هما مرتبتان من مراتب الوجود - لم يثبتا إلا بهما وباعتبارهما، كما أنّ سلطنة السلطان المجازيّ لا تتحقّق إلا بالرعية والعسكر، وإن كان السلطان في نفسه يكون سلطاناً. والذي قال أمير المؤمنين عليه السلام: «عالم إذ لا معلوم، وقادر إذ لا مقدور، وربّ إذ لا مربوب» إشارة إلى هذا المعنى لا إلى عكس ما قلناه.

أعني: إشارة إلى معلوماته الغيبيّة دون الشهاديّة، ومقدوراته العلميّة دون العينيّة، ومربوباته الأزليّة دون الأبديّة، وإن كان كلّ واحد منها عين الآخر، لأنّ معلوماته ومقدوراته ومربوباته هي شؤونه الذاتيّة وحقائقه الأزليّة. والشؤون الذاتيّة والحقائق الأزليّة هي اعتبار نقوش الأعيان والحقائق والماهيّات في الذات الأحديّة، كالشجرة في النواة مع أغصانها وأوراقها وأزهارها وأثمارها. فكما أنّ الشجرة لا تنفكّ عن النواة، وإن كانت النواة غير الشجرة بوجه آخر، فكذلك الحقّ تعالى لا ينفكّ عن المعلومات وكذلك المعلومات عنه، وإن كانت المعلومات غيره بوجه آخر.

٣٤٦ - فظهور هذه المعلومات يكون في الحضرة الأحديّة اجمالاً، كظهور الشجرة في أصل الشجرة اجمالاً؛ ويكون ظهورها في حضرة الربوبية تفصيلاً، كظهور الشجرة في صورة الشجرة تفصيلاً. والتقدّم والتأخّر في شجرة الوجود، وظهور مراتبها في حضرة الذات - التي هي الحضرة الأحديّة - يكونان بتقدّم ذاتيّ (وتأخر ذاتيّ) لا غير، كتقدّم النواة على الشجرة، حين تصوّر النواة والشجرة فيها..

و(أمّا تقدّم المعلومات وتأخرها) في حضرة الأسماء والصفات - التي هي الحضرة الواحديّة أو الربوبيّة - فيكونان بتقدّم الزمان على الترتيب، شيئاً بعد شيء لكن من حيث (العلم) الجزئيّ لا الكليّ، فإنّه دفعيّ - ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾[1] ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[2] - كتقدّم أصل الشجرة على الأغصان، لأنّها تظهر شيئاً بعد شيء؛ لكنّ (هذا) بحسب (العلم) الجزئي أيضاً لا الكليّ، فإنه دفعيّ عند التحقيق، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3].

وكأنّه تعالى إلى هذه الشجرة أشار بقوله عن لسان غيره: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[4] وفي معنى هذه الشجرة لطائف وغرائب سنشير إليها في القاعدة الأولى من الأصل الثالث، إن شاء الله تعالى.

٣٤٧ - وأمّا بيان ذلك مرّةً أخرى تفصيلاً، فهو أنّ الإلّه اسم للحقّ باعتبار نسبته إلى الأعيان والحقائق العلميّة الغير المتناهية. والربّ اسم له باعتبار نسبته إلى الموجودات الخارجيّة، أرواحاً كانت أو أجساداً.

فالإلّه اسم خاصّ يقتضي وجود المألوه وتحقّقه.

والربّ اسم خاصّ يقتضي وجود المربوب وتعيّنه. وكلّ ما ظهر في الأكوان، فهو صورة اسم ربّانيّ، يربّه الحقّ به: منه يأخذ ما يأخذ، وبه يفعل ما يفعل، وإليه يرجع فيما يحتاج إليه، وهو المعطي إيّاه ما يطلبه منه: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[5]. ولولا

---

(١) سورة القمر: الآية، ٥٠.
(٢) سورة النحل: الآية، ٧٧.
(٣) سورة النحل: الآية، ٦٠.
(٤) سورة طه: الآية، ١١٨.
(٥) سورة الأنعام: الآية، ٩٦.

هذا، ما كان يصدق عليه تعالى أنه ربّ الأرباب، ولا أنّه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[(١)]، ولا ﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[(٢)]. وقد تقدّم بعض هذا البحث عند بحث توحيد الصفات وتوحيد الأفعال.

٣٤٨ - وقد جاء في كلام أهل البيت عليهم السلام وأدعيتهم أمثال ذلك كثيراً، منه قولهم: **«وبالاسم الذي خلقت به العرش؛ وبالاسم الذي خلقتَ به الكرسيّ؛ وبالاسم الذي خلقتَ به الروحانيّين؛ وبالاسم الذي خلقت به الجنّ، وبالاسم الذي خلقت به جميع الخلق؛ وبالاسم الذي خلقتَ به جميع ما أردت من شيءٍ؛ وبالاسم الذي قدرتَ به على كلّ شيءٍ»**.

وهذا دعاء طويل، ومجموعه (مركّب) على هذا الأسلوب.

٣٤٩ - والغرض أنّ جميع الموجودات - وجوداً وفعلاً - منسوبة إلى الأسماء، و (هي) مظهر لها.

أعني: (أنّ) كلّ موجود - فرض في الوجود أو لم يفرض - هو مربوب اسم من أسماء الله تعالى، و (هذا الاسم الإلّهي الخاصّ) هو ربّ له (أي لهذا الموجود).

والحقّ تعالى الذي هو الربّ الأعظم، هو ربّ لهذه الأرباب، ولهذا سمّى نفسه: بربّ الأرباب؛ وخاطب نبيّه عليه السلام من حيث أنّه أوّل موجود وأعظم مخلوق، بقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[(٣)].

وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[(٤)]. وهذا المقام أيضاً يحتاج إلى بسط عظيم وبحث طويل. فلنرجع (إلى مقصودنا) لنقول:

٣٥٠ - والذي قاله العارف: **«إنّ للربوبيّة سرّاً، لو ظهر لبطلت الربوبيّة»** كان نظره أيضاً على المعنى المذكور والسرّ المتقدّم الذي نحن بصدده، لأنّ الربوبيّة نسبة لا بدّ لها من منتسبين، وأحد المنتسبين هو المربوب، فلا يمكن (تصوّر) الربوبيّة إلا

---

(١) سورة المؤمنون: الآية، ١٤.
(٢) سورة هود: الآية، ٤٧.
(٣) سورة النجم، الآية: ٤٢.
(٤) سورة النجم، الآية: ١٨.

بالمربوب. فالسرّ في ذلك (أي سرّ الربوبيّة) احتياج الربّ إلى المربوب، وانتظام (شمل) الربوبيّة بهما (أي بالربّ والمربوب)، (وإلا) لبطلت الربوبيّة (من حيث هذه النسبة الخاصّة) بلا شكّ؛ لكن ازالة المربوب (الذي هو أحد طرفيْ الربوبيّة) محال، لأنّه من شؤونها الذاتيّة، فكذلك ازالة الربوبيّة (التي هي الطرف المقابل للمربوبيّة، محال أيضاً) فإنّ دوامها (أي دوام الربوبيّة) بدوامه (أي بدوام المربوب)، فما دام المربوب باقياً، كانت الربوبيّة باقيةً.

٣٥١ - ومعنى: «ظهر» ههنا بمعنى: «زال» و «فنى»، أي: لو زال المربوب عن الوجود مطلقاً وفنى عنه بالكليّة، لبطلت الربوبيّة، لأنّها موقوفة عليه. ولكن إزالته محال، فازالة الربوبيّة أيضاً محال.

٣٥٢ - وإن قلت: «ظهر» بمعنى: أنّه يظهر في عالمه العدميّ ويرجع إليه كما كان قبل وجوده العينيّ، - (فهذا المعنى) يجوز، ويكون تقديره حينئذٍ: لو يرجع المربوب إلى العدم الأصليّ الذي كان عليه قبل الوجود الإضافيّ، لبطلت الربوبيّة؛ لكن ما رجع (المربوب إلى العدم الأصليّ) فما بطلت الربوبيّة.

وهذا تأويل حسن (لقول: العارف المتقدّم). وكلاهما لطيف، لكنّ الأخير بعيد عن مقصد القوم، لأنّهم ما يريدون بالمربوب إلا المربوب مطلقاً، لا المربوب العينيّ فقط.

٣٥٣ - ولهذا قال العارف الآخر منهم: «إنّ لسرّ الربوبيّة سرّاً ظهر ولم يبطل». ومعنى قوله: «سرُّ سرّ الربوبيّة» هو ظهور الربّ بصور الأعيان، فهي - من حيث مظهريّتها للربّ القائم بذاته الظاهر بتعيّناته - قائمة به، موجودة بوجوده. فهم (أي: الأعيان) عبيد مربوبون من هذه الحيثيّة، والحقّ ربّ لهم.

فما حصلت الربوبيّة في الحقيقة إلا بالحقّ، والأعيان معدومة على حالها في الأزل. «فلسرّ الربوبيّة سرّ ظهر ولم يبطل». وكلا المعنيين صحيح، والغرض واحد.

٣٥٤ - وتحقيق القول هو أنّ الحقّ - جلّ جلاله - إلّه مطلق، لا بدّ له من مألوه مطلق، علماً كان (هذا المألوه) أو عيناً. وأنّه ربّ مطلق، لا بدّ له من مربوب مطلق، علماً كان (هذا المربوب) أو عيناً، لأنّ الربوبيّة والألوهيّة لا تتحقّقان إلا بهما

وبالجملة هو فاعل مطلق، لا بدّ له من قابل مطلق، لأنّ الفاعل ما لم يكن له قابل، لم يظهر فعله، بل لا يمكن ظهوره (أي الفاعل) من حيث الفعل.

٣٥٥ - وإذا ثبت هذا، فنقول: هذا المألوه، أو المربوب، أو القابل، أو المفعول، أمّا أن يكون هو، وأمّا أن يكون غيره.

فإن كان هو، فحصل المرام وثبت المطلوب، وهو أنّه ليس في الوجود غيره.

وإن كان غيره، فهذا خلاف ما أثبتناه، وهو أنّه ليس في الوجود إلا هو.

٣٥٦ - وتحقيق ذلك هو أنّ ههنا مذهبين:

الأوّل: أنّ المألوه والمربوب والقابل والمفعول (جميع ذلك) هو لا غيره، لأنّ غيره عدم صرف ولا شيء محض، (فهو اذن) ليس بقابل للمألوهيّة والمربوبيّة والقابليّة والمفعولية ولا لشيءٍ أصلاً، لا سيما الوجود.

و(المذهب) **الثاني**: أنّ (المألوه والمربوب والقابل والمفعول، جميع ذلك مقول على) الأعيان المعدومة الممكنة الوجود (والعدم) القابلة لهما، و (هذه الأعيان) هي غيره تعالى.

٣٥٧ - فعلى المذهب الأوّل: يكون هو الإلّه والمألوه، والربّ والمربوب، والفاعل والمفعول، والقابل والمقبول. أعني: يكون (الحقّ تعالى) إلّهاً من حيث الذات، مألوهاً من حيث العلم والمعلومات؛ ربّاً من حيث الذات، مربوباً من حيث الأسماء والصفات؛ فاعلاً من حيث الذات، مفعولاً من حيث الكمالات؛ قابلاً من حيث الذات، مقبولاً من حيث الخصوصيّات، لأنّ معلوماته، لأنّ العلم تابع للمعلوم، والمعلوم ذاته، وذاته جامعة لجميع المعلومات.

فيكون (الحقّ تعالى في حال كونه) عالماً بها (أي بذاته) عالماً بجميع المعلومات لها.

٣٥٨ - وأيضاً العلم إذا لم يكن إلا تابعاً للمعلوم - ومعلومه لا يكون إلا ذاته - فيكون عالماً بذاته على ما هي عليه من الكمالات.

ومن جملة كمالاته، أن يكون موصوفاً بكمالات غير متناهية وخصوصيّات غير منقطعة، وتكون هذه الكمالات والخصوصيّات طالبة منه الظهور في الخارج أزلاً

وأبداً، وأن يكون فاعلاً من وجه، قابلاً من وجه إلهاً من وجه، مألوهاً من وجه؛ ربّاً من وجه، مربوباً من وجه.

فحينئذٍ يكون له كمالُ أن يكون العالم والمعلوم، والإلّه والمألوه، والربّ والمربوب، والفاعل والمفعول، والقابل والمقبول، وغير ذلك من المراتب المتقابلة التي لا يمكن اتّصاف غيره بها.

٣٥٩ - **وهذا كمال على كمال، وعزّ على عزّ، لا كما تصوّر** المحجوب عنه وقال: **إنّه نقص ومذلّة - تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً - لأنّ هذا** (القول المتقدّم) **حكمٌ بأن لا يكون كمال إلا له تعالى ولا عزّ إلا لجنابه، لأنّ غيره** عدم صرف ولا **شيء محض، ولا وجود له حتّى يكون له كمال أو عزّ، جلّ** جنابه عن الشريك والنظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[2].

٣٦٠ - **وأمّا نقص المعلومات وكمالاتها التي هي الأعيان والقوابل والمألوه والمربوب، فيرجع إليها لا إلى العالِم بها. وكذلك** (الشأن فيما يخصّ) **شقاوتها وسعادتها، لأنّ العالِم ما جعل المعلوم ثمّ صار عالماً به، بل كان عالماً به على ما هو عليه أزلاً وأبداً.**

لأنّ العلم تابع للمعلوم، كما مرّ.

فالعالِم به (أي بالشيء المعلوم) **لا يعلمه إلا على الوجه الذي هو عليه، من الكمال والنقص وغير ذلك.**

وهذا معنى قول المحقّقين: إنّ الحقائق (أي ماهيّات الأشياء) **ليست بجعل الجاعل. فحينئذٍ كما أنّ كمالات الفواعل - التي هي الأسماء - ونقصها، بنسبة بعضها إلى بعض، ترجع إليها** (أي إلى ذات الحقّ)، **فكذلك كمالات القوابل - التي**

(١) سورة الشورى، الآية: ٩.

(٢) سورة بني إسرائيل، الآية: ١١١.

هي الأعيان والحقائق - ونقصها، بنسبة بعضها إلى بعض، ترجع إليها (أي إلى الأعيان الممكنة نفسها).

وكما أنّ الأسماء التي هي الفواعل غير متناهية، فكذلك القوابل التي هي الأعيان، فإنّها أيضاً غير متناهية.

٣٦١ - **والتحقيق في هذا المقام هو أنّ الفاعل المطلق الذي هو الحقّ - جلّ جلاله - منزّه عن النقص والكمال، لأنّ النقص والكمال أمران اعتباريّان غير** موجودين في الخارج وذاته تعالى منزّهة عن أمثال ذلك، أي عن الكمال والنقص بالأمور الاعتباريّة. فلا يصدق عليه حينئذٍ عند التحقيق أنّه ناقص أو كامل.

٣٦٢ - وأيضاً إذا تقرّر أنّ النقص والكمال راجعان إلى الفواعل والقوابل - وكلاهما مظهر ذاته - فلا يكونان منسوبين إليه تعالى، لأنّ الظاهر - بهذا الاعتبار - غير المظهر.

٣٦٣ - والوجه الأعظم فيه (أي فيما نحن بصدده) هو أنّه إذا ثبت أنّه ليس في الوجود غيره، وأنّه كامل بالذات، فلا يكون هناك نقص فالحقيقة، بل كلّ نقص، يتصوّر أو يتوهّم، يكون محض الكمال.

وقد تقدّم هذا البحث عند بحث الوجود وعند بحث الصفات أيضاً، مع التمثيل بصورة الإنسان وكثرة أعضائه وقواه التي هي كالقوابل. والدليل عليه - مرّة أخرى - هو أنّ الوجود خير محض بالاتفاق، وقد ثبت أنّه ليس في الوجود إلا هو.

فلا يكون حينئذٍ الشرّ - الذي هو عبارة عن النقص - موجوداً، إذ اعتباره (موجوداً) لا يكون (إلا) مجازاً، بنسبة بعضهم (أي القوابل أو الفواعل أو الموجودات) إلى بعض، وهذا هو المطلوب. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[1].

٣٦٤ - هذا على المذهب الأوّل. فأمّا على المذهب الثاني، فيكون هو الإلّه والربّ والفاعل، و (تكون) الأعيان المعدومة، التي لا وجود لها إلا في العقل والذهن، هي المألوه والمربوب والمفعول.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

أعني: يكون للحقّ الألوهيّة والربوبيّة والفاعليّة، و(يكون) للأعيان المألوهيّة والمربوبيّة والمفعوليّة.

وعلى هذا التقدير، لا يكون ظهور الحقّ بصور الأعيان إلا على الوجه الذي تطلب منه الأعيان بلسان حالها، ويكون (بالتالي) النقص والكمال منسوباً إليها.

أعني: **إذا ظهر الحقّ بصور الأعيان، على ما هي عليه الأعيان من النقص والكمال، لا يكون هذا النقص والكمال - في الحقيقة - إلا من الأعيان (نفسها)، لأنّ الحقّ تعالى ما ظهر بصورتها إلا على ما عليه من النقص والكمال.** فالنقص والكمال **والسعادة والشقاوة** يكون منها، لا من الحقّ.

٣٦٥ - وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[1] أي: فللّه الحجّة البالغة على الموجودات عند الكشف الكلّي المسمّى بالقيامة الكبرى، من حيث نسبة نقصهم وكمالهم إليهم، لا إليه.

وإليه أشار أيضاً بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[2] وقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[3] بلسان استعدادكم.

وكذلك (أشار إليه) النبي ﷺ في قوله: **«كلّ ميسر لما خلق له»** يعني كلّ موجود و (كل) عين لا يتيسّر له أمر ولا يصدر عنه فعل إلا بما هو مجبول عليه بمقتضى ذاته ومخلوقٌ لأجله، بمشيئة الله وتقديره، كما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[4] أي: ولذلك الاختلاف خلقهم، ولو شاء الله ما اختلفوا.

٣٦٦ - وفي (مشكلة) المشيئة والإرادة، وتخليقهم بمشيئة الله وإرادته، بحث دقيق ليس هذا موضعه، وقد مرّ بعض ذلك.

وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والأحاديث، وليس حاصل الكلّ إلا هذا المعنى، كما لا يخفى على أهله.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٠.
(٢) سورة بني إسرائيل: الآية، ٨٤.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.
(٤) سورة هود، الآيتان: ١١٨ - ١١٩.

٣٦٧ - وهذا البحث لا بدّ (له) من مثال قريب إلى الذهن، لأنّ المثال - في صورة المعقول والمحسوس - يقرب الذهن إلى الفهم ويهيّؤه للإدراك. وحيث طال هذا الوجه، فلنشرع فيه من وجه آخر غير هذا الوجه، وهو هذا الوجه الثامن في المثال، لتحقيق القوابل والفواعل مرّة أخرى.

٣٦٨ - اعلم أنّ ظهور الحقّ في صور الموجودات هو بعينه ظهور الواحد في صور الأعداد. فكما أنّ الواحد - من حيث ذاته - غنيّ عن الموجودات - من حيث ذاته - وظهوره بصورها.

لكن (ظهور الحقّ والواحد العدديّ) من حيث كمالاتهما المندرجة في ذاتيهما، أي (في) ذات الحقّ وذات الواحد. فكما أنّ الواحد يكون محتاجاً (من حيث كمالاته الخاصّة) إلى الاعداد ومظاهرها الغير المتناهية، ليظهر بها كمالاته الغير المتناهية، فكذلك الحقّ تعالى يكون محتاجاً (بسبب كمالاته الخاصّة) إلى الموجودات ومظاهرها الغير المتناهية، ليظهر بها كمالاته الغير المتناهية. وهذا الاحتياج ليس موجباً للنقص في ذاته المقدّسة، لأنّ الاحتياج إذا لم يكن ذاتياً، لم يكن نقصاً، لأنّ الاحتياج الذي هو سبب النقص، هو الاحتياج الذاتيّ؛ وهذا ليس بذلك، فلا يكون نقصاً.

٣٦٩ - فحينئذٍ كما لا يلزم النقص والكمال من وجود الأعداد وعدمها في ذات الواحد، فكذلك لا يلزم النقص والكمال من وجود الموجودات وعدمها في ذات الحقّ. وكما أنّ كمال الأعداد ونقصها يكون راجعاً إليها، لا إلى الواحد الظاهر بصورها ومراتبها. فكذلك كمال الموجودات ونقصها يكون راجعاً إليها، لا إلى الحقّ الظاهر بصورها ومراتبها، لأنّ كمال العشرة ونقصها مثلاً ليس إلا منها، لأنّ عشرية العشرة - أعني ماهيّتها - طلبت بلسان الحال من الواحد الظهور بصورتهاعلى ما هي عليه.

٣٧٠ - هذا على تقدير أنّ ظهور الواحد بصورة العشرة كمال للعشرة. وأمّا على تقدير أنّه كمال (لها) من وجه، نقصٌ (لها) من وجه آخر، فلا يكون هناك بالحقيقة لا نقص ولا كمال، لأنّ كمال العشرة يكون كمالاً (لها) بالنسبة إلى الخمسة، فأما بالنسبة إلى العشرين (فإنّه) يكون نقصاً.

وكذلك (الأمر بالنسبة إلى) المائة والألف والألوف، إلى ما لا نهاية من مراتب العدد، لأنّ كلّ واحدة منها - أي من هذه المراتب - يكون نقصاً بالنسبة إلى ما فوقها، كمالاً بالنسبة إلى ما دونها.

٣٧١ - وكذلك (الأمر فيما يخصّ) كمال آدم وإبليس وإبراهيم ونمرود وموسى وفرعون، ونقصهم بالنسبة إلى ظهور الحقّ بصورهم، لأنّه لا يزيد على هذا المثال (المذكورة في الأعداد) شيئاً ولا ينقص (عنه)، لأنّ كمالهم ونقصهم يرجع إليهم، لا إلى الحقّ.

(هذا) على تقدير أنّ مرتبة كلّ واحد منهم تكون كمالاً في نفس الأمر. فأمّا إذا كانت (هذه المرتبة) بالنسبة إلى كلّ واحد كمالاً من وجه ونقصاً من وجه آخر، فلا كمال هناك ولا نقص، وهذا هو المطلوب. وقد تقدّم هذا البحث بعبارة أخرى في بيان شعر:

عباراتنا شتّى وحسنك واحد وكلّ إلى ذلك الجمال يشير

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1].

٣٧٢ - والذي قيل - إنّ الواحد له خواصّ يشابه الحقّ بها - قيل لهذا السبب، لأنّ له مشابهة كثيرة بالحقّ - جلّ جلاله. وأقلّها أنّه يشابه الحقّ من خمسة أوجه:

الأوّل: أنّه يكون مبدأ لجميع الأعداد، كما أنّ الحقّ مبدأ لجميع الموجودات.

الثاني: أنّه غير محتاج إلى واحد، من الأعداد، من حيث هو هو، واحتاج الباقي إليه، كما أنّ الحقّ غير محتاج إلى أحد من الموجودات، من حيث هو هو، وهي محتاجة إليه.

الثالث: أنّه يلزم من عدم الواحد عدمُ جميع أنواع العدد، من غير عكس، كما أنّه يلزم من عدم الحقّ تعالى عدم جميع الموجودات، لا العكس.

الرابع: أنّ الواحد إذا ضرب في نفسه، أو في عدد آخر، لا يلزم منه تكثير، بل كان على ما كان، كما أنّ الواجب إذا أخذ مع صفاته، فإنّه لا يلزم منه تكثير فيه، لأنّها في الحقيقة عين ذاته؛ وكذلك إذا أخذ مع غيره، فإنّه لا يلزم منه أيضاً كثرة، بل

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

كان على ما كان، كما عرفته من قول النبي عليه السلام: «**كان الله ولم يكن معه شيء**» ومن قول الأئمة: «**الآن كما كان**».

الخامس: أنّه ما ينقسم قطّ من حيث أنّه واحد، كالحقّ تعالى، فإنه من حيث هو - لا ينقسم ولا يتعدّد.

٣٧٣ - وقيل أيضاً بعبارة أخرى، وهو أنّ الواحد علّة العدد ومنشأها، كما أنّ البارىء - جلّ ثناؤه - (هو) علّة الموجودات ومبدعها. وكما أنّ الواحد لا جزء له ولا مثل ولا نظير، فكذلك البارىء لا جزء له ولا مثل ولا نظير، وكما أنّ الواحد يعطي وجود كلّ عدد واسمه في ظهوره بصورته، فكذلك الحقّ يعطي وجود كلّ موجود واسمه في ظهوره بصورته. وكما أنّ ببقاء الواحد يكون بقاء العدد ودوامه، فكذلك ببقاء الحقّ تعالى يكون بقاء الموجودات ودوامها.

٣٧٤ - وقيل أيضاً: كما أنّ من تكرار الواحد ينشأ العدد ويتزايد، كذلك من فيض البارىء وجوده نشأ الخلائق ونماؤها.

وكما أنّ الاثنين هو أوّل عدد ينشأ من تكرار الواحد، كذلك: العقل الأوّل هو أوّل موجود فاض من وجود البارىء.

وكما أنّ الثلاثة ترتّبت بعد الاثنين، كذلك النفس ترتّبت بعد العقل الأوّل.

وكما أنّ الأربعة ترتّبت بعد الثلاثة، كذلك الطبيعة ترتّبت بعد النفس.

وكما أنّ الخمسة ترتّبت بعد الأربعة، كذلك الهيولى ترتّبت بعد الطبيعة.

وكما أنّ الستّة ترتّبت بعد الخمسة، كذلك الجسم ترتب بعد الهيولى.

وكما أن السبعة ترتّبت بعد الستّة، كذلك الفلك ترتّب بعد وجود الجسم.

وكما أنّ الثمانية ترتّبت بعد السبعة، كذلك الأركان ترتّبت بعد الفلك.

وكما أنّ التسعة ترتّبت بعد الثمانية، كذلك المولدات تولّدت بعد الأركان.

وكما أنّ التسعة آخر مراتب الأعداد، كذلك المولدات آخر مرتبة الموجودات الكليّات، وهي المعادن والنبات والحيوان. فالمعادن كالعشرات، والنبات

كالمئات، والحيوان كالألوف، والمزاج كالواحد. والله أعلم بحقائق الأشياء وأحوالها ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾(١) ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٢).

٣٧٥ - وإذا تحقق هذا، فلنرجع إلى الغرض ولنقول: فظهوره تعالى في الكلّ أو بصورة الكلّ، (هو) من حيث كليّته ومجموعيّته، لا من حيث وحدته وذاته، لأنّ الكلّ من حيث الكلّ لا يظهر إلا في الكلّ.

والكلّ (هو) اسم له باعتبار الحضرة الواحديّة الاسمائيّة، لا باعتبار الحضرة الأحديّة الذاتيّة، كما قيل: «أحد بالذات، كلّ بالأسماء». وإذا كان كذلك، فلا يلزم من ظهوره تعالى بصورة الكلّ كثرة في ذاته ووجوده أصلاً.

ويكون تعالى هو الكلّ من غير تغيير فيه، ويكون العارف صادقاً في قوله: «**ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله**». فالكلّ هو وبه ومنه وإليه.

٣٧٦ - وأيضاً لا يصدق من هذا على كلّ واحد من مظاهره أنّه هو، كما لا يصدق على كلّ واحد من أفراد الكلّ أنّه الكلّ. وهذا دقيق، فافهم واحفظ! فإنّه ينفعك كثيراً في طريق التوحيد. وفيه قيل:

كلّ شيء فيه معنى كلّ شيء ... فتفطّن واصرف الذهن إليّ

كثرة لا تتناهى عدداً ... قد طوتها وحدة الواحد طيّ

٣٧٧ - (كذلك) ترتفع بهذا جميع الشبهات الواردة في هذا المقام، الحاصلة من الأوهام الكاذبة، التي يشنع بها أهل الباطل على أهل الحقّ ويقولون: أنّهم قالوا: هو الكلّ، أو الكلّ هو؛ ويلزم من ذلك أن تكون الموجودات الخسيسة، كالكلب والسنور، هي الله تعالى - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - لأنّهم لو عرفوا حقيقة الحال، ما قالوا مثل ذلك. وبالحقيقة أمثال هذه التوهّمات وأنظار هذه الشبهات ما حصلت إلا من عقولهم المشوبة بالوهم والخيال وأفكارهم الملوثة بالريبة والاشكال.

وإلا فكلام هؤلاء القوم - في هذا المعنى - أظهر من الشمس عند استوائها في

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٨.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٠.

قطب الفلك. ومع ذلك، فهم معذورون في (عدم ادراك) هذا المعنى، كالخفافيش بالنسبة إلى الشمس، فإنّ مثلهم مثلهم بعينه، كما قيل:

خفيّ لافراط الظهور تعرّضت لادراكه أبصار قوم أخافش

وحظّ العيون الزّرق من نور وجهه لشدّته حظّ العيون العوامش

وفيه قيل أيضاً:

علم التصوّف علم ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحقّ معروف

وليس يبصره من ليس يشهده وكيف يبصر ضوء الشمس مكفوف؟

وذلك لأنّ الاطّلاع على كلام هؤلاء القوم، بعد فتح عينيْ البصيرة بكحل عناية الله، موقوف على الذوق الحقيقيّ والكشف الكليّ، الحاصل من الفيض الإلّهيّ المسمّى بالهداية والتوفيق ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[١] ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[٢].

ولهذا قيل: «**لا تحمل عطاياهم إلا مطاياهم**» يعني لا يفهم كلامهم إلا أمثالهم، لأنّ من لم يذق، لم يعرف: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾[٣] أنّ في ذلك: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٤].

٣٧٨ - وكذلك كانوا (أي الصوفيّة) يتأكّدون في وصية مريديهم في مطالعة كلماتهم وتحقيقها تأكيداً لا مزيد عليه، وهو قولهم: لا يلعبنّ بك اختلاف العبارات، فإنّه إذا بعث ما في القبور وحضر البشر في عرصة الله تعالى يوم القيامة، لعلّ من كلّ ألف تسعمائة وتسعاً وتسعين يبعثون من أجداثهم، وهم قتلى من العبارات، ذبائح بسيوف الاشارات، وعليهم دماؤها وجراحها، غفلوا عن المعاني فضيّعوا المباني!.

---

(١) سورة النور: الآية، ٤٠.
(٢) سورة النور: الآية، ٣٥.
(٣) سورة طه: الآية، ٥٤.
(٤) سورة آل عمران: الآية، ١٨٧.

٣٧٩ - ومع ذلك، فحيث ورد في القرآن: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[1] فليس بعجب أن ضلّ جماعة من العميان بكلام هؤلاء القوم لعدم فهمهم وقلّة استعدادهم.

وأيضاً حيث أخبر الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ لا يضلّ بكلامهم أيضاً إلا الفاسق العاصي الخارج عن سبيل الله وسبيل أهله، لأنّهم (أي الصوفيّة هم) أهله وكلامهم كلامه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[2].

وما أحسن ما ورد في أمثالهم بظنونهم الفاسدة، في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[3] وكذلك في قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[4].

وأيضاً إذا لم يكن خلاص الأنبياء والأولياء عليهم السلام من لسان الأعداء والطعن فيهم، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾[5]، فهؤلاء القوم بطريق أولى. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وهو ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[6].

٣٨٠ - وإذا تقرّر هذا، فلنشرع فيه بوجه آخر توضيحاً للغرض، وهو هذا الوجه التاسع في المثال أيضاً لتحقيق الحقائق والماهيات المسمّاة بالقوابل.

اعلم أنّ الكلام في المظاهر والمجالي والحقائق والماهيّات (ذو شجون) كثيرة، وقد عرفت بعضه، لكن نقرّره لهذا المقام بعبارة أخرى، وهي أن تعرف أنّ الحقائق عبارة عن معلومات الحقّ تعالى أزلاً وأبداً. فلو كانت مجعولة بجعله، ما كانت من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٢) سورة النجم: الآيتان: ٣ - ٤.
(٣) سورة فصلت: الآية، ٢٣.
(٤) سورة يونس، الآية: ٣٦.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

معلوماته الأزليّة، وكان يلزم تأخير العالِم عن معلوماته أو تقدّمها عليه بزمان أو أزمنة غير متناهية، وكلّ ذلك محال. فمحال أن تكون الحقائق مجعولة.

٣٨١ - وبيان ذلك على ما قال العارف، هو: أن تعرف أنّ حقيقة كلّ موجود عبارة عن نسبة تعيّنه في علم ربّه أزلاً، وتسمّى باصطلاح المحقّقين: «أعياناً ثابتة» وباصطلاح غيرهم: «ماهيّة». ومعلوميّة الحقائق وعدميّتها لا يوصفان بالجعل، إذ المجعول هو الموجود، فما لا وجود له، لا يكون مجعولاً.

فلو كان كذلك، لكان للعلم القديم في تعين معلوماته فيه أزلاً أثرٌ، مع أنّها خارجة عن العالِم، فإنّها معدومة لأنفسها، لا ثبوت لها إلا في نفس العالِم بها. فلو قيل: يجعلها، للزم أمّا مساوقتها للعالِم بها في الوجود، أو أن يكون العالِم بها محلاً لقبول الأثر في نفسه وظرفاً لغيره أيضاً.

وكلّ ذلك باطل، لأنّه قادح في صرافة وحدته أزلاً - تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

٣٨٢ - ومثل ذلك بعينه مثل الشجرة التي هي في النواة وعلمها بها، فإنّها كانت عالمة بها قبل ظهورها في الخارج على ما هي عليه. والشجرة كمال النواة الظاهرة بها - أي بالنواة - كالشجرة الوجوديّة الظاهرة بالحقّ تعالى. وعلى هذا التقدير فلا يمكن تصوّر تقدّمها عليها ولا تعقّل وصفها بالجعل أصلاً، لأنّ النواة ما جعلت الشجرة التي كانت كامنة فيها مجعولة، فإنّها نفسها، والشيء لا يجعل نفسه مجعولاً، لأنّ الجعل عبارة عن ايجاد الشيء في الخارج، والنواة مع الشجرة موجودة في الخارج أزلاً وأبداً. فحينئذٍ لا تكون مجعولة، وهو المطلوب. وقد تقدّم بحث الشجرة والنواة بوجه آخر، فانظره هناك.

٣٨٣ - ويمكن تصوّر هذا المعنى في الواحد والاعداد أيضاً، لأنّ الواحد دائماً كان عالماً بذاته بأنّ له كمال أن يظهر بصور الأعداد كلّها إلى ما لا نهاية له. فما جعل الواحد نفسه كذلك ولا الأعداد، لأنّ كمال الواحد وكمال الأعداد بحسب المراتب ذاتيّ غير مجعول. وقد تقدّم الكلام أيضاً في الأعداد كما عرفته، فارجع إليه.

٣٨٤ - ومع ذلك (فالآن) نتمثّل في ذلك بمثال آخر أوضح منهما (أي من الواحد والأعداد)، وهو أن تعرف أنّ مثال الحقّ مع المظاهر، أو مثال الوجود الظاهر بصور الحقائق، مثال شمعة مشتعلة موضوعة في موضوع مخصوص، وحواليها مرايا كثيرة

مجلوّة مصقولة مختلفة الأوضاع والأشكال من التدوير والتربيع والتثليث والتسديس وغير ذلك. فحينئذٍ لا بدّ من أن تظهر هذه الشمعة في كلّ واحدة من المرايا التي حواليها. وإذا ظهرت فيها، فلا بدّ أيضاً من أن تظهر في كلّ مرآة على وضع تلك المرآة وهيأتها. فإذن يكون ظهورها في المرآة المربّعة غير ظهورها في المرآة المسدّسة، وكذلك إلى ما لا يتناهى من الأشكال والأوضاع.

٣٨٥ - فحينئذٍ لا يجوز أن تقول المرآة المربّعة أو المسدّسة للشمعة: لِمَ ظهرتِ فيّ مربّعة أو مسدّسة؟ لأنها لو قالت ذلك، لقالت الشمعة في جوابها: إنّي ما ظهرتُ فيكِ إلا على قدر قابليّتك واستعدادك؛ وإلا، فما أنا بمسدّس ولا بمربّع، بل تسديسي وتربيعي ما ظهرا إلا منك. وظهوري فيك ليس على قدر فاعليّتي، وكمال قدرتي وعظمتي ذاتيّ، لأنّي مطلق وأنت مقيّد، والمقيّد لا يقدر أن يكون مظهراً للمطلق من حيث هو مطلق، بل المطلق لا يظهر في المقيّد إلا على ما يكون المقيّد عليه من القابليّة والاستعداد. فالنقص منك لا مِنّي، لأنّ تربيعك وتسديسك أمراني - بلسان الحال - بأن أظهر فيك على صورة التسديس والتربيع. وإلا، فأنا - في حدّ ذاتي - غنيّ عنك وعن مظهريّتك، فمربّعيّتك ومسدّسيّتك كانتا حينئذٍ من اقتضاء ذاتك ولوازم ماهيّتك، لا مِنّي، لأنّي ما جعلتُك مسدّساً ولا مربّعاً، بل كنتُ عالماً بك قبل وجودك، بأنّ لك هذه القابليّة وأنّ لي هذه الفاعليّة. فالظهور مِنّي، والتربيعيّة والتسديسيّة منك. فليس عليّ مِنْ أحدٍ اعتراضٌ بهذا.

٣٨٦ - ولهذا قلتُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[١] أي: فلله الحجّة البالغة على المظاهر والمرايا بظهورهم في صورهم وحقائهم، على ما هم عليه من النقص والكمال. وإليه أشرتُ أيضاً: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[٢] أي: ظهرتُ بصورة كلّ واحد منكم على ما سألتموه بلسان استعدادكم وقابليّتكم.

ولذلك قلتُ عنه: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[٣] أي: قل إنّ كل واحد منكم لا يعمل إلا على شاكلته، أي صورته ووصفه.

---

(١) سورة الأنعام: الآية، ١٥٠.

(٢) سورة إبراهيم: الآية، ٣٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية، ٨٦.

والغرض من ذلك كلّه أن لا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل، و (أن) يعرف كلّ واحد منهم أنّ نقصه وكماله وثوابه وعقابه منه لا من غيره. وليس منّي إلا الاعطاء بحسب السؤال بلسان الحال.

٣٨٧ - وعلى هذا التقدير شيطانيّة الشيطان، وفرعونيّة فرعون، وآدميّة آدم، وموسويّة موسى، لا تكون إلا منهم ومن اقتضاء ذواتهم وقابليّاتهم، لأنّهم من معلوماته الأزليّة، ومعلوماته الأزليّة ليست مجعولة بجعله، ولا قابلة للتغيير والتبديل ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1] ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2]. وقد تقدّم هذا البحث مراراً.

٣٨٨ - وأيضاً ورد أنّ الله تعالى كره البيان كلّ البيان (في أمثال هذه المشاكل). فحيث بلغ الكلام هذا المبلغ، فالامساك عنه واجب، كما قال عليه السلام: «**إذا بلغ الكلام إلى الله تعالى فأمسكوا**» لأنّ هذه الأسرار من أسرار القدر، وأسرار القدر افشاؤها منهيّ (عنه) شرعاً إلا عند أهله، كما تقرّر في بحث الأمانة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[3].

٣٨٩ - وإذا تحقّق هذا، فنرجع ونقول: هذا بالنسبة إلى نقص القوابل وكمالاتها وتحقيق الفواعل وكيفيّاتها.

فأمّا بالنسبة إلى الكثرة والوحدة، فلا شكّ أنّ الجاهل بكيفيّة وضع الشمعة ووضع المرايا وحقائقها، إذا نظر إليها، حكم بكثرة الشمعة وكثرة المرايا أيضاً، لأنّه يشاهد في كل مرآة شمعة، وكلّ شمعة (يشاهدها) على غير الوضع الذي (هي عليه) تلك الشمعة (الأخرى).

ومعلوم أنّه ليس كذلك، أي ليست الشمعة كثيرة، لأنّه لو عرف ذلك - أي (لو) عرف أنّ الشمعة واحدة في الحقيقة، وأنّ تلك الشموع (هي) عكس أنوار تجلّياتها بحسب المرايا، وليس هناك في نفس الأمر كثرة والكثرة (إنّما هي) بحسب المرايا

---

(١) سورة يونس: الآية، ٦٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦١.

والقوابل المعدومة - لحكم بها (أي بوحدة الشمعة) ورجع إلى مشاهدة الشمعة حقيقةً.

٣٩٠ - والمراد من ذلك مشاهدة وجه الحقّ في مرايا المظاهر (الوجوديّة) بحيث لا يحتجب (المشاهد) بالمرايا على الوجه ولا بالوجه عن المرايا، بل يشاهد الوجه مع المرايا بحيث يقول ذوقاً وحقيقةً: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1] يعني: يشاهد الكثرة في الوحدة، والوحدة في الكثرة، والذات مع الصفات، والصفات مع الذات، والوجه مع المرآة، والمرآة مع الوجه، بحيث لا يحتجب بالأوّل عن الثاني في جميع المراتب. فإنّه يكون بذلك موحّداً حقيقيّاً، جامعاً بين الكثرة والوحدة، واصلاً (إلى) مقام الفرق بعد الجمع، الذي هو أعلى المقامات. وفيه قيل، شعر:

وما الوجه إلا واحد غير أنّه إذا أنت عدّدتَ المرايا تعدّدا

٣٩١ - وفيه قيل أيضاً: نظراً إلى اتّحاد الرائي والمرئي مع اختلافهما، أعني بحيث يكون العبد مرآة للحقّ والحقّ مرآة له، وهو هذا:

شهدتَ نفسك فينا وهي واحدة كثيرةً ذات أوصاف وأسمائي

ونحن فيك شهدنا بعد كثرتنا عيناً بها اتّحد المرئي والرائي

وقد مرّ تفصيل ذلك نظماً ونثراً.

٣٩٢ - ومع ذلك، فلا تنكشف لك حقيقة الحال على ما ينبغي، إلا بعد تصوّرك المثلَ المضروب - أعني المرايا والشمعة - من جنس واحد: كتصوّرك مثلاً: الشمعة والمرايا من جنس الحديدة المجلوّة المصقولة - أو (من جنس) الزجاجة الشفافة المتلوّنة، لأنّك إذا نظرتَ إلى ذلك، وشاهدتَ الشمعة والمرايا من الحديد أو الزجاجة، وتصوّرتَ معرفة المرايا حقيقة الشمعة ومعرفة الشمعة حقيقة المرايا، وكذلك الزجاجة، و (تصوّرت) قطع نظرهما عن أوضاعهما وأشكالهما العارضة لهما بحسب الزمان والمكان، عرفتَ مشاهدة العارف المعروف، والشاهدِ المشهودَ، والمحبَّ المحبوبَ، واتّحادَهما من غير فساد فيهما، الذي هو الاحتجاب بأحدهما عن الآخر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

وصرتَ بذلك عارفاً كاملاً موحّداً، كما مرّ تقريره. ووصلتَ إلى مقام فناء العارف في المعروف، والشاهد في المشهود، والمحبّ في المحبوب، الذي هو مقام رفع الكثرة الخلقيّة بالكليّة، والوصول إلى الوحدة الذاتيّة الحقيقيّة المخبر عنها الحقّ تعالى بنفسه، وكذلك أنبياؤه وأولياؤه وتابعوهم من الأقطاب والكمّل.

٣٩٣ - أمّا قوله تعالى فيه: (أي مقام الوحدة الذاتيّة) فكقوله: في الحديث القدسيّ: **«لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه. فإذا أحببته، كنتُ سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله. فبي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق، وبي يبطش، وبي يمشي»**.

وكقوله تعالى فيه أيضاً: **«يا عبدي أحببني أجعلك مثلي وليس كمثلي شيء»**.

وكقوله في القرآن بالنسبة إلى الرسول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]

وكقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2].

٣٩٤ - وأمّا قول الأنبياء، فكقول النبيّ ﷺ: **«من رآني فقد رأى الحقّ»**.

وقوله: **«لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل»**.

وأمّا قول الأولياء، فكقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«إنّ وجه الله. أنا جنب الله. أنا يد الله. أنا العرش. أنا الكرسيّ. أنا اللوح. أنا القلم»** إلى قوله: **«أنا الأوّل، أنا الآخر. أنا الظاهر، أنا الباطن»**.

وقوله: **«إنّ الله تعالى شراباً لأوليائه، إذا شربوا (منه) سكروا. وإذا سكروا طربوا. وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا. وإذا خلصوا طلبوا. وإذا طلبوا وجدوا. وإذا وجدوا وصلوا. وإذا وصلوا اتّصلوا. وإذا اتّصلوا، لا فرق بينهم وبين حبيبهم»**.

٣٩٥ - وأمّا قول المشايخ، فكقولهم «سبحاني! ما أعظم شأني!». وقولهم: **«أناالحقّ»**. وقولهم: «أنا أقول وأنا أسمع، وهل في الدارين غيري؟».

وكقول منصور (الحلاج) منهم، في دعائه الجامع لجميع هذه المراتب مع زيادة

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

أخرى، الصادر عنه حال قتله: «اللّهمّ! أنت المتجلّي من كلّ جهة، المتخلّي عن كلّ جهة. بحقّ قيامك بحقيّ، و (بحقّ) قيامي بحقّك، وقيامي بحقّك بخالف قيامك بحقّي لأنّ قيامي بحقّك ناسوتيّة، وقيامك بحقّي لاهوتيّة؛ وكما أنّ ناسوتيّتي مستهلكة في لاهتيّتك، غير ممازجة إياها، فلاهوتيّتك مستولية على ناسوتيّتي، غير مماسة لها؛ وبحقّ قدمك على حدثي، وحقّ حدثي تحت ملابس قدمك، أن ترزقني شكر ما أنعمتَ عليّ، حيث غيبتَ أغياري عمّا كشفتَ لي من مطالعة وجهك، وحرّمت على غيري ما أبحتَ لي من النظر في مكنونات سرّك! وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تقرّباً إليك وتعصّباً لدينك، فاغفر لهم؛ فإنّك لو كشفتَ لهم ما كشفتَ لي، لما فعلوا (ما فعلوا)؛ ولو سترت عني ما سترت عنهم، لما ابتليتُ بما ابتليتُ. فلك الحمد دايماً، وأنشد:

اقتلوني يا ثقاتي إنّ في قتلي حياتي

ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي

٣٩٦ - هذا آخر الوجه التاسع. وإذ فرغنا منه، فلنشرع في الوجه العاشر الذي هو آخر الوجوه، ونقطع هذا البحث عليه، وهو هذا الوجه العاشر في المثال لتحقيق البحث المذكور.

٣٩٧ - اعلم أنّ الوجود المطلق أو الحقّ تعالى كالبحر المحيط مثلاً، والمقيّدات والموجودات كالأمواج والأنهار الغير المتناهية. فكما أنّ الأمواج والأنهار عبارة عن انبساط البحر المحيط بصور كمالاته المائيّة وخصوصيّاته الاسمائيّة. وكما أنّ الأمواج والأنهار ليست ببحر من وجه وليست غيره من وجه آخر، لأنّ الأمواج والأنهار وإن كانت غير البحر من حيث التعيين والتقييد، لكن ليست غيره من حيث الحقيقة والذات التي هي المائيّة المحضة - لأنّها من حيث هذه الحيثيّة هي هو بعينها - فكذلك الموجودات والمقيّدات، لأنّها وإن كانت غير الحقّ من حيث التعيّن والتقيّد، لكن ليست غيره من حيث الحقيقة والذات التي هي الوجود، لأنّها - من حيث هذه الحيثية - هي هو بعينها. وفيه قيلت الأبيات المذكورة قبل ذلك، وهي هذه:

البحر بحر على ما كان من قدم إنّ الحوادث أمواج وأنهار

لا يحجبنّك أشكال يشاكلها   عمّن تشكّل فيها فهي أستار

٣٩٨ - وبيان ذلك على سبيل التفصيل هو أنّ البحر إذا تعيّن بصور الأمواج، سمّي موجاً.

وإذا تعيّن بصور الأنهار، سمّي نهراً. وإذا تعيّن بصور الجداول، سمّي جدولاً.

وكذلك (إذا تعيّن) بصور المطر والثلج والجليد، وما شاكل ذلك. وليس في الحقيقة إلا بحر أو ماء، لأنّ الموج والنهر والجدول أسماء (دالّة) على البحر بلسان العرب أو غيرهم؛ وإلا، ففي التحقيق ليس له اسم ولا رسم، بل «البحر» أيضاً اسم له بحسب الاصطلاح.

٣٩٩ - فكذلك الوجود أو الحقّ، إذا تقيّد سمّي به، كما سمّي أوّلاً بالعقل، ثمّ بالنفس، ثمّ بالفلك، ثمّ بالاجرام، ثمّ بالطبائع، ثمّ بالمواليد وأمثال ذلك، وليس في الحقيقة لا عقلاً ولا نفساً ولا فلكاً، لأنّها أسماء (دالّة) عل الحقّ أو الوجود بلسان العرب أو غيرهم؛ وإلا، ففي التحقيق ليس له اسم ولا رسم، كما تقدّم في بحث الصفة، بل «الحقّ» و «الوجود» أيضاً اسم له بحسب الاصطلاح، لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فوالله! ثمّ والله! لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية، لكفي برهاناً على رفع الكثرة واثبات التوحيد المسمّى بالدين القيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. ذلك من جهلهم وعمائهم.

٤٠٠ - فالجاهل بهاتين الصورتين، إذا نظر إلى الأنهار والجداول والأمطار والثلوج والجليد، فلا بدّ مِنْ أن يقول: أين البحر أو الماء؟ وهذه كلّها مظاهرهما ومجاليهما. وكذلك إذا نظر إلى العقول والنفوس والأفلاك والأجرام والطبائع والمواليد، فلا بدّ أيضاً من أن يقول: أين الحقّ أو الوجود المطلق؟ وهذه كلّها

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

مظاهرهما ومجاليهما. وأمّا العارف بالصورتين، فإذا نظر إليهما وإلى حقيقتهما وحقيقة مظاهرهما، فلا بدّ من أن يحكم بالذي حكمنا نحن، ويقول: الواقع، لا غير، هو أنّ البحر اسم لحقيقة محيطة بكلّ من مظاهره، وليس بينهما تغاير وتباين بحسب الحقيقة، بل على كلّ قطرة من قطراته يصدق أنّها هو بحسب الحقيقة (وأنّها) غيره بحسب التعيّن، كما أنّ الحقّ اسم لحقيقة محيطة بكلّ من مظاهره، وليس بينهماتغاير وتباين بحسب الحقيقة، بل على كلّ ذرّة من ذرّاتها يصدق أنّها هو بحسب الحقيقة، (وأنّها) غيره بحسب التعيّن والتقيّد.

٤٠١ - ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝٥٤﴾(١) لتعرف أنّه ليس بغائب عن شيءٍ ذاتاً ووجوداً، لأنّ المحيط لا ينفكّ عن المحاط، لأنّه لو انفكّ لزال المحاط وانعدم. وأيّ لقاء يكون أعظم من هذا؟ أي من مشاهدته في كلّ ذرّة من ذرّات الوجود ذاتاً ووجوداً. ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

٤٠٢ - وبالحقيقة ليس الحجاب المذكور في الأخبار والتنزيل وغير ذلك إلا كثرة المظاهر والتعيّنات الواقعة بحسب الإضافات والاعتبارات. وإلا: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(٣) وذاته ووجوده. وإلى هذا المعنى أشار تعالى وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(٤) أي كلّ شيءٍ مضافٍ إليه هالك أزلاً وأبداً ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ الذي هو ذاته، لأنّه باقٍ أزلاً وأبداً لقولهم: «**الباقي باقٍ في الأزل؛ والفاني فانٍ لم يزل**» وقولهم: «**كان الله ولم يكن معه شيء وهو الآن كما كان عليه**».

ولهذا عقبه تعالى أيضاً بقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٥) حتّى تعرف أنّه ليس في الوجود غيره وأنّه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٦) لأنّ معناه

---

(١) سورة فصلّت، الآية: ٥٣ . ٥٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠. وسورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٤) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٥) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٦) سورة الحديد، الآية: ٣.

أنه يقول: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي البقاء الدائم السرمد، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (أي إليه ترجع) هذه الموجودات المقيّدة بعد طرح الكثرة الاعتباريّة الواقعة بالإضافة والنسبة، كما أشار إليه القوم: «التوحيد اسقاط الإضافات» وقد مرّ هذا البحث مراراً، والغرض من ذكره تأكيد لتحقيق المدّعي. والسلام.

٤٠٣ - وقال الشيخ الكامل المحقّق سعد الحقّ والملّة والدين الحموئي - قدّس الله سرّه: «الحكم حاء وكاف وميم. فالحاء إشارة إلى الحياة السارية في جميع الموجودات، الموسومة بالهويّة الإلّهيّة، المنصبة من بحر القيوم الذي به قيام كلّ شيء، لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[1].

والكاف (إشارة) إلى الكلّ والميم (إشارة) إلى الموجودات» أي به حياة كلّ الموجودات وقيامها، وإليه ترجع بعد زوال تعيّنها واسقاط إضافتها إليه، لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] لرجوع القطرة إلى البحر، بعد زوال تعيّنها واسقاط إضافتها ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[3] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[4].

٤٠٤ - وحكي أنّ جماعة من «الرهبانيّين» وردوا المدينة في عهد خلافة أبي بكر، ودخلوا عليه وسألوه عن النبيّ وكتابه؟ فقال لهم أبو بكر: «نعم! جاء نبيّنا ومعه كتاب». فقالوا له: «وهل في كتابه وجه الله؟». قال: «نعم!». قالوا: «وما تفسيره؟». قال أبو بكر: «هذا السؤال منهيّ (عنه) في ديننا، وما فسّره نبيّنا بشيء». فضحك الرهبانيّون كلّهم وقالوا: «والله ما كان نبيكم إلا كذاباً وما كان كتابكم إلا زوراً وبهتاناً». وخرجوا من عنده. فعرف بذلك سلمان، فدعاهم إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقال لهم: «إنّ هذا خليفته الحقيقي وابن عمّه، فاسألوه».

فسألوا السؤال بعينه أمير المؤمنين عليه السلام فقال لهم: «ما نقول جوابكم بالقول بل بالفعل». فأمر باحضار شيء من الفحم وباشعاله.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة القصص، الآيتان: ٧٠ - ٨٨.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.

(٤) سورة النحل، الآية: ٦٢.

فلمّا اشتعل وصار كلّه ناراً، سأل عليه السلام الرهبان وقال: «يا رهبان! ما وجه النار؟».

فقال الرهبان: «هذا كلّه وجه النار».

فقال عليه السلام: «فهذا الوجود كلّه وجه الله، وقرأ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1]، - ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]. فأسلم الرهبانيّون كلّهم بذلك على يده وصاروا موحّدين عارفين.

٤٠٥ - وحكى أيضاً أنّ حيتان البحر اجتمعوا يوماً عند كبيرهم وقالوا له: «يا فلان! نحن عزمنا على التوجّه إلى البحر الذي نحن به موجودون وبدونه معدومون؛ فلا بدّ من أن تعلّمنا جهته وتعرّفنا طريقه، حتّى نتوجّه إليه ونصل إلى حضرته، لأنّا بقينا مدّة متطاولة نسمع به وما نعرفه، ولا نعرف مكانه ولا جهته».

فقال لهم كبيرهم: «يا أصحابي واخواني! ليس هذا الكلام يليق بكم ولا بأمثالكم، لأنّ البحر أعظم من أن يصل إليه أحد، (و) هذا ليس بشغلكم، ولا هو من مقامكم. فاسكتوا عنه ولا تتكلّموا بعد ذلك بمثل هذا الكلام، بل يكفيكم أنّكم تعتقدون أنّكم موجودون بوجوده ومعدومون بدونه».

فقالوا له: «هذا الكلام ما ينفعنا، ولا هذا المنع يدفعنا. لا بدّ لنا من التوجّه إليه ولا بدّ لك من ارشادنا إلى معرفته ودلالتنا إلى وجوده». فلمّا عرف الكبير صورة الحال وأنّ المنع لا يفيد، شرع لهم في البيان وقال:

٤٠٦ - «(يا اخواني!) البحر الذي أنتم تطلبونه وتريدون التوجّه إليه، هو معكم وأنتم معه، وهو محيط بكم وأنتم محاطون به؛ والمحيط لا ينفكّ عن المحاط به. والبحر عبارة عن الذي أنتم فيه. فأينما توجّهتم في الجهات، فهو البحر، وليس غير البحر عندكم شيء. فالبحر معكم وأنتم مع البحر، وأنتم في البحر والبحر فيكم، وهو ليس بغائب عنكم، ولا أنتم بغائبين عنه، وهو أقرب إليكم من أنفسكم». فحين سمعوا هذا الكلام منه، قاموا كلّهم إليه وقصدوه حتى يقتلوه. فقال لهم: «لم

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

تقتلوني؟ ولأيّ ذنب استحقّ هذا؟» فقالوا له: «لأنّك قلت: البحر الذي نحن نطلبه، هو الذي نحن فيه. والذي نحن فيه، هو الماء فقط. وأين الماء من البحر؟ فما أردت بهذا إلا اضلالنا عن طريقه وحيداننا عنه».

٤٠٧ - فقال كبيرهم: «والله! ما كان كذلك! وما قلتُ: إلا الحقّ والواقع في نفس الأمر، لأنّ البحر والماء شيء واحد في الحقيقة، وليس بينهما مغايرة أصلاً. فالماء اسم للبحر بحسب الحقيقة والوجود، والبحر اسم له بحسب الكمالات والخصوصيّات والانبساط والانتشار على المظاهر كلّها». فعرف ذلك بعضهم، وصار عارفاً بالبحر وسكت عنه. وأنكر البعض الآخر وكفر بذلك، ورجع عنه مطروداً محجوباً. والذي حكيتُ عن لسان الحيتان لو حكيته عن لسان الأمواج، لكان أيضاً صحيحاً، وكلاهما جائز.

٤٠٨ - وإذا تحقّق هذا، فكذلك (شأن) الخلق في طلب الحقّ. فإنّهم إذا اجتمعوا عند نبيّ أو إمام أو عارف وسألوا عن الحقّ، فقالوا هذا النبيّ أو الإمام أو العارف: «**إن الحقّ الذي تسألون عنه وتطلبونه، هو معكم وأنتم معه، وهو محيط بكم وأنتم محاطون به، والمحيط لا ينفكّ عن المحاط** ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1] «وهو أقرب إليكم من حبل وريدكم»[2]، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[3]. و ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4] ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[5]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[6].

وهو ليس بغائب عنكم ولا أنتم بغائبين عنه «أينما توجهتم، فثم ذاته ووجهه ووجوده وهو مع كل شيء وعين كل شيء بل هو كل شيء وكل شيء به قائم وبدونه زائل.

---

(١) سورة الحديد: الآية، ٤.
(٢) الآية هكذا: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٧.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٦) سورة القصص، الآية: ٨٨.

وليس لغيره وجود أصلاً، لا ذهناً ولا خارجاً. وهو الأوّل بذاته، والآخر بكمالاته، الظاهر بصفاته، والباطن بوجوده، وأنّه للكلّ مكان، في كلّ حين وأوان، ومع كلّ أنس وجان».

٤٠٩ - (فلمّا سمع الخلق ذلك) «قاموا إليه كلّهم وقصدوه ليقتلوه. فقال لهم: «لم تقتلوني؟ ولأيّ ذنب استحقّ هذا؟» فقالوا له: «لأنّك قلت: الحقّ معكم وأنتم معه، وليس في الوجود إلا هو، وليس لغيره وجود، لا ذهناً ولا خارجاً، ونحن نعرف بالحقيقة أنّ هناك موجودات غيره، من العقل والنفس والأفلاك والأجرام والملك والجنّ وغير ذلك. فما أنت إلا كافر ملحد زنديق. وما أردت بذلك إلا اغواءنا واضلالنا عن الحق وطريقه».

٤١٠ - فقال لهم: «لا والله! ما قلتُ لكم غير الحقّ ولا غير الواقع؛ وما أردتُ بذلك اضلالكم واغواءكم، بل قلتُ ما قال هو بنفسه وأخبركم إياه على لسان نبيّه. وإلا، فأيّ شيءٍ معنى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۞٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۞٥٤﴾(١)؟.

ومعنى قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢)؟

ومعنى قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾(٣) وكذلك جميع أقواله المذكورة (سابقاً).

ولأيّ شيءٍ قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

---

(١) سورة فصلت، الآية: - ٥٣ - ٥٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٣.

بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)؟

ولم قال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٢)؟

لأنه يعرف أنّ كلّ واحد ما يعرف ذلك ولا يقدر عليه، كما قال أيضاً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾(٣) وإنّ في ذلك ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٤) و ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٥).

٤١١ - فعرف ذلك بعضهم وقبل منه، وصار عارفاً موحّداً؛ وأنكر ذلك بعضهم، ورجع عنه محجوباً مطروداً ملعوناً. نعوذ بالله منه ومن أمثاله! - هذا آخر الأمثلة المضروبة في هذا الباب. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب. ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٦) ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(٧).

٤١٢ - وهذا ما كان إلا تنبيهاً لبعض الطالبين، وتفهيماً لبعض الطالبين، وتفيهماً لبعض السالكين وإلا، فحصور هذا المقام والوصول إلى هذه المرتبة موقوف على عناية الله تعالى، لقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾(٨) منسوبٌ إلى هدايته وتوفيقه، لقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(٩) ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(١٠).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٣) سورة طه، الآية: ٥٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.
(٥) سورة قٓ، الآية: ٣٦.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٢٨.
(٧) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.
(٨) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٩) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(١٠) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

٤١٣ - هذا آخر التوحيد الوجودي وكيفيّته. وإذ فرغنا منه، فلنشرع في بيان الشبهات الواردة فيه والمغالطات اللازمة له.

وبيان نسبة هذه الطائفة وخرقتهم إلى الأنبياء والأولياء عليهم السلام خصوصاً إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأولاده عليهم السلام واجبٌ، وهو هذا:

ذيل القاعدة الرابعة: في الشبهات الواردة على التوحيد الوجودي وفي البحث عن الصوفية وسرّ الولاية والإمامة

٤١٤ - اعلم أنّ في هذا التوحيد مفاسد كثيرة ومهالك عظيمة، كلّ واحدة منها سبب للهلاك الأبديّ والشقاء السرمديّ. فمنها الإباحة، وذلك أنّ من شاهد وجوداً واحداً، ظاهراً في مظاهر كثيرة، وما حصل له الفرق بين الظاهر والمظهر، وقع في الإباحة وصار كافراً نجساً. والإباحة هي أن لا يلتفت صاحبها إلى الحلال والحرام، والطيّب والخبيث، والطاهر والنجس؛ ويكون الكلّ عنده مباحاً جائزاً حسناً؛ ولا يبالي بالفساد والفسق. وما شاكل ذلك. نعوذ بالله منه ومن تابعيه، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين!

٤١٥ - ومنها الالحاد، وذلك أن من شاهد وجوداً واحداً، ظاهراً في مظاهره (الكثيرة)، وما حصل له الفرق بينهما، عدل عن الظاهر إلى الباطن وحكم بحقيّة الباطن وشرفه وبطلان الظاهر وخسّته، وصار بذلك ملحداً كافراً نجساً، عادلاً عن الحقّ وأهله. نعوذ بالله منه ومن تابعيه! وفي الشرع أيضاً، الإلحاد هو العدول عن ظاهر الشّريعة إلى باطنها، وهو مذهب الإسماعيليّة الموسومة بالملاحدة والباطنيّة.

٤١٦ - ومنها الاتّحاد، وذلك أن من شاهد الحقّ في مظاهره، وشاهد نفسه معها بأنّه من جملتها، حكم باتّحاده بالحقّ مع بقاء الأثنينيّة والغيريّة، وصار (بذلك) اتحاديّاً ملعوناً نجساً. وهو مذهب النصارى وبعض الصوفيّة، لعنهم الله تعالى. والذين يشنّعون من أهل الظاهر على أهل التوحيد من الصوفيّة الحقّة من أرباب الباطن، (لأمرين اثنين):

الأوّل: بسبب هذا المذهب.

والثاني: بواسطة الحلول الآتي بحثه. ولا يعرفون أنّ الصوفيّة الحقّة ما يقولون بالاتّحاد، وهذا ليس مذهبهم.

وإن قالوا (بما يوهم) ذلك فجوابهم في هذا في غاية الوضوح، وهو أنّهم يقولون: نحن إذا نفينا وجود الغير مطلقاً، ولسنا قائلين إلا بوجود واحد، فكيف نقول بالاتّحاد والحلول؟ فإنّهما مبنيّان على الأثنينيّة والكثرة وغير ذلك.

٤١٧ - ومنها: الحلول، وذلك أن من شاهد الحقّ ظاهراً في مظاهره، وما عرف كيفيّة ظهوره، وما حصل له الفرق بين الظاهر والمظهر، حكم بحلوله في مظاهره، وهو مذهب بعض النصارى أيضاً، ومذهب بعض الصوفيّة، لأنّ النصارى ذهبوا إلى أنّ الحقّ حلّ في بدن عيسى ﷺ؛ لأنّ النصارى ذهبوا إلى أنّ الحق حلّ في بدن عيسى ﷺ؛ والصوفيّة ذهبوا إلى أنّه حلّ في قلوب عباده. ولكلّ واحد منهما في هذا الباب مقالات طويلة وكلمات غريبة. نعوذ بالله منهم ومن مقالاتهم!.

٤١٨ - ومنها: الفرق، وهو: الاحتجاب بالخلق عن الحقّ وبقاء الرسوم الخلقيّة بحالها.

٤١٩ - ومنها: الجمع، وهو شهود الحقّ بلا خلق. والمراد بالأوّل: (أي بالفرق) أنّ كلّ من شاهد الخلق وكثرته واحتجب به عن الحقّ ووحدته، فهو محجوب عن الحقّ بالخلق.

والمراد بالثاني: (أي بالجمع) أنّ كلّ من شاهد الحقّ وذاته واحتجب به عن الخلق واعتبارهم، فهو محجوب بالحقّ عن الخلق. وكلاهما مذمومان.

٤٢٠ - والحقّ من ذلك أن يكون العارف المحقّق في مقام «الفرق الثاني» الذي هو شهود قيام الخلق بالحقّ، ورؤية الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة، من غير احتجابه بالآخر، ويسمّى (هذا المقام بـ) الفرق بعد الجمع، وهو نهاية المراتب في التوحيد والعرفان.

وفيه قيل: بالنسبة إلى المراتب الثلاث المذكورة: «**إيّاكم والجمع والتفرقة! فإن الأوّل: يورث الزندقة والالحاد، والثاني: يقتضي تعطيل الفاعل المطلق، وعليكم بهما! فإنّ جامعهما موحّد حقيقيّ، و(هذا المقام) هو المسمّى بجمع الجمع وجامع الجميع، و(صاحبه) له المرتبة العليا والغاية القصوى**».

٤٢١ - ومنها: الاجمال، وذلك أن من شاهد الوجود كلّه حقّاً على سبيل الاجمال، وما شاهده على سبيل التفصيل، بقي على نصف المعرفة من الله، وصار محجوباً عن النصف الآخر.

وأكثر المفاسد المذكورة تحصل من هذا النظر. وكثير من الخلق ذهبواإلى هذا (المذهب)، وإلى الآن هم عليه.

٤٢٢ - ومنها: التفصيل، وذلك أن من شاهد الوجود كلّه على سبيل التفصيل، وما شاهده على سبيل الاجمال، بقي أيضاً على نصف المعرفة منه تعالى، وصار محجوباً عن النصف الآخر، ووقع في مفاسد كثيرة. والمراد من قولنا: «بقي على نصف المعرفة» أنهما (أي: الاجمال والتفصيل) طرفا الافراط والتفريط في التوحيد الحقيقيّ الذي هو الحدّ الأوسط بينهما: كما أشرنا إليه في «باب التقسيم»، فلا يكونان هو، بل يكونان غيره، لأنهما إذا اجتمعا صارا واحداً تامّاً كاملاً، لأنّ المعرفة التامّة الكاملة (هي) في الجمع بينهما أعني مشاهدة الحقّ على سبيل الاجمال في عين التفصيل، وعلى سبيل التفصيل في عين الاجمال، المتقدّم ذكرها في التقسيم أيضاً.

٤٢٣ - ومنها: التمثيل والتشبيه، وذلك أن من شاهد الوجودكلّه وجوداً واحداً، وما عرف كيفيّة كلّيته وكيفيّة معيّنة في كلّ واحد من المظاهر، فشبّهه بشيءٍ ونزّهه عن شيءٍ، ومثّله بموجود ونزّهه عن معدوم، - صار بذلك «مشبّهيّاً» نجساً. - تعالى الله عمّا يقول المشبّهون علواً كبيراً!.

٤٢٤ - ومنها: التنزيه والتعطيل، وذلك أن من شاهد الوجود كلّه واحداً، وما عرف وحدته ولا كثرته، أضاف الأفعال إلى الأسباب الظاهرة، وغفل عن الفاعل المطلق وعطّله عن فعله، وصار بذلك محجوباً بأسبابه ومظاهره، وبقي نجساً مشركاً ملعوناً. نعوذ بالله منه!.

٤٢٥ - وأمثال هذه المفاسد والشبهات كثيرة، لسنا محتاجين إلى ذكر جميعها، (وقد) ذكرنا رؤوسها وأصولها والتي هي المعظم منها. فينبغي أن تعرف أنّ هذه الجماعة المسمّاة بالصوفيّة - عند أهل الله من الأنبياء والأولياء والمحقّقين

والموحّدين - هم محجوبون عن الحقّ وأهله، ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾[1] عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين! وللموحّدين في هذا الباب كتب ورسائل، أي في باب المنحرفين عن التوحيد الحقيقي، المنخرطين في سلكهم.

ومنها: رسالة موسومة «برسالة مغالط الصوفيّة». فكلّ من أراد البسط في ذلك، فليرجع إليها.

٤٢٦ - وإذا تحقّق هذا، فاعلم أنّ جميع التشنيع من أهل الأديان والملل على الموحّدين المحقّقين من أهل الله، فهو بسبب أقوال هؤلاء القوم وأفعالهم، الذين ليسوا منهم لا قولاً ولا فعلاً. بل (هم منسوبون إليهم) بمجرّد النسبة الصوريّة من الخرقة المزوّجة والكلمات المزخرفة وبعض الأوراد الملوّنة بالرياء والسمعة.

أمّا القول: فبما عرفته (من) أنّه خارج عن الشريعة والطريقة والحقيقة.

وأمّا الفعل، فأفعالهم مبنيّة على أقوالهم، فحيث ثبت فساد القول، ففساد الفعل لازم.

وإذا كان كذلك، فكيف تجوز نسبتهم إلى الطائفة الحقّة مع عدم العلم بأصولهم وقوانينهم؟ نعوذ بالله منهم!.

٤٢٧ - ومع ذلك فليس هذا بغريب ولا بشيء نادر ما وقع مثله، لأنّك إن تحقّقت، شاهدتَ هذه المفاسد في جميع الطوائف الإسلاميّة والغير الإسلاميّة، لأنّ كثيراً من الناس يتشبّهون بقوم ليسوا منهم، ويفتخرون بأقوالهم وأفعالهم، ويشهرون بها أنفسهم، وغيرهم يشنّعون عليهم بها وهم منزّهون عنها، مثل: طائفة الشيعة مثلاً.

فإنّ الطائفة الحقّة منهم طائفة واحدة، وهم: «الاثنا عشريّة الإماميّة»، وطوائف كثيرة تشبّهوا بهم وليسوا منهم، بل (هم) عندهم كافرون، مثل: «الغلاة» و«الاسماعيليّة» و «الزيديّة» و «الكيسانيّة» وشعبهم وفرقهم المذكورة في كتب الشيعة و(أهل) السنّة. والناس يشنّعون عليهم (أي على الإماميّة الاثنا عشرية) بأقوالهم وأفعالهم (أي بأقوال الطوائف الأخرى من الشيعة) وهم منزّهون عنها.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦١.

٤٢٨ - والعجب كلّ العجب أنّ أكثر التشنيع على الموحّدين المحقّقين من أهل الله، (صادر) من الطائفة الشيعيّة الاثنا عشريّة، بخلاف مجموع الطوائف الإسلاميّة، مع أنّ مأخذهم واحد، ومشربهم واحد، ومرجعهم إلى واحد، وهو قول الله تعالى والنبيّ والأئمّة المعصومين عليهم السلام كما تقدّم ذكره في المقدّمة، لأنّ هؤلاء (أي الصوفيّة) أخذوا منهم (أي من الأئمّة عم) الأصول بحسب الباطن - أي بحسب الطريقة - كما أخذ الشيعة منهم الأصول بحسب الظاهر - أعني من حيث الشريعة - وكلاهما صحيح، واجب عليهم بيانهما وعلينا القيام بهما، كما سيجيء تقريره عند البحث في الشريعة والطريقة والحقيقة.

٤٢٩ - وبالحقيقة سبب تشنيعهم عليهم وعلى أمثالهم ما كان إلا من عدم علمهم بأصولهم وقواعدهم وكيفيّة مأخذهم وترتيب إسنادهم، لأنّهم لو اطّلعوا على ذلك على ما ينبغي، لما شنّعوا عليهم أصلاً، ولا اعترضوا على كلامهم أبداً، لكنّ: «المرء عدوّ ما جهله».

وعلى هذا التقدير، وجب علينا تقريره وتحقيقه ليزول به التنفّر (أي النفور) عن خواطرهم، ويحصل لهم الاضطلاع على أصولهم وقواعدهم، لأنّ الله تعالى ما أنعم بهذه النعمة من بينهم إلا علينا، وما انكشف هذا الحجاب بخلافهم إلا عن أعيننا. و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ﴾[1]، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

٤٣٠ - فنقول: اعلم أنّه كما لا يكون الفساد في الطائفة الإماميّة، القائلين بظاهر الشريعة (فيما يتعلّق بالأصول المأخوذة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام فكذلك لا يمكن (أن يتطرّق) الفساد في (مآخذ) الطائفة الصوفية الحقّة، القائلين بباطن الشريعة، لأنّ أصول الطائفة الأولى وفروعهم كما هي منقولة عن النبيّ والأئمة المعصومين عليهم السلام نقلاً متواتراً صحيحاً، - كذلك أصول الطائفة الثانية وفروعهم هي أيضاً منقولة عن النبيّ والأئمّة المعصومين عليهم السلام نقلاً متواتراً صحيحاً، لأنّ إسناد

(١) سورة النمل، الآية: ١٥.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢١.

علومهم وخرقتهم - بعد عناية الله تعالى واعطائهم ذلك بطريق الكشف والإلهام، وبعد الأخذ عن الكتاب والسنّة - إلى كميل بن زياد النخعيّ ﵁ الذي أيضاً كان تلميذه؛ وإلى جعفر بن محمّد الصادق ﵇ الذي كان ولده وإمام زمانه؛ وبعده إلى أولاده المعصومين واحداً بعد واحد حتّى إلى المهديّ صاحب الزمان - صلوات الله تعالى عليه - الذي هو ألآن على مذهبهم موجود، وهو قطب الوجود، وإمام الوقت، وصاحب الزمان، والدنيا قائمة بوجوده، وظهور الساعة موقوف على ظهوره، لأنّ عندهم لا يجوز خلوّ الزمان عن المعصوم القطب، كما أنّ عند الشيعة لا يجوز خلوّ الزمان عن المعصوم القطب، كما أنّ عند الشيعة لا يجوز خلوّ الزمان عن المعصوم، إماماً كان أو نبيّاً.

٤٣١ - والقطب والمعصوم أو القطب والإمام لفظان مترادفان، صادقان على شخص واحد، وهو خليفة الله تعالى في أرضه، كما قال أمير المؤمنين ﵇ بعد كلام طويل مشيراً إليهم، وهو قوله: «اللّهم، بل لا تخلو الأرض من قائم لله بحججه، إمّا ظاهراً مشهوراً أو خافياً مغموراً. لئلا تبطل حجج الله تعالى وبيّناته. وكم ذا؟ وأين أولئك؟ أولئك هم والله! الأقلّون عدداً والأعظمون قدراً، بهم يحفظ الله تعالى حججه وبيّناته» إلى آخره.

٤٣٢ - هذا على سبيل الاجمال. وأمّا على سبيل التفصيل، فترتيب إسنادهم من أمير المؤمنين إلى كميل بن زياد وإلى الحسن البصريّ ومنهم إلى مريديهم، فمعروف مشهور غنيّ عن الشريح والبسط، لسنا في صدد بيانه.

وأمّا ترتيب إسنادهم إلى من أمير المؤمنين إلى كميل بن زياد وإلى الحسن البصريّ ومنهم إلى مريديهم، فمعروف مشهور غنيّ عن الشرح والبسط، لسنا في صدد بيانه.

وأمّا ترتيب إسنادهم إلى ولانا وإمامنا جعفر بن محمّد الصادق ﵇ فهو أنّ السرّ المعلوم الذي هو سرّ التوحيد، انتقل من أمير المؤمنين إلى أولاده الحسن ثمّ الحسين؛ ومن الحسين إلى ولده المعصوم زين العابدين؛ ومنه إلى ولده محمّد بن عليّ الباقر؛ ومنه إلى ولده جعفر بن محمّد الصادق؛ ومنه إلى ولده موسى الكاظم؛ ومنه إلى ولده عليّ بن موسى الرضا؛ ومنه إلى ولده محمّد التقيّ، ومنه إلى عليّ

النقيّ؛ ومنه إلى الحسن العسكريّ؛ ومنه إلى محمّد بن الحسن المهديّ صاحب الزمان - صلوات الله عليهم أجمعين.

٤٣٣ - وأمّا (ترتيب إسنادهم) إلى المشايخ، فمن جعفر الصادق عليه السلام إلى أبي يزيد البسطاميّ - قدس الله سرّه - الذي كان تلميذه وسقّاء داره ومحرم أسراره، كما ذكر علماء الشيعة والسنّة في كتبهم الكلاميّة، عند نسبة جميع العلوم إلى أمير المؤمنين، ومنه إلى أولاده ومريديه.

وكان الإمام جعفر من خلفائه (أي الإمام عليّ) في هذا الباب (أي في نسبه جميع العلوم إليه) وإلى الآن أصحابه ومريدوه عليه.

(وترتيب إسنادهم) أيضاً: من موسى الكاظم عليه السلام إلى شقيق البلخيّ، ومنه إلى تلامذته ومريديه. و (ترتيب إسنادهم كذلك من عليّ بن موسى الرضا إلى معروف الكرخيّ، ومن معروف الكرخيّ إلى السريّ السقطيّ، ومن السريّ إلى الجنيد البغداديّ، ومن الجنيد إلى الشبليّ، وهكذا (الشأن) إلى اليوم؛ وهم على هذا، وكذلك مريدوهم، خلفاً عن سلف.

٤٣٤ - فهذه الطائفة الحقّة المستحقة لوديعة سرّ الولاية والتوحيد فيهم، لمّا تحقّق حقيقتهم وإسناد علومهم وطريقتهم إلى الأئمّة المعصومين عليهم السلام لا ينبغي أن يحكم أحد بابطال مذهبهم واعتقادهم، خصوصاً الشيعة الإماميّة. وإن حكم (أحد ببطلان علوم هذه الطائفة) فلا يخلو من أحد وجهين: أمّا عدم صحّة إسناد هذه العلوم والأسرار إليهم، وأمّا عدم اطّلاعهم على علوم البواطن.

فإن كان الأوّل، فهو ظاهر في غاية الظهور؛ واتّفق العلماء على ذلك، وقد تقرّر تفصيله بطريق التواتر، والانكار على المتواترات يكون من قبيل المكابرات.

٤٣٥ - وإن قيل: إنّكم إذا تمسكتم بحقيّة طرقهم بمجرّد إسناد علومهم إلى الأئمّة، فيلزم منه أنّ كلّ طائفة تكون نسبة علومهم إليهم، تكون حقّاً. وقد تقرّر أنّ إسناد جميع العلوم إليهم، فيلزم أن يكون الكلّ حقّاً، وليس الكلّ حقّاً بمدّعى الكلّ، - أجيب عنه بأنّه ما ثبتت حقيّة طرقهم بمجرّد الإسناد فقط، حتّى يلزم هذا، بل به وبغيره، أي بالإسناد وغير الإسناد.

فأمّا الإسناد، فمعلوم. وأمّا غير الإسناد، فهو تطابق الكشفين، أي كشفهم وكشف الأئمّة في هذا الباب، لأنّهما مطابقان «حذوَ النعل بالنعل والقذّة بالقذّة».

٤٣٦ - وإن قيل: يلزم من هذا أيضاً مساواتهم مع الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، - أجيب عنه بأنّه لا يلزم ذلك، لأنّ من مساواة طلوع الشمس بالنسبة إلى الأبصار لا يلزم مساواة الأبصار في مشاهدتها، لأنّ كلّ بصر لا يشاهدها إلا بقدر نوره وضوئه.

فافهم! فإنّه دقيق. وقس عليه حال الأنبياء وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] الآية.

وقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[2].

وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[3]. وغير ذلك من الأقوال.

٤٣٧ - وأمّا هذا الاعتراض، فإن كان من الفرقة الإماميّة، فهذا بعينه يرجع إليهم، لأنّ اثبات حقيّتهم ليس إلا بمجرّد إسناد علومهم إليهم، ولا كشف عندهم ولا شهود.

وإن كان (هذا الاعتراض) من غيرهم، فكذلك (يرجع إليهم أيضاً)، لأنّهم لا بدّ من أن يسندوا علومهم إلى أحد، ويلزم من ذلك الإسناد هذا الاعتراض بعينه، لأنّ من صحّة الإسناد لا يلزم صحّة الحصول.

٤٣٨ - وإن قيل أيضاً: أنّهم لو كانوا حقّاً، لما خافوا من أحد، وكانوا مشهورين بين الناس، ولم يخفوا علومهم، وكانوا جاهزين بها كغيرهم، - أجيب عنه: بأنّ هذا السرّ لا زال كذلك مستوراً مخفيّاً، مودّعاً عند أهله، مضموناً به على غيرهم. ومع ذلك فاخفاء السرّ وقلّة أهله لا يدلّ على بطلانه، لأنّ اخفاء هذا السرّ واجب، لما تقرّر في المقدّمة ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[4]. ولقوله: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[5]. وقلّة أهله (أي أهل السرّ، هو

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٩.
(٣) سورة النجم، الآية: ١٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦١.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠١.

أمر) مشكور لا مذموم، لقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1]. والنبيّ ﷺ أمر بذلك، أي باخفاء المذهب والذهب والذهاب، بقوله: «**استر ذهابك وذهبك ومذهبك**». وكذلك جميع الأئمّةالمعصومين عليهم السلام لقلّة الأهل.

٤٣٩ - واخفاء السرّ في الفرقة الأماميّة أكثر، لأنّ أصول دينهم وأساس قواعدهم على ذلك، لقول إمامهم جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «**التقيّة ديني ودين آبائي، فمن لا تقيّة له، لا دين له**»، ولقول علمائهم، منهم: ابن بابويه القميّ - رحمة الله عليه - فإنّه ذكر في «اعتقاداته»: أنّ التّقيّة واجبة، من تركها فقد خرج عن دين الإماميّة، وهو قوله: «التقيّة واجبة، من تركها فقد خرج عن دين الإماميّة، وهو قوله: «التقيّة واجبة، من تركها كان بمنزلة من ترك الصلاة الواجبة».

وقوله: «التقية واجبة لا يجوز رفعها إلى أن يخرج الإمام القائم عليه السلام فمن تركها قبل خروجه، فقد خرج من دين الإماميّة وخالف الله تعالى ورسوله والأئمّة عليهم السلام، وأمثال ذلك كثيرة.

٤٤٠ - وإن كان الثاني: (أي أن حكم أحد ببطلان علوم الطائفة الصوفيّة لعدم اطّلاعهم على علوم البواطن)، فهو أيضاً في غاية الشهرة والجلاء، ولا يقول به إلا الجاهل بأصول مشايخ الإماميّة وأصول أرباب الطريقة، لأنّ المشايخ الإماميّة كلّهم ذكروا في كتبهم إسناد جميع العلوم الرسميّة والحقيقيّة إلى عليّ عليه السلام منهم: الإمام الفاضل كمال الدين هيثم البحرانيّ - قدّس الله سرّه - فإنّه ذكر في «الشرح الكبير لنهج البلاغة» و (في) «قواعده الكلاميّة» مفصّلاً ومجملاً بأنّ «جميع العلوم مستفادة من حضرته».

وكذلك الشيخ الأعظم جمال الدين بن المطهّر - قدّس الله روحه - في كتاب «مناهج اليقين» و «منهاج الكرامة» و «شرح النظم» وغير ذلك من الكتب. وكذلك السمرقنديّ، وكذلك المولى الأعظم، أفضل المتقدّمين والمتأخّرين، خواجة نصير الدين الطوسيّ - قدّس الله روحه - في «التجريد».

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

٤٤١ - وأمّا أرباب الطريق، فليس لهم إسناد إلا إليه (أي الإمام عليّ عليه السلام): وإلى تلامذته، كما مرّ تقريره وترتيبه مفصّلاً.

٤٤٢ - وأمّا تفصيل ذلك من قول علماء الإماميّة، فهو قول المولى الأعظم كمال الدين ميثم البحرانيّ - قدّس الله سرّه - وقد ذكرناه عند البحث في «العلم الرسميّ والعلم الكسبيّ» والفرق بينهما.

وأمّا قوله عليه السلام الدالّ على ذلك، فكثير؛ منه قوله: «لو كسرت لي الوسادة ثمّ جلستُ عليها، لقضيتُ بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الإنجيل بأنجيلهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم. والله! ما من آية نزلت في برّ أو بحر أو سهل أو جبل أو أرض أو سماء أو ليل أو نهار، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وفي أيّ شيءٍ نزلت، وفي أيّ وقت نزلت».

وقوله: «والله! لو شئتُ أن أخبر كلّ رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه، لفعلتُ؛ ولكنّي أخاف أن يكفروا فيّ برسول الله».

وقوله: «والله! لقد اندمجت على مكنون علم، لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة».

وقوله: «سلوني عمّا دون العرش، فإنّي بطرق السماء أعلم من طرق الأرض».

وقوله: «تعلّمتُ من رسول الله ألف باب من العلم، ففتح لي من كلّ باب ألف باب».

وقوله: «لو كشف الغطاء، لما ازددتُ يقيناً» وغير ذلك من الأقوال.

٤٤٣ - ومعلوم أنّ هذه الوسعة والقدرة في العلوم لا تكونان إلا من الكشف والإلهام المسمّى: بالعلم اللدنيّ.

وقد ذكر الغزالي في تصانيفه، وكذلك محيي الدين بن العربيّ - قدّس الله سرّه - أنّ العلوم اللدنيّة والحقائق الإلهيّة وما تابعهما، مخصوصة بعليّ عليه السلام دون غيره من الأولياء من الأزل إلى الأبد، كالنبوّة (العامّة مخصوصة) بالنبيّ صلى الله عليه وآله - وكلام هذين الشيخين العظيمين أيضاً ليس بقليل. وهذا الحال أشهر وأبين من أن يحتاج أحد فيه إلى البرهان.

٤٤٤ - وإذا تحقّق هذا، فنرجع ونقول: (إنّ) هذا السرّ المنقول من أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام وأولاده المعصومين إلى تلامذتهم ومريديهم، هو عند العوامّ من الصوفيّة وغيرهم موسوم بالخرقة، وعند الخواصّ موسوم بسرّ الولاية.

٤٤٥ - فالذي قاله العوامّ: إنّ خرقة التصوّف كانت لآدم عليه السلام وهو لبس من يد جبرائيل عليه السلام باذن الله وأمره، وكانت من جنس الصوف أو غيره؛ فوصلت منه إلى ولده شيث عليه السلام بالإرث الصوريّ؛ ومن شيث إلى أولاده؛ ومنهم إلى نوح عليه السلام ومن نوح إلى أولاده؛ ومنهم إلى إبراهيم عليه السلام ومن إبراهيم إلى أولاده؛ ومنهم إلى محمّد صلى الله عليه وآله ومنه إلى عليّ عليه السلام ومن عليّ إلى أولاده وتلامذته؛ ومنهم إلى تلامذتهم ومريديهم على الترتيب المذكور، - ليس بصحيح ولا معقول.

٤٤٦ - لأنّ الخرقة عند الخواصّ هي: «سرّ الولاية» الذي كان للنبيّ صلى الله عليه وآله بالأصالة، لقوله: «كنتُ نبيّاً وآدم بين الماء والطين». وانتقل منه (هذا السرّ) إلى آدم بطريق العارية، على سبيل الوصيّة بعينه؛ ومن آدم إلى ولده شيث، بالإرث الحقيقيّ المعنويّ - ومن شيث عليه السلام (انتقل سرّ الولاية) على الترتيب المذكور إلى محمّد عليه السلام؛ ومنه إلى عليّ، ومن عليّ إلى أولاده المعصومين وتلامذته؛ وكذلك ينتقل من بعضهم إلى بعض، إلى يوم القيامة. وهذا الوجه أحقّ وأولى من الأوّل.

٤٤٧ - لأنّ الخرقة الصوريّة من الصوف أو القطن أو غيرهما، ليس لها دخل في حصول «سرّ الولاية» في الشخص. فكأنّها استعارة ومجاز لتفهيم «أهل الصورة» و «أهل الظاهر». وإلا، فنسبة هذا المعنى (أي سرّ الولاية) إلى الخرقة، كنسبة «لباس التقوى» إلى التقوى، لقوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾(١).

ومعلوم أنّ التقوى ما لها لباس. وكذلك حال «الفتوّة» و «العقل» و «الشرب» المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام لأنّها أيضاً أمور معنويّة وأخذ أهل الصورة بالصورة ويعملون عليها، غافلين عن معناها. وجميع الأوضاع المشهورة في العالم، عند التحقيق، هذا حالها. ولولا مخافة التطويل، لشرعتُ في بيان كلّ واحدٍ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٥.

واحدٍ منها، وبينتُ تحقيقها، خصوصاً «الخرقة الصوريّة» وسببها وسبب تسميتها (بالفارسيّة) بـ «هزار ميخ»، وغير ذلك.

٤٤٨ - وأمّا بيان سرّ الولاية والنبوّة والرسالة، وكيفيّة انتقاله إلى الأنبياء والأولياء؛ وبيان أنّ هذا المعنى مخصوص بالنسب المعنويّة لا بالنسبة الصوريّة؛ وأنّ هذا العلم إرثيّ لا كسبيّ؛ وأنّ العلماء الذين هم «ورثة الأنبياء» هم الموصوفون بهذا العلم، وكيفيّة تحصيل هذا العلم لكلّ من أراد، وغير ذلك من الأسرار واللطائف، فسيجيء في الأصل الثالث من هذه الرسالة، كما تقرّر في الديباجة، إن شاء الله تعالى.

٤٤٩ - ولكن سمعتُ بعض الصوفيّة يقول: لم يخصّص الشيعة أئمّتهم باثني عشر؟ ولمَ يسمّونهم بالمعصومين؟ والعصمة، أيّ شيءٍ معناها؟ - فنريد أن نشرع في بيان ذلك، ونزيل هذه الشبهة عن خاطره، ثمّ نرجع إلى بيان غير ذلك من الأبحاث.

٤٥٠ - فنقول: أيّها الصوفيّ! هذا التعجب، إن كان في نفس العدد، وأنّه عدد غريب ما وقع مثله في شيءٍ من الأشياء، فهذا ليس بعجب، لأنّ أكثر الأشياء وأعظمها مشتمل عليه، مثل: البروج، والشهور، وساعات الليل و (ساعات) النهار، وأسباط بني إسرائيل ونقبائهم، والعيون الصادرة من عصا موسى عليه السلام وغير ذلك.

٤٥١ - ومع ذلك، فهذا الاعتراض يرد على كلّ عدد من الأعداد، لأنّ كثيراً من الأشياء هو واقع على واحد واحد، وعلى اثنين اثنين، وعلى ثلاثة ثلاثة، وعلى أربعة أربعة، وهكذا بالغاً ما بلغ العدد، كما سيجيء تفصيله. فلو اعترضت على كلّ واحد من الأعداد أنّه لَم كان كذلك؟ مثل السماوات، لَم كانت سبعة أو تسعة؟ والكواكب السيّارة، لَمَ كانت سبعة؟ والبروج، لم كانت اثني عشر؟ والجهات، لم كانت ستة؟ والأرضين، لَم كانت سبعة؟ والبحور، لَم كانت سبعة؟ والجنّة، لم كانت ثمانية؟ والنار، لَم كانت سبعة؟ وكذلك مالك الجنان، (لَم كان) رضوان؟ ومالك، مالك النيران؟ السنة، لَم كان ثلاثمائة وستّين يوماً؟ والشهر، لم كان ثلاثين يوماً؟ واليوم والليلة، لَم كانا أربعة وعشرين ساعة؟ - وأمثال ذلك.

٤٥٢ - وكذلك فيما ورد: في التسبيح والتهليل والتمجيد والتكبير، وأنّه لا يصح إلا في عدد معين، مثل: سبعين تسبيحاً، وأربعين تكبيراً، وثلاثين تهليلاً، وأربع

وثلاثين تحميداً، إلى ما لا نهاية له، (ممّا لو ذكرتُه) لطال عليك الزمان، وما حصل لك شيء من هذا.

فيكفيك هذا المقدار، (وهو) أن تعرف أو تعتقد أنّ الموجودات واقعة على حكمة الله تعالى واتقانه وأحكامه، (وأنّ) كلّ عدد أو كلّ شيءٍ له خصوصيّة، وهو عالم بخصوصيّته على ما هو عليه، وليس كلّ أحد مكلّفاً بمعرفته، وأنّ تحصيله جائز، غير منهيّ عنه ولا محظور، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(1).

٤٥٣ - ذكر صاحب رسائل اخوان الصفا وقال: «إنّ فيثاغورس الحكيم هو أوّل من تكلّم في طبيعة العدد».

وقال: «إنّ الموجودات واقعة بحسب طبيعة العدد، فمن عرف طبيعة العدد وأنواعه وخواصّه، أمكنه أن يعرف كميّة أنواع الموجودات وأجناسها، وما الحكمة في كميّتها على ما هي عليه الآن، ولِمَ لم تكن أكثر من ذلك ولا أقلّ منه».

٤٥٤ - «وذلك أنّ الباريء - جلّ وعزّ - لمّا كان هو علّة الموجودات وخالق المخلوقات، وهو واحد بالحقيقة، لم يكن من الحكمة أن تكون الأشياء شيئاً واحداً من جميع الجهات، بل وجب أن تكون واحداً بالهيولى كثيراً بالصورة. ولم يكن من الحكمة أن تكون الأشياء كلّها ثنائيّة ولا رباعيّة ولا أكثر من ذلك ولا أقلّ، بل كان الأحكم والأنفس أن تكون على ما هي عليه من الأعداد والمقادير، وكان ذلك في غاية الحكمة».

٤٥٥ - «وذلك أنّ من الأشياء ما هي ثنائيّة، ومنها ما هي: ثلاثيّة ورباعيّة، ومخمّسات ومسدّسات ومسبّعات ومعشّرات، وما زاد على ذلك بالغاً ما بلغ.

فالأشياء الثنائية مثل: الهيولى والصورة، والجوهر والعرض، والعلّة والمعلول، والبسيط والمركّب، واللطيف والكثيف، والنيّر والمظلم وغير ذلك.

وبالجملة من كلّ زوجين اثنين، كما ذكر الله - عزّ وجلّ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾(2).

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

(2) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

٤٥٦ - «وأمّا الأشياء الثلاثيّة، فمثل: الأبعاد الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق؛ ومثل المقادير الثلاثة، التي هي الخط والسطح والجسم؛ ومثل: الأزمان الثلاثة، التي هي الماضي والمستقبل والحاضر، وغير ذلك. وبالجملة، (الأشياء الثلاثية هي كلّ أمر ذي واسطة وطرفين».

٤٥٧ - «وأمّا الأشياء الرباعيّة، فمثل: الطبايع الأربع، التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة؛ ومثل: الأركان الأربعة، التي هي النار والهواء والماء والأرض؛ ومثل: أجزاء الزمان، التي هي الربيع والصيف والشتاء والخريف؛ ومثل: الجهات الأربعة، التي هي الشرق والغرب والشمال والجنوب؛ والأوتاد الأربعة، التي هي الآحاد والعشرات والمئات والألوف.

وعلى هذا المثال إذا اعتبر، وجد أشياء كثيرة: مخمّسات ومسدّسات ومسبّعات، بالغاً ما بلغ». هذا آخره (أي آخر قول صاحب رسائل اخوان الصفا).

٤٥٨ - وهذا المقدار يكفيك للتنبيه على حكمة الأعداد وخصوصيّاتها. وإن كان يعجبك أنّ الأئمّة انحصروا في اثني عشر عدداً، وما كانوا أزيد ولا أنقص، فهذا أيضاً ليس بعجب؛ ومع أنّه ليس بعجب، فهو بعينه يرجع إليك.

فأمّا أنّه ليس بعجب، فبما تقدّم الآن، وهو أنّ كلّ عدد له خصوصيّة، وهذا من جملة العدد. فله أيضاً خصوصيّة، وتلك الخصوصيّة ما نعرفها نحن ولا أنت، ولا يلزم من هذا شيء من المفاسد أصلاً.

٤٥٩ - ومع ذلك، فهذا الكلام يرجع إلى عدد الأنبياء عليهم السلام وأنّهم لَم كانوا منحصرين في مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرين ألف نبيّ؟ وإلى عدد الأوصياء عليهم السلام وأنّهم لَمَ كانوا منحصرين في مائة ألف وصيّ وأربعة وعشرين ألف وصيّ؟ وإلى عدد الرسل، وأنّهم لَمَ كانوا مائة وثلاثة عشر رسولاً؟ وإلى عدد أولي العزم، وأنّهم لم كانوا خمسة أو ستّة أو سبعة، على اختلاف القول؟ وإلى سور القرآن، وأنّها أيضاً لَمَ كانت مائة وأربع وعشرين سورة، أو مائة وثلاث عشرة سورة، على اختلاف القول؟ وغير ذلك: من عدد الملائكة، وحملة العرش، والحور والقصور وأمثالها.

٤٦٠ - وأمّا أنّه (أي هذا العجب بعينه) يرجع إليك، فإنّ عندك الأولياء والأقطاب منحصرون في ثلاثمائة وست وخمسين عدداً، أو ثلاثمائة وستّ وستين

عدداً؛ وهذا العدد منحصر في ستّ طبقات، كلّ طبقة عدد برأسه، كالطبقة الأولى: فإنّها ثلاثمائة نفر؛ وكالثانيّة: فإنّها أربعون نفراً، وكالثالثة: فإنّها سبعة نفر؛ وكالرابعة: فإنّها خمسة نفر؛ وكالخامسة: فإنّها ثلاثة نفر؛ وكالسادسة: فإنّها فرد (واحد) وهو القطب. ولستَ أنت عالم بسبب ذلك؛ وإن سألوك بالتحقيق، عجزت عن جوابه.

٤٦١ - غاية ما في الباب، (أنّك) تقول في جوابه وسبب هذا، **أنّه إذا رفع القطب عن مكانه - بمعنى أنّه مات -** قعد رجل من الثلاثة مكانه، ورجل من الخمسة مكان رجل من **الثلاثة، وكذلك** من السبعة والأربعين **والثلاثمائة،** إلى أن يصل (الأمر) قهقرىً إلى القطب، ولا يبقى على الأرض إلا هو، أعني: يموت الخلق إلى أن تصل النوبة إلى هذه الثلاثمائة؛ ومن الثلاثمائة إلى أن تصل إلى الأربعين؛ ومن الأربعين إلى أن تصل إلى السبعة؛ ومن السبعة إلى أن تصل إلى الخمسة؛ ومن الخمسة إلى أن تصل إلى الثلاثة؛ ومن الثلاثة إلى أن تصل (النوبة) إلى القطب، وتقوم القيامة بموته. وهذا ليس بجواب مشبع! لأنّ للخصم - على كل واحدٍ واحدٍ من هذه الدعوى - اعتراضاً، لأنّ اعتراضك أيضاً من هذا القبيل. والحقّ أنّ مثل هذه الاعتراضات ليس بحسن، وليس فيه فائدة طائلة.

٤٦٢ - وأمّا أرباب التحقيق في هذا المقام - أي في عدد الأئمّة وغيرهم - (فلهم) نظر شريف ومعنى لطيف، نورده ههنا توضيحاً للغرض، ونرجع بعده إلى بحث العصمة وغير ذلك من الأبحاث.

وذلك النظر هو أنّهم يقولون: أنّا طابقنا عالم المعنى بعالم الصورة، وكذلك عالم الآفاق بعالم الأنفس.

فما وجدنا شيئاً يكون في عالم المعنى ولا يكون في عالم الصورة، وكذلك في الآفاق والأنفس. فحينئذٍ لمّا وجدنا في عالم الصورة الأفلاك التسعة، والكواكب السبعة، والبروج الاثني عشر، والعناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة، التي بها قوام هذا العالم، فينبغي أن يكون في عالم المعنى كذلك، حتّى تكون المطابقة صحيحاً.

٤٦٣ - فالأفلاك (التسعة هي صورة) العقول التسعة الصادرة من العقل الأوّل، الذي هو الإنسان الكبير الذي هو بمثابة الجوهر الأوّل في الآفاق. أو (هي صورة)

الأملاك الأربعة، التي هي حملة العرش - اليوم[1] - جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحقيقة الإنسان الكبير، لأنّ الأملاك الأربعة هم الكروبيّون، الذين ليس (أحد) أقرب إلى الله تعالى منهم من الملائكة، ومنهم يصل الفيض إلى مجموع أهل العالم أعلاه وأسفله.

وأنّ جبرائيل سبب ايصال علوم العالمين إليهم؛ وميكائيل سبب ايصال أرزاقهم؛ وإسرافيل سبب ايصال حياتهم؛ وعزرائيل سبب ايصال مماتهم؛ وحقيقة الإنسان الكبير وروحه هو مبدأ الكلّ ومنشأه.

٤٦٤ - وبالحقيقة، الآيات التسعة التي أعطاها (الله) لموسى عليه السلام بحسب المعنى، كانت اطلاعه على حقيقة هذه التسعة الأفلاك وكمالاتها وخصوصيّاتها، وإن كان لها في الآفاق والأنفس، بالنسبة إلى خواصّ أمته وعوامّها، معنى آخر.

٤٦٥ - والكواكب السبعة (صورة) للسبعة من الرسل، الذين هم أولوا العزم منهم، لأنّ - عند المحقّقين - أولي العزم سبعة، لا خمسة ولا ستّة، كما هو رأي جماعة من المسلمين. وهم آدم، ونوح، وإبراهيم، وداود، وموسى، وعيسى، ومحمّد عليهم السلام.

٤٦٦ - ولا ينبغي إلا كذلك - مطابقةً للآفاق وعالم الصورة والبروج الاثني عشر الأئمّة الاثنا عشر، الدائرة فيها (أي في أبراج ولايتهم) هؤلاء السبعة من الأنبياء، لأنّ دوران الأنبياء والرسل لا يكون إلا على أبراج الولاية لتحصيل الكمالات والشرف، لأنّها (أي الولاية) هي الأصل (للنبوّة والرسالة) كما سنذكر تحقيقها في موضعه.

ولا ينبغي أن يتوّهم من هذا الكلام غير الحقّ، لأنّ الوليّ فقط لا يكون أعظم من النبيّ مطلقاً، وإن كانت الولاية أعظم من النبوّة. وهذا المذهب (أي كون الوليّ أعظم من النبيّ، هو): مذهب الملاحدة من الاسماعيليّة لا غير. والعناصر الأربعة صورة للأوتاد الأربعة القائمة على أطراف العالم، من اليمين والشمال والخلف

---

(١) اليوم: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

والقدّام. والمواليد الثلاثة (صورة) للأنواع الثلاثة، من الإنسان والملك والجنّ، أو النبيّ والرسول والوليّ.

٤٦٧ - والحقّ أنّ هذا نظر شريف ووجه حسن، وعليه اتّفاق أكثر المشايخ **المعتبرين من الصوفية، مثل:** الشيخ الأعظم محيي الدين بن العربيّ - **قدّس الله سرّه - فإنّه ذكر في «فتوحاته»: أنّ** بين الفلك الثامن والتاسع **قصراً** له اثنا عشر برجاً، على مثال: النبيّ والأئمّة الاثني عشر، وغير ذلك من الأسرار. ومثل الشيخ الكامل سعد الملّة والدين الحمونيّ - قدّس الله روحه العزيز -: فإنّه ذكر في بعض تصانيفه: «أنّ اسم الوليّ لا يصدق إلا على هؤلاء الأئمّة الاثني عشر - صلوات الله عليهم - لأنّ غيرهم ليسوا بالأولياء والأئمّة، بل (سمّوا) بالأوتاد والأبدال»، وذكر هذا النقل تلميذه عزيز الدين النسفيّ - رحمه الله - في أكثر رسائله. وإن استقريت، عرفتَ أكثر من ذلك. هذا آخر الوجه الثاني من هذا البحث.

٤٦٨ - وإن قلتَ: فإذا كان في هذا العدد خصوصيّة، ولا يمكن ظهورها بدونه، فينبغي أن يكون الأئمّة والأوصياء في جميع الأزمان كذلك، لا أزيد ولا أنقص. وما سمعنا بذلك! - قلنا: عدم سماعك لا يدلّ على عدمه، لأنّه في جميع الأزمان، ما كانت الأئمّة والأوصياء إلا اثني عشر. وذكر ذلك أكثر الفضلاء في كتبهم وتصانيفهم، كما هو معلوم لأهله. وإن اطّلعتَ على كتب الله المنزلة من السماء، عرفتَ ذلك بالتحقيق.

٤٦٩ - ومع ذلك، فإن أردتَ، ذكرنا ههنا نقلاً واحداً مهم (أي من الفضلاء) بعبارته، لتعرف أنّ الحال دائماً كان كذلك. وهو هذا: «اعلم أنّ مبني قولهم قائم على أنّ الأنبياء وإن كانوا مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرين ألف نبيّ وكذلك الأوصياء، لكنّ الشريعة صارت منحصرة في ستّة من الأنبياء الكبار، وأوصياؤهم وأئمّتهم في اثني عشر وصيّاً أو إماماً، وذكروا أسماءهم مفصلاً، كما ستعرفه».

٤٧٠ - وأوّل ذلك النقل وهو قول ذلك الشخص: «اعلم أنّه لا بدّ لكلّ نبيّ مرسل بكتاب من عند الله تعالى أن يورث ذلك وصيّاً يودع فيه أسرار نبوّته وأسرار الكتاب المنزل، ويكشف له مبهمه، ليكون ذلك الوصيّ هو حجّة ذلك النبيّ على قومه، ولئلا تتصرّف الأمّة في ذلك الكتاب بآرائها وعقولها، فتختلف وتزيغ قلوبها، كما

أخبر الله تعالى فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(١). فالرسول والإمام والكتاب هم الحجّة على الأمّة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾(٢).

٤٧١ - «ثمّ اعلم أنّ أصحاب الشريعة من لدن آدم إلى محمّد، هم ستّة؛ كلّ واحد منهم: جاء بشريعة واحدة، مدّةً.

فالشريعة الأولى فاتحة، والآخرة خاتمة، وما بينهما تنسخ (الشريعةُ) الآخرةُ الأولى، لتعود الخاتمةُ فاتحةً والفاتحةُ خاتمةً. وإلى ذلك أشار النبيّ، باستدارة الزمان، وهو قوله: **«قد استدار الزمان كهيئته يوم خلق الله فيه السماوات والأرضين»**.

٤٧٢ - «فالأنبياء الستّة (أي أصحاب الشرائع هم) آدم، - نوح، - إبراهيم، - موسى، - عيسى، - محمّد - صلوات الله عليهم أجمعين. وإنّ لكلّ واحد منهم، من الأوصياء المتواصلين به في الأزمنة المتباعدة والمتقاربة، اثني عشر وصيّاً يحفظون كلمته ويقيمون شريعته، ما دام التكليف باقياً. والوصيّ هو الحجّة بعد ذلك النبيّ، وهو الإمام الناطق بتأويل الكتاب، الصامت بحفظ الشريعة، ويقيم الحدود، ويسدّالثغور، ويقصر يد الظالم عن المظلوم.

٤٧٣ - «فالشريعة الفاتحة: لآدم عليه السلام وأوصياؤها: اثنا عشر، وهم: شيث، هابيل، قينان، ميسم، شيسم، قادس، قيذق، ايميخ، اينوخ، ادريس، وينوخ، ناحور.

٤٧٤ - «والشريعة الثانية: لنوح عليه السلام. وأوصياؤها: اثنا عشر وصيّاً، وهم: سام، يافث، أرفخشد، فرشخ، فاتو، شالخ، هود، صالح، ديمخ، معدل، دريخا، هجان.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

٤٧٥ - «**والشريعة الثالثة**: لإبراهيم عليه السلام وأوصياؤها: اثنا عشر وصيّاً، وهم: إسماعيل، اسحق، يعقوب، يوسف، ايلون، أيّوب، زينون، دانيال الأكبر، اينوخ، اناخا، ميدع، لوط.

٤٧٦ - «**والشريعة الرابعة**: لموسى عليه السلام - وأوصياؤها: اثنا عشر وصيّاً: وهم: يوشع، عروف، عزير، أريسا، داود، سليمان، آصف، اتراخ، منيقا، ارون، واعث.

٤٧٧ - «**والشريعة الخامسة**: لعيسى عليه السلام وأوصياؤها: اثنا عشر وهم: شمعون، عروف، قيذف، عبير، زكريا، يحيى، أهدى، مشخا، طالوت، قس، استين، بحيرا الراهب.

٤٧٨ - «**والشريعة السادسة**: لمحمّد صلى الله عليه وآله، وأوصياؤها: اثنا عشر وصيّاً، وهم: أمير المؤمنين عليّ، الحسن الزكيّ، الحسين الشهيد، عليّ زين العابدين، محمّد الباقر، جعفر الصادق، موسى الكاظم، عليّ الرضا، محمّد التقيّ، عليّ النقيّ، الحسن العسكريّ المهدي القائم، وبه جمعت الأوصياء، وعدّتهم اثنان وسبعون وصيّاً لستّة أنبياء مرسلين.

٤٧٩ - «فإن حصل بين الوصيّ المتّصل بالنبيّ المتّصل بالله فترةٌ من الزمان إلى وصيّ آخر، حفظ تلك الوصيّة الرجالُ المؤمنون بشريعة ذلك النبيّ وبإيمان ذلك الوصيّ، ولا يزالون ينقلونها سرّاً إلى أن يظهرها الله تعالى جهراً، لقول النبي صلى الله عليه وآله: **«لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله تعالى ذلك اليوم، ليخرج رجل من ولدي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»**.

٤٨٠ - هذا آخر النقل المذكور. ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

هذا بيان علّة عددهم (أي الأئمّة) بالاثني عشر.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢١.

٤٨١ - وأمّا بيان تسميتهم «بالمعصوم» ومعنى العصمة، فالعصمة في اللغة هو ما اعتصم به الإنسان من الشيء، وكأنّه امتنع به من الوقوع فيما يكره.

والعصمة من الله تعالى هي التوفيق الذي يسلّم به الإنسان فيما يكره إذا أتى الطاعة.

وذلك مثل: **اعطائنا رجلاً غريقاً حبلاً يتشبّث به، إذا أمسكه واعتصم به يسلم؛ وذلك الشيء عصمة له لمّا تشبّث به، فسلّم من الغرق؛ ولو لم يعتصم به، لم تتمّ عصمة له.**، وكذلك سبيل اللطف: **إنّ الإنسان إذا أطاع سُمّي (فعله) توفيقاً وعصمةً؛ وإن لم يطع، لم يسمّ فعله توفيقاً ولا عصمةً. وقد بيّن الله تعالى ذلك** المعنى في كتابه، بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[1].

حبل الله هو دينه. ألا ترى أنّهم بامتثال أمره تعالى يسلمون من الوقوع في عقابه؟ فصار تمسّكهم بأمره اعتصاماً، وصار لطف الله بهم في الطاعة عصمةً.

٤٨٢ - هذا على رأي المتقدّمين من علماء الشيعة. أمّا على رأي متأخّريهم، فالعصمة صفة للإنسان يُمنع بسببها من فعل المعاصي، ولا يمتنع منها بدونها. هذا معنى العصمة وتعريفها، لغةً واصطلاحاً.

٤٨٣ - وأمّا علّة تسميتهم الأئمّة عليهم السلام: بالمعصوم، فهو أنّ الأنبياء والأئمّة، عندهم، معصومون من الكبائر والصغائر، عمداً وسهواً، من حين الطفوليّة إلى آخر العمر، وإن خالفهم في هذا كثير من الناس، مثل: الأشاعرة والمعتزلة وتابعيهم، والخوارج والزيديّة وأمثالهم. وبيان ذلك أنّهم يقولون: لا شكّ ولا خفاء أن الله تعالى خلق عباداً وكلّفهم بالتكليف، لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]. فإن لم يبعث إليهم أحداً يعلّمهم هذا التكليف، حتى يقوموا بآدائه، لم يحصل غرضه - الذي هو العبوديّة - من هذا التكليف. وإذا لم يحصل غرضه، يكن تكليفهم عبثاً، والعبث على الله محال. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٨.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[1].

٤٨٤ - فإذا بعث الله إليهم شخصاً من الأشخاص البشريّة وقال لهم: «هذا رسولكم»، فلا بدّ له من ظهور علامة تصديقاً له، يعرفون بها أنّه النبيّ من عند الله. وهذه العلامة هي المعجزة.

فإذا ظهرت تصديقاً له، وعرفوه أنّه نبيّ مرسل، فينبغي أن يكونوا آمنين من طرفه من جميع القبائح، كالكذب والخيانة والمفسدة وغير ذلك، - بل (ينبغي أن يكون الناس آمنين من طرف النبيّ) عن الكبائر والصغائر كلّها، لأنّه لو صدر منه فعل من الصغائر، لم تأمن نفوسهم من صدور مثله عنه مرّة أخرى.

فلا يعتمدون عليه ولا على قوله وفعله، ولا يلتفتون إليه. وعلى هذا التقدير، تكون أيضاً بعثته (أي بعثة النبيّ) عبثاً، والعبث محال عليه تعالى، كما مرّ. فينبغي أن يكون النبيّ معصوماً، لتأمن نفوسهم منه، ولا تنفر عقولهم عن مطاوعته، ويقبلوا قوله، ويعملوا عليه، ويصل اللطف من الله تعالى إليهم بواسطته، ولا يلزم من الله تعالى الاخلال بالواجب.

٤٨٥ - وجه آخر في لزوم العصمة: وهو أنّه إذا أمر الله تعالى بمطاوعة هذا النبيّ، كما أمر بمتابعته وجوباً، فلو كان هذا النبيّ فاسقاً، لكان الله تعالى آمراً بمطاوعة الفاسق وجوباً، والأمر بمطاوعة الفاسق وجوباً فسق وقبح، والقبح والفسق على الله تعالى محال، لأنّه حكيم والحكيم لا يفعل مثل ذلك، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

٤٨٦ - فيجب أن يكون الأنبياء معصومين عن جميع القبائح والمعاصي، صغيرةً (كانت) أو كبيرة، وكذلك الأئمّة عليهم السلام لأنّ علّتهم واحدة، وهي بيان التكليف وابقاؤه على الأمّة، وارشادهم إلى الله تعالى سرّاً وعلانيةً، لأنّهم أيضاً لو لم يكونوا معصومين، لم يأمن الناس من مفسدتهم وفسقهم، ولم يقبلوا قولهم، ولم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.

يطاوعوهم. فكانوا مخلّين بالواجب، محرومين من اللطف؛ وحرمانهم من اللطف غير جائز، لأنّه واجب على الله تعالى. وذلك لأنّ مطاوعة الإمام كمطاوعة الله ومطاوعة نبيّه، وهي واجبة لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]. فينبغي أن يكون (الإمام) هو أيضاً معصوماً.

٤٨٧ - وجه آخر في لزوم العصمة: وهو أنّه قد تقرّر في الأصول أنّ وجود الأنبياء والأئمّة لطف في حقّ المكلّفين، لأنّ اللطف عبارة عن الشيء الذي يكون المكلّف بسببه إلى الطاعة أقرب ومن الفساد أبعد.

ونحن نعرف بالحقيقة أنّه إذا كان بين الناس مثل هؤلاء القوم، كان الناس إلى الطاعة أقرب ومن الفساد أبعد، لأنّ من جملة تعليمهم تكليفهم للأمّة، ومنعهم عن المناهي وردعهم عنها.

فلو كانوا موصوفين بها، متّهمين بفعلها، لما أمكنهم المنع عنها، لأنهم (أي الناس المكلّفين) يقولون في جوابهم (للأنبياء والأئمة): لَم تفعلون أنتم كذا وكذا وتمنعون غيركم عنها؟ وكان الحقّ في طرفهم. وهذا مجرّب، لأنّ كلّ شخص يفعل فعلاً ويمنع غيره عنه، لا يقبل قوله ولا يلتفت إليه.

٤٨٨ - وأيضاً لو كانوا: (أي الأنبياء والأئمّة) جائزي الخطأ، غير معصومين، لكانوا هم أحوج إلى اللطف؛ ووجود الرئيس من غيرهم لكمال عقلهم وكياستهم وتمكّنهم من تركها؛ فكان الله تعالى مخلاً للأحوج إلى اللطف من غيره، وهذا محال.

٤٨٩ - وأيضاً: لو كان النبيّ أو الإمام فاسقاً، لكان محتاجاً إلى نبيّ آخر أو إمام آخر لقيام الحدود عليه حين فسقه؛ وإلا، لما كان ملطوفاً به، وهذا غير جائز.

والكلام في ذلك النبيّ أو الإمام كالكلام فيهما، وهذا يتسلسل، وأمّا أن يقوم بحدّ النبيّ أو الإمام الأمّةُ، وأمّا أن يحدّهم النبي أو الإمام؛ وهذا يدور، والدور والتسلسل باطلان. فما بقي إلا أن يكون النبيّ أو الإمام معصوماً، وهو المطلوب.

٤٩٠ - وحيث ثبتت إمامة هؤلاء الأئمة بالنقل والعقل، كما هو مذكور في كتب

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٢.

الشيعة، ثبتت عصمتهم. وهذا كان سبب تسميتهم به، أي تسمية الأئمة بالمعصومين. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

٤٩١ - وإذا عرفت هذا، فاعلم أنّ لهم قاعدة أخرى - في هذا الباب - كليّة وهي أقوى من الكلّ. وهي أنّ الإمامة عندهم مبنية على النصّ والعصمة، لا على الإجماع أو القياس، كما هو رأي غيرهم. ومرادهم في ذلك هو أنّه: يجب أن يكون الإمام معصوماً بنفسه، منصوصاً عليه من عند الله تعالى لا من عند غيره، وكذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام.

٤٩٢ - فأمّا بيان أنّه يجب أن يكون الإمام معصوماً، فقد عرفته في بيان العصمة ومعناها وعلّتها.

وأما بيان أنّه يجب أن يكون الإمام منصوصاً عليه من عند الله تعالى، فلأنّ الإمامة لطف من ألطافه، كالتكليف والنبوّة والعصمة وغير ذلك.

واللطف واجب على الله تعالى؛ فيجب عليه تعيينه (أي تعيين الإمام بالنصّ).

فإذا عيّنه وأوجب طاعته على الخلق، فلو كان الإمام غير معصوم، لكان تعالى آمراً بمطاوعة غير المعصوم، الذي يمكن فسقه ولو بصغيرةٍ ما.

فكان تعالى آمراً بالفسق، والآمر بالفسق فاسق بالاتّفاق. فيلزم منه فسقه تعالى، وهو محال. فوجب أن يكون الإمام معصوماً، لئلا يلزم من نصبه تعالى له ونصّه عليه الفساد المذكور.

٤٩٣ - وجه آخر (في ثبوت عصمة الإمام): وهو أنّه قد تقرّر أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً، والعصمة أمر خفيّ لا يطلع عليه غير الله تعالى، لأنّه لا يعلم الغيب إلا الله؛ فيجب عليه تعالى تعيين الإمام لا على غيره، أو يجب على النبيّ المعصوم تعيينه الذي يكون من قبله، ويكون قوله قوله، وفعله فعله، لقوله تعالى فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1]، وكقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[2]. وبالحقيقة نصّ الله تعالى (فيما يخصّ إمامة الإمام) لا يثبت إلا بقول

(١) سورة النجم، الآية: ٣ - ٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

هذا النبيّ، لأنّه لا يخبر عن الله للخلق إلا مثلُ هذا النبيّ، فيكون قوله أيضاً نصّاً، ويكون هذا النصّ عن الله، لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1].

٤٩٤ - وإن قلتَ: سلّمنا أنّ نبوّة الأنبياء ورسالة الرسل وإمامة بعض الأئمّة تثبت بالنصّ، لقوله تعالى في الأنبياء: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[2]. ولقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[3] ولقوله في أمير المؤمنين عليه السلام بزعم الشيعة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾[4]. لكنّ إمامة باقي الأئمّة كيف تثبت بالنصّ، والوحي قد انقطع، والنبوّة قد انختمت، وهؤلاء الأئمّة ما كانوا في ذلك الزمان، وما نصبوهم وما عيّنوهم؟.

٤٩٥ - قلنا: جوابك في هذا السؤال من طرفهم، (هو) في غاية الوضوح، وهو أنّهم يقولون: نحن إذا أثبتنا أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً ومنصوصاً عليه وكذلك النبيّ، فكلّ ما يفعل هذا النبيّ أو هذا الإمام لا يكون إلا من الله تعالى، لأنّ أقوال النبيّ وأفعاله وحركاته وسكناته هي: أقوال الله تعالى وأفعاله، وباذنه وأمره، كما تقدّم تقريره، وللحديث القدسيّ الوارد في هذا الباب: «**لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته، كنتُ سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله. فبي يبصر، وبي يسمع، وبي ينطق، وبي يبطش، وبي يمشي**».

وسبب ذلك: أنّه خليفته ونائبه، وقد رفع الحجاب بينه وبينه، فيكون أيضاً: فعله فعله وقولُه قولَه، وحركاته وسكناته باذن الله تعالى وأمره، كما ورد في الخبر الصحيح عن النبيّ أنّه قال: «**من أحبّ عليّاً فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله ومن أبغض عليّاً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله. ومن سبّ عليّاً فقد سبّني، ومن سبّني فقد سبّ الله**».

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

ولهذا صارت أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم حجّة الله تعالى على خلقه، ووجب القيام بها عقلاً ونقلاً وشرعاً. وصارت طاعتهم كطاعة الله واجبةً، لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي﴾(١).

٤٩٦ - ومعلوم أنّ هذا النبيّ ﷺ نصّ على أمير المؤمنين نصّاً متواتراً في مواضع شتّى، بقول الله تعالى وبقوله أيضاً. أمّا قول الله، فكقوله يوم الغدير: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(٢). ومعلوم أيضاً أنّ هذا ما كان إلا ابلاغ الرسالة بتعيين الإمامة على عليّ عليه السلام باتّفاق أكثر المفسّرين، لأنّ هذا كان في «حجّة الوداع»، وكان الله عالماً بأنّ النبيّ قد قرب أجله، وتعيين الإمام واجب. فأمره بذلك.

٤٩٧ - والدليل عليه فعل النبيّ وقوله. أمّا فعله، فهو أنّه: أمر بنصب المنبر في ذلك المكان من رجل من أصحابه، وارتفع عليه، وأخذ بيد عليّ وعيّنه بالإمامة والخلافة في حياته، وأمر أصحابه بسلام الإمارة عليه، حتّى قال له عمر: «بخٍ! بخٍ! لك يا أمير المؤمنين بامرة المؤمنين». وهذا مشهور في غاية الاشتهار، وإن لم يسلّم (به) الخصم من جهله.

٤٩٨ - وأمّا قوله عليه السلام: في تلك الحالة فهو هذا: «أيّها الناس! ألستُ أولى منكم بأنفسكم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله! قال: فمن كنتُ مولاه، فهذا عليّ مولاه. اللّهمّ! والِ من والاه، وعادِ مَن عاداه، وانصرْ من نصره، واخذلْ من خذله، وأدر الحقّ معه كيفما دار».

ويشهد بذلك قوله تعالى أيضاً الذي أنزل عقيبه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾(٣)، وكقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(٤). ومعلوم أنّ أولي الأمر هو الإمام المعصوم لا غير، لأنّه لو كان غير الإمام

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٢.

المعصوم، لكان الله تعالى آمراً بمطاوعة غير المعصوم، وهذا غير جائز، كما مرّ. وكقوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾(١).

٤٩٩ - وأمّا قول النبيّ ﷺ أيضاً وكقوله: «**نفسك نفسي، ودمك دمي، ولحمك لحمي. وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنّه لا نبيّ بعدي**».

وكقوله: «**إنّ أخي ووزيري، وخير من أتركه بعدي، يقضي ديني وينجز وعدي، عليّ بن أبي طالب**» وغير ذلك من الأخبار التي يطول ذكرها.

ويكفي في ذلك قوله: «**أنت منّي بمنزلة هارون من موسى**» المتّفق عليه أهل السنّة والشيعة، لأنّ منزلة هارون من موسى كان خلافته له في حضوره وغيبته.

فيجب أن تكون منزلة عليّ من النبيّ كذلك. فيكون حينئذٍ خليفته في حياته ومماته، وهذا هو المطلوب. ومن أنكر ذلك، يكون جاهلاً بالعقل والنقل، مكابراً للحقّ وأهله.

٥٠٠ - وإذا ثبتت إمامته أي إمامة عليّ عليه السلام بقول الله تعالى وقول نبيّه، وتحقق نصبه وعصمته أيضاً كذلك، فاعلم أنّه كما كان واجباً على الله تعالى وعلى نبيّه نصبه وتعيينه، فكذلك يجب عليه كإمام أوّل نصب إمام آخر وتعيينه، ويكون بذلك معصوماً مثله. وإلا، فيلزم النقص في عصمته أي في عصمة الإمام الأوّل وإمامته، من اخلاله بالواجب عليه. وقد ثبت أنّه عيّن ولده الحسن، ثمّ بعده الحسين، وكذلك إلى آخر الأئمّة واحداً بعد واحد؛ وسمّاهم بأسمائهم وألقابهم، كما هو مذكور في كتب الشيعة. وكذلك كان شأن النبيّ ﷺ في قوله: للحسن والحسين: «**هذان ابناي، إمامان، قاما أو قعدا. وأبوهما خير منهما**». وقوله فيهما وفي باقي الأئمة: «**إنّ ابني - هذا - إمام، ابن إمام، أخو إمام، أبو أئمّة تسع؛ تاسعهم قائمهم، فإنّه حجّة، ابن حجّة، أخو حجّة، أبو حجج تسع**».

٥٠١ - وروى عن سلمان الفارسيّ - رحمة الله عليه - بالإسناد الصحيح البالغ حدّ التواتر، أنّه قال: «**كنتُ بين يدي رسول الله ﷺ وهو مريض. فدخلت عليه فاطمة فبكت وقالت: يا رسول الله! أخشى الضيعة بعدك.**

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

فقال: يا فاطمة! أمّا علمت أنّ الله تعالى - حتم الفناء على جميع خلقه؟ وأنّ الله اطّلع على الأرض واختار منها أباك. ثمّ اطّلع ثانيةً فاختار منها زوجك، وأمرني أن أتّخذ وليّاً ووزيراً، وأن أجعله خليفةً في أمّتي. فأبوك خير أنبياء الله تعالى وبعلك خير الأوصياء. وأنتِ أوّل من يلحق بي من أهلي. ثمّ اطّلع ثالثةً فاختارك وولدك. فأنتِ سيّدة النساء؛ والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، وابنا بعلك أوصيائي إلى يوم القيامة. والأوصياء بعدي: عليّ والحسن والحسين، ثمّ تسعة من ولد الحسين».

٥٠٢ - وروى عن جابر بن عبد الله أيضاً أنّه قال: «لمّا نزل قول الله - عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾(١) قلتُ: يا رسول الله! عرفنا الله تعالى ورسوله، فمن الأمر، الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟

فقال عليه السلام: خلفائي، يا جابر! وأئمّة المسلمين بعدي أوّلهم عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ عدّ تسعة من ولد الحسين». والأخبار في ذلك كثيرة.

٥٠٣ - والغرض أنّه يجب عليه (أي على النبيّ) نصبُ الإمام، كما يجب على الله تعالى؛ وكذلك يجب على كل إمامٍ إمامٍ منهم نصبُ الإمام الذي يكون بعده. وإلا، فيكون مخلاً بالواجب، وهذا غيرُ جائزٍ من المعصوم. ولهذا نصّ كلّ واحد منهم على الآخر في زمان حياته، كما نصّ الحسين على زين العابدين ابنه عليهما السلام؛ وزين العابدين على محمّد الباقر ابنه عليه السلام؛ ومحمّد الباقر على جعفر الصادق ابنه عليه السلام؛ وجعفر الصادق على موسى الكاظم ابنه عليه السلام؛ وموسى الكاظم على عليّ بن موسى الرضا ابنه عليه السلام؛ وعلي بن موسى الرضا على محمّد التقيّ ابنه؛ ومحمّد التقيّ على عليّ النقيّ ابنه عمَ؛ وعليّ النقيّ على الحسن العسكريّ ابنه عمَ؛ والحسن العسكريّ على محمّد بن الحسن عمَ، صاحب الزمان الذي هو الآن موجود، وهو إمام هذا الزمان، وقطب الوقت، وقصّته مشهورة. وتفصيل مجموع ذلك مبسوط في الكتب الكلاميّة للشيعة وغيرها، فارجع إليها.

٥٠٤ - وإن قلتَ: أنهم إذا قرّروا أنّ تعيين الإمام ونصبه يجبان على الله تعالى،

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

لأنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً، والعصمة أمر خفيّ لا يعرفها إلا الله، - فكيف قالوا: إنّ النبيّ أو الإمام يجب عليهما نصب الإمام؟ وهذا متناقض! - قلنا: جوابك في هذا من طرفهم في غاية السهولة، لأنّهم يقولون: إنّ هذا بالنسبة إلى النبيّ واضح، لأنّه صاحب وحي، والله يوحي إليه بالمصلحة من عالم الغيب، كما قال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[1].

وأمّا بالنسبة إلى الأئمّة، فهاهنا وجهان:

الأوّل: أنّ النبيّ علّمهم بذلك، وكلّ واحدٍ منهم علّم الآخر، وهذا ليس ببعيد.

والثاني: أنّ باب الوحي وإن سدّ، فباب الإلهام مفتوح، يلهمهم الله تعالى بما فيه المصلحة من الأمور في دينه وشرعه.

وهذا أيضاً ليس ببعيد عندك ولا عند غيرك، لأنّك تعتقد، في من هو أولى مرتبة منهم، هذا المقدار وأكثر منه ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[2].

٥٠٥ - ومع ذلك فلو نزلت عن أمثال هذه الاعتراضات، ورجعتَ إلى دعواك ومقامك، ورأيتَ الكلّ حسناً والوجود خيراً محضاً، وعرفتَ معنى قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[3]، ومعنى قوله: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[4]، ومعنى قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5] - لتخلّصت من مشقّة المجادلة والمعارضة وظلماتها التي هي الجحيم بالحقيقة، ووصلت إلى عالم الطمأنينة والاستقامة وأنوارها التي هي الجنّة بالحقيقة.

٥٠٦ - وينبغي أن تعرف أيضاً أنّه ليس مرادنا من هذا البحث معك ومع غيرك العصبيّة والجدال، نعوذ بالله منه! بل المقصود اصلاح ذات البين، وايصال كلّ واحد منكم إلى حقّه لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ

---

(١) سورة الجن، الآية: ٢٧.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٥) سورة هود، الآية: ٥٦.

مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]. وإلا، بعناية الله وحسن توفيقه، فأنا فارغ من أمثال ذلك، لأني، منذ عشرين سنة، شاهدتُ الحال على ما هي عليه، كما ذكرتُ في المقدّمة. وخلصتُ من هذه الظلمات، وخرجتُ عن هذه الدركات، أي ظلمات المعارضة والمجادلة، ودركات العصبيّة والجدال، والحمد لله على ذلك ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[2] ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[3] ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[4] وفيه (أي في هذا الحال الذي أنا عليه) أقول ما قد قيل سابقاً، فإنّه مناسب لحالي، وهو في أكثر الأوقات جارٍ على لساني، شعر:

أحبّك حبّين حبّ الهوى ... وحبّاً لأنّك أهل لذاكا

فأمّا الذي هو حبّ الهوى ... فشغلي بذكرك عمّن سواكا

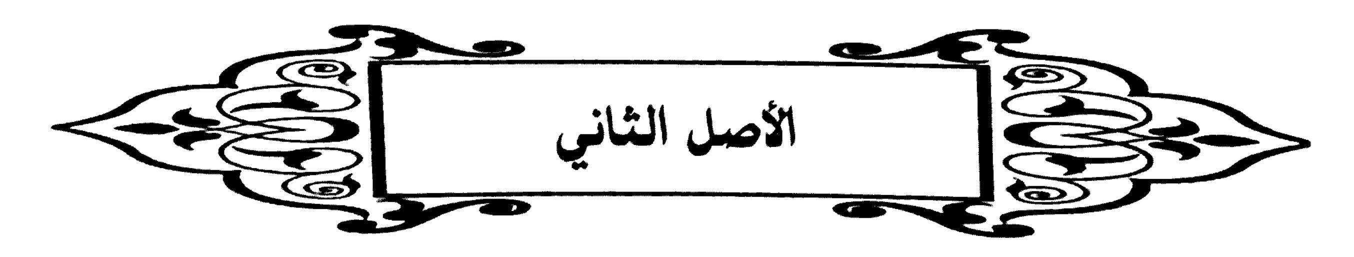
وأمّا الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتّى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

٥٠٧ - هذا آخر ما أردناه في هذا الباب، وآخر الأصل الأوّل من الأصول الثلاثة (التي يتألّف منها الكتاب)، وآخر القاعدة الرابعة من الأصل الأوّل. وبالله التوفيق! وإذ فرغنا منه، فلنشرع في الأصل الثاني وما اشتمل عليه من القواعد. وهو هذا:



(١) سورة النساء، الآية: ١١٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤١.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الجمعة، الآية: ٤.



في الاستشهاد بحقيقة التوحيد من كلام الله وكلام الأنبياء والأولياء

٥٠٨ - وهو مشتمل على أربعة قواعد:

القاعدة الأولى: في الاستشهاد بكلام الله في حقيقة التوحيد.

القاعدة الثانية: في الاستشهاد بكلام الأنبياء عليهم السلام.

القاعدة الثالثة: في الإستشهاد بكلام الأولياء عليهم السلام.

القاعدة الرابعة: في الاستشهاد بكلام المشايخ - رضوان الله عليهم.

القاعدة الأولى: في الاستشهاد بكلام الله تعالى في حقيقة التوحيد واثباته

٥٠٩ - اعلم أنّ الآيات الدالّة على حقيقة التوحيد في القرآن كثيرة. وقد تقدّم بعض ذلك مع تفسيره لاسيما «سورة الاخلاص»، التي هي ما وردت بنفسها إلا للتوحيد، وسميّت «بسورة التوحيد» أيضاً، وكان الغرض (من نزولها) ذلك الأمر لا غير. والبعض الآخر سيجيء في مواضع شتّى ذكره.

٥١٠ - وأمّا المناسب لهذا المقام، والذي نريد أن نذكره، فهو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[١] فمعناه الحقيقيّ اجمالاً هو أنه تعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٢] أي الله

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

ظاهر في السماوات والأرض وما بينهما بذاته ووجوده، مثل نور مشتعل في المشكاة والقناديل المسوّاة من الزجاجة، ومظهر لما عداه من الموجودات، يعني: هو ظاهر بنفسه، ومُظهر لغيره من الموجودات الممكنة المسمّاة بالمظاهر والمشكاة والزجاجة؛ كنور المشكاة والقناديل، فإنّه كذلك، أي ظاهر بنفسه، ومُظهر لما عداه من الأجسام الشفّافة وغيرها التي هي حواليه. والمشكاة والقناديل أيضاً هي مثل نوره فيهما، أي في السماوات والأرض وما بينهما، بمرتبة أو مراتب كذا وكذا، إلى آخر الأمثلة القرآنية.

٥١١ - وذلك لأنّ النور هو الذي يظهر بذاته وتظهر الأشياء به. والحق ظهر بذاته، وأظهر الأشياء بنوره، فيكون هو نوراً. وإن حُقّق، عُرف أنّه بهذا الاعتبار سمّى نفسه باسم: «النور»، لأنّه أيضاً اسم من أسماء الله تعالى، أعني باعتبار شدّة ظهوره وظهور الأشياء به، سمّى نفسه: نوراً، لأنّه ظهر في مظاهر السماوات والأرض وما بينهما، كالنور الظاهر في المشكاة والقناديل والزجاجة؛ بل هو تعالى أظهر منه، وإن خفي ذلك على أكثر أهل البصائر والأبصار، لعدم استعدادهم وكثرة عمائهم، كما قيل:

خفيّ لافراط الظهور تعرضت لادراكه أبصار قوم أخافش
وحظ العيون الزرق من نور وجهه لشدّته حظ العيون العوامش

٥١٢ - وعنهم أخبر تعالى بنفسه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[١] وكذلك في قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٢]، وكذلك في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾[٣] الآية. وأكدّ مجموع ذلك بقوله: ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٤] حتّى لا يتوهّم متوهّم أنّ هذا العمى منسوب إلى البصر لا إلى البصيرة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠١.
(٤) سورة الحج، الآية: ٤٦.

ولقوله أيضاً: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[1] ليعلم أنّ المراد بهذا هو عين البصيرة لا غير.

٥١٣ - وبالجملة، لمّا وُجد كلّ ما وجد بوجوده، وظهر كلّ ما ظهر بظهوره، كان هو تعالى: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2] أي مظهر سماوات الأرواح والروحانيّات، و (أرض) الأجسام والجسمانيّات؛ بل هو تعالى عين وجودهما ووجود ما فيهما من لمخلوقات. أعني: هو الوجود المطلق الذي وجد به ما وجد من الموجودات، وظهر بنوره ما ظهر من المخلوقات، وصار لظهوره وظهور نوره كالمشكاة والزجاجة المسمّاة بالمظاهر والهياكل.

فحينئذٍ هو تعالى النور والمصباح والزجاجة والمشكاة، والأوّل والآخر والظاهر والباطن، وليس لغيره وغير مظاهره وجود أصلاً، لأنّ غيره عدم صرف ولا شيء محض، فليس يقابل للاضاءة والنوريّة، أعني للوجود والبقاء، لأنّ الوجود لا يعارضه ولا يناقضه العدم، كما أنّ النور لا يعارضه ولا يناقضه إلا الظلمة، ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[3]. وعن هذا النور وهذا الظهور أخبر الإمام. في قوله: «**نور يشرق من صبح الأزل، فتلوح على هياكل التوحيد آثاره**»، وغير ذلك من الإشارات، كما سيجيء بيانه. هذا آخر الاجمال.

٥١٤ - وأمّا معناه تفصيلاً، فيستدلّ على ذلك كلّه خصوصاً على أنّ «النور» بمعنى «الوجود» و «الظلمة» بمعنى «العدم» من حيث العقل والنقل، ثمّ نشرع في تطبيقه على الترتيب المعلوم مثالاً مثالاً.

٥١٥ - أمّا النقل فقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٢٢﴾[4]. وغير ذلك من الآيات المماثلة لها. وقول

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

(٤) سورة فاطر، الآيتان: ١٩ - ٢٠.

النبي ﷺ: «خلق الله الخلق في ظلمة، ثمّ رشّ عليه من نوره» الحديث، وأمثال ذلك من الأخبار.

٥١٦ - أمّا بيان قوله تعالى: من حيث العقل، فهو أنّه يقول: ﴿هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾(١). والظلّ والحرور؟ أي هل يستوي الوجود والعدم، أو الموت والحياة؟ والوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت. والمراد أنّهما لا يستويان.

وأمّا أنّهما بمعنى الوجود والعدم، فلأنّ ﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ بمعنى الليل والنهار، و«الظل والحرور» بمعنى الحرارة والبرودة، أو الشتاء والصيف، كما هو رأي أرباب التفسير، - ليس بشيء يعتدّ به، لأنّ خيريّتهما وتفضيل كلّ واحد منهما على الآخر ما هو معلوم، لأنّهما أمران نسبيّان غير موجودين في الخارج عند البعض، لأنّ النور عدم الظلمة، والظلمة عدم النور؛ وكذلك الظلّ والحرور. ومع ذلك فإنّهما إذا كانا من الأمور النسبيّة، فيمكن أن تكون الظلمة بالنسبة إلى بعض الأشخاص خيراً من النور؛ وكذلك الظلّ والحرور. وعلى جميع التقادير، بالوجود والعدم خير من غيرهما.

٥١٧ - وقد ورد من لسان القوم في هذا البحث، كلام حسن في تعريف الظلّ والنور وتحقيقهما وتحقيق قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾(٢) وهو مناسب لهذا المقام، فنذكره توضيحاً للبحث، وهو هذا: الظلّ هو الوجود الإضافيّ، الظاهر بتعيّنات الأعيان الممكنة وأحكامها، التي هي معدومات ظهرت باسمه تعالى: «النور»، الذي هو الوجود الخارجيّ المنسوب إليها. فبتستّر ظلمة عدميّتها بالنور الظاهر بصورها، صارت الأعيان الممكنة ظلاً، لظهور الظلّ بالنور وعدميّته في نفسه. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾(٣) أي بسط الوجود الإضافيّ على الممكنات.

فالظلمة بازاء هذا النور، هي العدم. وكلّ ظلمة هي عبارة عن عدم النور عمّا من شأنه أن يتنوّر. ولهذا سُمّي الكفر: ظلمة لعدم نور الإيمان عن قلب الإنسان، الذي

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٧.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.

من شأنه أنه يتنوّر به. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1] الآية.

٥١٨ - ويؤيد مجموع ذلك قوله تعالى عقيب الآية المتقدّمة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ لأنّ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾[2] إلى آخره، إشارة إلى الذين احتجبوا عن وجوده وتقيّدوا بوجود «الغير»، أعني لا يشاهدون إلا «الغير».

وعلى هذا التقدير، تكون «أعمالهم» أي أفكارهم واعتقاداتهم «كسراب بقيعة» أعني معدوماً بنفسه، موجوداً بحسبان غيره، بحيث إذا وصل إليه صاحبه «لم يجده شيئاً» يعني لا يكون شيئاً حتّى يجده، بل يكون عدماً محضاً ولا شيئاً صرفاً. ولهذا قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾[3] يعني هذا الكافر مع هذا النظر يكون «كظلمات» من عدميّته في التحقيق في بحر الماهيّات والحقائق المعدومة، «يغشاه موج» أي تغشاه أمواج التعيّنات والتشخّصات عن مشاهد الوجود المطلق. «من فوقها سحاب» أي تراكم التعيّنات وظلمتها، الذي هو «كالسحاب» بالنسبة إلى شمس الوجود المطلق. ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي محجوبيّته بظلمة عدميّته وظلمة عدميّة الموجودات وظلمة عليّته عن وجود الحقّ الذي هو النور الحقيقيّ، بحيث ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ أي بحيث إذا أراد أن يخرج من هذه الظلمات، لم يتمكّن من شدّتها وصعوبة منعها، لأنّ الاخراج من الظلمات موقوف على حصول النور، ومن ما له نور أصلاً، فلا يمكن اخراجه عنها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾[4]. نعوذ بالله من ظلمة الغيريّة وحجاب الأنانيّة! وبالله التوفيق.

٥١٩ - وأمّا بيان قول النبي ﷺ الشاهد على ذلك، فهو أنّه يقول: «خلق الله

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٢) سورة النور، الآيتان: ٣٩ - ٤٠.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٩.
(٤) سورة النور، الآية: ٤٠.

الخلق في ظلمة، ثمّ رشّ عليه من نوره». فليس معناه أنّه خلق في ليل أو مكان مظلم، بل مراده أنّه أوجدهم في علمه قبل وجودهم في الخارج. و «ليلة القدر» عبارة عن: الوجود الأوّل (أي الوجود العلميّ).

و«يوم القيامة»، عبارة عن: الوجود الثاني (أي الوجود العينيّ الخارجيّ) كما لا يخفى على أهله..

وههنا أسرار جمّة، وتوضيح ذلك هو: أنّه تعالى عيّن ماهيّات الموجودات في كتم العدم علماً، ثمّ رشّ الماء عليها من أنوار الوجود المطلق نوراً، أي وجوداً مضافاً إليها، ونسب هذا الوجود المضاف إلى ماهيّة كلّ واحد منها، فصار موجوداً.

٥٢٠ - وقال الغزاليّ مشيراً إلى هذا المعنى: «لا ظلمة أشدّ من كتم العدم، لأنّ المظلم يسمّى مظلماً لأنّه ليس للابصار إليه وصول، إذ ليس موجوداً للبصر مع أنّه موجود في نفسه. والذي ليس موجوداً لا لغيره ولا لنفسه، كيف لا يستحقّ أن يكون هو الغاية في الظلمة؟ و (أن يكون) في مقابلة الوجود (الحقيقيّ الذي) هو النور؟ لأنّ الشيء ما لم يظهر في ذاته، لا يظهر لغيره».

٥٢١ - وقال: «والوجود أيضاً ينقسم إلى ما للشيء في ذاته، وإلى ما له من غيره. وما له الوجود من غيره، فوجود مستعار، لا قوام له بنفسه، بل إذا اعتبرته من حيث ذاته، فهو عدم محض دائماً، هو موجود من حيث نسبته إلى غيره، وليس ذلك بوجود حقيقيّ.

فالموجود الحقيقي من حيث نسبته إلى غيره، وليس ذلك بوجود حقيقيّ.

فالموجود الحقيقيّ هو الله تعالى المسمّى بالنور والوجود: وله الوجود الحقيقيّ دون غيره. وإليه أشار: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1] أي كلّ شيء مضاف إليه هالك أزلاً وأبداً، إلا ذاته ووجوده، فإنه باقٍ أزلاً وأبداً».

٥٢٢ - وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية (أي آية النور) أنّه يقول: الله نفس وجود السماوات والأرض وما بينهما حقيقةً لا غير، يعني هو الموجود فيهما حقيقةً ووجوداً. والأشياء المسمّاة بالسماوات والأرض وما بينهما، هي مظاهره الحقيقية.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

وليس الظاهر غير المظاهر، كما تقدّم مراراً، فلا يكون لغيره وجود أصلاً، يكون هو الظاهر والمظهر والنور والمشكاة وغير ذلك.

وفي التحقيق، هذا هو المعنى المطابق لأصول القوم، التي هي أصول الأنبياء والأولياء عليهم السلام بأجمعهم، كما عرفت وكما ستعرفه.

٥٢٣ - وإذا بنينا الكلام على هذا، فالمشكاة والمصباح والزجاجة: التي هي المظاهر، معناها واضح، لأنّ المشكاة تكون عالم الأجسام والجسمانيّات؛ والزجاجة: عالم الأرواح والروحانيّات؛ والمصباح عالم العقول والمجرّدات. ووجه المناسبة أنّ الأنوار الإلٰهيّة المشرقة من حضرة الوجود المطلق على الموجودات كلّها، تشرق أوّلاً على عالم العقول، التي هي كالمصباح، من نوريّته ولطافته.

ثمّ تشرق على عالم الأرواح، التي هي كالزجاجة، من صفائها وقابليّتها الاشراق والاضاءة وافاضتها على الغير.

ثم تشرق على الأجسام، التي هي كالمشكاة، من ظلمتها وكثافتها وقابليّتها الاضاءة، لأنّها قابلة للأرواح والانتقاش بها كالمشكاة القابلة للأنوار والاشراق بها على الغير، التي هي بمعنى الكوّة في الحائط وغيره.

٥٢٤ - والشجرة التي يوقد فيها هذا المصباح أو الزجاجة، تكون شجرة الوجود المطلق، التي يستضيء منها كلّ الوجود. وتكون نسبتها إلى الزيت كذلك. وتشبيهه بها (أي تشبيه النور بشجرة الزيتون: لكثر أغصانه (أي أغصان النور الوجوديّ) من الموجودات الإضافية الصادرة عنه، كالأغصان الصادرة عن الشجرة مع أوراقها وأزهارها وأثمارها.

٥٢٥ - وأيضاً، لأنّ الحقائق والماهيّات كلّها هي شؤونه الذاتيّة، الكامنة في ذاته المقدّسة كالشجرة في النواة - مثلاً - مع أوراقها وأغصانها وأزهارها، الكامنة في النواة. ووصفها بأنّها: (أي الأنوار الإلٰهية) «**لا شرقية ولا غربيّة**»، لأنّ الشرق الحقيقيّ - كما سيجيء بيانه في القاعدة الأولى من الأصل الثالث - هو عالم الأرواح والروحانيّات، التي هي محلّ طلوع الأنوار الروحانيّة؛ وغربها: عالم الأجسام والجسمانيّات، التي هي موضع أفولها. والوجود المطلق أو الحق تعالى

نورهما ليس من عالم الأرواح الصرف، ولا من عالم الأجسام المحض، فلا يوصف بهما. وتشبيه الزجاجة بالكوكب الدريّ يكون بسبب لطافته ونوريّته وإضاءته وأمثال ذلك.

٥٢٦ - **وإن قيل**: هذه الأوصاف حاصلة للشمس والقمر، فلمَ خصّصه بالكوكب؟ - **أجيب عنه**: بأنّ نسبة نور الشمس نسبة **نور الله تعالى** في الآفاق؛ ونسبة نور القمر نسبة نور العقل؛ ونسبة نور الكواكب نسبة نور الأرواح الحسية المضيئة، لكثرته وتفرقته على شبابيك الأجسام ومشكاتها. فتخصيصه به أولى وأنسب، لأنّ هذا النور الواحد، الذي هو نور الله تعالى مثلاً، إذا أشرق على المظاهر الكثيرة، فلا يصل إلى كلّ واحد منهما إلا بقدر الكوكب، لقلّة قابليّته وصغر ظرفه، كالبصر مثلاً، فإنّه لا يشاهد الشمس مع عظم جرمها إلا بقدر الترس أو القرص.

٥٢٧ - ومثال ذلك، مرّةً أخرى: مثال نور الشمس أو نور القمر على الروزان الكثيرة والشبابيك المتعدّدة. أو كالماء الواحد - مثلاً - المجموع في ظرف واحد، إذا انتثر في الهواء وانتشر عليه، فإنّه لا يرجع عنه إلا بقدر الذرة البيضاء أو الكوكب في الاستدارة. أو كالماء النازل من السماء، فإنّه في الأصل ماء واحد، وهو السحاب، ويصير قطرات كثيرة، كلّ واحدة منها كالكوكب الدريّ من لطافته واستدارته.

فكذلك نسبة نور الله، الذي هو ماء الحياة الحقيقية، الموصوف بـ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1]، بالنسبة إلى الأرواح الصادرة عنه المسمّاة بالزجاجة، التي هي «**كالكوكب الدريّ**»، الموقد من «**الشجرة المباركة**»، التي هي الوجود المطلق. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ بذاته، أي يكاد زيت هذا الوجود، الذي هو الوجودات الإضافية، يضيء بذاته ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[2] الأجسام الكدرة والأجساد المظلمة، التي هي منبع «**الظلمات الثلاث**»[3] المذكورة.

٢٥٨ - لأنّ النور الإلٓهيّ، لولا احتجابه بالجلابيب البدنيّة والغواشي الحسيّة،

---

(١) سورة هود، الآية: ٦.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٣) الظلمات الثلاث المذكورة: ﴿خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾ سورة الزمر، الآية: ٦.

لأضاء بذاته، وعرف ربّه، وشاهده بنوره، على ما ينبغي، وقال بلسان الحال: «عرفتُ ربّي بربّي»، لأنّه كان من ذلك الوقت «نوراً على نور» أغنى نور الحقّ على نور العقل، كالقمر مثلاً: فإنّ نوره من نور الشمس، فكلّما زاد نوره زادت مشاهدته؛ فتكون مشاهدته للشمس على حسب نوره.

وهذا يكون حاله: نورها (أي نور الشمس) على نوره (أي نور القمر). فيكون القمر مشاهداً للشمس بنورها، كما شاهد العارف ربّه بنوره. فحينئذٍ، كما يجوز للقمر أن يقول: «عرفتُ الشمس بنور الشمس»، يجوز للعارف أن يقول: «عرفتُ ربّي بربّي». ولهذا قال الله عقيبه: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾[1] ليعرفوه بها.

٥٢٩ - والغرض أنّه لمّا احتجب بالأجساد الكدرة والحواسّ المظلمة، أنكر ربّه واحتجب عنه، واستحقّ أن يسمع منه بأذنه الحقيقيّة ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2] يعني من لم يحصل له نور الله الحقيقيّ، فما له من نور المعرفة والهداية (نصيب) أصلاً.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[3] برفع الحجاب عنه والخلاص من ظلماته، لقوله تعالى أيضاً: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[4]، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ لعبيده ليعرفوه به، لأنّ الأمثال تقرّب المعاني إلى الأذهان. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[5] يعني: مع ذلك فهو عليم باستعداد كلّ شيء وقابليّته، وبأنّه مستعدّ لهدايته وتوفيقه، ومستحقّ لنوره وتجلّيه، أم لا.

ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[6].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.

أي العالمون بحقائقه أي حقائق القرآن ودقائقه وأمثاله ونكته ورموزه وإشاراته.

٥٣٠ - وإذا عرفت هذا، فإن سمّيت هذه المراتب - أي مراتب عالم الأجسام والأرواح والمجرّدات - بعالم الجبروت وعالم الملكوت وعالم الملك؛ أو بالحضرة الأحديّة والحضرة الإلهية والحضرة الربوبيّة؛ أو بعالم الظاهر وعالِم الباطن وعالم باطن الباطن، ورتبته الترتيب المذكور على ترتيبه، فذلك جائز، لأنّه لا يخرج عن الأصل المبنيّ عليه البحث المذكور.

ويجوز تفسير المجموع وتطبيقه «بالإنسان الكبير»، من حيث أنّه عالم كبير، جامع لجميع هذه المراتب فيكون حينئذٍ المشكاة عبارة عن بدنه، الذي هو عبارة عن الجسم الكليّ؛ والزجاجة عن قلبه، الذي هو النفس الكليّة؛ والمصباح عن روحه، الذي هو الروح الأعظم؛ والشجرة عن مجموع ذلك، لأنّ المجموع: كالشجرة المشحونة بالأغصان والأوراق والأزهار وما شاكل ذلك، كالعقول والنفوس والأجرام والعناصر والطبائع والمواليد الثلاثة.

٥٣١ - والدليل على أنّه: (أي النور الوجوديّ) الشجرة المذكورة، وعلى أنّها ليست من شرق العالم ولا من غربه، أنّ أصل هذه الشجرة هي النفس الواحدة المخلوق منها العالم، المسمّاة: بآدم؛ وليست هي لا من شرق العالم، الذي هو عالم الأرواح الصرف، ولا من غرب العالم، الذي هو عالم الأجسام المحض، لأنّها صادرات عنها، ولأنّ الشجرة مركّبة عن مجموع ذلك، والمركّب عن الشيء يكون غيره بالضرورة. والباقي من الآية: (أي آية النور)، فقسْه على الترتيب المذكور والمعنى المقصود.

٥٣٢ - وإذا عرفت هذا، فعليك: بتطبيق شجرة «الإنسان الكبير» بشجرة «الإنسان الصغير»، ومشاهدة معنى قول النبي ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، لأنّك تجده مطابقاً لصورته موافقاً لهيئته. وليس المراد بمعرفة الله إلا هذا، أي مشاهدة احاطته بالعالم الكبير ومعيّته به كمشاهدة احاطة روحه بالعالم الصغير ومعيّته به، لأنّ بدنه: كالمشكاة، وقلبه: كالزجاجة، وروحه: كالمصباح، والمجموع: كالشجرة، وكذا الباقي من الأعضاء، لأنّ كلّ واحد منها مناسب لجزء من أجزاء العالم، كما تقدّم تقريره. وفيه قيل:

نـظـرت بـنـور الله أوّل نـظـرةٍ فغبت عن الأكوان وارتفع اللبس

وما زال قلبي لايذاً بجمالكم وحضرتكم حتّى فنت فيكم النفس

وزيتونة الفكر الصحيح أصولها مباركة أوراقها الصدق والقدس

فروحي زيتي والخيال زجاجتي وعقلي مصباح ومشكاته الحسّ

فصار بكم ليلي نهاراً وظلمتي ضياءً ولاحت في خيامكم الشمس

٥٣٣ - وينبغي أن يعرف أيضاً أنّ رأس المعارف كلّها - باتفاق المحقّقين كلّهم - معارف ثلاثة: معرفة الحقّ؛ ومعرفة الآفاق، المسمّى: بالعالم والإنسان الكبير؛ ومعرفة الأنفس، المسمّى: بالإنسان والعالم الصغير.

وعند التحقيق: رأس المعارف معرفة الحقّ فقط، لأنّ العلّة الغائية من معرفة الآفاق والأنفس معرفته لا غير.

وعن هذه المعرفة (أي في درجاتها الثلاثة) أخبر تعالى بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾[١] وقد تقدم معناه مرّة ومرّة أخرى.

٥٣٤ - وهو أنّه تعالى يقول: سنكحل عين بصيرتكم بنور هدايتي وعنايتي المسمّى: بالتوفيق، ليحصل لكم بسببه قوّة المشاهدة والمطالعة في آياتي الآفاقيّة والأنفسيّة، أي مظاهري الآفاقيّة والأنفسيّة وحقيقتهما - اللذان هما عبارتان عن الإنسان الكبير والإنسان الصغير وروحهما المحيط بهما - ويشاهدونني فيهما. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾[٢] لكم، أي يتحقّق عندكم بالتحقيق أنّ الوجود كلّه، من الآفاق والأنفس، هو الحقّ تعالى، وليس لغيره وجود أصلاً، لأنّ الشخص إذا رجع إلى عدمه الأصليّ - الذي قال تعالى في شأنه: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[٣] عرف أنّه ليس

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٥٣ - ٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٣) سورة مريم، الآية: ٩.

له وجود حقيقةً بل مجازاً وإضافةً. فعرف أنّ الوجود الحقيقيّ هو لله وحده. وهذه هي المعرفة التامّة الكاملة، أعني مشاهدة الوجود الواحد الحقّ تعالى على الوجه المذكور.

٥٣٥ - ولهذا قال تعالى عقيبه - استهزاءً وسخرية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي أو لم يكف في معرفة ربكم أن تشاهدوه في مظاهره الآفاقية والأنفسيّة، كمشاهدة القمر ليلة البدر، حتى تنتظروا مشاهدته في يوم غير هذا اليوم، أو موطن غير هذا الموطن؟ كأنكم ما سمعتم قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] أو ما عرفتم سبب ذلك؟ فسبب ذلك هو أنّ معرفته الكاملة لو حصلت بدون هذه المشاهدة، لما كان الأنبياء والأولياء عليهم السلام محتاجين إلى عبورهم في هذا العالم المظلم الكدر. فكلّ من لم يحصل له معرفة الله تعالى في هذه النشأة، فلا يمكن تحصيلها أبداً.

٥٣٦ - وقال تعالى أيضاً عقيبه تأكيداً للأول: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[2] أي أنهم في شك من لقاء ربّهم ومشاهدته مع هذا الظهور والشهود، كأنّهم ما يعرفون: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾، وأن كل شيء محاط به، وأنّ المحيط لا ينفكّ عن المحاط أبداً، لأنهم لو عرفوا ذلك، لعرفوا أنّ أيّ محاطٍ فُرض يكون المحيطُ معه، بلا انفكاك عنه أبداً، كما أخبر عنه العالم الربّانيّ صلى الله على نفسه القدسيّة - في قوله: «مع كلّ شيء لا بمقارنة؛ وغير كلّ شيءٍ لا بمزايلة». وفي قوله أيضاً: «وأنّه لبكلّ مكان، ومع كلّ أُنس وجان، وفي كلّ حين وأوان».

٥٣٧ - وإلى هذه المشاهدة الجليّة أشار - جلّ ذكره - في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[3] ومعناه: أيّ جهة توجهتم فثمّ ذات الله ووجوده. ومعلوم أنّ الوجه هو الذات مع لوازمها وكمالاتها، لقوله أيضاً: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

وَجْهَهُ﴾[(١)] ولقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[(٢)] وقد تقدّم أيضاً معنى هاتين الآيتين على ما ينبغي، فارجع إليه، فإنّه ليس هنا موضع بسطه.

٥٣٨ - وإذا تحقّق هذا وتحقّق أنّه تعالى بنفسه: ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(٣)] ووجودهما، وأنّ «الشجرة المباركة» هي شجرة الوجود المطلق ومظاهره الآفاقيّة والأنفسيّة، فاعلم أنّ الشجرة التي قال في شأنها: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾[(٤)] هي هذه الشجرة، لأنّه كلّ من حصل له مشاهدة الشجرة، فقد حصل له ملك لا يمكن أعظم منه ولا أوسع، وهو قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾[(٥)] وقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٦)] لأنّ الجنة الحقيقية ونعيمها ليسا إلا مشاهدته في مظاهره الآفاقيّة والأنفسيّة، على ما قررناه مراراً.

٥٣٩ - «وشجرة طوبى» التي لها غصن في كلّ بيت من بيوت الجنة، هي هذه الشجرة، لأنّ كلّ موجود لا بدّ له من إضافته إلى الوجود المطلق وعلاقته به. فهذه الإضافة والعلاقة هي الأغصان، والوجود هو الشجرة.

فتكون كلّ علاقة وإضافة كغصن من أغصان شجرة طوبى المذكورة، بالنسبة إلى وجود كلّ شخص أو وجود كلّ موجود المسمّى: بالبيوت؛ وتكون نسبة هذه الشجرة في الظاهر: كنسبة نور الشمس إلى بيوت الدنيا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾[(٧)] ﴿وَهُوَ

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٨.
(٥) سورة الدهر، الآيتان: ٢٠ - ٢٢.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٧) سورة النحل، الآية: ٦٠.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١] وإن شئت قلت: شجرة طوبى هي نور معرفة الله تعالى في قلب العارف، فإنّه أي نور المعرفة كالأغصان الطيّبة من الشجرة المباركة الوجوديّة في بيت أهل الجنّة.

٥٤٠ - و **«الشجرة الطيّبة»** التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[٢] هي هذه الشجرة، لأنه ليس أطيب منها في الامكان ولا في الوجود، لأنّ الوجود خير محض والعدم شرّ محض، فلا يكون أطيب من الوجود من حيث هو وجود، ويعرف هذا من يعرف.

٥٤١ - والشجرة التي خاطب الله تعالى بها موسى عليه السلام بـ ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾[٣] هي هذه الشجرة، لا شجرة الزيتون ولا شجرة النبق، لأنّه - جلّ جلاله - أعظم وأجلّ من أن يرى أو يشاهد في شجرة من شجر الدنيا المقيّد المشاهد بعين الحسّ. وفيه (أي في هذا الخطاب الإلهيّ لموسى من الشجرة) ما فيه من الرموز الحقائق.

والعجب، كلّ العجب! أنّ أرباب الظاهر يجوزون تكليم الله تعالى من «الشجرة النبقيّة»: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾[٤]، ولا يجوزونه من «الشجرة الإنسانية» التي هي أولى بذلك، لقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٥]، ولقوله تعالى: **«كنت سمعه وبصره ولسانه»** الحديث، ولقول النبي صلى الله عليه وآله: **«خلق الله آدم على صورته»** حتّى يفتون بكفر العارفين بمثل هذا الكلام، وينكرون عليهم غاية الانكار. ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[٦] ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[٧].

٥٤٢ - والشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام هي هذه الشجرة لا شجرة الحنطة، لأنّ آدم عليه السلام أعظم من أن يعاقبه ربّه لأجل الحنطة التي خلقت لأجله وأجل ذريّته.

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٤.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.
(٣) سورة القصص، الآية: ٣٠.
(٤) سورة طه، الآية: ١٤.
(٥) سورة الذاريات، الآية: ٢١.
(٦) سورة النجم، الآية: ٥٣.
(٧) سورة الروم، الآية: ٧.

وأكله منها كان نظره إليها بعين الكثرة والوقوف على ذلك، وذلك ما كان إلا طرفة عين.

وذنب المعصوم هو من هذا القبيل لا غير، أعني: التفاته إلى «الغير» ولو طرفة عين. ولهذا، إذا رجع إلى الوحدة الحقيقيّة وتاب عن مشاهدة الكثرة مع هذه الوحدة، دخل الجنّة التي كان فيها هو وزوجه، التي هي جنّة الوحدة واللقاء الحقيقيّ، والوصول الكليّ إلى حضرة الله تعالى رزقنا الله الوصول إليها بفضله وكرمه!.

٥٤٣ - وفي هذه الشجرة ومشاهدتها ومطالعتها أسرار كثيرة ورموز شريفة، لا يحتمل هذا الموضع أكثر من ذلك. ومع ذلك، فليس بقليل ما أظهرناه وأومأنا إليه.

٥٤٤ - وإذا تحقّق هذا، فحينئذٍ قوله تعالى عقيب الآية: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[1] يكون متعلّقاً بـ «المشكاة»، وتقديره: «كمشكاة» في بعض بيوت الله تعالى، وهي المساجد المشهورة؛ أو (يكون متعلّقاً) بـ «يوقد»، وتقديره: أي كمصباح يوقد من شجرة زيتونة، لتعليقه في بعض بيوت الله تعالى التي هي المساجد.

ومعناه، بحسب هذا المقام، أنّ مثل نور الله، في مشكاة المظاهر التي هي الأجسام كلّها، مع زجاجتها التي هي الأرواح بأسرها، مع مصباحها التي هي العقول بأجمعها، كمشكاة في بيوت كذا وكذا.

وعلى هذا التقدير يكون العالم وما اشتمل عليه من الطبقات، علواً وسفلاً، كالبيوت، لأنّ العالم كريّ، وله طبقات مثل طبقات السماوات والأرض وما بينهما من العناصر والطبايع.

وهذه المصابيح الموضوعة في الزجاجة المشرقة من مشكاتها في هذه البيوت، لأجل أن يذكر اسم الله فيها بالغدوّ والآصال، (يعني) في الظاهر والباطن، والأعلى والأسفل.

٥٤٥ - فإن قيل: إنّ العالم عبارة عن هذه المراتب التي جعلتها مظاهر، فكيف

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٦.

يكون هو عبارة عن البيوت وعن المشكاة فيها؟ ؛ أجيب عنه: بأنّ العالم عبارة عن مجموع ذلك، والمجموع غير أجزائه بالضرورة، فيجوز ذلك من هذه الحيثيّة.

ومع ذلك، فنحن ننزل عن هذا المثال، ونجعل العالم وما اشتمل عليه من الطبقات المذكورة، كل البيوت وأصناف الموجودات وأنواع المخلوقات التي في كلّ طبقة من طبقاته، كالملائكة والانس والجنّ والحيوان والطيور وغير ذلك، كمشكاة مشتملة على مصباح في زجاجة.

أعني يكون بدنهم: كالمشكاة، وقلبهم: كالزجاجة، وروحهم: كالمصباح الموقد من شجرة: الوجود المطلق، كما تقرّر إلى آخر المثال. و «الغدوّ والآصال» بالنسبة إليهم يكون: عالم الظاهر والباطن، ويكون عالم الوحدة والكثرة. أعني: هم في الحالتين يكونون مشتغلين بذكره، لأنّ ذكر عالم الكثرة أو عالم الظاهر، هو من اقتضاء مراتب الشريعة؛ وذكر عالم الوحدة أو عالم الباطن من اقتضاء مراتب الحقيقة.

وكلّ واحدة منهما مرتبة من مراتب سبيله، ومدرجة من مدارج طريقه المسمّى: بالطريقة، والمعبّر عنهما: بليله ونهاره وغدوّه وآصاله، كما ستعرفه - إن شاء الله تعالى - في الأصل الثالث من هذه الأصول.

٥٤٦ - وأمّا قوله تعالى عقيب ذلك: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[١] إلى آخره، فهو متعلّق ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ﴾[٢].

ومعناه: أي يكون في هذه البيوت التي: «أذن الله أن يذكر فيها» رجال. وأيّ رجال؟ ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ أي لا تغفلهم الدنيا وما فيها من متاعها ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي عن التوجّه إليه والاشتغال بعبادته.

وسبب ذلك: لأنّهم من خُلّص عباده، لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[٣] ومعظّمي رجاله، لقوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾[٤] أعني: من

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٦.
(٣) سورة ص، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

الذين يقيمون الصلاة الحقيقيّة، التي هي التوجّه الكلّي إليه والاتّقاء عن رؤية غيره مطلقاً لقوله في الأولى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[١]، وفي الثانية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[٢].

٥٤٧ - ومن الذين يؤتون الزكاة الحقيقيّة، التي هي اعطاء كلّ ذي حقّ حقّه. يعني: يؤتون زكاة كلّ عضو من أعضائهم وكلّ قوّة من قواهم، باقامتها في خدمة معبودها وصرفها في الذي خُلقت لأجله، كما قال النبي ﷺ **«إنّ لكلّ شيءٍ زكاة وزكاة البدن الطاعة»**.

ومن الذين ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[٣] أي «يخافون» من الرجوع إليه بخلاف الحقّ، أي بخلاف الذي ينبغي أن يكونوا هم عليه، وهو وضع كلّ شيء موضعه، أي صرف كلّ عضو في أمر مخصوص به، المسمّى: بالعدل؛ في يوم: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ يعني: تصير منعكسة، أعني يصير الظاهر باطناً، والباطن ظاهراً، بحيث يحكى كلّ عضو ما صدر عنه، بلا نطق ولا لسان، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[٤] ولقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٥].

٥٤٨ - والعلّة الغائيّة في ذلك، أي في تلك العبادة والخوف وغيرهما ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[٦] ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الدار الآخرة جزاء عملهم من سبيل العدل والإستحقاق ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: «ويزيدهم» بعد ذلك من القرب والكرامة والدرجات والمنزلة تفضّلاً عليهم بدون الجزاء، لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٧] ولقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٧.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٠.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
(٦) سورة النور، الآية: ٣٨.
(٧) سورة يونس، الآية: ٢٦.

عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(١) المشار إليه في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾(٢).

٥٤٩ - ويشهد به أيضاً قوله تعالى عقيب قوله الأول: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣) أي: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، من أمثال هؤلاء العباد، في الدنيا من الأموال والأولاد والعزّ والجاه والعلم والعمل وغير ذلك، وفي الآخرة من الدرجات والمراتب والقرب والكرامة. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير أن يحسب معهم ذلك، كرامةً لهم واعزازاً لمكانتهم، لقوله: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤) أو لأنّها بلا نهاية ولا حدّ من الكثرة والتوسّع، لقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(٥). وكلاهما حسن. رزقنا الله منها!.

٥٥٠ - هذا تأويل الآية المتقدمة (أي آية النور) وما بعدها من الآيات في بيان نور الله تعالى ومثاله، وصورة المظاهر، وبيان رجاله الذاكرين وعباده المخلصين.

وأمّا الآية التي عقيبها في صفة الكفار والمشركين، الذين هم بعكس هؤلاء المؤمنين العارفين، ومراتب ظلماتهم وطبقات حجبهم بحسب مراتب هذه الأنوار وطبقات هذه الكشوف، في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾(٦) إلى آخره، - فقد تقدم معناها في أول القاعدة اجمالا، فانظره هناك، فإنه لا وجه لعودنا إليه.

٥٥١ -وإذا رجعت إليه، فقص جميع مراتبهم على مراتب هؤلاء. وقس على الشجرة المذكورة التي هي شجرة أهل الجنة المسمّاة بـ «طوبى»، شجرة أهل النار المسمّاة بـ «زقوم» الموصوف طلعها بـ «رؤوس الشياطين» في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٦٠ - ٦١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.
(٤) سورة المؤمن، الآية: ٤٣.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٦) سورة النور، الآية: ٣٩.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾[1] لأنه ينكشف عليك من هذا أسرار لا يمكن تحصيلها بسنين متطاولة وأيام متتالية، كما أشار - جل ذكره - في قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[2] وكما أشار إليها الأنبياء والرسل عليهم السلام في أقوالهم، الآتي بيانها في موضعها.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[3].

٥٥٢ - هذا آخر ما عندي في تحقيق هذه الآيات وتفصيلها وتأويلها بقدر هذا المقام. وإذا تحقّق هذا، وتحقّق اجمالاً وتفصيلاً أنّه ليس في الوجود إلا هو ومظاهره، وثبتت حقيّة التوحيد وحقيّة أهله، فلنشرع في ذكر أقوال الأنبياء عليهم السلام واثباته بها أيضاً، كما شرطنا. وهو هذا:

القاعدة الثانية: في الاستشهاد بكلام الأنبياء عليهم السلام في حقيقة التوحيد واثباته

٥٥٣ - اعلم أنّ هذه القاعدة مشتملة على كلام الأنبياء عليهم السلام في حقيقة التوحيد واثباته. وكان العزم أن نستشهد فيها بكلام أُولي العزم من الرسل، الذين هم: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

لكن لمّا كثر الكلام في هذا الباب، وكبر به حجم الكتاب، خفتُ من ملال الطالبين له وكلال الراغبين إليه.

فاختصرتُ منهم ومن كلامهم على نبيّنا صلى الله عليه وآله وكلامه، لأنّه أعظمهم وأكملهم وجامع لجميع مقاماتهم ومراتبهم صورةً ومعنىً، مع مرتبة أُخرى بها صار خاتمهم، كما سنبيّنه في الأصل الثالث عند بحث الشريعة والطريقة والحقيقة، إن شاء الله.

٥٥٤ - ثمّ اعلم أنّ كلامه وكلام الأنبياء عليهم السلام في هذا الباب، على سبيل

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٦٢ - ٦٥.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ - ١٩١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

الانفراد، قليل خصوصاً بطريق التصريح، وإن ورد في الخبر، مروياً عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ما أسرّ إليّ النبيّ شيئاً كتمه عن الناس، إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً في كتابه»، لأن الكلام في هذا الباب، من حيث التصريح، هو وظيفة الأولياء، لا وظيفة الأنبياء، كما تقرّر في الأصل الأوّل من بحث التوحيد.

لكنّ القرآن نطق بمقام كلّ واحد منهم أي من الأنبياء على ما ينبغي، لاسيما بمقام نبيّنا صلى الله عليه وآله ومقام إبراهيم عليه السلام الذي هو أبو الأنبياء وأعظمهم بعد نبيّنا صلى الله عليه وآله.

فالشروع في ذلك به يكون أولى وأنسب، لأنه (أي: مقام نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله) موصوف بأنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[1].

وأمّا بيان ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام فستعرفه في القاعدة الأولى من الأصل الثالث من هذا الكتاب عند بيان قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾[2] إلى آخره.

٥٥٥ - وأمّا بيانه من مقام نبيّنا صلى الله عليه وآله بقدر هذا المقام، فنبيّنه بوجهين:

الأوّل: بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[3].

والثاني: بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾[4] إلى آخره.

أمّا الأول فقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾[5] عجباً.

وبيان هذا يحتاج إلى بيان «المعراج الصوريّ والمعنويّ» اجمالاً. ثمّ إلى مطابقة (عالميْ) الآفاق والأنفس تفصيلاً.

وبيان مجموع ذلك يحتاج إلى مقدّمة كليّة وضابطة جمليّة، وهي تكون كالأصل لهذه الفروع وكالنقطة لهذه الخطوط. فنقول:

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٦، وكيف لا يكون إبراهيم بعد نبيّنا أعظم الأنبياء وقد= = قال الله عليه في كتابه العزيز إنه من شيعة نور الأنوار وآية الجبار؟ (بقلم الأصل)

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٤) سورة النجم، الآية: ١.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ١.

٥٥٦ - اعلم أنّ جميع الأوضاع الإلّهيّة والقوانين النبويّة مبنيّة على رعاية الزمان والمكان والاخوان.

أمّا الزمان، فمثل: زمان الصلاة والصوم والزكاة والحجّ والجهاد والأعياد والاجتماعات وغير ذلك.

وأمّا المكان، فمثل: مكة والمسجد الحرام والكعبة والمسجد الأقصى والصخرة ومسجد الكوفة ومدافن الأنبياء والرسل والأئمّة عليهم السلام.

وأما الأخوان: فكالأنبياء والرسل والملائكة وغير ذلك.

٥٥٧ - وبيان ذلك: وهو أنّ الزمان من حيث الزمان، وإن كان واحداً، لكنّه فيه زمان مخصوص بوقت الصلاة أو الصوم أو الحجّ أو غير ذلك، بحيث أنه لا تحصل هذه العبادات بدونه، وهذا من خصوصيّته أي خصوصيّة الزمان وشرفه.

فكما أنّ الصلاة مثلاً لا يمكن حصولها قبل الوقت، فكذلك غير الصلاة من العبادات الشرعيّة. ومثال ذلك مثال شخص وضع كنزاً تحت الأرض، وأوصى لشخص آخر بأنّ الكنز الفلانيّ في الموضع الفلانيّ.

فإذا أردت اخراجه، فينبغي أن تعدّ من الموضع الفلانيّ، عشر خطوات، وتحفره وتخرج الكنز منه.

فهذا الشخص لو عدّ تسع خطوات وحفر، لما حصل له شيء من الكنز.

وكذلك إن عدّ إحدى عشرة خطوة.

وإذا عرفت هذا، فقس عليه أوقات جميع العبادات، وأعداد جميع التسبيحات والتحميدات وغير ذلك من عدد الصوم وعدد الزكاة وأيام الحجّ.

٥٥٨ - وكذلك المكان، لأنّ المكان من حيث هو مكان، وإن كان واحداً، لكنْ لبعض الأمكنة خصوصيّة لا يحصل المقصود بدونها، كمكّة ووضع الكعبة فيها؛ والقدس ووضع المسجد والصخرة فيه؛ وغير ذلك من الأمكنة الشريفة من المشاهد والمقابر.

٥٥٩ - وكذلك الاخوان: لأنّ الاخوان من حيث هم اخوان، وإن كانوا واحداً، لكنّ لبعضهم شرف ومنزلة لا يشارك أحد فيهما غيره، كالأنبياء والرسل والأولياء

الكمّل بالنسبة إلى نوع الإنسان؛ وكالأنبياء والرسل والأولياء بالنسبة إلى بعضهم بعضاً؛ وكجبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل بالنسبة إلى نوع الملك.

٥٦٠ - وعند التحقيق ما وضعت صلاة الجماعة والجمعة والحجّ والأعياد وزيارة الأنبياء والرسل والأئمّة عليهم السلام إلا لأجل اجتماع هذه الثلاثة، لأنّ الصلاة في الجماعة مثلاً: مشتملة على هذه الثلاثة، لأنّ المكان الذي يصلون فيه الجماعة هو مكان مخصوص، موسوم ببيت الله تعالى.

والزمان هو الوقت المعيّن، الذي لا تحصل الصلاة بدونه. والاخوان هم المسلمون المجتمعون في هذا المكان.

وإذا حصلت هذه الثلاثة، فلا بدّ من اجابة دعائهم وقبول طاعتهم. وقسْ على ذلك الحجّ والأعياد والزيارات وجميع العبادات.

٥٦١ - وقال المحقّقون: إنّ هذا في الحقيقة، وإن كان من اقتضاء ترتيب الوجود، لكن لمّا كان وجود نبيّنا صلى الله عليه وآله جامعاً لجميع المراتب الكليّة والجزئية، خصوصاً المراتب السلبيّة، كان هذا من اقتضاء كمالاته ومراتبه.

أعني: لمّا اقتضت ذاته الاجتماع بين الأشياء والائتلاف بين الموجودات، كان غالباً عليه وضع هذه الأوضاع، التي توجب هذا، أي الائتلاف والاجتماع الموجبان للمحبّة الحقيقية، التي هي الغاية القصوى والمرتبة العليا.

٥٦٢ - لأنّ اجتماع طائفة مخصوصة في موضع معيّن مراراً متعدّدةً، لا بد من أن يكون موجباً لانعقاد حبل المحبّة بينهم وتشديده بقدرها أي المرات المتعدّدة: كصلاة الجماعة مثلاً في كلّ محلّة من محالّ المدينة، واجتماع أهلها في موضع معيّن كلّ يوم وليلة خمس مرات، فإنّه يحصل بذلك الائتلافُ والمحبّة، بلا شبهة أو تردّد.

وكذلك في صلاة الجمعة، فإنّه يحصل بسببها الائتلاف بين أهل البلد في كلّ اسبوع، ولا شك أنّ هذا أيضاً يكون موجباً لمحبّة بعضهم بعضاً. وكذلك الأعياد التي تقع في بعض الأوقات والشهور.

وكذلك الحجّ بالنسبة إلى أهل الأقاليم كلّهم، فإنّه يحصل بسببه بين أهل كلّ إقليم محبّةٌ وائتلاف مع فوائد أُخر من المعاملات والمناكحات وغير ذلك.

وكذلك الزيارات الموضوعة للأنبياء والأولياء عليهم السلام فإنّه منها أيضاً تحصل هذه المقاصد ومقاصد أُخر. ولهذا البحث، من حيث التفصيل، أسرار كثيرة ونكات شريفة، وليس هذا موضعها.

٥٦٣ - وإذا عرفتَ وتحقّقت ما في هذه المقدّمة من المعاني والحقائق، فلنشرع أوّلاً في بيان المعراج الصوريّ؛ ثمّ المعراج المعنوي ثمّ في التطابق بين العالمين أي عالميْ الآفاق والأنفس.

أمّا المعراج الصوريّ، فهو أنّ النبي صلى الله عليه وآله: أراد أن تحصل له هذه الاجتماعات بحسب الصورة في جميع الأمكنة الشريفة من السماوات، كما حصل له ذلك من أمكنة الأرض. فمجيئه بحسب الصورة من المسجد الحرام إلى مسجد الكوفة أوّلاً، كما ورد في الخبر، وإلى المسجد الأقصى، كما أخبر به القرآن، ومن المسجد الأقصى إلى السماوات، ومن السماوات إلى الكرسيّ، ومن الكرسيّ إلى العرش، كان لأجل ذلك، وهذا ليس ببعيد ولا بممتنع.

أو أنّ أهل هذه الأمكنة وسكانها أرادوا اجتماعهم به بحسب الصورة، فطلبوا من الله هذا، فأجابهم به، وأمر النبيّ بالعبور على هذه العوالم. وهذا أيضاً ليس ببعيد.

وروى في قصّة المعراج **أنّ النبيّ لمّا أراد أن يخلع نعليه حين وصل إلى السماء، كما خلع موسى عند الطور، قال له أهلها: لا تخلع! فإنّا نريد أن تصل بركة نعليك إلى أمكنتنا هذه.**

٥٦٤ - وأمّا صعوده بجسمه وبدنه، فهذا أيضاً ليس بممتنع، لأنّ الأنبياء والرسل والأولياء الكمّل لهم هذه الخصوصيّة، أي خصوصيّة أن يدخلوا في جميع العوالم التي يريدون دخولها. على أيّ صورة شاءوا.

وكما أنّ للملائكة والجنّ أن يدخلوا في أيّ عالم شاءوا وعلى أيّ صورة أرادوا، فكذلك الأنبياء والرسل والأولياء.

ومع ذلك كلّه، فإذا جئنا إلى قدرة الله تعالى، فهذا في غاية السهولة، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[1].

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٣.

٥٦٥ - وأمّا المعراج المعنويّ، فهو معلوم ولا خلاف فيه، فإنّه عبارة عن مشاهدة حقائق الموجودات على ما هي عليه، لقوله عليه السلام: «**اللّهمّ أرنا الأشياء كما هي**»، والعبور عنها والوصول إلى حضرة الحقّ تعالى والوجود المطلق الصرف بطريق التوحيد الحقيقيّ المتقدّم ذكره، المسمّى: بعالم الوحدة ومقام: «أو أدنى» كما سيجيء بيانه.

ولا شكّ أنّ هذا المعراج الخاصّ لا يحتاج إلى حركة صوريّة وسلوك جسمانيّ، بل إلى عدم الحركة ظاهراً وباطناً. والمراد بالحركة في الظاهر: السلوك؛ والباطن: الفكر. والفكر: حجاب في هذا الطريق، كما قال العالم الربّانيّ في الملاحم: «**عرفتُ الله تعالى بترك الأفكار**». وهذا كلّه ما كان إلا طرفة عين. وأمّا دوامه وبقاؤه، فإلى أزل الآزال وأبد الآباد.

وقول النبي صلى الله عليه وآله: «**لي مع الله وقت...**» ليس في هذا الموضع، بل بحسب الرسالة والنبوّة والفراغ منهما زمانَ التوجّه إلى حضرته تعالى.

٥٦٦ - وإذا عرفت معراجه بالنسبة إلى: مراتب الآفاق بحسب الظاهر والباطن، فقسْ عليه مراتب الأنفس ظاهراً وباطناً، كما عرفتَ ترتيبه مراراً، لأنّ هذا ليس موضع التطبيق تفصيلاً.

٥٦٧ - وعلى هذا التقدير، أي تقدير هذه المقدّمات وتقرير هذه الكلمات، يكون معنى قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[1] إلى آخره، أنّه يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلى الله عليه وآله «ليلاً» أي: ليلة الكثرة الخلقيّة الرسميّة الاعتباريّة؛ ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: عالم الجسم والجسمانيات، «**الحرام**» فيه دعوى الوجود والبقاء على غيره، ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أي: عالم الأرواح والروحانيات، ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ بتنعّم مشاهدة العقول المجرّدة والنفوس الكاملة، والحقائق الملكوتيّة، والمعارف الجبروتيّة؛ ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ وهذه «اللام» لام التعليل، يعني عروجه إلى هذه العوالم «لنريه» كشفاً ومشاهدة وذوقاً وحالاً حقائق آياتنا، ودقائق مظاهرنا، كما أريناه علماً وفهماً وادراكاً ويقيناً.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

والمراد بذلك مشاهدة آيات الآفاق والأنفس كشفاً، بطريق التوحيد الحقيقيّ الجمعيّ، الذي لا يحصل إلا بذلك، لقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1] إلى آخر الآية، وقد عرفت معناها مراراً.

٥٦٨ - وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2] أي أنّ الله تعالى هو «**السميع**» باستدعاء كلّ طالب بلسان الحال والقال؛ «**البصير**» باستعداد كلّ سالك أزلاً وأبداً، فيعطيه ما يناسب حاله ويوافق مقامه.

والمراد به يعني أنّي كنتُ في الأزل: «**سميعاً**» باستدعاء هذا النبيّ بلسان الحال هذه المرتبة: «**بصيراً**» باستعداده واستحقاقه هذا المقام فأعطيتُه ما أراده، ووهبته ما طلبه، لأنّي جواد لا أبخل بشيءٍ، ولا أمنع من شيءٍ. وقلتُ له بعد ذلك: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

٥٦٩ - وهذا أيضاً: بالنسبة إلى عالم الآفاق. وأمّا بالنسبة إلى عالم الأنفس، فيكون ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قلبه. ومعناه حينئذٍ أي ﴿ٱلْحَرَامِ﴾ على غيره، لأنّه محلّه الخاصّ ومنزله المخصوص، لقوله تعالى: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**». ونسبته (أي نسبة قلب النبي ﷺ) إلى ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الذي هو قبلة أهل العالم، لأنه أي القلب قبلة جميع أعضائه الظاهرة والباطنة وقواه الصورية والمعنوية. و ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ يكون روحه، لأنه أقصى مقام المشاهدة والكشف، وإن كان أول مراتب الوجود.

ونسبته (أي: نسبة روح النبيّ ﷺ) إلى ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ الذي هو قبلة أهل الشرق، لأنّ الروح من عالم الروحانيّات، الذي هو بالنسبة إلى العوالم كالشرق مثلاً، كما عرفته عند بيان: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4] إلى قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لأنّه أي: الروح قبلة قلبه، الذي هو قبلة: جميع أعضائه وقواه، فكأنّه (أي الروح: أي المسجد الأقصى) أيضاً قبلة الجميع (أي الروح قبلة جميع البنية

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٣) سورة ص، الآية: ٣٩.

(٤) سورة النور، الآية: ٣٥.

الإنسانية، والمسجد الأقصى قبلة جميع النوع البشريّ)؛ ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ بنعم المعارف والحقائق والمشاهدة والكشف، وما شاكل ذلك.

٥٧٠ - والسبب في ذلك: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي لنشاهده من: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الأنفسية كما شاهدناه من: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الآفاقيّة، لأنه أي النبيّ ﷺ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولنا وأمرنا ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ باشارتنا وسرّنا، ولأنّه هو الخليفة في ملكنا وملكوتنا. ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾[1] ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[2] أي: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ والأمر والنصب والعزل في جميع الكائنات والمخلوقات، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[3] في معادكم وأحوالكم وجزاءكم وأعمالكم، لأنّي منزّه عن أمثال ذلك، كما قلت لكم وأخبرت عنه بقولي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[4] وتفصيل ذلك قد مرّ في باب التوحيد وغير ذلك، فانظره هناك. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

٥٧١ - هذا آخر الوجه الأول. وأمّا الوجه الثاني، فقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾[5] إلى قوله: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾.

فقوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، المراد بالنجم عند المفسّرين هو: الثريا، لأنّه من أعظم الكواكب في الإضاءة والنوريّة، كالمشتري والزهرة.

ويجوز أن يكون المراد به الشمس والقمر أيضاً. وبـ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا نزل أو غرب، ولكنّ النجم ههنا هو النبيّ ﷺ ونسبته إلى «النجم» دون: «الشمس» و «القمر» في هذا الموضع، لأنّ الشمس والقمر قابلان للكسوف والخسوف، والنجم[6] ليس بقابل لذلك؛ والكسوف والخسوف نقص في الشمس والقمر، بلا شك. فشبّهه بشيءٍ ليس بقابل للنقص بحسب الصورة والوضع.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦.
(٥) سورة النجم، الآيتان: ١ - ٣.
(٦) النجم: لا يخفى ما فيه فإن الكواكب الواقعة في بحر القمر تنكسف به كما لا يخفى على ناقد (بقلم جديد).

٥٧٢ - والتقدير في ذلك أنّ الله تعالى يقسم بذات هذا النبيّ الكامل، مخاطباً لقريش بأنّ هذا النبيّ ليس بضالّ ولا غاو، كما تدعون أنتم بل هو كذا وكذا. فنقول: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ يعني بحقّ هذا النبيّ الكامل، الذي هو أشرف الموجودات وأعظم المخلوقات، ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: نزل من عالم الوحدة إلى عالم الكثرة للتكميل، الذي هو ابتداء «السفر الرابع»، بأنه ﴿مَا ضَلَّ﴾[١] عن طريق الحقّ، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ عن الصراط المستقيم، كما تظنون أنتم وتتوّهمون فيه ذلك. وهذا تعظيم آخر له، بأنّ الله تعالى - يقسم بذاته في اثبات حقيّته، ويقيّد ذلك بزمان رجوعه من عالم الوحدة إلى عالم الكثرة، الذي هو أقصى مراتب الكمال.

٥٧٣ - وبالجملة، أقسم الله بذاته، وبالغ هذه المبالغة، وقال عقيبه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾[٢]، يعني ليس نطقه بهذا القرآن وأحكام الشرع من هوى النفس، كما لغيره من الكفّار، بل هو: ﴿وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[٣] إليه من ربّه، إمّا بواسطة جبرائيل عليه السلام لقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦﴾، - أو بغير واسطة جبرائيل لقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾.

وسبب ذلك أنّ قريشاً كانت تقول: أنّ هذا القرآن سحر وشعر صادران عن هوى النفس ومتابعة الشيطان، فأراد الحقّ أن ينزّه نفسه عن أمثال ذلك.

٥٧٤ - فلمّا فرغ من تنزيهه، شرع في كيفيّته (أي كيفيّة الإيحاء إلى النبيّ) بالواسطة وغير الواسطة، فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾[٤] أي ﴿عِلۡمِهِۦ﴾ هذا القرآن أو هذه العلوم جبرائيل، الذي هو: ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، أي صاحب قوّة تامّة في التعليم والتصرّف في عبادي، على أيّ وجه شاء. ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾[٥] أي ذو متانة ورأي وعقل وسداد. ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: حين استوى على صورته الحقيقيّة، دون الصورة التي كان يتمثّل بها للنبيّ قبل ذلك لتعليمه إياه. ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[٦] أي: كان ذلك

(١) سورة النجم، الآية: ٢.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣.
(٣) سورة النجم، الآية: ٤.
(٤) سورة النجم، الآيتان: ٥ - ٦.
(٥) سورة النجم، الآية: ١٠.
(٦) سورة النجم، الآية: ٦.

الوقت هذا النبيّ بالأفق الأعلى أو جبرائيل، وكلاهما صحيح، لأنّه لو لم يكن النبيّ في الأفق الأعلى، لما كان جبرائيل يتمكّن من تعليمه بهذا الوجه، أي على صورته الحقيقيّة.

والأفق الأعلى هو: نهاية مراتب عالم الكثرة وأوّل مرتبة الحضرة الواحديّة، التي هي: نهاية اقدام الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

٥٧٥ - ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[1] النبيّ إلى الحضرة الأحديّة، التي هي حضرة الذات، ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي تعلّق بها. ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[2] أي فكان قربه في هذا الحال إلى حضرة الله تعالى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، والقاب هو: القرب يعني (كان قربه) بمقدار قوسين.

وهذا إشارة إلى قوسيْ الامكان والوجوب، بسبب الخطّ الموهوم بين دائرة الوجود، القاطع الدائرة بنصفين، المشار إليه في قوله الإمام عليه السلام: «**محو الموهوم مع صحو المعلوم**».

وبالجملة (كان قرب النبيّ في هذا الحال مانعاً له) عن مشاهدة «الغير»، حتى أرتفع «الغير» عن نظره مطلقاً، وصار منظوره ومشهوده وجوداً واحداً وحقيقةً واحدةً، ووصل إلى مقام: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾[3] الذي هو مقام الوحدة الذاتيّة ومشاهدة الحضرة الأحديّة، وارتفعت الحجب بالكليّة، وصار مستحقّاً أن يأخذ الوحي من الحقّ بلا واسطة جبرائيل، لقول جبرائيل: «**لو دنوتُ أنملة لاحترقتُ**».

٥٥٦ -﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾. ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الله تعالى: ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾. بنفسه: «ما أوحى» من الأسرار والحقائق والرموز والدقائق المسمّاة: بـ«أسرار المعراج»، المشار إليها بقوله: «**علمت علم الأولين والآخرين وأوتيت جوامع الكلم**».

وبسبب أنّ مجموع ذلك كان بمشاهدة عينه القلبيّة، لا بعينه البصريّة، قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[4] أي ما كذب فؤاد محمّد ما رأى من مشاهدتنا ومطالعة أسرارنا وعلومنا وحقائقنا، واستفادته منّا بلا واسطة غيره، ملكاً كان أو بشراً.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٧.
(٢) سورة النجم، الآية: ٨.
(٣) سورة النجم، الآية: ٩.
(٤) سورة النجم، الآية: ١١.

٥٧٧ - وقال عقيبه أي ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[١] أي: أفتشكّون فيما يرى النبيّ من آياتنا وأسرارنا وما حصل له من مشاهدة جمالنا جلالنا؟ فلا ينبغي أن تشكّوا فيه أبداً، لأنه حقّ واقع وحاصلة له هذه المقامات بالفعل، وهو مستحقّ لها دون غيره.

٥٧٨ - وهذا كلّه أخبار عن عروجه وصعوده إلى حضرة الذات وحضرة الوجود المسمّاة: **بحضرة الجمع الصرف والأحديّة المحضة والاجمال وغير ذلك**، التي لا يشاهد **ولا يرى فيها إلا الذات والوجود المحض**.

وهذا العروج هو المسمّى: بالسفر الثالث الذي يقتضي فناء الكلّ مطلقاً. **وأمّا إذا** رجع من هذا المقام، ودخل حضرة الأسماء والصفات وحضرة الفرق والتفصيل، وشاهد مظاهره ومجاليه، كلّ واحد منها في مقامه، أو شاهد الحقّ معها بلا إزالة عنها، أعني: «**مع كلّ شيءٍ لا بمقارنة وغير كلّ شيءٍ لا بمزايلة**» فهذا الرجوع هو المسمّى: بالسفر الرابع، الذي هو تكميل الغير ومقام الاستقامة والتمكين، لقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[٢].

٥٧٩ - فأخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[٣] أي: ولقد شاهده كما شاهده أوّلاً مرّة أُخرى بعينه البصريّة وقلبه الحقيقيّ ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[٤] أي: عند شجرة الوجود المشار إليها في القاعدة الأولى بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[٥] المعبّر عنها: بعالم الكثرة والتفصيل، لأنّ مشاهدة عالم الكثرة بعد مشاهدة عالم الوحدة، هي نهاية أقدام السالكين ومنتهى مراتب العارفين. ولهذا قال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[٦] أي: عند مشاهدة هذه الشجرة تكون: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ التي هي مأوى كلّ واحد من العارفين والكاملين.

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٢.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٢.
(٣) سورة النجم، الآية: ١٣.
(٤) سورة النجم، الآية: ١٤.
(٥) سورة طه، الآية: ١١٨.
(٦) سورة النجم، الآية: ١٥.

وإليها أشار أيضاً بقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. أي المتقين عن رؤية الغير ومشاهدة السوي مع ذاته ووجوده.

٥٨٠ - وليس فيه شك أنّه ليس في الواقع جنّة أعلى من هذه الجنّة، أي مشاهدة الحق تعالى في مظاهره الآفاقية والأنفسيّة، كما مرّ مراراً[2].

وهذه المشاهدة هي المسمّاة: بمقام الفرق بعد الجمع، الذي هو نهاية مراتب الإنسان.

وإليه أشار القوم أيضاً: «إياكم والجمع والتفرقة!

فإنّ الأوّل: يورث الزندقة والإلحاد.

والثاني: يورث تعطيل الفاعل المطلق. وعليكم بهما! فإنّ جامعهما موحّد حقيقيّ.

وهذا المقام هو المسمّى: بجمع الجمع. وصاحبه هو المسمّى: بـ جامع الجميع، وله المرتبة العليا والغاية القصوى».

وقد مرّ أيضاً هذا القول، وبيان المقام الجمعيّ المحمديّ في باب التوحيد، فأرجع إليه.

٥٨١ - والغرض أنّ هذا المقام هو أعلى المقامات ونهاية المراتب والكمالات. فقوله تعالى عقيبه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[3] إشارة إلى كثرة أوراق هذه الشجرة التي هي شجرة الوجود، وكثرة أغصانها، وكثرة أزهارها، وعظمة طولها وعرضها، المسمّيين: بالسماوات والأرض، والمعبّر عنهما: بالملك والملكوت، والغيب والشهادة، والأمر والخلق، وغير ذلك.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) مراراً: ولقد نبهتك مراراً أن حضره الأحدية والواحدية والذات والوجود والحضرة الجمعية وغير ذلك، هو النور الصادر الأول والعقل الفعال والروح الكلي والنفس الكلية، أبو الأنوار وسر الأسرار وآية الجبار أسد الله الغالب ومطلوب كل طالب، أبو الحسين علي بن أبي طالب فاعرفه! فإنه ﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ بقلم الأصل.

(٣) سورة النجم، الآية: ١٦.

٥٨٢ - والذي أشار إليه المفسّرون بأنها: «شجرة نبق عن يمين العرش، فوق السماء السابعة، ثمرها: كقلال هجر، وورقها: كآذان الفيلة، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً» كلّها خيالات وقياسات من حيث المحسوس، الذي لا علم لهم فوق ذلك، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[(١)].

٥٨٣ - والذي أشاروا إليه أيضاً وقالوا: إن النبي ﷺ: قال: «رأيتُ على كلّ ورقة من أوراقها ملكاً قائماً يسبّح الله عزّ وجلّ».

هو أيضاً إشارة إلى كثرة أغصان شجرة هذا الوجود وأوراقها، المسمّاة عند العارفين بالخلق والمظاهر والتعيّنات والتشخّصات وغير ذلك، المشار إليها في بيان: «شجرة طوبى» وأغصانها وكيفيّة كلّ واحد من أهل الجنّة وغير ذلك من المناسبة بينهما.

٥٨٤ - ولهذا قال تعالى عقيبه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾[(٢)] أي ﴿مَا زَاغَ﴾ بصر محمّد في مشاهدة الكثرة مع وحدة الحقّ، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي ما مال بصره الحقيقيّ إلى رؤية «الغير» أصلاً، وما تجاوز عن «الحدّ الأوسط»، المعبّر عنه: بالتوحيد الجمعيّ، المسمّى: بالصراط المستقيم، في مشاهدة ﴿آيَاتِ رَبِّهِ﴾ التي هي المظاهر، لأنّ مشاهدة الحقّ - جلّ جلاله - لا يمكن، دنيا وآخرة، إلا بمشاهدة مظاهره المسمّاة: بالآيات، لقوله تعالى المتقدّم ذكره مراراً: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[(٣)] أي سنكحل عين بصيرتهم بنور هدايتنا حتى يتحقق لهم تحقيقاً شهوديّاً ذوقيّاً أنّ هذه «الآفاق» و«الأنفس» بأسرهما هي «الحقّ» ومظاهره لا غير، لأنّ الضمير في «أنّه» راجع إلى العالم أو إلى الوجود المطلق، وكلاهما صحيح. ولهذا شرع في تفصيله بعد ذلك وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾[(٤)] لتحقّق وتثبت معيّته مع كلّ ذرة،

---

(١) سورة الروم، الآية: ٧.
(٢) سورة النجم، الآيتان: ١٧ - ١٨.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٣ - ٥٤.

وليتحقق شهوده في كلّ مظهر، وتثبت احاطته بكلّ محاط، وليتحقّق عباده أنّ لقاءه هو عبارة عن هذه المشاهدة، لا غير.

٥٨٥ - وفيه قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾(١) مع هذه المشاهدة والرؤية الجلية، لجهلهم بآياته ومظاهره.

وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾(٢): أي فقنا عذاب نار الحجاب عن هذه المشاهدة، دنيا وآخرة، كما أشرت إليه: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٣).

٥٨٦ - واخبرت عنه أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾(٤) يعني كما كنت غافلاً عن مشاهدة آياتنا التي هي مظاهرنا، ومشاهدتنا فيها في عالم الشهادة، فاليوم نحن نكون غافلين في عالم الغيب عنك، يعني نكون فارغين عن حالك، حتى تكون ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن مشاهدتنا فيه: (أي في عالم الغيب) كما كنت في عالم الشهادة ﴿وَأَضَلُّ﴾ منها لعدم الاستعداد وفقدان آلات التحصيل، لقولنا فيه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٥).

٥٨٧ - وأمّا قيد مشاهدة عالم الكثرة بالبصر، خلاف البصيرة، في قوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(٦) بعد قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾(٧) لأنّ الشخص إذا رجع من

---

(١) سورة الروم، الآية: ٨.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ - ١٩١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.
(٤) سورة طه، الآيتان: ١٢٥ - ١٢٦.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٤٧.
(٦) سورة النجم، الآية: ١٧.
(٧) سورة النجم، الآية: ١١.

عالم الوحدة إلى عالم الكثرة في «السفر الرابع»، فهو يشاهد بالبصر كلّ ما شاهد قبل ذلك بالبصيرة، لأنّ البصر والبصيرة في تلك الحالة صارا واحداً، لأنّه كما كان شاهد الحقّ بعينه البصريّة، التي هي عين الحقّ حقيقةً، لقوله: «**رأيت ربي بعين ربي**».

فالآن صار يشاهد الحقّ بعينه البصريّة، التي هي عين الحقّ أيضاً، لقوله: «**كنت سمعه وبصره**» الحديث، لأنّ الإضافة قد ارتفعت، والنسبة قد أسقطت، ولم يبق إلا الوحدة الصرفة المعبّر عنها بالذات، المشار إليها بـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1].

فحينئذٍ (يكون) هو الشاهد والمشهود، والعارف والمعروف. هذا، إن كانت المشاهدة بالبصر. وإن كانت بالبصيرة، فلا وجود لغيره في هذا المقام.

ولهذا قال تعالى في حقه: (أي في حقّ نبيّه) بعد حصول هذا المقام ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[2].

قال هو بنفسه: «**من رآني فقد رأى الحق**».

ولهذا قال غيره: «**سبحاني! ما أعظم شأني!**»و«**أنا أقول وأنا أسمع**» و «**هل في الدارين غيري؟**» و «**أنا الحقّ**» وغير ذلك. وكلّ ذلك كان من هذا المقام.

٥٨٨ - والغرض من مجموع ذلك أنّ الله تعالى أخبر عن مجموعيّة المراتب المحمّدية ومقاماتها في هذه السورة، التي هذا بعضها؛ وأنّ المقام المحمّديّ و (مقام) أمّته وتابعيه يقتضي الجامعيّة والمجموعيّة المذكورة في باب التوحيد.

وليس لغيرهم هذا، لقوله تعالى أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[3] والوسط هو الحدّ الأوسط بين طرفيْ النقيض المتقدّم ذكره، المسمّى: بالمقام الجمعيّ. ولقوله تعالى أيضاً: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[4] الآية.

٥٨٩ - وإذا تحقّق هذا بقوله تعالى وثبت أنّ التوحيد هو أعلى مقامات الأنبياء

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.

والأولياء عليهم السلام وأنّ أهله هم السالكون سلكهم، القاصدون طريقهم، وليس بينهم تفاوت إلا في المراتب، فلنشرع في القاعدة الثالثة، المشتملة على أقوال الأولياء عليهم السلام واثباتها أيضاً، بعون الله تعالى وحسن توفيقه.

القاعدة الثالثة: في الاستشهاد بكلام الأولياء عليهم السلام في حقيقة التوحيد واثباته

٥٩٠ - أعلم أنّ هذه القاعدة مشتملة على كلام الأولياء عليهم السلام : في الاستشهاد بحقيقة التوحيد واثباته. ونريد أن نفعل في هذه القاعدة ما فعلناه في القاعدة الثانية، أعني كما اكتفينا فيها من أقوال جميع الأنبياء عليهم السلام بقول نبيّنا صلى الله عليه وآله، الذي هو أعظمهم وأقدمهم وأكملهم، فنكتفي ههنا من أقوال جميع الأولياء عليهم السلام بقول مولانا وإمامنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي هو أيضاً أعظمهم وأكملهم وأقدمهم، لأنّ الكتاب لا يحتمل قول مجموعهم ولا البعض منهم، كما تقدّم الكلام عليه.

وكلامه عليه السلام أيضاً في هذا الباب كثير، بعضه ما تقدّم متنه وشرحه، وبعضه ما أوردناه.

فحينئذٍ نورد ههنا منه الذي أوردناه وشرحناه والذي ما أوردناه. ونشرع بعد ذلك في الشرح الذي هو أنسب بهذا المقام وأليق بهذا المرام.

٥٩١ - فأوّل قوله الذي هو أعظم الأقوال في هذا الباب، هو قوله في أوّل «خطبة النهج» من خطبه: **«أوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه، فقد قرنه. ومن قرنه، فقد ثنّاه. ومن ثنّاه، فقد جزّأه. ومن جزّأه، فقد جهله. ومن جهله، فقد أشار إليه. ومن أشار إليه، فقد حدّه. ومن حدّه، فقد عدّه. ومن قال «فيمَ؟» فقد ضمنه.**

ومن قال «علامَ؟» فقد أخلى منه. كاين، لا من حدث. موجود، لا عن عدم. مع كلّ شيءٍ، لا بمقارنة. وغير كلّ شيءٍ، لا بمزايلة» إلى آخره. وقد مرّ شرح هذا القول مراراً، فلا وجه لذكره وشرحه مرّةً أُخرى.

٥٩٢ - وأمّا الثاني، فقوله في «النهج» أيضاً: وهو «**خطبة التوحيد**» التي مدحها السيّد (الشريف الرضيّ) - رحمه الله - وقال: «وتجمع هذه الخطبة من أصول العلوم ما لا تجمعه خطبة». وهو قوله: «**ما وحّده من ولا حقيقته أصاب من مثّله، ولا إيّاه عنى من شبّهه، ولا حمده من أشار إليه وتوهّمه. كلّ معروف بنفسه مصنوع. وكلّ قائم في سواه معلول. فاعل، لا باضطراب آلة. مقدّر، لا بجول فكرة. غني، لا باستفادة. لا تصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات. سبق الأوقات كونُه، والعدم وجودُهُ، والابتداءَ أزلُه. بتشعيره المشاعر، عُرف أن لا مشعر له؛ وبمضادّته بين الأمور، عُرف أن لا ضدّ له؛ وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له**» إلى قوله: «**وأنّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه؛ كما كان قبل ابتدائها، يكون بعد فنائها بلا وقت، ولا مكان، ولا حين، ولا زمان. عدمت عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات. فلا شيء إلا الواحد القهّار، الذي إليه مصير جميع الأمور**».

٥٩٣ - فنقول: هذا الكلام بعضه يدلّ على تنزيهه عن مشابهة المحدثات، وهذا صحيح كما مرّ مراراً. وبعضه يدلّ على التوحيد الصرف وطريقة أهله، لأنّ قوله عليه السلام «**وأنّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه؛ كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها**» دالّ على قولنا المتقدّم مراراً: «**كان الله ولم يكن معه شيء وهو ألآن كما كان**» وغير ذلك، لأنّه عليه السلام: أن أراد بالدنيا الممكنات الموجودة. ففناؤها واعدامها محال؛ لأنّها باتّفاق جميع المتكلّمين والموحّدين - صارت واجبة بالغير، واعدام الواجب بالغير من الممتنعات، ما دام الغير باقياً. ومعلوم أنّ الأرواح باقية دائماً والأجساد كذلك، وإن تغيّرت أوضاعها وأشكالها.

٥٩٤ - وههنا أبحاث كثيرة: حاصلها أنّه لا يعدم شيء من الموجودات أصلاً، على الوجه الذي يرسخ في ذهن الجاهل من أنّ الموجودات تصير كما كانت قبل الوجود. والهلاك والفناء والاعدام، من حيث الشرع، هو الموت الطبيعيّ الذي هو أمّا النقل من الدنيا إلى الآخرة، وأمّا الانتقال من صورة إلى صورة أخرى. وعند التحقيق - أعني من حيث الحقيقة - (الفناء) هو اسقاط إضافة الوجود إلى ماهيّته، ومشاهدة الوجود المطلق على صرافة وحدته.

فإنّه إذا نظر (الناظر) إلى هذا المقام، عرف أنّ الموجودات أزلاً وأبداً هالكة فانية زايلة معدومة كما تقدّم ذكره في بيان: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1] وبيان: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[2].

٥٩٥ - فقوله عليه السلام: **«فلا شيء إلا الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور»** أي (لا شيء إلا) الوجود الواحد المطلق الصرف، بعد إضافته إلى المقيّدات الممكنة، كما أشار إليه جلّ ذكره: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[3].

والمراد بـ: «القهار» الذي يقهر كلّ موجود غيره، ويبقى هو وحده. ولا شك أنّ الوجود المطلق أو الحقّ تعالى إذا ظهر من حيث هو هو، لا يبقى للغير وجود ولا أثر: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[4] أي ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ مضاف إلى وجوده وذاته، معدوم هالك أزلاً وأبداً ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي ذاته التي هي أصل كلّ موجود ومرجعه. ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[5].

٥٩٦ - وأمّا الثالث من قوله عليه السلام: فيه: **«واعلموا عباد الله! أنه لم يخلقكم عبثاً، ولم يرسلكم هملاً علم مبلغ نعمه عليكم، وأحصى احسانه إليكم. فاستفتحوه واستنجحوه واطلبوا إليه واستمنحوه. فما قطعكم عنه حجاب، ولا أغلق عنكم دونه باب. وإنه لبكلّ مكان وفي كلّ حين وأوان، ومع كلّ أنس وجان. لا يثلمه العطى، ولا ينقصه الجنى. لا يستنفده سايل، ولا يستنقصه نايل. ولا يلويه شخص عن شخص، ولا يلهيه صوت عن صوت، ولا تحجره هبّة عن سَلب، ولا يشغله غضب عن رحمة، ولا توليه رحمة عن عقاب، ولا يجنّه البطون عن الظهور، ولا يقطعه الظهورعن البطون. قرب، فنأى. وعلا، فدنا. وظهر، فبطن. وبطن، فعلن. ودانَ ولم يدن»**.

٥٩٧ - فقوله: **«وإنّه لبكلّ مكان، وفي كلّ حين وأوان، ومع كلّ أنس وجان»**

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٦.
(٣) سورة المؤمن، الآية: ١٦.
(٤) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٥) سورة القصص، الآية: ٨٨.

ليس كما يزعم الخصم أنّه معيّة علم، لأنّه قد تقرّر في شرح قوله: «وكمال الاخلاص نفي الصفات عنه» أنّ كمال توحيده ومعرفته في نفي الصفات عنه مطلقاً، سلبيّة كانت الصفات أو ثبوتيّة، لأنّ مشاهدة ذاته المطلقة لا تقتضي إلا هذا. وإليه أشار عليه السلام في موضع آخر: «**من وصفه، فقد حدّه؛ ومن حدّه، فقد عدّه؛ ومن عدّه، فقد أبطل أزله. ومن قال: كيف؟ فقد استوصفه. ومن قال: أين؟ فقد حيّزه**» إلى آخره. ولهذا جعله (أي نفي الصفات) كمال المعرفة وكمال التوحيد.

٥٩٨ - فحينئذٍ، «**معيّته تعالى مع كلّ أنس وجان وفي كلّ حين وأوان**» واحاطته بكلّ مكان، لا يكون إلا بالذات والوجود، كما مرّ ذكره أيضاً.

ومثال ذلك: أي ومثال معيّته مع كلّ موجود بلا نقص ولا كمال ولا زيادة ولا نقصان، هو بعينه مثال المداد مع كلّ حرف من هذه الحروف. وهو بعينه أيضاً مثال البحر مع كلّ موج من أمواجه، لأنّ معيّة المداد مع الحروف ليس بشيء آخر غير وجوده. وكذلك معيّة البحر مع أمواجه. فأفهم، فإنّه دقيق[1]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ في السماوات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

٥٩٩ - وأمّا قوله عليه السلام: «**ولا يجنّه البطون عن الظهور**» إلى آخره، فهو ظاهر في غاية الظهور، لأنّه إشارة إلى الوجود المطلق المحض، وإلى مراتب كمالاته في مدارج ظهوره وبطونه، لأنه قال: «**لا يجنّه البطون عن الظهور**» يعني لا يمنع باطنيّته ظاهريّته لأنّهما في الحقيقة شيء واحد، ولا ظاهريّته باطنيّته، لقوله: «**ولا يقطعه**

---

(١) يعني أن المراد ليس معية ذاته الأحدية مع الأشياء، فإن فيه ما فيه. بل المراد معية رحمته الواسعة ونور وجوده العام الشامل، عم نواله. فبالجملة المعية والانبساط والإحاطة صفة وجود الثاني الإضافي الظلي، لا وجوده الأول الحقيقي الغيبي المطلق. لكن البينونة بين الوجودين صفتيه، وهي أتم أنحاء البينونة والمزايلة، المستلزمة لأشد أنحاء التوحيد والاتحاد. وهو الغني وأنتم الفقراء. قريب في بعده، بعيد في قربه، لا بينونة عزلة، وتوحيده تمييزه عن خلقه، وحكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة، والمقام فمقام المقامات. فلذلك صار مزلة اقدام الجل من السلف والخلف، إلا شرذمة من خواص شيعة الأئمة المعصومين عليهم السلام.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٠.

الظهور عن البطون» لأنهما أيضاً اعتباران من اعتبارات كمالاته، وليس بينهما مغايرة. فظهوره عين بطونه، وبطونه محض ظهوره.

ولهذا قال: **«قرب، فنأى؛ وعلا، فدنا؛ وظهر، فبطن؛ وبطن، فعلن؛ ودان، ولم يدن»** لأنّه ليس في الواقع إلا شيء واحد، وهو الوجود. والشيء لا يبعد عن نفسه ولا يقرب إليها، بل يكون قربه وبعده بالنسبة إلى بعض أعضائه ومظاهره.

٦٠٠ - ويعرف من هذا سرّ قوله: **«من عرف نفسه فقد عرف ربّه»**. لكن بشرط أن تكون عين بصيرته مفتوحة، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[1] أعني الطريقة المحمدية مبنية على البصيرة، وافتتاح عين القلب، ومشاهدة وجود الحق تعالى من حيث الكشف والتوحيد، لا على القيل والقال، والمعارضة والجدال، كما ورد فيه الأخبار والأحاديث. فكل من كانت عين بصيرته مفتوحة لا ينكر ذلك القول، ويعرف بالحقيقة أن معية الحقّ تعالى إلى الموجودات، هي بعينها معيّة روحه مع أعضائه وجوارحه. وقد مرّ هذا الكلام مراراً في بيان قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[2]، وقول النبي ﷺ: **«من عرف نفسه فقد عرف ربّه»**.

٦٠١ - والغرض: ليس قربه ولا بعده، ولا ظهوره ولا بطونه، ولا علوه ولا دنوه، إلا أموراً اعتباريّة، ليس لها وجود في الخارج. وهو تعالى الأوّل والآخر، والظاهر والباطن، والقريب والبعيد، والعالي والدون.

وليس لغيره وجود لا أوّلاً ولا آخراً، ولا ظاهراً ولا باطناً. **«كان ولم يكن معه شيء، وهو الآن كما كان»**. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[3]. وقد تقدّم هذا البحث أيضاً مراراً متعدّدة، في باب التوحيد وغيره.

٦٠٢ - وأمّا الرابع من قوله فيه: **«الذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً، كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل»** إلى

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤١.

قوله: **«وكلّ ظاهر غيره، غير باطن. وكلّ باطن غيره، غير ظاهر. لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان، ولا تخوّف من عواقب زمان، ولا استعانة على ندّ مناوىء، ولا شريك مكاثر، ولا ضدّ منافر. ولكن خلائق مربوبون، وعباد داخرون. لم يحلل في الأشياء فيقال: هو فيها كاين. ولم ينأ عنها فيقال: هو منها باين»** إلى آخره.

٦٠٣ - فقوله: **«الذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً»** أراد به أنّه لو كانت أوّليّته وآخريّته وظاهريّته وباطنيّته أمراً وجودياً، أو موقوفة على مكان وزمان، لكان تعالى أوّلاً قبل أن يكون آخراً، وليس كذلك.

وكان ظاهراً قبل أن يكون باطناً، وهذا أيضاً ليس كذلك، لأنّ هذه الشؤون كلّها أُمور اعتباريّة واعتبارات مجازيّة، لا وجود لها في الحقيقة.

فهو تعالى الأوّل في عين الآخر، والظاهر في عين الباطن، كما يشهد به قوله الآتي، وهو قوله: **«كلّ ظاهر غيره، غير باطن»** إلى آخره وكما شهد به قوله المتقدّم: **«ظهر، فبطن؛ وبطن، فعلن»** إلى آخره.

٦٠٤ - ويشير أيضاً إلى مجموع ذلك قوله: **«وكلّ مسمى بالوحدة غيره قليل»** لأنّ معناه أنّ كلّ موجود قبل الوحدة أو مسمّى أنّه واحد، لا بدّ من أن يكون هو قليلاً، لأنّ أقلّ الأعداد هو الواحد، إلا الحقّ[1]، فإنّه واحد كثير، أي واحد بالذات، كثير بالأسماء والصفات والمظاهر والكمالات، كما قيل: «أحد بالذات، كلّ بالأسماء».

وهذا إشارة جامعة إلى وحدته وكثرته، بحيث تكون كلّ واحدة منهما عين الآخر.

وسلب هذه الصفة عن غيره مطلقاً، لأنّ كلّ شيء غيره، إذا كان واحداً، من حيث هو واحداً، من حيث هو واحد، لا يكون كثيراً؛ وإذا كان كثيراً، من حيث هو كثير، لا يكون واحداً.

---

(١) الحق: واعلم أن المراد بالحق هو المولى المشار إليه بقوله: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩] ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر: ٣] ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] إلى غير ذلك النور الحق (بقلم الأصل).

وهذا الوجود، أو الحقّ، هو واحد في عين كثرته، كثير في عين وحدته. لا تمنعه الوحدة عن الكثرة، ولا الكثرة عن الوحدة.

٦٠٥ - ولهذا قال عقيبه: «**كلّ ظاهر غيره، غير باطن؛ وكلّ باطن غيره، غير ظاهر**» لأنّ مراده بذلك هو الذي قد تقرّر، أعني أنّ كلّ موجود غيره، إذا كان ظاهراً، من حيث هو الظاهر، لم يكن باطناً من حيث هو الباطن. أعني لم تكن باطنيّته من هذه الحيثيّة، بل تكون باطنيّته من حيثيّة أخرى.

وكذلك إذا كان باطناً، من حيث هو الباطن، لم يكن ظاهراً، من حيث هو الظاهر. أعني: لم تكن ظاهريّته من هذه الحيثيّة، بل تكون من حيثيّة أخرى. وهذا موضع دقيق قد غلط الشرّاح فيه كثيراً، حتّى الشيخ الكامل كمال الدين ميثم البحراني[1] - قدّس الله تعالى سرّه. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

٦٠٦ - ويشير إلى مجموع ذلك أيضاً، وإلى اثبات وجود واحد ونفي غيره، قوله أيضاً: «**لم يحلل في الأشياء فيقال: هو فيها كاين. ولم ينأ عنها فيقال: هو منها باين**» لأنّ هذا حكم باثبات الوحدة وارتفاع الثنويّة والغيريّة مطلقاً، لأنّ غيره لو كان موجوداً بالحقيقة، وكان قيامه به، فلا بدّ من حلوله فيه أو تباعده عنه، وكلاهما مستحيل، لأنّه أقرب الأشياء وقوامها بلا حلول في شيء أو تباعد عنه.

فعرفنا أنّه ليس لشيء غيره وجود حقيقةً، بل اعتباراً وإضافة، والوجود الحقيقيّ هو وجوده فقط، كما أشار تعالى إليه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[3]. فيكون معناه مثل الذي تقدّم، أعني: لا يقال لنفس الشيء أنّه أقرب إليه أو أبعد منه، لأنّه هو هو.

٦٠٧ - وكلّ هذا إشارة إليه أي: إلى أنّ الوجود واحد، وليس له حلو في شيء، ولا خروج عنه شيء، كما أشار تعالى هو بنفسه إليه: و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ

(١) البحراني: والشيخ المذكور لا يخلو مما نسب إليه (بقلم الأصل).
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٨.

مُحِيطًا﴾[١]. وأشار إليه بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٢] لأنّ الإحاطة والمعيّة مع الأشياء بدون الذي قررناه، يلزم عنهما الثنويّة والغيريّة والحلول والتباعد وغير ذلك، وهذا غير جائز.

فما بقي إلا أن يكون هو عين كلّ شيء، ومع كلّ شيء، ونفس كلّ شيء، كما مرّ في بيان قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝٥٤﴾[٣] وغير ذلك من الآيات الدالّة على ذلك، المتقدم ذكرها.

٦٠٨ - ولقوله عليه السلام: أيضاً: «**سبق في العلو، فلا شيء أعلا منه؛ وقرب في الدنو، فلا شيء أقرب منه. فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به**». ولقوله: «**مع كل شيءٍ لا بمقارنة؛ وغير كلّ شيء لا بمزايلة**» يعني: «**مع كلّ شيء لا بمقارنة**» لأنّ المقارنة تكون بين شيئين أو بين جسمين، وههنا ليس إلا شيئاً واحداً، وإن كان له اعتبارات، فلا يكون بينهما مقارنة، لأنّ بين الأمور الوجوديّة والأمور الاعتباريّة لا تكون مقارنة. وكذلك المزايلة تكون بين شيئين، بحيث يزايل الشيء شيئاً آخر، وههنا ليس كذلك، لأنّه ليس في الوجود إلا هو ومظاهره. أعني ليس في الوجود إلا شيء واحد، وليس بينهما مغايرة، كما ثبت. فلا يزايل حينئذٍ الشيء، لأنّ زياله عن الشيء زياله عن نفسه، وهذا محال. فمحال أن يزايل شيئاً أصلاً. فيكون «**مع كلّ شيءٍ لا بمقارنة، وغير كلّ شيء لا بمزايلة**». وهذا هو المطلوب.

٦٠٩ - ومثال: ذلك مثال المداد والحروف، والبحر والأمواج أيضاً، لأنّه لا يمكن تصوّر معيّة المداد مع الحروف من حيث المقارنة، لأنّه ليس هناك شيئان في الحقيقة، حتّى يتصوّر ذلك. بل الموجود هو المداد فقط، والحروف عبارة عن استطالة المداد واستدارته، لاعطاء حقّ كلّ حرف حقّه، لظهوره بصورته.

وكذلك البحر والأمواج بعينه، من غير أن يتصوّر في المداد والبحر من ذلك نقص

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٦، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ سورة فصلت، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٥٣ - ٥٤.

ولا كمال أيضاً، لأنّ استطالتهما واستدارتهما بصورة الحروف أو الموج، كاستدارة الوجه واستطالته إذا وقع على مرآة طويلة كالسيف مثلاً، أو على مرآة مستديرة، كالمرآة المشهورة، كما قيل:

وما الوجه إلا واحد غير أنّه إذا أنت عددت المرايا تعددا

٦١٠ - وقد بسطنا الكلام في ذلك في باب التوحيد، فارجع إليه، إن لم تفهم هذا الاجمال. لإنّ هذا مثال في غاية اللطافة، مشتمل على أسرار كثيرة ونكات شريفة. وبالحقيقة، هو كشف عن أستار سرّ القدر، الذي هو منهيّ كشفه مع غير أهله: ﴿وَتِلْكَ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[(١)].

٦١١ - وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[(٢)] حالهم في العهد الأزليّ، واقرارهم بذلك في قولنا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[(٣)] أي ألست ظاهراً فيكم وفي أنفسكم، على مااقتضى استعدادكم وماهيّتكم؟ قالوا: بلى، لأنهم أقرّوا في عالم التجرّد وقلّة التعلّق بذلك. لكن لمّا نزلوا عالم الشهادة - منزل التعلّق - نسوا ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[(٤)] وأنكروا صاحبهم وما بقي لهم «العزم» إلى تحصيله، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي: لم نجد عزماً إلى توجّهنا والتوجّه إلى مشاهدتنا في مظاهرنا الغيبيّة والشهاديّة، أو الآفاقيّة والأنفسيّة. فلا جرم أن استحقّوا أن يقال فيهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[(٥)] ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[(٦)] وهذا البحث أيضاً له طول وعرض، وقد تقدّم أكثره.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

(٤) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٥) سورة الأعراف، ١٧٩.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨.

٦١٢ - فنرجع إلى ما كنّا بصدده، وهو نقل كلامه عليه السلام: الشاهد بذلك ومعناه بقدر هذا المقام. وهو هذا:

٦١٣ - وأمّا الخامس من قوله فيه: **«الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليّته، وبأشباههم على أن لا شبه له. لا تسلمه المشاعر، ولا تحجبه السواتر، لافتراق الصانع والمصنوع، والحادّ والمحدود، والربّ والمربوب. الأحد، لا بتأويل عدد؛ والخالق، لا بمعنى حركة ولا نصب؛ والسميع، لا بأداة؛ والبصير، لا بتفريق آلة؛ والشاهد، لا بمماسّة؛ والباين، لا بتراخي مسافة؛ والظاهر، لا برؤية (أي لا بكثافة)؛ والباطن، لا بلطافة. بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه. من وصفه، فقد حدّه؛ ومن حدّه، فقد عدّه؛ ومن عدّه، فقد أبطل أزله. ومن قال: كيف؟ فقد استوصفه. ومن قال: أين؟ فقد حيّزه. عالم، إذ لا معلوم؛ وربّ، إذ لا مربوب؛ وقادر، إذ لا مقدور»**.

٦١٤ - والله! لو لم يكن من كلامه إلا هذا، لكفى به برهاناً على حقيقة التوحيد وأهل التوحيد. فإنّه جامع لجميع الدقائق التوحيديّة ومشير إلى مجموع الحقائق الوجوديّة، اجمالاً وتفصيلاً، لأنّ قوله: **«الحمد لله الدالّ على وجود بخلقه وبمحدث خلقه على أزليّته»** إشارة إلى المظاهر الدالّة على وجوده الظاهر فيها، لأنّ معرفة ذاته المقدّسة لا يمكن إلا بواسطة مظاهره، المرتّبة على الأسماء والصفات، الدالّة على معرفته الوجوديّة والذاتيّة، كما قال عليه السلام: في موضع آخر **«الحمد لله المتجلّي لخلقه بخلقه»**.

وقال: **«الحمد لله الذي بطن في خفيّات الأمور، ودلّت عليه أعلام الظهور»**. والخلق وأعلام الظهور شيء واحد.

٦١٥ - والغرض أنّ ظهوره وتجلّيه لخلقه لا يمكن إلا بهم وبصورهم المعبّر عنها بالمظاهر، ليعرفوه بها ويستدلّوا على ذاته بمظاهره التي هي أعلى وجوه الاستدلال، لقول النبي صلى الله عليه وآله: **«من عرف نفسه، فقد عرف ربّه»** لأنّه استدلال من المظاهر على وجود الظاهر، ومن المعلول على وجود العلّة، وإن كان عند البعض الأوّل أعلى، أعني: الاستدلال من العلّة على المعلول.

٦١٦ - ومن حيث أنّ المظاهر غير الظاهر من حيث الاعتبار، وإن كانت عينه من حيث الحقيقة، قال: **«وبمحدث خلقه على أزليّته»** أي: بتعيّناتهم وتشخّصاتهم وتقيّداتهم، على وحدته واطلاقه وقدمه.

ولهذا قال: **«وبأشباههم على أن لا شبه له»** لأنّ المقيّدات من حيث هي هي، مشبّهة بعضها ببعض، بخلاف المطلق. فإن لا شبه له بوجه من الوجوه[1].

كما أشار تعالى في قوله أيضاً: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2] وقد عرف تفسيره وتأويله.

وسبب هذه الحكمة وعلّة هذا الترتيب، ليفترق المطلق من المقيّد، والظاهر من المظهر، والربّ من المربوب، كما قال: **«لافتراق الصانع والمصنوع، والحادّ والمحدود، والربّ والمربوب»**.

٦١٧ - ولهذا قال: **«الأحد، لا بتأويل عدد»** أي: لا بتأويل أن يعدّوه موجوداً ومظهره موجوداً آخر برأسه، بل يعدّوه واحداً من جميع الجهات كما هو مقتضى ذاته. والمراد بذلك أنِ ليس أحديّته ولا واحديّته كما هي أحديّة العدد أو واحديّته، لأنّه لو كان كذلك، لكان داخلاً في جميع الموجودات، كما أنّ الواحد (العدديّ) داخل في جميع المعدودات، أو هو مبدأ لها. والبارىء ليس داخلاً في أعداد الموجودات أصلاً، ولا هو مبدأ لها. فواحديّته كما قلناه، بمعنى أنّه لا ثاني له في الوجود، وبمعنى أنّه لا كثرة في ذاته بوجه من الوجوه، لا ذهناً ولا خارجاً، وبمعنى أنّه فاعل بالذات، قادر بالذات، سميع بها، قادر بقدرتها، بصير بنورها، شاهد بظهورها، كما أشار إليه عليه السلام: **«والخالق، لا بمعنى حركة ولا نصب؛ والسميع، لا بأداة؛ والبصير، لا بتفريق آلة؛ والشاهد، لا بمماسّة؛ والباين، لا بتراخي مسافة؛ والظاهر، لا برؤية (أي لا بكثافة)؛ والباطن، لا بلطافة»** لأنّ كلّ ذلك يشهد بوحدته الذاتيّة، وأنّ جميع ذلك اعتبار ذاته في مراتب كمالاته.

٦١٨ - لأنّه لو لم يكن كذلك، لكان في خالقيّته محتاجاً إلى حركة لايجاد غيره البعيد عنه بمسافة؛ وفي سمعيّته نداءه إلى آلة؛ وفي بصريّته أحواله إلى أدوات.

---

(١) الوجوه: في أن الوجود المطلق لا شبه له إذ فياض ذلك الذي هو كل شيء كذلك (بقلم الأصل).

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

وهذه كلّها صفات الممكنات ونعوت المحدثات، جلّ شأنه عن ذلك! فحينئذٍ، يكون تعالى هو شاهداً بغير مماسّة، لأنّ المماسّة لا تتصوّر إلا بين الجسمين، أو بين الموجودين. ويكون تعالى بايناً بغير تراخي مسافة، لأنّ بينونيّته لها ليست إلا بالقهر للأشياء والقدرة عليها، وبينونيتها له ليست إلا بالخضوع له والرجوع إليه، كما قال عليه السلام: «**بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له و الرجوع إليه**» **لا كما تصوّر المحجوب أنّه تعالى ليس في السماء ولا في الأرض ولا في العرش ولا في الكرسيّ ولا في العالم مطلقاً**، **وإن كان تصوّر صحيحاً**، **لأنّه تعالى - كما تقرّر -** ليس في شيءٍ وليس شيء فيه. ولكن هناك فرق كثير بين مشاهدته تعالى بالإحاطة الذاتيّة والإحاطة العلميّة.

٦١٩ - وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: «**الظاهر لا برؤية**» يعني ظاهريّته ليست كظاهريّة الشيء للبصر أي بالكثافة. «**والباطن لا بلطافة**». يعني باطنيّته ليست كباطنيّة الشيء للبصر باللطافة. بل ظاهريّته تعالى وباطنيّته عبارة عن الذات وكمالاتها الظاهرة بحسب اقتضائها وشؤونها، كما مرّ ذكره في باب التوحيد.

٦٢٠ - وحاصل مجموع هذا الكلام أنّه ليس بينه تعالى وبين مظاهره المسمّاة: بالخلق والأشياء والعالم، مسافة من حيث التراخي، ولا مماسّة من حيث التلاقي، بل: «**هو الآن كما كان**» في الأزل، أعني: كان في الأزل وما كان معه شيء، «**والآن كما كان**» أعني: ليس معه شيء. ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾(١) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٢).

٦٢١ - ولاثبات هذه الوحدة وتنزّهه تعالى عن الكثرة، قال: «**من وصفه، فقد حدّه**» أي من وصفه بأنّه عالم أو قادر أو ظاهر أو باطن، بحيث يتصوّر أنّ العلم غيره وأنّ القدرة والظهور والبطون وجميع الصفات أمور وجوديّة، «**فقد حدّه**» أي فقد عيّن له حدّاً بأن يجعله إمّا ظاهراً أو باطناً أو غير ذلك، لأنّ حدّ كلّ صفة غير حدّ صفة أخرى. «**وكل من حدّه، فقد عدّه**» أي جعله بهذه الاعتبارات معدوداً. «**ومن عدّه**»

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٣.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

أي من جعله معدوداً بهذا الوجه، «**فقد أبطل أزله**» أي أبطل أزليّته وقدمه، لأنّ كلّ ذي عدّ محدثٌ ممكن.

٦٢٢ - وأكّد هذا القول بتأكيد آخر وقال: «**ومن قال: كيف؟ فقد استوصفه**» بمعنى: كلّ من طلب كيفيّة هذا الوجود، من حيث البحث والتقرير واقامة البرهان واثبات الصفة له، فقد جعله ذا قرين وذا حدّ وذا وصف.

وكلّ من قال ذلك، فهو جاهل به وبذاته، لأنّه يسأل عن الذوقيّات بالعبارة، وعن الكشفيّات بالبيان، وهذا غير ممكن بالاتّفاق، ولهذا قال: «**ومن قال: أين؟ فقد حيّزه**» لأنّ من وصفه، حدّه؛ وإذا حدّه، فقد بيّن جهته؛ ومن بيّن جهته، فقد عيّن حيّزه؛ ومن حيّزه، أبطل أزله وجعله جسماً وجسمانيّاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٦٢٣ - فأحسن الوجوه في ذلك وأعلى البراهين فيه، أنّه يقال كما قال أعلم الخلق به بعد نبيّنا ﷺ في قوله عقيبه: «**عالم إذ لا معلوم؛ وربّ إذ لا مربوب؛ وقادر، إذ لا مقدور**» لأنّ المراد به أنّه ليس عالميّته باعتبار المعلوم، ولا ربوبيّته باعتبار المربوب، ولا قادريّته باعتبارالمقدور.

بل كان عالماً وربّاً وقادراً قبل المعلومات المحكيّة الموجودة، والمربوبات المترتّبة عليها، والمقدورات الصادرة بمقتضياتها، وإن لم تظهر الربوبيّة إلا بالمربوب، والقادريّة إلا بالمقدور، والعالميّة إلا بالمعلوم. وهذا أيضاً إشارة إلى وحدته الذاتيّة وعدم الغير عن الوجود مطلقاً، حتى المربوبيّة والمقدوريّة والمعلوميّة، وهذا هو المطلوب. والله أعلم بالصواب؛ وإليه المرجع والمآب.

٦٢٤ - وبالحقيقة، أكثر خطبة عليه السلام مشتملة على هذا البحث، مبنيّة على هذا المقصد، لاسيّما الخطبة الأولى، لأنّها لا تشير إلا إلى نفي الغير مطلقاً، واثبات الوجود المطلق الحقّ، حتّى الأسلوب، لأنّ أسلوبها أيضاً (أي: أسلوب الخطبة الأولى) كأسلوبها (أي: كأسلوب الوحدة الذاتيّة)، كما لا يخفى على أهله، لأنّ قوله: «**من وصف الله سبحانه، فقد قرنه؛ ومن قرنه، فقد ثنّاه؛ ومن ثنّاه، فقد جزّأه؛ ومن جزّأه، فقد جهله؛ ومن جهله، فقد أشار إليه؛ ومن أشار إليه، فقد حدّه؛ ومن حدّه، فقد عدّه**» إلى قوله: «**مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغير كلّ شيء لا بمزايلة**»، كلّ ذلك بأجمعه إشارة إلى الأسرار التي تقدّم ذكرها في بيان قوله المتقدّم الآن أيضاً.

ولو لا مخافة التطويل، لشرعتُ في شرح كلّ كلام له من كلامه المذكور بمجلدات. لكن لمّا تحقّق أنّ أبناء هذا الزمان لا يلتفتون إلى المطوّلات، خصوصاً في هذا الفنّ، تركنا البسط فيه واقتصرنا على الاختصار منه.

٦٢٥ - وإذ فرغنا من هذه الخطبة، فلنشرع في خطبة أُخرى تحقيقاً للقصد وتوضيحاً للغرض، وهي هذه. وهذه خطبة طويلة، جامعة لأسرار عظيمة توحيديّة، ونكات شريفة وجوديّة، وهي غير موجودة في «نهج البلاغة». وكأنّها كتاب برأسها؛ بين الكتب لها شأن وقصّة. وهي مسمّاة بـ: «درّة التوحيد». وهي من جلايل الخطب وأعظمها، وأشرف الكلم وأكملها. ومن حيث أنّ هذا الموضع لا يحتمل مجموعها، فننتخب منها ما يحتاج إليه، كاللؤلؤة الكبيرة بين صغارها، ونخلّي الباقي منها على قرارها. وأيضاً لم نتعرَّض لشرح ما نذكره منها، لأنّ عند من فهم الكلام المتقدّم من كلامنا ومن كلام غيرنا، ولاسيّما من كلامه عليه السلام يكفيه بغير شرح لها.

٦٢٦ - فأوّلها قوله: «**الحمد لله حمد معترف بحمده، مغترف من بحار مجده، بلسان الثناء شاكر، وبحسن آلائه ناشر، الذي خلق الموت والحياة، والخير والشرّ، والنفع والضرّ، والسكون والحركة، والأرواح والأجسام، والذكر والنسيان، وألزم ذلك كلّه حال الحدث، إذ القِدم له، لأنّ الذي بالحياة قوامه، فالموت يعدمه، والذي بالجسم ظهوره، فالعرض يلزمه. والذي بالأداة اجتماعه، فقواه تمسكه. والذي يجمعه وقت، يفرقه وقت. والذي سبق العدم وجودهُ، فالخالق اسمه - جلّ جلاله**».

٦٢٧ - إلى قوله: «**لا يضادّه من. ولا يوافقه عن. ولا يلاحقه إلى. ولا يعلو عليه على. ولا يظله فوق. ولا يقلّه تحت. ولا يقابله حدّ. ولا يزاحمه عند. ولا يحدّه خلف. ولا يحذوه أمام. ولا يظهره قبل ولا بعد. ولا يجمعه كلّ. ولا يفرقه بعض. ولا يؤخره كان. ولا يقعده ليس. ولا يكشفه علانية. ولا يستره خفاء**».

٦٢٨ - «النعت لباس مربوبٍ غيره. وصفه، لا صفة له. وشأنه، لا غاية له. وكونه، لا أمد له. وفعله، لا علّةٍ له. ليس له درّاك، ولا لغيره هُناك. له من الأسماء معناها، ومن الحروف مجراها، إذ الحروف مبدعة، والأنفاس مصنوعة، والعقول موضوعة، والافهام مفطورة، والآيات مبروزة» إلى قوله: «السبيل مسدود، والطالب

مردود. دليله آياته، ووجوده اثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تنزيهه من خلقه. باين لا بمسافة قريب لا بمداناة. له حقيقة الربوبيّة، إذ لا مربوب؛ ومعنى الإلّهيّة، إذ لا مألوه. صفته أنّه ربّ وغيره خلق. له تأويل البينونة، لا بينونة له. ما تصوّرته الأوهام، فهو بخلافه. ليس بربّ من اطرح تحت البلاء، ولا بمعبود من وجد في وعاء هواء وغير هواء. فهو في الأشياء كاين، لا كينونة محصور بهاعليه. ومن الأشياء باين، لا بينونة غائب عنها» إلى قوله: «فهو الأوّل، لا أوّل له. والآخر، لا آخر له. والظاهر، لا ظاهر له. والباطن، لا باطن له».

٦٢٩ - «به توصف الصفات، لأنّها توصف. وبه تعرف المعارف، لأنّها تعرف. به عُرف المكان، لا بالمكان عرف. وبه كان الخلق، لا بالخلق كان. الأمكنة لا تكنّه، لأنّه لو كان في مكان دون مكان، لانس المسكون فيه وأوحش الخالي منه. علّة ما صنع صنعه. وهو لا علّة له. ليس «لِكانَ كونُه كان»، ولكنه «كونُ الكانَ فكان» وإنّما كان. حروف تأتلف وتفترق. لم يسبقه قبل، ولم يقطعه بعد. تقدّم الحدثَ قِدمُه، والعدمَ وجودُه، والصفةَ ذاتُه، والغايةَ أزلُه. وفات الوهم نيله، والعدمَ اكتناهُه، والحجب احتجابُه. ظاهر في غيب، غائب في ظهور. ولو إذا غاب، لحجبت العينيّة الحجاب. ولو إذا ظهر، لوقع الإيماء به اضطراراً. ليس عن الدهر قدمه، ولا لكونه موجوداً يقال سبق وجوده عدمه. وجوده واجب، وسبيله الديمومية. الوحدة لم توحشه، والخليقة لم تؤنسه. فلو أوحشه الوحدة، لآنسه خلقه. ولو آنسه خلقه. لأوحشه فقدهم. فالانس والوحشة خلقه. فكيف يحمل به ما هو أبداه؟ أو يعود فيه ما هو أنشاه؟».

٦٣٠ - إلى قوله: «احتجب عن العقول كما احتجب عن العيون، وأعمى أهلَ السماء احتجابُه، كما أعمى أهل الأرض. ليس بغيره أحتجب، ولا بسواه استتر، لكنّه مستور بفطرته، محجوب بقدرته. فهو الذي كلّ شيء. يَرَى، ويُرَى إيّاه به ولا يُرَى. لا تراه العيون، ولا تقابله الظنون. عدا قدره الظنون، ودعا نوره العيون. فمنع الطالبَ الطلبُ، وحمى الورود الانقطاعُ. والادراك الامتناع».

٦٣١ - إلى قوله: «فعلى التسليم، عند اختلاج الخواطر بالوسواس في القلوب، ثبت قَدمُ التوحيد. لا يحمل على التشبيه الذي يرقمه فهمك. واعتمد على دليل نظر

عقل صاف، أيّدته الأنوار الإلٓهيّة بلطائف فكر صحيح، ينتج له حقيقة المعرفة. كيف لا وقد وردت الكتب الناطقة والرسل الصادقة بذلك؟ فارتعْ في رياض الإصابة والتسديد. وقفْ بصدق الدليل النظريّ على منهاج العدل والتوحيد. قَضى، وما قضى مضى. لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. أشكره على النعماء، وأستزيده من العطايا.

فأوّل عبادة الله تعالى معرفته، وأصل معرفته توحيده، ونظام توحيده نفي التحديد عنه، لشهادة العقول أنّ كلّ محدود مخلوق وشهادة كلّ مخلوق أنّ له خالقاً ليس بمخلوق. الممتنع من الحدث هو القديم في الأزل. فليس لله عَبدَ من نعت ذاته، ولا إيّاه وحّد مَن اكتنهه، ولا حقيقته أصاب من مثّله».

٦٣٢ - إلى قوله: «ومن قال فيه: لَم؟ فقد علّله. ومن قال فيه: متى؟ فقد وقّته. ومن قال: فيمَ؟ فقد ضمّنه. ومن قال: إلى، فقد أنهاه ومن قال: حتّى، فقد غيّاه. ومن غيّاه، فقد جزّأه. ومن جزّأه، فقد ألحد فيه. لا يتغيّر الله تعالى بتغاير المخلوق، ولا يتحدّد بتحدّد المحدود. واحد، لا بتأويل عدد. ظاهر، لا بتأويل مباشرة. متجلّ، لا باستهلال رؤية. باطن، لا بمزايلة. مباين، لا بمسافة. قريب، لا بمداناة. لطيف، لا بتجسّم. موجود، لا عن عدم. فاعل، لا باضطرار. مقدّر، لا بفكرة. مدبّر، لا بحركة. مريد، لا بعزيمة. شاءٍ، لا بهمة. سميع، لا بآلة. بصير، لا بأداة».

٦٣٣ - إلى قوله: «له معنى الربوبيّة، إذ لا مربوب. وحقيقة الإلٓهيّة، إذ لا مألوه. ومعنى العالميّة، إذ لا معلوم. ومعنى الخالقيّة، إذ لا مخلوق. وتأويل السمع، إذ لا مسموع. ليس منذ خلق استحق معنى الخالق. ولا من حيث أحدث استفاد معنى المحدث. لا يثبته منذ، ولا يدنيه قد، ولا يحجبه لعلّ، ولا يوقّته متى، ولا يشمله حين، ولا يقارنه مع».

٦٣٤ - إلى قوله: «لا إيمان إلا بتصديق، ولا تصديق إلا باقرار، ولا دين وإيمان واقرار إلا بعد معرفة، ولا معرفة إلا باخلاص، ولا اخلاص مع تشبيه، ولا نفي مع اثبات الصفات. والحمد لله أوّلاً وآخراً، ظاهراً وباطناً ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]. هذا آخرها.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

٦٣٥ - والغرض من مجموع ذلك اثبات مجموع ما مرّ ذكره من التوحيد ومراتبه وأقسامه، وتنزيه الحقّ عن النقص المنسوب إليه في طريق التوحيد، وغير ذلك من نفي الصفات مطلقاً، واثبات الوجود المطلق، وظهوره وبطونه وكثرته ووحدته. وقد ثبت هذا كلّه عند أهله وعند من يكون له أهليّة ذلك. ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(١). وصلّى الله على نبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

٦٣٦ - وإذ فرغنا من كلامه عليه السلام فالشروع في كلام المشايخ - رضوان الله عليهم - واجب، كما قرّرناه ووعدنا به. وهو هذا.

القاعدة الرابعة: في الاستشهاد بكلام المشايخ رضوان الله عليهم في حقيقة التوحيد واثباته

٦٣٧ - أعلم أنّ هذه القاعدة مشتملة على كلام المشايخ الصوفيّة من الموحّدين المحقّقين - رضوان الله عليهم أجمعين. وكلامهم في هذا الباب أكثر وأشهر من أن يحتاج إلى التذكار والتعداد، وبعض ذلك قد تقدّم في باب التوحيد، والبعض الآخر جرى في أثناء كلّ باب، بل كلّ باب في الحقيقة هو نفس كلامهم. لكن رعاية للشرط المذكور، نريد أن نذكر كلامهم في باب مفرد، وهو هذا. ونريد أيضاً أن نفعل فيه ما فعلنا في باب الأنبياء والأولياء عليهم السلام أعني: نريد أن نقتصر من كلام المشايخ كلّهم على كلام شيخ واحد منهم، الذي يكون هو في هذا الباب أعظمهم وأعلمهم، وأقوى كشفاً وشهوداً منهم.

٦٣٨ - وهذا بالاتفاق ليس إلا الشيخ الكامل المحقّق الواصل أبا إسماعيل عبدالله بن إسماعيل الأنصاري الهروي تعريفاً - قدس الله روحه العزيز. فإنه ذكر في كتابه الموسوم بـ: «منازل السائرين» فصلاً مفرداً في باب التوحيد، ما اتّفق لأحد من المتقدّمين والمتأخّرين بدّقته ولطافته، وقد تقدّم ذكره في باب التقسيم اجمالاً. ومن حيث أنّه كلام مغلق محتاج إلى الشرح، فنريد أن نذكره مع شرحه وشرّاحه وإن كثروا، لكن أعظمهم وأعلمهم لمّا كان المولى الأعظم الأكمل، قطب الموحّدين، سلطان العارفين، كمال الملّة والحقّ والدين عبد الرزّاق الكاشي (= الكاشاني) -

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٣.

قدّس الله تعالى سرّه - فنريد أن نذكر شرحه، فإنّه أجودهم تقريراً وأحسنهم تحقيقاً، كما ستعرف، إن شاء الله تعالى.

٦٣٩ - أمّا كلام الشيخ متناً فهو قوله: «قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[(١)]. لتوحيد تنزيه الله تعالى عن الحدث. وإنّما نطق العلماء بما نطقوا به، وأشار المحقّقون بما أشاروا إليه في هذه الطريق لقصد تحقيق أي تصحيح التوحيد وما سواه من حال أو مقام، **فكلّه مصحوب العلل. والتوحيد على ثلاثة أوجه:**

الوجه الأوّل: توحيد العامّة الذي يصحّ بالشواهد.

والوجه الثاني: توحيد الخاصّة، وهو الذي يثبت بالحقائق.

والوجه الثالث: توحيد قائم بالقدم، وهو توحيد خاصّة الخاصّة».

٦٤٠ - «**فأمّا التوحيد الأوّل:** فهو شهادة أنّ لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذي: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[(٢)].

هذا هو التوحيد الظاهر الجليّ، الذي نفى الشرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، وبه وجبت الذمة، وبه حقنت الدماء والأموال وانفصلت دار الإسلام عن دار الكفر، وصحّت به الملّة للعامّة، وإن لم يقوموا بحقّ الاستدلال بعد أن سلموا من الشبهة والحيرة والريبة، بصدق شهادة صحّحها قبول القلب. هذا توحيد العامّة الذي يصحّ بالشواهد، والشواهد هي الرسالة والصنائع؛ يجب بالسمع، ويوجد بتبصير الحقّ، وينحو على مشاهدة الشواهد».

٦٤١ - **وأمّا التوحيد الثاني**: الذي يثبت بالحقائق، فهو توحيد الخاصّة، وهو اسقاط الأسباب الظاهرة، والصعود عن منازعات العقول وعن التعلّق بالشواهد. وهو أن لا يشهد في التوحيد دليلاً، ولا في التوكّل سبباً. ولا للنجاة وسيلةً. فتكون مشاهداً سبق الحقّ بحكمه وعلمه، ووضعه الأشياء مواضعها وتعليقه إيّاها بأحايينها، واخفائه إيّاها في رسومها، وتحقّق معرفة العلل، وتسلك سبيل اسقاط

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٢) سورة الإخلاص، الآية: ٣ - ٤.

الحدث. هذا توحيد الخاصّة الذي يصحّ بعلم الفناء، ويصفو بعلم الجمع، ويجذب إلى توحيد أرباب الجمع».

٦٤٢ - «**وأمّا التوحيد الثالث**: فهو توحيد اختصّه الحقّ لنفسه واستحقّه لقدره، وألاح منه لائحاً إلى أسرار طائفة من صفوته، وأخرسهم عن نعته، وأعجزهم عن صفته. والذي يشار به إليه على ألسنة المشيرين، أنّه اسقاط الحدث واثبات القدم، على أنّ هذا الرمز في ذلك التوحيد علّة لا يصحّ ذلك التوحيد إلا باسقاطه. هذا قطب الإشارة إليه على ألسن علماء هذا الطريق، وإن زخرفوا له نعوتاً وفصّلوه فصولاً. فإنّ ذلك التوحيد تزيده العبارة خفاءً، والصفة نفوراً، والبسط صعوبةً. وإلى هذا التوحيد شخص أهل الرياضة وأرباب الأحوال والمعارف، وله قصد أهل التعظيم، وإيّاه عنى المتكلّمون في عين الجمع، وعليه تصطلم الإشارات. ثمّ لم ينطق عنه لسان، ولم تشر إليه عبارة، فإنّ التوحيد وراء ما يشير إليه مكوّن، أو يتعاطاه حين، أو يقبله سبب».

٦٤٣ - «وقد أجبتُ في سالف الزمن سائلاً سألني عن توحيد الصوفيّة بهذه القوافي الثلاث:

ما وحّد الواحد من واحد	إذ كلّ من وحّده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته	عارية أبطلها الواحد
توحيده إيّاه توحيده	ونعت من ينعته لأحد»

هذا آخر كلامه وآخر كتابه أيضاً.

٦٤٤ - **وأمّا الشرح**: فشرع الشارح فيه كما هي طريقة الشارحين، أعني ذكر أولاً قوله: ثمّ شرع في شرحه لفظاً لفظاً وكلمةً كلمةً. ولا شكّ أن هذا أنسب بالايضاح وأليق بالافصاح. وأشار أيضاً إلى المتن بحرف: «الميم»، وإلى الشرح بحرف: «الشين»، توضيحاً وتحقيقاً. ونحن نريد أن لا نغيّر وضعه وطريقته، فإنه حسن. فأوّل إشارته إلى المتن:

٦٤٥ - «م» قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

٦٤٦ - «ش»: إنّما خصّ بعض الآية بالذكر، لأنّ هذا محض التوحيد الجمعيّ، وهو أن لا يكون معه شيء. فلو ذكر: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾[1]، لكان نزولاً عن الجمع إلى الفرق، فيكون معه غيره، فلا يبقى التوحيد المحض. فهو الشاهد بنفسه لنفسه. فلم يشهد ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ غيرهُ. فمن تحقّق هذا بالذوق، فقد شهد التوحيد بالحقيقة».

٦٤٧ - «م»: التوحيد تنزيه الله تعالى عن الحدث. وإنّما نطق العلماء بما نطقوا به، وأشار المحقّقون بما أشاروا إليه في هذه الطريق لقصد تحقيق التوحيد وما سواه من حال أو مقام فكلّه مصحوب العلل».

٦٤٨ - «ش»: قوله: التوحيد تنزيه الله - عزّ وجلّ - عن الحدث»، مجمل يتناول تنزيه العقلاء من الحكماء المسلمين، وتنزيه العرفاء الموحّدين، لأن جميع العقلا وأهل الفكر يدّعون تنزيه الله تعالى مع كونهم مقيّدين، لأنّ العقل لا يقول إلا بالتقييد، ويثبتون الحدث وينفونه عن الحقّ تعالى وينزهونه عنه.

أمّا العرفاء المحقّقون، فلا يثبتون الحدث أصلاً ورأساً، فإنّ شهود التوحيد ينفيه عن أصله، ثمّ يثبته بعد نفيه بالحقّ، بمعنى: تجلّي الحقّ مع الآيات بوجوهه في الصور. فيكون الحدوث عندهم ظهوره في الصور المختلفة بالتجلّيات المتعاقبة غير المتكرّرة. ومراد الشيخ - قدّس الله روحه - هذا التنزيه. ولا يهتدي العقل إلى طريق التوحيد الذي لا يكون فيه مع الحقّ سواه. ولا يرى الحقّ عين الكلّ بحيث لا يكون في الوجود شيء غيره».

٦٤٩ - «وإنّما نطق العلماء بما نطقوا به، وأشار المحقّقون إلى ما أشاروا إليه في هذا الطريق لقصد تصحيح التوحيد» «أي: وما نطقوا وما أشاروا إلا لقصد تصحيح هذا المقام السنيّ، لأنه المقصد الأقصى والموقف الأعلى؛ وما دون ذلك من الأحوال والمقامات، فكلّه مصحوب العلل، لا صحّة لها لبقاء الرسوم فيها، وكون الحضرة الواحديّة والتجلّيات الاسمائية. هذا ما ذهب إليه خاطري».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

٦٥٠ - ووجه آخر مبنيّ على أن «ما» في: «إنّما نطق» «موصولة» وحقّها أن تكتب «مفصولة»، على معنى أنّ كلّ ما نطق به العلماء وأشار إليه المحققون لقصد تصحيح التوحيد وما سواه من الأحوال والمقامات، فكلّه مصحوب العلل، لا يخلو منها، يعني أنّ التوحيد بالعلم لا يخلص من العلل. وكذا اثبات الأحوال والمقامات بطريق العلم وإشارات المحقّقين، لا يخلو من العلل، فإنّها مواجيد ذوقيّة، لا تندرج تحت العبارات، ولا تحيط بها الإشارات، ولا تفي ببيانها الكلمات. والعلل هي الجهالات».

٦٥١ - «م»: التوحيد على ثلاثة وجوه:

الوجه الأوّل: توحيد العامة الذي يصحّ بالشواهد.

والوجه الثاني: توحيد الخاصّة، وهو الذي يثبت بالحقائق.

والوجه الثالث: توحيدٌ قائم بالقدم، وهو توحيد خاصّة الخاصّة».

٦٥٢ - «ش»: الشواهد هي الأكوان والمصنوعات التي يستدلّ بها على المكوّن الصانع.

وبالجملة الشواهد هي: الدلائل التي يستدلّ بها العلماء بالنظر والفكر وبراهين العقل. فتوحيد العامّة إنّما يصحّ بالاستدلال، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]. لكن ما فسدتا، فليس فيهما آلهة إلا الله.

- **وأمّا توحيد الخاصّة**: وهم المتوسّطون، فهو الذي يثبت بالحقائق التي هي المكاشفة والمشاهدة والمعاينة والحياة والقبض والبسط والسكر والصحو والاتّصال والانفصال المختصّة بالقسم التاسع من الأقسام العشرة التي هي الحقائق.

- **وأمّا توحيد خاصّة الخاصّة**: فهو التوحيد القائم بالقدم، يعني توحيد الحقّ لنفسه أزلاً وأبداً، كما قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2]، وقيامه بالقدم أزليّته وامتناع قيامه بالحدث، وإلا كان صاحب هذا التوحيد مثبتاً للغير، فلم يكن توحيده

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

توحيداً. وأهل هذا المقام هم المذكورون في الدرجة الثالثة من كلّ باب من أبواب قسم النهايات».

٦٥٣ - «م»: **فأمّا التوحيد الأوّل**: فهو شهادة أنّ لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[1]، هذا هو التوحيد الظاهر الجليّ، الذي نفي الشرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، وبه وجبت الذمّة، وبه حقنت الدماء والأموال وانفصلت دار الإسلام عن دار الكفر، وصحّت به الملّة للعامّة، وإن لم يقوموا بحقّ الاستدلال، بعد أن سلموا من الشبهة والحيرة والريبة، بصدق شهادة صحّحها قبول القلب».

٦٥٤ - «ش»: هذا ظاهر، غنيّ عن الشرح، وهو التوحيد التقليدي، الذي صحّت به الملّة للعامّة، بصدق شهادة صحّحها في الشرع قبول قلوبهم لها تقليداً وإن لم يقدروا على الاستدلال، بعد أن تعتورهم الشبهة والحيرة والشك، وسلمت قلوبهم من ذلك».

٦٥٥ - «م»: **هذا توحيد العامّة**: الذي يصحّ بالشواهد والشواهد هي الرسالة والصنايع».

٦٥٦ - «ش»: أي الأخبار التي وردت بها الرسالة والمصنوعات المحكمة المتقنة الدالّة بحسن صنعتها واتقانها على وجود الصانع وعلمه وحكمته وقدرته».

٦٥٧ - «م»: يجب بالسمع، ويوجد بتبصير الحقّ، وينمو على مشاهدة الشواهد».

٦٥٨ - «ش»: أي يجب قبول هذا التوحيد بالأدلّة السمعيّة، وهي أخبار الكتاب والسنّة التي يسمعها من النبيّ ﷺ كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2] وقوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ﴾[3] و﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[4] وسورة

---

(١) سورة الإخلاص، الآيتان: ٣ - ٤.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢١.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

الاخلاص وأمثالها. ولا توجد حقيقته وحلاوته وادراك معناه إلا بتبصير الحقّ إيّاه بنوره المقذوف في قلب المؤمن. ويزيد (هذا النور) وينمو بالمواظبة على مشاهدة الشواهد بنظر الاعتبار والتفكّر فيها، ومطالعة حكمة صانعها في أحوالها».

٦٥٩ - «م»: **وأمّا التوحيد الثاني: الذي يثبت بالحقائق، فهو توحيد الخاصّة، وهو اسقاط الأسباب الظاهرة، والصعود عن منازعات العقول وعن التعلّق بالشواهد. وهو أن لا يشهد في التوحيد دليلاً، ولا في التوكّل سبباً، ولا للنجاة وسيلة».**

٦٦٠ - **«ش»:** اسقاط الأسباب هو أن لا يعتبر تعلّق المسبّبات بالأسباب المعروفة بين الناس، ولا يرى لها تأثيراً، ولا لغير الحقّ فعلاً، ويشهد بالحقيقة أن لا مؤثّر إلا الله. والصعود عن منازعات العقول هو الترّقي إلى مقام الكشف، والتخلّص من منازعات العقول أحكام الشرع لعماها عن حكمها، واحتجابها بقياساتها، وعن منازعات بعض العقول بعضاً، ومجادلاتها في الأحكام لثبوت الأوهام إيّاها، ومعارضاتها في المناظرات باتمامها في الأحكام، وتصفية الباطن عن المخالفات والمجادلات، مجاوزاً طور العقل إلى نور الكشف وعن التعلّق بالشواهد، أي الصعود عن طور الاستدلال والتمسّك بالأدلّة، استغناءً عنها بنور التجلّي والعيان».

٦٦١ - وقوله: «وهو» إشارة إلى الصعود عن التعليق بالشواهد وذلك الصعود أن لا يشهد في التوحيد دليلاً، فيكون التوحيد عندك أجلى من كلّ دليل. فإنّ نور الحقّ إنّما لا يدرك لشدّته وقوّة نوريّته، كما قيل، شعر:

خفيّ لافراط الظهور تعرّضت لادراكه أبصار قوم أخافش

«ولا في التوكّل سبباً» أي: وإن لا تشهد في التوكّل سبباً، لقوّة يقينك في أن لا مؤثّر إلا الله، ورؤيتك الأفعال كلّها منه. فتلاشى الأسباب في المسبّب في شهودك، لشهودك التأثير منه دون السبب. «ولا للنجاة وسيلة» أي: وأن لا تشهد للنجاة من العذاب والعقوبة والطرد وسيلةً من الأعمال الصالحة والحسنات».

٦٦٢ - «م»: فتكون مشاهداً سبق الحقّ بحكمه وعلمه، ووضعه الأشياء مواضعها، وتعليقه إيّاها بأحاينها، واخفائه إيّاها في رسومها. وتحقّق معرفة العلل، وتسلك سبيل

اسقاط الحدث. هذا توحيد الخاصّة الذي يصحّ بعلم الفناء ويصفو في علم الجمع، ويجذب إلى توحد أرباب الجمع».

٦٦٣ - «ش»: أي فتكون أنت مشاهداً أنّ الحقّ سبق بحكمه على الأشياء بما هي عليه في الأزل، فلا تكون إلا كما حكم به. وكذا سبق بعلمه وتقديره الأشياء على ما هي عليه، وحكمه تعالى على الأشياء تابعُ لعلمه؛ فتكون الأشياء على مقتضى سابق علمه وقضائه. **«ووضعه الأشياء مواضعه»** أي **تكون مشاهداً لوضع** الحقّ **تعالى** كلّ **شيء في موضعه بتقديره** وحكمته في الأزل. **وكذا تشاهد «تعليقه إيّاها في أحايينها»** فلا تقع **إلا في** الوقت الذي قدر وقوعها فيه. **«واخفائه إيّاها في رسومها»** أي: وتكون مشاهداً سبق الحقّ باخفائه الأشياء في رسومها عن أعين المحجوبين، فإنّهم لا يرون أنّها، بفعل الحقّ وحكمه وتقديره في القضاء السابق، جارية على مجراها فينسبونها إلى أسبابها ومقتضيات رسومها الخلقيّة وطبائعها وأوقاتها. فيجعلون لكل تغير حالٍ من أحوالها سبباً، ويحتجبون بها عن التصرّف الإلّهيّ والتقدير الأزليّ. وذلك هو اخفاؤها في الرسوم».

٦٦٤ - قوله: «وتحقّق» عطفٌ على: «فتكون مشاهداً» فتحقّق معرفة العلل، وهي: الوسائط وأسناد أحوالها إلى ما سوى الله تعالى من الأسباب والرسوم الخلقيّة، من الطبائع واختيار الخلق وإرادتهم وقدرتهم، وإلى حركات الأفلاك وأوضاع الكواكب وأمثالها. وكلّ ذلك علل يحتجب بها أهل العادات عن الله تعالى وتوحيده.

وأمّا العرفاء الموحّدون، فهم يعرفون هذه العلل ويسقطون الحدث، ويسلكون سبيل علم القدم باسقاط الحدث، فلا يرون إلا سابقة حكم الأزل. فيكونون مع الحقّ في جريان الأحوال، ويشهدون تصرّفاته للأشياء بفعله على مقتضى حكمه وتقديره وعلمه وحكمته الأزليّة وقدرته وإرادته الأوّليّة. فيشاهدون الحقّ وأسماءه وصفاته، لا غير. هذا توحيد الخاصّة، أي المتوسّطين. (وهو التوحيد): الذي يصحّ بعلم الفناء، لا بنفس الفناء الآتي بعده».

٦٦٥ - فإنّ علم الفناء يحصل بالفناء في حضرة الصفات والأسماء، أي: الحضرة الواحديّة، قبل الفناء في الذات الأحديّة التي هي عين الجمع. ويصفو

توحيد الخاصّة بعلم الجمع، لا بعين الجمع واضمحلال الرسوم، بل قبله عند فناء علمه في علم الحقّ. ويجذب إلى توحيد أرباب الجمع الذي يأتي في قوله التالي».

٦٦٦ - «م»: **وأمّا التوحيد الثالث**: فهو توحيد أختصّه الله تعالى لنفسه واستحقّه بقدره، وألاح منه لائحاً إلى أسرار طائفة من صفوته، وأخرسهم عن نعته، وأعجزهم عن بثّه».

٦٦٧ - «ش»: اختصّه الله لنفسه، أي: استأثر الله به، ليس لغيره نصيب ولا فيه قدم، لأنه إنّما يتحقّق بفناء الخلق كلّهم وبقاء الحقّ وحده. فلا يمكن لغيره عنه عبارة، ولا إليه إشارة. ولا شيء من أحكام الخلق وأوصافهم يصل إليه، لحصوله بفنائهم. واستحقّه بقدره، أي لا يستحقّه بمقدار كنهه وحقيقته إلا هو، ولا يبلغه غيره: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾(١).

٦٦٨ - «وألاح منه لائحاً إلى أسرار طائفة من صفوته» حال البقاء بعد الفناء في عين الجمع، لأنّهم في حال الفناء قد استغرقوا فيه، فانين عن أسرارهم، غائبين عنها. وفي حال البقاء ردّوا إلى الخلق، باقين به، فعرفوا أنّ الحضرة الأحديّة لا نعت لها، وكلّ ما ينعت به فهو من الحضرة الواحديّة. فأخرسهم الله تعالى عن نعته، لا بمعنى أنّهم يعرفون نعته، فمنعهم عن التكلّم به، بل لأنّهم عرفوا أنّ حضرة النعوت تحت مقام الجمع. فهو كقوله: «وألاح منه لائحاً» على الإلّهيّة لا يهتدي بمناره. وكذا معنى قوله: «وأعجزهم عن بثّه» أي اظهار ذلك اللائح والاخبار به، لأنّه لا يقبل الاخبار عنه، كما لا يقبل النعت».

٦٦٩ - «م»: والذي يشار به إليه، على ألسن المشيرين: أنّه اسقاط الحدث واثبات القدم، على أنّ هذا الرمز في التوحيد علّة لا يصحّ ذلك التوحيد إلا باسقاطه».

٦٧٠ - «ش»: «والذي يشار به إليه» مبتدأ، خبره «أنّه اسقاط الحدث». أي: وأحسن ما يشار به إلى هذا التوحيد وألطفه، هو هذا الكلام المرموز، مع أنّ هذا الرمز في ذلك التوحيد علّة لا يصحّ ذلك التوحيد إلا باسقاطه. فإنّ الحدث لم يزل

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

ساقطاً، وإنّ القدم لم يزل ثابتاً. فما معنى اسقاط ذلك، واثبات هذا؟ ومن المسقط والمثبت، وما ثمّ إلا وجه الحقّ؟ فهذه علّة. وهؤلاء ظنّوا أنّهم قد حصلوا تعريفه، وليسوا في حاصل».

٦٧١ - «م»: هـذا قطب الإشارة إليه على ألسن علماء هذا الطريق، وإن زخرفوا له نعوتاً وفصّلوه فصولاً. فإنّ ذلك التوحيد تزيده العبارة خفاءً، والصفة نفوراً، والبسط صعوبةً».

٦٧٢ - «ش»: «هذا» أي قولهم: «اسقاط الحدث واثبات القدم»، «قطب» مدار الإشارة إلى هذا الطريق، وأعظم الإشارات وأحكمها. وهو مع ذلك معلول يجب اسقاطه في تصحيح هذا التوحيد. والباقي من المتن ظاهره».

٦٧٣ - «م»: وإلى هذا التوحيد شخص أهل الرياضات وأرباب الأحوال والمعارف، وله قصد أهل التعظيم، وإيّاه عني المتكلّمون في عين الجمع، وعليه تصطلم الإشارات. ثمّ لم ينطق عنه لسان، ولم تشر إليه عبارة، فإنّ التوحيد وراء ما يشير إليه مكوّن، أو يتعاطاه حين، أو يقبله سبب».

٦٧٤ - «ش»: «وإلى هذا التوحيد شخص» أي ذهب: «أهل الرياضات» السالكون. «وعليه تصطلم الإشارات» التي تنقطع وتستأصل. «فإنّ التوحيد وراء ما يشير إليه مكوّن» أي مخلوق، لأنّه لا يصحّ إلا بفناء الرسوم كلّها، وصفاء الأحديّة عن الكثرة العدديّة. فلا مجال للإشارة فيه. «أو يتعاطاه حين» أي: وراء ما يتداوله زمان، لأنّه في عين القدم فوق طور الزمان والحدث. «أو يقبله سبب» أي وراء ما يحمله سبب. لأنّه قائم بمسبّب الأسباب وحده، فكيف يحمله سبب؟ وكلامه ظاهر، لا يحتاج إلى الشرح».

٦٧٥ - «م»: وقد أجبتُ في سالف الزمان سائلاً سألني عن توحيد الصوفيّة بهذه القوافي الثلاث:

ما وحّد الواحد من واحد ... إذ كلّ من وحّده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته ... عارية أبطلها الواحد

توحيده إيّاه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد

٦٧٦ - «ش»: ما وحّد الحقّ تعالى توحيده الذاتي أحد، إذ كلّ من وحّده، أثبت فعله ورسمه بتوحيده، فقد جحده باثبات الغير، إذ لا توحيد إلا بفناء الرسوم والآثار كلّها. «توحيد من ينطق عن نعته عارية» إذ لا نعت في الحضرة الأحديّة ولا نطق ولا رسم لشيءٍ، والنطق والنعت يقتضيان الرسم. وكلّ ما يشمّ منه رائحة الوجود فهو للحقّ، عارية عند الغير؛ فيجب عليه ردّها إلى مالكها، حتجى يصحّ التوحيد ويبقى الحقّ واحداً أحداً.

فلذلك **أبطل الواحد الحقيقيّ** تلك العارية التي **هي ذلك** التوحيد مع بقاء رسم الغير، **فإنّه باطل في نفسه** في الحضرة الأحديّة. **«توحيده إيّاه توحيده»** أي توحيد الحقّ ذاته بذاته هو توحيده الحقيقيّ. «ونعت من ينعته **لأحد»** أي وصف الذي يصفه هو أنّه مشرك، حايد عن طريق الحقّ، مايل عنه، لأنّه أثبت النعت، ولا نعت ثمّ؛ وأثبت رسمه باثباته النعت، ولا رسم لشيءٍ في الحضرة الأحديّة ولا أثر، وإلا لم تكن أحديّة. - تمّ كلامه».

٦٧٧ - «ثمّ أنّ بعض الناس قد اعترض على الشيخ بأنّه لم يذكر في كتابه الفرقَ بعد الجمع، وهو مقام سني، ولم يشر إلى السفر الثاني، وقطع الكلام على التوحيد الصرف. والحقّ أنّهم لو شاهدوا ما شاهد الشيخ - قدّس الله سرّه - وبلغوا من التحقيق ما بلغه، لم يقولوا ذلك حينئذٍ، إذ لو أنصفوا لوجدوا في كلامه الأمرين جميعاً وزيادةً. فإنّه أشار إلى معنى الفرق الثاني (أي الفرق بعد الجمع) في باب البقاء بعد الفناء في باب التلبيس، عند الإشارة إلى أهل التمكين في الدرجة الثالثة. ثمّ أنّه أراد أن يقطع الكلام عند أعلى المقامات، ولا ينزل إلى الرسوم الخلقيّة. فأثبت بعد مقام الجمع مقام التوحيد الحقيقيّ، الذي هو أحديّة مقام الجمع والفرق، حتّى يندرج الفرق في الجمع. فإنّ كلام هذه الطائفة في الجمع وجمع الجمع والفرق بعد الجمع مختلف، ليس على وتيرة واحدة».

٦٧٨ - «فبعضهم أراد بالجمع أحديّة عين الذات، وبعضهم أحديّة عين جمع الوجود، وهي شهود وحدة الذات في الحضرة الواحديّة الاسمائيّة، أعني شهود واحديّتها المحيطة بجميع الأسماء والصفات. وكلاهما (أي كلا تعريفيْ الجمع المتقدّمين يقتضي) يقتضي شهود الحق بلا خلاف، لأنّ (التعريف) الأوّل هو شهود

الذات وحدها، أي مع انتفاء شهود الأسماء والصفات؛ و«التعريف» الثاني هو شهود الذات مع أسمائها وصفاتها، وهو شهود الكثرة في الوحدة واستهلاك الكلّ بالكليّة في الله. فجمع الجمع عند الأوّلين، هو شهود ما سوى الله قائماً بالله تعالى. وعند الباقين، هو شهود الحقّ في الخلق. وقيل: شهود الوحدة في الكثرة، والمعنى واحد، وهو بعينه الفرق بعد الجمع. وبعضهم يسمّى شهود الوحدة في الكثرة هو الجمع، والاستهلاك المذكور جمع الجمع. **وأمّا أحديّة الجمع والفرق والجمع، فهي شهود الذات الأحديّة المتجليّة في صورها المختلفة المسمّاة: بهياكل التوحيد».**

٦٧٩ - «فالشيخ - قدّس الله روحه - أراد اندراج الفرق في الجمع، حتى لا تزاحم كثرة الرسوم الخلقيّة عين الأحديّة الحقيّة، ولا تكدر صفو الشهود والمشرب الكافوريّ اكدارُ التفرقة وزُعافُ؟ الغيريّة. فأورد التوحيد بعده بمعنى أحديّة الجمع والفرق، حتى لا يرى الضعفاء مقام الفرق الثاني أمراً ينافي أمراً ينافي الجمع، وهو شهود الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة مع اضمحلال الكثرات في العين الواحدة، وشهود الحقيقة في الاطلاق والتقييد شهوداً مطلقاً عن كلا القيدين. فيرى الحقّ عين المقيّد والمطلق. فلا ينافي تقييده الاطلاق بهذا المعنى، ولا اطلاقه التقييد. فلا يخرج من احاطته شيء».

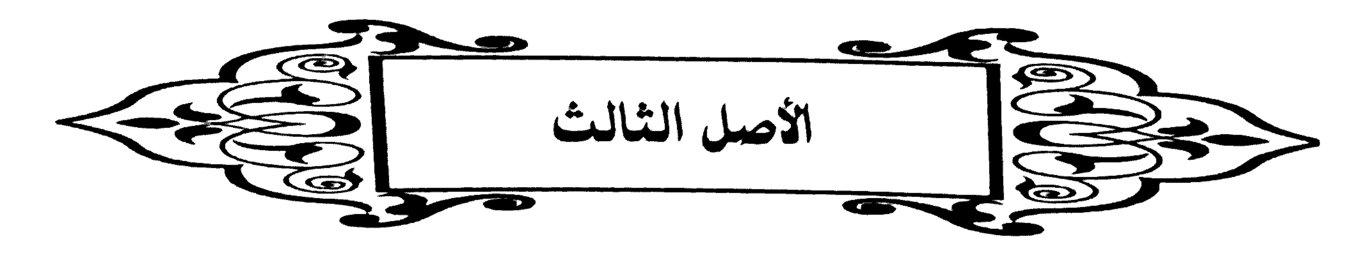
٦٨٠ - «ألا ترى أنّ مقدّم القوم والباب الأعظم لمدينة هذا العلم، وساقيهم من مشرب الكوثر، الذي خصّ به نبيّنا ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كيف ابتدأ في الإشارة إلى عين الحقيقة بقوله: «**كشف سبحان الجلال من غير إشارة**»؟ وهو محض تنزيه الذات عن التعدّد الاسمائي. وأكّده بقوله: «**محو الموهوم مع صحو المعلوم**» إشارة منه إلى فناء الرسوم كلّها في أحديّتها. وصرّح بذلك في قوله: «**جذب الأحديّة بصفة التوحيد**». ثمّ ختم بقوله: «**نور يشرق من صبح الأزل، فتلوح على هياكل التوحيد آثاره**» إشارة لبيان معنى الفرق في عين الجمع، وهو بعينه أحديّة الفرق والجمع».

٦٨١ - هذا آخر الشرح وآخر المتن، وآخر الكتابين المذكورين، أعني كتاب المنازل وشرحه.

٦٨٢ - وحيث اتفق ختم هذه القاعدة بكلام خاتم الأولياء وسيّد الأوصياء، وكلام هذين الشيخين المعظّمين، وانقطع الكلام ببيان أعظم المقامات وأشرفها الذي هو نهاية النهايات، أعني أحديّة الجمع بعد الفرق، فنريد أن نختم هذا الأصل المشتمل على الاستشهاد بحقيّة التوحيد، بل بحث التوحيد بأسره بهذا الكلام، ونشرع بعده في الأصل الثالث، المشتمل على اللواحق والتوابع من أسرار الشرائع الإلّهيّة، وما شاكل ذلك. وبالله التوفيق: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(١).



(١) سورة هود، الآية: ٨٨.



الأصل الثالث

في التوابع واللواحق من أسرار الشرائع الإلهية وما شاكل ذلك

٦٨٣ - «وهذا الأصل» هو مشتمل على أربع قواعد.

القاعدة الأولى: في الشريعة والطريقة والحقيقة.

القاعدة الثانية: في النبوّة والرسالة والولاية.

القاعدة الثالثة: في الوحي والإلهام والكشف.

القاعدة الرابعة: في الإسلام والإيمان والإيقان

القاعدة الأولى: في بيان الشريعة والطريقة والحقيقة

٦٨٤ - اعلم أنّ هذه القاعدة مشتملة على بيان الشريعة والطريقة والحقيقة. والغرض منه أنّه لمّا كان أكثر أهل الزمان، من خواصّهم وعوامّهم، يَدّعون أنّ الشريعة خلاف الطريقة، والطريقة خلاف الحقيقة، ويتصوّرون أنّ بين هذه المراتب مغايرة حقيقيّة، وينسبون إلى كلّ طائفة منهم ما لا يليق بهم، خصوصاً إلى طائفة الموحّدين المسمّاة بالصوفيّة، وكان سبب ذلك عدم علمهم بحالهم وقلّة الوقوف على أُصولهم وقواعدهم، - فأردتُ أن أبيّن لهم الحال على ما هو عليه، وأكشف لهم الأحوال على ما ينبغي، ليحصل لهم العلم بحقيّة كلّ طائفة منهم، لا سيّما بالطائفة المخصوصة، وينكشف لهم أحوالهم في طبقاتهم ومدارجهم وأُصولهم؛ ويتحقّقوا أنّ الشريعة والطريقة والحقيقة أسماء مترادفة صادقة على حقيقة واحدة باعتبارات مختلفة، وليس فيها خلاف في نفس الأمر؛ ويتركوا بذلك المجادلة والمعارضة مع أهل الله تعالى خاصّةً وأهل التوحيد وخلاصته؛ وينزّهوا قلوبهم عن ظلمة الغيّ والضلال؛ ويخرجوها عن دائرة الشبه والاشكال؛ ويدخلوا بذلك في

زمرة قوم مدحهم الله تعالى في كتابه لأجل ذلك، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

٦٨٥ - وإذا تحقّق هذا، فاعلم أنّ الشريعة اسم موضوع للسبل الإلٰهيّة، مشتمل على أُصولها وفروعها، ورخصها وعزائمها، وحسنها وأحسنها.

والطريقة هي الأخذ بأحوطها وأحسنها وأقومها- وكل مسلك يسلك الإنسان أحسنه وأقومه يسمّى طريقة، قولاً كان أو فعلاً أو صفةً أو حالاً.

وأمّا الحقيقة، فهي اثبات الشيء كشفاً أو عياناً **أو حالةً ووجداناً**.

ولهذا قيل: الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تحضره، والحقيقة أن تشهده.

وقيل: الشريعة أن تقيم أمره، والطريقة أن تقوم بأمره، والحقيقة أن تقوم به.

ويشهد بذلك كلّه قول النبي ﷺ لحرانة، وهو أنه قال: «يا حارثة، كيف أصبحتَ؟ قال: أصبحتُ مؤمناً حقاً. فقال عليه السلام لكلّ حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: رأيت أهل الجنة يتزاورون، وأهل النار يتعاوون، ورأيتُ عرش ربّي بارزاً. قال عليه السلام: أصبت. فالزم!».

٦٨٦ - فإيمانه بالغيب حقّ وشريعة؛ وكشفه ووجدانه الجنّة والنار والعرش، حقيقة؛ وزهده في الدنيا وسهره وظمؤه، طريقة.

والشرع شامل للكلّ، لأنّ الشرع كاللوزة الكاملة المشتملة على اللبّ والدهن والقشر.

فاللوزة بأسرها كالشريعة، واللبّ كالطريقة، والدهن كالحقيقة، كما قيل في صفة الصلاة أيضاً: إنّ الصلاة خدمة وقربة ووصلة.

فالخدمة هي الشريعة، والقربة هي الطريقة، والوصلة هي الحقيقة.

واسم الصلاة جامع للكلّ وعن هذا الكشف في المراتب المذكورة أخبر الله تعالى في كتابه بـ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.

ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾[(١)]. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾[(٢)] لأنّ المرتبة الأولى بمثابة الشريعة، والثانية بمثابة الطريقة، والثالثة بمثابة الحقيقة.

٦٨٧ - ثمّ اعلم أنّ الشريعة عبارة عن تصديق أفعال الأنبياء قلباً والعمل بموجبها؛ والطريقة عبارة عن تحقيق أفعالهم وأخلاقهم فعلاً والقيام بحقوقها؛ والحقيقة عبارة عن مشاهدة أحوالهم ذوقاً والاتّصاف بها، لأنّ الاسوة الحسنة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[(٣)] لا تتحقق إلا بها، **أي برعاية هذه المراتب على ما هي عليه**، لأنّ الاسوة الحسنة **عبارة عن** القيام بأداء حقوق مراتب شرعه، التي هي مشتملة على الشريعة والطريقة والحقيقة، لقوله ﷺ: «**الشريعة أقوالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة أحوالي، والمعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحبّ أساسي، والشوق مركبي، والخوف رفيقي، والحلم سلاحي، والعلم صاحبي، والتوكّل ردائي، والقناعة كنزي، والصدق منزلي، واليقين مأواي، والفقر فخري، وبه أفتخر على سائر الأنبياء والمرسلين**».

فكلّ من أراد التأسّي بنبيّه على ما ينبغي، فينبغي أن يتّصف بمجموع هذه الأوصاف أو ببعضها بقدر استعداده، ولا ينكر على أحد من المتّصفين بها أصلاً، لأنّ مرجع الكلّ، وإن اختلفت أوضاعها، إلى حقيقة واحدة التي هي الشرع النبويّ والوضع إلٰهيّ، كما تقدّم تقريره.

٦٨٨ - وبالحقيقة هذه المراتب الثلاث هي مقتضيات مراتب أُخرى، التي هي بمثابة الأصل لها، لأنّ الشريعة بالحقثقة من اقتضاء الرسالة، والطريقة من اقتضاء النبوّة، والحقيقة من اقتضاء الولاية، لأنّ الرسالة عبارة عن تبليغ ما حصل للشخص من طرف النبوّة، من الأحكام والسياسة والتأديب بالأخلاق والتعليم بالحكمة، وهذا عين الشريعة.

والنبوّة عبارة عن اظهار ما حصل له من طرف الولاية، من الاطّلاع على معرفة ذات الحقّ وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه لعباده، ليتّصفوا بصفاته ويتخلّقوا

---

(١) سورة التكاثر، الآيات: ٥ - ٨.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٩٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

بأخلاقه، وهذا عين الطريقة. والولاية عبارة عن مشاهدة ذاته وصفاته وأفعاله في مظاهر كمالاته ومجالي تعيّناته أزلاً وأبداً، وهذا عين الحقيقة.

والكلّ راجع إلى حقيقة واحدة التي هي حقيقة الإنسان المتّصف بها، أو إلى شخص واحد كأولي العزم من الرسل، لأنّهم كذلك.

٦٨٩ - والمراد أنّ الشرع الإلٰهيّ والوضع النبويّ حقيقة واحدة، مشتملة على هذه المراتب، أي الشريعة والطريقة والحقيقة. وهذه الأسماء صادقة عليها على سبيل الترادف باعتبارات مختلفة.

٦٩٠ - **وأمثال ذلك في** غير هذه الصورة **كثيرة، كاسم العقل** والعالم والنور، فإنّها صادقة على حقيقة واحدة التي هي حقيقة «الإنسان الكبير» مثلاً، بما ورد في الخبر: «**أوّل ما خلق الله تعالى العقل**» و «**أوّل ما خلق الله نوري**». وكاسم الفؤاد والقلب والصدر، فإنّها دالّة أيضاً على حقيقة واحدة التي هي حقيقة «الإنسان الصغير» لقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[١] ولقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٢] ولقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[٣] وغير ذلك من الاستشهادات والأمثلة الواردة في هذا الباب.

٦٩١ - ولذلك ما وقع الخلاف بين الأنبياء والأولياء عليهم السلام في الأصل الحقيقيّ والأساس الكليّ، الذي هو ركن الدين وأصل الإسلام، لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[٤].

ولقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٥]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦].

---

(١) سورة النجم، الآية: ١١.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣ - ١٩٤.
(٣) سورة الشرح، الآية: ١.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣١.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

ولقوله بعد ذلك كلّه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] أي لا يعلمون أنّ القيام بالأركان الثلاثة أي الشريعة والطريقة والحقيقة ورعاية حقوقها هو: «الدين القيم» و «الصراط المستقيم» وسبب ذلك ليس إلا جهلهم وبعدهم عن الحقّ وطردهم عن بابه.

٦٩٢ - وإذا تحقّق أنّه ما وقع الخلاف بين الأنبياء والأولياء عليهم السلام في كليّات الأمور وأصول الدين، وإن وقع الخلاف في الأحكام الجزئيّة والأفعال الصوريّة، فينبغي أن يعرف أن الاختلاف في كيفيّة الشيء وكميّته لا يدلّ على الاختلاف في ماهيّته وحقيقته.

وينبغي أن يعرف أيضاً أنّ حقيقة الشرع في جميع الأزمنة والأمكنة كانت واحدة، وكانت منزّهة عن الاختلاف والتغاير، وإن كانت مختلفة الأوضاع والأحكام بحسب المراتب والأشخاص.

٦٩٣ - وإن تحقّقت، عرفتَ أنّ الترتيب المذكور لا ينبغي ولا يمكن أن يكون خلاف ما هو عليه من النظام والانتظام والأحكام والايقان، كما قيل: «**ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم**» إذ لو كان، لكان بخلاً يناقض الجود، وعجزاً ينافي القدرة، لأنه لو لم يكن كذلك، لم يمكن ايصال كلّ واحد من العباد إلى حقّه المعيّن له بحسب الاستعداد، لأنّ الاستعدادات مختلفة، والطبائع متفاوتة، فلا يمكن ارشاد الكلّ في مرتبة واحدة وطريقة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[2] أي ولذلك الاختلاف خلقهم، إلا من سبقت له الرحمة الأزليّة، فما اختلف في شيءٍ أصلاً، وبقي على الفطرة الأصليّة.

٦٩٤ - وليس المراد بخلقهم أنّه جعلهم كذلك على سبيل الجبر والقهر، بل «خلقهم» عبارة عن اعطاء وجودهم من حيث اقتضاء أعيانهم وماهيّاتهم، لأنّ الأعيان والماهيات عند أهل التحقيق ليست بجعل الجاعل. ولهذا قال تعالى في جواب داود عليه السلام حين سأل: «لماذا خلقت الخلق؟ قال: لما هم عليه».

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

(٢) سورة هود، الآيتان: ١١٨ - ١١٩.

وقال أيضاً: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[1] أي كلّ واحد منكم يظهر بفعل يوافق استعداده وقابليّته. وقال أيضاً: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[2] أي آتاكم من كلّ ما سألتموه بلسان استعدادكم وقابليّاتكم وأعيانكم وحقائقكم وماهيّاتكم.

وفي هذا المقام قال النبي ﷺ: «**كلّ ميسر لما خلق له**» أي كلّ منكم ما يتيسّر له أمر إلا بما خلق عليه، من حيث الاستعداد والقابليّة. وأمثال ذلك في هذا الباب كثيرة، نكتفي منها بهذا القدر.

٦٩٥ - لأنّ ههنا تلاطم أمواج بحر القدر، وهتك أستار سرّ الأزل، ولا يجوز ذلك، لأنّا أمرنا بستره وكتمه، كما أشار إليه مولانا وإمامنا أمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب عليه السلام في قوله: «**إنّ القدر سرّ من سرّ الله، وستر من ستر الله، وحرز من حرز الله، مرفوع في حجاب الله، مطوي عن خلق الله، مختوم بخاتم الله، سابق في علم الله. وضع الله عن العباد علمه، ورفعه فوق شهاداتهم. ومتّسع عقولهم أنّهم لا ينالونه**» إلى آخره. ومع ذلك سيجيء بيانه مفصّلاً عند بحث الظهور.

٦٩٦ - وإذا تحقّق هذا، فاعلم أنّ جميع مراتب الناس، وخواصّهم وعوامّهم وخواصّ خواصّهم، لا تخلو من وجوه ثلاثة، أعني حالة الابتداء والوسط والنهاية، لأنّ المراتب وإن لم تنحصر بحسب المظاهر والأشخاص، فإنّها منحصرة فيها بحسب الأنواع والأجناس، أعني: لم تنحصر المراتب بحسب الجزئيّات والتفصيل، فهي منحصرة في المراتب المذكورة بحسب الكليّات والاجمال.

فالشريعة: اسم للوضع الإلّهيّ والشرع النبويّ، من حيث البداية.

والطريقة: اسم له، من حيث الوسط.

والحقيقة: اسم له، من حيث النهاية.

ولا تخرج المراتب أصلاً - وإن كثرت - عن هذه الثلاث. فيكون هو اسماً جامعاً للكلّ، أي يكون الشرع اسماً جامعاً للمراتب كلّها، وعليه تترتّب المراتب

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤

المذكورة، لأن الأوّل مرتبة العوامّ، والثاني مرتبة الخواصّ، والثالث مرتبة خاصّ الخاصّ. والمكلّفون وذوو العقول بأجمعهم ليسوا بخارجين عنها.

فتكون هذه المراتب - أي الشريعة والطريقة والحقيقة - شاملة للكلّ، ومعطية حقّ الكلّ. فيكون كلّ واحد منها حقّاً في مقامه، وهو المطلوب.

٦٩٧ - وإليه أشار تعالى بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1] والله! لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية، لكفت برهاناً على صحّة المراتب - المذكورة واختلاف أحكامها.

وكذلك قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[2]، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[3] المتقدم ذكره، وغير ذلك من الآيات الدالّة عليه.

٦٩٨ - وإذا عرفت هذا، وتقرّر عندك حقيقة المراتب الثلاث، فقِسْ عليها المراتب الثلاث من الإسلام والإيمان والإيقان، والوحي والإلهام والكشف، والنبوّة والرسالة والولاية، والأقوال والأفعال والأحوال، وكذلك أهلها، لأنّها سواء بسواء: «**حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة**».

٦٩٩ - وإن حقق، علم أنّ الوجود بأسره واقع على الترتيب المذكور، أي على التثليث والفرديّة الموجبة للكثرة الاعتباريّة، كاعتبار العلم والعالم والمعلوم؛ أو الفردية التثليثيّة المقتضية للكثرة الخارجيّة، كاعتبار الحضرة الأحديّة الذاتيّة والحضرة الواحديّة الإلّهية والحضرة الربوبيّة الخلقيّة؛ أو الملك والملكوت والجبروت، أو عالم العقول وعالم النفوس وعالم الحسّ، وغير ذلك من التثليث المخصوص بالتثليث المحمّديّ بقوله: «**حُبب إليّ من دنياك ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة**» لا التثليث العيسويّ المبنيّ على الأقانيم الثلاثة، أو التثليث الإلّهيّ الإيجاديّ المشتمل على العلم والإرادة والأمر، وما شاكل ذلك.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٨.

٧٠٠ - فحينئذٍ كما لا يجوز الإنكار على أقوال الأنبياء عليهم السلام وعلى القائلين بها والعاملين بموجبها، فكذلك لا يجوز الإنكار على أفعالهم وأحوالهم، ولا على الموصوفين بهما والقائمين بمراتبهما، أعني كما لا يجوز انكار الشريعة التي هي مرتبة من مراتب الأنبياء، فكذلك لا يجوز انكار الطريقة التي هي مرتبة من مراتبهم ودرجة من درجاتهم، وكذلك الحقيقة التي هي أعلى منهما شرفاً ومرتبةً.

٧٠١ - **لا يقال إنّه يلزم من هذا الكلام حقيّة كلّ واحدٍ من أهل الأديان والملل،** وليس الكلّ حقّاً عند الكلّ، - لأنّا نقول في الجواب عنه: إنّ كلّ من يكون على الشريعة والطريقة والحقيقة على ما قررناه، ويقوم بأداء هذه المراتب على ما هي عليها أو بواحدة منها، فهو حقّ وطريقه حقّ، وهو على طريق مستقيم ودين قويم.

وإن لم يكن كذلك، فهو ليس بحقّ، وطريقه غير مستقيم، فهو باطل ضالّ مضلّ.

وهذه قاعدة مطردة بين أرباب التحقيق، وعليها بناء كلّ الأصول وأساس كلّ الفروع.

٧٠٢ - ويشهد بذلك كلّه قولهم في تعريف الشيخ مثلاً: إنّ الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ حدّ التكميل فيها، لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بدائها وقدرته على شفائها والقيام بها، إن استعدّت ووفقت لابتدائها.

٧٠٣ - وكذلك قولهم في تعريف العلم والعالم المتّصف به، لأنّهم قسموا العلم أيضاً، فسمّوه بالقشر واللبّ ولبّ اللبّ، وأرادوا به المراتب المذكورة ورعاية حقوقها، وهو قولهم: القشر كلّ علم ظاهر يصون العلم الباطن - الذي هو لبّه - عن الفساد، كالشريعة للطريقة، والطريقة للحقيقة.

فإن من لم يصن حاله وطريقته بالشريعة، فسد حاله وآلت طريقته هوىً وهوساً ووسوسةً.

ومن لم يتوصّل بالطريقة إلى الحقيقة ولم يحفظها بها، فسدت حقيقته وآلت إلى الزندقة والإلحاد.

واللبّ هو العقل المنوّر بنور القدس، الصافي عن قشور الأوهام والتخيّلات.

ولبّ اللبّ هو مادّة النور الإلٰهيّ القدسيّ، الذي يتأيّد به العقل، فيصفو عن

القشور المذكورة ويدرك العلوم المتعالية عن ادراك القلب المتعلّق بالكون، المصون عن الفهم، المحجوب بالعلم الرسميّ.

وذلك من حسن السابقة، المفضي لخير الخاتمة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[١].

٧٠٤ - ثمّ اعلم **أنّ الشريعة والطريقة والحقيقة وإن كانت بحسب الحقيقة واحدة، لكنّ الطريقة أعلى من الشريعة** رفعةً وقدراً، **والحقيقة أعلى منهما** مرتبةً وشرفاً.

وكذلك **أهلها، لأنّ** الشريعة مرتبة أوليّة، والطريقة مرتبة وسطيّة، والحقيقة مرتبة منتهائية.

فكما أنّ الوسط يكون كمالاً للبداية ولا يمكن حصوله بدونها، فكذلك النهاية تكون كمالاً للوسط ولا يمكن حصولها بدونه. أعني لا يصحّ ما فوقها بخلاف ما دونها، ويصحّ بالعكس، أعني تصحّ الشريعة بخلاف الطريقة، لكن لا تصحّ الطريقة بخلافها؛ والطريقة تصحّ بخلاف الحقيقة، لكن لا تصحّ الحقيقة بخلافها، لأنّ كلّ واحد منهما كمال بالنسبة إلى غيرها التي تحتها.

فالكامل المكمّل هو الجامع للمراتب كلّها، لأنّ الجامع بين شيئين أو بين مقامين لا يكون كالموصوف بواحد منها فقط. ولهذا صار هؤلاء القوم أعلى مرتبة من غيرهم، وأعظم قدراً منهم.

٧٠٥ - لأنّ أهل الظاهر وأرباب الشريعة، كالمتكلّمين وأمثالهم، ليس لهم هذه الجمعيّة، لخصوصيّتهم بمرتبة واحدة.

وليس كذلك أهل الباطن وأرباب الطريقة، كالحكماء ومن تابعهم. ولولا هذا، لما انتظموا تارةً في سلك الله تعالى وملائكته، لقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[٢] وتارةً في سلك الله وحده، لقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[٣] الآية.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.

والدليل عليه قوله عقيبه: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١) لأن القائين بأن الكلّ ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ على التحقيق ليسوا إلا هؤلاء القوم، بخلاف الأشاعرة والجبريّة المحجوبين عن هذا المقام، لأنّ مشاهدة الكلّ عن الربّ الحقيقيّ بحيث لا يلزم في تقديسه وتنزيهه نقص، موقوفة على رفع الأثنينية الاعتباريّة، وعلى الرسوخ التامّ في التوحيد الفعليّ والوصفيّ والذاتيّ. وليس لهم هذه المرتبة ولا هذا الاعتقاد، فضلاً عن حصولهما.

٧٠٦ - ويشهد بذلك أيضاً قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢) أي ما يذكر وما يعرف هذا الحال إلا أولو الألباب من عباده، الموصوفين بالرسوخ في العلوم الحقيقيّة، لأنّ هذا مخصوص بهم لا غير، كما تقدّم تعريفهم في بيان اللبّ ولبّ اللبّ وغير ذلك. وسيجيء هذا البحث في موضعه.

٧٠٧ - وليس الغرض ههنا هذا، بل الغرض أنّ المرتبة الجامعيّة التي هي مخصوصة بأرباب الحقيقة، هي أعظم المراتب وأعلاها وأشرفها. ويعضد ذلك قول النبي ﷺ: «**قبلتي ما بين المشرق والمغرب**» لأنه أراد بذلك قيام الجمعيّة، لأنّ المشرق قبلة عيسى، والمغرب قبلة موسى، وما بينهما قبلته.

فيكون هو جامعاً بينهما، أي بين موسى وعيسى، أي جامعاً بين مقاميهما اللذين هما عبارة عن قبلتيهما. هذا بحسب الظاهر.

فأمّا بحسب الباطن، فالمشرق عالم الأرواح والروحانيّات مطلقاً، والمغرب عالم الأجسام والجسمانيّات كذلك، أو عالم الظاهر وعالم الباطن، أو عالم الملك وعالم الملكوت، أو عالم الأمر وعالم الخلق، وغير ذلك. وما بينهما هو البرزخ الجامع، الذي هو مقامه أي مقام النبيّ محمّد صورةً ومعنىً، كالحضرة الواحديّة المخصوصة بالحقيقة الإنسانيّة وصورتها، كصورة الإنسان الجامع بين العالمين، أو عالم المثال المطلق والمقيّد.

٧٠٨ - فكمال موسى وأُمّته كان في الاطّلاع على حقائق عالم الأجسام وصورها ومراتبها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥.

وكمال عيسى وأُمّته، في الاطّلاع على حقائق عالم الأرواح وصورها ومراتبها.

وكمال محمّد وأُمّته كان في الاطّلاع على كليهما والجمع بينهما. ولهذا قال: «أوتيتُ جوامع الكلم». وقال تعالى في حقّه: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[1]. وقال في حقّ أُمّته: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[2] الآية.

٧٠٩ - وأمّا وجه المشابهة بين العالمين، والمشرق والمغرب الصوريّ والمعنويّ، فهو أنّ المشرق عبارة عن موضع طلوع الشمس الصوريّة وانتشار أشراقها بواسطته على عالم المحسوسات، لتصير به مشرقة ظاهرة منوّرة.

وعالم الأرواح عبارة عن موضع طلوع الشمس الحقيقيّة. وانتشار أنوارها التي هي الأرواح على أراضي الأجسام الكدرة، لتصير بها حيّة مشرقة باقية، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[3].

وقال الإمام عليه السلام: **«الحقيقة نور يشرق من صبح الأزل، فتلوح على هياكل التوحيد آثاره»**.

وكذلك المغرب، لأنّه عبارة عن موضع أفول نور الشمس وجرمها واختفائها فيه.

وعالم الأجسام كذلك، لأن أنوار شمس الحقيقة وشعاعها التي هي الأرواح، تغرب في عالم الأجسام، وتختفي فيها اختفاء الشمس في مغربها.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4].

٧١٠ - والذي قال تعالى في حقّه أيضاً: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[5] هذا معناه، لأنّه يقول: لستَ أنت يا محمّد من أهل عالم الظاهر أو الأجسام الصرفة، الذي هو المغرب، ولا من أهل عالم الباطن أو الأرواح الصرفة، الذي هو المشرق، بل أنت

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.
(٥) سورة النور، الآية: ٣٥.

جامع بينهما. وقسْ على هذا أهل التحقيق، لأنّهم ليسوا من أرباب الشريعة الصرفة، ولا من أهل الطريقة المحضة، بل هم جامعون بينهما.

٧١١ - ولهذا جاء موسى عليه السلام بتكميل الظواهر مطلقاً، مضافاً إلى تكميل بعض البواطن؛ ويعرف هذا من ترتيب التوراة.

وجاء عيسى عليه السلام بتكميل البواطن مطلقاً، مضافاً إلى تكميل بعض الظواهر؛ ويعرف هذا من ترتيب الإنجيل.

وجاء نبيّنا صلى الله عليه وآله بتكميل الطرفين والجمع بين المرتبتين، لقوله: «**قبلتي ما بين المشرق والمغرب**». ويعرف هذا من ترتيب القرآن.

وبالحقيقة تسميته بالقرآن ما كان إلا لجمعه بين المرتبتين، بل المراتب كلّها. فالقرء (لغةً) هو الجمع، والقرآن مشتقّ من «القرء»، كما هو معلوم عند أهل اللغة. ولهذا قال الإمام عليه السلام: «**أنا القرآن الناطق**».

وقال غيره:

أنا القرآن والسبع المثاني وروح الروح لا روح الأواني

لأنّهم كانوا المخصوصين بالمرتبة الجمعيّة المحمّديّة.

٧١٢ - وقد أورد بعض الفضلاء هذا البحث بعينه في بعض تصانيفه، وهو قوله: «لمّا كان التكميل الموسويّ عليه السلام في طريق الكمال المطلق النوعيّ، كان ميله إلى تكميل الجزء الأخسّ من الإنسان، وهو البدن؛ ولذلك شحنت التوراة ببيان مصالح المعاش. ولمّا كان عيسى عليه السلام أكمل منه، كان تكميله للجزء الأشرف منه، وهو النفس، ولذلك شحن الإنجيل ببيان مصالح المعاد. ولمّا كان محمّد صلى الله عليه وآله قد حاز الكمال المطلق النوعيّ، كان تكميله لجزءيْ الإنسان معاً. فإنّ غاية المركّب هو اكمال جميع أجزائه المادّيّة والصوريّة، وهو سلوك الفضيلة، وهذا هو سرّ رفع الرهبانيّة في دينه. ففقهاء أُمّته وعلماؤها مشبهون بموسى؛ والحكماء الإسلاميّون وأمثالهم مشبهون بعيسى؛ والعارفون المحقّقون مشبهون بمحمّد صلى الله عليه وآله. هذا آخره. ويشهد بذلك قول مولانا وإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «**الشريعة نهر، والحقيقة بحر. فالفقهاء حول النهر يطوفون. والحكماء في البحر على الدر يغوصون. والعارفون على سفن النجاة يسيرون**».

٧١٣ - وإذا ثبت أنّ المرتبة الجمعيّة أعلى مرتبة من المرتبتين وأشرفهما، وأنّها مخصوصة بأهل الحقيقة دون غيرهم، وثبت أنّهم طائفة مخصوصة من أُمّة محمّد عليه السلام لا من كلّها، فلنرجع إلى البحث الذي كنّا بصدده، لنقول: اعلم أنّ الشرع وضع إلّهيّ وترتيب ربّانيّ، واجب على الأنبياء والأولياء عليهم السلام القيام به والأمر باقامته، أعني وجب عليهم تكميل مراتبه الثلاثة الجامعة لجميع المراتب.

وكذلك هو واجب على أهله، ولا يجوز لهم الاخلال بواحدة منها، وإلا يلزم الاخلال بالواجب من الأنبياء والأولياء. وهذا محال، لأنّهم معصومون عن الخطأ وأفعال القبائح.

ولهذا كانوا دائماً مراعين للمراتب - كما عرفت ترتيبه - من آدم إلى محمّد عليه السلام في دعوتهم وارشادهم لأمّتهم، لا سيما في قول أكملهم وأعظمهم، وهو نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال: «**الشريعة أقوالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة أحوالي**» الحديث.

٧١٤ - ويعضده ارشاد إبراهيم عليه السلام لقومه في صورة الكوكب والقمر والشمس، لأنّ الأوّل ارشاد للعوامّ، والثاني للخواصّ، والثالث لخاصّ الخاصّ، على حسب الترتيب المذكور المقدّم ذكره، أيْ الشريعة والطريقة والحقيقة وأهلها، لأنّ الأوّل إشارة إلى نور الحسّ؛ والذين هم في مقامه، في طلب الحقّ والعبور عنه، كأهل الشريعة وأهل الظاهر والعوامّ، لأنّ الكوكب في العالم بمثابة نور الحسّ في الإنسان.

والثاني إشارة إلى نور العقل؛ والذين هم في مقامه، في طلب الحقّ والعبور عنه، كأهل الطريقة وأهل الباطن والخواصّ، لأنّ القمر في العالم بمثابة نور العقل في الإنسان.

والثالث إشارة إلى نور القدس المسمّى بنور الحقّ؛ والذين هم في مقامه، في طلب الحقّ والعبور عنه، كأهل الحقيقة وأهل باطن الباطن وخاصّ الخاصّ، لأنّ نور الشمس في العالم بمثابة نور الحقّ في الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(١)، ولقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٠.

صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(١)، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾(٢).

٧١٥ - والذي قال المفسّرون أنّه كان صائباً، وما كان له أهليّة أن يفرق بين الكوكب والقمر والشمس وبين ربّه، فهو خطأ محض، بل كفر صرف؛ جلّ مقام الأنبياء عليهم السلام عن أمثال هذه النقائص، لأنّهم معصومون، والمعصوم يجب أن يكون معصوماً من الصغر إلى الكبر في عقيدته وأفعاله وأحواله وأقواله، ولا يحصل منه ذلك، لا سهواً ولا نسياناً ولا علماً ولا عملاً.

٧١٦ - والذي قالوا أيضاً أنّه كان في ابتدائه وابتداء معرفته بنظره العقليّ في مراتب سلوكه ومشاهدة أنواره في الباطن.

فهو ليس بصحيح، لأنّ هذا كان من زمان نبوّته وحال دعوته لأُمّته، وهو زمان كماله وكمال عقله ومعرفته وفطنته وذكائه.

وأيضاً نبوّة الأنبياء ومعارفهم بالله تعالى ليست كسبيّة عند أهل الحقّ، لأنّ الولاية والنبوّة والرسالة عطاء آلهيّ أزليّ، لقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣).

٧١٧ - ويشهد بذلك - أي بأنه كان ذلك في زمان نبوّته وحال دعوته - قوله تعالى عن لسانه: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾(٤) إلى آخر القصّة.

٧١٨ - وكان سبب هذا الكلام أنّ بعض قومه كانوا عبدة الكواكب، وبعضهم عبدة القمر، وبعضهم عبدة الشمس، وغير ذلك من الأصنام والأوثان.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.
(٣) سورة ص، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الأنعام، الآيات: ٨٠ - ٨٣.

فهداهم بالظاهر إلى وجود إلَهٍ واحد، خالق كلّ موجود ومنشيه؛ وهداهم في الباطن إلى مشاهدة وجود واحد الذي هو أصل كل شي ءٍ ومبدؤه، وإلى كيفية معرفته وسلوك طريقه في تحصيله؛ فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

٧١٩ - ويعضد هذا كلّه قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾(٢) لأنّه استفهام على سبيل الانكار والاستهزاء. فكأنّه يقول: هذا الشيء المخلوق والمحدث المصنوع، الذي هو في معرض الأفول والزوال، (أ) يستحقّ أن يكون ربّي وربّ كلّ شيءٍ؟ لا، والله! ليس هو ربّي ولا ربّ كلّ شيء، بل هو مخلوق من مخلوقاته ومظهر من مظاهره.

أو يقول: أبنور هذا الشيء المخلوق، الذي هو نور الحسّ أو نور العقل أو نور القدس المسمّى: بنور الله، أعرف ربّي؟ وهل يمكن معرفته بقوّة هذه الأنوار الثلاثة؟ لا، والله! بل لا تكون معرفته إلا بالعبور عنها والعروج عن مرتبتها، لأنّ الوصول إلى معرفته الحقيقيّة وذاته المنزّهة لا يمكن ألا به وبنوره الحقيقيّ، كما قال النبي ﷺ: «عرفتُ ربّي بربّي» و «رأيتُ ربّي بربّي».

٧٢٠ - ومثل أهل الشريعة: في معرفة الحقّ بنور الحسّ: كمثل شخص يطلب بقوّة نور الكوكب في ظلمة الليل مشاهدة جرم الشمس وأشعّتها المشرقة على العالم كلّه، فلا يجده أبداً.

ومثل أهل الطريقة في معرفة الحقّ بقوّة نور العقل: كمثل شخص يطلب بقوّة نور القمر في ظلمة الليل مشاهدة جرم الشمس وأنوارها المشرقة، فلا يجده أبداً! ومثل أهل الحقيقة: في معرفة الحقّ بقوّة نور القدس: كمثل شخص يشاهد الشمس بنور الشمس(٣)، ولا شكّ أنّه لا يشاهد غيرها وغير أشعّتها المشرقة المنتشرة في الآفاق كلّها. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٦.
(٣) والمراد بنور الشمس ههنا هو الروح القدسي، العقل الفعال الكلي، والنور الحيّ، العلم الإلهي الهادي (بقلم الأصل).
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.

٧٢١ - ولهذا السرّ الشريف والمعنى اللطيف قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[١].

وليس لقاؤه إلا مشاهدته في مظاهره الآفاقيّة والأنفسيّة، المتقدّم بيانها في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[٢] وفي قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾[٣] لأنّ المحيط لا يمكن لقاؤه ومشاهدته إلا مع محاطه، لأنّه لا يكون منفصلاً عنه، ولا مخصوصاً بموضع دون موضع، ولا بمحلّ دون محلّ، بل لا يمكن انفكاكه عنه أصلاً، أزلاً وأبداً.

٧٢٢ - وههنا دقيقة بالنسبة إلى البحث المتقدّم، لا بدّ منها في هذا الموطن. وهو أنّ كلّ من يشاهد جرم الشمس وشعاعها، فكما أنّه لا يقدر أن يصل إلى الشمس وجرمها إلا بعد حصول المناسبة بينه وبينها من الصفاء والنوريّة والكمال والشرف وغير ذلك، فكذلك كما أشار إليه النبيّ ﷺ: «**تخلّقوا بأخلاق الله تعالى**» أي اتّصفوا بصفاته.

وكقوله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبدي! أحببني أجعلك مثلي**».

وكقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ لله تعالى شراباً لأوليائه؛ إذا شربوا منه سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتّصلوا، وإذا اتّصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم**».

وكقول النبيّ ﷺ أيضاً: «**من رآني فقد رأى الحقّ**».

وكقوله تعالى بالنسبة إليه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٤].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٤.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

٧٢٣ - وفيه أي في هذا المقام قيل: «ليس كلّ من سلك وصل، ولا كلّ من وصل حصل، ولا كلّ من حَصّل حصّل، ولا كلّ من حصّل فصّل، ولا كلّ من فصّل وصّل، ولا كلّ من وصّل أوصل». وفيه قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «**من عرف الفصل والوصل والحركة والسكون، قد بلغ القرار في التوحيد**»، ويروى: «**في المعرفة**».

٧٢٤ - والغرض من ذلك كلّه، أنّ الشخص لمّا شاهد الحقّ بنور الحقّ، بقيت له مرتبة واحدة، وهي مرتبة فنائه فيه، المسمّى: بفناء العارف من المعروف، أو الشاهد، في المشهود، أو العبد في الربّ، وغير ذلك.

وذلك لا يكون إلا برفع الأثنينيّة الاعتباريّة، وازالة الكثرة الخلقيّة، ومحو الأنانيّة المانعة عن الوصول الحقيقيّ، كقول بعضهم يعني الحلاج في هذا المقام:

بيني وبينك أنّي ينازعني فارفع بفضلك أنّي من البين[1]

وكقول بعض آخر: «إذا تمّ الفقر فهو الله».

وكقول آخر: (يعني أبي يزيد البسطامي: «سبحاني! ما أعظم شأني».

وكقول آخر يعني الحلاج: «أنا الحقّ». وكقول إمامنا ومولانا قطب أرباب التوحيد، أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنا وجه الله، وأنا جنب الله، وأنا يد الله. وأنا آية الله. أنا الأوّل، وأنا الآخر، أنا الظاهر، أنا الباطن**» إلى آخره.

٧٢٥ - فإذا حصل للشخص هذا المقام، وفنى وجوده وذاته في وجود الحقّ وذاته، وأمّحى رسمه، وزال عنه رسمه كفناء نور الكوكب والقمر في نور الشمس، شاهد عندئذٍ الحقّ بالحقّ على ما هو عليه في مظاهر كمالاته وصفاته وأسمائه، وعرف معنى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[2].

وتحقّق سرّ قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[3] واطّلع على الأسرار التي تحت

---

(١) البين + البيت الأول للمنصور (الحلاج). (بخط جديد).

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾(١)، وانكشف له سرّ قول الإمام: «**لو كشف الغطاء ما أزددتُ يقيناً**».

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٢).

٧٢٦ - وبالجملة (إذا تحقّق الشخص في مرتبة فناء العبد في المعبود شاهده على الوجه الذي أخبر بقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾(٣) الآية، كما تقدّم شرحها.

والله! ثمّ والله! لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية، لكفى بها حجّة على صحّة مذهب الموحّدين، ومشاهدتهم الحقّ في مظاهره الآفاقيّة والأنفسيّة، التي هي عبارة عن المشكاة والمصباح والكوكب والشجرة والهياكل وغير ذلك.

٧٢٧ - ومن هذا المقام طلب النبي ﷺ في دعائه أن يجعله نوراً، لأنّه مرتبة المناسبة بينه وبين ربّه لغاية صفائه وتجرّده، وهو قوله: «**اللهمّ! اجعل لي نوراً في قلبي، ونوراً في سمعي، ونوراً في بصري، ونوراً في لحمي، ونوراً في دمي، ونوراً في عظامي، ونوراً من بين يدي، ونوراً من خلفي، ونوراً عن يميني، ونوراً عن شمالي، ونوراً من فوقي ونوراً من تحتي. اللّهمّ! زدني نوراً، واعطني نوراً، واجعل لي نوراً، بحقّ حقّك، يا أرحم الراحمين!**»(٤).

٧٢٨ - ولولا أنّ هذا مقام شريف وأمر جليل، لما أمر الله تعالى عباده بطلبه في قوله: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥) وأيضاً لو لم يكن حصوله موقوفاً على فناء العبد ورجوعه إلى عدمه الأصليّ، لما قال في جوابهم:

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ -٢٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٤) الراحمين: واعلم أن حق الله وعلم الله وجنب الله أمير المؤمنين الذي يمير العارفين العلم ويطعمهم اياه.

(٥) سورة التحريم، الآية: ٨.

﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾(١) أي ارجعوا إلى عدمكم الأصليّ، فانظروا معادكم الحقيقيّ، وقوموا بالكليّة عن عين بصيرتكم، والتمسوا بعد ذلك النور الحقيقيّ حتى تشاهدوه بواسطة ذلك النور الذي هو نور الوجود الحقيقيّ، لأنّ العدم ظلمة والوجود نور، كما مرّ.

فمن رجع إلى عدمه وعرف أنّه معدوم أزلاً وأبداً، وأنّ الحقّ موجود أزلاً وأبداً لا غير، فقد وصل من عالم الظلمة إلى عالم النور الذي هو الوجود المطلق المحض الحقّ - جلّ جلاله - وصار موحّداً عارفاً كاملاً. رزقنا الله الوصول إليه، بمحمّد وولديه!.

٧٢٩ - وإلى هذا المقام أشار - جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٢) وإلى أمثال هذه الأنوار كان ارشاد الأنبياء والأولياء عليهم السلام لا الذي توهّم المحجوب عنها وعن صاحبها. ومع ذلك: «**فتلك شقشقة هدرتْ ثمّ قرّت**».

٧٣٠ - فترجع ونقول: المراد من مجموع هذا البحث أن نثبت أنّ الأنبياء والأولياء عليهم السلام كانوا مراعين للمراتب الثلاثة، أعني: الشريعة والطريقة والحقيقة، وكانوا أهلها؛ وأنّ رعاية المراتب الثلاثة واجبة على كلّ عاقل؛ وأن على هذا بدأ مذهب أهل الله تعالى وبه انختم.

وقد ثبت ذلك وتحقّق، والحمد لله على ذلك! وفي الشريعة والطريقة والحقيقة وأهلها، والفرق بينها صورةً ومعنىً، أسرار كثيرة ودقائق جليلة، لا يحتمل هذا الموضع أكثر من هذا؛ ولباقي هذا الباب رسالة موسومة: بـ«أسرار الشريعة وأنوار الحقيقة»؛ من أراد تحقيقها، فليرجع إليها ويظفر بكنزها.

٧٣١ - فجماعة تكون عقائدهم وقواعدهم بهذه المثابة، ويكون كشفهم وشهودهم بهذه الدرجة، كيف يجوز أن يتصوّر أحد فيهم خلاف الحقّ، ويظنّ ظنّ

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

الجاهليّة، وينسبهم إلى الكفر والزندقة؟ نعوذ بالله منه ومن أمثاله! ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾(١). فحينئذٍ لا ينبغي أن يشنع أحد من هذه الطائفة على الآخر، بأنّه حقّ أو باطل، لأنّه لا يكون بذلك إلا مأثوماً، لأنّ هذا ظنّ ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(٢)، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾(٣).

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾(٤).

٧٣٢ - هذا آخر ما سنح لي في هذا الباب. وهذا ما علينا من التنبيه والنصيحة مع الأصحاب ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٥). ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٦).

٧٣٣ - تنبيه: اعلم أنّ الأنبياء والأولياء عليهم السلام كلّهم أطبّاء النفوس ومعالجوا القلوب، كما أنّ الحكماء والأطباء كلّهم أطبّاء الأبدان ومعالجوا الجسد.

أعني كما أنّ أطبّاء الأبدان يعرفون ازالة الأمراض البدنيّة عن أبدان المرضى الصوريّين بحسن طبابتهم ولطف معالجتهم، فكذلك أطبّاء النفوس يعرفون ازالة الأمراض النفسانيّة عن نفوس المرضى المعنويّين بحسن طبابتهم ولطف معالجتهم.

وكما أنّ المريض الصوريّ لا يجوز له الاعتراض على الطبيب الصوريّ في تدابيره وعلاجه وكيفيّة تركيبه الأشربة والمعاجين، فكذلك المريض المعنويّ، فإنّه لا يجوز له الاعتراض على الطبيب المعنويّ في تدابيره وعلاجه وكيفيّة تكليفه وأحكامه، لأنّ اعتراض المريض على الطبيب مطلقاً، صوريّاً كان أو معنويّاً، لا يزيد إلا المرض.

٧٣٤ - لأنّ المريض الصوريّ إذا اعترض على الطبيب الصوريّ، نفر الطبيب

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤.
(٥) سورة النور، الآية: ٥٣.
(٦) سورة هود، الآية: ١٢١.

عنه وترك علاجه. وإذا ترك علاجه فأمّا أن يموت المريض أو يزيد مرضه، وكلاهما قبيح، موجب للهلاك الصوريّ.

وكذلك المريض المعنويّ إذا اعترض على الطبيب المعنويّ، نفر الطبيب عنه وترك علاجه. وإذا ترك علاجه، فأمّا أن يموت بالموت الحقيقيّ الذي هو الكفر، أو يزيد مرضه الذي هو الضلال، وكلاهما قبيح موجب للهلاك المعنويّ والأبديّ. فحينئذٍ كما أنّ المريض الصوريّ الذي يريد الصحّة الكليّة، يجب عليه تناول الأشربة المرّة من يد الطبيب الصوريّ طوعاً وكرهاً، فكذلك المريض المعنويّ الذي يريد الصحّة الكليّة، فإنّه يجب عليه أيضاً تناول الأشربة المرّة التي هي التكاليف من يد الطبيب المعنويّ طوعاً وكرهاً.

٧٣٥ - والمراد من مجموع هذه المقدّمات أنّ القواعد التي قد تقدّم تقريرها والضوابط التي قد تقرّر تمهيدها، لا سيّما في بحث الشريعة والطريقة والحقيقة، لا ينبغي أن يعترض عليها أحد، من حيث أنّه يقول: هذا خلاف العقل مطلقاً، وهذا خلاف النقل، لأنّ كلّ ما يكون خلاف عقل زيد مثلاً، لا يجب أن يكون خلاف عقل عمرو، خصوصاً الأنبياء والأولياء عليهم السلام لأنّ عقولهم أكمل العقول، كما أنّ نفوسهم أكمل النفوس.

والتفاوت بين عقولهم وعقول الخلق هو بعينه التفاوت بين نفوسهم ونفوس الخلق، وبينهما بون بعيد.

ومن أنكر ذلك، فهو جاهل سفيه لا يؤبه به، وليس هو بمخاطب لنا.

٧٣٦ - وكذلك النقل: لأنّك ما أنت في صدد أنّ كلّ نقل ورد في الوجود، سمعته أو عرفته؛ ولا إن سمعته، عرفت معناه، لأنّ هناك نقلاً كثيراً ما قرع سمعك أبداً ذكره ولا عرفتَ معناه، كما أشار إليه - جلّ ذكره: «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».

ومعلوم أنّ أكثر الأوضاع الشرعيّة والأحكام الإلّهيّة خلاف الادراكات العقليّة والتصرّفات البشريّة؛ لكن ليس هذا خلاف العقل مطلقاً، لأنّ الأنبياء والأولياء عليهم السلام أعقل أهل العالم؛ وهذا موافق لعقلهم، مطابق لادراكهم.

غاية ما في الباب أنّ هذا يكون خلاف عقلك وعقل غيرك، أمّا في نفس الأمر فلا يجوز ذلك، ولهذا لا يجوز أن يقول: العاقل لشيء أنّ هذا خلاف العقل: أو أنّ هذا ليس بعقليّ، لأنّه يجوز أنّ هذا الشيء إذا لم يكن عنده عقلياً، أن يكون عند غيره عقلياً.

٧٣٧ - ولهذا السبب - أي لسبب أنّ الأحكام الشرعيّة والأوضاع الإلّهيّة كانت خارجة عن طور العقل، أي طور عقل المكلّفين - منع رسول الله ﷺ، السؤال عن كيفيّة التكاليف الشرعيّة وقال: «**لا ينبغي أن يسأل أحد عنها**» أعني لا ينبغي أن يسأل أحد عن صلاة الظهر مثلاً: «**لَم كانت أربع ركعات، والمغرب ثلاثة، والغداة ركعتين؟**» وكذلك باقي الأركان الدينيّة الخمسة، وكذلك الوضوء والغسل والمسح وغير ذلك من التكاليف الشرعيّة.

٧٣٨ - ومثال عجز العقل عن ادراك أسرار الشريعة كمثال عجزه عن ادراك سرّ ملك الموت عليه السلام. فإنّه ليس يدرك كيف أنّ مَلكاً واحداً في ساعة واحدة يقبض مائة ألف نفس أو أكثر من الحيوان والإنسان، مع بعد مسافة العالم من المشرق إلى المغرب؟ وكذلك عجزه عن ادراك سرّ جبرائيل عليه السلام.

فإنّه ليس يدرك كيف أنّ جبرائيل ينزل في آن واحد من السماوات السبع على رأي، ومن العرش على رأي، على نبيّ من الأنبياء، ويرجع في ذلك الآن أو في غيره من الآنات؟.

٧٣٩ - فحينئذٍ ليس للمكلّف أصلح من التسليم والتصديق بالأحكام الشرعيّة، والسكوت عن طلب كيفيّتها، ولا يكون كالجاهل الذي يقول: «الشرع خلاف العقل، والعقل خلاف الشرع، وليس بينهما مناسبة» لأنّه ليس في الشرع شيء خلاف العقل أصلاً، ولا في العقل الصحيح شيء يكون خلاف الشرع أبداً. وليست التكاليف الشرعيّة إلا على العقل أو العاقل؛ وليس ظهور الشرع إلا بالعقل والعاقل؛ بل مدار الوجود كلّه على ذلك.

ومثال: الشرع والعقل بالحقيقة، مثال: البدن والروح، أعني: كما أنّ تصرّف الروح وظهور صفاته وكمالاته لا يمكن إلا بالجسد وأوضاعه وأعضائه، فكذلك: تصرّف الشرع وظهور مراتبه وكمالاته لا يمكن إلا بالعقل ومراتبه وأقسامه.

٧٤٠ - وقد عرفتَ أنّ للعقل مراتب أدناها: العقل الهيولانيّ، وبعدها العقل بالملكة، وبعدها العقل بالفعل، وبعدها العقل المستفاد.

فالشرع دائر على هذه المراتب، لأن **الأولى والثانية**: مرتبة العوامّ، بل الصبيان.

والثالثة: مرتبة المؤمنين والموحّدين والعارفين والعلماء الراسخين وغير ذلك.

والرابعة: مرتبة الأنبياء والأولياء وأمثالهم.

٧٤١ - وبالجملة الشرع ليس بمستغن عن العقل، ولا العقل عن الشرع. وإلى هذا ذهب أكثر علماء الإسلام، لكنّ المحقّقين المدّقين منهم، لا الجاهلين المنكرين من أشباههم وأمثالهم، كما لا يخفى على أهله.

ومنهم: - أي من المحقّقين المدّقين - الإمام العالم والشيخ الكامل: الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني - تغمّده الله بغفرانه. فإنّه ذكر في كتابه المسمّى بـ: «**تفصيل النشأتين في تحصيل السعادتين**» بيان ذلك مفصّلاً. ومن جملته: قوله في تظاهر العقل والشرع، وافتقار أحدهما إلى الآخر، وهو مطلوبنا هذا والغرض من ذكره. توضيح هذا المبحث وتحقيقه، كما فعلنا في أكثر المباحث وقرأنا عليك قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[1] الآية.

٧٤٢ - فقال: «اعلم أنّ العقل لن يهتدى إلا بالشرع، والشرع لن يتبيّن إلا بالعقل. والعقل كالاسّ والشرع كالبناء، ولن يغني أسّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسّ».

٧٤٣ - وأيضاً: «فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر.

فلهذا قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾[2].

٧٤٤ - وأيضاً: «فالعقل كالسراج، والشرع كالزيت الذي يمدّه، فما لم يكن زيت لم يشتعل السراج، وما لم يكن السراج لم يضيء الزيت.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢١.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ - ١٦.

وعلى هذا نبّه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾(١).

٧٤٥ - وأيضاً: «فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما يتعاضدان، بل يتّحدان. ولكون الشرع عقلاً من خارج، سلب الله اسم العقل من الكافر، في غير موضع من القرآن، نحو: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾(٢). ولكون العقل شرعاً من داخل، قال تعالى في صفة العقل: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(٣).

فسمّى العقل: ديناً. ولكونهما متّحدين قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾(٤) أي نور العقل ونور الشرع.

ثمّ قال: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾(٥). فجعلهم نوراً واحداً. فالعقل إذا فقد الشرع، عجز عن أكثر الأمور، كما عجزت العين عند فقد النور».

٧٤٦ - «واعلم أنّ العقل بنفسه قليل الغناء، لا يكاد يتوصّل إلا إلى معرفة كليّات الشيء دون جزئيّاته، نحو أن يعلم جملةً حسن اعتقاد الحقّ وقول الصدق وتعاطي الجميل وحسن استعمال المعدلة وملازمة العفة ونحو ذلك، من غير أن يعرف ذلك في شيءٍ شيءٍ.

والشرع يعرف كليّات الشيء وجزئيّاته، ويبيّن ما الذي يجب أن يعتقد في شيءٍ شيءٍ، وما الذي هو معدلة في شيءٍ شيءٍ. فلا يعرف العقل مثلاً: أنّ لحم الخنزير والدم والخمر محرّمة، وأنّه يجب أن يتحاشى من تناول الطعام في وقت معلوم، وأن لا ينكح ذوات المحارم. وأن لا يجامع المرأة في حال الحيض. فإنّ أشباه ذلك لا سبيل إليها إلا بالشرع».

٧٤٧ - «فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة، والدالّ على

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧١.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٩.
(٤) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٥) سورة النور، الآية: ٣٥.

مصالح الدنيا والآخر؛ ومن عدل عنه، فقد ضلّ سواء السبيل. ولأجل أنّه لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(١)]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[(٢)]. وإلى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة، بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٣)]. وعنى بالقليل: ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[(٤)].

٧٤٨ - ثمّ شرع الراغب الأصفهاني في بيان أن من لم يتخصص بالشرع وعبادة الرب، فليس بإنسان ولا عاقل، وإن كان اسمه إنساناً أو عاقلاً، فقال: «لمّا كان الإنسان إنّما يصير إنساناً بالعقل ولو توّهمنا العقل عنه مرتفعاً، لخرج عن كونه إنساناً ولم يكن إلا مثل بهيمة مهملة، أو صورة ممثلة.

- و (لمّا كان) العقل لا يكمل، بل لا يكون عقلاً إلا بعد الاهتداء بالشرع كما تقدّم، ولذلك نفى العقل عن الكافر لما تعرّى عن الاهتداء بالشرع كما تقدّم، ولذلك نفي العقل عن الكافر لما تعرّى عن الاهتداء بالشرع في غير موضع من كتاب.

- ولمّا كان الاهتداء بالشرع هو عبادة الله تعالى، فالإنسان في الحقيقة هو الذي يعبد الله، ولذلك خُلق، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(٥)] وكما قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[(٦)].

وكلّ من أُوجد لفعل، فمتى لم يوجد منه ذلك الفعل، كان في حكم المعدوم. ولذلك كثيراً ما سلب عن الشيء اسمه، إذا وجد فعله ناقصاً، كقولهم للفرس الرديء ليس هذا بفرس، وللإنسان الرذل ليس هو بإنسان. ويقال: فلان لا عين له، ولا أذن

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٢) سورة طه، الآية: ١٣٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٥.
(٤) سورة ص، الآية: ٤٧.
(٥) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٦) سورة البينة الآية: ٥.

له، إذا بطل فعل عينه وأذنه، وإن كان شحمها باقياً. وعلى هذا قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(١) فيمن لم ينتفعوا بهذه الأعضاء».

٧٤٩ - «فالإنسان يحصل له من الإنسانيّة بقدر ما يحصل له من العبادة التي لأجلها خُلق. فمن قام بالعبادة حقّ القيام، فقد استكمل الإنسانيّة؛ ومن رفضها فقد انسلخ من الإنسانيّة، فصار حيواناً أو دون الحيوان، كما قال في صفة الكفّار: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٢).

وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٣) فلم يرض أن جعلهم أنعاماً ودواب، حتّى جعلهم أضلّ منها وجعلهم من أشرارها. وأخرج كلامهم من جملة البيان، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾(٤) تنبيهاً على أنّهم كالطيور التي تمكوا وتصدى».

٧٥٠ - «ونبّه تعالى بنكتة لطيفة على أنّ الإنسان لا يكون إنساناً إلا بالدين، ولا ذا بيان إلا بقدرته على الإتيان بالحقائق الدينيّة، فقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾(٥).

فابتدأ بتعليم القرآن، ثمّ بخلق الإنسان، ثمّ بتعليم البيان، ولم يدخل الواو بينهما. وكان الوجه على تعارف الناس أن يقول: «خلق الإنسان وعلّمه البيان وعلم القرآن». فإنّ ايجاد الإنسان بحسب نظرنا مقدّم على تعليم البيان، وتعليم البيان مقدم على تعليم القرآن. ولكن لمّا لم يعدّ الإنسان إنساناً ما لم يتخصّص بالقرآن، ابتدأ بالقرآن.

ثمّ قال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَٰنَ﴾(٦) تنبيهاً على أن بتعليم القرآن جعله إنساناً على الحقيقة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٥.
(٥) سورة الرحمن، الآيات: ١ - ٤.
(٦) سورة الرحمن، الآية: ٣.

ثمّ قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[(١)] تنبيهاً على أنّ البيان الحقيقيّ المختصّ بالإنسان، يحصل بعد معرفة القرآن. فنبّه بهذا الترتيب المخصوص، وترك حرف العطف منه، وجعل كلّ جملة بدلاً ممّا قبلها لا عطفاً، على أنّ الإنسان ما لم يكن عارفاً برسوم العبادة، متخصّصاً بها، لا يكون إنساناً، وأنّ كلامه ما لم يكن على مقتضى الشرع، لا يكون بياناً».

٧٥١ - «فإن قيل: فعلى ما ذكرت، لا يصحّ أن يقال: كلّ كافر إنساناً، وقد سمّاه الله تعالى بذلك في عامّة القرآن، قلنا: إنّا لم نقل لا يسمّى الكافر إنساناً على تعارف الكافّة، بل قلنا؛ قضيّة العقل والشرع تقتضي أن لا يسمّى به إلا مجازاً، ما لم يوجد منه الفعل المختصّ به؛ ثمّ إن سُمّي به على سبيل تعارف العامّة، فليس بمنكر، فكثير من الأسماء يستعمل على هذا الوجه. فبيّن الشرع أن ليس استعماله على ما استعملوه، كقولهم: «الغنيّ» فإنّهم استعملوه في كثرة المال، فقالوا: ليس الغنيّ بكثرة المال، إنّما الغنيّ غنى النفس. فبيّن الشرع أنّ الغنيّ ليس هو كثرة المال. وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾[(٢)] أي كثير الأعراض، فاستعمله على ما هو متعارف».

٧٥٢ - «وجملة الأمر أنّ اسم الشيء إذا أطلقه الحكيم على سبيل المدح، يتناول الأشرف، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[(٣)] ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[(٤)] وإن كان الذكر قد يقال للمحمود والمذموم. وعلى هذا، يمدح كلّ شيء بلفظ نوعه، فيقال: فلان هو إنسان، وهذا السيف سيف.

ولهذا قيل: «الإنسان المطلق هو نبيّ زمانه».

وقال بعض الحكماء: قول من قال: «إنّ الإنسان هو الحقّ الناطق المايت» صحيح. وليس معناه ما توهّمه كثير من الناس: من له الحياة الحيوانيّة والموت الحيوانيّ والنطق الذي هو في الإنسان بالقوّة. وإنّما أريد بالحيّ من كانت له الحياة

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.
(٤) سورة الإنشراح: الآية: ٤.

المذكورة في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[1]؛ وبالمايت من جعل قوى النفس الشهوانيّة والغضبيّة مقهورتين، على مقتضى الشريعة. فحينئذٍ يكون الإنسان ميّتاً بالإرادة، حيّاً بالطبيعة، كما قيل: «متْ بالإرادة تحيى بالطبيعة وكما روي: «من **أمات نفسه في الدنيا، أحياها في الآخرة»**. - وهذا آخر كلامه.

٧٥٣ - وبالحقيقة عن هذا الموت أخبر النبيّ ﷺ في قوله: **«موتوا قبل أن تموتوا»**.

وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: **«قد أحيا عقله وأمات نفسه، حتى دقّ جليله ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار لأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربّه»**.

وفي كلامه كثير من أمثال ذلك؛ وسيجيء بيانه في القاعدة الثالثة؛ إن شاء الله تعالى.

٧٥٤ - هذا آخر القاعدة الأولى. وإذ فرغنا منها ومن بيان الشريعة والطريقة والحقيقة، وبيان خصوصيّة الشرع والعقل من سائر الموجودات وتلازمهما، فلنشرع في القاعدة الثانية في بيان أسرار النبوّة والرسالة والولاية، بعون الله تعالى وحسن توفيقه. وهي هذه:

القاعدة الثانية: في أسرار النبوة والرسالة والولاية

٧٥٥ - اعلم أنّ النبوّة عند هذه الطائفة هي الأخبار عن الحقائق الإلّهيّة، أي معرفة ذات الحقّ تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه. وهي على قسمين: نبوّة التعريف ونبوّة التشريع.

فالأولى: هي الأنباء عن معرفة الذات والأسماء والصفات.

والثانية: جميع ذلك من تبليغ الأحكام، والتأديب بالأخلاق، والتعليم بالحكمة، والقيام بالسياسة، وتختصّ هذه النبوّة بالرسالة.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤.

والولاية هي قيام العبد بالحقّ عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولّي الحقّ إياه، حتّى يبلغه غاية القرب والتمكين.

٧٥٦ - وللنبوّة والولاية اعتباران: اعتبار الاطلاق واعتبار التقييد، أي العامّ والخاصّ، والتشريع وغير التشريع.

فالمقيّدة من النبوّة ما تقدّم تعريفها.

وأمّا المطلقة، فهي النبوّة الأصليّة الحقيقيّة، الحاصلة في الأزل، الباقية إلى الأبد، كقول النبيّ ﷺ: «**كنتُ نبيّاً وآدم بين الماء والطين**».

والنبوّة الأصليّة بالحقيقة هي عبارة عن اطّلاع ذاك النبيّ المخصوص بها على استعداد جميع الموجودات، بحسب ذواتها وماهيّاتها وحقائقها، واعطاء حقّ كلّ ذي حقّ منها بلسان استعداداتها، من حيث الأنباء الذاتيّ والتعليم الحقيقيّ الأزليّ المسمّى: بالربوبيّة العظمى والسلطنة الكبرى.

وصاحب هذا المقام هو الموسوم: بالخليفة الأعظم وقطب الأقطاب والإنسان الكبير وآدم الحقيقيّ، المعبّر عنه: بالقلم الأعلى، والعقل الأوّل، والروح الأعظم، وأمثال ذلك.

٧٥٧ - وإليه أشار النبيّ ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»(١). وكذلك: «**من رآني فقد رأى الحقّ**». و «**أوّل ما خلق الله نوري**». و «**أوّل ما خلق الله العقل**». و«**أوّل ما خلق الله القلم**». و «**أوّل ما خلق الله الروح**» وغير ذلك من الأخبار الواردة فيه.

٧٥٨ - وإليه أشار المحقّقون في اصطلاحهم بعين الله وعين العالم، بقولهم: عين الله هو الإنسان الكامل المتحقّق بحقيقة البرزخيّة الكبرى لأنّ الله تعالى ينظر بنظره إلى العالم، فيرحمه بالوجود، كما قال: «**لولاك لما خلقتُ الأفلاك**» ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(٢).

---

(١) صورته: أي صورة آدم أبي البشر على صورة حقيقة جميع الأشياء خير البشر، لأنه كان مع شقيق نوره - صلوات الله عليهما - ولا آدم ولا ماء ولا طين. (بقلم الأصل).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

٧٥٩ - وإليه أشار المحقّقون أيضاً في اصطلاحهم بعين الحياة، فقالوا: عين الحياة هو باطن الاسم الحيّ، الذي من تحقّق به شرب من ماء عين الحياة، الذي من شربه لا يموت أبداً، لكونه يحيا بحياة الحقّ، وكلّ حيّ في العالم يحيا بحياة هذا الإنسان، لكون حياته حياة الحقّ».

وإلى ماء هذا العين أشار - جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1].

وإليه أشار أيضاً: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[2] [3].

وإليه أشار: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[4]. وهي المسمّاة: بالعين الكافوريّ والحوض الكوثر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[5].

وقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[6]. وإليها نسب الخضر عليه السلام لأنّه شرب منها قطرة.

٧٦٠ - وبالحقيقة عين الحياة هي: عين الولاية الأصليّة ومنبع النبوّة الحقيقيّة. وإليها أشار أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: **«إنّ لله تعالى شراباً لأوليائه. إذا شربوا منه سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتّصلوا، وإذا اتّصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم»**.

٧٦١ - وبالحقيقة الظلمات المشهورة عبارة عن ظلمات عالم الطبيعة، ومقام الكثرة، والبعد عن هذا المقام.

وماء الحياة عبارة عن اخراج السالك عن هذه الظلمات، ووصوله إلى هذه العين التي هي عين الولاية ومقام التوحيد الحقيقيّ.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣١.
(٢) سورة هود، الآية: ٩.
(٣) الماء: وإليه وقع الإشارة منه صلى الله عليه وآله - الأنوار «أول من خلق الله الماء» وإليه ذهب تاليس المالطي الحكيم الإلهي وغيره (بالأصل).
(٤) سورة الدهر، الآية: ٦.
(٥) سورة الدهر، الآية: ٥.
(٦) سورة الكوثر، الآية: ١.

والاسكندر والخضر عليه السلام في طلب هذه العين، عبارةٌ تارةً عن النبيّ، وتارةً عن الوليّ، ووجدان الوليّ دون النبيّ في نشأة معيّنة لا مطلقاً، لأنّ أمثالهم لا يطلب هذه العين في الخارج بحيث يشاهدها حسّاً.

٧٦٢ - **وصاحب هذا المقام هو مرجع الكلّ ومبدؤه ومصدر الكلّ ومنشؤه.** وهو المبدأ وإليه المنتهى المعبّر عنه: «**ليس وراء عبّادان قرية**». وإليه تستند كل العلوم والأعمال وإليه تنتهي جميع المراتب والمقامات، نبيّاً كان صاحب هذا المقام أو وليّاً وصيّاً أو رسولاً.

٧٦٣ - وباطن هذه النبوّة هي الولاية المطلقة. والولاية المطلقة هي: عبارة عن حصول مجموع هذه الكمالات بحسب الباطن في الأزل، وابقائها إلى الأبد، كقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**كنتُ وليّاً وآدم بين الماء والطين**».

وكقول النبي صلى الله عليه وآله: «**أنا وعليّ من نور واحد**»، وكقوله فيه: «**خلق الله روحي وروح علي بن أبي طالب قبل أن يخلق الخلق بألفي عام**» الحديث.

وكقوله فيه: «**بُعث عليّ مع كلّ نبيّ سرّاً، ومعي جهراً**».

٧٦٤ - ولاقتضاء هذه المرتبة قال أمير المؤمنين عليه السلام في «خطبة البيان»: «**أنا وجه الله، أنا جنب الله، أنا يد الله، أنا القلم الأعلى، أنا اللوح المحفوظ. أنا الكتاب المبين، أنا القرآن الناطق، أنا كهيعص، ألم ذلك الكتاب. أنا طاء الطواسيم، أنا حاء الحواميم، أنا الملقّب بياسين، أنا صاد «الصافات»، أنا سين المسبّحات، أنا النون والقلم، أنا مائدة الكرم، أنا خليل جبرائيل، أنا صوفة ميكائيل، أنا الموصوف بـ«لا فتى»، أنا الممدوح في «هل أتى»، أنا النبأ العظيم، أنا الصراط المستقيم، أنا الأوّل، أنا الآخر، أنا الظاهر، أنا الباطن**» إلى آخره.

٧٦٥ - وإلى مثل هذا الإنسان ومرتبته أشار مولانا جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في قوله: «**إنّ الصورة الإنسانية هي أكبر حجّة الله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صورة العالمين، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كلّ غائب، وهي الحجّة على كلّ جاحد، وهي الطريق المستقيم إلى كلّ خير، وهي الصراط الممدود بين الجنّة والنار**».

٧٦٦ - وهذه الولاية المطلقة ثابتة للحقيقة المحمديّة بالأصالة، ولأمير المؤمنين بالوراثة، ولا تكون بعده إلا لأولاده المعصومين، المنصوص عليهم من الله تعالى بالإمامة والخلافة.

وهاتان المرتبتان لا تكونان قطّ إلا لخاتم الأنبياء وخاتم الأولياء، اللذين هما واحد عند التحقيق، وهما: محمّد وعليّ عليهما السلام ولا تكونان لغيرهما من الأنبياء والأولياء إلا بإرثٍ منهما.

وإلى هذا أشار القوم في اصطلاحهم بقولهم: القطبيّة الكبرى هي مرتبة قطب الأقطاب، وهي باطن نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله ولا تكون إلا لورثته، لاختصاصه عليه السلام بالأكمليّة.

فلا يكون خاتم الأولياء وقطب الأقطاب إلا على باطن ختم النبوّة». وأشار بعضهم إلى هذا المعنى أيضاً، وقال: «خاتم النبوّة وهو الذي ختم الله تعالى به النبوّة، ولا يكون إلا واحداً وهو نبيّنا صلى الله عليه وآله. وكذا خاتم الولاية، وهو الذي يبلغ به صلاح الدنيا والآخرة نهاية الكمال، ويختلّ بموته نظام العالم، وهو المهدي الموعود في آخر الزمان».

٧٦٧ - وههنا اختلافات كثيرة بين المشايخ في تعيين خاتم الأولياء مطلقاً ومقيّداً، لأنّ عند البعض خاتم الأولياء مطلقاً ليس إلا عيسى بن مريم عليه السلام وخاتم الأولياء مقيّداً ليس إلا محيي الدين ابن العربيّ - قدّس الله سرّه.

وعند البعض خاتم الأولياء مطلقاً ليس إلا عليّ ابن أبي طالب عليه السلام وخاتم الأولياء مقيّداً ليس إلا محمّد بن الحسن، المهدي المنتظر - صلوات الله عليه. وههنا أبحاث كثيرة ليس هذا موضعها، نشرع فيها في آخر هذه القاعدة، ونبيّن عقلاً ونقلاً وكشفاً أنّ الخاتم للولاية المطلقة هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام والخاتم للولاية المقيّدة هو المهدي عليه السلام.

٧٦٨ - وإذا تحقّق هذا، وعرفتَ معنى النبوّة والرسالة والولاية بحسب هذا المقام، فقسْ عليها النبيّ والرسول والوليّ، لأنّ الشخص الذي تكون له النبوّة يكون نبيّاً، وكذا الرسالة والولاية بالنسبة إلى الرسول والوليّ.

٧٦٩ - ثمّ اعلم أنّ كلّ رسول يكون نبيّ يكون وليّاً، ولا يكون كلّ وليّ نبيّاً. وأيضاً لا يكون نبيّاً إلا وتكون ولايته أقدم على نبوّته، كما لا يكون رسولاً إلا ونبوّته تكون أقدم يعني متقدّمة على رسالته.

فالولاية باطن النبوّة، والنبوّة باطن الرسالة؛ وكلّ واحدة منهما أشرف وأعظم من الأخرى.

ولا شكّ أنّ بواطن الأشياء أعظم من ظواهرها، لأنّها محتاجة إليها، وهي مستغنية عنها؛ وكلّ غنيّ عن شيءٍ يكون أعظم من الآخر المحتاج إلى ذلك الشيء.

فكلّ ما يكون أقرب إلى البواطن يكون هو أعظم؛ وأقلّه من الجهتين المعتبرتين: الأولى من جهة استغنائه، والثانية من جهة قربه إلى الحقّ، لأنّ قرب الأشياء إلى الحقّ بالبواطن لا بالظواهر، وإن كان الحقّ تعالى هو: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[(١)] بل لا يمكن قرب الأشياء إلى الحقّ إلا بها أي بالبواطن.

٧٧٠ - فحينئذٍ كلّ مرتبة من المراتب المذكورة تكون أعظم من الأخرى، أعني مرتبة الولاية تكون أعظم من مرتبة النبوّة، ومرتبة النبوّة تكون أعظم من مرتبة الرسالة، بخلاف الوليّ والنبيّ والرسول.

ومثل هذه المراتب مثل مراتب اللوزة الكاملة في ذاتها، فإنّ لها ظاهراً وباطناً وباطن الباطن، أعني أنّ لها قشراً ولبّاً ودهناً.

فالمرتبة **الأولى**: التي هي القشر، كالرسالة.

والثانية: التي هي اللبّ، كالنبوّة.

والثالثة: التي هي الدهن، كالولاية. والمراد أنّ مرتبة الرسالة دون مرتبة النبوّة، ومرتبة النبوّة دون مرتبة الولاية؛ كما أنّ الشريعة دون الطريقة، والطريقة دون الحقيقة. وكذلك: الوحي والالهام والكشف، والإسلام والإيمان والإيقان، كما سيجيء بيان كلّ واحد منها في موضعه. وقد تقدّم بيان بعضها عند بيان الشريعة والط يقة والحقيقة.

٧٧١ - وههنا دقيقة شريفة لا بدّ من ذكرها. وهي أنّ الولاية وإن كانت في

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٣.

الحقيقة أعظم من النبوّة، والنبوّة أعظم من الرسالة، لكن ليس الوليّ أعظم من النبيّ، ولا النبيّ أعظم من الرسول، لأنّ النبيّ له مرتبة الولاية وفوقها مرتبة النبوّة؛ وكذلك الرسول: له مرتبتان بعد الولاية، أعني: الرسالة والنبوّة، فلا تحصل المساواة بينهم أصلاً ولا الترجيح أيضاً، أعني: ترجيح الوليّ على النبيّ وترجيح النبيّ على الرسول.

فالدّقة في هذا هي أن تعرف أنّ المراد بأنّ الولاية أعظم من النبوّة، هو أنّ طرف الولاية في الشخص المعيّن يكون أعظم من طرف نبوّته، وطرف نبوّته أعظم من طرف رسالته.

والنبوّة بالنسبة إلى الرسالة كذلك، مثل نبيّنا ﷺ فإنّه كان وليّاً ونبيّاً ورسولاً، وكان طرف ولايته أعظم من طرف نبوّته، وطرف نبوّته أعظم من طرف رسالته. وكذلك جميع الرسل.

٧٧٢ - وإلى هذا أشار الشيخ ابن العربيّ في «الفصّ العزيريّ» بقوله: «فإذا سمعتَ أحداً من أهل الله يقول أو ينقل إليك عنه أنّه قال: الولاية أعلى من النبوّة، - فليس يريد بذلك القائلُ إلا ما ذكرناه، أو يقول: أنّ الوليّ فوق النبيّ والرسول، فإنّه يعني بذلك في شخص واحد، وهو أنّ الرسول، من حيث أنّه وليّ، أتمّ منه من حيث أنّه نبيّ ورسول، لا أنّ الوليّ التابع له أعلى منه، فإنّ التابع لا يدرك المتبوع أبداً فيما هو له تابع فيه، إذ لو أدركه لم يكن تابعاً. فأفهم». وسيجيء هذا الكلام أبسط من ذلك في أثناء هذه القاعدة، إن شاء الله.

٧٧٣ - والذي اتّفق أصحابنا الشيعة عليه هو أنّ أمير المؤمنين أعظم من جميع الأنبياء والأولياء بعد نبيّنا ﷺ وأولاده المعصومون كذلك.

وهو عند التحقيق ليس إلا هذا المعنى، يعني مرتبته ومرتبة هؤلاء الأئمّة من حيث الولاية أعظم من مرتبة هؤلاء الأنبياء والرسل من حيث الولاية، لا غير. ولا شكّ أنّه كذلك، وإلا فمرتبة النبوّة والرسالة أعظم من أن يكون فوقها مرتبة، دنيا وآخرة.

ولهذا كان الأولياء والأوصياء دائماً محتاجين إلى الأنبياء والرسل في القوانين الشرعية والأحكام الإلّهيّة، كقول عليّ عليه السلام. مثلاً: «تعلّمتُ من رسول الله ألف باب من العلم، ففتح لي بكلّ باب ألف باب» وغير ذلك من الأخبار الشاهدة به.

٧٧٤ - وإن تحقّقت، عرفت أنّ الحاد الاسماعيليّة ما كان إلا لالحادهم عن هذا المقام، وعدولهم عن هذه المرتبة، وكذلك النصيريّة، لأن الاسماعيليّة لمّا شاهدوا أنّ الباطن أعظم من الظاهر، وتحقّقوا أنّ الباطن له مرتبة الولاية، والظاهر له مرتبة النبوّة، وعرفوا احتياج الظاهر إلى الباطن من جميع الوجوه، ذهبوا إلى أن الأولياء أعظم من الأنبياء، وأنّ عليّاً عليه السلام أعظم من نبيّنا صلى الله عليه وآله حتّى وقعوا فيما وقعوا ووصلوا إلى ما وصلوا نعوذ بالله منهم ومن تابعيهم.

وكذلك النصيريّة لمّا شاهدوا منه أي من الإمام عليّ أمراً ما يمكن أن يصدر من نبيّ ولا رسول ولا بشر مطلقاً، قالوا: بألوهيّته وكفروا به.

ولو عرفوا أنّ هذه الأفعال من خواصّ الولاية، وأنّ هذه الولاية حاصلة له بالوراثة والخلافة من الله ومن رسوله، لما ذهبوا إلى ما ذهبوا، ولا وقعوا فيما وقعوا.

٧٧٥ - والحقّ في هذا المقام هو ما قلناه أوّلاً، وهو أنّ الوليّ لا يكون أعظم من النبيّ والرسول إلا من حيث الولاية فقط.

وإلا، فالنبوّة والرسالة أعظم من أن ينال أحد مرتبتهما غير النبيّ والرسول.

وإذا لم يمكن حصول مرتبتهما لغيرهما، فكيف يمكن التفوّق عليهما؟ وسنبسط الكلام في هذا مرّة أخرى إن شاء الله تعالى، بحيث يرتفع التنازع والشكوك بالكليّة. ويستقرّ الحقّ في مقامه على ما ينبغي.

٧٧٦ - والشيخ الكامل المكمّل محيي الدين بن العربيّ - قدّس الله سرّه - أشار إلى هذا المعنى في كتابه: «الفصوص» في «الفصّ الشيثي» إشارة مجملة، وقال: «إنّ كان أعلى بوجه، فهو يكون أنزل بوجه آخر، ولا يكون أعلى من النبي أصلاً، وإن كان جميع الأنبياء والأولياء ما يأخذون الفيض إلا منه» وغير ذلك من الإشارت، نذكره ههنا اثباتاً للمطلوب، وهو قوله:

٧٧٧ - «وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء. وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الختم. ولا يراه أحد من الأولياء إلا مشكاة الوليّ الختم، حتّى الرسل لا يرونه - متى رأوه - إلا من مشكاة خاتم الأولياء.

فإنّ الرسالة والنبوّة - أعني نبوّة التشريع ورسالته - ينقطعان، والولاية لا تنقطع أبداً.

فالمرسلون، من كونهم أولياء، لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من هم دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع، فذلك لا يقدح في مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه، فإنّه من وجه يكون أنزل من خاتم الرسل، كما أنّه من وجه يكون أعلا».

٧٧٨ - وقال عقيب ذلك بعد كلام يسير: «فكلّ نبيّ من لدن آدم إلى آخر نبيّ، ما منهم أحد أخذ ما أخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين.

فهو وإن تأخّر وجود طينته، فإنّه بحقيقته موجود. وهو قوله: «**كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين**»، وغيره من الأنبياء ما كان نبيّاً إلا حين بعث. وكذلك خاتم الأولياء: «**كان وليّاً وآدم بين الماء والطين**»، وغيره ما كان وليّاً إلا بعد تحصيله شروط الولاية من الأخلاق الإلّهيّة والاتّصاف بها من كون الله يسمّى: بالوليّ الحميد.

فخاتم الرسل من حيث ولايته، نسبته مع الختم للولاية: نسبة الأولياء والرسل معه، فإنّه الوليّ والرسل النبيّ. وخاتم الأولياء هو: الوليّ الوارث، الآخذ عن الأصل، الشاهد للمراتب» إلى آخره.

٧٧٩ - والغرض منه أنّ الوليّ وإن كانت مرتبته عظيمة، لكن ليست فوق مرتبة النبيّ. ولا هو فوقه، لأنّ الوليّ وإن علت مرتبته، فهو وارث للنبيّ في الظاهر والباطن، تابع لشريعته وأحكامه فيهما، أي في الظاهر والباطن: في الظاهر بالأعمال البدنيّة، وفي الباطن بالأعمال القلبيّة. والتابع: لا يكون أبداً فوق المتبوع، ولا المفضول فوق الفاضل، وإن لم يعتبر ذلك بعض الجهال.

٧٨٠ - ولكلام الشيخ شرح طويل وبسط عظيم، قد ذكره الشرّاح في شروحهم، ليس هذا المقام محتاجاً إليه. وقد أشار إلى هذا أيضاً الشيخ الكامل شرف الدين القيصريّ - رحمه الله - في: مقدّماته لشرح الفصوص»، في «**بيان النبوّة والرسالة والولاية**» والعلّة الغائية من بعثة الرسل وارسالهم، بعبارة لائحة وإشارة واضحة، هي أحسن ما تقدّم بذكره ههنا، ونشرع بعدها في المقصود. لا يقال: هذا خلاف طريقة المصنّفين، أعني نقل كلام المشائخ فصلاً فصلاً، - لأنّ في هذا لنا أغراضاً لا تخفى

على أهلها، منها اثبات الخلافة المطلقة والمقيّدة لعليّ أمير المؤمنين عليه السلام - وابنه المهدي عليه السلام - كما مرّ.

٧٨١ - فقوله وهو أنّه يقول: «اعلم أنّ للحقّ تعالى ظاهراً وباطناً. والباطن يشتمل الوحدة الحقيقيّة التي للغيب المطلق، والكثرة العلميّة التي هي حضرة الأعيان الثابتة. والظاهر لا يزال مكتنفاً بالكثرة، لا خلوّ له عنها، لأنّ ظهور الأسماء والصفات، من حيث خصوصيّتها الموجبة لتعدّدها، لا يمكن إلا أن يكون لكلّ منها صورة مخصوصة، فيلزم التكثّر».

٧٨٢ - «ولمّا كان كلّ منها طالباً لظهوره وسلطنته وأحكامه، حصل النزاع والتخاصم في الأعيان الخارجيّة، باحتجاب كلّ منها عن الاسم الظاهر في غيره. فاحتاج الأمر إلى مظهرٍ، حكمٍ، عدْلٍ، ليحكم بينها ويحفظ مقام العالم في الدنيا والآخرة؛ ويحكم بربّه، الذي هو ربّ الأرباب بين الأسماء أيضاً، بالعدالة؛ ويوصل كلاً منها أي من الأعيان الخارجيّة إلى كماله ظاهراً وباطناً. فهذا المظهر الحكم العدل هو النبيّ الحقيقيّ والقطب الأزليّ الأبديّ أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وهو الحقيقة المحمّدية صلى الله عليه وآله كما أشار إليه بقوله: «**كنتُ نبيّاً وآدم بين الماء والطين**»، أي بين العلم والجسم. وأمّا «الحكم» بين المظاهر دون الأسماء، فهو النبيّ الذي تحصل نبوّته بعد الظهور نيابةً عن النبيّ الحقيقيّ».

٧٨٣ - «فالنبيّ هو المبعوث إلى الخلق ليكون هادياً لهم ومرشداً إلى كمالهم المقدّر لهم في الحضرة العلميّة، باقتضاء استعدادات أعيانهم الثابتة إياه، وهو قد يكون مشرّعاً كالمرسلين وقد لا يكون، كأنبياء بني إسرائيل. والنبوّة هي البعثة، وهي اختصاص إلّهيّ، حاصل لعينه من التجلّي الموجب للأعيان في العلم. وهو الفيض الأقدس. ولمّا كان كلّ من المظاهر طالباً لهذا المقام الأعظم، بحكم التفوّق على أبناء جنسه، قرنت النبوّة باظهار المعجزات وخوارق العادات مع التحدي، ليتميّز النبيّ من المتنبّي. فالأنبياء عليهم السلام مظاهر الذات الإلّهية، من حيث ربوبيّتها للمظاهر وعدالتها بينها».

٧٨٤ - «فالنبوّة مختصّة بالظاهر، ويشترك الأنبياء كلّهم في الدعوة والهداية والتصرّف في الخلق، وغيرها ممّا لا بدّ منه في النبوّة. ويمتاز مَن منهم عن الآخر في

المرتبة بحسب الحيطة التامّة، كأولي العزم والمرسلين عليهم السلام وغير التامّة، كأنبياء بني إسرائيل. فالنبوّة دائرة تامّة مشتملة على دوائر متناهية متفاوتة في الحيطة. وقد علمت أنّ الظاهر لا يأخذ التأييد والقوّة والقدرة والتصرّف والعلم وجميع ما يفيض من الحقّ تعالى إلا بالباطن، وهو مقام الولاية المأخوذة من الوليّ، وهو القرب. والوليّ بمعنى الحبيب أيضاً منه. فباطن النبوّة الولاية، وهي تنقسم بالعامّة والخاصّة.

فالأولى: تشتمل على كلّ من آمن بالله وعمل صالحاً على حسب مراتبهم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1] الآية.

والثانية: تشتمل على الواصلين السالكين فقط، عند فنائهم فيه وبقائهم به».

٧٨٥ - «**فالولاية الخاصّة**: عبارة عن فناء العبد في الحقّ. والوليّ هو الفاني فيه أي في الحقّ، الباقي به.

وليس المراد بالفناء هنا انعدام عين العبد مطلقاً، بل المراد منه: فناء الجهة البشريّة في الجهة الربّانيّة، إذ لكلّ عبد جهة في الحضرة الإلّهية، هي المشار إليها بقوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[2] الآية.

وذلك لا يحصل إلا بالتوجّه التامّ إلى جناب الحقّ المطلق سبحانه، إذ به تقوى جهة حقيّته، فتغلب جهة خلقيّته إلى أن تقهرها وتفنيها بالأصالة، كالقطعة من الفحم المجاورة للنار. فإنّها بسبب المجاورة والاستعداد لقبول الناريّة والقابلية المختفية فيها، تشتعل قليلاً قليلاً إلى أن تصير ناراً؛ فيحصل منها ما يحصل من النار من الاحراق والانضاج والإضاءة وغيرها، وقبل الاشتعال كانت مظلمة كدرة باردة».

٧٨٦ - «وذلك التوجّه لا يمكن إلا بالمحبّة الذاتيّة الكامنة في العبد؛ وظهورها لا يكون إلا بالاجتناب عمّا يضادّها ويناقضها، وهو التقوى عمّا عداها، لقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[3]. فالمحبّة هي المركب، والزاد هو التقوى».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

٧٨٧ - «وهذا الفناء موجب لأن يتعيّن العبد بتعيّنات حقّانيّة وصفات ربّانية مرّة أخرى، وهو البقاء بالحقّ، فلا يرتفع التعيّن منه مطلقاً. وهذا المقام دائرته أتمّ وأكبر من دائرة النبوّة؛ لذلك انختمت النبوّة والولاية دائمة، وجعل الوليّ اسماً من أسماء الله تعالى، دون النبيّ».

٧٨٨ - **«ولمّا كانت الولاية أكبر حيطة من النبوّة وباطناً لها**، شملت الأنبياء والأولياء. فالأنبياء هم أولياء فانين في الحقّ باقين به، منبئين عن الغيب وأسراره بحسب اقتضاء الاسم، الذي انباؤه واظهاره في كلّ حين منه. وهذا المقام أيضاً اختصاص إلٓهيّ غير كسبيّ، بل جميع المقامات اختصاصيّة عطائيّة غير كسبيّة، حاصلة للعين الثابتة من الفيض الأقدس؛ وظهوره بالتدريج، بحصول شرائطه وأسبابه، يوهم المحجوب فيظنّ أنّه كسبيّ بالتعمّل، وليس كذلك في الحقيقة».

٧٨٩ - «فأوّل الولاية انتهاء السفر الأوّل، الذي هو السفر من الخلق إلى الحقّ بازالة التعشق عن المظاهر والأغيار، والخلاص من القيود والأستار، والعبور من المنازل والمقامات، والحصول على المراتب والدرجات؛ وبمجرّد حصول العلم اليقينيّ للشخص لا يلحق بأهل هذا المقام، لأنّه إنّما يتجلّى الحقّ لمن انمحى رسمه وزال عنه اسمه».

٧٩٠ - «ولمّا كانت المراتب متميّزة، قسّم أرباب الطريقة المقامات الكليّة إلى علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين.

فعلم اليقين: تصوّر الأمر على ما هو عليه.

وعين اليقين: شهوده كما هو.

وحقّ اليقين: يكون بالفناء في الحقّ والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً، لا علماً فقط. ولا نهاية لكمال الولاية، فمراتب الأولياء غير متناهية». هذا آخر كلامه في هذا الباب. والله أعلم بالصواب.

٧٩١ - **تنبيه وتحقيق**: اعلم أنّ هذا التنبيه مشتمل على تعيين خاتم الأولياء مطلقاً ومقيّداً. والغرض منه أنّ بعض المشايخ، ومنهم الشيخ الكامل محيي الدين بن العربيّ - قدّس الله سرّه - ومن تابعيه شرف الدين القيصريّ، ذهبوا إلى أنّ خاتم الأولياء مطلقاً هو عيسى بن مريم عليه السلام وخاتم الأولياء مقيّداً هو محيي الدين بن العربيّ.

وقيل: إنّه بنفسه أيضاً صرّح بهذا المعنى في بعض كتبه.

والبعض الآخر ذهب إلى أنّ خاتم الأولياء مطلقاً هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومنهم الشيخ الكامل سعد الدين الحموئي، ومن تابعيه كمال الدين عبد الرزّاق الكاشاني - قدّس الله روحيهما - وإلى أنّ خاتم الأولياء مقيّداً هو المهدي عليه السلام. وذلك باتّفاق الشيخين المذكورين، وهذا الفقير منهم.

٧٩٢ - فحينئذٍ نريد أن نثبت هذا المعنى نقلاً وعقلاً وكشفاً، ونعضد مذهب الطائفة الأخيرة به، ونبطل مذهب الطائفة الأولى كذلك، أي نقلاً وعقلاً وكشفاً. ونتمسّك فيه أيضاً بأقوالهم، لأنّ أقوالهم الدالّة. على ابطال مذهبهم كثيرة، ليكون حالهم فيه كحال من قال: «يداك أو كتاك وفُوك نفخ!» ومن حيث أنّه محتاج إلى أبحاث كثيرة واستشهادات جمّة بكلامهم وكلام غيرهم، فنريد أن نجعل هذا البحث بحثين:

الأوّل: في تعيين خاتم الأولياء مطلقاً.

والثاني: في تعيين خاتم الأولياء مقيّداً.

٧٩٣ - **فالبحث الأول**: في تعيين خاتم الأولياء مطلقاً: هو أنّ الشيخ الكامل محي الدين بن العربيّ - قدّس الله سرّه - ذكر في «فتوحاته» فصلاً، وأشار فيه إلى أنّ خاتم الأولياء هو عيسى بن مريم عليه السلام ونقل عن مشائخه أيضاً هذا المعنى، ومنهم الحكيم الترمذي وغيره.

والفصل بعينه هو قوله: في الباب الرابع والعشرين من الجلد الثاني: «واعلم أنّه لا بدّ من نزول عيسى عليه السلام ولا بدّ من حكمه فينا بشريعة محمّد صلى الله عليه وآله يوحي الله بها إليه من كونه نبيّاً، فإنّ النبيّ لا يأخذ الشرع من غير مرسله. فيأتيه الملك مخبراً بشرع محمّد، الذي جاء به صلى الله عليه وآله بوحي الله تعالى.

وقد يلهمه الملك، فلا يحكم في الأشياء بتحليل وتحريم إلا بما كان يحكم به النبيّ صلى الله عليه وآله لو كان حاضراً[1]. ويرتفع اجتهاد المجتهدين بنزوله عليه السلام ولا يحكم

---

(١) حاضراً: لأن الأثر المروي عم الأنوار حاكم بهذا: وهو أن حلال محمد - صلى الله عليه وآله - حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة (بالأصل).

فينا إلا بشرعه الذي كان عليه محمّد ﷺ. وهو تابع له فيه. وقد يكون من الاطلاع على روح محمّد ﷺ بحيث أن يأخذ عنه ما شرع الله تعالى له أن يحكم به في أُمّته ﷺ. فيكون عيسى عليه السلام صاحباً وتابعاً من هذا الوجه. وهو عليه السلام من هذا الوجه خاتم الأولياء».

٧٩٤ - «فكان من شرف النبيّ ﷺ أنّ ختم الأولياء في أُمّته نبيّ رسول مكرّم، هو عيسى عليه السلام وهو أفضل هذه الأمّة المحمّديّة. وقد نبّه عليه الترمذي الحكيم في كتاب: «ختم الأولياء» له، وشهد له بالفضيلة على أبي بكر الصديق وغيره. فإنّه وإن كان وليّاً في هذه الأمّة والملّة المحمّديّة، فهو نبيّ ورسول في نفس الأمر. فله يوم القيامة حشران: يحشر مع الأنبياء والرسل بلواء النبوّة والرسالة، وأصحابه تابعون له، فيكون متبوعاً كسائر الرسل. ويحشر أيضاً معنا وليّاً في جماعة أولياء هذه الأمّة تحت لواء محمّد ﷺ تابعاً له، مقدّماً على جميع الأولياء من عهد آدم إلى آخر وليّ يكون في العالم. فجمع الله تعالى له بين النبوّة والولاية ظاهراً».

٧٩٥ - «وما في الرسل يوم القيامة من يتّبعه رسول إلا محمّد ﷺ. فإنّه يحشر يوم القيامة في أتباعه عيسى والياس عليهما السلام وإن كان كلّ من في الموقف من آدم، فمن دونه تحت لوائه ﷺ. فذاك لواؤه العامّ، وكلامنا في اللواء الخاصّ بأمّته ﷺ.

٧٩٦ - «وللولاية المحمّديّة المخصوصة بهذا الشرع المنزل على محمّد ﷺ ختم خاصّ، هو في الرتبة دون عيسى عليه السلام لكونه رسولاً.

وقد ولد في زماننا، ورأيتُه أيضاً، واجتمعتُ به؛ ورأيت العلامة الختميّة التي فيه. فلا وليّ بعده إلا وهو راجع إليه، كما أنّه لا نبيّ بعد محمّد ﷺ إلا وهو راجع إليه، كعيسى إذا نزل. فنسبة كلّ وليّ يكون بعد هذا الختم إلى يوم القيامة، نسبة كلّ نبيّ يكون بعد محمّد، ﷺ في النبوّة، كالياس وعيسى والخضر، في هذه الأمّة. وبعد أن بيّنتُ لك مقام عيسى عليه السلام إذا نزل، فقل ما شئت. فإن شئت قلت: شريعتين لعين واحدة؛ وإن شئت قلت: شريعة واحدة!».

٧٩٧ - وذكر أيضاً شرف الدين القيصري في شرحه للفصوص، عند أواخر «الفصّ الشيثيّ»، أنّ الشيخ قال في الفصل الثالث عشر من «أجوبة الإمام محمّد بن

عليّ الترمذي» ﷺ : «الختم ختمان: ختم يختم الله تعالى به الولاية مطلقاً، وختم يختم به الولاية المحمّديّة.

فأمّا ختم الولاية على الاطلاق: فهو عيسى عليه السلام. فهو الوليّ بالنبوّة المطلقة في زمان هذه الأمّة؛ وقد حيل بينه وبين نبوّة التشريع والرسالة، فينزل في آخر الزمان وارثاً خاتماً، لا وليّ بعده. فكان أوّل هذا الأمر نبيّاً وهو آدم، وآخره نبيّ وهو عيسى عليه السلام أعني نبوّة الاختصاص. فيكون له حشران: حشر معنا، وحشر مع الأنبياء والرسل».

٧٩٨ - وأمّا ختم الولاية المحمّديّة: فهو لرجل من العرب، من من أكرمها أصلاً ويداً، وهو في زماننا اليوم موجود. عرفتُ به سنة نة خمس وتسعين وخمسمائة. ورأيتُ العلامة التي أخفاها الحقّ فيه عن عيون عباده، وكشفها لي بمدينة فاس» إلى آخره، كما سيجيء بيانه بالتمام عند بحث المهدي عليه السلام.

٧٩٩ - وذكر شرف الدين القيصري أيضاً بعده وقال: «قال الشيخ في الفصل الخامس عشر في أجوبة الحكيم الترمذي - ﷺ : وذلك أنّ الدنيا لمّا كان لها بدء ونهاية وهو ختمها، قضى الله سبحانه أن يكون جميع ما فيها بحسب نعتها: له بدء وختام.

وكان من جملة ما فيها تنزل الشرائع. فختم الله تعالى هذا التنزيل بشرع محمد ﷺ وكان خاتم النبيّين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(١). وكان من جملة ما فيها الولاية العامّة، ولها بدء من آدم، فختمها الله تعالى بعيسى عليه السلام. فكان الختم يضاهي البدء ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾(٢) فختم بمثل ما بدأ؛ فكان البدء لهذا الأمر بنبيّ مطلق ، وختم به أيضاً».

٨٠٠ - وذكر فيه أيضاً معنى الاطلاق والتقييد بالنسبة إلى النبوّة والولاية، فقال: «واعلم أنّ الولاية تنقسم: بالمطلقة والمقيّدة، أي العامّة والخاصّة، لأنّها من حيث هي هي صفة إلّهية مطلقة؛ ومن حيث استنادها إلى الأنبياء والأولياء، هي مقيّدة

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

والمقيّد متقوّم بالمطلق؛ والمطلق ظاهر في المقيّد. فولايات الأنبياء والأولياء كلّهم هنّ جزئيّات الولاية المطلقة، كما أنّ نبوّات الأنبياء هنّ جزئيّات النبوّة المطلقة».

٨٠١ - وذكر أيضاً في الفصل السابق له في هذه الرسالة: «أنّ جميع المراتب والمقامات من النبوّة والرسالة والولاية راجعة إلى الحقيقة المحمّديّة ظاهراً وباطناً». وذكر أنّ: «النبوّة المطلقة والولاية المطلقة أيضاً مخصوصة بها»، وغير ذلك من الأحكام.

٨٠٢ - وحاصل مجموع هذا الكلام ثبوت ختم الولاية المطلقة لعيسى عليه السلام دون غيره. فنقول: ثبوت هذا المعنى عند الشيخ - قدّس الله سرّه - لا يخلو من وجوه ثلاثة: أمّا أن يكون بالنقل، أو العقل، أو الكشف. فإن كان بالنقل، فما ورد نقل يدلّ على هذا المعنى بالنسبة إلى عيسى عليه السلام الذي هو ولد من أولاد عليّ عليه السلام لتحصيل كمال الولاية، الذي فاته في زمان النبوّة.

فأمّا بالنسبة إلى عليّ عليه السلام فإنّه ورد فيه النقل والأخبار من الله تعالى ومن النبيّ ومنه أيضاً، بحيث يكاد يخرج عن الحصر. فأمّا من الله تعالى فقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(١). ومعلوم أنّ هذه الآية، باتّفاق أكثر المفسّرين من الجمهور وغيرهم، نزلت في حقّ علي عليه السلام.

٨٠٣ - ومعلوم أيضاً أنّ هذا الحكم لم يخرج عن عموميّته حتّى يخصّصه مخصّص. فيكون الإمام عليّ عليه السلام هو وليّاً مطلقاً، ويكون خاتم الأولياء بأسرهم، لأنّه ما ظهر وليّ بعده، إلا على مقامه ومرتبته، أعني ما ظهر وليّ بعده إلا وكان مظهراً من مظاهره، وخليفة من خلفائه؛ ولهذا لا تنسب خرقة المشايخ بأسرهم إلا إليه، ولا تسند طريقتهم إلا إلى خلفائه، كما مرّ تفصيله.

٨٠٤ - وأمّا النقل الوارد في هذا الباب من النبيّ صلى الله عليه وآله فقوله: «**بُعث عليّ مع كلّ نبيّ سرّاً ومعي جهراً**». ومعناه أنّ الولاية المطلقة التي هي مخصوصة بعليّ عليه السلام كانت سارية في جميع الأنبياء عليهم السلام سرّاً، كما كانت النبوّة المخصوصة بي سارية فيهم جهراً، حتى ظهرت أنا في عالم الشهادة جهراً وظهر عليّ معي كذلك. والولاية

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

المطلقة، المخصوصة بعليّ عليه السلام سرّاً، كما كانت النبوّة المخصوصة بي سارية فيهم جهراً، حتّى ظهرت أنا في عالم الشهادة جهراً وظهر عليّ معي كذلك. والولاية المطلقة، المخصوصة بعليّ عليه السلام هي التي أخبر عنها بقوله: **«كنتُ وليّاً وآدم بين الماء والطين»**. والنبوّة المطلقة، المخصوصة بي، هي التي أخبرتُ عنها بقولي: **«كنتُ نبيّاً وآدم بين الماء والطين»**. وهذا المعنى، بل هذا اللفظ، قد مرّ في كلام الشيخ ابن العربي - قدّس الله سرّه. والفرق بين الكلامين، أنّ هذا الكلام عنده من لسان عيسى، وعندنا من لسان عليّ. وسيظهر الحقّ، إن شاء الله.

٨٠٥ - وأمّا النقل الوارد منه أي من عليّ عليه السلام فقوله: **«إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ختم ألف نبيّ، وإنّي ختمتُ ألف وصيّ وإنّي كلّفت ما لم يكلّفوا»**. ذكر هذا الخبر أبو نعيم الحافظ الأصفهاني في كتابه. ومعلوم أنّ هذا الخبر حاكم بحقيته في الولاية، لأنّ كل وصيّ وليّ، بغير عكس. فحيث ثبتت ختميّة وصايته بالنصّ، ثبتت ختميّة ولايته. وحيث ثبتت ختميّة ولايته، ثبتت حقيّته، لأنّ الخاتم في الولاية هو الذي لا يكون بعده وليّ على مقامه، بل يكون الكلّ راجعاً إليه؛ وهذا الشخص كذلك؛ فيكون هو خاتماً للولاية مطلقاً.

٨٠٦ - وأيضاً ينبغي أن يكون الخاتم للولاية أعلم الخلق بالله، وأشرفهم بعد الختم للنبوّة المطلقة، كما أشار إليه الشيخ ابن العربي في «فتوحاته» في بيان المقام القطبيّ: «إنّ الكامل الذي أراد الله تعالى أن يكون قطباً للعالم وخليفة الله فيه، إذا وصل للعناصر مثلاً متنزّلاً في السفر الثالث، ينبغي أن يشاهد جميع ما يريد أن يدخل تحته في الوجود من الأفراد الإنسانية إلى يوم القيامة. وبذلك الشهود أيضاً لا يستحقّ المقام القطبيّ حتّى يعلم مراتبهم أيضاً». وعيسى عليه السلام ليس كذلك، لأنّ عليّاً عليه السلام أعلم منه وأشرف، بل عيسى محتاج إلى ولد من أولاده وخليفة من خلفائه، الذي هو المهدي عليه السلام كما مرّ.

٨٠٧ - وأمّا أعلميّته منه أي: عليّ أعلم من عيسى عليه السلام، فلأنّه عالم بعلوم القرآن وأسرار النبي صلى الله عليه وآله. والقرآن أعظم من الإنجيل، وأسرار النبيّ أعظم من أسرار عيسى. ويشهد بذلك أيضاً قوله: **«لو ثنيت لي وسادة، لجلستُ عليها وحكمتُ لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، ولأهل الزبور**

بزبورهم، ولأهل الفرقان بفرقانهم. والله! ما من آية نزلت في برّ أو بحر أو سهل أو جبل، ولا سماء ولا أرض ولا ليل ولا نهار، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وفي أيّ شيءٍ نزلت، وفي أيّ وقت نزلت».

٨٠٨ - وأمّا أشرفيّته منه، فلأنّه نفس النبيّ ﷺ بحكم القرآن والحديث، لقوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[١]، ولقول النبي ﷺ: «نفسك نفسي، ودمك دمي، ولحمك لحمي». والنبيّ أشرف من جميع الأنبياء، فيكون عليّ مساويه كذلك.

٨٠٩ - وأيضاً ورد في الخبر أنّ الله تعالى ساوى علياً عليه السلام في سورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾[٢] مع سبعة من الأنبياء عليهم السلام: مع يحيى بن زكريا عليه السلام بالبرّ، ومع إبراهيم عليه السلام بالوفاء، ومع الملائكة بالخوف، ومع نفسه بالسخاء، ومع موسى بن عمران عليه السلام بالاخلاص، ومع محمّد بن عبد الله ﷺ بالأمن، ومع أيّوب عليه السلام بالصبر.

فقال - عزّ وجلّ - عن يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾[٣].

وقال عن عليّ عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[٤].

وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾[٥].

وقال عن عليّ عليه السلام ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[٦].

وقال عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾[٧].

وقال عن عليّ عليه السلام: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[٨].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.
(٢) سورة الدهر، الآية: ١.
(٣) سورة مريم، الآية: ١٤.
(٤) سورة الدهر، الآية: ٥.
(٥) سورة النجم، الآيتان: ٣٧ - ٣٨.
(٦) سورة الدهر، الآية: ٦.
(٧) سورة النحل، الآية: ٥٢.
(٨) سورة الدهر، الآية: ٨.

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[١].

وقال عن عليّ عليه السلام: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[٢].

وقال عن محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾[٣].

وقال عن عليّ عليه السلام: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[٤].

وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٥].

وقال عن عليّ عليه السلام: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[٦].

٨١٠ - وقد ورد برواية غير هذه مساواته مع اثني عشر نبياً عليهم السلام.

فالأنبياء الخمسة الباقون هم قوله تعالى في حقّ آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾[٧].

وقوله في حقّ عليّ عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٨].

وقوله تعالى في حق نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[٩].

وقوله في حق عليّ عليه السلام: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١٠].

وقوله في حق داود عليه السلام: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾[١١].

وقوله في حق عليّ عليه السلام: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[١٢].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الدهر، الآية: ٩.
(٤) سورة الدهر، الآية: ١١.
(٥) سورة ص، الآية: ٤٣ - ٤٤.
(٦) سورة الدهر، الآية: ١٢.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.
(٨) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٩) سورة الإسراء، الآية: ٣.
(١٠) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(١١) سورة صَ: الآية: ٣٨.
(١٢) سورة النور، الآية: ٥٤.

وقوله في حق سليمان عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[(١)].

وقوله في حقّ عليّ عليه السلام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾[(٢)].

وقوله في حقّ عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[(٣)].

وقوله في حق علي عليه السلام: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[(٤)].

٨١١ - هذه مساواته مع الأنبياء والرسل. وأمّا تفضيله على أولي العزم من الرسل وغيرهم، فهو ما روى جعفر بن محمّد بن عليّ بن عبيد عن محمّد بن عمرو عن عبدالله بن الوليد السمان، قال: «**قال لي أبو جعفر يعني الإمام محمّد الباقر** عليه السلام: «**ما تقول الشيعة في عليّ وموسى وعيسى** عليهم السلام**؟ قلت: جعلت فداك! عن أيّ حال تسألني؟ قال: أسألك عن العلم. قلت: هو، والله! أعلم منهما. قال: يا عبدالله! أليسوا يقولون إنّ لعليّ** عليه السلام **ما لرسول الله** صلى الله عليه وآله**؟ قلت: نعم! قال: فخاصمهم فيه. إنّ الله - تبارك وتعالى - قال لموسى** عليه السلام ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[(٥)]. فعلمنا أنّه لم يكتب لموسى كلّ شيء.

وقال تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾[(٦)]. فعلمنا أنه لم يبيّن له الأمر كلّه.

وقال تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وآله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[(٧)].

٨١٢ - وروى عليّ بن محمّد بن سعيد، عن حمدان بن سليمان النيشابوري، عن عبد الله بن محمد اليماني، عن مسلم بن الحجاج، عن يونس، عن الحسين بن علوان، عن أبي عبد الله يعني الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الله خلق أولي**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الدهر، الآية: ٢٠.

(٣) سورة مريم، الآية: ٣١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

(٦) سورة الزخرف، الآية: ٦٣.

(٧) سورة النحل، الآية: ٩١.

العزم من الرسل، وفضّلهم بالعلم، وأورثنا علمهم، وفضّلنا عليهم، وعلم رسول الله ما لم يعلموا، وعلمنا علم رسول الله وعلمهم».

٨١٣ - وروى إبراهيم بن إسحاق، عن عبد الله بن عبد الله بن حماد، عن شرف التمار، قال: **«كنّا عند أبي عبد الله يعني الإمام جعفر الصادق عليه السلام ونحن جماعة في الحجر. فقال: «وربّ هذه البنية! وربّ هذه الكعبة! - ثلاث مرات - لو كنتُ بين موسى والخضر لأخبرتُهما أنّي أعلم منهما ولانبأتُهما بما ليس في أيديهما»**. وأمثال ذلك كثيرة، نكتفي منها بهذا المقدار.

هذا آخر النقليّات في هذا الباب. والله أعلم بالصواب.

٨١٤ - وإن كان بالعقل، فالعقل الصحيح يحكم بأنّ هذا الشخص، الموصوف بهذه الأوصاف، أنسب وأولى بالختميّة من عيسى عليه السلام. ومع ذلك فمعلوم أنّ الشيخ حكم بأنّ النبوّة المطلقة والولاية المطلقة مخصوصتان بالحقيقة المحمّديّة، لأنّ للحقيقة المحمّديّة اعتبارين: اعتبار الظاهر وهو المخصوص بالنبوّة، واعتبار الباطن وهو المخصوص بالولاية. وذكر أنّ هذه الولاية حاصلة للختم بالإرث الحقيقيّ. وهو قوله: «فخاتم الرسل، من حيث ولايته، نسبته مع الختم للولاية نسبة الأنبياء والرسل معه؛ فإنّه: الوليّ والرسول النبيّ؛ وخاتم الأولياء هو: الوليّ الوارث، الآخذ عن الأصل، المشاهد للمراتب؛ وهو حسنة من حسنات خاتم الرسل، محمّد صلى الله عليه وآله.

٨١٥ - فنقول: خصوصيّة عيسى عليه السلام بهذا المقام (أي مقام الختميّة المطلقة) لا يخلو من وجهين: إمّا أن يكون من حيث نسبته المعنويّة مع النبي صلى الله عليه وآله أو من حيث نسبته الصوريّة معه؛ وعلى كلا التقديرين عليّ عليه السلام أولى به وأنسب، لأنّ نسبته المعنويّة مع النبيّ معلومة لكلّ واحد، ومعلوم أنّها أكثر من عيسى عليه السلام. وكذلك نسبته الصوريّة. ومع ذلك، فنحن نستدلّ عليهما بكلام النبيّ صلى الله عليه وآله وكلام الشيخ نفسه وغير ذلك، ليعرف بالتحقيق أنّه كذلك.

٨١٦ - أمّا نسبته المعنويّة، فقد ورد عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«إنّ الله تعالى خلق روحي وروح عليّ قبل أن يخلق الخلق بما شاء. فلمّا خلق الله تعالى آدم، أودع أرواحنا صلبه. فلم يزل ينقلها من صلب طاهر إلى رحم طاهر. فلم يصبها دنس**

الشرك وغمر الجاهلية، حتّى أقرّها الله تعالى في صلب عبد المطّلب. ثمّ أخرجها من صلبه، فقسمها قسمين: فجعل روحي في صلب عبد الله، وروح عليّ في صلب أبي طالب. فعليّ منّي، وأنا منه؛ نفسه كنفسي، وطاعته كطاعتي؛ لا يحبّني من يبغضه، ولا يبغضني من يحبّه».

٨١٧ - وذكر الأخطب الخوارزمي - قدّس الله تعالى روحه - في الفصل الرابع عشر من كتابه بإسناد طويل: أنّه لمّا قدم عليّ على رسول الله بفتح خيبر، قال رسول الله ﷺ: **«لولا أن تقول فيك طائفة من أُمّتي ما قالت النصارى في المسيح، لقلتُ اليوم فيك مقالاً: لا تمرّ بملأ إلا أخذوا التراب من تحت قدميك، ومن فضل طهورك يستشفون به. ولكن حسبك أن تكون منّي وأنا منك. ترثني وأرثك. وأنّك منّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنّه لا نبيّ بعدي. وأنّك تبرىء ذمّتي، وتقاتل على سنّتي. وإنّك غداً في الآخرة أقرب الناس منّي. وأنّك أوّل من يرد عليّ الحوض، وأوّل من يكسي معي، وأوّل داخل في الجنّة من أُمّتي. وإنّ شيعتك على منابر من نور. وإنّ الحقّ على لسانك، وفي قلبك، وبين عينيك».**

٨١٨ - وذكر أيضاً في الفصل المذكور فقال: **«قال رسول ﷺ: كنت، أنا وعليّ، نوراً بين يدي الله تعالى من قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام. فلمّا خلق الله تعالى آدم، سلك ذلك النور في صلبه. فلم يزل الله تعالى ينقله من صلب إلى صلب، حتّى أقرّه في صلب عبد المطّلب. ثمّ أخرجه من صلب عبد المطّلب، فقسمه قسمين بنصفين: فجعل نوري في صلب عبد الله، ونور عليّ في صلب أبي طالب. فعليّ منّي وأنا منه، لحمه لحمي، ودمه دمي. فمن أحبّه فبحبّي أحبّه، ومن أبغضه فببغضي أبغضه. - الحديث».**

٨١٩ - وجميع ذلك يشهد بنسبته المعنويّة مع النبيّ ﷺ وحقيقته التي هي روحه في الأزل. وليس لعيسى عليه السلام هذا المقام، ولا لغيره من الأنبياء والرسل.

٨٢٠ - وذكر هذا المعنى بعينه الشيخ - قدّس الله تعالى سرّه - في «فتوحاته» في الباب السادس من المجلّد الأوّل أو الثاني، في «معرفة بدء الخلق الروحانيّ» ومن هو أوّل موجود فيه؟ وممّ وجد؟ وفيم وجد؟ وعلى أيّ مثال وجد؟ ولمَ وجد؟ وما غايته؟ إلى غير ذلك. وهو قوله: **«كان الله ولا شيء معه»**. ثمّ أدرج فيه أي في هذا

الخبر) «وهو الآن على ما كان، لم يرجع إليه تعالى من إيجاده العالم صفة لم يكن عليها، بل كان موصوفاً لنفسه، ومسمّىً قبل خلقه بالأسماء التي يدعوه بها خلقه. فلمّا أراد وجود العالم وبدءه على حدّ ما علمه بعلمه بنفسه، انفعل عن تلك الإرادة المقدّسة بضرب تجلّ من تجلّيات التنزيه إلى الحقيقة الكليّة. فانفعل عنها حقيقة تسمّى: الهباء، بمنزلة طرح البنّاء الجصّ، ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصور. وهذا أوّل موجود، وقد ذكره عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه - وسهل بن عبدالله التستري - رحمه الله - وغيرهما من أهل التحقيق والكشف والوجود».

٨٢١ - «ثمّ أنّه سبحانه تجلّى بنوره إلى ذلك الهباء، ويسمّيه أصحاب الأفكار: الهيولى الكليّ، والعالم فيه بالقوّة والصلاحيّة. فقبل منه كلّ شيءٍ في ذلك الهباء على حسب قوّته استعداده، كما يقبل زوايا البيت نور السراج، وعلى قدر قربه من ذلك النور يشتدّ ضوؤه وقبوله. قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[1] فشبه نوره بالمصباح. فلم يكن أقرب إليه قبولاً في ذلك الهباء إلا حقيقة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم المسمّاة: بالعقل الأوّل. فكان سيّد العالم بأسره، وأوّل ظاهر في الوجود.

فكان وجوده من ذلك النور الإلٰهيّ، ومن الهباء، ومن الحقيقة الكليّة. وفي الهباء وجد عينه وعين العالم. وأقرب الناس إليه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأسرار الأنبياء أجمعين». هذا آخره.

٨٢٢ - وهذا الكلام قاطع وبرهان واضح على ختميّته للولاية المطلقة، حيث تقرّر أنّ للحقيقة المحمّديّة اعتبارين: اعتبار الظاهر واعتبار الباطن. والباطن يتعلّق: بالوليّ الختم، الذي يكون أقرب الناس إليه، ويكون حسنة من حسناته، لأنّ غير عليّ عليه السلام ليس له هذا القرب ولا هذه الخصوصيّة. ولاسيما أنه ورد من النبيّ إشارات دالّة عليها، مثل قوله: **«أنا وعليّ من نور واحد»** **«أنا وعليّ من شجرة واحدة»** وغير ذلك من الإشارات المتقدّم ذكرها، الدالّة على أنّهما من نور واحد من حقيقة واحدة.

٨٢٣ - وكذلك قول عليّ عليه السلام: **«أنا النقطة تحت الباء»** وفي خطبة البيان: «أنا

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

الأوّل وأنا الآخر، وأنا الظاهر وأنا الباطن، وأنا وجه الله وأنا جنب الله» إلى آخره كما عرفته، لأنّ كلّ ذلك يدلّ على أنّ حقيقته وحقيقة النبيّ حقيقة واحدة. وهذا هو المطلوب من هذا البحث.

٨٢٤ - وذكر بعضَ هذا النقل القيصريّ في «مقدّماته»: لشرحه «الفصوص»، في معرض هذا البحث. وعن كلّ واحد من الأئمّة ورد مثل هذا الكلام، كقولهم مثلاً: **«نحن جهة الله، ونحن باب الله، ونحن لسان الله، ونحن وجه الله، ونحن عين الله في خلقه، ونحن ولاة أمرالله تعالى في عباده»**. وبعبارة أُخرى: **«نحن ولاة أمر الله، وخزنة علم الله، وعترة وحي الله، وأهل دين الله، وعلينا نزل الكتاب وبنا عبدالله»** و **«لولانا ما عرف الله»** و **«نحن ورثة نبيّ الله وعترته»**.

٨٢٥ - وأمّا النسبة الصوريّة: فهي أيضاً أظهر من الشمس، وقد يعرف تحقيقها من الأخبار المذكورة والإشارات المنقولة، بعد تحقيقها من حيث النسب والقرابة، وأنّه ابن عمّه وصهره؛ ومن حيث الحسب والفضيلة، وأنّه وارث علمه، وخازن سرّه، وخليفته على أمره، وإمامه في أُمّته. وكذلك: أولاده المعصومون عليهم السلام لأنّ كلّ واحد منهم إمام منصوص من قبله وقبل الله تعالى، معصوم بنفسه، كما تقرّر قبل ذلك في الأصل الأوّل عقلاً ونقلاً.

٨٢٦ - وبالحقيقة هم الموسومون بالأئمّة والورثة في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾[2] الآية.

وهذا البحث، أي بحث نسبته الصوريّة مع النبيّ صلى الله عليه وآله لا يحتاج إلى أكثر من هذا، لأنّها من شهرتها مستغنية عن التطويل والأطناب.

٨٢٧ - والغرض منه أنّ العقل الصحيح، بحكم نسبته المعنويّة والصوريّة

---

(١) سورة القصص، الآية: ٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٤.

وفضائله الإرثيّة والكسبيّة، يحكم بأنّ عليّاً، أمير المؤمنين عليه السلام أنسب بالختميّة من عيسى عليه السلام كما مرّ ذكره مراراً.

وكلّ من كابر ذلك كابر عقله، وخرج بذلك عن دائرة أهل العقل وأرباب العلم، وعن استحقاق الخطاب بمثل هذا الكلام. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾(١).

٨٢٨ - وإن كان بالكشف، فكشف غيره يحكم بعكس ذلك، أعني كشف الشيخ ومشايخه المذكورين من أنّ عيسى أولى وأنسب بالختميّة بالولاية المطلقة، فكشف لنا ولغيرنا من المشايخ بأنّ عليّاً أولى وأنسب بهذه المرتبة. ومع ذلك، فلو تأملتَ، لعرفت أنّ كشف الشيخ أيضاً يشهد بذلك، لأنّه قال: «فخاتم الرسل، من حيث ولايته، نسبته مع الختم للولاية نسبة الأنبياء والرسل معه؛ فإنّه الوليّ والرسول النبيّ؛ وخاتم الأولياء هو الوليّ الوارث، الآخذ عن الأصل، المشاهد للمراتب؛ وهو حسنة من حسنات خاتم الرسل محمّد صلى الله عليه وآله».

٨٢٩ - فمعناه على ما شرحه الشرّاح، هو أنّه يقول: «نسبة خاتم الرسل الذي هو نبيّنا صلى الله عليه وآله إلى خاتم الأولياء نسبة الأنبياء والرسل إليه» يعني: كما أنّ الأنبياء والرسل محتاجون إلى خاتم الرسل في أخذ النبوّة والرسالة منه، فكذلك خاتم الرسل محتاج إلى خاتم الأولياء في أخذ النبوّة والرسالة منه، لأنّ خاتم الأولياء يأخذ من الله بلا واسطة، ويفيض على غيره بواسطته، كما هو يأخذ منه ويفيض على غيره.

وقوله: «خاتم الأولياء هو الوارث، الآخذ عن الأصل» تعليل لذلك، يعني علّة احتياج خاتم الرسل إليه لأجل أنّه آخذٌ عن الأصل، مشاهد للمراتب الإلّهيّة كلّها، وليس خاتم الرسل كذلك، كما أشار إليه قبل ذلك وقال: «لأنّه يرى الأمر على ما هو عليه» فلا بدّ من أن يراه هكذا. وقال: «وسبب ذلك أيضاً، أنّه أخذ من المعدن الذي يأخذ الملك الذي يوحي به إلى الرسول».

وقال عقيبه: «فإن فهمتَ ما أشرتُ، فقد حصل لك العلم النافع».

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

٨٣٠ - فنقول: تخصيص هذا المقام بعيسى عليه السلام لا يجوز من وجهين: الأوّل أنّه ليس «حسنة من حسنات خاتم الرسل» التي هي «الدرجة» أو «المظهر» كما شرحه الشارحون، لأنّ خصوصيّة درجته ومرتبته ومظهريّته على هذا المعنى بأمير المؤمنين أنسبُ، كما عرفته عقلاً ونقلاً، لأنّ هذا الكلام لا يستقيم معناه إلا إذا تصوّرنا أنّ حقيقة خاتم الرسل وحقيقة خاتم الأولياء حقيقة واحدة، معتبرة من حيث الظاهر والباطن، المخصوصةُ إحداهما بالنبوّة والأخرى بالولاية، كما مرّ. وإلا فيلزم ترجيح عيسى على نبيّنا، وهذا غير جائز.

٨٣١ - وإن قلت: فالبنسبة إلى عليّ عليه السلام يلزم هذا أي ترجيحه على النبي محمّد صلى الله عليه وآله - قلت: نعم! كان يلزم ذلك لو تصوّرنا المغايرة بين حقيقتيهما. فأمّا مع عدم المغايرة، فلا يلزم ذلك.

٨٣٢ - وإن قلتَ: جميع الأنبياء والرسل درجة من درجاته ومظهر من مظاهره، وليس هذا مخصوصاً بعليّ عليه السلام، - قلتُ: وإذا كذلك، فلمَ خصّه الشيخ الأكبر بعيسى دون جميع الأنبياء والرسل؟ والحال أنّ إبراهيم بعد نبيّنا أعظم من جميع الأنبياء والرسل مرتبةً ومقاماً، وهذا المقام به كان أنسب وبحاله كان أولى، لأنّ الله ما أمر النبيّ إلا باتباعه واتباع طريقته والأخذ من مقامه، كما هو مذكور في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١) وكقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

٨٣٣ - والوجه الثاني: أنّ عيسى ليس من الذين يرون الأمر على ما هو عليه في نفس الأمر، لأنّ هذه الرؤية هي مرتبة قطب الأقطاب لا غير، وهي خاصّة بنبيّنا والذي يكون على مقامه من الأولياء، مثل: أمير المؤمنين وأولاده، كما ثبت عند أرباب التحقيق، عقلاً ونقلاً وكشفاً. وأخبركلّ واحد منهم أي من الأئمّة الأطهار عنه أي عن مقام رؤية الأمر على ما هو عليه في نفسه، كقول أمير المؤمنين مثلاً: «لو **كشفت الغطاء ما ازددتُ يقيناً**».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٤.

وكقوله: «**سلوني عمّا دون العرش، فإني بطرق السماء أعلم من طرق الأرض**».

وكقوله: «**والله! لو شئتُ أن أخبر كلّ رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه، لفعلتُ؛ ولكن أخاف أن يكفروا فيّ برسول الله**».

وكقول رسول الله فيهم بأجمعهم: «**من سرّه أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويدخل جنّة ربّي، جنّة عدن، قصبة من قصبانه غرسها بيده فقال لها: كوني فكانت، - فليتولّ عليّاً والأوصياء من بعدي ويسلم لفضلهم فإنّهم الهداة، المؤمنون، المرضيّون. أعطاهم الله فهمي وعلمي، فهم عترتي، من دمي ولحمي. أشكو إلى الله تعالى عدوهم من أُمّتي، المنكرين لفضلهم، القاطعين فيهم صلتي. فوالله! ليقبلن إليّ، لا تنالهم شفاعتي!**».

٨٣٤ - وبرواية أخرى: «**من سرّه أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويدخل الجنّة التي وعدني ربّي، جنّة عدن، قصبة من قصبانه، غرسها ربّي بيده، ثمّ قال لها: كوني فتكون، - فليتولّ عليّاً من بعدي والأوصياء من ذريّتي. أعطاهم الله تعالى فهمي وعلمي. فيا للهِ! للمنكرين لفضلهم ليقبلن إليّ، لا تنالهم شفاعتي**». وأمثال ذلك كثيرة. والمراد منه، أنه «**أعطاهم الله فهمي وعلمي**» يعني: هم على مقامي في استحقاقي الخلافة والإمامة.

٨٣٥ - وقد أشار إلى المعنيين المذكورين، أي عدم ترجيح خاتم الأولياء على خاتم الرسل بسبب ذلك - أي بسبب أنّ خاتم الرسل ما يأخذ الفيض إلا منه[(١)] - وعدم تخصيص هذه المرتبة بحقيقة غير خاتم الأولياء الذي هو حسنة من حسنات خاتم الرسل، الشيخُ الكامل شرف الدين القيصري في شرحه للفصوص له، الأوّل، وهو قوله: «فخاتم الرسل ما رأى الحقّ إلا من مرتبة ولاية نفسه، لا من مرتبة غيره، فلا يلزم النقص. ومثاله: الخازن إذا أعطى بأمر السلطان للحواشي من الخزينة شيئاً وللسلطان، فالسلطان أخذ منه كغيره من الحواشي ولا نقص».

وهذا أيضاً دالّ على خصوصيّة الولاية والختميّة بعليّ عليه السلام لأنّ الخزينة هي

---

(١) إلا منه: وإلى هذا ذهب بعض أساطين الحكمة الإلهيين منهم الشيخ أبو علي بن سينا وغيره كثير من المتقدمين. (بقلم الناسخ الأصلي).

الحقائق الإلهيّة المخفيّة في باطن النبوّة الكليّة، المخصوصة بنبيّنا ﷺ. والخازن هو الذي يكون على مقام باطنه، الذي هوالولاية الكليّة، وهو عليّ عليه السلام حيث إنّ حقيقتهما واحدة.

٨٣٦ - وأمّا الثاني[1] فهو قوله: «ومن أمعن النظر في جواز كون الملك واسطة بين الحقّ والأنبياء، لا يصعب عليه قبول كون الخاتم للولاية - الذي هو مظهر باطن الاسم الجامع وأعلى مرتبة من الملائكة - واسطةً بينهم وبين الحقّ».

قلنا: هذا أيضاً صحيح، لكن فيه دقيقة، وهي أنّ الملك واسطة بين الحقّ والأنبياء في عالم الصورة ومقام البشريّة. وإلا ففي عالم الحقيقة ومقام الولاية، فلا ملك هناك ولا جبرائيل، لقول النبي: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل**». ولقول جبرائيل: «**لو دنوتُ أنملة لاحترقتُ**».

٨٣٧ - فالأدب فيه أن يقال: إنّ باطن هذا النبيّ، الذي هو مقام ولايته، يأخذ الفيض من الله تعالى بلا واسطة غيره، ويفيض على ظاهره الذي هو مقام النبوّة. ولكن مقام ولايته، في عالم المظاهر، مخصوص بخاتم الولاية، الذي هو مخلوق من نوره الخاصّ، الذي هو روحه وحقيقته، لقوله: «**أنا وعليّ من نور واحد**». وعلى هذا التقدير لا مدخل لعيسى عليه السلام في هذا المقام.

٨٣٨ - وقد أشار إلى هذا المعنى الشيخ في «فتوحاته» في آخر الباب الرابع عشر، وذكره القيصري في شرحه للفصوص؛ ولكن أخطأ الشيخ الأكبر في تخصيصه أيضاً بعيسى، وهو قوله: «ولهذا الروح المحمّديّ مظاهر في العالم، وأكمل مظاهره في قطب الزمان وفي ختم الولاية المحمّديّة، وختم الولاية العامّة الذي هو عيسى» إلى آخره.

وأيضاً قوله في الفصوص، الذي تقدّم ذكره: «فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع، فذلك لا يقدح

---

(١) وأما الثاني: لاسيما مع ورود الأحاديث الصحيحة الكثيرة من سيد الرسل العلي: يا علي إن الملائكة المقربة لخدامنا وخدام شيعتنا (بقلم الناسخ الأصلي).

في مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه، فإنّه من وجه يكون أنزل، كما أنّه من وجه يكون أعلى» يشهد بذلك، لأنه قال: «وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع». وعيسى ليس تابعاً لنبيّنا، الذي هو خاتم الرسل لما جاء به من الأحكام؛ بل التابع له في هذا الباب على ما ينبغي، هو عليّ مع كماله في الولاية الحاصلة له من النبيّ بالإرث الحقيقيّ والإرث الصوريّ وغير ذلك.

٨٣٩ - وإن قلتَ: يحتمل أنّه أراد بذلك أنّ عيسى إذا نزل يكون تابعاً لشريعته، كما ذكر في «الفتوحات»، - قلتُ: هذا أوّلاً غير معلوم؛ ومع تقديره، فهو تجويز بعيد وتقدير على سبيل المجاز؛ ومع وجود الحقيقة لا يجوز الحكم بالمجاز. ومع ذلك، فكلامه في «الفصّ العزيريّ» يحكم بخلاف ذلك، لأنّه فيه أنّ النبوّة لمّا انسدّ طريقها، وكذلك الرسالة، وجب أن تكون الولاية باقية والأولياء باقون عناية من الله لعباده، ليقوموا باجراء أحكام الشريعة، وارشاد العباد إلى الله تعالى. وقال: «**هؤلاء هم العلماء الورثة**». وعلى هذا التقدير، ما يحتاج الشرع إلى ظهور عيسى وبيان أحكامه من طريق نبيّنا، لأنّها مقرّرة عند العلماء الورثة.

٨٤٠ - وقال أيضاً: «وهذا يكون في دولة المهدي». ومعلوم أنّ المهدي ليس بخارج من «الورثة» ولا من «العلماء». فلا يكون محتاجاً إلى عيسى[1] في اظهار شرع جدّه، كأجداده وآبائه عليهم السلام؛ فإنّهم، في بيان شرع النبيّ واظهاره، ما كانوا يحتاجون إلى أحد أصلاً.

٨٤١ - ومثل هذا الكلام بعيد عن مثل هذا الشخص. وكيف يجوز من مثله سلوك طريق التعصّب ورعاية قاعدة المذهب إلى هذه الغاية؟ أعني أن يكون عارفاً بالحقيقة أنّ هذا المقام هو مقام عليّ ومنزلته، وأنّه قطب الأقطاب والكمّل، وليس يوجد أعلى منه في الأولياء، وهو ينسب هذا المقام إلى غيره، ولا يذكره بشيء أصلاً! بل يذكر، في معرض الاستشهاد، الشيخين أي أبا بكر وعمر ويعدّهم من الأولياء، ولا يعدّه ولا أورده منهم! مع أنّه يدّعي أنّ هذا الكتاب أي فصوص الحكم

---

(١) عيسى: أقول: والشيخ اطلق عيسى وأراد من نفخ فيه الروح ورباه ونطق في المهد عن لسانه (بالأصل).

قد أعطاه إيّاه النبيّ في النوم وهو ينقل عنه بلا زيادة ونقصان! وحاشى أن يأمر النبيّ بأمثال ذلك![١].

٨٤٢ - والحقّ أنّه يصدق في هذا المقام على الشيخ ما قال في حقّ النبيّ وغيره في «فصوصه»، في معرض قوله ﷺ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**» و«**قصة تأبير النخل**» وغير ذلك. وهو قوله: «فما يلزم الكامل أن يكون له التقدّم في كلّ شيء وكلّ مرتبة. وإنّما نظر الرجال إلى التقدّم في رتب العلم بالله: هنالك مطلبهم! وأمّا حوادث الأكوان، فلا تعلّق لخواطرهم بها. فتحقّق ما ذكرناه» إلى آخره.

- لأنّ حاله في هذا المقام بعينه كحال النبيّ في مقام «تأبير النخل». وحال غيره من الأولياء في مقاماتهم. وكذلك حال موسى مع الخضر. فإنّ كمال كلّ شخص منحصر في مرتبته، ولا يمكن أن يتعدّى طوره نبيّاً كان أو وليّاً أو رسولاً أو وصيّاً. وهذه قاعدة مقرّرة عند أرباب التحقيق، بحيث لا خلاف فيها.

٨٤٣ - وبالجملة قوله في «الفصّ العزيريّ» وهو أنّه قال: «واعلم أنّ الولاية هي الفلك المحيط العامّ، ولهذا لم تنقطع، ولها الابتناء العامّ. وأمّا نبوّة التشريع فمنقطعة، وفي محمّد ﷺ قد انقطعت و «**لا نبيّ بعده**» يعني مشرّعاً أو مشرَّعاً له «**ولا رسول**» وهو الشرع.

وهذا الحديث قصم ظهور أولياء الله تعالى، لأنّه يتضمّن انقطاع ذوق العبوديّة الكاملة التامّة، فلا يطلق عليهم اسمها الخاصّ بها. فإنّ العبد يريد أن يشارك سيّده - وهو الله - في اسم، والله لم يسمَّ بنبيّ ولا برسولٍ، وسُمّي بالوليّ، واتّصف بهذا الاسم قال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٢] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[٣]. وهذا الاسم باقٍ، جار على عباد الله دنيا وآخرة.

فلم يبق اسم يختصّ به العبد دون الحقّ بانقطاع النبوّة والرسالة».

---

(١) ذلك: ويكون قوله في علي مثل ما ذكرناه قبل ذلك استشهاداً، يكون مقامه ما قررناه أيضاً عقلاً ونقلاً.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٧.

٨٤٤ - «إلا أنّ الله لطف بعباده، فأبقى لهم النبوّة العامّة، التي لا تشريع فيها، وأبقى لهم التشريع في الاجتهاد في ثبوت الأحكام، وأبقى لهم الوراثة في التشريع، فقال: «**العلماء ورثة الأنبياء**». وما ثمّ ميراث في ذلك إلا فيما اجتهدوا فيه من الأحكام فشرَّعوه. - فإذا رأيت النبيّ يتكلّم بكلام خارج عن التشريع، فمن حيث هو وليّ وعارف. ولهذا مقامه - من حيث هو عالم ووليّ - أتمّ وأكمل من حيث هو رسول وذو تشريع وشرع».

٨٤٥ - «فإذا سمعتَ أحداً من أهل الله يقول أو ينقل إليك عنه أنّه قال: «الولاية أعلى من النبوّة» فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه. أو يقول: إنّ الوليّ فوق النبيّ والرسول، فإنّه يعني بذلك في شخص واحد، وهو أنّ الرسول، من حيث أنّه وليّ، أتمّ منه من حيث أنّه نبيّ ورسول. لا أنّ الوليّ التابع له أعلى منه. فإنّ التابع لا يدرك المتبوع أبداً فيما هو تابع له فيه، إذ لو أدركه، لم يكن تابعاً، فافهم». هذا آخره.

٨٤٦ - ومراده من مجموع ذلك، أنّ النبوّة والرسالة التشريعيّة منقطعتان، والولاية غير منقطعة، وهي باقية أبداً، وهي أتمّ دائرة منهما، وهي، من حيث هي هي، مطلقة عامّة. وختميّتها في هذه النشأة مخصوصة بعيسى ومرتبته. وليس مرادنا هذا، بل مرادنا أنه إذا قال: «وأبقى لهم النبوّة العامّة» و «أبقى لهم التشريع في الاجتهاد» و «أبقى لهم الوراثة في التشريع» فما بقي فائدة في نزول عيسى عليه السلام وبيانه أحكام شرع نبيّنا، مع وجود هؤلاء الذين كلّ واحد منهم كنبيّ الله، لقوله: «**علماء أُمّتي كأنبياء بني إسرائيل**»، ولقوله: «**العلماء ورثة الأنبياء**» وإذا لم يكن في نزوله فائدة، لاستغناء الشرع وأهله عنه، فلا يكون نزوله إلا عبثاً.

لا سيّما مع وجود المهدي عليه السلام الذي هو الوارث الحقيقي والوليّ الكامل الأزليّ المحمّديّ، كما عرفته وستعرفه، إن شاء الله تعالى. فأمّا إن كان في نزوله فائدة بالنسبة إليه، التي هي تحصيل كمالاته من المهدي عليه السلام كما قلناه، فهذا جائز؛ لكن ليس هذا زعم الشيخ وأصحابه.

٨٤٧ - ومن جملة التعصّب البارد في هذا المقام، هو الذي ظهر من القيصري في شرحه قوله: «وأبقى لهم الوراثة في التشريع» - مسنداً إليه وإلى اعتقاده بأنّه قال: «هؤلاء الورثة هم الأئمة الأربعة» وجعل الورثة على قسمين: قسم يتعلّق بالظاهر والشرع، وقال: «هؤلاء علماء الظاهر، القائمون بأحكام الشريعة».

وقسم يتعلّق بالباطن، وقال: «هؤلاء علماء الباطن، القائمون بأحكام الحقيقة التي هي الولاية».

وبالجملة جعلهم من الأولياء الكبار والورثة الحقيقيّة، وما التفت إلى الأئمّة المعصومين من ذريّته، الذين ثبتت وراثتهم وولايتهم عند الخاصّ والعامّ، عقلاً ونقلاً. نعوذ بالله من سيئات العقل ومزلة الأقدام!.

٨٤٨ - والحال أنّ هؤلاء الأئمّة ما كانوا يدعون لأنفسهم هذا المقام، بل كانوا ينكرون على القائلين به. غاية ما في الباب أنّهم كانوا يدعون ورثة الأنبياء من حيث الشريعة وأحكامها.

وهذا أيضاً ما كان صحيحاً، لأنّ علوم الورثة هي التي تحصل للشخص بالإرث، أي بالكشف والإلهام من الله تعالى دفعةً أو تدريجاً، بلا كسب ولا تعمّل - كما تقرّر في الأصل الأوّل، وسيجيء برهانه في هذا الأصل في القاعدة الثانية - لا التي تحصل بالتعلّم والتعليم في سنين كثيرة واجتهاد تامّ، كعلم الأئمّة الأربعة وغيرهم، لأنّ الأئمّة الأربعة أوّلهم أبو حنيفة، ومشهور أنّه كان تلميذاً لمولانا جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام وما أخذ منه إلا علم ظاهر الشريعة؛ ومع ذلك، خالفه فيها، وكان يقضي برأيه وقياسه، حتّى جرى بينهما ما جرى.

٨٤٩ - ومن جملة ما روى عنه، هو أنّه قال: «جئتُ إلى حجّام يمنيّ ليحلق رأسي. فقال لي: أدن ميامنك، واستقبل القبلة، وسم الله تعالى. فتعلّمت منه ثلاث خصال لم تكن عندي. فقلت له: مملوك أنت، أم حرّ؟ فقال: مملوك. قلت: لمن؟ قال: لجعفر بن محمّد الصادق عليه السلام. قلت: أشاهد أم غائب؟ قال: شاهد. فصرتُ إلى بابه واستأذنت عليه، فحجبني. وجاء قوم من أهل الكوفة فاستأذنوا، فأذن لهم، فدخلت معهم. فلمّا صرت عنده، قلت له: يا ابن رسول الله! لو أرسلتَ إلى أهل الكوفة، فنهيتهم أن يشتموا أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله. فإنّي تركت بها أكثر من عشرة ألف يشتمونهم. فقال: لا يقبلون منّي. فقلت: ومن لا يقبل منك، أنت ابن رسول الله؟ فقال: أنت أوّل من لم يقبل منّي: دخلت داري بغير إذني، وجلست بغير أمري، وتكلّمت بغير اذني!».

٨٥٠ - «وقد بلغني أنّك تقول بالقياس. فقلت: نعم! به أقول. قال: ويحك، يا نعمان: أول من قاس إبليس، حين أمره بالسجود لآدم، فأبى وقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(١) أيّما أكبر، يا نعمان:؟ القتل أو الزنا؟ قلت: القتل.

قال: فلمَ جعل الله في القتل شاهدين وفي الزنا أربعة؟ أينقاس لك هذا؟ قلت: لا. قال: فأيّما أكبر: البول أو المني؟ قلت: البول. قال: فلم أمر الله في البول بالوضوء، وفي المني بالغسل؟ أينقاس لك هذا؟ قلت: لا. قال: فأيّما أكبر: الصلاة أو الصوم؟ قلت: الصلاة. قال: فلم وجب على الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ أينقاس لك هذا؟ قلت: لا».

٨٥١ - «قال: فأيّما أضعف: المرأة أم الرجل؟ قلت: المرأة. قال: فلمَ جعل الله في الميراث للرجل سهمين وللمرأة سهماً؟ أينقاس لك هذا؟ قلت: لا، قال: فلمَ حكم الله فيمن سرق عشرة دراهم القطع، وإذا قطع الرجل يد رجل فعليه ديتها خمسة آلاف درهم؟ أينقاس لك هذا؟ قلت: لا. قال: وقد بلغني أنّك تفسّر آية من كتاب الله - عزّ وجلّ - وهي: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾(٢) أنّه الطعام الطيّب والماء البارد في اليوم الصائف. قلت: نعم! قال: أو دعاك رجل وأطعمك طعاماً طيّباً، وسقاك ماءً بارد، ثمّ أمتنّ عليك بها، ما كنت تنسبه؟ قلت: إلى البخل، قال: أفتبخّل الله تعالى؟ قلت: فما هو؟ قال: حبّنا أهل البيت». هذا آخره.

٨٥٢ - فشخص يكون كلامه مع قطب من الأقطاب في زمان وجوده، هذا، يعدّه العارف من الأولياء الكبار؟ والله! هذا غبن عظيم. وبالحقيقة، إنّ تنفرّ الشيعة وغيرهم من الصوفيّة ليس إلا بأمثال هذه المهملات.

٨٥٣ - وأيضاً لولا مخافة التطويل لبيّنا من أصولهم وفروعهم أشياء عرفوا بها أنّهم في أيّ مقام، ومع ذلك فالسكوت عنها أولى.

٨٥٤ - والغرض أنّ علمه أي علم أبي حنيفة كان كسبيّاً لا ارثيّاً. هذا شأن أحد الأئمّة الأربعة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١.

(٢) سورة التكاثر، الآية: ٨.

وأمّا الثاني: فهو مالك. وقد كان تلميذاً لربيعة الرأي، وربيعة تلميذ عكرمة، وعكرمة تلميذ عبد الله بن عباس.

وأمّا الثالث: فهو الشافعي وقد كان تلميذاً: لمالك.

وأمّا الرابع: فهو أحمد بن حنبل. وقد كان تلميذاً للشافعيّ. وما كان لهم غير علم الظاهر والأحكام الفقهيّة المتعلّقة بالشرع. وما كانوا يدعون غير هذا.

٨٥٥ - فأمّا العلماء الورثة، الذين كانوا وارثين بالحقيقة، وما كانت علومهم كسبيّة، بل كانت إرثيّة، وكانوا من الأولياء الكبار في دين نبيّنا ﷺ وكانوا قائمين بأحكام الشريعة والطريقة والحقيقة، وإلى الآن هم موجودون وقائمون بها، فهم الأئمّة المعصومون من أولاد عليّ عليه السلام لا غير، كما عرفته قبل ذلك في الأصل الأوّل، وستعرفه أيضاً. وفيهم وردت، باتّفاق أكثر المفسّرين، الآية المذكورة: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1]. وكذلك الآية المذكورة عقيبها: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[2] الآية. وكذلك: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[3] الآية.

٨٥٦ - وأمّا قولهم فيه، فهو ما روي عن مولانا عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنّه قال: «**إنّ محمّداً ﷺ كان أمين الله في أرضه. فلمّا قبض محمّد، كنّا - أهل البيت - ورثته، فنحن أمناء الله تعالى في أرضه. عندنا علم المنايا والبلايا وأنساب العرب ومولد الإسلام. وإنّا لنعرف الرجل، إذا رأيناه، بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق. وإنّ شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم في الذكر. أخذ الله علينا وعليهم الميثاق: يردون موردنا، ويدخلون مدخلنا. نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء. ونحن أبناء الأوصياء المخصوصون في كتاب الله - عزّ وجلّ. ونحن أولى الناس بكتاب الله، ونحن أولى الناس بدين الله. نحن الذين شرع لنا دينه، فقال في كتابه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾[4] وقد وصانا بما وصى به نوحاً: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**

---

(١) سورة القصص، الآية: ٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٤.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٩.

(٤) سورة الشورى، الآيتان: ١١ - ١٢.

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾(١). فقد عُلّمنا، وبلّغنا ما عُلّمنا، واستودعنا علمهم. ونحن ورثة الأنبياء، ونحن ورثة أُولي العزم من الرسل. ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾(٢) يا آل محمّد: «ولا تتفرقوا فيه» وكونوا على جماعتهم: «كبر على المشركين» من أشرك بولاية عليّ، «ما تدعوهم إليه» من ولاية عليّ، إنّ الله، يا محمّد يهدي من يجيبك إلى ولاية عليّ عليه السلام». وأمثال ذلك كثيرة، وقد تقدّم عند اثبات إمامتهم مثل ذلك.

٨٥٧ - والغرض أنّ الأولياء أو العلماء الورثة أو الأئمة الورثة، هم هؤلاء، لا غيرهم. وكلام الشيخ، المنقول من «الفتوحات»، وهو قوله: «وذلك أنّ الدنيا لمّا كان لها بدء ونهاية - وهو ختمها - قضى الله أن يكون جميع ما فيها بحسبها: له بدء وختام؛ وكان من جملة ما فيها تنزيل الشرائع، فختم الله هذا التنزيل بشرع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. فكان خاتم النبيّين و﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾(٣)؛ وكان من جملة ما فيها الولاية العامّة، ولها بدء من آدم، فختمها الله تعالى بعيسى عليه السلام؛ وكان الختم يضاهي البدء ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾(٤) فختم الله بمثل ما بدأ؛ وكان البدء لهذا الأمر بنبيٍ مطلق، فختم به أيضاً».

- فهذا الكلام المنقول عن الشيخ ليس بدليل على دعواه أيضاً، لجواز أن يكون جميع ما قال بخلاف الواقع، كما سنبيّنه.

٨٥٨ - لأنّ الذي قاله الشيخ ابن العربي في الفتوحات: «وكان من جملة ما فيها تنزيل الشرائع، فختم الله هذا التنزيل بشرع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم... فكان خاتم النبيّين»، يجوز أن يكون هذا الختم لأجل هذا الترتيب، أعني الابتداء كما كان بنبيّ الذي هو آدم، كان الانتهاء بنبيّ الذي هو محمّد، وقد كملت هذه الدائرة وتمّت.

ويشهد بذلك قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا والساعة كهاتين» وقوله: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله فيه السماوات والأرض».

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

٨٥٩ - وقال الشيخ أيضاً: «ومن جملة ما فيها الولاية العامّة، ولها بدء من آدم، فختمها الله تعالى بعيسى، وكان الختم يضاهي البدء» إلى آخره - يجوز أيضاً أن يكون بعكس ذلك، لأنّ الولاية المخصوصة بآدم، وإن كانت فيه موجودة بالقوّة، لكن بالفعل أوّل ظهورها في شيث، الذي هو ولده، كما ذكر الشيخ في «الفصّ الشيثيّ» فحينئذٍ يكون ختمها بولد من أولاد النبيّ، الذي يضاهيه في النبوّة، الذي هو المهدي. فيكون الختم بمثل ما بدأ، لأنّه كان وصيّه، وهذا أيضاً وصيّه؛ وغير ذلك من النسبة بينهما.

٨٦٠ - والذي قاله الشيخ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾[1] لا مدخل له في هذا المقام، لأنّ مراد الله به كان في معرض تعجّب اليهود من ولد يولد بلا أب. فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ الذي خلقه بلا أب وأُمّ.

ولهذا قيّد تعالى عقيبه بقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[2] ليعرف أنّه ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ أي من المواليد العنصريّة التي أعظمها التراب، بلا أب، وأُمّ. وكذلك شأن عيسى: خلقه من موادّ عنصرية أعظمها التراب، بلا أب، أي لم تكن العادة جارية بمثلها: فكان مثله أي مثل عيسى عند الله مثله أي مثل آدم.

٨٦١ - ويوافق هذا المعنى ما ذكره القيصري في آخر شرحه للفصّ الشيثي، منقولاً عن «الفتوحات» من لفظ الشيخ، وهو قوله: «فأوجد عيسى عن مريم. فنزلت مريم منزلة آدم، ونزل عيسى منزلة حواء. فكما وجدت أنثى من ذكر، وجد ذكر من أنثى. فختم بمثل ما بدأ: في إيجاد ابن من غير أب، كما كانت حواء من غير أمّ. فكان عيسى وحواء أخوين، وكان آدم ومريم أبوين لهما، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾. هذا آخر النصّ. ولا شكّ أنّ هذه المثليّة والمبدئيّة والمنتهائيّة أنسب من الأوّل، وإن كان كلّ واحد منهما في محلّ الاعتراض.

٨٦٢ - ويوافق أيضاً هذا المعنى دعواه في «فصوصه» بأن النبوة المطلقة ليست مخصوصة بآدم ولا بغيره بعد نبيّنا، لأنّ الأنبياء والرسل كلّهم أنبياء مقيّدون، أعني: أنّ نبوّتهم ورسالتهم مقيّدة ومكتسبة من النبي المطلق.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

٨٦٣ - وإن قلتَ: إنّ المهدي أيضاً ليس خاتم الولاية العامّة، فكيف يصدق عليه هذا المعنى؟ قلتُ: ليس آدم ولا شيث أيضاً مظهريْ الولاية العامّة، لأنّ ولاية المجموع أي مجموع الأنبياء غير نبيّنا مقيّدة كنبوّتهم. وإن سُلم أنّ ولاية آدم كانت مطلقة، قلنا: إنّ انختامها كان في عليّ والمهدي وغيره من أولاده، لأنّهم كانوا مظهر الولاية العامّة المخصوصة به. وهذا جائز عند الشيخ، لأنّه قال: «الختم للولاية المطلقة هو الذي لا يكون بعده وليّ على مقامه، ويكون مرجع جميع الأولياء إليه، كمرجع جميع الأنبياء بعد نبيّنا إلى نبيّنا» أعني مرجع خضر والياس وعيسى وغيرهم.

٨٦٤ - وأيضاً لمَ لا يجوز أن يكون هذا البدء والختم بمعنى أنّ في زمان آدم كان الناس أمّة واحدة، ويكون في زمان المهدي كذلك، كما ورد في الخبر وذكرنا في الفصل الأوّل، ويكون الختم كالبدء، ولا يلزم منه فساد؟ ومعلوم أنّ هذا أنسب بهذا المقام من عيسى الذي ينزل في آخر الزمان مع المهدي، ويحتاج إلى ملك يوحي إليه شرع نبيّنا حتّى يعرفه ويظهره على الناس، كما ذكره الشيخ، مع وجود المهدي الذي هو أعلم بشرع جدّه من عيسى بطبقات كثيرة، كآبائه عليهم السلام.

٨٦٥ - والحقّ أنّ جميع ذلك ليس إلا من رعاية المذهب وقبول الأحكام والأخبار من غير معدنها ومقرّها؛ وإلا، ينبغي أن يكون جميع المشايخ متّفقين على هذا. ومعلوم أنّ شيخ الطائفة، الذي هو رئيس الكلّ، الجنيد البغدادي ليس على هذا. وكذلك خاله السري السقطي ومعروف الكرخي، الذي هو شيخه، وتابعوهم؛ لأنّهم بأجمعهم تلامذة الأئمّة المعصومين - صلوات الله عليهم - وكذلك أبو يزيد البسطامي.

٨٦٦ - وكذلك الشيخ الأعظم سعد الدين الحموئي، لأنّه قال: «لا يجوز اطلاق اسم الوليّ، بعد رسول الله، مطلقاً ومقيّداً إلا على عليّ وأولاده». وكتب في ذلك كتاباً سمّاه: بـ «**المحبوب**» وهو مشتمل على الحروف والإشارات الحرفيّة، بالدوائر وغير الدوائر؛ وأحال كشفها وحلّها إلى المهدي عليه السلام. وكذلك الشيخ الكامل صدر الحقّ والملّة والدين القونوي - قدّس الله روحه - فإنّه كتب كتاباً ورسائل، وأحال حلّ مجموعها إلى المهدي. وما كان غرضهم من هذا إلا أنّهم

عرفوا أنّه معدن الولاية، أباً عن جدّ عن جدّ، إلى النبي ﷺ كما سيجيء بيانه، إن شاء الله. وهذا البحث له طول وعرض، نكتفي منه بهذا القدر. ونرجع إلى البحث الثاني، الذي هو بحث المهدي واثبات ولايته.

٨٦٧ - وأما البحث الثاني: في تعيين خاتم الولاية المقيّدة فهو اثبات ولاية المهدي، فإنّه خاتم الولاية المقيّدة كما أنّ أباه خاتم الولاية المطلقة. والغرض من ذلك أنّ الشيخ محيي الدين - قدّس الله سرّه - كما أدّعي أنّ الخاتم للولاية المطلقة عيسى عليه السلام فكذلك أدّعي أنّ الخاتم للولاية المقيّدة هو نفسه، كما ذكره في «الفتوحات» وفي «الفصوص» وغيرهما. ونحن نذكر أوّلاً - إن شاء الله - أقواله المذكورة في هذا الباب. ثمّ نشرع في الزامه واثبات الولاية للمهدي.

٨٦٨ - فمن أقواله ما ذكره في «الفصوص» في الفصّ المذكور، وشرحه القيصري، وهو قوله: «ولمّا مثل النبيّ ﷺ النبوّة بالحائط من اللبن، وقد كمل سوى موضع لبنة واحدة، وكان ﷺ تلك اللبنة. غير أنّه عليه السلام لا يراها إلا كما قال: لبنة واحدة.

وأمّا خاتم الأولياء، فلا بدّ له من هذه الرؤية؛ فيرى ما مثله به رسول الله، ويرى في الحائط موضع لبنتين، واللبن من ذهب وفضة. فيرى اللبنتين اللتين ينقص الحائط عنهما ويكمل بهما: لبنة فضة ولبنة ذهب. فلا بدّ أن يرى نفسه نتطبع موضع تنيك اللبنتين: فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين، فيكمل الحائط».

٨٦٩ - وأمّا شرحه على ما شرحه القيصري، فهو قوله: «جواب لمّا» قوله: «فلا بدّ أن يرى نفسه تنطبع موضع تينك اللبنتين» أي: لمّا مثلّ خاتم الرسل النبوّة بالحائط: «ويروي نفسه تنطبع فيه»، لا بدّ أن يرى خاتم الولاية نفسه كذلك، لما بينهما من المناسبة والاشتراك في مقام الولاية. ومعناه ظاهر. قال رضي الله عنه في فتوحاته: «أنّه يرى حائطاً من ذهب وفضة، وقد كمل إلا موضع لبنتين، إحداهما من فضة والأخرى من ذهب». فانطبع رضي الله عنه في موضع تلك اللبنتين وقال فيه: «وأنا لا أشك أنّي أنا الرائي، ولا أشكّ أنّي أنا المنطبع موضعهما وبي كمل الحائط. ثمّ عبّرتُ الرؤيا بانختام الولاية بي، وذكرتُ المنام للمشايخ الذين كنت في عصرهم: وما قلتَ من الرائي؟ فأوّلوا بما عبّرتُ به».

٨٧٠ - «والظاهر، ممّا وجدتُ في كلامه في هذا المعنى، أنّه خاتم الولاية المقيّدة المحمّديّة، لا الولاية المطلقة، التي لمرتبته الكليّة. ولذلك قال في أوّل: «الفتوحات» في المشاهدة: «فرآني - أي رسول الله - ورأى الختم لاشتراك بيني وبينه في الحكم.

فقال له السيّد: هذا عديلك وابنك وخليلك». والعديل هو: المساوي. وقال في الفصل الثالث عشر من أجوبة الإمام محمّد بن عليّ الترمذي - رضي الله عنه - : «الختم ختمان: ختم يختم الله به الولاية المطلقة، وختم يختم الله به الولاية المحمّدية.

فأمّا ختم الولاية على الاطلاق: فهو عيسى عليه السلام فهو الوليّ بالنبوّة المطلقة في زمان هذه الأمّة. وقد حيل بينه وبين نبوّة التشريع والرسالة. فينزل في آخر الزمان وارثاً خاتماً، لا وليّ بعده. فكان أوّل هذا الأمر نبيّاً وهو آدم، وآخره نبيّ وهو عيسى، أعني نبوّة الاختصاص. فيكون له حشران: حشر معنا وحشر مع الأنبياء والرسل».

٨٧١ - «**وأمّا ختم الولاية المحمّديّة:** فهي لرجل من العرب، من أكرمها أصلاً ويداً. وهو في زماننا اليوم موجود، عرفتُ به سنة خمس وتسعين وخمسمائة. ورأيت العلامة التي قد أخفاها الحقّ عن عيون عباده، وكشفها لي بمدينة فاس، حتّى رأيتُ خاتم الولاية، وهو خاتم النبوّة المطلقة[1]، لا يعلمه كثير من الناس. وقد ابتلاه الله بأهل الانكار عليه، فيما يتحقّق به من الحقّ في سرّه.

وكما أنّ الله ختم بمحمّد صلى الله عليه وآله نبوّة التشريع، كذلك ختم الله بالختم المحمّديّ الولاية التي تحصل من الإرث المحمّديّ، لا الولاية التي تحصل من سائر الأنبياء. فإنّ من الأولياء من يرث إبراهيم وموسى وعيسى، فهؤلاء يوجدون بعد الختم المحمّدي ولا يوجدون على قلب محمّد صلى الله عليه وآله. هذا معنى ختم الولاية المحمّديّة. وأمّا ختم الولاية العامّة، الذي لا يوجد بعده وليّ، فهو عيسى عليه السلام.

٨٧٢ - وقال في الفصل الخامس عشر منها: «فأنزل في الدنيا من مقام اختصاصه، واستحقّ أن يكون لولايته الخاصّة ختم يواطىء اسمه اسمه صلى الله عليه وآله ويحوز

---

(١) المطلقة: يعني خاتم الولاية التي تحصل من إرث خاتم النبوة المطلقة.

خلقه. وما هو بالمهدي المسمّى: المعروف المنتظر، فإنّ ذلك من سلالته الحسيّة وعترته، والختم ليس من سلالته الحسيّة، ولكنه من سلالة أعراقه وأخلاقه». والكلّ إشارة إلى نفسه. والله أعلم». هذا آخر كلام القيصري في شرح قوله المذكور.

٨٧٣ - وقال القيصري أيضاً في موضع آخر في شرح قوله: «وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع» إلى آخره: «ولا ينبغي أن يتوّهم أنّ المراد بخاتم الأولياء المهدي، لأنّ الشيخ صرح بأنّه عيسى، وهو يظهر من العجم. والمهدي من أولاد النبيّ ﷺ وهو يظهر من العرب».

٨٧٤ - والحال أنّ شيخه وأستاذه في هذا القسم، الشيخ الكامل المحقّق كمال الحقّ والملّة والدين عبد الرزّاق الكاشاني - قدس الله سرّه - قال في هذا الموضع: «إنّ خاتم الأولياء هو المهدي لا غير». وقال: «لأنّه مظهر باطن النبيّ ﷺ الذي هو منبع الولاية المطلقة الكليّة». وهذا قوله فيه، أي في شرح قول الشيخ: «وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع» إلى آخره وفي بيان الولاية المطلقة المخصوصة بالمهدي عنده.

- هذا إشارة إلى أنّ خاتم الأولياء قد يكون تابعاً في الحكم الشرعيّ، كما يكون المهدي الذي يجيء في آخر الزمان، فإنّه في الأحكام الشرعيّة تابع لمحمّد ﷺ وفي المعارف والعلوم الحقيقيّة يكون جميع الأنبياء والأولياء تابعين له كلّهم. ولا تناقض فيما ذكرناه، لأنّ باطنه باطن محمّد ﷺ. ولهذا قيل: «**إنّه حسنة من حسنات سيّد المرسلين**». وأخبر عنه النبيّ ﷺ.

بقوله: «**إنّ اسمه اسمي وكنيته كنيتي، فله المقام المحمود**» إلى آخره.

٨٧٥ - واظهار هذا الكلام من القيصري، ومخالفته للمشايخ المعظمين وأستاذه وشيخه، ليس إلا من اظهار التسنّن مع التصوّف، ترويجاً لمرتبته عند الجمهور. وإلا، فكيف يقول مثل هذا الكلام العارفُ بالله وبأنبيائه وأوليائه، نعوذ بالله منه! وسنبيّن، إن شاء الله، حقيقة صاحب هذا المقام الذي هو المهدي، كما أثبتنا حقيّة أبيه وجدّه في مقامه - صلوات الله عليهما. وحيث تقرّر أنّ ثبوت هذين المقامين يكون بالنقل والعقل والكشف - وقد ثبت الأوّل بهذا الوجه - فثبوت الثاني يكون أولى وأنسب، بل أوجب وأفرض.

٨٧٦ - فالنقل الوارد في هذا الباب، فمن القرآن الآيتان اللتان قد تقدّم ذكرهما وهو قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[١].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾[٢] الآية. وآية أُخرى، وهو أقوى منهما، وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٣] لأنّ هذه الآيات باتّفاق أكثر المفسّرين واردة في الأئمّة المعصومين عليهم السلام وبالتخصيص في قائمهم، الإمام المنتظر، صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

٨٧٧ - وقيل: قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٤] دالّ على إمامته وخلافته وختميّته أيضاً، لأنّ «الألف» و «اللام» متى دخلا على «الخبر» أفادا انحصاره في «المبتدأ»، فإنّا إذا قلنا «زيد هو العالم» دلّ على أنّ غيره ليس بعالم.

فكلّ إمام غيره (أيّ غير المهدي) من الأئمّة هو موروث ولا يكون هو الوارث دون غيره، لأنّ من بعده وارثه.

فدلّ على أنّ الإمام، الذي هو بهذه الصفات، يرث من قبله، أعني يرث الإمامة، ولا يورث عنه. وغير الإمام محمّد بن الحسن عليه السلام ليس له هذه الصفة، باجماع المسلمين؛ فيكون هو المراد بهذه الآية.

فثبتت إمامته وخلافته بالعصمة الحاصلة له دون غيره، وثبتت الختميّة له أيضاً بانحصار الوارثة فيه دون غيره، لأنّ المراد بالختم هو الذي لا يكون بعده وليّ، وهذا أي محمّد بن الحسن، عليه السلام) كذلك؛ فيكون خاتماً.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.
(٤) سورة القصص، الآية: ٥.

٨٧٨ - وإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد بالأئمّة الأئمّة الأربعة، وبالإرث علومهم، كما ذهب إليه القيصري؟ أجيب عنه: بأنّه قد ثبتت في الأصول أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً، والأئمّة الأربعة ليسوا بمعصومين بالاتفاق، فلا يكون المراد بالأئمّة الأئمّة الأربعة. أمّا علومهم، فقد تقدّم البحث عنها بأنّها كسبيّة لا إرثيّة، فلا وجه لاعادتنا له.

٨٧٩ - ومن الأخبار في هذا الصدد الخبر الوارد عن النبيّ ﷺ المتّفق عليه المخالف والمؤالف: **«لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله تعالى ذلك اليوم، حتّى يبعث فيه رجلاً من ولدي، يواطىء اسمه اسمي، يملأها أي الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»**.

وبرواية أُخرى: **«لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله تعالى ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي، يواطىء اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»**.

وبرواية أخرى: **«لن تنقضي الأيام والليالي حتّى يبعث الله تعالى رجلاً من أهل بيتي، يواطىء اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»**.

٨٨٠ - وورد عن النبيّ أنّه قال: **«زويت لي الأرض، فأريتُ مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أُمّتي ما زوى لي فيها»**.

وروى المقداد عنه عليه السلام أنّه قال: **«لا يبقى على الأرض مدر ولا وبر إلا أدخله الله تعالى كلمة الإسلام بعزّ عزيز وذلّ ذليل: أمّا أن يعزّهم الله، فيجعلهم من أهلها، وإمّا أن يذلّهم، فيدينون لها.**

٨٨١ - والخبر الوارد عن الأئمّة عليهم السلام في هذا الباب، هو قولهم: **«حديثنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلا ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو مؤمن ممتحن أو مدينة حصينة. فإذا وقع أمرنا وجاء مهديّنا، كان الرجل من شيعتنا أجرأ من ليث وأمضى من سنان، يطأ عدونا برجليه ويضرب بكفّيه، وذلك عند نزول رحمة الله وفرجة العباد»**. وأمثال ذلك كثيرة عند الشيعة.

٨٨٢ - وقد جمعوا كتباً ورسائل في هذا الباب، منها: «كتاب الإرشاد» للمفيد، و «كتاب الغيبة» للنعماني، و «بصائر الدرجات» للصفّار وغير ذلك. وكذلك عند

أهل السنّة، مثل: أحمد بن حنبل، والغزالي، والأخطب الخوارزمي، وأبي نعيم الأصفهاني، ومن جملتهم الشيخ الكامل سراج الدين المحدّث البغدادي منشأ القزويني مولداً، فإنّه جمع في هذا الباب أربعين حديثاً، كلّ واحد منها بعبارة أخرى، حتّى في سنه وأسنانه وشعره ووجهه وقامته وعينيه ولبسه ومشيه، وما شاكل ذلك.

٨٨٣ - ومنها: أخبرنا أبو عليّ الحداد قال: أخبرنا الإمام أبو نعيم الحافظ الأصفهاني، قال: أخبرنا محمّد بن جبارة، قال: أخبرنا عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن عاصم بن أبي الجود عن ددٍ بن حبش (؟) عن عبد الله بن عمر أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتّى يملك رجل من أهل بيتي، يواطىء اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً».

٨٨٤ - وهذه النقليّات أكثرها يفيد اثباته وظهوره، وليس كلامنا في ذلك، لأنّ الشيخ وأصحابه ليس ينكرون هذا، بل كلامنا في ابطال قولهم بأنّ الشيخ ابن العربي هو الخاتم للولاية المقيّدة، وأنّ الخاتم للولاية المطلقة يظهر من العجم لا من العرب. فنقول: ابطال هذا، بعد النقل، يحتاج إلى براهين عقليّة ودلائل كشفيّة كما شرطناه. لكن قبل الشروع فيهما والزامهم بهما، نثبت هذا المعنى بكلام الشيخ المذكور في «الفتوحات»، ليعرف الخصم بأنّ نفسنا نَفس إلّهيّ، واقع موقع الصدق.

٨٨٥ - وإذا عرفتَ هذا، فاعلم أنّ الشيخ - قدّس الله روحه - ذكر في «الفتوحات» في الباب السادس والستّون وثلاثمائة في: «معرفة منزل وزراء المهدي» وغير ذلك فصولاً وأبواباً وأحكاماً، لا يحتمل أقلّها مجموع هذا الكتاب. لكن نذكر بقدر ما يحتاج، وهو قوله: «الباب السادس والستون وثلاثمائة في معرفة منزل وزراء المهدي الظاهر في آخر الزمان، الذي بشر به رسول الله، وهو من أهل البيت:

إنّ الإمام إلى الوزير فقير ... وعليهما فلك الوجود يدور

والملك إن لم تستقم أحواله ... بوجود هذين فسوف يبور

إلا الإلّه الحقّ فهو منزّه ... ما عنده فيما يريد وزير

جلّ الإلّه الحقّ في ملكوته ... عن أن يراه الخلق وهو فقير»

٨٨٦ - «اعلم - أيّدنا الله - أنّ لله خليفة يخرج، وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً، فيملؤها قسطاً وعدلاً. لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يلي هذا الخليفة من عترة رسول الله من ولد فاطمة، يواطىء اسمه اسم رسول الله، جدّه الحسين بن عليّ بن أبي طالب؛ يبايع بين «الركن» و «المقام». يشبه رسول الله في خلقه - بفتح الخاء - وينزل عنه في الخلق - بضمّ الخاء - لأنّه لا يكون واحد مثل رسول الله في خلقه، والله يقول فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

٨٨٧ - «هو أجلى الجبهة، أقنى الأنف، أسعد الناس به أهل الكوفة. يقسّم المال بالسوية ويعدل في الرعية ويفصل في القضية. يأتيه الرجل فيقول له: يا مهدي! أعطني، وبين يديه المال، فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله. يخرج على فترة من الدين. يزع الله به ما لا يزع بالقرآن. يمسي جاهلاً بخيلاً جبّاناً، ويصبح أعلم الناس، أكرم الناس، أشجع الناس. يصلحه الله في ليلة. يمشي النصر بين يديه يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً».

٨٨٨ - إلى قوله: «فمن أبى قتل، ومن نازعه خذل. يظهر من الدين ما هو الدين عليه في نفسه: ما لو كان رسول الله حيّاً لحكم به. يرفع المذاهب من الأرض، فلا يبقى إلا الدين الخالص. أعداؤه مقلّدة العلماء، أهل الاجتهاد، كما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمّتهم، فيدخلون كرهاً تحت حكمه، خوفاً من سيفه وسطوته، ورغبةً فيما لديه.

٨٨٩ - «يفرح به عامّة المسلمين أكثر من خواصّهم. يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق، عن شهود وكشف، بتعريف إلّهيّ. له رجال إلّهيون يقيمون دعوته وينصرونه، هم الوزراء. يحملون أثقال المملكة ويعينونه على ما قلّده الله. ينزل إليه عيسى بن مريم بالمنارة البيضاء، بشرقيّ دمشق، بين مهردوتين، متكياً على ملكين، ملك عن يمينه وملك عن يساره». إلى آخر الباب.

٨٩٠ - فنقول: هذا لكلام بأسره يدلّ على الزام الشيخ، أو القيصري، وإن نقله، لم يكن صحيحاً من الشيخ في قوله المذكور وهو قوله: «فأنزل في الدنيا من

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

مقام اختصاصه واستحقّ أن يكون لولايته الخاصّة ختم، يواطىء اسمه اسمه ﷺ ويحوز خلقه، وما هو بالمهدي المسمّى المعروف: المنتظر، فإنّ ذلك من سلالته الحسيّة وعترته، والختم ليس من سلالته الحسيّة ولكنه من سلالة أعراقه وأخلاقه؛ والكلّ إشارة إلى نفسه» لأنّ الشيخ حكم بأنّه يشبه رسول الله في الخلق - بفتح الخاء - وينزل عنه في الخلق - بضم الخاء. والخلق والخلق عبارة عن خصوصيّته بسلالته الحسيّة **وكذلك بسلالته الخلقيّة**، التي هي **أعراقه وأخلاقه. فبطل بذلك قول من قال أنّه ليس من سلالة أعراقه وأخلاقه، وأنّه ليس بالختم للولاية المقيّدة.**

هذا **إن كان القائل هو الشيخ** ابن العربي نفسه؛ **وإن كان القائل** القيصري، فبطل **أيضاً قوله**: وثبت كذبه بالنقل الغير الواقع.

٨٩١ - وكذلك قوله: «ولا ينبغي أن يتوهّم أنّ المراد بخاتم الأولياء المهدي، فإنّ الشيخ صرّح بأنّه عيسى[1]، وهو يظهر من العجم، والمهدي من أولاد النبيّ ويظهر من العرب» أمّا كذب أو نقل من غير تحقيق أو تصحيح! وعلى كلا التقديرين يلزم الزامه والزام الشيخ، لأنّ الشيخ صرّح الآن بأنّ «عيسى ينزل عليه بالمنارة البيضاء بشرقيّ دمشق» إلى آخره. ومعلوم أن دمشق ليس بعجم ولا أهله! والحقّ أنّ الانصاف في هذا الباب، وفي جميع الأبواب، عند الشيخ أكثر من عند القيصري؛ فإنّ معاندته مع هؤلاء الأئمّة قد تعدّى طور الإسلام. أعاذنا الله من درك العصبية والشقاق ومن ظلمات الجهل والنفاق! - هذا آخر النقليّات بقدر. هذا المقام.

٨٩٢ - وأمّا العقل، فالعقل الصحيح يحكم بأنّ مثل هذا الشخص، الذي وصفه الشيخ بالعلم والفضل والمعجزات والمقامات والنسب الصوريّة والمعنويّة من النبيّ، هو أولى بالختميّة والإمامة والخلافة من الشيخ. وأيضاً قد قام البرهان العقليّ بأنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً، والشيخ - بدعواه - ليس بمعصوم؛ فلا يستحقّ للإمامة ولا مرتبتها. وأيضاً الخاتميّة بشخص تقوم عليه الساعة، ولا يكون بعده مكلّف على وجه الأرض - بدعواه ودعوى غيره كما قام به البرهان العقليّ أيضاً - يكون أولى من شخص لا يكون كذلك.

---

(١) عيسى: اعلم أنّي كثيراً ما رأيت في كلام العرفاء من اطلاق عيسى وإرادة الروح القدسي والأمر الإلهي بل كل شيء، أمير المؤمنين (بالأصل).

٨٩٣ - والذي قاله القيصري: «أنّه - أي الخاتم - من سلالة أعراقه وأخلاقه لا من سلالته الحسيّة، كالمهدي» غير موجّه من وجوهٍ: منها أنّ الإمامة والخلافة لا يستحقّها الرجال بمجرّد نسبته الحسيّة الصوريّة، لا بدّ له من النسبة المعنويّة. وأيضاً الأعراق والأخلاق عبارة عن علمه وعمله.

ومعلوم أنّ الإمام ما لم يكن متّصفاً بعلم النبيّ وعمله لا يستحقّ الإمامة، بل بجميع صفاته، وأعظم كمالاته! والحمد لله على أنّ الشيخ شهد بذلك، أي بأنّ خلقه خلقه وخُلقُه خُلقه. وعلى جميع التقادير - أعني قول الشيخ أو قول غيره من مخالفيه ومؤالفيه - هو أنسب بهذا المقام من قول الشارح.

٨٩٤ - وفي اعتقادي - وأعرفُ أنّه لا يكون خلاف الواقع - بأن أقلّ أقلّ وزير من وزراء المهدي يكون أعلى مرتبة من الشيخ وأمثاله بمراتب كثيرة. وليس نسبة الشيخ إليه بالحقيقة إلا نسبة العرش[1] وما حواه إلى قلب العارف في قول أبي يزيد: «لو أنّ العرش وما حواه مائة ألف ألف مرّة في زاوية من زوايا قلب العارف، لما أحسّ به!» وهذا مقام أبي يزيد. وإلا، لو قال «مائة ألف ألف مرّة أضعاف ذلك» لكان قليلاً بالنسبة إلى قلب العارف. فالمراد من هذا الكلام أنّ الشيخ وأمثاله مائة ألف ألف نفس وأضعاف ذلك، بالنسبة إلى المهدي، كذلك.

٨٩٥ - ومع ذلك فالشيخ وأمثاله لا نسبة لهم إليه (أي إلى المهدي عليه السلام)، لأنّ الكلام في الأنبياء والرسل والأوصياء والأولياء، وهم كذلك، أي قطرة من بحر من بحور كمالاته، وذرّة من شمس من شموس استعداداته، لقوله: (أي الشيخ ابن العربي) أيضاً: «فالمرسلون، من كونهم أولياء، لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟» ولقوله: «فخاتم الرسل، من حيث ولايته، نسبته مع الختم للولاية نسبة الأنبياء والرسل معه، فإنّه الوليّ والرسول النبيّ؛ وخاتم الأولياء الوليّ، الوارث، الآخذ على الأصل، الشاهد للمراتب».

٨٩٦ - وإن قيل: هذا بالنسبة إلى الختم للولاية المطلقة، وأنت في معرض الكلام عن الختم للولاية المقيّدة

---

(١) إلا نسبة العرش.. أبي يزيد: أبا يزيد إلى الشيخ في وصف قلب العارف بقول الشيخ وهنو قوله في معرض قول أبي يزيد البسطامي.

- قلنا: هو أي ختم الولاية المقيّدة عين ذاك الختم للولاية المطلقة الذي هو جدّه، كما ثبت عقلاً ونقلاً، لأنّهم - أي الأئمة - كلّهم من نور واحد وحقيقة واحدة، وكلّما صدق على واحد منهم، صدق على كلّ واحد منهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾(١).

٨٩٧ - هذا ما عندي من حيث المباحث العقليّة بطريق الاقناعيّات وغيرها. والدلائل على إمامته أي إمامة المهدي وعصمته وما شاكل ذلك، كثيرة عند أصحابنا، وقد تقدّم طرف منها في الأصل الأوّل، فارجع إليها واطلبها هناك.

٨٩٨ - وأمّا الكشف: فالكشف الصحيح يشهد بأنّ الختميّة للولاية المقيّدة بالمهدي عليه السلام أولى من الشيخ، كالختميّة للولاية المطلقة بعليّ من عيسى عليه السلام. وقد شهد بذلك أرباب الكشوف كثيراً في كتبهم وتصانيفهم: كالجنيد وسعد الدين الحموئي وصدر الدين القونوي، وكالسري السقطي ومعروف الكرخي والشبلي وتابعيهم كما مرّ. وقد يعرف ذلك في إسناد خرقتهم إليهم ونسبة علومهم وكشفهم إلى مشربهم.

٨٩٩ - والذي ورد في اصطلاحهم، كما ذكر الشيخ الأعظم كمال الدين عبد الرزّاق الكاشاني - قدس الله سرّه - في تعريف «القطب»، ليس إلا ذلك، لأنّه قال: «القطبيّة الكبرى هي مرتبة قطب الأقطاب، وهي باطن نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله، فلا تكون إلا لورثته لاختصاصه بالأكمليّة، فلا يكون خاتم الولاية، وقطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة».

وقال: «الخاتم هو الذي قطع المقامات بأسرها وبلغ نهاية الكمال؛ وبهذا المعنى الخاتم يتعدّد ويتكثّر. فخاتم النبوّة هو الذي ختم الله به النبوّة، ولا يكون إلا واحداً، وهو نبيّنا صلى الله عليه وآله. وكذلك خاتم الولاية، وهو الذي يبلغ به صلاح الدنيا والآخرة نهاية الكمال، ويختلّ بموته نظام العالم؛ وهو المهدي الموعود في آخر الزمان».

٩٠٠ - ومع ذلك، فالشيخ ليس يدّعي هذا المقام بالكشف، بل بالنوم وتعبيره لنفسه وتعبيره غيره له موافقاً له، لقوله برواية القيصري: «أنّه رأى حائطاً من ذهب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

وفضة وقد كمل إلا موضع لبنتين إحداهما من فضة والأخرى من ذهب، وانطبع في موضع تلك اللبنتين».

وقال فيه: «وأنا لا أشك أنّي أنا الرائي، ولا أشكّ أنّي أنا المنطبع موضعهما، وبي كمل الحائط.

ثمّ عبّرتُ الرؤيا بانختام الولاية بي. وذكرت المنام للمشايخ الذين كنت في عصرهم: وما قلتَ من الرائي؟ - فأوّلوا بما عبّرتُ به». وقد مرّ هذا الكلام قبل ذلك.

٩٠١ - ومعلوم أنّ المنامات والرؤيا في معرض الشكوك والشبهات، من حيث الرؤية والتعبير والأشخاص والأزمان وشرائطها المعتبرة لها. ومع ذلك، فحيث لم يقبل الخصم العقل والنقل والكشف، فكيف نقبل نحن المنام؟ ولا سيّما اليوم ليس الناس يعبّرون أحوال اليقظة، فكيف بأحوال النوم؟ والحقّ أن في هذين الموضعين - أي تعيين ختم الولاية المطلقة والمقيّدة - قد أخطأ الشيخ، مع عظم قدره وجلاله شأنه. جلّ من قال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1] ويكفي قصّة خضر وموسى في هذا الباب، كما تقدّم ذكره، لأنّ كلّ واحد منهما كان كاملاً في نفسه، ناقصاً بالنسبة إلى الآخر.

٩٠٢ - والمراد أنّ الشيخ وإن كان كاملاً في غير هذا الموضع بالنسبة إلى غيره، كان في هذا الموضع ناقصاً بالنسبة إلى غيره. وهذا ليس بنقص للكامل في كماله، لأنّ الكامل لا يلزمه الكمال في جميع المراتب، كما أشار إليه هو بنفسه وتقدّم تقريره، وهو قوله: «فما يلزم الكامل أن يكون له التقدّم في كلّ شيءٍ وفي كلّ مرتبة، وإنّما نظر الرجال إلى التقدّم في مرتبة العلم بالله، هنالك مطلبهم» إلى آخره.

ومع ذلك، فهذا وأمثال هذا هو سوء أدب منّا بالنسبة إلى حضرته، لأنّه شيخ الطائفة ورئيس القوم ونحن في قدم العذر من ذلك «والعذر عند كرام الناس مقبول». والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[2].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

٩٠٣ - هذا آخر ما عندي في مباحث النبوّة والرسالة والولاية، وتعيين خاتم الأنبياء وخاتم الأولياء وغير ذلك. وإذ فرغنا منها، فلنشرع في القاعدة الثالثة: في بيان الوحي والإلهام والكشف، وهو هذا:

القاعدة الثالثة: في بيان الوحي والإلهام والكشف

٩٠٤ - اعلم أنّ هذه القاعدة مشتملة على بيان الوحي والإلهام والكشف، والفرق بين العلوم الإرثيّة الحقيقيّة والعلوم الكسبيّة الرسميّة، وكيفيّة تحصيلهما. وقبل أن نشرع في بيان هذه الأقسام، نريد أن نذكر ههنا فصلاً مفرداً، مشتملاً على بيان جميع هذه الأقسام، من كلام الشيخ العالم الكامل محمّد بن محمّد الغزالي - رحمة الله عليه - توضيحاً للمقصد وتصريحاً للمطلب، بل اطمئناناً للسامع وسكينةً له، كما هي قاعدتنا في جميع المطالب. ثمّ بعد ذلك، نشرع بما عندنا من المواهب الإلّهيّة وعطاياه الفتوحيّة موافقين لطريق القوم وقاعدتهم.

٩٠٥ - فقوله: في الوحي والإلهام والحاصل منهما المسمّى: بالكشف، هو أنّه يقول «الطريق الثاني في التعليم الربّانيّ، وذلك على وجهين: الأوّل القاء الوحي، وهو أنّ النفس إذا كملت ذاتها وزال عنها درن الطبيعة، أقبلت بوجهها على باريها، وتمسكت بجود مبدعها، واعتمدت على إفادته وفيض نوره.

فيتوجّه إليها باريها توجّهاً كليّاً وينظر إليها نظراً إلّهياً. واتخذت من العقل الكليّ قلماً ومن تلك النفس (الكليّة) لوحاً، وانتقشت فيها العلوم المختصّة بها. فصار العقل الكليّ كالمعلّم، والنّفس القدسيّ كالمتعلّم، وتحصل جميع العلوم لتلك النفس. والنفس فيها جميع الصور عن غير تعلّم وتفكّر، ومصداق ذلك قول الله - عزّ وجلّ - لنبيّه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[1] إلى آخره.

٩٠٦ - «والوجه الثاني: هو الإلهام» وهو تنبيه النفس الكليّ للنفس الجزئيّ، على قدر صفائه وقبوله واستعداده. فإنّما هو تصريح الأمر الغيبيّ، والإلهام تعريضه. فالوحي أثر فيض الله، والإلهام أثر الوحي.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٣.

والعلم الحاصل عن الوحي يسمّى: علماً نبويّاً وإلّهياً، والعلم الحاصل عن الإلهام يسمّى: علماً لدنيّاً أو كشفيّاً، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس والباري، وإنّما هو كالضوء في سراج الغيب، يقع على قلب، صاف لطيف فارغ».

٩٠٧ - «وذلك أنّ العلوم كلّها موجودة في جوهر النفس الكليّ الأزليّ، الذي هو من الجواهر المفارقة الأوليّة المحضة، وهو بالنسبة إلى العقل الأوّل كنسبة حواء إلى آدم. وقد تبيّن أنّ العقل الكليّ أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى الباري من النفس، والنفس الكليّ أعزّ وألطف وأشرف من سائر المخلوقات[(١)].

٩٠٨ - «فمن افاضة العقل الكليّ يتولّد الوحي. ومن اشراق النفس الكليّ يتولّد الإلهام. والوحي حلية الأنبياء، والإلهام زينة الأولياء. فكما أنّ النفس دون العقل والوليّ دون النبيّ، فكذلك الإلهام دون الوحي، فهو ضعيف بالنسبة إلى الوحي، قويّ بالإضافة إلى الرؤيا. والعلم، اللدني هو علم الأنبياء والأولياء معاً.

وأمّا علم الوحي، فخاصّ بالرسل، موقوف عليهم، كما كان آدم وإبراهيم وموسى ومحمّد عليهم السلام وغيرهم من الرسل.

٩٠٩ - وهناك فرق بين الرسالة والنبوّة، فإنّ النبوّة هي قبول النفس القدسيّ حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأوّل، والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والتابعين. وربّما يتّفق القول لنفش من النفوس ولا يتأتّى لها التبليغ، لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب. والعلم اللدنيّ يكون لأهل النبوّة والولاية، كما حصل للخضر عليه السلام حيث أخبر الله فقال: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾[(٢)].

---

(١) المخلوقات: ويعضد مغزاه الأثر الصحيح، المعضد بالآثار الغير المنحصرة الإمامية والنبوية، من ذلك ما رواه محمد بن الحسن الصفار في «البصائر»: «المؤمن أبوه النور وأمه الرحمة» لأنه عليه السلام أراد بالنور شقيقه، أبا الأنوار، وأراد بالرحمة نفسه الشريفة. وقال: - صلوات الله عليه -: «أول ما خلق الله نوري» «أول ما خلق الله العقل» وصرح أصحابنا، أساطين الحكمة الإلهية بأن النفس الكلي هو عليه السلام والعقل الكلي وعقل كل شيء هو أخوه النور، وبعضهم عكس، وكلهم عرفوا ما عرفوا. (بقلم جديد).

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٤.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنّ رسول الله أدخل لسانه في فمي، فانفتح في قلبي ألف باب من العلم، مع كلّ باب ألف باب**».

وقال أيضاً: «**لو ثنيت لي الوسادة وجلستُ عليها، لحكمتُ لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، ولأهل الزبور بزبورهم، ولأهل الفرقان بفرقانهم**».

٩١٠ - «وهذه المرتبة لا تنال بمجرّد التعلّم الإنسانيّ بل يتمكّن المرء في هذه المرتبة بقوّة العلم اللدنيّ، وكذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: أنّه حكى عن وليّ عهد موسى عليه السلام: «أنّه شرح كتابه في أربعين حملاً، فلو يأذن الله تعالى وشرعتُ في شرح معاني ألف الفاتحة حتّى يبلغ مثل ذلك، لفعلت» يعني أربعين وقراً. وهذه الكثرة والسعة والانفتاح في العلم لا تكون إلا علماً لدنيّاً إلَهيّاً سماويّاً.

٩١١ - «فإذا أراد الله بعبد خيراً، رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس الكليّ الذي هو اللوح، فيظهر فيها أسرار المكنونات، وينتقش فيها معاني تلك المكوّنات، فيعبّر النفس عنها كما يشاء إلى من يشاء من عباده. والحقيقة الحكميّة تنال من العلم اللدنيّ، وما لم يبلغ النفس هذه المرتبة لا يكون حكيماً، لأنّ الحكمة[1] من مواهب الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[2] وأولوا الألباب هم الواصلون إلى مرتبة العلم اللدنيّ، المستغنون عن التحصيل وتعب التعلّم؛ فيتعلّمون قليلاً ويعلمون كثيراً، ويتعبون قليلاً ويستريحون كثيراً.

٩١٢ - «واعلم أنّ الوحي إذا انقطع، وباب الرسالة إذا انسدّ، استغنى الناس عن الرسل واظهار الدعوة بعد تصحيح الحجّة وتكميل الدين، كما قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[3]. وليس من الحكمة اظهار زيادة فائدة من غير حاجة.

---

(١) الحكمة: وفي «الكافي» وغيره، من عدة طرق صحيحة: «الحكمة معرفة الحق بالمعرفة النورانية المميزة لعالمي الأمر والخلق: (بالأصل).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.

وأمّا باب الإلهام فلا ينسدّ، ومدد نور النفس الكليّ لا ينقطع، لدوام ضرورة النفس وحاجتها إلى تأكيد وتجديد وتذكير. وحيث أنّ الناس استغنوا عن الرسالة والدعوة، واحتاجوا إلى التذكير والتنبيه، لاستغراقهم في هذه الوساوس وانهماكهم في هذه الشهوات، فإنّ الله أغلق باب الوحي وهداية العباد وفتح باب الإلهام رحمةً بهم، وهيّأ الأمور ورتّب المراتب ليعلم أنّ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾[1] بغير حساب **هذا آخره**.

٩١٣ - والحقّ أنّ هذا الباب جامع لجميع الأقسام التي نحن في صدر بيانها، ولكن لا يخفى على الالبّاء أنّه طريقة القدماء وقاعدة العلم والعلماء، لا أرباب الذوق من المتأخرين وأهل الكشف من الموحّدين، جعلنا الله منهم! فنحن - إن شاء الله - نفصّل هذه الأقسام تفصيلاً، ونرتّب هذه المراتب ترتيباً يتّضح لك طريقة القوم وقاعدتهم على ما ينبغي، وهو هذا:

١ - في بيان الوحي والالهام والكشف

٩١٤ - اعلم أنّ الوحي يكون خاصّاً ويكون عامّاً. فالخاصّ مخصوص بالأنبياء والرسل، وهو يكون بواسطة الملك وغير واسطة الملك. فالذي يكون بالواسطة، هو خاصّ بالرسل وأولي العزم، لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾[2] لأنه بالاتفاق جبرائيل.

والذي يكون بغير الواسطة، هو خاصّ بالأنبياء، لقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾[3] لأنّ هذا يشير إلى عدم الواسطة. ويشهد بذلك أيضاً قول النبيّ: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل».

ويسمّى الثاني: الالهام، وليس بصحيح، لأنّ الالهام خاصّ بالأولياء والأوصياء، كالوحي بالأنبياء والرسل. فأمّا الذي سمّى الأوّل: بالوحي الجليّ، والثاني: بالوحي الخفيّ، فهو مطابق حسن، لأنّ كثيراً من الأنبياء ما نزل إليهم

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٨.
(٢) سورة النجم، الآية: ٥.
(٣) سورة النجم، الآية: ١٠.

جبرائيل ولا ملك آخر غيره، وكانوا أنبياء بالوحي الخفيّ، كأنبياء بني إسرائيل وغيرهم.

٩١٥ - وأمّا العامّ: فمشترك بين الحيوانات والجمادات والإنسان والشياطين، بل بين جميع الموجودات لقوله تعالى في الحيوانات: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾(١).

ولقوله تعالى في الجمادات: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾(٢). وإن قلت: «إن السماء ليس بجماد عندي» فعليك بالنقل الصحيح المتواتر في: «نطق الحصى على يد رسول الله». وليس من شكّ أنّ المعجزة أمر إلّهيّ، فلا يكون نطقه إلا بأمره المسمّى: بالوحي الخفيّ. ولقوله تعالى في الإنسان غير النبيّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾(٣) ولقوله في الشياطين: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾(٤).

ولقوله في جميع الموجودات: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾(٥) وتسبيح الأشياء لا يكون إلا بأمره.

ولقوله أيضاً: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾(٦)، وقد تقدّم هذا البحث في قسم فضيلة التوحيد. ومع ذلك، فمعلوم أنّ التسبيح مشتمل على الحياة والنطق والمعرفة، وإن لم يكن نطق كلّ واحد من الموجودات مناسباً للآخر، كما مرّ تقريره. والحقّ أنّ الوحي بمعناه الخاصّ اصطلاحيّ، وبمعناه العامّ لغويّ، وليس فيهما نزاع عند التحقيق.

٩١٦ - وأمّا الالهام: فيكون أيضاً خاصّاً ويكون عامّاً. فالخاصّ هو مخصوص بالأولياء والأوصياء، وهو يكون أيضاً بواسطة وغير واسطة. فالذي يكون بالواسطة هو يكون بصوت خارج عن الشخص، يسمعه ويفهم منه المعنى المقصود.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٠.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٣) سورة القصص، الآية: ٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٤٦.
(٦) سورة فصلت، الآية: ٢٠.

وهذا يخصّصونه بأوّل حالة الأنبياء، كالرؤيا وغيرها، ويعدّونه من القسم الثاني من الوحي، وهو جائز، وإن كان هو بالإلهام أنسب.

والإلهام الذي يكون بغير الواسطة، يكون بقذف المعاني والحقائق في قلوب الأولياء من عالم الغيب دفعةً أو تدريجاً، كشعاع الشمس مثلاً بالنسبة إلى بيوت المدينة وأهلها.

٩١٧ - وأمّا الالهام العامّ: فيكون بسبب وغير سبب، ويكون حقيقيّاً وغير حقيقيّ. فالذي يكون بالسبب ويكون حقيقيّاً، فهو بتسوية النفس وتحليتها وتهذيبها بالأخلاق المرضيّة والأوصاف الحميدة، موافقاً للشرع ومطابقاً للإسلام، لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾(١) والذي يكون بغير السبب ويكون غير حقيقيّ، فهو يكون لخواصّ النفوس واقتضاء الولادة والبلدان، ما يحصل للبراهمة والكشايش والرهبان. والتميز بين هذين الالهامين محتاج إلى ميزان إلّهيّ ومحكّ ربّانيّ، وهو نظر الكامل المحقّق والإمام المعصوم والنبيّ المرسل، المطلع على بواطن الأشياء على ما هي عليه، واستعدادات الموجودات وحقائقها.

٩١٨ - ولهذا احتجنا بعد الأنبياء والرسل عليهم السلام إلى الإمام والمرشد، لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢) لأنّ كلّ واحد ليس له قوّة التميز بين الالهامين الحقيقيّ وغير الحقيقيّ، وبين الخاطر الإلّهيّ والخاطر الشيطانيّ، وغير ذلك. والذكر هو القرآن أو النبيّ وأهله، هم أهل بيته من الأئمّة المعصومين المطلعين على أسرار القرآن وحقائقه ودقائقه. ولقوله تعالى: أيضاً تأكيداً لهذا المعنى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(٣) أي إلى أهل الله تعالى وأهل رسوله. والآيات الدالّة على متابعة الكامل والمرشد، الذي هو الإمام المعصوم أو العلماء الورثة من خلفائهم، كثيرة؛ فارجع إليها، لأنّ هذا ليس موضعها.

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٧ - ٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٢.

٩١٩ - فنرجع ونقول: وإن تحقّقت، عرفتَ أيضاً أنّ الخواطر - التي قسمّوها إلى أربعة أقسام: إلّهيّ وملكيّ وشيطانيّ ونفساني كان سببه ذلك، أي عدم العلم بالالهامين المذكورين، أعني الحقيقيّ وغير الحقيقيّ، لأنّها كلّها من أقسام الإلهام وتوابعه.

٩٢٠ - وأحسن ما قيل في التميز بين الالهامين أو الخواطر الأربعة، هو أنّ كلّ **ما يكون سبباً للخير وصفاء الباطن، بحيث يكون مأمون الغائلة في العاقبة، ولا يكون سريع الانتقال إلى غيره**، ويحصل بعده **توجّه تامّ إلى** حضرة الحقّ ولذّة عظيمة مرغبة في العبادة، - هو خاطر ملكيّ أو رحمانيّ. وكلّ ما يكون سبباً إلى الشرّ وكدورة الباطن، وبالجملة كلّ ما يكون بعكس ذلك، هو شيطانيّ نفسانيّ.

٩٢١ - وقيل أيضاً: كلّ ما يظهر من اليمين أو القدام، هو ملكيّ إلّهيّ. وكلّ ما يظهر من اليسار أو الخلف، هو شيطانيّ نفسانيّ. وهذا ليس بحسن ولا بضابط كلّيّ، إذ الشيطان يأتي من الجهات كلّها، كما نطق به الكتاب الكريم: ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[1]

٩٢٢ - وقيل: وهو فرق آخر بين هذه الخواطر، وهو في غاية الحسن بحيث لا مزيد عليه: كلّ خاطر يدعو إلى التوجّه الكليّ والفناء المحض والرفض للدنيا ولذّاتها، هو إلّهي.

وكلّ ما يدعو إلى الطاعة والعبادة والخيرات والمبرّات، هو ملكيّ. وكلّ ما يدعو إلى مخالفة الحقّ مطلقاً، بأيّ وجه كان، هو شيطانيّ، لأنّ مقصوده واحد وهو المخالفة، فهذا، بأيّ وجه حصل، حصل مقصوده. وكلّ ما يدعو إلى شيءٍ واحدٍ من ملذّات النفس ومتاع الدنيا، ملبوساً كان أو مأكولاً، بحيث لو عرض عليها غيره لم تقبل، هو خاطر نفسانيّ.

وقد جربنا كثيراً أنّ النفس تطلب ثوباً معيناً أو مأكولاً طيّباً؛ لو عرض عليها بدله ألف ثوب غيره لم تقبل. وهذا المعنى يجده كلّ عاقل من نفسه، ولا يحتاج فيه إلى برهان، ولهذا قال تعالى:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾[1] لأنّ النفس إذا خلصت من قيد مراداتها، دخلت جنّة الاطلاق وكمالاتها.

وههنا أسرار ليس هذا موضعها. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

٩٢٣ - وإذا عرفتَ الفرق بين الوحي والالهام ومراتبهما، فاعلم أنّ الحاصل من الوحي الخاصّ يسمّى علماً نبويّاً إلّهياً.

والعلم الحاصل من الإلهام الخاصّ يسمّى: علماً لدنيّاً غيبيّاً.

والحاصل من الوحي العامّ والإلهام العامّ، أمّا خواطر ملكيّة أو هواجس شيطانيّة.

ثمّ اعلم أنّ العلم اللدنيّ الحاصل من الالهام. وإن كان في جميع الأزمنة حاصلاً، لكنّ قوّته وظهوره في هذا الزمان أكثر، لأنّ الله لمّا سدّ باب الوحي الخاصّ وانقطع طريق النبوّة - كما مرّ - أراد أن ينفتح باب الإلهام ويتّسع طريق الولاية، لطفاً بعبادة وعناية بأحوالهم، وهذا الباب في هذا العالم لا ينسدّ، وهذا الطريق في هذه النشأة لا ينقطع إلا بموت خاتم الأولياء، الذي هو المهدي وقيام الساعة باختفائه، كما أن انقطع طريق النبوّة وانسدّ باب الرسالة بموت نبيّنا ﷺ.

٩٢٤ - وكما كان ابتداء ظهور النبوّة والرسالة من زمان آدم، وكان يزيد كلّ يوم نبويّ وساعة نبويّة شيئاً فشيئاً، كنور القمر أو طلوع الشمس وتزايده ساعةً ساعةً، حتّى كمل ظهوره واستوى نوره وانتهى بمحمّد أقصى غاية الكمال واختفى بالكليّة، كغروب الشمس مثلاً، كذلك كان ابتداء ظهور الولاية من عليّ، وكان يزيد كلّ يوم وساعة شيئاً فشيئاً، كطلوع القمر في ظلمة الليل أو كزيادة نور القمر من الشمس مثلاً وتزايده ساعةً فساعةً، حتّى كمل ظهوره واستوى نوره وقرب أن ينتهي بمحمّد الثاني، الملقب بالمهدي، صاحب الزمان، ويصل أقصى غاية الكمال ويختفي بالكليّة، كغروب القمر في ظلمة الليالي الصوريّة: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ - ٤١.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1] ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

٩٢٥ - والحكمة في هذا المثل أنّ الولاية نسبتها إلى النبوّة كنسبة القمر إلى الشمس، وكذلك نسبة الوليّ إلى النبيّ. وورد في اصطلاح القوم تسمية الولاية بالولاية الشمسيّة والقمريّة، والمراد بهما: ولاية النبيّ وولاية الوليّ، وأن يعرف أيضاً أنّ نسبة العلماء إليهما كنسبة النجوم إلى القمر أو الشمس. فكما أنّه لا يكون للقمر نور وضياء مع وجود الشمس وأنوارها المشرقة، وإن كان القمر موجوداً، فكذلك لا يكون للولاية ظهور ولا نور مع وجود النبوّة والرسالة وأنوارهما المشرقة، وإن كانت الولاية موجودةً. وكما أنّه لا يكون للنجوم نور وضياء مع وجود القمر وأنواره الزاهرة، وإن كانت النجوم موجودة، فكذلك لا يكون للعلماء قدرة ولا ظهور مع وجود الأولياء وأنوارهم من حيث الولاية، وإن كان العلماء موجودين: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[3]. فحينئذٍ، لمّا غربت شمس النبوّة والرسالة، فلا يكون الظهور والنور إلا لقمر الولاية وبعض نجوم العلماء بتبعيّته. ويعضد ذلك كلّه ما أشار إليه النبيّ: «أنا كالشمس وعلي كالقمر وأصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم».

٩٢٦ - ولا يقال: إنّه يلزم من هذا الكلام أنّ المهدي يكون أفضل من عليّ بن أبي طالب جدّه وأولاده المعصومين الراسخين إلى العسكريّ الذي هو أبوه، كما كان محمّد أفضل من آدم والأنبياء الذين كانوا بعده إلى عيسى بن مريم عليهم السلام - لأنّا نقول: لا نسلّم ذلك، لأنّ كلامنا في ظهور نور الولاية وقوّته في زمان المهدي، لا في الكمال الحاصل للمهدي عجل الله تعالى فرجه من العلوم والمعارف، حتّى يكون هو أفضل من عليّ عليه السلام.

٩٢٧ - وأيضاً الولاية بالأصالة ليست إلا لعليّ عليه السلام كما مرّ ذكره وأشار إليها بقوله: «كنتُ وليّاً وآدم بين الماء والطين». فلا يكون شرف المهدي بالحقيقة إلا به وبولايته، كما أنّ كلامنا في ظهور نور النبوّة في زمان محمّد صلى الله عليه وآله وقوّته وكماله، لا

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

في الكمال الحاصل لمحمّد ﷺ من العلوم والمعارف وغير ذلك، حتّى يكون هو أفضل من غيره بالنبوّة فقط، فإنّ النبوّة بالأصالة لمحمّد ﷺ كما قال: «**كنتُ نبيّاً وآدم بين الماء والطين**» فحينئذٍ لا يكون شرف النبيّ بالنبوّة فقط؛ وإن كان، فالنبوّة ليست إلا له، فلا يكون شرفه إلا من نفسه. والغرض أنّه لا يلزم من قوّة نور الولاية في زمان المهدي ترجيح المهدي على غيره من الأئمّة، خصوصاً ترجيحه على عليّ عليه السلام.

٩٢٨ - وأيضاً لو لم تكن النبوّة والولاية أمرين زائدين على كمال النبيّ والوليّ، لما كان الأنبياء متساوين في النبوّة دون غيرها، لقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾(١)، ولما كان الأولياء والأئمّة أيضاً متساوين في الولاية دون غيرها، لقول النبيّ ﷺ: «**المنكر لأولنا كالمنكر لآخرنا**».

وقد مرّ بحث الشريعة والرسالة وانقطاعهما بانقطاع النشأة الدنياويّة، وبحث الولاية وعدم انقطاعها، وغير ذلك من الأبحاث الشريفة؛ فارجع إليها، لأنّ هذا الموضع ليس بلائق بها. هذا آخر ما عندي في معنى الوحي والإلهام وتوابعهما ولوازمهما بقدر هذا المقام.

٩٢٩ - وأمّا الكشف: فالكشف الحاصل للأنبياء والأولياء فداخل تحت الوحي والإلهام، لأنّ الكشف الشهوديّ والمعنويّ مخصوصان بالأنبياء والرسل، والكشف المعنويّ والصوريّ أيضاً مخصوصان بالأولياء والأوصياء وتابعيهم من أمثالهم. وللكشف مراتب كثيرة: كالوحي والإلهام، وله طول وعرض. فنحن نقول ههنا، بقدر هذا المقام، ما قال القوم في تعريفه وتقسيمه بعباراتهم الشافية وإشارتهم العالية، مضافاً إليها عبارة أخرى وهي هذه:

٩٣٠ - اعلم أنّ الكشف: لغةً، رفعُ الحجاب؛ يقال: كشفت المرأة وجهها، أي رفعت نقابها؛ واصطلاحاً هو الاطّلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبيّة والأمور الحقيقيّة، وجوداً أو شهوداً. وهو معنويّ وصوريّ. وأعني بالصوريّ ما يحصل في عالم المثال من طريق الحواسّ الخمس، وذلك إمّا أن يكون على طريق

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

المشاهدة، كرؤية المكاشف صور الأرواح المتجسّدة والأرواح الروحانيّة، وأمّا أن يكون على طريق السماع، كسماع النبيّ الوحي النازل كلاماً منظوماً أو «**مثل صلصلة الجرس**» أو «**دويّ النحل**» كما جاء في الحديث الصحيح: فإنّه عليه السلام كان يسمع ذلك ويفهم المراد منه. أو يكون الكشف على سبيل: «الاستنشاق» وهو: «التنسّم بالنفحات الإلٓهيّة» و«التنشّق بفوحات الربوبيّة». قال عليه السلام: «**إنّ الله تعالى في أيام دهركم نفحات: ألا فتعرضوا لها**». وقال: «**أنّي لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن**».

٩٣١ - أو يكون الكشف على سبيل الملامسة، **وهي بالاتصال** بين النورين أو بين الجسدين المثاليّين، كما نقل عبد الرحمن بن عوف عن عائشة، قالت: «**قال رسول الله: رأيت ربّي - تبارك وتعالى - ليلة المعراج في أحسن صورة. فقال: بم يختصم الملأ الأعلى، يا محمّد؟ - قلتُ: أنت أعلم، أيّ ربُّ! مرّتين. قال: فوضع الله تعالى كفّه بين كتفي، فوجدتُ بردها بين ثديّ. فعلمتُ ما في السماوات وما في الأرض. ثمّ تلا هذه الآية:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾(١).

٩٣٢ - وإلى هذا أشار محقّقوا العلماء ومكاشفوهم في أبيات لهم في أميرالمؤمنين عليه السلام:

قيل لي: قل في عليّ مدحاً ... ينتضي نطقي ناراً موصده

قلت: هل أمدح من في فضله ... حار ذو اللبّ إلى أن عبده؟

والنبيّ المصطفى قال لنا ... ليلة المعراج لمّا صعده

وضع الله على ظهري يدا ... فأراني القلب أن قد برده

وعليّ واضع رجليه لي ... بمكان وضع الله يده

ولله درّ القائل! وقد تنسب هذه الأبيات إلى المتنبيّ وتنسب إلى أمين الدين الطرابلسي - رحمة الله عليهما!.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

٩٣٣ - ومع ذلك، فحيث أخبر الله تعالى بإراءته ذاته لموسى في صورة النار والشجرة، فليس ببعيد إراءته ذاته لمحمّد في صورة النور أو الصورة الإنسانيّة. وبالحقيقة ما رآه محمّد ﷺ إلا في صورة نفسه، التي هي أحسن الصور ظاهراً وباطناً، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾[1] ولقول النبيّ: «**من رآني فقد رأى الحق**»، ولقوله: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**» أي من شاهد نفسه شاهد ربّه. - ولقوله أيضاً وهو أوضح منهما أي من الحديثين: «**خلق الله آدم على صورته**»، وآدم الحقيقيّ هو محمّد ﷺ وحقيقته[2] من حيث حقيقته الغيبيّة، الحقيقة المحمّدية، كما مرّ مراراً.

٩٣٤ - ورآه في صورة مجموع المظاهر التي هي بمثابة صورة واحدة، كقول الكامل: «**العالم إنسان كبير والإنسان عالم صغير**». ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣٥﴾[3] إلى آخره، كما عرفتَ معناه. وكذلك قول أمير المؤمنين: «**نور يشرق من صبح الأزل، فيلوح على هياكل التوحيد آثاره**». وكذلك قوله ﷺ: «**سترون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر**». أو رآه على طريق الذوق، كمن يشاهد أنواعاً من الأطعمة، فإذا ذاق وأكل، اطلع على معانٍ غيبيّةٍ.

قال عليه السلام: «**رأيت أنّي أشرب اللبن حتّى خرج الريّ من أظافيري**»، فأوّل ذلك بالعلم.

٩٣٥ - وهذه الأنواع من الكشف الصوريّ قد يجتمع بعضها مع بعض، وقد ينفرد؛ وكلّها تجلّيات أسمائيّة، إذ الشهود من تجلّيات الاسم «البصير»، والسماع من

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ١١ - ١٢.

(٢) وحقيقته: والمراد بحقيقة النبي، روحه، النور، ونفسه وأصله، بل روح الأرواح وحقيقة الأشياء كلها، وهو عليّ، كما قال: «عليّ روحي التي بين جنبي» وفي الآية الكريمة ما يعضد ذلك، وهو قوله: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] (بالأصل).

(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.

تجلّيات الاسم «السميع» وكذلك البواقي، إذ لكلّ منها اسم يربّه؛ وكلّها من شؤون الاسم «العليم»، وإن كان كلّ منها من «أمّهات الأسماء».

٩٣٦ - وأنواع الكشف الصوريّ إمّا أن تتعلّق بالحوادث الدنيويّة أو لا. فإن كانت متعلّقة بها، كمجيء زيد من السفر واعطائه عمراً ألفاً من الدنانير، سميت: «رهبانيّة» لاطّلاعهم أي أصحابها على المغيّبات الدنيويّة بحسب رياضتهم ومجاهدتهم. وأهل السلوك، لعدم توقّف هممهم العالية في الأمور الدنياويّة، لا يلتفتون إلى هذا القسم من الكشف لصرفها في الأمور الأخروية وأحوالها، ويعدّونه من قبيل الاستدراج والمكر بالعبد؛ بل كثير منهم لا يلتفتون إلى القسم الأخروي أيضاً، وهم الذين جعلوا مقاصدهم الفناء في الله والبقاء به. والعارف المحقّق، لعلمه بالله ومراتبه وظهوره في مظاهر الدنيا والآخرة، واقف معه أبداً ولا يرى غيره، ويرى جميع ذلك تجلّيات آلهيّة، فينزل كلاً منها منزلته. فلا يكون ذلك النوع أيضاً من الكشف استدراجاً في حقّه، لأنّه حال المبعدين الذين يقنعون من الحقّ بذلك، ويجعلون ذلك سبب حصول الجاه والمنصب في الدنيا. وهو تعالى منزّه في الحقيقة من القرب والبعد المثبتين للغيريّة مطلقاً. وإن لم (تكن أنواع الكشف الصوريّ) متعلّقة بها أي بالحوادث الدنيويّة، بأن كانت المكاشفات في الأمور الحقيقيّة الأخرويّة والحقائق الروحانيّة من الأرواح العالية والملائكة السماويّة والأرضيّة، فهي مطلوبة معتبرة.

٩٣٧ - وهذه المكاشفات قلّ ما تقع مجرّدة عن الاطلاع بالمعاني الغيبيّة، بل أكثرها يتضمّن المكاشفات المعنويّة، فتكون أعلى مرتبة وأكثر يقيناً لجمعها بين الصورة والمعنى. ولها مراتب بارتفاع الحجب كلّها أو بعضها دون البعض. فإنّ المشاهد للأعيان الثابتة في الحضرة العلميّة الإلّهيّة، أعلى مرتبة من الكلّ. وبعده من يشاهدها في العقل الأوّل وغيره من العقول. ثمّ من يشاهدها في اللوح المحفوظ وباقي النفوس المجردّة. ثم في كتاب المحو والاثبات. ثمّ في باقي الأرواح العالية والكتب الإلّهيّة: من العرش والكرسي والسماوات والعناصر والمركّبات، لأنّ كلاً من هذه المراتب كتاب إلّهيّ مشتمل على ما تحته من الحقائق والأعيان.

٩٣٨ - وأعلى المراتب في طريق السماع سماع كلام الحقّ من غير واسطة: كسماع نبيّنا محمّد في معراجه وفي الأوقات التي أشار إليها بقوله: «لي مع الله وقت

لا يسعني فيه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل»، وكسماع موسى كلامه تعالى. ثمّ سماع كلامه بواسطة جبرائيل، كسماع القرآن الكريم الحكيم. ثمّ سماع كلام العقل الأوّل وغيره من العقول، ثمّ سماع كلام النفس الكليّة والملائكة السماويّة والأرضيّة على الترتيب المذكور، والباقي على هذا القياس.

٩٣٩ - ومنبع هذه الأنواع من المكاشفات هو القلب الإنسانيّ بذاته وعقله المنوّر العلميّ المستعمل لحواسّه الروحانيّة. فإنّ للقلب عيناً وسمعاً وغير ذلك من الحواسّ، كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾(١) و ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾(٢).

وفي الأحاديث المشهورة ما يؤيّد ذلك كثيراً. وتلك الحواسّ الروحانيّة هي أصل هذه الحواسّ الجسمانيّة.

فإذا ارتفع الحجاب بينها وبين الخارجيّة أي بين الحواسّ الروحانيّة والحواسّ الجسمانيّة يتّحد الأصل مع الفرع، فيشاهد بهذه الحواسّ ما يشاهد بها. والروح يشاهد جميع ذلك بذاته، لأنّ هذه الحقائق تتّحد في مرتبته كما مرّ، من أنّ الحقائق كلّها في العقل متّحدة.

٩٤٠ - وهذه المكاشفات، عند ابتداء السلوك، تقع في الخيال المقيّد. ثمّ بالتدريج وبعد حصول الملكة، ينتقل السالك إلى عالم المثال المطلق، فيطلع على ما يختصّ بالعناصر، ثمّ بالسماوات، فيسري صاعداً إلى أن ينتهي إلى اللوح المحفوظ والعقل الأوّل - صورتيْ أُمّ الكتاب. ثمّ ينتقل إلى حضرة العلم الإلٰهيّ، فيطلع على الأعيان، حسب ما شاء الحقّ سبحانه، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾(٣). وهذا أعلى ما يمكن لعباد الله في مراتب الشهود، لأنّ فوق هذه المرتبة شهود الذات المغيّبة للعباد عند التجلّي، إلا أن يتجلّى الحقّ من وراء الأستار الاسمائيّة، وهي: «عين الأعيان». وإليها أشار الشيخ ابن العربي في «الفصّ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

الشيئي»: «فلا تطمع ولا تتعب نفسك، فإنّها الغاية التي ما فوقها غاية في حقّ المخلوق».

٩٤١ - وقد أشار الشيخ الكامل عفيف الدين التلمساني - رحمة الله عليه - في: «شرحه لمنازل السائرين» إلى خسّة أرباب الكشف الصوريّ وعليه اعتقاد العوامّ في حقّهم، إشارةً حسنةً، وهي تليق بهذا المقام، لأنّ أكثر أبناء الزمان لا يستدلّون على كمال العارف إلا به أي بالكشف الصوريّ.

والحال أنّه نقص بالنسبة إليه، كما ألمعنا إليه الآن. فإشارته أي الشيخ عفيف الدين هو قوله في: «باب البصيرة» عند تحقيق الفراسة: «والذي ثبت عندي بالتجربة أنّ فراسة أهل المعرفة إنّما هي من تمييزهم مَنْ يصلح لحضرة الله مِمّن لا يصلح؛ وبها يعرفون أهل الاستعداد الذين اشتغلوا بالله ووصلوا إلى حضرة الجمع؛ فهذه فراسة أهل المعرفة. وأمّا فراسة أهل الرياضة، بالجوع والخلوة وتصفية البواطن من غير وصلة إلى جانب الحقّ، فلهم فراسة كشف الصور والأخبار بالمغيّبات المختصّة بالخلق، فهم لا يخبرون إلا عن الخلق، لأنّهم محجوبون عن الحقّ. وأمّا أهل المعرفة، فلاشتغالهم بما يرد عليهم ممّا هو من معارف الحقّ، فاخبارهم إنّما هو عن الله تعالى.

٩٤٢ - «ولمّا كان العالم أكثرهم أهل انقطاع عن الله واشتغال بالدنيا، مالت قلوبهم إلى أهل الكشف الصوريّ والأخبار عمّا غاب من أحوال المخلوقات. فعظّموهم واعتقدوا أنّهم هم أهل الله وخاصّته، وأعرضوا عن أهل الكشف الحقيقيّ، واتهموهم فيما يخبرون به عن الله، وقالوا: لو كان هؤلاء أهل الحقّ، كما يزعمون، لأخبرونا عن أحوالنا وأحوال المخلوقات. وإذا كانوا لا يقدرون على كشف أحوال المخلوقات، فكيف يقدرون على كشف أمور أعلى من هذه؟ فكذّبوهم بهذا القياس الفاسد، وعميت عليهم الأنباء الصحيحة. ولم يعلموا أنّ الله تعالى قد حمى هؤلاء عن ملاحظة أهل الخلق وخصّهم به، وشغلهم عمّا سواه، حمايةً لهم وغيرةً عليهم. ولو كانوا ممّن يتعرّضون إلى أحوال الخلق، لما صلحوا للحقّ؛ فأهل الحقّ لا يصلحون للخلق، كما أنّ أهل الخلق لا يصلحون للحقّ».

٩٤٣ - والحقّ أنّ هذا كلام حسن واخبار عن الأمر الواقع بين الناس. أعاذنا الله من أمثال ذلك بفضله وكرمه!.

٩٤٤ - وأمّا الكشف المعنويّ المجرّد من صور الحقائق، الحاصل من تجلّيات الاسم «**العليم**» والاسم «**الحكيم**»، فهو ظهور المعاني العينيّة والحقائق الغيبيّة. وله أيضاً مراتب. أوّلها: ظهور المعاني في القوّة المفكّرة من غير استعمال المقدّمات وترتيب القياسات، بل بأن ينتقل الذهن من المطالب إلى مبادئها، ويسمّى: بالحدس.

٩٤٥ - ثمّ (ظهور المعاني) في القوّة العاقلة المستعملة للمفكّرة، وهي قوّة روحانيّة غير حالّة في الجسم، ويسمّى: بالنور القدس، والحدس من لوامع أنوارها. وذلك لأنّ القوة المفكّرة جسمانيّة، فتصير حجاباً للنور الكاشف عن المعاني الغيبيّة، فهي أدنى مراتب الكشف. ولذلك قيل: الفتح على قسمين: فتح في النفس، وهو يعطي العلم التامّ، نقلاً وعقلاً. وفتح في الروح، وهو يعطي المعرفة وجوداً، لا عقلاً ولا نقلاً.

٩٤٦ - ثم (ظهور المعاني) في مرتبة القلب، وقد يسمّى (ظهورها) بالإلهام في هذا المقام، إن كان الظاهر معنى من المعاني الغيبيّة، لا حقيقة من الحقائق، أو روحاً من الأرواح المجردّة، أو عيناً من الأعيان الثابتة، لأنّ تجلّي هذه الأشياء في هذا الموطن يسمّى مشاهدة قلبيّة.

٩٤٧ - ثمّ (ظهور المعاني) في مرتبة الروح، وينعت (ظهورها) بالشهود الروحيّ، وهو بمثابة الشمس المنوّرة لسماوات مراتب الروح وأراضي مراتب الجسد. فهو (أي المكاشف في مرتبة الروح) بذاته آخذ من الله «**العليم**» المعاني الغيبيّة من غير واسطة على قدر استعداده الأصليّ، ويفيض على ما تحته من القلب وقواه الروحانيّة والجسمانيّة، إن كان من الكمّل والأقطاب؛ وإن لم يكن منهم، فهو آخذ من الله بواسطة القطب على قدر استعداده وقربه منه، أو بواسطة الأرواح التي هي تحت حكمه من (عالميْ) الجبروت والملكوت.

٩٤٨ - ثمّ (ظهور المعاني) في مرتبة السرّ؛ ثمّ (ظهورها) في مرتبة الخفيّ بحسب مقاميها.

(وظهور المعاني في هذه المرتبة) لا يمكن إليه الإشارة ولا تقدر على اعرابه العبارة، كما قيل: «الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة». وإذا صار هذا

المعنى مقاماً أو ملكةً للسالك، اتّصل علمه بعلم الحقّ اتصال الفرع بالأصل، فحصل له أعلى المقامات من الكشف.

٩٤٩ - ولمّا كان كلّ من الكشف الصوريّ والمعنويّ على حسب استعداد السالك ومناسبات روحه وتوجّه سرّه إلى كلّ من أنواع الكشف، ولمّا كانت الاستعدادات متفاوتة المناسبات، متكثّرةً، صارت مقامات الكشف متفاوتة بحيث لا تكاد تنضبط.

٩٥٠ - وأصحّ المكاشفات وأتمّها إنّما تحصل لمن يكون مزاجه الروحانيّ أقرب إلى الاعتدال التامّ، كأرواح الأنبياء والكمّل من الأولياء - صلوات الله عليهم أجمعين -. ثمّ لمن يكون أقرب إليهم نسبة.

٩٥١ - وكيفيّة الوصول إلى مقام من مقامات الكشف - وبيان ما يلزم لكلّ نوع منها يتعلّق بعلم السلوك؛ ولا يحتمل هذا المقام أكثر ممّا ذكر. وما يكون للمتصرّفين في الوجود وأصحاب الأحوال والمقامات، كالأحياء والإماتة وقلب الحقائق، كقلب الماء هواءً وبالعكس، وطيّ الزمان والمكان وغير ذلك، إنّما يكون للمتّصفين بصفة والأسماء المقتضية لذلك، عند تحقّقهم بالوجود الحقّانيّ، أمّا بواسطة روح من الأرواح الملكوتيّة، وأمّا بغير واسطة، بل بخاصيّة الاسم الحاكم عليهم. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

٩٥٢ - وإذ فرغنا من بيان الوحي والإلهام والكشف، فلنشرع في بيان الفرق بين العلمين، أي العلم الكسبيّ الرسميّ والعلم الإرثيّ الإلّهيّ، حسب ما تقدّم شرطه في أوّل القاعدة. وهو هذا:

٢ - في بيان الفرق بين العلوم الكسبيّة والعلوم الإرثيّة.

٩٥٣ - اعلم أنّ العلوم كلّها تنقسم إلى قسمين: رسميّ اكتسابيّ وإرثيّ إلّهيّ. فالعلم الرسميّ الاكتسابيّ يكون بالتعليم الإنسانيّ على التدريج، مع نصب قويّ وتعب شديد في مدّة طويلة. والعلم الإرثيّ الإلّهيّ يكون تحصيله بالتعليم الربّانيّ بالتدريج وغير التدريج، مع روح وراحة، في مدّة يسيرة. وكلّ واحد منهما يحصل بدون الآخر، ولكنّ الثاني: أي العلم الإرثيّ يفيد بدون الأوّل، والعلم الأوّل لا يفيد

بدون العلم الثاني، كعلوم الأنبياء والأولياء المتقدّم ذكرها، فإنّها تفيد بدون العلم الظاهر، بخلاف العلم الظاهر، فإنّه لا يفيد بدونه، كما سنذكره.

٩٥٤ - وإليهما أشار النبيّ بقوله: «**العلم علمان: علم اللسان، وهو حجّة الله على ابن آدم؛ وعلم في القلب، وذلك هو العلم النافع**». وكذلك أمير المؤمنين في قوله: «**العلم علمان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع**». والقسمان بأسرهما يمكن تحصيلهما والجمع بينهما، كما كانا حاصلين لكثير من الأنبياء والأولياء والكمّل. ومع تقديرهما، الأصلح والأنفع منهما لا يكون إلا العلم الثاني أي الذي هو في القلب، لأنّ العلم الأوّل ليس له نفع. ومع أنّه كذلك، المضرّة منه متوقّعة، بل هي واقعة حاصلة، كما ستعرفه، وأقلّها الحرمان من حصول المعارف الحقيقيّة والعلوم الإرثيّة الإلّهيّة التي هي سبب المنفعة، دنيا وآخرة.

٩٥٥ - وبيان ذلك هو أنّ النفع من العلوم - في هذا المكان - هو تحصيل معرفة الله على سبيل اليقين، ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، التي هي أيضاً من معرفة الله تعالى، لأنّ من عرف الأشياء على ما هي عليه، عرف الله على ما هو عليه؛ ومن عرف الله على ما هو عليه، عرف الأشياء على ما هي عليه، لاستحالة انفكاك كلّ واحد منهما عن الآخر، كما تقرّر مراراً. وكلاهما مستحيل الحصول من العلوم الرسميّة.

أمّا الأوّل: أي معرفة الله فلأنّهم أقرّوا بعجزهم عن معرفة ذات الحقّ ووجوده، وقالوا: نحن ما نعرف منه إلا أسماءه وصفاته وأفعاله. والحال أنّ الذي قالوه في هذه المعارف أيضاً، عند التحقيق، لا يشهد إلا بجهلهم، كما سنبيّنه، إن شاء الله.

وأمّا الثاني: أي معرفة النفس فلأنّهم بأجمعهم عجزوا عن معرفة أنفسهم التي هي أقرب الأشياء إليهم، فضلاً عن معرفة غيرها.

٩٥٦ - **أمّا بيان الأوّل**: فلأنّ العلوم الرسميّة بأسرها منحصرة في المعقول والمنقول؛ والمنقولات ليس لها دخل في معرفة الله ومعرفة الأشياء بزعمهم وزعمنا أيضاً؛ فما بقي إلا المعقول. وأعظم المعقولات وأشرفها وأنفسها، عند المتكلّمين، هو علم الكلام وتوابعه ولوازمه؛ وعند الحكماء هو قسم الإلّهيّات وتوابعها ولوازمها. وليس يحصل لهم من هذين العلمين معرفة الله ومعرفة الأشياء قدرُ رأس ابرة، بل تزيد منهما الشكوك والشبه.

٩٥٧ - لأنّ الأشاعرة من المتكلّمين ذهبوا إلى أنّ ذاته تعالى ليست بمعلومة أصلاً، والمعلوم منه وجوده. وذهبوا إلى أنّ وجوده زائد على ذاته، واستدلّوا عليه بأنّ وجوده معلوم، وذاته غير معلومة: فيكون الوجود زائداً على ذاته. وغفلوا عن المفاسد اللازمة لهذا الكلام، التي أقلّها هي أنّ وجوده لو كان زائداً. على ماهيّته، لكان يلزم أن تكون ماهيّته وحقيقته، قبل وجوده، معدومة، لأنّها لو كانت موجودة، للزم تحصيل الحاصل؛ وإذا كانت معدومة، فيلزم هناك فسادان آخران: وهو أن يكون المعدوم المطلق قابلاً للوجود؛ أو يكون الوجود قائماً بالعدم، وكلاهما باطل. فباطل أن يكون وجوده تعالى زائداً على ماهيّته وحقيقته.

٩٥٨ - وإن قيل: يمكن أن يتصوّر الماهيّة من حيث هي ماهيّة، وفي هذه الحالة لا ينسب إليها لا الوجود ولا العدم، - أجيب عنه: بأنّه يلزم من ذلك أنّ مبدأ الموجودات ومنشأها كان قبل الموجودات لا موجوداً ولا معدوماً. وهذا في غاية الرداءة أيضاً.

٩٥٩ - وجواب هذه المسألة: لولا خوف الملالة، لقلتُ فيها أكثر من ذلك من وجوه متنوّعة، بحيث ترتفع الشبه بالكليّة، لكن «الشرط أملك». ومع ذلك، فيكفيهم جواب المعتزلة والحكماء في هذه المسألة لأنّهم أقاموا على ابطالها براهين كثيرة، كما هي مسطورة في كتبهم:

٩٦٠ - وأمّا المعتزلة: فذهبوا إلى أنّ وجوده نفس ذاته وليس هو بزائد عليها، بل هو هي؛ وليس شيء معلوماً منهما، يعني كما أنّ الذات ليست بمعلومة، فكذلك وجوده ليس بمعلوم، بل المعلوم منه صفاته وأسماؤه وأفعاله. والحال أنّ صفاته وأسماءه وأفعاله ليست بمعلومة لهم، كما سيجيء بيانه.

٩٦١ - وبعضهم: خوفاً من هذا المذهب، ذهب إلى أنّ له تعالى وجودين: خاصّاً وعامّاً. فالوجود الخاصّ ليس بمعلوم لنا، لكنّ المعلوم هو الوجود العامّ. وفساد هذا القول أيضاً لا يخفى على أحد، لأنّه إذا قال: وجوده تعالى الخاصّ ليس بملعوم، والمعلوم وجوده العامّ، فهذا تناقض، لأنّه إذا قال: «وجوده» فقد انتفت العموميّة. وإن أسقط الضمير الذي في «وجوده»، ارتفعت النسبة والإضافة. وإذا

ارتفعت النسبة والإضافة، فبقي الوجود العامّ على عموميّته واشتراكه بينه وبين غيره، فلا ينسب إليه.

٩٦٢ - وقد قلنا في غير هذا الموضع: العجب كلّ العجب! أنّهم يعجزون عن معرفة وجودٍ واحدٍ، فكيف يثبتون له وجودين ويدعون معرفته؟ وهذا أيضاً ليس بعجيب، فإنّ المتحيّر في أمره يفعل أكثر من ذلك! فكأنّه فيهم نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾[(١)]، وفيهم ورد: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[(٢)].

٩٦٣ - وعلى جميع التقادير، ما عرفوا هؤلاء جميعاً شيئاً لا من ذاته ولا من وجوده، بل زادت شكوكهم وشبههم، وصدق عليهم ما صدق على غيرهم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[(٣)].

قل للذين قضوا في البحث عمرهم ... ثمّ اطمأنوا وظنّوا أنّهم فرغوا

الأمر أعظم من مرمى عقولكم ... كم بالغ الناس في هذا وما بلغوا

٩٦٤ - ثمّ بعد ذلك، أي بعد هذا الجهل الصريح، توّهموا أنّهم من العارفين بالله وبذاته وبوجوده، وأنّهم قد وصلوا الغاية القصوى التي ليس وراءها مرمى، فنزلوا عن معرفة ذاته ووجوده، وشرعوا في معرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، وقالوا: أنّها زائدة على ذاته، أو هي نفس ذاته، أو جزء ذاته، وأمثال ذلك.

٩٦٥ - فقالت الأشاعرة: صفات الله زائدة على ذاته، لأنها لو كانت نفس ذاته، للزم التكثير في الذات؛ والتكثير في الذات موجب للتركيب المستلزم للاحتياج إلى أجزائه وأفراده؛ وكلاهما على الواجب محال؛ فمحال أن تكون صفاته عين ذاته. وهو المطلوب.

٩٦٦ - وقالت الأشاعرة أيضاً: الصفة عرض؛ ولو كانت عين ذاته، لكانت ذاته

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

عرضاً أو محلاً للأعراض؛ وكلاهما محال على ذات الواجب؛ فمحال أن تكون الصفات عين ذاته.

٩٦٧ - وقالت المعتزلة جواباً لهم واثباتاً لدعواهم: إنّ صفات الله غير زائدة على ذاته، لأنّها لو كانت زائدة على ذاته، لكانت موجودة في الخارج؛ وإذا كانت موجودة في الخارج، كان يلزم منه احتياج الواجب إلى الممكن، أو تعدّد الواجب واحتياجه إلى واجب آخر غيره، أو وجوب العرض وقيامه بذاته، أو احتياج صفاته إلى موجد يوجدها؛ وكلّ ذلك محال؛ فمحال أن تكون الصفات زائدة على ذات الواجب.

٩٦٨ - وبيان ذلك أنّ الموجود في الخارج، باتّفاق العقلاء، لا يخلو من موجودين، أمّا أن يكون واجباً أو ممكناً. فصفاته أي الموجود الواجب إن كانت واجبة، لزم تعدّد الواجب، أو وجوب العرض - الذي هو صفاته - وقيامه بذاته، لأنّ الواجب يجب أن يكون قائماً بذاته. وإن كانت الصفات ممكنة، لزم احتياج الواجب إلى الصفة الممكنة التي هي العلم أو القدرة، أو احتياج صفة إلى موجد يوجدها لأنّها ممكنة، والممكن محتاج إلى مؤثر آخر غيره. وهكذا ينتهي الأمر إلى الدور أو التسلسل، وكلاهما باطلان؛ فباطل أن تكون الصفات زائدة على الذات.

٩٦٩ - وقالت المعتزلة أيضاً: إنّ صفات الله زائدة في الذهن أو العقل؛ وإلا، ففي الخارج هي عين ذاته. - وهذا أقرب إلى الحقّ، وإن كان بعيداً عنه.

٩٧٠ - وقسْ على هذا معرفة الأسماء والأفعال، لأنّ الأسماء مرتّبة على ترتيب الصفات وكمالاتها الذاتيّة. فإذا لم تكن الصفات معلومة، فلا شكّ أنّ الأسماء، التي هي مرتّبة عليها، لا تكون معلومة. والأفعال كذلك، لأنّ مجاريها ومنشأها الأسماء والصفات؛ والأسماء والصفات غير معلومة؛ فتكون الأفعال الصادرة عنها أو بحسبها أيضاً كذلك: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾[1] وههنا أبحاث كثيرة.

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٨٠ - ١٨٢.

٩٧١ - والغرض أنّهم ما عرفوا أيضاً من أسمائه تعالى وصفاته. وأفعاله شيئاً، بل ظنّوا فيه ظنّاً فاسداً وتوّهموا توّهماً كاذباً، حتّى ورد فيهم قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[1] ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2] وفيهم قيل:

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلّها وسيّرت طرفي بين تلك العوالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سِنّ نادم

هذا حال المتكلّمين من الأشاعرة والمعتزلة في معرفة الله تعالى.

٩٧٢ - وأمّا حال الحكماء، من المشّائين والاشراقيّين: فهو أنّهم أيضاً اتّفقوا على أنّ وجود الله تعالى نفس ذاته وعين حقيقته؛ وذاته غير معلومة حقيقةً، فكذلك وجوده؛ والمعلوم منه تعالى اللوازم ولوازم اللوازم، وغير ذلك. وكذلك قالوا في الصفات: أعني أنّهم قالوا في الصفات: أنّها نفس الذات، وأنّها غير زائدة عليها. قالوا: وكما أنّ الذات ليست بمعلومة، فالصفات أيضاً ليست بمعلومة. ومرادهم من هذا هو أنّه لا يتصوّر في ذاته تعالى كثرة أصلاً، لا وجوداً ولا اعتباراً، اسماً كان أو صفةً، فعلاً كان أو وجوداً.

٩٧٣ - وما قالوا هذا الكلام في معرفة الله فقط، بل قالوا في معرفة جميع الأشياء مطلقاً، حتى قالوا: بل نحن ما نعرف حقيقة الأعراض التي هي أدنى الموجودات وأخسّها، والتي هي ليست بموجودة عند الأكثرين، فضلاً عن غيرها. وكلامهم الدالّ على هذا وإن كان كثيراً، لكنّ خلاصته فيها هو الذي نقل عن شيخهم ورئيسهم، أفضل الحكماء المتقدّمين والمتأخّرين، أكمل العقلاء الأوّلين والآخرين، الشيخ أبي علي ابن سينا - قدّس الله روحه - وهو قوله:

٩٧٤ - «الوقوف على حقائق الأشياء ليس في قدرة البشر. فإنّا لا نعرف من الأشياء إلا خواصّها ولوازمها والاعراض منها. ولا نعرف الفصول المقوّمة لكلّ واحد منها الدالّة على حقيقتها؛ بل نعرف أنّها أشياء لها خواصّ وأعراض ولوازم.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

فلا نعرف حقيقة الأوّل ولا العقل ولا النفس ولا الفلك ولا النار ولا الهواء ولا الماء ولا الأرض. ولا نعرف حقيقة الأعراض».

٩٧٥ - وقال أيضاً: «نحن لا نعرف حقيقة الأوّل تعالى وتقدّس. وإنّما نعرف منه أنّه يجب له الوجود، وهذا هو لازم من لوازمه لا حقيقته. ونعرف بواسطة هذا اللازم أُخر: كالوحدانيّة وسائر الصفات».

٩٧٦ - ولهم أيضاً قاعدة كليّة موافقة أيضاً لهذه القواعد، نقول أي نصوغها بعين عبارتهم: لا يمكن للإنسان أن يعرف حقيقة شيءٍ أصلاً، لأنّ معرفة الشيء حقيقةً تكون بجنسه وفصله. والموجودات بأسرها منحصرة في المركّبات والبسائط. فالبسائط لا جنس لها ولا فصل، وإلا فلا تكون بسيطةً؛ فلا تعرف أصلاً. والمركّبات مركّبة من البسائط، ومعرفة المركّب لا تمكن إلا بمعرفة أجزائه، وأجزاؤه بسيطة، وهي غير معلومة؛ فلا تمكن معرفة الممكن ولا المركّبات أصلاً. - وهذا كلامهم الجمليّ في هذا الباب.

٩٧٧ - وقد ألزمهم المتكلّمون في أمثال ذلك كثيراً؛ لكن في كلامهم التفصيليّ ألزمهم الإمام العالم، أفضل المتقدّمين والمتأخّرين، نصير الحقّ والملّة والدين الطوسي - رحمة الله عليه - في مسألتين معتبرتين، عليهما مدار أصولهم وقواعدهم.

الأولى: منهما مسألة كيفية الصدور وأنّ الواحد لا يصدر عنه إلا واحد.

والثانية: مسألة العلم بالجزئيّات الزمانيّة، وأنّ الله ليس بعالم بها. (والزامه) هو في غاية الحسن، نذكره ههنا. ثمّ نرجع بعده إلى ما كنّا بصدده.

٩٧٨ - المسألة الأولى منهما، قوله: - قدّس سرّه «قالت الفلاسفة: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد. وكلّ شبهة لهم على هذه الدعوى هي في غاية الركاكة. ولذلك قالوا: لا يصدر عن الباريء تعالى بلا واسطة إلا عقل واحد؛ والعقل فيه كثرة، هي الوجوب والإمكان وتعقّل الواجب وتعقّل ذاته، ولذلك صدر عنه عقل آخر ونفس وفلك مركّب من الهيولى والصورة. ويلزمهم أنّ أيّ موجودين فرضنا وجودهما في العالم، كان أحدهما ضرورةً علّةً للآخر، بواسطة أو بغيرها. وأيضاً: التكثّرات التي في العقل، إن كانت موجودةً صادرةً عن الباريء، لزم صدورها عن الواحد؛ وإن

صدرت عن غيره، لزم تعدّد الواجب. وإن لم تكن موجودةً، لم يكن تأثيرها في الموجودات معقولاً».

٩٧٩ - والمسألة الثانية قوله: «قالت الفلاسفة: الباريء تعالى لا يعلم الجزئيّ الزمانيّ، وإلا لزم كونه تعالى محلاً للحوادث، لأنّ العلم هو حصول صورة مساوية للمعلوم في العالم. فلو فرض علمه تعالى بالجزئيّ الزمانيّ على وجه يتغيّر ثمّ تغيّر، فإن بقيت الصورة كما كانت، كان جهلاً؛ وإلا كان ذاته محلاً للصور المتغيّرة بحسب تغيّر الجزئيّات. وهذا الكلام يناقض قولهم: إنّ العلم بالعلّة يوجب العلم بالمعلول؛ وأنّ ذات الباري علّة لجميع الممكنات؛ وأنّه تعالى يعلم ذاته.

٩٨٠ - «والعجب أنّهم، مع دعواهم الذكاء، كيف غفلوا عن هذا التناقض؟ فهم بين أمور خمسة:

١ - أمّا أن يثبتوا للجزئيات علّة لا تنتهي في السلسلة إلى العلّة الأولى.

٢ - أولا يجعلون العلم بالعلّة موجباً للعلم بالمعلول.

٣ - أو يعترفون بالعجز عن اثبات عالميّته تعالى.

٤ - أو لا يجعلون العلم هو حصول صورة مساوية للمعلوم في العالم.

٥ - أو يجوزون كونه تعالى محلاً للحوادث. هذا آخرها.

فجماعة يكون علمهم وحكمتهم بهذه المثابة، فمن يعدّهم من الحكماء أو من أهل الإسلام؟ نعوذ بالله منهم ومن تابعيهم!.

٩٨١ - وأمّا بيان الثاني: وهو بيان معرفتهم بالأشياء، ولا سيّما بأنفسهم التي هي أقرب الأشياء إليهم، فالمتكلمون من الأشاعرة والمعتزلة قد اختلافوا اختلافاً شديداً في معرفة الأشياء التي هي غير الله، من الجواهر والأعراض، اختلافاً شديداً لا يكاد ينضبط، خصوصاً في معرفة النفس التي هي أشرف الأشياء وأعظمها وأنفسها، لأنّ بعضهم ذهب إلى أنها مجرّدة؛ وبعضهم أنها غير مجرّدة؛ وبعضهم أنّها محدثة؛ وبعضهم أنّها قديمة؛ وبعضهم أنّها أجزاء أصليّة؛ وبعضهم أنّها جسم؛ وبعضهم أنّها جوهر؛ وبعضهم أنّها داخلة في البدن؛ وبعضهم أنّها خارجة عنه؛ وبعضهم أنّها لا داخلة ولا خارجة؛ وبعضهم أنّها هالكة بعده؛ وأمثال ذلك. ولكلّ واحدة من هذه الدعاوى براهين كثيرة من طرفهم ومن طرف الخصم، ولا يحتمل هذا

الموضع ذكرها ولا ذكر أقلّها. ومع ذلك، فنحن لسنا محتاجين إليها، لأنّ المقصود حاصل بهذا المقدار، وهو العلم بعدم معرفتهم بها؛ وقد حصل. والحمد لله على ذلك.

٩٨٢ - وأمّا الحكماء من الاشراقيّين والمشّائين: فهم أيضاً اختلفوا اختلافاً عظيماً في معرفة الأشياء التي هي: العقول والنفوس والأفلاك والأجرام والصورة والهيولى والجواهر والأرض والعناصر والمواليد وغير ذلك، لا سيّما في معرفة النفس.

فإنّ بعضهم قال: أنّها بسيطة مجرّدة حادثة.

وبعضهم قال: أنّها بسيطة مجرّدة قديمة.

وبعضهم قال: أنّها قبل الأبدان موجودة.

وبعضهم قال: أنّها قبل الأبدان كانت معدومة.

وبعضهم قال: أنّها بعد الأبدان صارت موجودة. وبعضهم قال: أنّها مع الأبدان صارت موجودة. وأمثال ذلك. وعلى هذه الأقوال أيضاً براهين كثيرة.

٩٨٣ - والحاصل أنّهم ما عرفوا من الأشياء ولا من النفس شيئاً، بل زاد من هذه الشبهات جهلهم، وكثر عماهم، وقلّ دينهم، وزال صفاؤهم الفطريّ، وبقي كدرهم الكسبيّ. وصاروا معجبين بأنفسهم، متكبّرين على غيرهم، بحيث لا يرى كلّ واحد منهم من هو أكبر منه قدراً أو أعظم منه علماً. ويصدر من كلّ واحد منهم بالنسبة إلى الآخر ما صدر عن إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[1] أي جعلتني عالماً عظيماً شريفاً، وجعلته جاهلاً حقيراً ذليلاً، فأنا خير منه. نعوذ بالله من هذا المقام!.

٩٨٤ - وكأنّه في أمثال هؤلاء ودعواهم بأنّهم من عباده العلماء، وفي الذي يقول ما لا يعرف ويفعل ما لا يعلم، نزلت هذه الآيات ووردت هذه الكلمات، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾(١).

جلّت كلمته وعظمت رحمته، فأنّها منبع الحكم ومعدن المواعظ ومأخذ العلوم ومشرب المعارف ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

٩٨٥ - والغرض أنّهم لو عرفوا قدر أنفسهم أو قدر عظمة الله، لما ادّعوا معرفته ولا معرفة أنفسهم بمعاونة عقولهم الضعيفة وأفكارهم الركيكة، ولعرفوا ما قال أولياؤه الكاملون وأنبياؤه المرسلون، كقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من أوليائه: **«اعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الاقرارُ بجهل ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب. فمدح الله سبحانه اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً. وسمّى تركهم التعمّق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه، رسوخاً. فاقتصرْ على ذلك ولا تقدرْ عظمة الله تعالى على قدر عقلك، فتكون من الهالكين»**.

٩٨٦ - وكقول نبيّنا صلى الله عليه وآله من أنبيائه: **«خلق الله تعالى العقل لأداء حقّ العبوديّة، لا لادراك حقّ الربوبيّة»**.

٩٨٧ - وإلى صعوبة هذا المقام وعجزهم عن حصول هذا المرام أشار الشيخ الأعظم - قدّس الله سرّه - في «فصوصه» تصريحاً وقال: «ولهذا ما عثر أحد من العلماء والحكماء على معرفة النفس وحقيقتها إلا الإلٓهيّون من الرسل والأكابر من الصوفيّة.

وأمّا أصحاب النظر وأرباب الفكر من القدماء والمتكلّمين، في كلامهم في النفس وماهيّتها، فما منهم من عثر على حقيقتها، ولا يعطيها النظر الفكري أبداً. فمن طلب العلم بها من طريق النظر، فقد استسمن ذا ورم ونفخ في غير ضرم. ولا جرم أنّهم

---

(١) سورة النور، الآيات: ١٤ - ١٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

من: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]. فمن طلب الأمر من غير طريقه، فما ظفر بتحقيقه في هذا الباب؟».

٩٨٨ - وإليه أشار أيضاً في: «فصّ آدم بقوله وهذا لا يعرفه عقل بطريق نظر فكريّ، بل هذا الفنّ من الادراك لا يكون إلا كشف إلّهي منه يعرف ما أصل صور العالم القابلة لأرواحه».

٩٨٩ - وعن مجموع هذا البحث، خصوصاً عن الحالة التي هم عليها في هذا الباب، أخبر مولانا وإمامنا، سلطان الأولياء والوصيّين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو قوله: «**يا أيّها النّاس، وأرباب العقول، كائناً من كان أحمركم وأسودكم، قاصيكم ودانيكم! من المعلوم أنّ المخاطب إنّما يخاطب من ذوي العقول. وإيّاك اعنّي واسمعي يا جارة! إنّما مثلكم كمثل حمار معصوب العين، مشدود في طاحونة، يدار ليله ونهاره فيما نفعه قليل وعناؤه طويل. ومع هذا، فهو يعتقد أنّه قد قطع المراحل وبلغ المنازل، حتّى إذا كشف عيناه، فقد أصبح، ورأى أنّه مكانه لم يبرح، فعاد إلى ما كان عليه. فلحق: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2] وعلى هذا مضت القرون طُرّاً، وهلمّ جرّاً. فرحم الله امرأ أخذ لنفسه، واستعدّ لرمسه، وعلم من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟**».

٩٩٠ - صلّى الله على نفسه القدسيّة وذاته الكاملة، فإنّ كان كلامه شفاء لصدور العارفين، وضياء لقلوب المستبصرين. وكذلك له عليه السلام فصل آخر في ذم علماء الظاهر وغاية جهلهم وكيفيّة حالهم في أنفسهم. وهو يستحقّ أن يكتب بالذهب الخالص، ويجعل دواء لكلّ داء وشفاء لكلّ مرض، خصوصاً داء الجهل ومرض العجب. لا بدّ لنا من ذكره ههنا، ليتنبّه الغافل عن غفلته ويستخلص من ظلمته. وهو قوله:

٩٩١ - «**إنّ أبغض الخلائق إلى الله تعالى رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه، فهو**

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

حائر عن قصد السبيل، مشغوفٌ بكلامِ بدعةٍ ودعاءِ ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضالٌّ عن هدى من كان قبله، مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حمّال خطايا غيره. رهين بخطيئته!».

٩٩٢ - «ورجل قمش جهلاً، موضِعٌ في جهال الأمّة، غارّ في أغباش الفتنة، عم بما في عقد الهدنة. قد سمّاه أشباه الناس عالماً وليس به. بَكّرَ. فاستكثر من جمع ما قلّ منه خيراً مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماء آجن، واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره. فإن نزلت به إحدى المبهمات، هيّأ لها حشواً رثّاً من رأيه. ثمّ قطع به. فهو، من لبْس الشبهات، في مثل نسج العنكبوت: لا يدري أأصاب أم أخطأ؟ فإن أصاب، خاف أن يكون قد أخطأ. وإن أخطأ، رجا أن يكون قد أصاب».

٩٩٣ - «جاهلٌ، خبّاط، جهلة، عاسّ، ركابَ، عَشواءُ. لم يعضّ على العلم بضرس قاطع. يذْرِي الروايات اذراء الريح الهشيم. لا يبالي والله! باصدار ما ورد عليه. لا يحسب العلم في شيءٍ ممّا أنكره. ولا يرى أنّ من وراء ما بلغ منه مذهباً لغيره. وإن أظلم عليه أمر، اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه. تصرّخ من جور قضائه الدماء، وتعجّ منه المواريث».

٩٩٤ - «إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً، ويموتون ضلالاً ليس فيهم سِلعةٌ أبور من الكتاب، إذا تُلِيَ حقّ تلاوته؛ ولا سِلعةٌ أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب، إذا حُرّف عن مواضعه ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر». هذا آخره، وآخر اظهار جهلهم عن معرفة الله ومعرفة شيءٍ من الأشياء، لا سيّما معرفة النفس.

٩٩٥ - وإذ فرغنا منه، فلنشرع في كلامهم الدالّ على جهلهم وعلى ندامتهم ورجوعهم بعد طول العمر وكثرة التحصيل إلى طريق التصوّف، والاقرار بحقيّته، وابطال حقيّة غيره، وغيره ذلك نظماً ونثراً.

٩٩٦ - فمنهم الإمام العالم والفاضل الكامل فخر الدين الرازي - رحمة الله عليه - فإنّه أقرّ بجهله في مواضع شتّى، منها قوله:

نهاية اقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذىً ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

٩٩٧ - ومنها ما روي أنّه بكى ذات يوم، فسأله الحاضرون عن بكائه. فقال: «على مسألة كنتُ اعتقدتها منذ ثلاثين سنة، فلاح لي الساعة أنّ الأمر على خلاف ما كان عندي». ولِمَ لا يجوز أن تكون جميع معلوماته على هذا الوجه؟.

٩٩٨ - وقد كتب إليه الشيخ الأعظم محيي الدين بن العربي - قدّس الله سرّه - كتاباً في وصية، وذكر فيه هذا الكلام بعينه وعاتبه كثيراً على تحصيل العلوم الرسميّة وتركه طريق الرياضة وتحصيل العلوم الحقيقيّة. وهو هذا:

٩٩٩ - «أمّا بعد: فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وقال رسول الله ﷺ: «إذا أحبّ أحدكم أخاه، فليعلمه إيّاه».

وأنا أحبّك. ويقول الله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾[1] [2] وقد وقفتُ على بعض تواليفك، وما أيّدك الله به من القوّة المتخيّلة وما تتخيّله من الفكر الجيد. ومتى ما تغذت النفس من كسب يديها، فإنّها لا تجد حلاوة الجود، وتكون ممّن أكل من تحته، والرجل من أكل من فوقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[3].

١٠٠٠ - «وليعلم وليّي - وفّقه الله - أنّ الوراثة الكاملة هي التي تكون من كلّ الوجوه لا من بعضها: «**والعلماء ورثة الأنبياء**». فينبغي للعاقل أن يجتهد لأن يكون وارثاً من جميع الوجوه، ولا يكون ناقص الهمّة. وقد علم وليّي - وفّقه الله - أنّ حسن اللطيفة الإنسانيّة إنّما يكون بما تحمله من المعارف الإلّهيّة، وقبحها بضدّ ذلك. وينبغي للعالي الهمّة أن لا يقطع عمره في المحدثات وتفاصيلها، فيفوته حظّه

---

(١) سورة العصر، الآية: ٣.

(٢) بالحق: واعلم أن المراد بالحق ههنا هو مولاي وروح الأرواح وسر الأسرار وآية الجبار (بالأصل).

(٣) سورة المائدة، الآية ٦٦.

من ربّه. وينبغي له أيضاً أن يريح نفسه من سلطان فكره، فإنّ الفكر يعلم مأخذه، والحقّ المطلوب ليس ذلك، وإنّ العلم بالله خلاف العلم بوجود الله.

١٠٠١ - «فالعقول تعرف الله من حيث كونه موجوداً، ومن حيث السلب لا من حيث الاثبات. وهذا خلاف الجماعة من العقلاء والمتكلّمين، إلا سيّدنا أبا حامد الغزالي - قدّس الله روحه. فإنّه معنا في هذه القضية، ويجلّ الله سبحانه أن يعرفه العقل بفكره ونظره.

١٠٠٢ - «فينبغي للعاقل أن يخلي قلبه من الفكر، إذا أراد معرفة الله تعالى من حيث المشاهدة. وينبغي للعالي الهمّة أن لا يكون تلقيه، عند هذا، من عالم الخيال، وهي الأنوار المتجسّدة الدالّة على معانٍ وراءها. فإنّ الخيال ينزل المعاني العقليّة في القوالب الحسيّة، كالعلم في صورة اللبن والقرآن في صورة الحبل، والدين في صورة القيد.

وينبغي للعالي الهمّة أن لا يكون معلّمه وشاهده مؤنثاً متعلّقاً بالأخذ من النفس الكليّة، كما ينبغي له أن لا يتعلّق بالأخذ من فقير أصلاً؛ وكلّ ما لا كمال له إلا بغيره، فهو فقير. فهذا حال كلّ ما سوى الله تعالى. فارفع الهمّة في أن لا تأخذ علماً إلا من الله - سبحانه وتعالى - على الكشف. فإنّ عند المحقّقين لا فاعل إلا الله. فاذن لا يأخذون إلا عن الله، لكن كشفاً لا عقلاً. وما فاز أهل الهمّة إلا بالوصول إلى عين اليقين، أنفةً من البقاء مع علم اليقين.

١٠٠٣ - «واعلم أنّ أهل الأفكار إذا بلغوا فيها الغاية القصوى، أدّاهم فكرهم إلى حال المقلّد المصمّم. فإنّ الأمر أعظم من أن يقف فيه الفكر.

فما دام الفكر موجوداً، فمن المحال أن يطمئن ويسكن. فللعقول حدّ تقف عنده من حيث قوّتها في التصرّف الفكريّ، ولها صفة القبول الذي لا حدّ له لما يهبه الله تعالى. فاذن ينبغي للعاقل أن يتعرّض لنفحات الجود، ولا يبقى مأسوراً في قيد نظره وكسبه، فإنّه على شبهة في ذلك.

١٠٠٤ - «ولقد أخبرني من أثِقُ به من اخوانك، وممّن له فيك نية حسنة جميلة، أنّه رآك وقد بكيت يوماً. فسألك، هو ومن حضر، عن بكائك. فقلتَ «مسألة

اعتقدتُها منذ ثلاثين سنة، تبيّن لي الساعة، بدليل لاح لي، إنّ الأمر على خلاف ما كان عندي؛ فبكيتُ وقلتُ: ولعلّ الذي لاح أيضاً يكون مثل الأوّل». فهذا قولك.

١٠٠٥ - «ومن المحال على العارف بمرتبة العقل والفكر أن يسكن أو يستريح، ولا سيّما في معرفة الله تعالى. ومن المحال أن يعرف ماهيّته بطريق النظر. فما لك، يا أخي! تبقى في هذه الورطة، ولا تدخل طريق الرياضات والمجاهدات والخلوات التي شرعها رسول الله ﷺ، فتنال ما نال من قال فيه سبحانه وتعالى: ﴿عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾[1]. ومثلك من يتعرّض لهذه الخطّة الشريفة والمرتبة العظيمة الرفيعة». إلى آخره.

١٠٠٦ - والغرض منه أنّ العلوم الرسميّة الحاصلة من النظر والفكر، ليست خالية من الشكوك والشبهة والخطأ والزلل، حتّى بالنسبة إلى مثل هذا الشخص أي فخر الدين الرازي الذي هو من أعظم علماء المعقول وأقدم أرباب المنقول.

١٠٠٧ - ومنهم المولى الأعظم: سلطان العلماء والمحقّقين، برهان الحكماء والمتكلّمين، نصير الحقّ والملّة والدين الطوسي - قدّس الله روحه العزيز -.

فإنّه ذكر في «فصوله في الأصول» كلاماً حسناً، دالاً على هذا المعنى، شاهداً باتّصافه في طريقه وتحقيقه في سلوكه. وهو قوله: «هذا القدر في معرفة الله تعالى وصفاته، التي هي أعظم أصل من أصول الدين، بل هي أصول الدين، كافٍ، إذ لا يعرف بالعقل أكثر منه، ولا يستيسر في علم الكلام التجاوز عنه، إذ معرفة ذاته المقدّسة غير مقدرة للأنام، وكمال الإلّهيّة أعلى من أن تناله أيدي العقول والأوهام، وربوبيّته أعظم من أن تتلوّث بالخواطر والأفهام. والذي نعرفه ليس إلا أنّه موجود، لو أضفناه إلى بعض ما عداه أو سلبناه إلى ما نافاه، لخشينا أن يوجد له بسببه وصف ثبوتيّ أو سلبيّ، أو يحصل به نعت ذاتيّ معنويّ، تعالى الله على ذلك علواً كبيراً.

١٠٠٨ - «ومن أراد الارتقاء من هذا المقام، ينبغي أنّ وراءه شيئاً هو أعلى من هذا المرام، فلا يقصر همّته على ما أدركه، ولا يشغل عقله - الذي ملكه - بمعرفة الكثرة التي هي امارة العدم، ولا يقف عند زخارفها التي هي زلّة القدم، بل يقطع عن

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٤.

نفسه العلائق الدنيّة، ويزيل عن خاطره الموانع الدنيويّة، ويضعف حواسّه وقواه التي بها يدرك الأمور الفانية، ويحبس بالرياضة نفسه الأمّارة، التي تشير إلى التخيّلات الفاسدة الواهية، ويوجّه همّته بكليّتها إلى عالم القدس، ويقصر أمنيته على نيل محلّ الروح والانس، ويسأل بالخضوع والابتهال من حضرة ذي الجود والافضال أن يفتح على قلبه باب خزانة رحمته، وينوّره بنور الهداية الذي وعده بعد مجاهدته، ليشاهد الأسرار الملكوتيّة والآثار الجبروتيّة، ويكشف في باطنه الحقائق الغيبيّة والدقائق الفيضيّة؛ إلا أنّ ذلك قباء لم يخط على قدر كلّ ذي قدّ، ونتائج لم يعلم مقدّماتها كلّ ذي جِدّ؛ بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. جعلنا الله تعالى من السالكين لطريقه، المستحقّين لتوفيقه، المستعدّين لالهام تحقيقه، المستبصرين بتجلّي هدايته وتدقيقه».

١٠٠٩ - والحقّ أنّ هذا الكلام حجّة قاطعة من طرف العلماء الإلَهيّين على العلماء الرسميّين من لسان مثل هذا الشخص الذي هو حجّة واضحة من بينهم بالعلم والفضل، وعَلَمٌ قائم من جملتهم بالشرف والرتبة. وأيضاً ليس كلامه في هذا الباب منحصراً في هذا، بل له رسائل وكتب فيه، أقلّها: «أوصاف الأشراف في السير والسلوك» و «آغاز وانجام» وغير ذلك.

١٠١٠ - ومنهم الإمام الكامل المحقّق محمّد بن محمّد الغزالي: - رحمة الله عليه. فإنّه بعد رجوعه عن العلم الرسميّ واعتقاده في العلم الإلَهيّ وتصنيفه في هذا الفنّ مثل: «احياء العلوم» و «الغاية القصوى» و «تنبيه السالكين» وغير ذلك، كتب رسالة «في العلم اللدنيّ» المقدّم ذكرها، ورجّح علم التوحيد على جميع العلوم، وكذلك علماءه على جميع العلماء.

وقد ذكرنا فصلاً منها في باب: «النبوّة والرسالة والولاية». وأمّا الذي قال في باب: «العلم وترجيحه وتحقيقه» فهو قوله في أوّلها: بعد الخطبة والفهرست:

١٠١١ - «اعلم أنّ العلم هو تصوّر النفس الناطقة المطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجرّدة عن الموادّ، بأعيانها وكيفيّاتها وجواهرها وذواتها، إن كانت مفردة وإن كانت مركّبة. والعالِم هو المحيط، المدرِك المتصوّر. والمعلوم هو ذات الشيء الذي ينتقش علمه في النفس. وشرف العلم يكون على قدر شرف معلومه. ورتبة العالِم تكون بحسب رتبة العلم.

ولا شكّ أنّ أفضل المعلومات وأعلاها وأشرفها وأجلّها هو: الله الصانع المبدع الحقّ الواحد. فعلمه: - وهو علم التوحيد - أفضل العلوم وأجلّها وأكملها. وهذا العلم ضروريّ، واجب تحصيله على جميع العقلاء، كما قال صاحب الشرع عليه السلام: «**طلب العلم فريضة على كلّ مسلم**». وأمر بالسفر في طلب هذا العلم فقال: «**اطلبوا العلم ولو بالصين كان**». وطلاب هذا العلم هم أفضل العلماء، وبهذا السبب خصّهم الله تعالى بالذكر في أجل المراتب، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾[1]، فعلماء علم التوحيد بالاطلاق هم الأنبياء والأولياء، وبعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء» إلى آخره. وهذا الكلام أيضاً حجّة واضحة على صدق دعوانا. والحمد لله على ذلك.

١٠١٢ - ومنهم الشيخ الرئيس: خلاصة الحكماء وخاتم العلماء أبو عليّ بن سينا - قدّس الله روحه - الذي تقدّم كلامه بالنثر في هذا الباب، أي بأنّه ما عرف حقيقة شيءٍ أصلاً في أيام حياته.

وأمّا النظم الدالّ على ذلك، فأورد عبيد الجوزجاني: أنّ الشيخ الرئيس أبا عليّ بن سينا لمّا حضرت وفاته أنشد هذه الأبيات، وهذا آخر كلامه:

أقام رجالاً في معارفهم ملكي ... وأقعد قوماً في غوايتهم هَلكى

نعوذ بك اللهمّ من كلّ فتنة ... يطوّق من حلّت به عيشة ضنكا

رجعنا إليك الآن فاقبلْ رجوعنا ... وفلّتْ قلوب طال اعراضها عنكا

فإن أنت لم تسمع شكاوى عقولنا ... وتكشف عماها اذن فلمن يشكى؟

١٠١٣ - ومنهم الإمام الفاضل أفضل الدين الخونجي: فإنّه أيضاً:

أقرّ عند وفاته بجهله: كما ذكره الشيخ العارف عفيف الدين التلمساني - قدّس الله روحه - في شرحه «المواقف النفّري» وهو قوله: «وقد نقل إليّ بعض من حضر وفاة الأفضل الخونجي - رحمة الله عليه - وسمع منه عند الموت قوله: نهاية ما وصلتُ إليه أنّي علمتُ أنّني لا أعلم شيئاً غير مسألة واحدة، وهي كون هذا المصنوع مفتقراً إلى صانع؛ والفقير، عندي، إنّما يرجع إلى أمر سلبيّ. فما علم شيئاً أصلاً».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

١٠١٤ - ومنهم الإمام العالم والحكيم الفاضل نصير الدين الكاشي - قدّس الله سرّه: فإنّي سمعتُ منه مراراً كثيرة هذا الكلام بعينه، وهو أنّه يقول: «نهاية ما قد علمتُ في مدّة ثمانين سنة، هو أنّ هذا المصنوع محتاج إلى صانع. ومع ذلك، فتيقّن عجائز الكوفة أكثر من تيقّني في هذا الباب! عليكم بالعمل الصالح وطريقة الأئمّة المعصومين عليهم السلام فإنّ غير هذا هوىً ووسوسة، وليس مآله إلا إلى الحسرة والندامة».

١٠١٥ - ومنهم الإمام الفاضل والحكيم الكامل أفضل الدين الكاشي - رحمة الله عليه: فإنّه أيضاً بعد رسوخه في الحكمة الفلسفيّة والعلوم الرسميّة، رجع إلى طريق أهل الله تعالى وصار من كبارهم، وصنف في هذا الفنّ كتباً ورسائل، وأحواله مشهورة وفضائله معلومة.

١٠١٦ - ومنهم الإمام الفاضل والحكيم العارف، صدر الحقّ والملّة والدين الأصفهاني، المعروف: بترُكه. فإنّه رجع أيضاً من علمه وحكمته إلى علم التصوّف وأهله، وصنّف في هذا الباب كتباً ورسائل، ومن جملتها الرسالة التي كُتبت: «في الوجود المطلق واثباته وبراهينه وأنّه موجود في الخارج» كما هو معلوم لأهله. ومن جملة أقواله فيها، قوله في أوّلها: «أمّا بعد: فإنّ تقرير مسألة التوحيد، على النحو الذي ذهب إليه العارفون وأشار إليه المحقّقون، من المسائل الغامضة التي لا تصل إليها أفكار العلماء الناظرين من المجادلين، ولا تدركها أذهان الفضلاء الباحثين من الناظرين.

وإنّ الأكثرين منهم: يزعمون أنّ القطع به يدلّ على استحكام سوء المزاج في موضوعات القوى النفسانيّة، وعلى احتراق الموادّ الصالحة البدنيّة، واستيلاء المرّة السوداء على الأعضاء الشريفة الأصليّة، إذ القطع ببطلان الأحكام العقليّة الحسيّة والفطريّة الغريزيّة، عقيب المجاهدات والرياضات الخرافيّة الصادرة من الوساوس الخياليّة، لا يمكن لأحد إلا عند عروض ذلك السبب الحديث وابتلائه بما ذكرنا من المرض الخبيث.

لكن لمّا كان الأمر على خلاف ما ظنّوه، بل على عكس ما تخيّلوه، أردتُ أن أكتب رسالةً أوضح فيها حقيقة مذهب العارفين وبطلان قول الطاغين والمنكرين» إلى آخره. فإنّه بعد ذلك شرع في البحث واقامة البرهان، ولا يحتمل ذكره هذا المقام.

١٠١٧ - ومنهم الإمام العالم والشيخ العارف الكامل، كمال الدين ميثم البحراني - قدّس الله سرّه -: الذي رجّح طرق العارفين الموحّدين على طرق جميع العلماء والمتفلسفين في: «شرحه الكبير والصغير لنهج البلاغة» وأسند علومهم وخرقتهم إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. وكذلك في كتابه: «منهاج العارفين في شرح كلام أمير المؤمنين الموسوم بالمائة كلمة». وأقرّ فيه بأنّ الحقّ الذي لا ريب فيه هو طريق الموحّدين من أهل الله المسمّين بالصوفية.

١٠١٨ - وكذلك أستاذه وشيخه الإمام الكامل عليّ بن سليمان البحراني - رحمة الله عليه. فإنّ له أيضاً كتباً ورسائل كثيرة في هذا الباب.

١٠١٩ - ومنهم المولى الأعظم والبحر الخضمّ، كمال الملّة والحقّ والدين عبد الرزّاق الكاشاني - قدّس الله سرّه.

فإنّه رجع من العلوم الرسميّة إلى العلوم الحقيقيّة، ومن طريق علماء الظاهر إلى طريق علماء الباطن، وصار من كبارهم. وصنّف في التصوّف كتباً ورسائل، وشرح كتباً ورسائل، منها: «التأويلات للقرآن المجيد» و«شرح فصوص الحكم» و«شرح منازل السائرين» وغير ذلك، حتّى قال في خطبة بعض رسائله، وهي الاصطلاحات الصوفيّة: «الحمد لله الذي نجانا من مباحث العلوم الرسميّة بالمنّ والافضال. وأغنانا بروح المعاينة عن مكابدة النقل والاستدلال، وأنقذنا ممّا لا طائل تحته من كثرة القيل والقال، وعصمنا من المعارضة والمناظرة والجدل والجدال، فإنها مثار الشبهة ومظانّ الريب والضلال والاضلال». هذا آخره. وأمثال ذلك كثيرة في كلامهم.

١٠٢٠ - والغرض اظهار رداءة العلوم الرسميّة ونفاسة العلوم الحقيقيّة وشرف أهلها وحسنها، لينظر العاقل فيهما ويختار ما هو مناسب بحاله منهما، لئلا يكون القائل بهما مذموماً والداعي إلى اختيار العلم الثاني وترك الأوّل ملوماً، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(١) ويسمع كلّ واحد بأذنه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(٢).

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

١٠٢١ - وإذا تحقّق هذا، فاعلم أنّهم مع هذه الحال، أي مع رداءة علمهم وقساوة قلبهم وبعدهم عن الحقّ وأهله، يتوّهمون أنهم من العلماء الذين هم: «**ورثة الأنبياء**»، وأنّ مداد دواتهم «**أفضل من دماء الشهداء**».

ويتصوّرن أيضاً أنّهم من العلماء الذين هم «**كأنبياء بني اسرائيل**» وأنّ نومهم: «**خير من عبادة الجهال**»، لما ورد في الأخبار النبويّة بما يدلّ على ذلك مثل قوله عليه السلام: «**العلماء ورثة الأنبياء**» وقوله: «**مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء**» وقوله: «**نوم العالم خير من عبادة الجاهل**».

١٠٢٢ - ومعلوم أنّهم ليسوا كذلك، يعني أنّهم ليسوا بأهل لذلك، فنريد أن نخرجهم من هذا التوهّم، ونخلّصهم من هذا التصوّر، ونبيّن لهم أنّهم خارجون عن هذا الحكم عقلاً ونقلاً. فنقول: لا شكّ أنّ استحقاق الإرث لا يخلو من وجهين: أمّا أن يكون بحسب النسب الصوريّ أن كان الميراث صوريّاً، وأمّا بحسب النسب المعنويّ إن كان الميراث معنويّاً.

وليس لهم من هذين النسبين شيء. ولئن سلّمنا أنّ بعضهم يدعى النسبة الصوريّة بأن يكون: «علويّاً فاطميّاً»، لكن ليس هذا الميراث الذي نحن بصدده صوريّاً حتّى يستحقّه بها ذو النسب الصوريّ، بل الميراث كان هنا معنويّاً. فحينئذٍ لا يستحقّه هذا البعض أصلاً. والدليل عليه قصّة نوح عليه السلام مع ابنه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[1] لأنّ هذا الكلام يشهد بعدم أهليّة ابنه له، والعلّة فيه عدم المناسبة المسمّاة: بالمتابعة والدخول في طريقه من حيث الظاهر والباطن. وإذا ارتفعت الأهليّة والقرابة، ارتفع الاستحقاق في الميراث عقلاً ونقلاً، كما لا يخفى على أهله؛ فما بقي إلا النسب المعنويّ.

١٠٢٣ - وإليه أشار مولانا وإمامنا جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «**ولايتي لأمير المؤمنين. خير من ولادتي منه**»..

ويشهد بذلك قول النبيّ صلى الله عليه وآله في حقّ سلمان: «**سلمان منّا أهل البيت**» لأنّ سلمان ما صار من أهل بيته بالنسب الصوريّ، لأنّه ما كان بينه وبين النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته نسبة صوريّة أصلاً، بل صار منهم من حيث النسب المعنويّ.

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.

وهذا البيت أي بيت النبيّ ﷺ أيضاً ليس بيتاً صورياً الذي فيه النسوان والأولاد، بل هو بيت العلم والمعرفة والحكمة[١]، كمال قال النبيّ ﷺ: «**لو علم أبو ذرّ ما في بطن سلمان من الحكمة لكفّره**» ويعرف من ذلك مرتبة الحسن والحسين عليهما السلام بسبب النسب المعنويّ. وهذا غير خفيّ على أحد من المسلمين.

١٠٢٤ - وإلى تحصيل النسب المعنويّ من عباده المخلصين أشار جلّ ذكره - في قوله: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾[٢] لأنّ الدخول فيهم عبارة عن صيرورة الشخص منهم حقيقةً، واتّحاده بهم معنىً لا صورةً، كدخول سلمان في بيت النبيّ ﷺ.

١٠٢٥ - لأنّه بالنسبة إلى الصورة أي مجرّد النسبة الصوريّة أشار القرآن بلفظ: «الاتباع» ولفظ: «الاطاعة»، كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[٣] وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[٤]. وبالنسبة إلى المعنى أي النسب المعنويّ أشار القرآن بلفظ الدخول في قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ وأشار النبيّ بلفظ: الاتّحاد في قوله: «**سلمان منّا أهل البيت**» لأنّ الدخول بحسب المعنى في «عباده» المخلصين، الذين هم: الأولياء والأوصياء، ليس من شأن أهل النسب الصوريّ وأهل الظاهر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾[٥] أي إذا قامت القيامة الكبرى التي هي عبارة عن ظهور المعاني كلّها بانقلاب الظواهر بواطن والبواطن ظواهر. فلا اعتبار هناك للنسب الصوريّ والقرابة المجازيّة، لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾[٦] ولقوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[٧] والمراد أنّه لم يقع في الآخرة وعالم المعاد، الذي هو عالم المعاني، إلا النسب المعنويّ فقط.

---

(١) الحكمة: وهي ولاية النور بالمعرفة النورانية (بالأصل).

(٢) سورة الفجر، الآيتان: ٢٩ - ٣٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٥) سورة المؤمنون: الآية: ١٠٣.

(٦) سورة عبس، الآيات: ٣٤ - ٣٦.

(٧) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

١٠٢٦ - وههنا أيضاً لطيفة وهي في غاية الحسن. وهو أنّه تقدّم في بحث النبوّة والرسالة والولاية أنّ الرسالة والنبوّة التشريعيّة تنقطعان بانقطاع النشأة الدنياويّة، والولاية باقية أبداً. وحينئذٍ لا يكون بين الأنبياء وأمّهم الظاهرة في الآخرة علاقة ونسبة من حيث التكليف والنبوّة والرسالة، لأنّ التكاليف قد ارتفعت، والرسالة والنبوّة قد انختمت، بل تكون علاقة النسبة من حيث الولاية التي لا تنقطع أبداً. وكذلك الشأن بين أهل العرفان والأولياء الذين قامت بينهم مناسبة معنويّة. واللطيفة التي هي في هذا البحث، هي أنّ النبيّ كالأب الصوريّ والوليّ كالأب المعنويّ، فكما لا ينفع الأب الصوريّ ولا النسبة الصوريّة في الآخرة، فكذلك لا تنفع العلاقة الصوريّة مع الأنبياء والرسل من حيث التكاليف. فما بقي إلا العلاقة المعنويّة، فإنّها تنفع في الدنيا والآخرة، كالأب المعنويّ والعلاقة المعنويّة[1].

١٠٢٧ - وبعض المفسّرين فسّر قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾[2] الأولوية بالأبوّة.

وقال هذا البعض من المفسّرين أنّ أُبَيّ وابن مسعود وابن عبّاس قرأوا: «**النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم**».

وروي ذلك عن الباقر والصادق عليهما السلام وعن مجاهد: «**كلّ نبيّ أب لأمّته**». ولذلك صار المؤمنيون اخوة، لأنّ النبيّ أبوهم في الدين، «**وأزواجه أمهاتهم**» في التحريم.

وورد في الخبر: «**إنّ الآباء ثلاثة: أب ولدك، وأب ربّاك، وأب علّمك**». فافهم! فإنّه لطيف ومع لطفه دقيق.

١٠٢٨ - فهذه الأخبار لا تصدق إلا على الأولياء والكمّل، مثل: الأئمّة المعصومين من أهل بيت النبيّ عليهم السلام وبعدهم على تابعيهم من حيث الولاية والمعنى المذكور أي النسبة المعنويّة: مثل سلمان وأبي ذرّ والمقداد وعمار وأويس، إلى يوم القيامة من الموحّدين المحقّقين الوارثين علومهم وكمالاتهم بالنسب المعنويّ والقرابة الحقيقيّة. وسيجيء النقل الوارد من الأئمّة المعصومين عليهم السلام في هذا

---

(١) المعنوية: فإذاً معنى قوله صلى الله عليه وآله: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة، فالنبي أب صوري والولي - صلوات الله عليه - أب معنوي (بالأصل).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

الباب، أي بأنّهم هم الوارثون والخزنة، وبعدهم تابعوهم، كما عرفت بعضه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1].

١٠٢٩ - هذا على سبيل الخطاب. أمّا على سبيل البرهان فنقول: العلوم الكسبيّة ليست بإرثيّة، لأنّ الشيء الكسبيّ لا يسمّى في العرف والشرع، ولا في اللغة والاصطلاح، ارثيّاً.

وعلى هذا التقدير، فكلّ شيءٍ يحصل بالكسب لا يكون ارثاً، ولا يصدق عليه أنه ارثيّ. والعلم الظاهر حاصل بالكسب بمدعي الخصم، فلا يكون إرثيّاً. وإذا لم يكن ارثيّاً، لا يسمّى صاحبه عالِماً وارثاً، لا صورةً ولا معنىً.

١٠٣٠ - وبوجه آخر: الشيء المكتسب ليس بموروث، لأنّ المكتسب عبارة عن تحصيل شيءٍ باجتهاد الشخص وسعيه؛ والموروث عبارة عن شيءٍ يصل إلى شخص بلا سعيه واجتهاده. فينتج: إنّ الموروث ليس بمكتسب، وإنّ كلّ ما يصدق عليه الكسب، لا يكون ارثاً؛ والعلم الظاهر صدق عليه أنّه مكتب، فلا يكون ارثاً، فعلماؤه لم يكونوا وارثين وهو المطلوب.

١٠٣١ - لا يقال: إنّ حكم الخبر، أي الخبر الوارد عن النبيّ ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**» عامّ - لأنّا نقول: لا نسلّم ذلك، لأنّ الحاكم بعموميّته عندك «**الألف واللام**». والألف واللام ليسا للجنس حتّى يحكم بعموميّته أي عموميّة الخبر النبويّ، بل الألف واللام فيه للعهد، ويكون تقديره أنّه يقول: العلماء الخواصّ من كلّ أمّة هم ورثة أنبيائها، الذين هم من أهل الحقّ بينهم. فيكون الخبر النبويّ خاصّاً، ويكون ضميره المستتر يعود إلى طائفة مخصوصة معيّنة.

١٠٣٢ - وأيضاً لو كان حكمه عامّاً، لكان كلّ عالِم في العالم وارثاً لنبيّه، أو كلّ عالِم في أمّة يكون نبيّاً وارثاً. وكلّ من يكون وارثاً للنبيّ يكون حقّاً، فيكون الكلّ حقّاً، وليس الكلّ، عند الكلّ، حقّاً؛ فلا يكون حكمه أي الخبر النبويّ عامّاً.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٤.

١٠٣٣ - وإن سلّمت عموميّته، فلا يلزم لأحد من العلماء، سُنياً كان أو شيعياً، أنّه وارث لنبيّك ﷺ فأنت وهو في مرتبة واحدة، في هذا الحكم. وإذا بطل هذا، ثبت أنّ علماء الظاهر ليسوا بالوارثين للأنبياء، وأنّ علمهم ليس بارثٍ منهم. وهذا هو المطلوب.

١٠٣٤ - وقد أورد الشيخ الكامل عفيف الدين التلمساني - قدّس الله سرّه - أيضاً في شرحه المذكور - في باب الحكمة - نكتة شريفة في هذا الباب، لا بدّ منها. وهي قوله: «فمن حصل له من أبيه آدم ميراث الخلافة، فهو الذي يعطي الأشياء حقوقها، لأنّه خليفة الله، وذلك هو كامل الوقت وقطب الأقطاب. ومن لم يستحقّ الميراث الكامل، فما هو برجلٍ، لأنّ الرجل هو الذي يأخذ ميراثه كاملاً والمرأة تأخذ النصف ممّا يأخذ الرجل.

١٠٣٥ - «فمن حصل له بعض ميراث الرجولة، فعلى قدر ما نقص منه، تكون حصّته حظّه من الأنوثة، حتّى أنّ من لم يحصل له من سرّ الخلافة سوى نصف الميراث، فهو أنثى، لا شكّ في ذلك. فإن نقص عن النصف، فهو دون درجة الأنوثة بمقدار ما نقص عنها، لأنّ النصف إنّما هو فرض الأنثى التي كملت في الأنوثة.

فأمّا الأنثى إذا نقصت عن الصنف، فهي كالرجل الذي نقص عن الكلّ؛ فمرتبتها في النقصان بقدر ما فاتها، حتّى ينتهي النقصان إلى درجة البهائم».

١٠٣٦ - واللطيفة في هذه النكتة أنّ علماء الظاهر ليسوا بأولاد آدم حقيقةً، لأنّهم ما استحقّوا شيئاً من الميراث أصلاً. فالكلام إنّما هو في أولاده المستحقّين للميراث، والناقصين عن نصيبهم بقدر نقسانهم. والسلام!.

١٠٣٧ - لا يقال: إنّ علوم هؤلاء القوم الذين يدّعون أنّها إرثيّة وأنّهم وارثون للنبيّ، هي أيضاً كسبيّة، لأنّها موقوفة على الرياضة والمجاهدة والشرائط المعلومة، من الترك والتجريد والتوجّه إلى الحقّ وغير ذلك، - لأنّا نقول: ليس كذلك! لأنّهم ما يدّعون أنّ علومهم موقوفة على الرياضة، بل يقولون: إنّ الرياضة سبب من الأسباب المهيّئة وآلة من الآلات المعدّة. وإلا، فحصولها ليس موقوفاً عليها، لأنّ الله تعالى لا يفعل بالأسباب بل يفعل عند الأسباب، وبينهما فوارق كثيرة.

بل جميع الكمالات عندهم اختصاص إلّهي، حاصل بلا التفات إلى سبب وشرط، كما هو للأنبياء وللأولياء عليهم السلام. فالعلوم الحاصلة من الوحي والإلهام والكشف، كما مرّ ذكرها، لا تكون كسبية ولا حاصلة بسبب من الأسباب أصلاً، بل تكون بفضل الله ومنّه: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

١٠٣٨ - فحينئذٍ لا ينبغي أن يتوّهم أنّ مجاهدتهم ورياضتهم، لا مجاهدة الأنبياء والأولياء ورياضتهم، كان لأجل كسب علم من العلوم أو كشف من الكشوف. لا، والله! بل هو عبوديّة محضة وانقياد لأمر سيّدهم بطاعة شكر النعمة الواصلة إليهم قبل وجودهم وبعد وجودهم، كقول سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» ولقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[2] أعني الشكور في مقام العبوديّة الصرفة فقط.

ولهذا قال أيضاً: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[3]. وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[4]. وههنا أسرار كثيرة.

١٠٣٩ - والغرض أنّ العبد الحقيقيّ لا يتوقّع من سيّده بخدمته له شيئاً أصلاً. وإن توقّع منه شيئاً ما فلا يكون موصوفاً بهذه الصفة، أي صفة العبوديّة الحقيقيّة. والذي يصل إليه منه تعالى هو بمحض العناية السابقة الأزليّة، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[5] لا بطريق الكسب والاجتهاد.

١٠٤٠ - ومعلوم أنّ بناء شغل هذه الطائفة قائم على الفناء المحض والطمس الكليّ وعدم نسبة شيءٍ إليهم. فكيف يكون لهم وجود حتّى تكون لهم مجاهدة؟ وإن كان لهم وجود، فكيف ينظرون إلى عبادتهم وطاعتهم؟ وعندهم النظر إلى عبادة العبد وطاعته أقبح من عبادة الصنم وطاعته، حتّى رؤية وجودهم - عندهم في تلك الحالة - ذنب، لقولهم فيه: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٢.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٤) سورة طه، الآية: ١١٣.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

١٠٤١ - ومع ذلك، فنحن ما نريد بالكسب إلا المكتسب من المخلوق مثله، بطريق الاكتساب والنظر العقليّ وترتيب المقدّمات القياسيّة ونتائج الفكر.

فأمّا إذا كان أخذ من الله تعالى، فهو - على أيّ وجه اتّفق - إرث لا كسب. وإلا، فيلزم من ذلك أن تكون علوم الأنبياء والرسل والملائكة كلّها كسبيّة، لأنّهم ما يأخذون العلوم إلا من الله تعالى مباشرةً. فالعلوم المأخوذة من الله بطريق الوحي أو الالهام أو الكشف، أو من أنبيائه وأوليائه وملائكته بطريق التلقّف والتلقين، لا تكون كسبيّة. وليس للرياضة والمجاهدة في هذا دخل، كما مرّ. وهذا المعنى لا يصل إلى ذهنك كما ينبغي، حتّى يتمثّل فيه بمثال محسوس قريب إليه.

١٠٤٢ - اعلم أنّ مثلهم في أخذ العلوم الحقيقيّة بالإرث الحقيقيّ كمثل شخص مات أبوه أو غاب عنه، وخلّف لأجله تحت الأرض خزينة مال وأوصى بها. فإذا أراد هذا الشخص اخراج هذا الملأ من تحت الأرض، فلا شكّ أنّه يحتاج إلى حفر الأرض ورفع الأثقال عن فوق الخزانة وحواليها.

فهذا الحفر وهذه المجاهدة في رفع الأثقال عن الخزانة لا يخرج الخزانة والمال عن الإرثيّة، ولا يجوز عندئذٍ أن يقال: أنّ هذا كسبيّ وأنه حصل بالكسب لأنّه أي مثل هذا القول لا يكون صحيحاً.

١٠٤٣ - فمثال الناس في هذا المثل: أنّ أباهم، الذي هو آدم الحقيقيّ[1]، خلّف تحت أراضي قلوبهم خزائن علوم إلّهيّة، كما ورد به النقل وحكم به العقل، وسنورد بعضه. فإذا أرادوا اخراجها وتوجّهوا إلى ابرازها، فليس فيه شكّ أنّهم يكونون حينئذٍ محتاجين إلى الحفر الذي هو الرياضة، ودفع الأثقال عن فوقها الذي هو المجاهدة. فحينئذٍ هذه الرياضة والمجاهدة لا تخرج هذه الخزائن والدفائن عن الإرثيّة.

وإن قيل: أنّها كسبيّة بسبب هذه المجاهدة، فلا يكون هذا القول إلا سفهاً

---

(١) آدم الحقيقي: اعلم أن المراد بآدم الحقيقي هو أمير المؤمنين - صلوات الله عليه القائل: «أنا آدم، أنا نوح...» (بقلم جديد).

ومكابرة للعقل السليم الصادق والاعتبار به. فافهم! فإنّه حسن: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾[1].

١٠٤٤ - فإذا رأيتهم مستغنين عن تحصيل العلوم الرسميّة - لا الإلّهيّة - التي هي: كالقشر بالنسبة إليها، ومستغنين أيضاً عن صاحبها، فاعلم أنّه لحصول هذه الخزائن ووجود هذه الدفائن، لأنّ كلّ شخص يكون في بيته خزائن الأموال ودفائن النقود، لا يحتاج إلى غيرها في شيءٍ مثلها. وإذا رأيتَ جماعة ليلاً ونهاراً في طلب العلم، وهم جاهلون بوجود هذه الخزائن والدفائن - كالمكديّ الذي يطلب ليلاً ونهاراً من الأبواب فلساً فلساً ويكون دائماً فقيراً - فاعلم أنّهم من الذين ليس لهم علم بأنّ أباهم الحقيقيّ خلّف لأجلهم تحت أراضي قلوبهم دفائن وخزائن؛ وإلا، فلا يكونون محتاجين إلى هذه الغاية. وسيجيء الكلام في هذا المثل أبسط من ذلك.

١٠٤٥ - فأمّا الآيات والأخبار الدالّة على ذلك، فمثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[2] أي ما تعلم نفس بني آدم ما أخفينا لها في جبلتها وطينتها من قرّة أعين، أي من العلوم الحقيقيّة والحقائق الإلّهيّة، التي تكون هي قرّة أعين البصيرة ونور سويداء القلب، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[3] لأنها لو علمت بها، لما كانت محتاجة إلى غيرها جاهلةً بنفسها، بل كانت مستغنية بها، عالمةً بوجودها، مكحلةً عين بصيرتها بها.

١٠٤٦ - ويعضده الحديث القدسيّ: «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**» لأنّ معناه هو أنّه يقول: أعددتُ لعبادي الصالحين، أي هيأتُ وأعددتُ لأجل عبادي الصالحين بمعرفتي ومشاهدتي تحت أراضي قلوبهم، من العلوم والحقائق ما لا عين رأت من عين هؤلاء المحجوبين، ولا سمعت آذانهم بمثلها، ولا خطر على قلوبهم ذكرها، لعدم مناسبتهم المعنويّة مع أبيهم الحقيقيّ، لأنّ هذه العلوم إرثيّة ولا يمكن تحصيلها إلا بالإرث الحقيقيّ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

والنسب المعنويّ المعبّر عنهما: «**بالعمل الصالح**»[١] كما مرّ تقريره مراراً، خصوصاً في الأصل الأوّل.

وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[٢] وقيّده: «بعبادي الصالحين» يعني ليس لغيرهم قوّة ابراز هذه الحقائق من القوّة إلى الفعل واظهار هذه الدقائق من البطون إلى الظهور، كما مرّ في مثل: الخزائن والحفر الصوريّ، لأنّ غيرهم عارون عن هذه الصلاحيّة، محجوبون بأنفسهم عن وجود هذه الخزينة.

١٠٤٧ - وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[٣] الآية، لأن المراد باقامة التوراة هو القيام بأركان الشريعة من حيث الظاهر؛ والمراد باقامة الانجيل هو القيام بأركانها من حيث الباطن؛ والمراد باقامة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم﴾ «ما أنزل إليهم» هو العمل بـ القرآن، والقيام بجميعها هو: مقام الحقيقة.

فكأنّه تعالى أراد به: أي بهذا النصّ القرآني القيام بالمراتب الثلاث، التي هي: الشريعة والطريقة والحقيقة، المخصوصة: بموسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام الذين هم أكمل الأنبياء والرسل. وهذا ليحصل لهم بعد ذلك: «الأكل من فوقهم» الذي هو حصول اللذّات الروحانيّة ومشاهدة الحقائق الملكوتيّة، و «الأكل من تحت أرجلهم» الذي هو حصول اللذّات الجسمانيّة ومشاهدة الحقائق الملكيّة؛ وبالجملة ليحصل لهم ادراك حقائق الملك والملكوت ومشاهدة لطائف القدس والجبروت ادراكاً علمياً حقيقياً، ثمّ كشفاً يقينياً، ثمّ ذوقاً شهودياً الذي هو النهاية.

١٠٤٨ - والمراد بالاستشهاد في هذه الآية، هو أنّ جميع هذه الخزائن مدفونة تحت أرجل هذا الإنسان - أعني في بدنه - ومخفيّة فيه؛ غير أنّها موقوفة على الابراز والاظهار بمعاونة الصلاحيّة الكليّة المسمّاة بالتقوى الحقيقيّة الموجبة للعلوم

---

(١) العمل الصالح: وفي متون الأحاديث الصحيحة: «أن العمل الصالح هي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام». (بالأصل).

(٢) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

الإرثيّة، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، ولقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2] والكلّ ارث له من: «الأب الحقيقيّ» و«الأمّ الكليّ» لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[3] الآية، كما تقدّم ذكره.

١٠٤٩ - وإلى هذا أشار تعالى بقوله أيضاً: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[4] أي هذه الأرض التي فيها خزائن العلوم والحقائق، «يرثها» من أبيهم: ﴿عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي المصلحون للإرث الحقيقيّ، الصالحون للقرابة الحقيقيّة. وبسبب أن لا يكون في المعاد الحقيقيّ والفناء الكليّ أحد ينسب إليه الميراث، بحكم: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[5]، قال تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[6]. فأضاف «الوراثة الكليّة» إلى نفسه وأخبر عن مقام التوحيد الحقيقيّ والفناء والكليّ المعبّر عنهما باسقاط الإضافات بقولهم «التوحيد اسقاط الإضافات» لأنّ الاضافات ما دامت قائمة، ليس للتوحيد وجود: «وإنّما يتبيّن الحقّ عند اضمحلال الرسم». وهذا البحث ما له تعلّق بهذا المكان، لكنّ الكلام يجرّ الكلام.

١٠٥٠ - والغرض أنّ العلوم الإلّهية والحقائق الربّانيّة كلّها ارثيّة، حاصلة من صفاء القلب ورفع الحجاب عن وجهه، كما عرفته عند البحث في الوحي والإلهام والكشف. وسيجيء هذا البحث مستوفى في موضعه، إن شاء الله.

١٠٥١ - هذا من حيث القرآن. وأمّا من حيث الأخبار، فكقول النبيّ ﷺ: **«العلم نور وضياء يقذفه الله في قلوب أوليائه»**. وممّا أنطق تعالى به على لسانه أي على لسان نبيّه: **«العلم علم الله لا يعطيه إلا لأوليائه»**. **«الجوع سحاب الحكمة، فإذا جاع العبد، مطر بالحكمة»**. وكقوله: **«من أخلص لله أربعين صباحاً، ظهرت ينابيع**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ١.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٥) سورة المؤمن، الآية: ١٦.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٨٨.

الحكمة من قلبه على لسانه». وكقوله: «من علم وعمل بما علم، أورثه الله علم ما لا يعلم».

١٠٥٢ - وكقول عيسى: «لا تقولوا: العلم في السماء، من يصعد فيأتي به؟ ولا في تخوم الأرض، من ينزل فيأتي به؟ ولا من وراء البحار، من يعبر فيأتي به؟ العلم مجهول في قلوبكم! تأدّبوا بين يدي الله بآداب الروحانيّين وتخلّقوا بأخلاق الصديقين، يظهر من قلوبكم حتّى يغطّيكم ويغمركم».

١٠٥٣ - وروى عن وهب بن منبه أنه قال: «إنّ الله قال لموسى: يا موسى! جرّدْ قلبي لحبّي. فإني جعلتُ قلبك ميدان حبّي، وبسطتُ في قلبك أرضاً من معرفتي. وبنيتُ في قلبك بيتاً من الإيمان بي، وأجريتُ في قلبك شمساً من شوقي، وأضئتُ في قلبك قمراً من محبّتي، وأسريت في قلبك نجوماً من مرادي، وجعلتُ في قلبك غيماً من تفكّري، وأذريتُ في قلبك ريحاً من توفيقي، وأمطرتُ في قلبك مطراً من تفضلّي، وزرعتُ في قلبك زرعاً من صدقي، وأنبتُ في قلبك أشجاراً من طاعتي، وجعلتُ أوراقها ظلاً من وقائي، وأوليتُ ثمرها حكمة من مناجاتي، وأجريتُ في قلبك أنهاراً من دقائق علوم أزليّتي، ووضعتُ في قلبك جبالاً من يقيني».

١٠٥٤ - وروى أنّ داود ناجى ربّه فقال: «إلّهي! لكلّ ملك خزانة، فأين خزانتك؟ قال جلّ جلاله: لي خزانة أعظم من العرش وأوسع من الكرسي وأطيب من الجنّة وأزين من الملكوت؛ أرضها المعرفة، وسماؤها الإيمان، وشمسها الشوق، وقمرها المحبّة، ونجومها الخواطر، وسماؤها العقل، ومطرها الرحمة، وشجرها الطاعة، وثمرها الحكمة؛ ولها أربعة أركان: التوكّل والتفكّر والانس والذكر؛ ولها أربعة أبواب: العلم والعمل والصبر والرضا: ألا وهي القلب!» - وأمثال ذلك كثيرة وسنشير إليها، إن شاء الله تعالى.

١٠٥٥ - لكن ههنا مثال آخر، ألطف وأحسن من الأوّل وإن كان قريباً منه، لا بدّ من ذكره لأنّه في غاية الحسن، وهو هذا: اعلم أنّ مثل علماء الرسوم وعلومهم الظاهرة ومثل علماء الوارثين وعلومهم الباطنة، مَثَلُ شخص أو شخصين مات وله ابنان غائبان عنه، وخلّف لكلّ واحد من ابنيه بيتاً.

فبعد المدّة حضر الابنان ودخل كلّ واحد منهما بيته. فوجد الأوّل في بيته بئراً خربة، ليس فيها ماء. وهو غير عالِم بأنّه لو حفر تحتها ورفع الأحجار المانعة عن وجه الماء، لطلع له الماء من تحت الأرض، واستراح من الطلب والتعب أبداً. فمن جهله وقلّة عقله قام وحفر من خارج البئر عشرة أنهار وأجرى الماء بها إلى البئر. وتصوّر أنّ جميع الآبار حصول مائها يكون على هذا الوجه، وبغيره لا يمكن؛ وما عرف أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّه لو انقطعت ساعة واحدة هذه الأنهار الجارية عن البئر، لبقيت على قرارها خربة يابسة، بل أخسّ وأردأ ممّا كانت عليه، لأنّه يمكن أن يبقى من ذلك الماء شيء فيتعفّن سريعاً وينتن، ويتولّد منه لشاربه أمراض ردية مهلكة، مثل: السِلّ وحُمّى الدقّ والاستسقاء وغير ذلك؛ بل يصل إلى مرتبة يكون شربه موجباً للهلاك الكليّ.

١٠٥٦ - فالبيت في هذا المثل: جسد ابن آدم، والبئر قلبه، والأنهار الجارية هي: الحواسّ الظاهرة والباطنة؛ والماء هو العلوم الحاصلة بواسطة الحواسّ. فإذا بطلت الحواسّ بمرض أو كسر أو غير ذلك من الموانع في هذا العالم، بقي قلبه خالياً من جميع العلوم الحاصلة بواسطتها، وصار خراباً يابساً مظلماً كدراً، كما بقي البئر بعد الأنهار الجارية. وإن بقي فيه أي في قلبه شيء قليل من العلوم، يمكن أن يتعفّن القلب بواسطة هوى النفس ودواعي الشيطان، ويزيد بواسطتها مرض الجهل وداء العمى، ويحصل له بسبب ذلك أمراض أُخر، مثل: العجب والكبر والحسد والحرص والبخل والشره وغير ذلك، حتّى يصل المرء إلى مرتبة لا يمكن الخلاص منها، مثل: الجهل المركّب الموسوم عند المحقّقين بالداء العضال، ويكون موجباً لهلاكه الحقيقيّ وشقائه الأبديّ.

١٠٥٧ - وما أشبه هذه الآية بهذا المثل صورةً ومعنىً وهو قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٤٥ - ٤٦.

١٠٥٨ - وإذا بطلت تلك الحواسّ بالموت الطبيعيّ - وهو على هذا الحال - دخل المرء في عالم الآخرة عارياً خالياً من العلوم مطلقاً. فنعوذ بالله من العذاب الذي يصل إليه بواسطته، وبواسطة ملكة هذه الأفعال الردية والأخلاق الحاصلة لها! فإنّ حاله يكون أردأ وأنجس من الذي كان عليه في هذا العالم، لأنّه إذا انكشفت **أحواله على ما هي عليه** - وعرف أنّ العلوم المقصودة بالذات غير التي كان يحصلها من الخارج بواسطة الحواسّ، بل العلوم الحقيقيّة التي كانت مقصودة بالذات، كانت مركوزة في جبلته، مستورة في قلبه، وكان جاهلاً باخراجها واظهارها - حصلت له ندامة وحسرة ما يمكن تعبيرها بوجه من الوجوه أصلاً.

١٠٥٩ - ولهذا سُمّي يوم القيامة: «يوم الحسرة»[(١)] والندامة، لأنّ فيه تنكشف أحوال الكلّ، ويظهر تفريطهم وتقصيرهم في حقّهم وحقّ غيرهم. ولهذا قال الإمام عليه السلام: في حقّ العالِم الغير العامل، أو العالِم: بالعلم المجازي الرسميّ: «هو عند الله ألوَم، وحسرته أعظم».

وقال تعالى عن لسانهم ولسان أهل النار أيضاً: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[(٢)] من الجهل وطلب العلم من غير محلّه.

«وقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[(٣)] أي لو كنّا نسمع قول الله وقول أنبيائه وأوليائه، ونعقل معناه على ما ينبغي، ما كنّا في أصحاب السعير من جهلنا وعدم تعقّلنا وأخذنا العلوم من غير مأخذها.

- هذا حال الابن الجاهل بحفر البئر الحقيقيّة واخراج الماء الحقيقيّ الذي هو العلوم الإرثيّة.

١٠٦٠ - وأمّا حال الابن العالم بحفر البئر واخراج ما تحتها، فهو أنّه إذ وجد

---

(١) يوم الحسرة: سورة مريم، الآية: ٤٠. وفي صحيح «أخبار الكافي» وغيره، عن «الأنوار» في تفسير قوله: «يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله» جنب الله على الذي به خلق، وحقه (الذي به نطق) وهو النور، أبو الأنوار وسر الأسرار، الوجود الساري والحقيقة الواحدة، أمير المؤمنين - صلوات الله عليه. (بالأصل).

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الملك الآية: ١٠.

في بيته البئر الخربة، وكان عالماً عارفاً بأنّه لو حفر تحتها، أو رفع الأحجار المانعة عن وجه الماء الذي هو فيها، لظهر له ماؤها واستراح أبداً من طلب الماء وتعب تحصيله، - فمن قوّة علمه وكمال عقله، قام وحفر البئر من تحت، ورفع جميع الموانع، حتّى ظهر ماؤها وشرب منه وصار ريّان، وخلص من التعب والطلب باقي العمر، لأنّه كلّما احتاج إلى الماء، وجده حاضراً. وأيضاً صار له هذا الماء في هذا العالم مدّة عمره سبباً لصحّته وموجباً لراحته، ويتولّد منه - بعكس ذاك الماء الموبوء - القوّة والسمن والبسط والفرح والشهوة والنشاط. وإذا خرج صاحب هذه البئر من هذا العالم، صارت البئر ارثاً لأولاده وأنسابه، يشربون منها وينتفعون بها.

١٠٦١ - فالبيت، في هذا المثل أيضاً: هو جسد ابن آدم؛ والبئر قلوبهم؛ والماء علومهم الحقيقيّة التي هي تحت بئر قلوبهم؛ والحفر هو المجاهدة؛ والرياضة هي رفع الموانع الدنيويّة والتعلّقات النفسانيّة، لأنّه إذا عرف الإنسان هذا، وحفر بئر القلوب، ظهر له ماء العلوم الحقيقيّة الإرثيّة، الواصلة إليه من أبيه آدم الحقيقيّ[1] كما تقدّم ذكره. وصار ريّان بعدما كان عطشان، وصار غنيّاً بعد ما كان فقيراً، وعالماً بعد ما كان جاهلاً. وصار له هذا الماء الحي سبب حياته دنيا وآخرة.

١٠٦٢ - **أمّا في الدنيا**: فكان هذا الماء الحيّ سبب حياته المعنويّة وملذّاته الروحانية.

وأمّا في الآخرة: فيكون هو سبب البقاء الأبديّ والكمال الحقيقيّ والوصول إلى الحضرة الإلّهيّة. وخاصيّته: أي من خصوصيّة هذا الماء أنّه يكون آناً فآناً أصفى ممّا كان وأجلى، لأنّه سبب العروج والصعود دنيا وآخرة، لقوله تعالى: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2] لأنّ منبعه أي منبع هذا العلم التجلّيات الإلّهيّة والافاضات الربانيّة، وهي غير منقطعة بالاتّفاق.

---

(١) آدم الحقيقي: واعلم أن المراد بآدم الحقيقي هو النور الصادر الأول، العقل، الروح القدسي، القائل في فقرات خطبه الصحيحة: «أنا آدم الأول»، أنا نوح الأول إلى غير ذلك. (بالأصل).

(٢) سورة طه، الآية: ١١٣.

ولقوله تعالى أيضاً: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾(١). وهذا الماء الحيّ هو المنبع والعين المخصوصة بالأبرار والمقرّبين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾(٢) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾(٣).

١٠٦٣ - فالمتولّد من هذا الماء الحيّ - بعكس ذاك الماء الموبوء - في الدنيا: المعرفة والحكمة والأخلاق والتواضع والخشوع والكرم والاحسان والوفاء والحياء والمروءة والفتوّة والشجاعة والعفّة والعدالة والسخاوة.

وفي الآخرة: الجنّة والفوز والنجاة ورفع الدرجات ومرافقة الأنبياء والأولياء ومصاحبة الصالحين من الكمّل والعرفاء، وبالجملة الحياة الطيّبة الباقية الأبديّة الدائمة، المخصوصة: بخضر وألياس وادريس وعيسى والمهدي عليهم السلام في الدنيا، وبمجموع الأنبياء والأولياء والكمّل في الآخرة. جعلنا الله منهم ورزقنا من الحياة الدائمة نصيباً وافراً كاملاً بلطفه وكرمه!.

١٠٦٤ - وما أنسب قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(٤) بالمثل المضروب: قبل ذلك، وبالمثل المضروب بالابنين والأب الذي هو آدم الحقيقيّ أو آدم الصوريّ، وأولاده الصالح منهم والطالح أو الجاهل منهم والعالم، لأنّ الله يعمل على يدي عمّاله الظاهرة والباطنة، الروحانيّة والجسمانيّة، الذين هم: كالخضر وموسى ليلاً ونهاراً، «جدار» جسد كلّ واحد من أولاده في «مدينة» هذا العالم؛ ليبلغا أشدّهما، أي ليتمّ عقل كلّ واحد منهم ويستخرج بالطريق المذكور الكنز الحقيقيّ الذي هو تحته، المسمّى: بالعلوم الإرثيّة.

١٠٦٥ - وما أشبه به أيضاً الآية التي في قوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الدهر، الآيتان: ٥ - ٦.
(٣) سورة المطففين، الآية: ٢٨.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[1] أي من بعد كمال العقل وسنّ الكهولة، الذي هو سنّ البلوغ الحقيقيّ، «يعلم» أي بعد علم الظاهر الرسميّ، هناك العلم الباطن الحقيقيّ الإرثي الواجب حصوله، وكيفيّة تحصيله ليس إلا كذلك.

١٠٦٦ - ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2] حالهم في الأزل، وحال علومهم المركوزة في قلوبهم وجبلتهم، ويتوجّهون إلى تحصيلها برفع الموانع عن وجهها وحقيقتها. ولهذا قال تعالى أيضاً: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[3] أي تلك الأمثال والمقصود منها ما يتعقّلها وما يتصوّرها إلا العالم منهم باخفاء هذه العلوم في قلوبهم وايداع هذه «الأمانة» في بطونهم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[4].

١٠٦٧ - وإن قيل: نحن نجد كثيراً من أولاد آدم من يقوم برفع هذا الموانع عن وجه قلبه وتحصيل هذه العلوم بطريق الإرث، وما يحصل له منها إلا الكفر والزندقة، مثل: الكشايش والكهنة والبراهمة وغيرهم، - أجيب عنه بأنّ استحقاق الإرث يحتاج إلى الشرطين المذكورين، أي النسب الحقيقيّ والنسب المعنويّ، وليس بين هؤلاء الأولاد وبين أبيهم هذه النسب، فلا يحصل لهم شيء أصلاً.

١٠٦٨ - ومع ذلك، فههنا لطيفة أخرى، وهي أنّ نسبة هذه العلوم المركوزة في قلوب بني آدم، المعجونة في جبلتهم، المستورة بالموانع الحاصلة من أخلاقهم الذميمة، هي كنسبة العيون والأنهار المركوزة في تخوم الأرض، المستورة بالأحجار الصلبة والمعادن الشديدة، فإذا ارتفعت الموانع والحجب، ظهرت المياه وجرت على وجه الأرض جرياناً أبديّاً لا انقطاع لها.

وكما أنّ الأرض إذا حفرت نبع منها الماء، عذباً كان أو أُجاجاً، كذلك القلب إذا حفر - أعني رفعت الموانع عنه - طلعت منه العلوم، حقّاً كانت تلك العلوم أو

(١) سورة الحج، الآية: ٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٨.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.
(٤) سورة النحل، الآية: ٦٠.

باطلة. فحينئذٍ كما أنّ عذبيّة الماء وأجاجيّته لا تنسبان إلى مطلق الماء، لأنّ الماء المطلق لا يوصف بشيء، لأنّه إذا وصف بشيءٍ خرج عن اطلاقه، لأنّ الصفة قيد، بل ينسب إلى محلّه، مثل: الماء الطالع من الأرض السبخة والأرض النورة والأرض الطيّبة والأرض المعتدلة وغير ذلك، - فكذلك حقيّة العلوم وباطليّتها لا تنسبان إلى مطلق العلم، **لأنّ العلم المطلق لا يوصف بشيءٍ، أعني لا يوصف بالحقّ ولا بالباطل**، بل ينسب **إلى محلّه** الصادر عنه، مثل العلوم الطالعة من قلوب السحرة والكهنة والبراهمة والكشايش وغير ذلك، ومثل: العلوم الطالعة من قلوب الأنبياء والأولياء والعارفين المحقّقين من تابعيهم.

١٠٦٩ - ويفهم من هذا المثل: سرّ التوحيد والوجود المطلق والمضاف إليه، لأنّه أي سرّ التوحيد وسرّ الوجود المطلق والمضاف بعينه كذلك.

لكن ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1] كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[2] بتوحيدنا وأسرارنا وسرّ قضائنا وقدرنا: «أولئك والله الأقلون عددا والأعظمون قدراً». ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[3].

١٠٧٠ - وأرجو من الله أن لا يخفى على العلماء الحقيقيّين مثلهم، أنّ هذا المثل ليس ببعيد عن المطلوب. والمناسبة بينهما من وجهين:

الأوّل: بما قيل إنّ العلم لو تجسّد لكان ماء، للطافته وسرّ قبوله وسهولة جريانه ورؤية الأشياء المخفيّة في جوفه بلا مانع من نفسه، وغير ذلك من الأوصاف المحمودة المناسبة بينهما.

والثاني: بأنّ أكثر المواضع القرآنيّة التي ذكر فيهما الماء أُريد بها العلم، أو بالعكس. ومن جملتها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4] لأنّ عرشه ما كان على الماء الصوري، لأنّه ما وجد إلا بعد

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٦.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٢.
(٤) سورة هود، الآية: ٩.

العرش بزمان عند البعض، وبعدم الزمان عند الآخر، وعند البعض بعد جميع الموجودات.

فالمراد به هو الماء الحقيقيّ، الموسوم بماء الحياة، الساري في جميع الموجودات، المشار إليه بالهويّة الإلٓهيّة وبالحقيقة الإنسانيّة والعلوم الحقيقيّة التي بها حياة كلّ شيء وقيامه، كما تقدّم ذكره.

١٠٧١ - والمراد بقوله تعالى عقيبه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[١] **العلّة الغائيّة من هذا الفعل.** فكأنّه تعالى يقول: مرادنا من هذا الفعل أو القول، أن نمتحنكم ونختبركم حتّى نعرف عيناً، كما كنّا نعلم علماً، أيّكم يكون عمل قلبه في ادراك هذا السرّ وتحقيقه أحسن من الآخر وأدقّ منه. ولا شكّ أنّه كذلك، فإنّه سرّ دقيق ومعنىً لطيف. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[٢].

١٠٧٢ - وإلى هذا أشار تعالى أيضاً في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[٣] لأنّ حياة كلّ شيء حقيقةً، بل قيامه، ليس إلا بالعلم المشار إليه، أو بالعلم مطلقاً، وإن كان علم كلّ شيء على قدره ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٤].

١٠٧٣ - وإن قيل: إنّ العرش جماد، وإن كان حيواناً فليس من ذوي العقول، فكيف ينسب إليه العلم والادراك وما يتعلّق بذلك؟ أجيب عنه بأنّه قد ثبت في القاعدة الأولى من التوحيد بأنّ جميع الموجودات، عند المحقّقين، هي ذات حياة ونطق ومعرفة. والمعرفة هي العلم. ومع ذلك، فقد تقرّر عند علماء التحقيق: بأنّ العرش الصوريّ هو صورة العرش الحقيقيّ الذي هو العقل الأوّل.

وتقرّر أنّ جميع العلوم والحقائق حاصلة للعقل الأوّل بالاجماع، حصولاً أزليّاً أبديّاً، لا ينقص منه شيء أصلاً.

وليس مرادنا بالعرش إلا العرش الحقيقيّ، الذي هو حامل لهذه العلوم، وهذه

---

(١) سورة هود، الآية: ٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

العلوم هي سبب حياته أي حياة الموجود وبقائه، المسمّاة: بماء الحياة وغير ذلك. وسيجيء بيان ذلك على نحو أبسط منه.

١٠٧٤ - وقد صرّح الشيخ ابن العربي في «فتوحاته» بذلك أيضاً، وقال: «العرش على الماء، أي على الأمر، والأمر على العلم، والعلم على الاسم. **فالاسم اسم وأمر وعلم، لأنّ العرش مظهر اسم الرحمن، كما قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾(١).

وروحه مظهر اسم الله. وكلّ اسم هو عبارة عن الذات بجميع لوازمها، لا سيّما اسم الرحمن، لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٢).

فيكون مظهره أي مظهر الاسم الرحمن مظهر العلم المتعلّق به، أو مظهر جميع العلوم، قوّةً لا فعلاً». وهذه قاعدة مطرّدة بين المحقّقين.

١٠٧٥ - ومع ذلك، فالعروش متعدّدة، والتفاوت بينها مختلف.

وقد أشار إليه الشيخ ابن العربي في «الفتوحات» إشارة مفصّلة وهي في غاية القلّة، ولكن من قلّتها، هي تقوم بمطلوبنا. وهو قوله: «اعلم أنّ العرش خمسة: عرش الحياة، وهو عرش المشيئة، وهو مستوى الذات وهو عرش الهويّة ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾(٣)، فأضافه إلى الهويّة. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾(٤). فهو العنصر الأعظم، أعني فلك الحياة، وهو اسم الأسماء ومقدّمها ربه كانت ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ من حيث هو حيّ، لا من حيث هو جوهر. والعرش المجيد، هو العقل الذي ذكرناه، أعني: عرش الله تعالى وحقيقته. والعرش العظيم: النفس وهي اللوح المحفوظ. ويتلوه: عرش الرحمانيّة، وهو أوّل الأفلاك. ويتلوه: العرش الكريم، وهو الكرسيّ».

---

(١) سورة طه، الآية: ٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

(٣) سورة هود، الآية: ٩.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣١.

١٠٧٦ - وقال الشيخ ابن العربي أيضاً: «اللوح محلّ لالقاء العقل، وهو للعقل بمنزلة حواء لآدم. ونونه، التي هي الدواة، عبارة عمّا يحمله من ذاته من العلوم بطريق الاجمال. فلا يظهر تفصيل إلا في النفس، التي هي اللوح. فهو محلّ الاجمال، والنفس محلّ التفصيل. وهذا القلم له ثلاثمائة وستون سنّاً، من حيث ما هو قلم؛ وثلاثمائة وستّون وجهاً، من حيث ما هو عقل؛ وثلاثمائة وستّون لساناً، من حيث ما هو روح مترجم عن الله تعالى ويستمدّ كلّ سنّ من ثلاثمائة وستين بحراً، وهو أصناف العلوم، وسُمّيت: بحراً لاتّساعها. وهذه البحور هي اجمال: «الكلمات التي لا تنفد»[1]. واللوح: قلم لما دونه. وهكذا كلّ فاعل ومنفعل. والعماء عرش سادس، وهو عرش الحياة، وهو عرش نسبيّ، ليس له وجود إلا بالنسبة؛ ولذلك لم نجعله من جملة أقسام العرش. وهذا البحر هو البحر الفاصل بين الحقّ والخلق، هو حجاب العزّة».

١٠٧٧ - هذا آخره، وآخر الفرق بين العلمين، أي الكسبيّ الرسميّ والإرثيّ الحقيقيّ. وإذا عرفت هذا، فلنشرع في بيان كيفيّة تحصيلهما تفصيلاً، كما شرعنا فيه اجمالاً، رعايةً للشرط المذكور في أوّل البحث، وهو هذا:

٣ - في بيان كيفيّة تحصيل العلوم الرسمية والعلوم الحقيقيّة

١٠٧٨ - أمّا كيفية تحصيل العلوم الرسميّة الكسبيّة، فهو أن يطلب الشخص أوّلاً: أستاذاً عالماً بتعليم الخط وتعليم التهجّي، ويجتهد في تحصيلهما مدّة طويلة، هذا إن كان بليداً؛ وإن كان مستعدّاً، فمدّة يسيرة، حتّى يعرف الخط وقراءة السواد، ويحصل له استعداد لعلوم أُخرى.

١٠٧٩ - ثمّ بعد ذلك يطلب أستاذاً آخر، عالماً بعلم اللغة المفردة والمركّبة، وأشعار العرب والدواوين، وعلم العروض، وعلم الشعر وغير ذلك، حتّى يتعلّم منه هذه الأقسام، ويصير مستعدّاً لفهم كلام العرب من حيث اللغة.

---

(١) الكلمات التي لا تنفذ: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

وهذا أيضاً يكون بمدّة طويلة، أو بحسب الشخص واستعداده، أعني كلّما يكون الشخص أزكى، تكون مدّة تعليمه أقلّ. وإلا فهي أطول.

١٠٨٠ - ثمّ بعد ذلك يطلب أستاذاً آخر، عالماً بعلم الصرف وأقسامه، كما ينبغي، ويجتهد في تحصيله، حتّى يحصل له الوقوف على أبنية الكلمة وصيغها من الثلاثيّ والرباعيّ والخماسيّ، والاطلاع على معانيها، من الحال والاستقبال والماضي والغائب والحاضر والتأنيث والتذكير، وأمثال ذلك.

١٠٨١ - ثمّ بعد ذلك يطلب أستاذاً آخر عالماً بعلم النحو وأقسامه، ويجتهد في تحصيله على ما ينبغي مدّةً طويلةً مع استعداد تامّ، ليحصل له بذلك قوّة صحّة القراءة واستعداد اعراب الكلمة، من النصب والرفع والجرّ ونزوله في محلّه أي في الاسم المصروف ونسبه في مقرّه: أي في غير المصروف.

١٠٨٢ - ثمّ بعد ذلك يجتهد أيضاً في تحصيل علم المعاني والبيان وما يتعلّق بهما، ليحصل له بذلك الوقوف على الاستعارات والتشبيهات والتجنيسات وأمثالها الواردة في القرآن والأخبار وغيرهما من كلام العرب.

١٠٨٣ - وهذا كلّه بعض أقسام العلوم العربيّة، التي هي فنّ من فنون العلوم الكليّة، وآلة من آلات العلوم لا العلوم الحقيقيّة ولا العلوم المقصودة بالذات.

وأقلّ ما يحتاج المستعدّ إلى تحصيل هذه الأقسام، بقدر الضرورة، عشر سنين أو أكثر.

فأمّا على سبيل التحقيق، فقد اتّفق العلماء على أنّ الشخص لو أراد تحصيل علم واحد في مدّة عمره، على سبيل التحقيق، فهذا غير ممكن.

١٠٨٤ - وبالجملة، فهذه آلات العلوم العربيّة من حيث اللغة والنحو والتصريف.

أمّا آلات العلوم العقليّة، التي هي علم المنطق وتوابعه ولوازمه، فكذلك يحتاج الإنسان إلى أستاذ حاذق وشيخ كامل في مدّة طويلة، حتّى يحصّل منه بقدر الضرورة ويحصل له بذلك الوقوف على العلوم العقليّة، من حيث ترتيب المقدّمات وتركيب القياسات واستخراج النتائج والمعاني منها بقدر الاستعداد. وأقلّ ما يحتاج المستعدّ إلى تحصيله عشر سنين أخرى.

١٠٨٥ - وعلى هذا التقدير يمضي الشخص ثلث عمره في تحصيل الآلات والأدوات. فإذا حصّل ذلك، فإن كان الشخص صاحب دين وإيمان وتحقيق وايقان، مقرّاً بالحشر والنشر والبعث والنشور، فيتوجّه إلى تحصيل الأصولين اللذين هما أُصول الفقه وأُصول الكلام، ليحصل له: بالأوّل الوقوف على معرفة أدلّة الفقه اجمالاً، وكيفيّة استخراج الفروع من الأصول والمطابقة بينهما، ومعرفة الاجتهاد والمجتهد والمقلّد والاجماع والنصّ والقياس، وكيفيّة استنباط المعاني من القرآن والأخبار، والحكم بوجوبها واستحبابها، وكيفيّة استعمال اللغة في موضعها.

١٠٨٦ - وليحصل له بالثاني: الوقوف على معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله. ثمّ بعد ذلك، على معرفة النبوّة والرسالة والنبيّ والرسول والوحي والالهام والمعجزة والكرامات وتوابعها ولوازمها.

ثمّ معرفة الإمامة والإمام وتوابعها ولوازمها من معرفة صفات الإمام التي يجب أن يكون عليها، ومعرفة النصّ والعصمة والخلاف فيهما بين الطوائف، وغير ذلك.

ثمّ بعد ذلك، على معرفة المعاد والحشر والنشر وبقاء النفس وعدمها، وكيفيّة ما لها في القيامة من السعادة والشقاوة والدخول في الجنّة والنار، وما شاكل ذلك من معرفة الآجال والأرزاق والأسعار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعرفة التكليف والإيمان والفرق بينه وبين الإسلام، ومعرفة التوبة والشفاعة، وغير ذلك.

١٠٨٧ - وتحصيل هذين الأصولين يحتاج إلى سنين كثيرة أيضاً: وإذا فرغ الشخص منهما، فيجب عليه أن يتوجّه إلى علم التفسير وعلم الحديث والأخبار، اللذين هما أيضاً من علم الأصول، عند البعض.

ثمّ بعد ذلك، إلى علم الفروع الذي هو علم الفقه وتوابعه ولوازمه، الذي هو فنّ برأسه. وتحصيل هذه العلوم على ما ينبغي ضرورةً، أعني: تحصيل علم التفسير وعلم الحديث وعلم الفقه، أقلّ ما في الباب يحتاج إلى عشرين سنة، مع أنّه لا يحصل له في هذه المدّة من هذه العلوم الثلاثة إلا قطرة من بحر لا نهاية له.

١٠٨٨ - لأنّ القرآن كلام ربّانيّ، وله ظهور وبطون وتأويل وتحقيق ورموز

وإشارة وأسرار وغوامض، كما قال تعالى فيه: ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾(١).

والمراد عند الأكثرين: معنى كلمات القرآن لا لفظه.

وقال النبيّ ﷺ: «**إنّ للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن**» وورد «**سبعين**» و «**سبعمائة**» و «**سبعين ألف**» وغير ذلك.

وقال عليّ - صلوات الله عليه: «**إنّ القرآن ظاهرة أنيق وباطنه عميق لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به**» إلى آخره.

وقال عليّ - صلوات الله عليه: «**إنّ القرآن ظاهرة أنيق وباطنه عميق لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به**» إلى آخره.

وقال جعفر الصادق عليه السلام: «**كتاب الله - عزّ وجلّ - على أربعة أشياء: على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق. فالعبارة للعوامّ، والإشارة للخواصّ، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء**».

ولا يمكن لأحد الاطلاع على هذه الأسرار بهذه الآلات. ولهذا قال تعالى أيضاً: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾(٢).

١٠٨٩ - وأمّا الحديث والأخبار: فالنبيّ ﷺ كان أفصح العرب والعجم، وكان عقله محيطاً بجميع العلويّات والسفليّات. فكلّ كلمة من كلماته، بل كلّ لفظة من ألفاظه يوجد تحتها بحار الأسرار وكنوز الرموز. وعلى هذا التقدير، فالعلم بأخباره وأحاديثه أيضاً لا يحصل لكلّ أحد، لا سيّما من هؤلاء المحجوبين، بل لا يقدر أن يحيط بعلمهما ومعرفتهما إلا من هذّب نفسه بمتابعته الحقيقيّة وأسوته الجامعة، كما مرّ ذكره. ولهذا ما خرج أهل الظاهر من عهدة قوله عليه السلام: «**من عرف**

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩. كلمات ربي: أعلم أن المراد بالكلمات الأنوار، الأبرار، الأسرار، كما أن المراد بالكلمة الكبرى والقرآن الناطق أبو الأنوار، النور، العلم، اللوح المحفوظ، والقلم الأعلى وغير ذلك، كما برهن ذلك أساطين الحكمة الإلهية على أن النور (هو) الفيض الأول، العقل، كل الأشياء. (بالأصل).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥.

نفسه فقد عرف ربّه» من يوم وروده إلى يومنا هذا، مع أنّهم كتبوا في تحقيقه كتباً ورسائل وأطالوا.

١٠٩٠ - فأمّا علم الفقه: فإنّه غير متناهٍ ولا يمكن الاحاطة به بالتحقيق أصلاً، لأنّه فروع وله تفاريع كثيرة. وهو مرتّب على حسب الزمان والأشخاص، وكلّ زمان له خصوصيّة، وكلّ شخص له استعداد خاصّ، وباب الاستخراج وسيع. وكلّ شخص يقدر أن يفرع على أصل واحد ألف فرع، وهلمّ جرّاً.

ولهذا وقع الخلاف بين الفقهاء كثيراً، وما خلصوا منه بعد، ولا يخلّصهم بالكليّة إلا المهدي عليه السلام لأن في زمانه يرتفع الاجتهاد والاستنباط واستخراج الفروع من الأصول بالرأي والقياس.

١٠٩١ - وإن لم يكن الشخص صاحب دين وإيمان، بل كان فارغاً من مجموع ذلك - كأبناء زماننا اليوم - فيتوجّه إلى علوم الحكمة، وأقسامها، على سبيل الاجمال، منحصرة في المنطق والطبيعيّ والرياضيّ والإلّهيّ، ليحصل له بالمنطق العالم بالحدّ والرسم في الأشياء التي تدرك بالتصوّر، والعلم بالجنس والفصل وتحقيقهما.

وينظر في طريق القياس والبرهان في العلوم التي تنال بالتصديق، لأنّه أي علم المنطق لا يدور إلا على هذه القاعدة. فيبتدىء بالمفردات، ثمّ بالمركّبات، ثمّ بالقضايا، ثمّ بالقياس، ثمّ أقسام القياس، ثمّ طلب البرهان وهو نهاية علم المنطق.

١٠٩٢ - ويحصل للشخص بالطبيعيّ العلمُ بالجسم المطلق وأركان العالم، والعلم بالجواهر والأعراض، والحركة والسكون، وأحوال السماوات، والأشياء الفعليّة والانفعاليّة. ويتولّد من هذا العلم النظر في أحوال مراتب الموجودات، وأقسام النفوس والأمزجة، وكميّة الحواسّ، وكيفيّة ادراكها لمحسوساتها.

ثمّ يؤدي النظر إلى علم الطب، وهو علم الأبدان والعلل والأدوية والمعالجات. وممّا يتعلّق به أي بالطبيعيّ من فروعه: علم الآثار العلويّة، وعلم المعادن، ومعرفة خواصّ الأشياء، وينتهي إلى علم صنعة الكيمياء، وهو معالجة الأجساد المريضة في أجواف المعادن.

١٠٩٣ - وبالرياضيّ يحصل للشخص العلم بالعدد والهيئة، أعني علم الأفلاك والأنجم والهندسة. وهي علم المقادير والأشكال وأقاليم الأرض وما يتّصل بها. ويتّصل به أي بالرياضيّ النجوم وأحكام المواليد والطوالع. وكذلك علم الموسيقى وتوابعه.

١٠٩٤ - وبالإلّهي يحصل العلم بالموجودات، من الواجب والممكن وما يتعلّق بهما من الأحكام، وكذلك يحصل العلم بوجود البارىء وصفاته وأسمائه وأفعاله وأمره وحكمه وقضائه وترتيب ظهور الموجودات عنه. ثمّ العلم بالمعلومات والجواهر المفردة والعقول المفارقة والنفوس الكاملة. ثمّ العلم بالملائكة والشياطين.

وينتهي إلى علم النبوّات وأمر المعجزات وأحوال الكرامات، وغير ذلك من علم المعاد والأحكام الجزئية بعد خراب البدن، وكيفيّة النواب والعقاب والكمال والنقصان، وما شاكل ذلك.

١٠٩٥ - وأقلّ ما تحصل له هذه الأقسام، بقدر الضرورة لا كما ينبغي بثلاثين سنّة أو أكثر وبأخرةٍ يكون حاله في المعارف ما عرفته قبل ذلك، وسمعته في هذه القاعدة، وهو أنّه يقرّ بنفسه أنّه ما عرف شيئاً أصلاً حقيقةً، حتّى حقيقة الأعراض التي هي أخسّ الموجودات.

١٠٩٦ - وبالجملة تحصيل هذين القسمين: أعني قسم الشرعيّات والنقليّات وقسم الحكميّات والعقليّات يحتاج إلى مجاهدة ثمانين سنة متتالية، لأنّ الأوّل: كما قررناه، يحتاج إلى خمسين سنة؛ والثاني: إلى ثلاثين سنة؛ فيكون المجموع ثمانين سنة كاملة، حتّى يطلع صاحبها جاهلاً معجباً متكبّراً تابعاً للشيطان وهواه، بعيداً عن الحقّ وأهله، نازلاً في حقّه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[1] [2].

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) صنعاً: وعنده أنه عالم متصف متواضع تابع لله ولرسوله قريب إلى الله وأهله نازل في حقه من الله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والدليل على ذلك: وهو الذي قد تقرّر قبل ذلك، أنّ خلاصة هذين القسمين هو على الكلام في الشرعيّات وقسم الإلهيّات في الحكميّات. وصاحب كلّ واحد منهما أقرّ بنفسه أنّه ما عرف شيئاً، وقد كتبنا ذلك بألفاظهم وتقريرهم، لئلا يتوّهم أنّه افتراء أو كلام غير واقع، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾(١).

١٠٩٧ - هذا آخر ما عندي من بيان العلم الرسميّ وكيفيّة تحصيله. وإن فرغنا منه، فلنشرع في كيفيّة تحصيل العلوم الحقيقيّة وبيان ثمرتها، وإن تقدّم ذكرها عند بيان الوحي والإلهام والكشف، لأنّها مشتملة عليها، صادرة عنها، أعني عن الوحي والإلهام والكشف.

١٠٩٨ - فنقول: وأمّا كيفيّة تحصيل العلوم الحقيقيّة، فهو في غاية السهولة، لأنّها موقوفة على فراغ القلب وصفاء الباطن، وهذا يمكن بساعة واحدة وبيوم واحد وبليلة واحدة! هذا، إذا كان القائل بها قائلاً بالكسب. وأمّا إذا لم يكن قائلاً به، بل يكون قائلاً: بأنّها هبة إلَهيّة وعطية ربّانيّة، فيمكن حصولها بأقلّ من ذلك.

وهذه المقدّمة لا بدّ لها من قاعدة مفصّلة لهذا المجمل، وهي هذا:

١٠٩٩ - اعلم أنّه قد تقرّر عند أرباب التحقيق أنّ جميع العلوم والحقائق ثابتة في العقل الأوّل، الذي هو «أمّ الكتاب» و «القلم الأعلى» على سبيل الاجمال؛ ومسطورة في النفس الكليّة، التي هي: «اللوح المحفوظ» و «الكتاب المبين» على سبيل التفصيل.

١١٠٠ - وقد تقرّر أيضاً أنّ الإنسان أنموذج العالم ونسخته، وتقرّر أنّ روحه في بدنه. بازاء العقل الأوّل في بدن العالم الذي هو: «الإنسان الكبير» وقلبه بازاء النفس الكليّة في العالم.

١١٠١ - وتقرّر أنّ هذا الروح والقلب لولا تعلّقهما بالجسد والأحوال الدنيويّة، لكانا مطالعين على جميع ما في الكتابين بلا مانع، كروح بعض الأنبياء والأولياء عليهم السلام، بحيث تعلّق الروح والقلب بهذه التعلّقات أي العلائق الماديّة،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

وصارت التعلّقات بينهما وبين الكتابين كل السحاب الحائل بين شعاع الشمس والقمر وبين الأرض والبلدان التي هي عليها. فكما أنّ ارتفاع السحاب يكون موجباً لاضاءة الأرض والبلدان بنور الشمس والقمر، فكذلك يكون قطع التعلّقات الدنيويّة موجباً لافاضة العقل والنفس العلوم بأسرها على الروح والقلب، وهذا مثل لطيف واضح شريف، يفهم منه أشياء كثيرة وأسرار غريبة، وإن مثّل به أيضاً: بالمرأة الصافية وما في مقابلها وهذا المثل يكون حسناً.

١١٠٢ - لأنّ بعض العلماء مثّل: القلب بالمرآة المجلّوة المصقولة، محاذياً للوح المحفوظ وما عليه من العلوم والحقائق الإلّهيّة، فقال: «كما لا يمكن أن يكون شيء محاذياً للمرآة المصقولة ولا يُرى فيها، فكذلك لا يمكن شيء أن يكون في اللوح المحفوظ وهو لا يرى في المرآة القلبيّة الصافية.

وعن حقيقة الدرون أي الأدران الحاصلة والأوساخ العارضة للمرآة القلبيّة بسبب التعلّقات الدنيويّة أخبر الله تعالى بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

وبقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾(٢).

وبقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾(٣)، وغير ذلك من الآيات التي بيانها. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(٤).

١١٠٣ - وإن حُقّق، عُرف أنّ مثل هؤلاء القوم في تحصيل العلوم ومثل أولئك في تحصيلهم هو بعينه مثال: أهل الروم والصين في صناعتهم التصوير، الذي حكاه الغزالي في: «احياء العلوم» عنهم. وهو أنّ أهل الروم قاموا وتوجّهوا إلى سلطان الصين ودخلوا عليه، وقالوا: «نحن جئنا من الروم في دعوى مع أهل الصين في صناعتهم التي هي مشهورون بها، أعني: صنعة النقش والتصاوير».

فقال لهم السلطان: «فكيف نعرف صنعتكم وصنعتهم؟».

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

فقال أهل الروم: «عيّنْ لنا موضعين بحيث ما يطلع أحد منّا على الآخر حتّى نعمل صنعتنا، فذاك الوقت أن تحكم بيننا. فعيّن لهم السلطان صُفّة كبيرة، وحال بينهما ستر مانع، شغل (فَصَل؟) كلّ واحد منهما عن الآخر. فاشتغل كلّ واحد منهما بنقش حائط من حيطان الصفّة.

١١٠٤ - فأهل الروم لمّا عرفوا مهارة أهل الصين في صناعتهم، وتحقّقوا أنهم ليسوا من رجالهم، اشتغلوا بصقل حائطهم وتصفيته، مدّةَ اشتغال أهل الصين بتصويره وتزويقه.

فلمّا فرغ أهل الصين من شغلهم توجّهوا إلى السلطان وقالوا: «فرغنا من شغلنا ولا بد لك من الحكم بيننا». فقام السلطان ودخل الصفّة وأمر برفع الستر بينهما.

فحين ارتفع الستر، انعكس النقش الذي كان على حائط أهل الصين، فظهر في حائط أهل الروم أحسن وألطف من ظهوره على حائطهم، لأنّه كان يظهر في حائطهم كأنّه متحرّك لصقالته ولطافته. فحكم السلطان بأنّ هذا أحسن وألطف.

١١٠٥ - والغرض منه أنّ تحصيل علوم أهل الظاهر مثال: أهل الصين في صناعتهم. ومثال أهل الباطن مثال أهل الروم في صقالتهم، أعني أنّ المدّة التي يقضيها أهل الظاهر في نقوش العلوم على ألواح خواطرهم بقلم التحصيل و «پركار» الأفكار والتذكار، يقضيها أهل الباطن في تصفية قلوبهم وصقلها من الرين والختم الحاصلين لها بسبب التعلّقات الدنيوية، حتّى إذا ارتفع الحجاب حصل لهم بذلك من العلوم والمعارف دفعةً، بقدر ماحصل لأولئك بسنين كثيرة، بل واضعاف ذلك بمرار كثيرة، واستراحوا بذلك مدّة عمرهم، بخلاف أولئك.

١١٠٦ - لأنّه ما دامت المرآة صقيلة، كانت العلوم حاصلة بلا غلط ولا سهو ولا نسيان ولا زيادة ولا نقصان على اللوح المحفوظ، بعكس علوم أهل الظاهر، لأنّها مع تلك المجاهدة والمشقّة، لا تخلو من غلط وسهو ونسيان وزيادة ونقصان على ما في الواقع، كما لا يخفى على أهله. فالعاقل حينئذٍ ينظر إلى العلمين وثمرهما وشرف صاحبيهما بنظرة العقليّ، ويختار ما هو الأصلح له والأنسب بحاله. ﴿وَمَا عَلَى

ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(١) ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(٢).

١١٠٧ - وإذا عرفت هذا من حيث المثال على سبيل الاجمال، فينبغي أن تعرفه على سبيل التفصيل من حيث التعليم، لأنّ الطائفة الأولى كما أنّ لهم أستاذاً في علومهم ويعلّمهم، فكذلك هذه الطائفة لهم أيضاً أستاذ في علومهم ويعلّمهم، وهو الحقّ تعالى لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾(٣) ولقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٤). ونحن نبيّن ذلك بوجوه متعدّدة - إن شاء الله - توضيحاً وتحقيقاً.

١١٠٨ - فالوجه الأوّل بقوله جلّ ذكره: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾(٥) ومعناه أنّ الحقّ تعالى الذي هو المعلّم الأوّل الأقدم والأستاذ الأعظم الأكمل، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾(٦) ولقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٧)، لمّا فرغ من تعليم آدم الحقيقيّ والإنسان الكبير الآفاقيّ، المخلوق على صورته، لقول النبيّ ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»(٨) الذي هو مظهر اسم الرحمن من حيث الصورة، ومظهر اسم الله من حيث المعنى، والذي هو المتعلّم الأوّل والمعلّم الثاني، المسمّى: بالعقل الأوّل والروح الأعظم، المقدّم ذكره، أمره بتعليم أولاده وذريّته صورةً ومعنىً، أي قوّةً وفعلاً. فعلّمهم كما أمره وخلّقهم كما أشار إليه، حتّى صاروا أصحاب بيان وأرباب علم وبرهان.

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٤) سورة النساء، الآية: ١١٣.
(٥) سورة الرحمن، الآيتان: ١ - ٤.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٧) سورة النساء، الآية: ١١٣.
(٨) على صورته: أي خلق الله آدم أبا البشر على صورة آدم الأول المعبّر عنه بالإنسان الكبير، وهو النور، أبو الأنوار. (بالأصل).

١١٠٩ - وتقديره أنّ الرحمن، الذي هو خليفته الأعظم، علّم القرآن الحقيقيّ، أي علّمهم علم القرآن الحقيقيّ الجمعيّ الإلّهيّ، أعني: علّم ذريّته المعنويّة القرآن الحقيقيّ أوّلاً في عالم القوّة وعالم الأرواح وعالم المعاني، أي ركزت العلوم كلّها في جبلتهم أزلاً، وأخذ منهم العهد بظهورهم بالفصل أبداً، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[1].

ثمّ أوجدهم ثانياً في عالم الشهادة بالفعل، وعالم الأجسام بالشكل، وعالم الخلق بالصورة. وعلّمهم بالتعليم المذكور العلم المعلوم، وجعلهم أصحاب بيان وبرهان.

١١١٠ - وإن صعبت عليك هذه العبارة، فتلك عبارة أخرى. اعلم أنه لمّا أوجدهم في ظهر آدم الحقيقيّ كالذرّ مثلاً. وعلّمهم العلم المذكور وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي ألست بموجدكم ومظهركم من عالم العلم إلى عالم العين، ومن العدم إلى الوجود، ومن القوّة إلى الفعل؟ وألست معلّمكم بهذه العلوم والمعارف؟ «قالوا: بلى».

١١١١ - والمراد هنا بظهر آدم عالم الأرواح الجبروتيّة وعالم العقل، واجمال الموجودات فيها بالقوّة؛ وبجوابهم بلفظ: «بلى» جوابهم على لسان استعداداتهم وقابليّاتهم، أعني لو أنّهم كانوا موجودين في الخارج وسئل منهم هذا السؤال لقالوا: «بلى».

١١١٢ - فتعليمهم عبارة عن التسوية والتعديل الحقيقيّ الذاتيّ في عالم الأرواح، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[2] أعني إذا علّمهم في صورة الرحمن، الذي هو خليفة العلوم المعلومة، أي لمّا سوّاهم وعدلهم اعتدالاً حقيقيّاً ليس لغيرهم من المخلوقات والموجودات، من حيث المعنى المعبّر عنه بأحسن تقويم، لقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3] خلق الإنسان الصوريّ وسوّاه، أي خلقهم بالفعل في عالم الصورة والنشأة الجسمانيّة المعبّر عنه بخلق

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٣) سورة التين، الآية: ٤.

آخر، لقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[١] أي لمّا أظهرهم من ظهر آدم الحقيقيّ الذي هو عالم العلم وعالم الأرواح، في عالم الشهادة وعالم الأجسام بنفخ أرواحهم في أجسادهم، أي بظهور أرواحهم في قوالب مظاهرهم، كان كأنّه أنشأهم انشاءً آخر وأوجدهم في صورة أُخرى، التي هي الصورة الإنسانيّة البشرية الكاملة التامّة، الموصوفة بأحسن الصور لقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٢]، حتى إذا كملت النشأتان واستعدّت الصورتان، علّمه البيان، أي بيان العلم القرآني الجمعيّ الحقيقيّ، والفرقان التفصيليّ الفعليّ.

١١١٣ - فاستحقّ بهما الخلافة الصوريّة والمعنويّة، ووجب على الموجودات كلّها السجود له، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٣].

وهذه السجدة تصدق على آدم الحقيقيّ وآدم الصوريّ وعلى كلّ واحد من ذريّتهما، لأنّ السجدة إمّا بمعنى الخضوع والتذلّل، وإمّا بمعنى الانقياد والمطاوعة، وكلاهما صادق عليهما وعلى ذريّتهما.

١١١٤ - أمّا على آدم الحقيقيّ، فمعلوم أنّ جميع الموجودات صادرة عن حياته، وهو مُظهرهم وموجدهم[٤]، لأنّ الموجودات كلّها بالنسبة إليه كأعضائنا بالنسبة إلينا وإلى أرواحنا. وأمّا على آدم الصوريّ، فمعلوم أيضاً أنّ نسبة جميع الموجودات إليه كذلك، وسجدة الملائكة وسجودهم له أيضاً معلوم.

وأمّا على ذريّته الأولى: فلأنّ جميع الموجودات ما وجدت إلا للإنسان واقامة بنيته، كما عرفته من النقل والعقل.

وأمّا على ذريّته الثانية: فجميع الموجودات منقادة لها، مطيعة لأمرها، لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٥].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٦٦.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٤) وموجدهم: ومما يعضده قول الرسول لشقيق نوره: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة» والأمة هنا جميع المخلوقات. (بالأصل).
(٥) سورة الجاثية، الآية: ١٢.

١١١٥ - وهذا سهل، لكن هنا دقيقة صعبة تحيّر العلماء[١] والمفسّرون فيها. وهو أنّه تعالى يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾[٢]. والترتيب يقتضي أن يقول: «الرحمن خلق الإنسان علمه القرآن ثم علمه البيان.

وما قال الحقّ كذلك، لأنّ الذي قال: لا ينبغي إلا كذلك. وجلّ شأنه من أن يعترض عليه أحد باعتراض، لكنّ فيه دقيقة ينبغي أن تفهمها. ونحن نقول: معناه على أربعة أوجه:

١١١٦ - الأوّل: بالنسبة إلى آدم الحقيقيّ والرحمن الحقيقيّ، لأنّ الرحمن الحقيقيّ هو الله تعالى، لأنّ كلّ اسم عبارة عن الذات مع صفة، ولقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[٣].

والغرض أنّ حقيقة الموجود الأوّل الذي هو آدم، ما صارت إنساناً إلا بتعليم الله له القرآن، لقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[٤].

فيصدق عليه أنّ الله علّمه القرآن، ثمّ جعله إنساناً، ثمّ علّمه البيان.

١١١٧ - والثاني: بالنسبة إلى آدم الصوريّ، فإنّه ما صار نبيّاً ولا خليفةً ولا إنساناً حقيقيّاً حتّى علّمه آدم الحقيقيّ الذي هو مظهر الرحمن، القرآن الحقيقيّ الذي هو العلم بتفاصيل الموجودات.

١١٨ - والثالث: بالنسبة إلى أولاد آدم، فإنّ شيث عليه السلام. ما صار نبيّاً ولا إنساناً حقيقيّاً حتّى تعلّم من أبيه ومن جبرائيل عليه السلام الذي هو لسان آدم الحقيقيّ، القرآن.

١١١٩ - والرابع: بالنسبة إلى كلّ واحد من ذريّته، لأنّ الإنسان ما دام عارياً من علم القرآن، الذي هو العلم بالله وأسمائه وصفاته والعلم بالموجودات كلّها اجمالاً

---

(١) تحيّر العلماء: أقول: وما ادعى التحير فيه فمرفوع بالأثر الصحيح المروي فيه «الكافي» وغيره عن الأنوار: «نحن المعاني والله البيان». ولا شك أن معرفة الفياض سابقة على (معرفة) الفيض، النور المنقسم. (بقلم الأصل).

(٢) سورة الرحمن، الآيات: ١ - ٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

لا تفصيلاً، فهو ليس بإنسان بل هو حيوان وأخسّ منه، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(١).

فأمّا إذا تعلّم الإنسان العلم، أمّا من حيث الصورة وأمّا من حيث المعنى، وصار عالماً بالله وبنفسه وبالموجودات، فقد صار إنساناً ومستعدّاً للبيان ومستحقّاً للخلافة، أمّا في العالم الكبير أو الصغير.

جعلنا الله تعالى من ذريّته الحقيقيّة ومن نوع الإنسان الحقيقيّ، ورزقنا مرتبتهم ودرجتهم! وبالله التوفيق. فافهم! فإنّ هذه الوجوه المذكورة في غاية اللطافة. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(٢).

١١٢٠ - لا يقال: إنّ الله منع الولد والنسل صورةً ومعنىً عن نفسه وعن الرحمن الذي جعلته أوّل مظهر له وخليفةً، في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾(٣) وأنتم أثبتّم له الولد والنسل، وهذا نقيض قوله تعالى: - لأنّا نقول: هناك فرق بين الرحمن وبين مظهر الرحمن، لأنّا إذا قلنا «الرحمن» من حيث هو الرحمن، ما نريد به إلا الله تعالى. فأمّا إذا قلنا «مظهر الرحمن» فما نريد به إلا الإنسان الحقيقيّ والروح الأعظم الكليّ المسمّى: بالعقل تارةً، وبالنفس أُخرى، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾(٤) الآية.

١١٢١ - لأنّ «النفس الواحدة» هو: الروح الأعظم والعقل الأوّل وآدم الحقيقيّ. وزوجها: النفس الكليّة الموسومة باللوح والكرسيّ وغير ذلك، التي هي كحواء بالنسبة إلى آدم الذي هو العقل الأول، كما عرفت. وابثاث الرجال والنساء منهما ابثاث الموجودات بواسطتهما أزلاً وأبداً.

١١٢٢ - فنحن أثبتنا الذريّة والولد لهذا: «الرحمن» لا غير. وإلى صورة هذا: «الرحمن» الذي هو جسمه المسمّى: بالعرش أشار أيضاً وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

(٤) سورة النساء، الآية: ١.

ٱسْتَوَىٰ﴾(١) لأنّ العرش أوّل موجود في العالم الجسمانيّ، كما أنّ روحه هي: أوّل موجود في العالم الروحانيّ.

وهذا العرش وهذه الروح هما: كالقلب والروح بالنسبة إلى حقيقة الإنسان وروحه المجرّد، لأنّ القلب الصنوبري كالعرش الجسمانيّ، وروحه كالروح الحقيقيّ الوارد فيه: **«قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»** و **«قلب المؤمن عرش الله»** و **«قلب المؤمن وكر الله»** ولا سيّما قوله: **«لا يسعني أرضي ولا سمائي. ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»**. وهذا يعرف من مطابقة عالم الآفاق بعالم الأنفس وبيان تفصيلهما، وليس هذا موضعه.

١١٢٣ - ولهذا ليست هذه المرتبة ولا هذا الشرف بالنسبة إلى كلّ واحد من ذريّته وأولاده، بل هما بالنسبة إلى الشخص الذي حصلت له هذه العلوم والكمالات بالفعل، أعني بالنسبة إلى الولد الذي ظهرت له العلوم والحقائق المركوزة في جبلته بالقوة، فعلاً، أي يكون اخراجها من معدن القلوب إلى عرصة الوجود في عالم البيان، بالفعل.

فكلّ من أراد ذلك، فينبغي أن يذكر العهد الأزليّ والميثاق الإلّهيّ بعد نسيانه، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(٢) ويتوجّه إلى حضرته أو حضرة أبيه الحقيقيّ بقطع التعلّقات ورفع الموانع المسمّيين بالعزم والجزم، حتّى تحصل له هذه العلوم بالفعل ويصير من أبنائه الحقيقيّين ويدخل في زمرة أولاده المخصوصين، الذين هم علماء علم القرآن الحقيقيّ الجمعيّ، وعلماء علم الفرقان التفصيليّ، المذكور ترتيبهما في باب التوحيد.

١١٢٤ - وكما أشار في الآية المذكورة إلى تحصيل العلم القرآنيّ بالتعليم الرحمانيّ، كذلك أشار إلى تحصيل العلم الفرقانيّ بالتعليم الرحمانيّ، كذلك أشار إلى تحصيل العلم الفرقانيّ بالتعليم الإلّهي، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾(٣) ومعناه: إن اتّقيتم واحترزتم عن رؤية الغير مع مشاهدته

---

(١) سورة طه، الآية: ٤.

(٢) سورة طه، الآية: ١١٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

تعالى في عالم المظاهر والكثرة، وبقيتم على هذا، أعطاكم الله تعالى العلم الفرقانيّ، الذي هو عبارة عن مشاهدته تفصيلاً في عالم المظاهر، وصرتم بذلك أصحاب العلم القرآني الذي هو الجمع بين التفصيل والاجمال مرّةً أُخرى، وصعدتم من التعليم الرحمانيّ إلى التعليم الإلّهيّ، لقوله تعالى أيضاً: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾(١).

١١٢٥ - ولا شكّ أنّ هذا مقام: «السفر الرابع» الذي هو السفر بالله، المسمّى بالفرق بعد الجمع. ولهذا سُمّي المقام الأوّل: بالقرآن والجمع، والثاني: بالفرقان والتفصيل، لأنّ الرحمن شأنه أخذ الأشياء من الله اجمالاً، ثمّ اظهارها تفصيلاً، كما عرفته. وشأن الله اظهار الأشياء اجمالاً وتفصيلاً، فافهم! فإنّه دقيق في غاية الدّقة.

١١٢٦ - فحينئذٍ أعلى مراتب التقوى لأجل تحصيل العلوم الفرقانيّة يكون الاتّقاء(٢) عن مشاهدة الغير مطلقاً، وإليه أشار أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(٣) أي من يتق الله بهذه التقوى، يجعل له مخرجاً من ظلمات الكثرة والشبهات الردية، ويرزقه علم التوحيد الحقيقيّ الذي هو النور الحقيقيّ، لقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٤) ويرزقه من المعارف والحقائق من حيث لا يحتسب هو، ولا يعرف منشأها ومظهرها. وقد تقدّم هذا البحث أيضاً في باب التوحيد.

١١٢٧ - فأمّا بحث الرحمن وكيفيّة تعليمه، فلا شكّ أنّه يحتاج إلى وضوح آخر غيره، وتفصيل غيره تفصيله المذكور. فنقول: اعلم أنّ الوجود كلّه مظهر ذاته وصفاته وأفعاله، وأنّ الوجود المطلق أو الحقّ تعالى له تنزّل في مراتب مظاهره وترتيب أسمائه، من حيث كمالاته الذاتيّة وخصوصيّاته الاسمائيّة. فاسم الله هو اسم الذات من حيث هي هي. واسم الرحمن هو: اسمها من حيث تنزّلها من حضرة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٢) الإتقاء: ولعمري أن هذا الإتقاء هو التقوى حقاً. (بالأصل).
(٣) سورة الطلاق، الآية: ٢ - ٣.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٨.

الذات - التي هي الحضرة الأحديّة - إلى حضرة الأسماء التي هي الحضرة الواحديّة، أعني إذا تنزّلت الذات المطلقة وتعيّنت بأوّل متعيّن، الذي هو خليفتها الأكبر ومظهرها الأعلى، صارت الذات اسمها رحماناً لرحمتها العامّة على أعيان الموجودات باعطاء وجودهم بلا سبب ولا علّة، بل ذلك اعطاء محض وانعام بحت، هما من مقتضيات الاسم الإلّهيّ: الجواد.

١١٢٨ - ولهذا قيل: أنّه أي ﴿الرَّحْمَٰن﴾ اسم خاصّ بمعنى عامّ. وما كان هناك اسم أقرب باسم الله الأعظم منه، ولا أنسب بهذا المنصب. وجميع ما يظهر من الموجودات والمخلوقات، قوّةً وفعلاً، لا يكون إلا بواسطته. وجميع ما أعطى الله الموجودات والمخلوقات من العلوم والحقائق والكمالات والنقائص، لا يكون إلا على يديه، المعبّر عنهما بصفتيْ: الجلال والجمال، لقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[(١)] ولقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[(٢)].

١١٢٩ - وهو أي الاسم: الرحمن المتصرّف في الوجود بخلافته ووزارته، النصب والعزل بيده، والخير والشرّ صادران منه. ليس لغيره بعد الله تصرّف ولا اعطاء ولا منع. به يأخذ الله ما يأخذ، وبه يعطي ما يعطي، وبه يأمر ما يأمر، وبه ينهى ما ينهى، وفيه ورد ما ورد في الخبر النبويّ: «**أوّل ما خلق الله العقل. فقال له: أقبلْ! فأقبل. ثمّ قال له: أدبر! فأدبر. ثم قال له: ما خلقتُ خلقاً أحبّ إليّ منك. بك آخذ وبك أعطي وبك أعرف وبك أعاتب**». وإليه أشار بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[(٣)] إلى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾[(٤)].

١١٣٠ - وهو أي الاسم: الرحمن الموسوم بالبرزخ[(٥)] الجامع، لأنّه برزخ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الملك، الآيات: ١ - ٣.

(٤) سورة الملك، الآية: ١٩.

(٥) بالبرزخ: وتسمية مولاي بالبرزخ (بالأصل).

جامع وحدّ فاصل بين حضرة الذات وحضرة الأسماء والصفات، لأنّه يأخذ بلا واسطة ويفيض على ما تحته بواسطته. أعني يتعلّم من الله بلا واسطة غيره، ويعلّم ما تحته من الموجودات بواسطته، كما تقدّم ذكره، فمعلّمه هي الذات الموسومة بالله تعالى لقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(١).

ومعلّم الموجودات كلّها هو بنفسه، لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾(٢) ولقوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾(٣) أي الإنسان وغيره، والمراد به الذريّة، صوريّةً كانت أو معنويّةً.

١١٣١ - وفيه ورد أيضاً: «**أول ما خلق الله القلم. فقال له: اكتب! فكتب باذن الله ما يجري إلى يوم القيامة، حتّى إذا فرغ قال: جفّ القلم بما هو كائن**».

وهذا إشارة وأمر له باظهار العلوم والحقائق الموجودة فيه اجمالاً على حسب التفصيل:

أوّلاً: في النفس الكليّة.

وثانياً: في الموجودات بعدها على الترتيب المعلوم، المشار إليه بـ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(٤) لأنّ النون عبارة عن اجمال العلوم والحقائق الذي هو بمثابة الدواة، وهو العقل الأوّل.

والقلم عبارة عن تفصيل العلوم والحقائق الذي هو بمثابة القلم، وهو: النفس الكليّة. وما يسطرون، أي ما يسطر هذا القلم والدواة من الموجودات والحقائق من الكتاب الإلٓهيّ الذي هو الوجود مطلقاً، وهو كلمات الله الموصوفة بأنّها لا تنفد ولا تنقطع أزلاً وأبداً، لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾(٥) وليس هذا موضع بيان كلماته وآياته. وقد بسطنا الكلام في آياته وكلماته وكتابه وحروفه في رسالتنا المسمّاة بـ: «منتخب التأويل».

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٣.
(٢) سورة الرحمن، الآيات: ١ - ٣.
(٣) سورة العلق، الآيتان: ٤ - ٥.
(٤) سورة القلم، الآيتان: ١ - ٢.
(٥) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

١١٣٢ - فأمّا الذي ورد في اصطلاح القوم في تعريف: «الكلمات» فهو قولهم: الكلمة يكنى بها عن كلّ واحدة من الماهيّات والأعيان والحقائق والموجودات الخارجيّة، وفي الجملة عن كلّ متعيّن.

وقد تخصّ المعقولات من بين الماهيّات والحقائق والموجودات والأعيان بالكلمة المعنويّة والغيبيّة؛ والخارجيّات: بالكلمة الوجوديّة؛ والمجرّدات والمفارقات: بالكلمة التامّة.

١١٣٣ - ولا شكّ أنّه إذا كانت الدواةُ العقل الأوّل أو الذات بمذهب البعض، وكان القلمُ النفس الكليّة أو العقل بمذهب البعض الآخر، فلا تكون الكلمات إلا هذه.

ويعضد ذلك أيضاً قولهم في بيان: «والنَفَس الرحماني» وكيفيّة صدور الموجودات عنه، وهو قولهم: النفس الرحمانيّ هو الوجود الإضافيّ الوحدانيّ الحقيقيّ المتكثّر بصور المعاني التي هي الأعيان وأحوالها في الحضرة الواحديّة سُمّي به تشبّهاً بنفس الإنسان المختلف الحروف مع كونه هواءً ساذجاً في نفسه، ونظراً إلى الغاية التي هي ترويح الأسماء الإلّهيّة الداخلة تحت حيطة الاسم الرحمن عن كمونها، وهو كمون الأشياء فيها وكونها بالقوّة، كترويح الإنسان بالنفس.

١١٣٤ - وأيضاً لو لم يكن كذلك - أي لو لم يكن الرحمن خليفته الحقيقيّ والمتصرّف في الوجود كلّه، كما مرّ تقريره - لما جعل اسم الرحمن: كاسم الله، أو مرتبة الرحمن: كمرتبة الله في التصرّف والأحكام، ومرتبة اسمه كاسمه في الاستدعاء، لقوله: قل: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾(١) ومعناه أنّ اسم الله واسم الرحمن هما بمرتبة اسم واحد، لأنّهما صادقان على حقيقة واحدة.

والتغاير إنّما هو في اللفظ باعتبارين مختلفين: هما اعتبار الذات واعتبار الأسماء والصفات، وإلا فعند التحقيق هما اسمان لحقيقة واحدة. وقوله: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي هذه الذات إذا عرفت مراتبها وتنزّلاتها في المظاهر، فبأيّ اسم شئت

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

سمّيتها، لأنّه صادق عليها بحسب مراتبها وكمالاتها وتنزّلاتها في صور أسمائها ومظاهرها، كما أشرنا إليه في: «رسالة التوحيد».

١١٣٥ - وكما أنّ اسمه تعالى من حيث الذات والاطلاق والوحدة هو: «الله» فقط، **فكذلك اسمه من حيث الظهور والكمالات والصفات هو: «الرحمن».**

ثمّ بعد ذلك الرحيم والكريم والسميع والبصير والواجب والقديم، وغير ذلك من الأسماء، لأنّ التفاوت في الاعتبار لا في الحقيقة. فإن سمّيته تعالى من حيث الذات بالواجب، ومن حيث الكمالات بالممكن، وكذلك بالقديم والمحدث، والحقّ والخلق، والربّ والعبد، فجائز، لأنّه قد ثبت أن في الوجود ليس غيره وأسماؤها وصفاته وأفعاله، كقولهم: «ليس في الوجود سوى الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالكلّ هو وبه ومنه وإليه».

١١٣٦ - وعلى هذا التقدير، لا يكون هناك اسم ولا صفة ولا فعل ولا وجود ولا حول ولا قوّة تجوز نسبته إلى غيره تعالى، لأنّ غيره عدم صرف ولا شيء محض، ولا ينسب إلى العدم الصرف واللاشيء المحض شيء أصلاً. وليس هذا موضع هذا البحث، لأنّ هذا بحث التوحيد ونحن في بحث التعليم.

١١٣٧ - وبالجملة ليس الفرق بين اسم الرحمن واسم الله إلا في الاعتبار، وإلا في الحقيقة فهو هو، واسمه اسمه، ولا يمكن فرض المغايرة بينهما. ولهذا أمر تعالى عباده بالسجود له، ومعلوم أنّه لو لم يكن هو هو، لما أمر بالسجود له أصلاً، لأنّ السجود لله فقط لا لغيره.

١١٣٨ - وإن قيل: إنّ السجود له (هو) سجود تحيّة وتعظيم، والسجود لله تعالى (هو) سجود عبوديّة والوهيّة، كما قيل: في آدم والسجود له من طرف الملائكة - أجيب عنه: بأنّه ليس السجود للرحمن إلا سجود العبوديّة حيث ثبت أنّه هو، لأنّه لو ثبتت الغيريّة، لاحتاج السجود إلى تعريف وتقسيم.

ولعدم علم بعض العباد بذلك، أنكروا السجود له حين أمرهم وصاروا كافرين بتركه، كإبليس بالنسبة إلى آدم. وبالحقيقة كلاهما واحد، أعني كلّ من ترك السجود له فهو إبليس، لأنّه كآدم حقيقةً وتاركه كابليس.

١١٣٩ - وقوله في ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾[1] لأنّهم لو عرفوا أنّ سجودهم للرحمن هو سجود لله، لما أنكروا قوله وخالفوا أمره، وكانوا منقادين لخليفته الأعظم ومظهره الأعلى وساجدين له؛ بل هم مثل: الشيطان توّهموا أنّ السجود للرحمن يكون سجوداً لغير الله تعالى، وهذا غير جائز؛ فتركوا قول الله لتعظيم الله! وما عرفوا أنّ هذا تحقيره، لأنّ ترك قول الذي هو في صدد التعظيم تحقير.

١١٤٠ - ويعرف هذا من حال الملائكة وإبليس، وحال غير الملائكة أيضاً من الموجودات، بسجودهم لآدم وتعظيمهم له بقوله تعالى وتحقير الشيطان بتركه السجود وبدليله.

١١٤١ - ويعضد ذلك قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[2] لأنّ معناه أنّه يقول: وعباد الرحمن بالحقيقة هم الذين عرفوه بالحقيقة، وسجدوا له سجدةً حقيقيّةً، وصاروا بذلك عارفين بالله وبخليفته. و ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يعيشون بين أهل الأرض من الناس وغيرهم، الذي هو عالم الكثرة. ﴿هَوْنًا﴾ أي على اطمئنان ووقار وسكينة في معرفتهم وكمالهم ومطاوعتهم لخليفة الله ومشاهدتهم إيّاه في جميع الأشياء، لأنّ كلّ من يشاهد السلطان لا يتحرّك بحضوره إلا على اطمئنان ووقار ورعاية للأدب وتعظيم لحضرته، لقول النبيّ ﷺ في بيان الاحسان «**الاحسان أن تعبد الله كأنّك تراه**[3]**، فإن لم تكن تراه، فإنّه يراك**».

١١٤٢ - ويشهد بذلك أيضاً قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[4]. والمراد به بالموت الجهل والانكار، والمراد بالحياة العلم والمعرفة المسّميان بالنور، لأنّ العارف بين الجهال كالنور بين الظلمة، أو كصاحب النور بين أهل الظلمات، لأنّه يقدر أن يمشي بنوره على أيّ طرف أراد، وأهل

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٤.

(٣) تراه: ومشاهده خليفة الله في أرضه وسمائه في كثرة العالمين هو التوحيد الوجودي. (بالأصل).

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

الظلمات لا يشعرون بذلك، ويجادلونه وهو ساكت بحكم أنّ السكوت من الحكمة، وبأنّ جواب العميان وأهل الظلمات لا يمكن إلا بالفعل، وجوابهم بالفعل لا يمكن، لأنّ استعداد قابليّة النور قد ارتفع، فما بقي من جوابهم بالفعل باللسان غير مفيد، فالسكوت يكون في هذه الحالة واجب.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[1] أي إذا خاطبهم الجاهلون بهذا السرّ، قالوا سلاماً، أي سلّمنا الأمر الذي أنتم تشيرون إليه، وما نتكلّم فيه بخلافكم. وهذا دفع جدالهم وخصوماتهم الذي يليق بالحكيم وحكمته.

١١٤٣ - وإلى اعراضهم عن قول هذا الرحمن وأفعاله أشار أيضاً وقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾[2].

ومعلوم أنّ الشخص إذا أنكر شخصاً آخر لا يقبل قوله ولا فعله، ولا يحبّ أن يسمع بذكره فضلاً عن قبول قوله والانقياد لفعله.

ومن حيث أنّ الله عرف أحوالهم وأحوال الجهال مطلقاً في العناد والإباء وعدم قبول الحقّ، قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾[3] يعني أنّه قال لنبيّه ﷺ: لا ينفع انذارك وارسالك إلا لمن اتبع القرآن، الذي هو: «الذكر» وخشي الرحمن بالغيب الذي هو الخليفة والمتصرّف في الوجود، أي خشي من أحكام الله وخليفته - الذي هو الرحمن - في عالم الغيب، أي خشي من انزال البلاء عليهم عاجلاً ووجوب العقاب آجلاً، وغير ذلك من الأحكام.

١١٤٤ - وعلى هذا التقدير فهناك بون بعيد وتفاوت عظيم بين الجاهل بالرحمن وتصرّفه في الوجود، وبين العالِم به المطّلع على أفعاله وأحكامه وتصرّفه في عالم الغيب والشهادة. وإليه أشار في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾[4] والكلّ اشارة إلى القلب السليم وصاحب القلب

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٤.

(٣) سورة يسٓ، الآية: ١٠.

(٤) سورة قٓ، الآيات: ٣٢ - ٣٥.

السليم من الحجاب والظلمة، المستعدّ للفيض الرحمانيّ وأنواره. ولقوله تعالى أيضاً: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[١].

١١٤٥ - ويشهد بذلك كلّه ترتيب الفاتحة، وتعظيمها من بين سور القرآن ثابت، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[٢] لأنّها مشتملة على كمال هذا «الرحمن» وتصرّفه دنيا وآخرة غيباً وشهادةً، لأنّه قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾[٣] وليس هذا إلا بيان تصرّفه واظهار تحكّمه في الوجود دنيا وآخرة، لأنّ ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الثاني لو كان بمعنى الأوّل لكان تكراراً وعبثاً، وهذا لا يجوز من الله تعالى. الذي هو المتصرّف في الوجود ومالكه عاجلاً، وكذلك المتصرّف فيه ومالكه آجلاً، لقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ الذي هو القيامة الكبرى. و﴿الرَّحِيمِ﴾ أيضاً صفة لهذا الرحمن بالرحمة المخصوصة العادية، لا مطلقاً.

١١٤٦ - وإن حُقق، عُرف أنّ وجوب قراءته في الصلاة كلّ يوم سبع عشرة مرّة[٤] كان سبب ذلك، أي سبب أن يعرف أنّ هذا الرحمن هو المتصرّف في الوجود عاجلاً وآجلاً، دنيا وآخرةً، وليس لغيره فعل ولا قول. ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[٥] من الأنبياء والأولياء، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ من الضالّين المضلّين كالمشركين والكفار واليهود والنصارى، مخاطباً له، ويصير بذلك عارفاً كاملاً.

١١٤٧ - لأنّ كلّ من عرف أنّ المتصرّف في الوجود والحاكم في القيامة الكبرى والصغرى وما بينهما، بالحقّ والباطل، هو هذا الرحمن لا غير، توجّه إليه حقّ

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ - ٨٩.

(٢) سورة الحج، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ١ - ٤.

(٤) مرة: ولعمري إن هؤلاء العرفاء جعلوا وجوب قراءة السورة ما ذكر العارف المؤلف. وأنا ألهمت علة الوجوب وطلب الهداية إلى طريق الله وسبيله والصراط المستقيم، ومرجع لكل واحد (بالأصل).

(٥) سورة الفاتحة، الآيتان: ٥ - ٧.

التوجّه، وسلّم الأمر بالكليّة إلى حكمه، وصار عالماً عارفاً كاملاً محقّقاً، لأنّه يفيض عليه دفعةً بهذا المقدار علمٌ لا يمكن تحصيله بألف سنة بل بألوف.

١١٤٨ - فالروح هو هذا الإنسان الذي هو الروح الأعظم المحيط بالوجود كلّه، القائم به جميع الموجودات لقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[١] الذي هو عرش الله ومظهر ذاته المقدّسة[٢]، لأنّ «العمد المعنويّ» القائم به الوجود هو هذا الروح لا غير، كما ذكرته أيضاً من قول العارفين والأئمّة المعصومين. وجسمه المسمّى بالجسم الكليّ أو العرش العظيم، الشامل لجميع الموجودات، هو عرش الرحمن ومظهر رحمته العامّة، لقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٣] ولقول النبيّ ﷺ: «**أوّل ما خلق الله العرش**». ونفسه المسمّاة باللوح والنفس الكليّة والكرسيّ أيضاً هي عرش الرحيم.

أعني هذا الإنسان الكبير من حيث باطنه وروحه هو مظهر اسم الله؛ ومن حيث ظاهره وجسمه هو مظهر اسم الرحمن؛ ومن حيث نفسه هو مظهر اسم الرحيم.

١١٤٩ - فمثابة هذا الروح بعينه أو هذا الخليفة بالنسبة إلى العالم الكبير، هي بمثابة قلب الإنسان الصغير بالنسبة إليه، أعني كما أنّ روح الإنسان الكبير هو مظهر اسم الله، وجسمه هو مظهر اسم الرحمن - أو عرشه - فكذلك روح الإنسان الصغير، الذي هو حياة قلبه الصوريّ، هو مظهر اسم الله، لقوله: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**».

ولقول النبيّ ﷺ: «**قلب المؤمن عرش الله**». وصورة قلبه، التي هي جسم هذا الروح، وهي مظهر اسم الرحمن، لقول النبي ﷺ: «**قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن**».

١١٥٠ - وبالجملة كما أنّ الإنسان الكبير من حيث - هو هو - جامع لهذه الأسماء الثلاثة أي الله، الرحمن، الرحيم وكمالاتها اجمالاً وتفصيلاً، وكما أنّ

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

(٢) المقدسة: لقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾. وجسمه المسمى بالجسم الكلي والعرش العظيم الشامل لجميع الموجودات مع عرش الرحمن ومظهر رحمته.

(٣) سورة طه، الآية: ٤.

روح الإنسان الكبير بمثابة القلب في جسد العالم، فكذلك روح الإنسان الصغير هي بمثابة القلب في جسده.

١١٥١ - فحينئذٍ، كما أنّ جميع كمالات الإنسان الصغير من العلوم والحقائق والحياة والقدرة والتصرّف والادراك والأخذ والعطاء والقبض والبسط، تتعلّق بقلبه وروحه، فكذلك جميع كمالات الإنسان الكبير من العلوم والحقائق والقدرة والحياة والتصرّف والادراك والأخذ والعطاء والقبض والبسط، تتعلّق بروحه وقلبه. ومن هذا يعرف شرف الإنسان الكبير المسمّى: بالرحمن، وشرف الإنسان الصغير المسمّى: بالرحيم، ومرتبتهما في الوجود.

١١٥٢ - وكأنّ النبيّ ﷺ إلى هذا المعنى أشار بقوله: «**إنّ في جسد ابن آدم لمضغة إن صلحت صلح بها جميع الجسد، وإن فسدت فسد بها جميع الجسد: ألا وهي القلب!**» وفي هذا القلب وتحقيقه أسرار لا تحتملها أطباق السماوات والأرض السبع مع ما تحتها، وقد أشار إلى بعض ذلك الشيخ الأعظم في «فصوصه» في «الفصّ الشعيبيّ» ما نظره هناك.

والغرض أنّ مرتبته أي مرتبة القلب عظيمة ورتبته جليلة. وفوق ذلك كلّه أنّه ما اختصّ نزول هودج كبريائه إلا فيه، وما جرت سلطنته في الوجود إلا به ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[(١)]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[(٢)]. ومع ذلك، فسنشير إليه بأبسط من ذلك، إن شاء الله.

١١٥٣ - فظهور الحقّ في مرتبة اسم الرحمن، بنزول واحد من حضرة الذات إلى حضرة الأسماء والصفات، هو المرتبة الثانية في الوجود والمرتبة الأولى في الظهور. وظهوره في مرتبة اسم الرحيم هو تنزّل ثانٍ من حضرة الألوهيّة إلى حضرة الربوبيّة، لأنّ حضرة الألوهيّة الموسومة: بالحضرة الواحديّة، لها اعتباران: اعتبار الألوهيّة واعتبار الربوبيّة. فالألوهيّة مخصوصة: بالرحمن، والربوبيّة مخصوصة: بالرحيم.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٥٨.

(٢) سورة قٓ، الآية: ٣٦.

وهكذا له أي للحقّ تنزّل بعد تنزّل إلى ما لا نهاية له من حيث التفصيل، لكن من حيث الاجمال تنزّلاته منحصرة في الحضرات الثلاث التي ذكرناها، وهي عند البعض في الحضرات الخمس. والأصحّ أنّها منحصرة في الحضرات الثلاث، لأنّ من الحضرات الخمس تخرج الحضرتان، لأنّهما ضمن الثلاث.

١١٥٤ - والحضرات الخمس هي حضرة الغيب المطلق، وعالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلميّة. وفي مقابلتها، حضرة الشهاة المطلقة، وعالمها عالم الملك. وحضرة الغيب المضاف، وهي تنقسم إلى ما يكون أقرب من حضرة الغيب المطلق، وعالمه عالم الأرواح الجبروتيّة والملكوتيّة، أعني عالم العقول والنفوس المجرّدة؛ وإلى ما يكون أقرب من حضرة الشهادة المطلقة، وعالمه عالم المثال. وإنّما انقسمت حضرة الغيب المضاف إلى القسمين المذكورين لأنّ للأرواح صوراً مثاليّة مناسبة لعالم الشهادة المطلقة، وصوراً عقليّة مجرّدة مناسبة للغيب المطلق. والحضرة الخامسة هي الحضرة الجامعة للحضرات الأربع المذكورة، وعالمها العالم الإنسانيّ الجامع لجميع العوالم وما فيها.

١١٥٥ - فعالم الملك مظهر عالم الملكوت، وهو عالم المثال المطلق، وهو مظهر عالم الجبروت، أي عالم المجرّدات، وهو مظهرعالم الأعيان الثابتة، وهو مظهر الأسماء الإلّهية والحضرة الواحديّة، وهي مظهر الحضرة الأحديّة. فخروج الحضرتين من هذه الحضرات الخمس هو أنّ حضرة الأعيان الثابتة داخلة في حضرة الواحديّة، وحضرة الإنسانيّة داخلة في الكلّ، فتكونان خارجتين بهذا الوجه.

١١٥٦ - فالأصل منها أي أُصول الحضرات جميعاً حضرة الذات وحضرة الأسماء والصفات وحضرة الموجودات كلّها، أعني حضرة الأحديّة وحضرة الألوهيّة وحضرة الربوبيّة، لأنّ الظهور على سبيل الاجمال، ثمّ في مراتب هذه الأسماء الإلّهيّة الثلاث، أعني اسم الله واسم الرحمن واسم الرحيم، لأنّ من مرتبة اسم الله ظهرت الأعيان في حضرة علمه، التي هي حضرة الأسماء والصفات.

ومن مرتبة اسم الرحمن ظهر وجودهم في عالم الأرواح والمجرّدات.

ومن مرتبة اسم الرحيم ظهر وجودهم في عالم الأجسام والمجسّمات.

وهذه المراتب شاملة للكلّ، لأنّه ليس هناك إلا الذات واعتبار بطونها وظهورها. فاسم الله: مظهر الذات المطلقة، واسم الرحمن: مظهر الباطن المطلق، واسم الرحيم: مظهر الظاهر المطلق.

والذات الإلّهية: نفسها موسومة من حيث الباطن بالاسم الإلّهيّ الأوّل؛ ومن حيث الظاهر، بالاسم الآخر؛ ومن حيث المجموع، بالأوّل والآخر والظاهر والباطن.

١١٥٧ - وإلى مجموع هذا البحث، أي بحث المراتب والظهور، أي ظهوره فيها بصورة العالم، أشار بعض العارفين وقال: «العالم، لكونه مأخوذٌ من العلامة، هو لغةً: عبارةٌ عمّا يعلم به الشيء، واصطلاحاً: هو عبارة عن كلّ ما سوى الله تعالى، لأنّه يعلم به الله من حيث أسماؤه وصفاته، إذ بكلّ فرد من أفراد العالم يعلم اسم من الأسماء الإلّهيّة، لأنّه مظهر اسم خاصّ منها.

فبالاجناس والأنواع الحقيقيّة تعلم الأسماء الكليّة، حتى يعلم بالحيوانات المستحقرة عند العوامّ، كالذباب والبراغيث والبقّ وغير ذلك، أسماء هي مظاهرها.

١١٥٨ - «والعقل الأوّل، لاشتماله على جميع كليّات حقائق العالم وصورها على طريق الاجمال، عالمٌ كليّ يعلم به «الاسم الرحمن». والنفس الكليّة لاشتمالها على جميع جزئيّات ما اشتمل عليه العقل تفصيلاً في مرتبة قلبه، هي أيضاً عالم كليّ يعلم به «الاسم الرحيم» والإنسان الكامل الجامع لجميعها، اجمالاً في مرتبة روحه وتفصيلاً في مرتبة قلبه، هو عالم كليّ يعلم به «الاسم الله» الجامع للأسماء.

١١٥٩ - «وإذا كان كلّ فرد من أفراد العالم علامةً لاسم إلّهيّ، وكلّ اسم - لاشتماله بالذات الجامعة لأسمائها - مشتملاً عليها، كان كلّ فرد من أفراد العالم أيضاً عالماً تعلم به جميع الأسماء. فالعالم غير متناهٍ من هذا الوجه، لكن لمّا كانت الحضرات الإلّهيّة خمسة، صارت العوالم الكليّة الجامعة لما عداها أيضاً كذلك».

- هذا آخر كلامه وآخر الحضرات الخمس المتقدّم ذكرها.

١١٦٠ - فنرجع الآن إلى ما نحن بصدده ونقول: فاسم الرحمن اسم خاصّ بالمعنى العامّ، أيْ اسم خاصّ بالله، عامّ الرحمة بالنسبة إلى ما سواه من حيث البداية

في اعطاء الوجود والاستعداد. واسم الرحيم اسم عامّ بالمعنى الخاصّ، أيْ اسم عامّ، أعني صادق عليه تعالى وعلى غيره، خاصٌ بالنسبة إلى ما سواه من حيث النهاية في اعطاء الثواب والجزاء. واسم الله جامع لهما ولما تحتهما من الأسماء والكمالات وغير ذلك.

١١٦١ - ولهذا صار: «بسم الله الرحمن الرحيم» مشتملاً على جميع المراتب الإلَهيّة والكونيّة والأوليّة والآخرية. وانحصرت جميع الفضائل التي في جمع الكتب الإلَهيّة فيه، لأنّ جميع الفضائل، التي كانت في الكتب المقدّمة من الكتب الإلَهيّة، انحصرت في القرآن، وجميع فضائل القرآن انحصرت في حروفه المقطعة وسوره المفصّلة.

وجميع هذه الفضائل انحصرت في الفاتحة المسمّاة: بالسبع المثاني.

وجميع فضائلها انحصرت في: «بسم الله الرحمن الرحيم» لأنّ الوجود كلّه مرتّب على البداية والوسط والنهاية. فاسم الله، له مرتبة البداية بوجه. واسم الرحمن، له مرتبة الوسط بوجه. واسم الرحيم، له مرتبة النهاية بوجه. ويجوز العكس.

١١٦٢ - وفي ترتيب هذه الأسامي الإلَهية وصورة: «بسم الله الرحمن الرحيم» على حسب ما ذكرناه، أشار المولى الأعظم، كمال الحق والملّة والدين عبد الرزّاق الكاشاني - قدّس الله سرّه - في أوّل «تأويلاته» إشارة جامع وهي هذه: «اسم الشيء ما يعرف به.

فأسماء الله تعالى هي الصورة النوعيّة التي تدلّ بخصائصها وهويّاتها على صفات الله وذاته، بوجودها على وجهه، وبتعيّنها على وحدته، إذ هي ظواهره التي يُعرف بها.

والله اسم الذات الإلَهيّة من حيث هي هي على الاطلاق، لا بالاعتبار اتّصافها بالصفات، ولا باعتبار لا اتّصافها بها.

والرحمن: هو المفيض للوحود والكمال على الكلّ بحسب ما تقتضي الحكمة وتحتمل القوابل، على وجه البداية.

والرحيم: هو المفيض للكمال المعنويّ المخصوص بالنوع الإنسانيّ بحسب النهاية».

١١٦٣ - وبالجملة، أسرار البسملة ليست بقابلة للتقرير والتحرير. ومن هذا المقام قيل: «ظهر الوجود من باء بسم الله الرحمن والرحيم». وقيل: «بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميّز العابد عن المعبود». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«والله! لو شئتُ لأوقرتُ سبعين بعيراً من شرح باء بسم الله الرحمن الرحيم»**.

وقال أيضاً: **«أنا النقطة تحت الباء»** لأنّه كنقطة بالنسبة إلى التعيّن الأوّل الذي هو النور الحقيقيّ المحمّديّ، لقوله: **«أوّل ما خلق الله نوري المسمّى بالرحيم»** ولقوله: **«أنا وعليّ من نور واحد»**.

١١٦٤ - لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كالباء وعليّ عليه السلام كالنقطة تحتها، لأنّ الباء لا يتعيّن إلا بالنقطة، كما أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لا يتكمّل إلا بالولاية، وإن كان الوليّ أدنى مرتبةً من النبيّ مرتبةً. وإلى هذا أشار أمير المؤمنين وقال: **«العلم نقطة كثّرها الجهال»** يعني العلم الحقيقيّ نقطة، أي حصول العلم الحقيقيّ موقوف على الاطّلاع على هذه النقطة وكيفيّة ظهورها ومظاهرها ومراتبها.

لكن **«كثّرها الجهّال»** بجهلهم بها وانكارهم بصاحبها. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(١). ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٢).

١١٦٥ - والغرض من مجموع هذا البحث أن يثبت أنّ منبع جميع العلوم المذكورة ومنشأها حضرة هذا الرحمن الذي قال تعالى فيه: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾(٣) وأنّه ما يمكن تحصيلها إلا منه. وهذا قد ثبت. والحمد لله على ذلك! وكلّ من أراد العلوم الحقيقيّة الإرثيّة الإلهيّة، فليتوجّه إلى حضرته على حسب ما قدّمناه، ليتعلّم منه على قدر استعداده واستحقاقه، لأنّه جواد كريم. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾(٤) والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب. ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(٥).

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٣) سورة الرحمن، الآيتان: ١ - ٢.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٠.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

١١٦٦ - هذا آخر الوجه الأوّل وبيان الآية المذكورة وتأويلها بقدر هذا المقام. وإذا تحقّق هذا، فلنشرع في الوجه الثاني، متمسّكين بقوله تعالى أيضاً: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1] لأنّه دلالة موضحة غاية الايضاح على ما بيّنّاه، لأنّ هذا وإن كان خطاباً للنبيّ، لكنّه بالحقيقة خطاب لكلّ واحد من نوع الإنسان. وإن قلت: هذا خطاب إلى النبيّ الحقيقيّ وإلى كلّ واحد من ذريّته المعنويّة والصوريّة، - فذلك جائز.

١١٦٧ - وعلى هذا التقدير، فمعناه أنّه يقول للنبيّ ﷺ أو لكلّ واحد من عباده: توجّه إلى ربّك الأكرم الأعظم الأعلى، ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾[2] أي بالعقل الأوّل المسمّى: بجبرئيل والرحمن وغير ذلك، لقوله تعالى فيهما: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[3] و﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾[4] المتقدّم ذكره. ولقول النبيّ ﷺ: «**أوّل ما خلق الله القلم**» كما عرفت.

توجّه حقّ التوجّه إليه، لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[5] وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[6]، ليعلّمك علوماً ما كنت تعلمها قبل ذلك بالفعل، وإن كنت تعلمها بالقوّة، لأنّه هو الذي ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ قوّةً وفعلاً ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[7] لا قوّةً ولا فعلاً.

١١٦٨ - وسبب تسمية العقل الأوّل أو الرحمن أو جبرائيل أو الخليفة بالقلم، لأنّه كالقلم في افاضة العلوم والحقائق على ألواح النفوس وصفحات القلوب، وبالتخصيص على النفس الكليّة، التي هي كاللوح بالنسبة إليه.

وإن حقّق عُرف أنّ تسميتها: أي النفس الكليّة باللوح أيضاً ما كان إلا لهذا، لأنّ

---

(١) سورة العلق، الآيات: ٣ - ٥.
(٢) بالقلم: في أن القلم الأعلى هو مولاي وروح الأرواح، العقل الأول والرحمن. (بالأصل).
(٣) سورة النجم، الآية: ٥.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ١ ٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.
(٦) سورة المزمل، الآية: ٨.
(٧) سورة الرحمن، الآية: ٥.

أوّل فيض يصدر منه: أي من القلم أو ينزل من حضرته، لا ينتقش ولا يصوّر إلا فيه: أي في اللوح وعليه، ثمّ بعد ذلك يصل إلى غيره. وبالحقيقة نسبة العقل أو الرحمن إلى الله هي هذه النسبة بعينها، لأنّ أوّل فيض يصدر من الله أو ينزل، ما ينتقش ولا يصوّر إلا فيه وعليه، وبعده يصل إلى غيره.

١١٦٩ - وهذان المظهران هما الموسومان أيضاً بـ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[١] لأنّ «النون» هو النفس الكليّة بسبب نقوش العلوم كلّها عليها تفصيلاً من القلم.

﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ هو العقل الأوّل[٢] بقوله العلوم كلّها اجمالاً من الله تعالى، كالقلم مثلاً أخذهُ المداد - المجمل فيه العلوم والحروف - ليرقم به على الكاغد أو اللوح تفصيلاً. وقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ عبارة عمّا يسطر هذا القلم على اللوح، وما يسطر اللوح على غيره اجمالاً وتفصيلاً.

١١٧٠ - ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي ما يكتب هذان الكاتبان، وهو على قسمين: أمّا العلوم والحقائق، وهو الذي قال تعالى عنه: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[٣].

وأمّا حقائق الأعيان وماهيّات الوجود، أو وجود الحقائق ووجود الماهيّات المسمّاة: بالكلمات الإلّهيّة، كما عرفته في تعريف الكلمات الإلّهيّة وبيان عدم تناهيها لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[٤].

فالأوّل: محلّه القلوب أو النفوس، أي قلوب العباد ونفوس الإنسان.

والثاني: محلّه الوجود بأسره.

والأوّل: أي الذي هو محلّ العلوم - موسوم باللوح.

---

(١) سورة القلم، الآية: ١.
(٢) العقل الأول: في أن العلم الإلهي، النور، الروح الذي به خلق الله الخلائق وهو العقل الأول. (بقلم جديد).
(٣) سورة العلق، الآيتان: ٤ - ٥.
(٤) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٩.

والثاني: أي الذي هو محلّ الأعيان موسوم بالكتاب، وإليه أشار تعالى بقوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾[1].

١١٧١ - لأنّ «الطور»: هو العقل الأوّل لمناسبته بالطور في علوّه وسلامته، لأنّ مظهره الفلك الأطلس، أي الأملس من النقوش، المسمّى: بالعرش وغير ذلك. و «الكتاب المسطور» هوالنفس الكليّة، كما تقدّم.

و«الرق المنشور» هو الوجود كلّه.

ومناسبة الوجود بالرقّ أيضاً لسلامته من النقوش، من حيث اطلاقه وتجرّده وغير ذلك. والكلّ إشارة إلى صدور الموجودات من هذين المظهرين المسمّيين: باللوح والقلم. وههنا أسرار كثيرة ليس هذا موضعها.

١١٧٢ - فنرجع ونقول في الحكمة في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾[2] أنّ الربوبية على قسمين: الربوبيّة الكبرى والربوبيّة الصغرى.

فالربوبيّة الكبرى: هي للحقّ تعالى وحده، الذي هو رب الأرباب.

والربوبيّة الصغرى: هي للخليفة الأعظم المسمّى: بالعقل والرحمن، لأنّه أي الرحمن وإن كان مربوباً بالنسبة إلى الحقّ تعالى، فهو ربّ بالنسبة إلى ما دونه من المربوبات.

وبهذا كان تخصيصه به (أي باسم الرحمن) من دون الأسماء الإلّهيّة كلّها، لأنه ليس منه إليه أي إلى الحقّ تعالى معنى وصورة بهذا إلا المعنى.

١١٧٣ - فهذه الربوبيّة الصغرى: لأجل هذا اختصّت به أي باسم: الرحمن، وهي من بعده خاصّة بالأسماء الإلّهيّة دونه، لأنّ كلّ اسم إلّهيّ أيضاً، هو ربّ لمظهره وخالق له. وإلا لما صدق عليه تعالى أن يكون هو: «ربّ الأرباب» و ﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الطور، الآيات: ١ - ٣.
(٢) سورة العلق، الآيتان: ٣ - ٤.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

١١٧٤ - فتقديره أنّه تعالى يقول: توجّهْ إلى ربّك الأكرم الأعلى الأعظم، الذي هو الحقّ المطلق والجواد الكريم، حقّ التوجّه، إذ هو الذي: «يعلّم بالقلم» - أي بالربّ الأصغر، أي بلسان العقل الأوّل والروح الأقدم - «الإنسان» - أي كلّ واحد من أنواع الإنسان - «ما لم يعلم» قبل ذلك فعلاً، وإن كان يعرفه قوّةً، منه تعالى أيضاً.

١١٧٥ - فالعلوم والحقائق كلّها تنزل أوّلاً من حضرة الربّ الأعلى الذي هو الحقّ - جلّ جلاله - على حضرة الربّ الأدنى الذي هو العقل الأوّل والإنسان الحقيقيّ المسمّى: بالرحمن، اجمالاً. ومن حضرته تنزل العلوم والحقائق على النفس الكاملة أي الكليّة المسمّاة: بالرحيم، تفصيلاً. ومن حضرتيهما إلى ما دونهما تفصيلاً واجمالاً.

١١٧٦ - والآيات الدالّة على ذلك كثيرة، والأخبار الواردة في هذا المعنى جمّة، وقد عرفت بعضها. ومن جملتها قوله تعالى أيضاً في: ﴿حمٓ﴾ السجدة. ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾[1].

١١٧٧ - لأنّ قوله تعالى: «حم» قَسَمٌ به وبمظهره الخاصّ الذي هو الإنسان الحقيقيّ، لأنّ «الحاء» عبارة عن الحقّ تعالى، و«الميم» عن مظهره، بأنّ هذا القرآن نازل من عنده بواسطة مظهرية الخاصّ والعامّ اللذين هما «الرحمن الرحيم».

وتقديره أنّه تعالى يقسم بذاته وبمظهره الخاصّ أنّ هذا الكتاب، أي القرآن وما اشتمل عليه من تفاصيل العالم الكبير والصغير - اللذين هما أيضاً كتابان - «كتاب فصلت آياته» بعد أن أجملت، من حضرتيْ «الرحمن الرحيم»، بلسان عربيّ فصيح، أي تركيب عربيّ بليغ، «القوم» يعقلون معناه وفحواه، «بشيراً» إلى الجنّة، أي إلى عالم الحقائق والمعارف الإلٓهية، «نذيراً» من الأعراض عنه وعن الداعي إليه.

١١٧٨ - «فأعرض أكثرهم» عنه وعن الداعي إليه وأبوا عن قبوله وادراكه، «فهم

(١) سورة فصلت، الآيات: ١ - ٤.

لا يسمعون» قوله وقول نبيّه: أي لا يقبلون ولا يعقلون. **«ويقولون: إنّ قلوبنا في أكنّة»** من هذا، أي قلوبنا في حجاب غليظ **«ممّا تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر»** أي في آذان عقولنا وقلوبنا صمم ووقر مانعان عن قبوله وادراكه. والمعنى أنّ بيننا وبينه حجاباً وستراً **لا يمكن** ازالتهما. وإذا آل الأمر إلى **ذلك، فإن شئتَ فاجعلْ «بيننا»** وبينه **«حجاباً»** آخر، وإن شئتَ فافعل بنا ما شئتَ من البلاء والعذاب **«فإننا عاملون»** بك ذلك.

١١٧٩ - وحاصل هذا الكلام أنّ أخذ هذه العلوم والحقائق موقوف على صفاء القلب ورفع الحجاب عن وجهه، والتوجّه الكليّ إلى الحضرة الرحمانيّة والجناب الرحيميّ، المشار إليهما في قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[١] لأنّه بدون هذا أي الصفاء القلبيّ والتوجّه الكليّ لا يمكن حصولها أي الحقائق والعلوم، أي تحصيلها بدون رفع الحجاب عن وجه القلب والاستعداد الكامل والتوجّه التامّ، غير ممكن.

١١٨٠ - كما أشار تعالى إليه أيضاً، مقيّداً بهذه الشروط، في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[٢]، أي لو أنّهم قاموا بالعبادة الشرعيّة الظاهرة، التي هي الشريعة، واجتهدوا في الأعمال القلبيّة الباطنة، التي هي الطريقة، وجمعوا بينهما بحيث ما احتجبوا بأحدهما عن الآخر - وهذه هي الحقيقة - لحصل لهم: **«الأكل من فوقهم»** الذي هو الأغذية الروحانيّة من العلوم والحقائق، **«ومن تحت أرجلهم»** الذي هو المدركات الجسمانيّة من عجائب عالم المثال والكشف الصوريّ وغير ذلك، وقد تقدّم بيان ذلك مرّة أُخرى.

وأمثال ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣].

وكقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٤].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٦.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٤) سورة الطلاق، الآية: ٢.

وكقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾[(١)] إلى غير ذلك من الآيات المتقدّم ذكرها مراراً.

١١٨١ - وإذا عرفت كيفيّة تحصيل العلوم الإلّهيّة والحقائق الربّانيّة من حضرة الله تعالى بواسطة المعلّم الحقيقيّ الذي هو الرحمن والإنسان الحقيقيّ المسمى: بالقلم والعقل وغير ذلك، فينبغي أن تعرف كيفيّة ازالة الحجاب عن وجه قلبك، وكيفيّة تهيئته لقبول هذا العلوم، وكيفيّة الحجاب المسمّى: بالختم والرين والطبع وغير ذلك، لتقدر أن تتوجّه إلى تحصيل هذه العلوم بهذا الطريق. ومن حيث أنّه معلوم أنّك ما تعرف شيئاً من هذا، فيجب علينا بيانه أيضاً، تمسّكاً بقول الله وقول نبيّه وأئمّته وكذلك تابعيهم من المشايخ الكبار.

١١٨٢ - أمّا قوله تعالى فيهما، أي في حجابهم وعمائهم وعدم استعدادهم وقابليّتهم بواسطتهما، فكقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[(٢)] ومعناه أنّه يقول لنبيّه: أما رأيت هذه الطائفة الذين أخذوا هواهم إلّههم، أي جعلوا هواهم إلّههم؟ ويطيعونه حيث أمرهم بالعصيان ومخالفة الله ورسوله وطلب الدنيا والتعلّقات الفانية المانعة عن الحقّ.

أما رأيتَ كيف أضلّهم الله على علم؟ أي مع أنّهم عالمون - عند أنفسهم وعند غيرهم من الجهلة - بالعلوم الظاهرة.

١١٨٣ - والمراد باضلال الله في هذا الموضع وجميع المواضع القرآنيّة، اضلالهم عن اللطف الخاصّ والفضل الغير الواجب عليه، لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[(٣)]. وجعل على سمعهم وقلبهم، بسبب ذلك، ختماً وحجاباً بحيث لا يسمعون شيئاً من كلام الحقّ، أي لا يقبلون ولا يفقهون شيئاً من معانيه. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[(٤)] أي جعل على بصرهم الحقيقيّ غشاوة، أي حجاباً غليظاً يحجبهم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.
(٤) سورة الجاثية، الآية: ٢٢.

عن مشاهدة آيات الحقّ وادراك معانيها. وإذا صاروا كذلك، وجعلهم الله بهذه المثابة، «فمن يهديهم» من هذه الظلمات ويخلّصهم من هذه الدركات «من بعد الله» وحسن توفيقه؟ «أفلا تذّكرون» أي أفلا تعقلون؟ ولا يتصوّر أنّ رفع هذه الحجب يمكن أو يتيسّر بغير عنايته ومحض ألطافه.

١١٨٤ - ومعلوم بالحقيقة أنّ المراد بالسمع والقلب والبصر، هذا الموضع وغيره في القرآن، ليس السمع والقلب والبصر الصوريّ، لأنّ الكفار أو اليهود، الذين نزلت هذه الآية فيهم، ما كانوا بحسب الصورة ناقصين عن هذه الآلات، لأنّ أسماعهم الصوريّة كانت صحيحة وكذلك القلب والعين؛ بل المراد بها القلب الحقيقيّ والبصر الحقيقيّ، المعنى بهما التعقّل والقبول والعيان، أي التعقّل والقبول بحيث يكونان كالعصيان بالبصر.

١١٨٥ - ويشهد بذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1] لأنّ الحيوان ليس بمكلّف ولا بمقصّر في الأمور المخصوصة به.

والإنسان مكلّف ومقصّر في أمور مخصوصة به غاية التقصير، حتّى يصل إلى مكان يكون أخسّ من الحيوان بل من الجماد، لقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[2].

١١٨٦ - وإلى مراتب الحجب القلبيّة وغلظها ورقّتها أشار تعالى بقوله:

أوّلاً: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3] لأنّ الرين أدنى مراتب الحجب وأرقّها.

وثانياً: بقوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[4] والطبع أكثف الحجب وأغلظها.

وثالثاً: بقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[5] لأنّ الختم نهاية مراتب الحجب التي ليست قابلة للاصلاح، كالمرآة الخارجة عن حدّ التصقيل.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٨. لا يفقهون بها: وفيها دلالة على انحصار معنى الفقاهة بأرباب القلوب لا غيرهم من أهل الضلال، وعلماء الظاهر. (الأصل).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٩.

(٣) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٩٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٦.

١١٨٧ - وقال تعالى أيضاً، تأكيداً لهذا القول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[١] والقفل نهاية انعقاد الشيء في حفظه. وكذلك الختم. وهذا العمى هو العمى الذي لا يخلّص صاحبه منه لا دنيا ولا آخرة نعوذ بالله منه! وإليه أشار - جلّ ذكره: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٢]. وهذا أيضاً إشارة إلى قوّة العمى الأخرويّ وازدياده. نعوذ بالله منه! وسبب ذلك عدم الآلة وانتفاء استعداد الرافع لهذا العمى.

١١٨٨ - والدليل على مجموع ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[٣].

ومعلوم أنّ النسيان ما له تعلّق بالعين البصريّة. وكذلك الذكر، لأنّ الذكر والنسيان مختصّان بالقلب الذي هو البصيرة، لا البصر، لأنّ هذا اخبار عن العدم بالملكة. وليس من الحكمة نسبةُ شيءٍ إلى شيءٍ ليس من شأنه الاتّصاف به.

والاعراض عن الذكر لا يكون إلا بالقلب أو اللسان، موقوف على اعراض القلب. وعلى جميع التقادير، ليس للعين البصريّة فيهما: أي في النسيان والذكر دخل.

١١٨٩ - وعن هذا المعنى مع هذه الطائفة أخبر تعالى أيضاً وقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾[٤] وأراد به أعينهم القلبيّة، وإلا فالذكر ما له تعلّق بالبصر، كما مرّ. ولتأكيد هذا المعنى ورفع هذه الشبهة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٥].

وحيث قيّد جميع هذه الحجب وهذا العمى بعدم الذكر، الذي هو كالنور بالنسبة إلى الظلمة، فلا تزال هذه الحجب وهذا العمى الذي هو كالظلمة، إلا بنور الذكر.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.
(٣) سورة طه، الآية: ١٢٤ - ١٢٦.
(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠١.
(٥) سورة الحج، الآية: ٤٥.

١١٩٠ - فحينئذٍ عليك بالذكر وأهل الذكر، لقوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

والذكر هو العلوم الحقيقيّة الإلَهيّة، أو القرآن، أو المعرفة، أو التوجّه الكليّ إليه تعالى.

وأهل الذكر هم الأنبياء والأولياء والعلماء المحقّقون والعرفاء الموحّدون من تابعيهم على قدم الصدق والصفاء، والجدّ والوفاء، الموصوفين في القرآن بالقسط والعدل والرسوخ والثبات وغير ذلك.

١١٩١ - وإليهم وإلى استقامتهم على الذكر الحقيقيّ أشار تعالى بقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾(٢) ومعناه أنّه يقول: رجال، وأيّ رجال! لا تغفلهم و «**لا تلهيهم**» المعاشرة بين الناس والمخالطة بهم لأجل الضروريّات «عن ذكر الله» وعن التوجّه القلبيّ وقبول الفيض منه ومشاهدته في مظاهره الآفاقيّة والأنفسيّة، «**واقام الصلاة**» أيّ اقامة الصلاة الحقيقيّة التي هي التوجّه الكليّ إلى «القبلة» التي هي حضرته القدسيّة ومشاهدته الجليّة فيها، بحيث لا يغفلون عنها طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾(٣)، أيّ على هذا التوجّه والمشاهدة هم دائمون، يعني لا يمنعهم عن هذه الصلاة الأكل والشرب والنوم واليقظة وغير ذلك، لأنّها ليست محتاجة إلى القيام والقعود والركوع والسجود.

١١٩٢ - وهذا يكون من قبيل قوله تعالى: في حقّ الحيوانات والطيور ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾(٤) لأنّ الطيور ما لها ركوع وسجود، ووصفها الحق بالصلاة. وإليه أشار القرآن في موضع آخر، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾(٥) أي ما خلقت هذا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٧.

(٣) سورة المعارج، الآية: ٢٣.

(٤) سورة النور، الآية: ٤١.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

زائلاً مضمحلاً فانياً كما يتوّهم المحجوب عنها، بل خلقتها حقّاً لأنّها مظاهر الحقّ، وجعلتها دائمةً باقيةً، لأنّها مظاهر ذاتك وصفاتك وأسمائك، وأنت باقٍ أبداً.

١١٩٣ - ومعلوم أنّ هذا الذكر، الذي هو عليه الشخص في القيام والقعود والنوم على الجنوب، لا يكون إلا التوجّه الحقيقيّ والتهيّؤ لقبول الفيض الإلّهيّ بصفاء القلب وصقالته عن الرين والختم والطبع وهي الحجب الطارئة عليه بسبب التعلّقات الفانية والمزخرفات الدنيويّة.

١١٩٤ - وقوله تعالى: بعد اقام الصلاة «**وإيتاء الزكاة**»، أراد به الزكاة الحقيقيّة أيضاً، لأنّ ايتاء الزكاة الصوريّة ليس إلا على الفقير.

فزكاته الحقيقيّة تكون بصرف كلّ عضو فيما خلق له، وهذه هي الزكاة الحسنة، إن اتّفقت! وهذا عين ما قال إمامنا زين العابدين عليه السلام في تعريف الشكر الحقيقيّ أيضاً.

فزكاة قلبه بعد زكاة جميع أعضائه بالعبادة الظاهرة والباطنة تكون بخلوّه عن مشاهدة الغير وصفاته عن ظلمة التعلّقات، خوفاً من يوم: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]. وإن لا يكون على فطرته الأصليّة، فيندم صاحبه على فعله به ولا تفيد ندامته، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[2].

١١٩٥ - وإلى مجموع ذلك، أيْ الذكر وأهل الذكر والجلاء القلبيّ الحقيقيّ وثمرة الذكر وغير ذلك أشار أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الآية المذكورة، أعني: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾[3] الآية، وهو قوله: «**إنّ الله - سبحانه وتعالى - جعل الذكر جلاء القلوب، تسمع بعد الرقدة وتبصر بعد الغشوة وتنقاد بعد المعاندة. وما برح لله - عزّت آلاؤه - في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات، عبادٌ ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم. فأصبحوا بنور اليقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة، يذكّرون بأيام الله ويخوّفون مقامه، بمنزلة الادلاء في الفلوات. من أخذ القصد،**

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان ٨٨ - ٨٩.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٧

حمدوا إليه طريقه وبشّروه بالنجاة. ومن أخذ يميناً وشمالاً، دحوا إليه الطريق وحذروه من الهلكة، فكانوا لذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلّة تلك الشبهات.

١١٩٦ - وإنّ للذكر أهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً. فلم «تشغلهم تجارة ولا بيع» عنه. يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله تعالى في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط، ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه. فكأنّما قطعوا الدنيا عن الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك. فكأنّما اطّلعوا على غيوب أهل البرزخ من طول الاقامة فيه، وحقّقت القيامة عليهم عذابها، فكشفوا غطاء وذلك لأهل الدنيا، حتّى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون».

١١٩٧ - إلى قوله: **«لرأيت أعلام هدى ومصابيح دجى قد حفت بهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء وأعدت لهم مقاعد الكرامات».**

وكلّ ذلك بسبب جلاء قلوبهم بذكر الله وأنوار تجلّياته وفيضانه. والحمد لله على أنّ المخبر خبير. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(١).

١١٩٨ - وللقوم، في هذا الباب، ضابطة كليّة وقاعدة جميلة في الفرق بين مشاهدة البصر والبصيرة، والقلب والعين، وهو أنّهم يقولون أنّ البصر وإن كان من شأنه الرؤية الظاهرة، لأنّه ما خلق إلا لأجلها، لكنّ رؤيته موقوفة على نور آخر غير نوره، لتحصل له الرؤية بواسطته، مثل: نور الشمس مثلاً: أو نور القمر، أو نور الكواكب، أو نور النار، وغير ذلك.

فكذلك البصيرة. فهي وإن كانت من شأنها الرؤية الباطنة، لأنّها أيضاً ما خلقت إلا لأجلها، لكنّ رؤيتها أيضاً موقوفة على نور آخر غير نورها، لتحصل لها الرؤية بواسطته، مثل نور التجلّي مثلاً: أو نور الإلهام، أو نور الوحي، أو نور الكشف، المعبّر عنها أيٍ عن هذه الأنوار بنور الله. وهذا هو المعنى في قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾. وفيه قال: ﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾(٢). وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(٣).

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٣) سورة النور، الآية: ٤٠.

١١٩٩ - ومعلوم أنّ المراد بالبصر العين الظاهرة الحسيّة. والمراد بالبصيرة العين الباطنة القلبيّة. فحينئذٍ كما أنّ البصر إذا لم تحصل له الأنوار المذكورة، لا يتمكن من مشاهدة شيء في عالم الشهادة والحسّ، فكذلك البصيرة؛ فإنّها أيضاً إذا لم تحصل لها الأنوار المذكورة، لا تتمكن من مشاهدة شيء في عالم الغيب والعقول. فرياضة أرباب السلوك ومجاهداتهم وحبس النفس الأمّارة عن مشتهياتها وترك التعلّقات الدنيويّة بأسرها، كلّ ذلك لأجل رفع الموانع عنها ولتحصيل تلك الأنوار، لتحصل لهم بذلك مشاهدة عالم الملكوت ومطالعة عالم الجبروت، وبالجملة لتحصل لهم مشاهدة ذات الحقّ في مظاهرة الآفاقيّة والأنفسيّة على ما ينبغي، ليسمعوا بآذانهم الحقيقيّة منه تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١).

ويشاهدوا معنى قوله في حقّ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(٢) ويتحقّقوا قول النبي صلى الله عليه وآله: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر».

١٢٠٠ - ولهذا أمر تعالى عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾(٣). وقال في جوابه لهم: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾(٤) ليعرفوا أنّ حصول هذا النور موقوف على عودهم ورجوعهم إلى ما وراءهم، الذي هو المبدأ الحقيقي والمعاد الأصلي.

١٢٠١ - ولطلب هذا النور لنفسه وارشاده لغيره، قال النبي صلى الله عليه وآله: «اللهمّ! اجعل لي نوراً في قلبي، ونوراً في سمعي، ونوراً في بصري، ونوراً في لحمي، ونوراً في دمي، ونوراً في عظامي، ونوراً من بين يدي، ونوراً من خلفي، ونوراً عن يميني، ونوراً عن شمالي، ونوراً من فوقي، ونوراً من تحتي. اللهمّ! زدني نوراً، واجعلني نوراً، بحقّ حقّك، يا أرحم الراحمين!» هذا آخر ما عندي في الاستشهاد بقول الله تعالى في هذا الباب.

---

(١) سورة قٓ، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٤) سورة الحديد، الآية: ١٣.

١٢٠٢ - وأمّا قول الأنبياء، فكقول نبيّنا ﷺ: «**ما من عبد إلا ولقلبه عينان، وهما غيب يدرك بهما الغيب. فإذا أراد الله بعبد خيراً، فتح عينيْ قلبه، فيرى ما هو غائب عن بصره**».

وكقوله: «**إنّ للقلب عينين كما للجسد، فيرى الظاهر بالعين الظاهرة، ويرى الباطن والحقائق بعين الحقّ التي هي الباطنة**».

وكقوله المتقدّم ذكره، مثل قوله: «**العلم نور وضياء**» إلى آخره؛ ومثل قوله: «**العلم علمان...**».

ومثل قوله: «**من أخلص الله تعالى..**».

وكقول عيسى عليه السلام: «**لا تقولوا: العلم في السماء..**» إلى آخره. وكقول الله لموسى في الحديث القدسيّ: «**جرّدْ قلبك لحبّي...**» إلى آخره.

وكقول داود عليه السلام: «**إلّهي! لكلّ ملك خزانة..**» إلى آخره. فإنّ مجموع ذلك قد تقدّم ذكره.

١٢٠٣ - وأمّا قول الأولياء عليهم السلام فكقول أمير المؤمنين المتقدّم ذكره عند تفسير: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ﴾[1].

وأما غيره من الأقوال، فهو قوله: «**قد أحيا عقله وأمات نفسه، حتّى دقّ جليله ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلام ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضي ربّه**».

١٢٠٤ - وقوله أيضاً: «عبادَ الله! إنّ مِن أحبّ عباد الله عبداً أعانه الله على نفسه. فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف. فزهر مصباح الهدى في قلبه، وأعد القرى ليومه النازل به. فقرّب على نفسه البعيد، وهوّن إليها الشديد. نظر فأبصر، وذكر فاستكثر، وارتوى من عذْبُ فرات. سهلت له موارده، فشرب نهلاً، وسلك سبلاً جُدَداً. قد خلع سرابيل الشهوات. وتخلّى من الهموم إلا همّاً واحداً انفرد به. فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى. وصار من مفاتيح أبواب الهدي ومغاليق أبواب الردى.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره، واستمسك من العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها. فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس».

١٢٠٥ - وأمّا قول المشايخ - رضوان الله عليهم - فكقول بعضهم «مقامات القلوب أربعة، وذلك أنّ الله سمّى القلب بأسماء أربعة: صدراً وقلباً وفؤاداً ولبّاً.

فالصدر: معدن الإسلام، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[1].

والقلب: معدن الإيمان، لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[2].

والفؤاد: معدن المعرفة، لقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[3].

واللبّ: معدن التوحيد، لقوله تعالى، إنّ في ذلك: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4].

فاللبّ: وعاء التوحيد.

والفؤاد: وعاء المعرفة.

والقلب: وعاء الإيمان.

والصدر: وعاء الإسلام.

١٢٠٦ - «فالتوحيد تنزيه الحقّ بصفاته العليا. والمعرفة والاستدلال على ذاته بأسمائه الحسنى. والإيمان عقد القلب بنفي جميع ما تولّفت إليه القلوب من المضارّ والمنافع عمّا سواه - عزّ وجلّ. والإسلام هو الاستسلام في الأمور كلّها إلى الله تعالى سرّاً واعلاناً. فهذه الأنوار كامنة في أسرار الموحّدين.

١٢٠٧ - «ولا تصحّ المعرفة إلا بالتوحيد. ولا يصحّ الإيمان إلا بالمعرفة. ولا يصحّ الإسلام إلا بالإيمان. فمن لا توحيد له، لا معرفة له؛ ومن لا معرفة له، لا إيمان له؛ ومن لا إيمان له، لا إسلام له؛ ومن لا إسلام له، لا ينفعه ما سواه من الأفعال والأعمال والأخلاق.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٧.
(٣) سورة النجم، الآية: ١١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

١٢٠٨ - «فنور الإسلام تذكّر العواقب. ونور الإيمان تنبّه الطوارق. ونور المعرفة تذكّر السوابق. ونور التوحيد تكشّف الحقائق. فتذكّر العواقب يوجب سياسة النفوس. وانتباه الطوارق يوجب رياضة النفوس. وذكر السوابق يوجب حراسة القلوب. ومشاهدة الحقائق توجب رعاية الحقوق.

١٢٠٩ - «فبالسياسة يصل العبد إلى التطهير. وبالرياضة يصل العبد إلى التصديق. وبالحراسة يصل العبد إلى التحقيق. وبالرعاية يصل العبد إلى التوفيق. فالسياسة حفظ النفس ومعرفتها. والرياضة أدب النفس وهلاكها. والحراسة مطالعات سرّ الله في الضمائر. والرعاية مراعات حقوق المولى بالسرائر. والرعاية توجب حفظ الحدود. والرياضة توجب الرضا بالموجود. والسياسة توجب الصبر عن المفقود». وهذه الخصال هي جميع ما كلّف الله تعالى عباده من العبودية سرّاً واعلاناً، ظاهراً.

١٢١٠ - وكقولهم أيضاً: «في قلب المؤمن ثلاثة أنوار: نور المعرفة ونور العقل ونور العلم. فنور المعرفة كالشمس، ونور العقل كالقمر، ونور العلم كالكوكب. فنور المعرفة يستر الهوى، ونور العقل يستر الشهوة، ونور العلم يستر الجهل. فبنور المعرفة يُرَى الحقّ، وبنور العقل يُقبَل الحقّ، وبنور العلم يُعمَل بالحقّ.

١٢١١ - «أوّل ما يبدو في قلب العارف، ممّن يريد الله سعادته، نور. ثمّ يصير ذلك النور ضياءً. ثمّ يصير شعاعاً. ثمّ يصير نجوماً. ثمّ يصير قمراً. ثمّ يصير شمساً.

١٢١٢ - «فإذا ظهر النور في القلب بردت الدنيا في قلبه بما فيها. فإذا صار النور ضياءً، تركها وفارقها. فإذا صار نجوماً، فارق لذّاتها ومحبوباتها. فإذا صار قمراً، زهد في الآخرة وما فيها. وإذا صار شمساً، لا يرى الدنيا وما فيها ولا الآخرة وما فيها، ولا يعرف إلا ربّه. فيكون جسده نوراً، وقلبه نوراً، وكلامه نوراً، ويكون هو نوراً على نور».

١٢١٣ - وفيه قيل:

نظرت بنور الله أوّل نظرة … فغبت عن الأكوان وارتفع اللبس

وما زال قلبي لائذاً بجمالهم … وحضرتكم حتى فنت فيكم النفس

وزيتونة الفكر الصحيح أصولها … مباركة أوراقها الصدق والقدس

فروحي زيتي والخيال زجاجتي وعقلي مصباحي ومشكاته الحس
فصار بكم ليلى نهاراً وظلمتي ضياءً ولاحت من خيامكم الشمس

١٢١٤ - وفيه قيل أيضاً:

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا
والسنةٌ بسرّ قد تناجي بغيب عن كرام كاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت ربّ العالمينا
وترتع في رياض القدس طوراً وتشرب من كؤوس العارفينا

١٢١٥ - هذا آخر القاعدة الثالثة من القواعد الأربعة، وآخر ما أردنا ايراده في هذا الباب.

وإذا عرفتَ هذا وتحقّقتَ معناه، فعليك بجلاء القلب وتطهيره من دنس الغير وتزيينه بنور المعارف والحقائق، لتحصل لك مرتبة الكشف وتنال مقام الشهود وتصل إلى حضرة المعبود المقصود، عيناً لا علماً، وحالاً لا قالاً، وذوقاً لا برهاناً، وكشفاً لا بياناً. فتكون بعد ذلك من العلماء الراسخين بالعلوم الحقيقيّة الالهيّة ومن الفضلاء الموحّدين بالمعارف الشهوديّة الربّانيّة. جعلنا الله منهم ومن تابعيهم، وممّن سلك الحقّ بقدم الصدق والصواب، وما توجّه إلى غير جنابه في المرجع والمآب! والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة على نبيّه محمّد وآله الطاهرين!.

١٢١٦ - وإذا فرغنا منها: أي من القاعدة الثالثة فلنشرع في القاعدة الرابعة، التي هي آخر القواعد وآخر الكتاب.

القاعدة الرابعة: في بيان الإسلام والإيمان والايقان

١٢١٧ - اعلم أنّ هذه القاعدة مشتملة على بيان الإسلام والإيمان والايقان، وبيان مراتب كلّ منها من حيث البداية والوسط والنهاية على النحو المتقدّم ذكره في المقدّمة وعند بيان الشريعة والطريقة والحقيقة. وقبل الشروع في هذه القاعدة بطريق أرباب التحقيق وأهل الباطن، لا بدّ من الشروع فيها بطريق أرباب المعقول وأهل الظاهر، لأنّهم اختلفوا في تحقيق هذه المراتب اختلافاً شديداً، بحيث أنّهم لم

يتحقّقوا معناها إلى الآن، وما اتّفقوا على شيءٍ يوجب الاطمئنان عليه. لا سيّما بين مرتبة الإسلام والإيمان.

١٢١٨ - لأنّ الإسلام عند بعضهم خلاف الإيمان، والإيمان خلاف الإسلام. وعند بعضهم هما شيء واحد. وعند بعضهم الإسلام أعمّ من الإيمان، وعند بعضهم بعكس ذلك. وكذلك الإيمان والايقان، لأنّ عند بعضهم الايقان فوق الإيمان، كما أنّ الإيمان فوق الإسلام؛ وعند بعضهم الإيقان نفس الإيمان؛ وعند بعضهم بينهما عموم وخصوص من وجه، وأمثال ذلك.

١٢١٩ - فأمّا الذي قال إنّ الإسلام خلاف الإيمان، فلقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾(١)

وأمّا الذي قال أنّهما شيء واحد، فلقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(٢).

وأمّا الذي قال إنّ الإسلام أعمّ من الإيمان، فلقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٣)

وأمّا الذي قال إنّ الإيمان أخصّ منه، فلقوله تعالى المذكور: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ الآية.

١٢٢٠ - وكذلك قولهم في الإيمان والإيقان، لأنّ الذي قال إنّ الإيمان نفس الإيقان، تمسّك بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾(٤) لأنّ عنده هذا اخبار عن إبراهيم لا غير.

وأمّا الذي قال: هو أيْ الإيمان غيره أيْ الإيقان، فهو أيضاً تمسّك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٣.

والمراد أنّه تعالى يقول: إنّ هذا القول أي: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ عطفٌ على قوله المتقدّم، والعطف غير المعطوف عليه في الأغلب، و «واو العطف» في الأغلب لا تكون إلا للمغايرة. وأمثال ذلك من الاستدلالات.

١٢٢١ - ولا بدّ في كلّ ذلك من ذكر أقوالهم بعينها، أعني ذكر أقوال أرباب المعقول بألفاظهم، وتقريرهم بقولهم: في الفرق بين الإسلام والإيمان وتحقيقهما، وإنّ الإسلام أعمّ من الإيمان، أو بالعكس.

١٢٢٢ - وذلك هو أنّهم قالوا: الإسلام أعمّ في الحكم من الإيمان، وهما في الحقيقة شيء واحد. أمّا كونه أعمّ، فلأنّ وجود الإسلام لا يستلزم وجود الإيمان، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾(١).

فقد أثبت الإسلام لهم دون الإيمان. ووجود الإيمان يستلزم وجود الإسلام بالاجماع، لأنّه عبارة عن التصديق بما جاء بي النبيّ ﷺ، وأعظم ما جاء به الشهادتان.

وأمّا كونهما في الحقيقة شيئاً واحداً، فلقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(٢).

١٢٢٣ - واختلفوا في معنى الإيمان وحقيقته مع اتّفاقهم على أنّه اسم لتصديق القلب، أو لعمل الجوارح، أو لمجموعهما. فقالت جماعة من الإماميّة والأشاعرة وجهم بن صفوان أنّه عبارة عن التصديق بالقلب لقوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(٣) ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾(٤) ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾(٥) والقلب محلّ الاعتقاد، وليس للعمل فيه دخل، لأنّه تعالى عطف العمل الصالح على الإيمان، فيغايره، ولأنّ النائم مؤمن وليس بعامل.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٦.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٥) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

١٢٢٤ - وقال أبو الهذيل العلاف وعبد الجبّار وأبو علي وأبو هاشم والكراميّة أنّه أيْ الإيمان عبارة عن العمل بالجوارح فقط. وقال أكثر السلف أنّه عبارة عن المجموع، أعني الاقرار باللسان والتصديق بالقلب والعمل بالجوارح، وأمثال ذلك.

١٢٢٥ - ثمّ اختلفوا في التصديق وتعيين المصدّق به وكميّة أُصول الإيمان. فقالت الإماميّة: الإيمان عبارة عن التصديق بوحدانيّة الله في ذاته والعدل في أفعاله، والتصديق بنبوّة الأنبياء، والتصديق بإمامة الأئمّة المعصومين من بعد الأنبياء.

١٢٢٦ - وقالت الأشاعرة أنّه أي الإيمان التصديق بالله وبكون النبيّ صادقاً، والتصديق بالأحكام التي تعلم يقيناً أنّه عليه السلام حكم بها، دون ما فيه الخلاف والاشتباه من المسائل الفرعيّة.

١٢٢٧ - وقال أبو الهذيل العلاف والجبائيان: أنّ الإيمان عبارة عن الأفعال الواجبة، أعني العمل الصالح، لأنّ فعل الواجبات هو الدين لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعۡبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[1] إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[2] وأشار به إلى جميع ما تقدّم من الأفعال الواجبة والدين والإسلام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[3].

والإسلام هو الإيمان وإلا لم يكن مقبولاً، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾[4].

١٢٢٨ - وقال أكثر السلف أنّه أي الإيمان عبارة: عن اقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح.

١٢٢٩ - فأصول الإيمان عند المعتزلة خمسة: التوحيد، والعدل، والاقرار بالوعد والوعيد، والقيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وعند الشيعة ثلاثة: التصديق بوحدانيّة الله في ذاته والعدل في أفعاله، والتصديق بنبوّة الأنبياء، والتصديق بإمامة الأئمّة المعصومين. وعند أهل السنّة أصول الإيمان اثنان:

---

(١) سورة البيّنة، الآية: ٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

أحدهما: التصديق بالله.

والثاني: التصديق بالنبيّ وبالأحكام التي يعلم يقيناً أنه عليه السلام يحكم بها، دون الأحكام التي فيها خلاف أو اشتباه.

١٢٣٠ - هذه هي أعظم أقوال المتكلّمين وعلماء الظاهر في هذا الباب. وهذا منقول من: «شرح قواعد العقائد» للشيخ الأعظم جمال الحقّ والملّة والدين ابن المطهّر - قدّس الله روحه العزيز.

١٢٣١ - وأمّا قولهم في الإيمان والإيقان والفرق بينهما: فكأنّهم لا يتنازعون فيهما كثيراً، ويعدّون الإيقان مرتبة فوق مرتبة الإيمان ويسكتون عنه.

١٢٣٢ - وأمّا تعريفه أي الإيقان فيقولون: أنّ اليقين هو اعتقاد جازم مطابق، بحيث لا يمكن زواله؛ أو أنّه علم مطابق جازم، بحيث لا يدخل فيه شكّ ولا ريب. وكلاهما حسن.

١٢٣٣ - وأمّا قول علماء الباطن وأرباب التحقيق، فهو أنّهم قالوا: إنّ الدين الإلهي والوضع النبويّ المسمّى: بالشرع، مشتمل على الإيمان بالله وبرسله وأئمّته وملائكته وكتبه، والأحكام التي جاءت من عند الله على يدي رسله وأنبيائه. ولهذا الدين، أو الشرع، وأهله مراتب: أوّلها الإسلام، وثانيها الإيمان، وثالثها الإيقان.

ولكلّ واحد منها أهل، وكلّ واحد منها ينقسم إلى ثلاثة أقسام، بحسب المراتب المذكورة عند بحث الشريعة والطريقة والحقيقة، أعني مرتبة أهل البداية وأهل الوسط وأهل النهاية، لأنّ كل واحد من هذه الطوائف له إسلام وإيمان وإيقان.

١٢٣٤ - فإسلام أهل البداية: بالضرورة يكون مغايراً لإسلام أهل الوسط: وكذلك إسلام أهل الوسط بالنسبة إلى أهل النهاية. وبيان ذلك هو أنّ أهل البداية يكفيهم من الإسلام كلمة الشهادتين والقيام بالأركان الخمسة على سبيل التقليد، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

ولقول النبي ﷺ: «**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**».

وقوله أيضاً: «**بنى الإسلام على خمس: الصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، والزكاة، والحجّ والجهاد**».

١٢٣٥ - وهذا الإسلام بالحقيقة من قبيل الاستسلام، أو هو الاستسلام نفسه، أعني من الإسلام الذي لا يفيد في الآخرة. بل يكون سبب السلامة في الدنيا والخلاص من القتل وأخذ الأموال وسفك الدماء، لما ورد في الخبر النبويّ. وإليه أشار الشيخ إسماعيل الهروي - قدّس الله سرّه - في قوله المتقدّم: «**وعليه نصبت القبلة، وبه وجبت الذمة وبه حقنت الدماء والأموال، وانفصلت دار الإسلام عن دار الكفر**».

وهذا الإسلام يمكن في المنافق والمشرك والفاسق وغيرهم، لأنّ النبيّ في هذ المقام لا يحكم عليهم بحسب الباطن، لقوله: «نحن نحكم بالظاهر والله أعلم بالسرائر» ولقوله تعالى المتقدم ذكره: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾(١).

١٢٣٦ - وأمّا إسلام أهل الوسط، الذين هم أهل الاستدلال والبراهين، أو أهل الانقياد والتسليم، فهو عبارة عن الدين الخالص من الأغراض الدنيويّة، خلاف الأغراض الأخرويّة، المنزّه عن الشرك الجليّ، المسمّى بدين الله، لقوله تعالى في الأول: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(٢).

ولقوله في الثاني: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(٣).

١٢٣٧ - وهذا الإسلام هو الإسلام الذي لا يشرك صاحبه أبداً، ولا يشك في شيءٍ من أصول الدين أصلاً، ويقوم بآداب أركانه كلّها. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٤).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

هو هذا الدين لا غير. والإسلام الأول خارج عن ذلك. ومعناه أنّه تعالى يقول: كلّ من يكون على غير هذا الدين، أو هذا الطريق، لا يفيده إسلامه ودينه في الآخرة، ولا قيامه بأركانه، لأنّه مشرك بالحقيقة، غير مسلم في التحقيق، والشرك غير مغفور، أي غير مقبول طاعته وإسلامه ودينه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾(١) (٢).

١٢٣٨ - وأما إسلام أهل النهاية، الذين هم أهل التوحيد والكشف والشهود، فهو عبارة عن الإسلام الحقيقيّ، المشار إليه في باب التوحيد، المسمّى: بالدين القيّم الذي كان عليه الأنبياء والأولياء والكمّل من تابعيهم، لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾(٣).

لأنّ إسلامهم كان من قبيل توحيد الذات كشفاً، الذي هو موجب للخلاص من الشرك الخفيّ، الذي هو أعظم الشرك المتقدّم ذكره، المعبّر عنه بمشاهدة رؤية الغير مع الحقّ ووجوده، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾(٤).

أي لا يعلمون أنّ ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ الحقيقيّ اثبات وجود واحد، الذي هو وجود الحقّ تعالى ونفي وجود الغير الذي هو وجود الخلق مطلقاً، المسمّى: بالشرك الخفيّ الذي هو أعظم الشرك وأصعبه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) ومن يشرك بالله: واعلم أن المفهوم من صحيح الأخبار المروية عن الأنوار، بعد ثبوت أن الله معروف عند كل جاهل، وقول الباري في حق سيد الرسل: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] إن المراد بالشرك الذي لا يغفر هو اشراك غير الإمام الحق مع الحق في شيء من أطواره (بالأصل).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٤) سورة يوسف، الآيتان: ٣٩ - ٤٠.

١٢٣٩ - وإليه إشار النبيّ ﷺ: «**دبيب الشرك في أُمّتي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء**» لأنّ صاحبه لا يحسّ به لخفائه وجريانه في مجاري الوهم والخيال.

١٢٤٠ - وإلى مثل هذا الإسلام أشار مولانا وإمامنا أمير المؤمنين، في قوله المذكور في «النهج» وغيره: «**أنّي لأنسبنّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو التصديق، والتصديق هو اليقين، واليقين هو الاقرار، والاقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح**».

١٢٤١ - لأنّ الشخص إذا حصل له هذا الإسلام، أي الإسلام الحقيقيّ المذكور، وشاهد الحقّ ووجوده على ما هو عليه في الوحدة والكمال، لا بدّ من أن يقطع النظر عن رؤية الغير مطلقاً، ويسلّم له تسليماً تامّاً كما ينبغي، لأنّه لا يشاهد غيره ويشاهد نفسه فانياً زائلاً هالكاً أزلاً وأبداً، لقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[١]. وإذا حصل له هذا التسليم لا بدّ له من التصديق بسبب هذا التسليم، الذي هو التوحيد الحقيقيّ؛ ثمّ اليقين التامّ بذلك؛ ثمّ الإقرار القلبيّ بالمجموع؛ ثمّ القيام بأداء حقّ كلّ مرتبة منها، الذي هو العمل الصالح، أي الصالح له المصلح لغيره، وإلى هذا أشار - جلّ ذكره - في قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٢].

لأنّه أراد باللقاء هذه المشاهدة لا غير وبالعمل الصالح هذا العمل، كما مرّ في باب التوحيد ذكره؛ بل أراد هذا المجموع.

١٢٤٢ - وأمّا الإيمان، فإيمان أهل البداية عبارة عن تصديق مشوب بالشكّ والشبهة والمعارضة والاشكال، كإسلامهم أيضاً. وهذا الإيمان يمكن معه الشرك، خفيّاً كان أو جليّاً، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٣] وحيث ثبت أنّه يجتمع مع الشرك، فلا حاجة لنا إلى بيان اجتماع الفسق والمعصية والظلم

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

والقتل والبغي وغير ذلك معه، لأنّ كل ذلك ممكن كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾(١).

وبقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾(٢).

وبقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾(٣) وبقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾(٤).

١٢٤٣ - وهذا الإيمان قابل للزيادة والنقصان وموجب للدخول في النار والخروج منها بعد مدّةٍ، أحقاباً كان أو أقلّ منها، أو بقدر المعصية. ولا يقال أنّه عصى أو فسق كذا وكذا سنةً، فيكون عذابه كذا وكذا سنةً، لأنّ كلمة الكفر - وهي لفظة واحدة - يتكلّم بها صاحبها في ساعة واحدة، فيكون في النار بذلك خالداً.

والأسرار الإلهيّة فوق أن يقول فيها أحد: لم كانت كذا وكذا؟ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾(٥) ومع ذلك، فكلّ من اطلع على سرّ القدر، فهذا بالنسبة إليه في غاية السهولة. و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٦).

١٢٤٤ - وأمّا إيمان أهل الوسط: فعبارة عن تصديق ما جاء به النبيّ ﷺ من التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة وغير ذلك: تصديق لا يشوبه شكّ ولا شبهة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾(٧).

ولقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُوقِنُونَ﴾(٨).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٤) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.
(٦) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٧) سورة الحجرات، الآية: ١٥.
(٨) سورة النمل، الآية: ٣.

وهذا الإيمان قابل للزيادة لا النقصان، بخلاف الأوّل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[1].

١٢٤٥ - وأمّا إيمان أهل النهاية، الذين هم الأنبياء والأولياء والعارفون من أُمّتهم وتابعيهم، فهو عبارة عن تصديق مجموع ذلك من حيث الكشف والشهود والذوق والعيان، بحيث لا يخالجه شكّ ولا شبهة مع محبّة كاملة لموجدهم وشوق تامّ إلى حضرته العالية، المعبّر عنه: باللقاء والوصول وغيرهما ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2]. إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾[3]. والظلم ههنا الشرك عند البعض، والشك والشبهة عند البعض الآخر، وكلاهما مذموم.

١٢٤٦ - وهذا الإيمان ليس بقابل للزيادة. وزيادة هذا الإيمان يكون من قبيل الاحسان - الذي هو عبارة عن المشاهدة الجليّة، لقول النبيّ ﷺ: «**الاحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**» - المسمّى بالحقّ اليقين الآتي بيانه.

١٢٤٧ - وإلى المراتب الثلاث أي مراتب الإيمان الثلاث أشار - جلّ ذكره - بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٢ - ٤.
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٨١ - ٨٢.
(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٨ - ٩٠.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٤.

وإلى نقيضها الذي هو الكفر، أشار كذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾[1].

١٢٤٨ - وقد تقدّم تأويل هاتين الآيتين في باب كيفيّة التوحيد مبسوطاً. وكأنّ المراد أنّه أي ترتيب الإيمان واقع على ترتيب التوحيد في مراتبه الثلاث، والرجوع عنه أي عن التوحيد هو الردّ إلى الكثرة، لأنّ المرتبة الأولى بمثابة التوحيد الفعليّ، والثانية: بمثابة التوحيد الصفاتيّ، والثالثة: بمثابة التوحيد الذاتيّ. ونقيضه أي نقيض التوحيد كذلك. وليس ههنا موضع هذا البحث، فارجع إلى موضعه.

١٢٤٩ - والغرض ههنا بيان مراتب الإيمان الثلاث ونقيضها. فنرجع ونقول: إنّ مولانا وإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام أشار أيضاً إلى مراتب إيمان أهل النهاية ونقيضها بتقسيم حسن وترتيب جيّد نذكره ههنا، ونرجع بعده إلى بحث اليقين وبيان مراتبه. وهو أنّه قال: «**الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد فالصبر منها على أربع شعب: على الشوق والشغف والزهد والترقّب. فمن اشتاق إلى الجنّة، سلا عن الشهوات. ومن أشفق من النار، اجتنب المحرّمات. ومن زهد في الدنيا، استهان بالمصيبات. ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات.**

١٢٥٠ - «**واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأوّل الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأوّلين. فمن تبصّر في الفطنة، ثبتت له الحكمة. ومن ثبتت له الحكمة، عرف العبرة. ومن عرف العبرة، فكأنّما كان في الأوّلين.**

١٢٥١ - «**والعدل منها على أربع شعب: على غامض الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحلم. فمن فهم، علم غور العلم. ومن علم غور العلم، صدر من شرائع الحكم. ومن حلم، لم يفرط في الأمور وعاش في الناس حميداً.**

١٢٥٢ - «**والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين. فمن أمر بالمعروف، شدّ ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر، أرغم أنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن، قضى ما عليه. ومن شنأ الفاسقين وغضب لله، غضب الله له وأرضاه يوم القيامة.**

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٧.

١٢٥٣ - «**والكفر على أربع دعائم: على التعمّق، والتنازع، والزيغ، والشقاق. فمن تعمّق، لم يثبت على الحقّ. ومن كثر نزاعه بالجهل، دام عماه عن الحقّ. ومن زاغ، ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة، وسكر سكر الضلالة. ومن شاقّ، وعرت عليه طرقه، واعضل عليه أمره، وضاق مخرجه**» - هذا آخره.

١٢٥٤ - وقد ورد في صفة هذا المؤمن: الذي هو من أهل النهايات، في القرآن، والأحاديث والأخبار، ما ورد في غيره، أعني من وصفه بالقرب والمنزلة عند الله والتعظيم والتبجيل له يوم القيامة وغير ذلك، ممّا يطول ذكره. ومن جملته أنّ الأئمّة عليهم السلام وصفوه: بالمؤمن الممتحن الذي هو في سلك الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين، كقولهم: «**إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان**».

وإليه أشار تعالى أيضاً بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾(١).

وقد عرفت الفرق بين المؤمن الممتحن وغير الممتحن في المقدّمة. والغرض أنّه جليل القدر، عظيم المنزلة، رفيع الشأن، ليس فوقه مرتبة إلا مرتبة أهل اليقين والاحسان. جعلنا الله من الواصلين إلى هذا المقام، الفائزين بدرجته!.

١٢٥٥ - وسبب جميع ذلك بالحقيقة أنّه واصل إلى مقام اليقين الذي هو أعلى مراتب نهاية الإيمان وأقصى مدارج درجة الإسلام. ونسبة اليقين إلى الإيمان هي بعينها نسبة الإيمان إلى الإسلام، أعني كما أنّ الإيمان أعلى مراتب نهاية الإسلام، فكذلك اليقين هو أعلى مراتب نهاية الإيمان. وليس وراء اليقين مرمىً، لا للأنبياء ولا للأولياء ولا للكمّل من تابعيهم، لأنّه هو النهاية والمقصود بالذات من السلوك كلّه.

١٢٥٦ - ويشهد به قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾(٢).

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

أي فاعبده حقّ العبادة، واعرفه حقّ المعرفة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي اليقين الحقيقيّ الحقيّ، لا العينيّ ولا العلميّ. فكأنّه تعالى يقول: إنّ المقصود من الايجاد والأمر بالعبادة - في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. هو حصول اليقين ومعرفة الحقيقة المشار إليها في قوله: **«كنتُ كنزاً مخفيّاً، فأحببتُ أن أُعرف، فخلقت الخلق»، لا غير. وإليه أشار تعالى أيضاً في قوله:** ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2] لأنّه يشير فيه أنّ العلّة الغائيّة من مشاهدة الآفاق والأنفس، أعني العالم بأسره، هي تبيين الحقّ وتحقيقه على سبيل اليقين. ولا شكّ أنّه كذلك.

١٢٥٧ - وإلى شرف رتبته وكمال منزلته أشار النبيّ ﷺ بقوله: **«مِن أقلّ ما أُوتيتم اليقين؛ فمن أُوتي حظّه منه، لم يبال بما انتقص من صلواته وصومه»** أي من صلواته النافلة وصومه المستحبّ لا غير، لأنّ: **«النوم على اليقين خير من الصلاة في الشكّ!»** كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«النوم على اليقين خير من الصلاة في شكّ»**.

وإليه أشار النبيّ ﷺ: **«نوم العالِم خير من عبادة الجاهل»** أي نوم العالِم بالعلم اليقين خير من عبادة الجاهل به.

وإليه أشار أيضاً أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تصريحاً: **«كم من صائم ليس له من صيامه إلاّ الجوع والعطش! وكم من قائم ليس له من قيامه إلاّ السهر والتعب! حبّذا نوم الأكياس[3] وافطارهم!»**.

١٢٥٨ - ولهذا اليقين مراتب: أدناها علم اليقين، وأعلاها حقّ اليقين، وأوسطها عين اليقين، كما سيجيء تفصيله.

١٢٥٩ - لا يقال: إنّ الأنبياء والأئمة عليهم السلام كانوا أصحاب يقين، وما كانوا ينالون بنقص صلواتهم وصومهم، لأنّا نقول: هذه الصلاة ليس الصلاة المفروضة

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٣) الأكياس: ويقال الكيّس حقيقة عند العارفين الراسخين للعارف للأنوار وأسرارهم بالمعارف النورانية. وكذا الفهيم الفقيه والكامل العاقل للذي معرفته بالنورانية معرفة الله (بقلم جديد).

ولا الصوم المفروض، ولا الصلاة المندوبة المؤكدة اليوميّة، ولا الصوم الواجب، حتّى يلزم ذلك.

بل المراد بهذه الصلاة والصوم، الصلاة الزائدة على المندوبة اليوميّة، وكذلك الصوم.

ومع ذلك فأفعال الأنبياء والرسل والأولياء لا تقاس بأفعال الأمّة، ولا بالعكس. ويكفي في هذا المعنى قضية موسى مع الخضر عليهما السلام. وأيضاً يمكن أنّهم كانوا لا ينالون - بعد وصولهم إلى مقام اليقين - بانتقاص صلاتهم وصومهم، ولكن كانوا يقومون بأدائهما تعليماً للغير وتنبيهاً له، لأنّهم في مقام التكميل، فيجب عليهم ما يجب على غيرهم.

١٢٦٠ - وإذا عرفت هذا، فنرجع إلى بحث اليقين ونقول: اعلم أنّ اليقين أيضاً على ثلاث مراتب، كالإسلام والإيمان، أعني علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين، كما أشار إليه - جلّ ذكره - في كتابه: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾[1] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[2].

١٢٦١ - ولكن ليست هذه المراتب على نفس ترتيب مراتب الإسلام والإيمان، أعني بحيث يكون أوّلها مخصوصاً بالعوامّ والثّاني: بالخواصّ والثالث: بخاصّ الخاصّ، أو بأهل البداية وأهل الوسط وأهل النهاية.

بل مراتبه كلّها مخصوصة بأهل النهاية، لأنّ فيهم من هو في مقام علم اليقين، ومن هو في مقام عين اليقين، ومن هو في مقام حقّ اليقين، وإن كان يمكن أن تكون المراتب كلّها في شخص واحد كصاحب مقام حقّ اليقين، فإنّه جامع للمراتب كلّها.

١٢٦٢ - لأنّ علم اليقين أوّل مرتبة من مراتب اليقين. ثمّ عين اليقين، بحيث لا يمكن تحصيل عين اليقين بدون علم اليقين. وكذلك حقّ اليقين، لأنّه لا يمكن تحصيله بدون عين اليقين وعلم اليقين.

---

(١) سورة التكاثر، الآيات: ٥ - ٨.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٩٥.

وليس صاحب علم اليقين إلا كذلك، لأنّه مخصوص بمرتبة واحدة. وكذلك صاحب عين اليقين، لأنه مخصوص بالمرتبتين المعلومتين.

وقد جرى هذا البحث عند الكلام في الفرق بين أهل الشريعة والطريقة والحقيقة بعينه، في القاعدة الأولى من هذا الأصل.

١٢٦٣ - وتعريف اليقين على لسان أهل الظاهر قد مرّ ذكره. أمّا تعريفه على لسان القوم واصطلاحهم، فهو أنّهم قالوا: اليقين هو العلم الذي لا يتداخل صاحبه ريبٌ على مطلق العرف.

ولا يطلق في وصف الحقّ - سبحانه - لعدم التوقيف. فعلم اليقين هو اليقين نفسه، وكذلك عين اليقين وحقّ اليقين، فإنّهما نفسهما.

١٢٦٤ - وأمّا تعريف اليقين بحسب التقسيم، فعلم اليقين ما كان بشرط البرهان؛ وعين اليقين ما كان بحكم البيان؛ وحقّ اليقين ما كان بنعت العيان. فعلم اليقين لأرباب العقول، أعني أرباب العقول المؤيّدة من عند الله، كقول الحكماء الإلّهيين المطّلعين على حقائق الأشياء على ما هي عليه، المخصوصين بالخير الكثير في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(١).

و«الخير الكثير» هو العلوم والحقائق والاطّلاع على سرّ القدر، الحاصلة من الحكمة الإلّهيّة المخصوصة بهم أي: بالحكماء الإلّهيّين لا الحكماء الفلاسفة المبعدين عنها.

١٢٦٥ - وعين اليقين لأصحاب العلوم، أي العلوم الحقيقيّة الإرثيّة الإلّهيّة المتقدّم ذكرها، التي هي علوم الأنبياء والأولياء والمرسلين، الحاصلة لهم بالوحي والإلهام والكشف، الواصلة إلى تابعيهم بالإرث، لقوله عليه السلام: **«العلماء ورثة الأنبياء»**.

١٢٦٦ - وحقّ اليقين لأصحاب المعارف، أي الأنبياء والأولياء والكمّل، الذين حصلوا معرفة الله ومعرفة الأشياء على ما هي عليه بالكشف والمشاهدة والذوق والفناء وغير ذلك.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

١٢٦٧ - والكلّ يرجع إلى الذي أشرنا إليه، أعني أنّ هذه المراتب كلّها لليقين مخصوصة بأهل النهاية دون غيرهم، لأنّ علم اليقين هو أوّل دخولهم في العلوم الحقيقيّة الإلّهيّة الإرثيّة المتقدّم ذكرها.

١٢٦٨ - فعين اليقين هو أوّل دخولهم في عالم العيان ومقام المشاهدة والفناء وما شاكل ذلك من الأحوال والمقامات الرافعة للحجب كلّها، لقول النبي عليه السلام: **«إنّ لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**.

ولقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة»**.

وهذا إشارة إلى عدم المشير بالنسبة إلى المشار إليه، وبالحقيقة هو اخبار عن مقام الفناء المحض والطمس الكليّ.

١٢٦٩ - وحقّ اليقين هو أوّل دخولهم في البقاء الحقيقيّ، الحاصل بعد الفناء الكليّ، المسمّى: بالفرق بعد الجمع الذي هو مقام التكميل والرجوع إلى الكثرة بالله لا به، لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١).

ولقوله في الحديث القدسيّ: **«كنتُ سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله؛ فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش وبي يمشي»** الحديث.

وهذا هو المقام الذي هو نهاية مراتب الإنسان الكامل، الذي لا يمكن أن تكون فوقه مرتبة ولا مقام. وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾(٢) المعبّر عنه: بالمقام المحمود والأفق الأعلى، الوارد في اصطلاح القوم في طيّ هذا المثل: «ليس وراء عبّادان قرية».

١٢٧٠ - ومقام حقّ اليقين هو المشار إليه في قول أمير المؤمنين عليه السلام: **«لو كشف الغطاء، ما ازددتُ يقيناً»**.

وكذلك في قول الشيخ الكامل محيي الدين بن العربي - قدّس الله سرّه: - «وإذا ذقتَ هذا، فقد ذقت الغاية التي ليس فوقها غاية في حقّ المخلوق. فلا تطمع ولا

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٢) سورة النجم، الآية: ٩.

تتعب نفسك في أن ترقى أعلى من هذا الدرج، فما هو ثمّة أصلاً، وما بعده إلا العدم المحض».

١٢٧١ - وكذلك قوله: «إيّاكم الجمع والتفرقة! فإنّ الأوّل يورث الزندقة والالحاد، والثاني: يورث تعطيل الفاعل المطلق. وعليكم بهما! فإنّ جامعهما موحّد حقيقيّ، وهو المسمّى: بجمع الجمع وجامع الجميع، وله المرتبة العليا والغاية القصوى».

١٢٧٢ - وكذلك قوله: «وما يعرف هذا - وأنّ الأمر على ذلك - إلا آحاد من أهل الله. فإذا رأيتَ من يعرف ذلك، فاعتمد عليه، فذلك عين صفاء خلاصة خاصّة الخاصّة من عموم أهل الله تعالى» لأنّ كلّ ذلك إشارة إلى وصولهم إلى نهاية المراتب وأقصى المقامات، الذي هو مقام اليقين الحقيّ ومرتبة الوصول الكليّ. رزقنا الله تعالى الوصول إليه!.

١٢٧٣ - ومثال ذلك، أي مثال هذه المراتب - أعني مرتبة علم اليقين وعين اليقين: وحقّ اليقين - مثال شخص ولد في بيت مظلم، وهو مكفوف العين، وما كان يقدر أن يطلّع من بيته ولا أن يشاهد جرم الشمس وأنوارها المشرقة على الآفاق. ولكن سمع بذكرها واطلع على أوصافها وكيفيّة طلوعها وغروبها وكمال اشراقها وغير ذلك.

١٢٧٤ - فإذا طلع من البيت وفتح عينيه وشاهد طلوع الصبح الصادق، الذي هو أعظم علامة من علامات طلوع الشمس، فهو بمثابة علم اليقين، لأنّه لا شكّ أحد في أن بعد طلوع الصبح يكون طلوع الشمس، لأنّه يُعرَف بالحقيقة أنّ الصبح والضياء من آثار أنوار الشمس وشعاعها المشرق.

وإذا طلعت الشمس وانتشر اشراقها على الآفاق، وشاهدها الشخص على هذا الوجه مع جرمها العظيم أيضاً، فهو بمثابة عين اليقين، لأنّه شاهد بعينه الآن ما علمه بعلمه قبل ذلك.

١٢٧٥ - وإذا وصل هذا المشاهد إلى جرم الشمس، وزالت كثافته وصار نوراً محضاً، وحصل بينه وبينها مناسبة ذاتيّة بحيث صارت هي هو أو هو هي، فهو بمثابة حقّ اليقين. وقد تقدّم هذا المثار مرّة أُخرى.

وهذا يكون كصيرورة نور القمر ونور الكواكب في النهار نوراً واحداً، وهو نور الشمس.

ذلك لأنّ الكواكب والقمر ليسوا بغائبين في النهار، لكن من غلبة نور الشمس لا يبقى لهم نور ولا وجود. وهذه هي الوحدة الحقيقيّة عند القوم، لا غير. وإلى هذه الوحدة أشار القرآن بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[١]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[٢]، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣].

١٢٧٦ - وإلى هذا المقام الحقيّ أشار الإمام عليه السلام في قوله المتقدّم ذكره: «**قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غُمّاره، واستمسك من العُرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها. فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس**».

وأمثال ذلك في هذا الباب كثيرة؛ نكتفي منها بهذا المقدار، ونكل الأمر إلى الله الواحد القهّار. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[٤].

١٢٧٧ - وحيث بلغ الكلام هذا المبلغ، ووصل البحث إلى هذا المضرب، أعني مبلغ النهاية ومضرب الكمال المعبّر عنه تارةً بحقّ اليقين وتارةً بأحديّة الفرق بعد الجمع، فنقطع هذه القاعدة عليه، بل الأصول والقواعد كلّها، فإنّه مقام شريف ومغرب جليل، لا يجوز التجاوز عنه لقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[٥].

ونلتمس منه تعالى الوصول إليه والحصول بين يديه، وأن يجعلنا من الموقنين المخلصين في طريقه، الواصلين إلى مقام الاستقامة والتمكين في سبيله، الوارثين علوم أنبيائه وأوليائه ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٦].

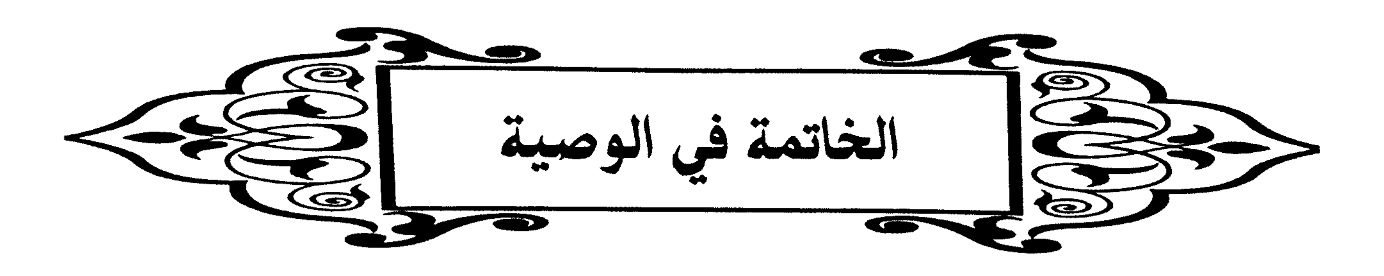
---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٦.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٩٩.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ١١.

١٢٧٨ - وإذ فرغنا من الأصول والقواعد كلّها، بل من نفس الكتاب والمقصود بالذات في هذا الباب، فلنشرع في الخاتمة المشتملة على الوصيّة، ونقطع الكتاب عليها كما شرطنا، ونستمدّ من الله تعالى التوفيق والعون، ونتّكل عليه في جميع ذلك، فإنّه وليّ الإجابة والتحقيق. ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].



(١) سورة هود، الآية: ٩٠.



الخاتمة في الوصية

١٢٧٩ - اعلم أنّ هذه الخاتمة مشتملة على وصيّة، وهي متضمّنة لوصايا متعدّدة.

١٢٨٠ - منها أنّه لا ينبغي لأحدٍ أن يشرع في مطالعة هذا الكتاب بقوّة عقله ورأيه والمقدّمات القياسيّة العقليّة، فإنّه لا يفهم منه شيئاً أصلاً، ويقع بواسطته في الكفر والضلال، ويصل بسببه إلى مرتبة الأهواء والاضلال، ويكون ممّن خسر الدنيا والآخرة، نازلاً في حقّه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾(١).

١٢٨١ - وهذا الكتاب ليس أعظم من كتاب الله، وقد ورد فيه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٢). وسبب ذلك لأنّ كلمات هؤلاء القوم صادرة من مشرب الولاية ومنبع الذوق ومعدن الشهود، وادراكها موقوف على افتتاح عين البصيرة بكحل عناية الله ونور توفيقه، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾(٣) لا على الفكر والدراية بمعانة العقل وادراكاته. ولهذا لا يحصل منها (أي من كلمات القوم) شيء إلا لأهلها، لقولهم: «لا يحمل عطاياهم إلا مطاياهم».

١٢٨٢ - ومع ذلك، أي مع أنّها أي كلمات القوم صادرة عن مشرب الولاية، وادراكها موقوف على افتتاح البصيرة، فهي مغلقة محتملة لوجوه كثيرة، كما ورد في شأن القرآن أنّه: «حمّال ذو وجوهٍ».

وورد أيضاً: «أنّ للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه أبطن إلى سبعة أبطن وسبعين بطناً».

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

ولهذا كانوا دائماً مبادرين إلى النصيحة فيها، كقول بعضهم لبعض مريديه المتقدّم ذكره: «ألا، لا يلعبنّ بك اختلاف العبارات! فإنه ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾[1] وحضر البشر عرصة الله يوم القيامة، فلعلّ من كلّ ألفٍ تسعمائة وتسعاً وتسعين يبعثون من أجداثهم وهم قَتلى بأسهم العبارات، ذَبحى بسيوف الإشارات، وعليهم دماؤها وجراحها. غفلوا عن المعاني فضيعوا المباني».

١٢٨٣ - فحينئذٍ كلّ من أراد الحظّ من مطالعة هذا الكتاب والذوق من مشاهدته، فينبغي أن يتوجّه إليه إمّا بالتوجّه التامّ وصفاء الباطن وخلوص الاعتقاد والتسليم الكامل والتصديق الخالص، أو بمعاونة شخص عارف كامل محقّق، واصل إلى مقام الاستقامة والتمكين، أعني مرتبة التكميل، ليوصله إلى حقائقه ودقائقه، لأنّ «لكلّ مكان مقال، ولكلّ مقال رجال». وإليه أشار - جل ذكره: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وأهل الذكر هم هؤلاء القوم بعد الأنبياء والأولياء عليهم السلام كما عرفتَ في القاعدة الثالثة من هذا الأصل.

١٢٨٤ - ومنها أنّ هذا الكتاب مشتمل على أعظم أقوال الصوفيّة والشيعة، ومعارضاتهم ومجادلاتهم، وأقوال علماء الظاهر أيضاً استشهاداً، وأقوال الأنبياء والأولياء عليهم السلام كذلك.

وكان الغرض من ذلك أن يصير الشيعة صوفيّة والصوفية شيعة! ومعلوم أنّ هذا أمر صعب وشغل خطير، لأنّ كلّ واحد منهما في حيّزٍ ضيّق لا يمكن اخراجه إلا بألف حبل من حبال البراهين العقليّة والاستشهادات النقليّة، منضمّةً إليها الاستدلالات الكشفيّة والدلائل الذوقيّة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[3] فحينئذٍ لا ينبغي أن يشنّع أحد على صاحبه بأنّه قد أكثر من نقل كلام الغير فيه، لأنّ في كلّ نقل حكمة بالغة ونكتة دقيقة لا يعرفها إلا أهلها.

---

(١) سورة العاديات، الآية: ٩.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

١٢٨٥ - وأيضاً لو لم يسمع الشيعة كلام الصوفيّة بألفاظهم المعيّنة، لما اطمأنّت قلوبهم؛ وكذلك الصوفيّة، لأنّهم أي الصوفيّة يريدون أيضاًأن يسمعوا كلام الشيعة بعباراتهم المعيّنة.

وبعد ذلك، لو لم ينضمّ إلى هذه الأقوال قول الله وقول الأنبياء والأئمّة والعارفين من عباده، لما اطمأنّ قلب أحد منهم ومن غيرهم، لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1].

١٢٨٦ - ومنها أنّه لا ينبغي أن يحكم أحد بتكرار فيه لفظاً أو معنىً، فإنّه لو تحقّق، لعرف أنّه ليس تكراراً، بل فيه حكمة وسرّ ونكتة ورمز. ويتوهّم أيضاً بعض الجهّال هذا المعنى في القرآن الكريم لتكرار بعض الآيات فيه، كقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2]، وكقوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3] وأمثال ذلك.

وليس هو في الحقيقة كذلك، لأنّ القرآن لا يمكن فيه تكرار لفظ ولا كلمة ولا آية أصلاً، لأنّه على صورة الوجود كلّه، وليس فيه تكرار لا صورة ولا معنى، لأنّ الصورة التي وجدت لا يمكن مثلها أبداً وأزلاً، وكذلك المعنى. وهذا البحث مفروغ منه:

وفي كلّ شيءٍ له آية تدلّ على أنّه واحد

وهذا يعلم من تفسير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[4].

١٢٨٧ - ومع ذلك فحيث نحن في مجموع هذا الكتاب في صدد اثبات مطلوب واحد الذي هو التوحيد، فلو تكرّر لفظ أو تكرّر معنى، فلا يكون فيه عيب، لأنّه بالحقيقة لا يكون تكراراً بل يكون مشابهاً، أو يكون سهواً، أو يكون فيه معنى آخر.

ومثاله أنّي ذكرتُ كلام عليّ عليه السلام وهو قوله: «**أوّل الدين...**» في موضع: **لأجل**: **اثبات الصفات**، وفي موضع: **لأجل تحقيق التوحيد**، وفي موضع: **لأجل نفي الصفات**.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٥.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٩.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٩.

ومعلوم أنّ هذا كلّه ليس بتكرار، والاعتماد في ذ لك على أهله لا غير. والسلام!.

١٢٨٨ - ومنها: أنّه إذا وجد أحد في تركيبه وألفاظه عجمة أو لكنة فيمكنه أن يقوم باصلاحه إن كان من أهله، ولا ينسبْ صاحبه إلى الجهل بمعناه، فإنّ هذه الطائفة تعتبر بلاغة الألفاظ وجزالة التركيب غرضاً أصيلاً، بل غرضهم ايصال المعنى المقصود إلى المستحقّين، خالصاً مخلصاً لله تعالى، لا اظهار الفضيلة ولا اشتهاراً بالفصاحة والبلاغة، كما تقدّم في باب التوحيد. فعلى أيّ وجه اتّفق وعلى أيّ لسان ظهر، فهو جيّد

عباراتنا شتّى وحسنك واحد وكلّ إلى ذاك الجمال يشير

لأنّه لا يختلف باختلاف: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[١].

١٢٨٩ - فإن لا يختلف أي قول الله باختلاف إلا لسنة حقيقةً وإن اختلف مجازاً، حيث ظهر بالعبرانيّة والسريانيّة والعربيّة وغير ذلك - ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٢] - فكذلك قول هؤلاء القوم، فإنّه لا يختلف باختلاف العبارات وشتيت الألسنة، عربيّةً كانت أو عجميّةً، هنديّةً كانت أو روميّةً. فاذن لا ينبغي لهم أن يذمّوه أي كلام المصنّف بركاكة الألفاظ وضعف التركيب، فإنّه أي المصنّف مقرّ بذلك وهو في قدم العذر «والعذر عند كرام الناس مقبول».

١٢٩٠ - وأيضاً لو لم يكن طالبوا هذا الكتاب مستأنسين بالعربيّة، آلفين بها، لما كتب المصنّف المعنى المقصود بالعربيّة، فهو ما أظهره إلا بلسان أراده منه طالبوه لأنسهم به وسرعة تعقلهم له، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[٣]، ولقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[٤].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

ولهذا كم من كتب ورسائل كتبتُها بالفارسيّة حيث كان طالبوها أعجام والتمسوا ذلك، مثل: «جامع الحقائق» و «رسالة التنزيه» و «أمثلة التوحيد» وغير ذلك.

١٢٩١ - ومنها: أن لا يتوّهم من الصوفيّة، إذا سمع بذكرهم قبل الاطّلاع على أصولهم وقواعدهم، الصوفيّة الذين هم في هذا الزمان، لأنّهم ليسوا في الحقيقة بصوفيّة، كعلماء هذا الزمان أيضاً ليسوا بعالمين حقيقةً، بل إذا خطر بخاطره أو سمع من غيره أو طالع من الكتب أحوالهم، يتصوّر منهم أقدمهم وأعلمهم وأعظمهم، مثل: سلمان الفارسي وأُويس القرني وأهل الصفّة، الذين ورد فيهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] وكذلك المقداد وأبو ذرّ وعمّار وأمثالهم، وبعدهم كميل بن زياد النخعيّ وأبو يزيد البسطامي والجنيد البغدادي، الذي كانوا تلامذة للأئمّة المعصومين عليهم السلام وكانوا مريديهم ومودعي أسرارهم، كما عرفته في الفصل الأوّل.

١٢٩٢ - وكذلك من الشيعة، أعني لا ينبغي أن يتوّهم أيضاً من الشيعة الشيعة المختلفة من الفرق الباطلة عند الشيعة أيضاً، المتقدّم ذكرهم: مثل الإسماعيليّة والغلاة والزيديّة وغير ذلك، فإنّهم ليسوا بشيعة حقيقةً؛ بل ينبغي أن يتصوّر من الشيعة طائفة مخصوصة، أعني الذين تقدّم ذكرهم وثبتت حقيّتهم: الموسومين بالاثني عشريّة، الإماميّة، المثبتة أُصولهم وقواعدهم في الأصول على النصّ والعصمة، واسنادهم ورواياتهم في الفروع على النقل الصحيح من النبيّ والأئمّة عليهم السلام لأنهم في التحقيق هم القوم الذين ورد في حقّهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[2] الآية.

١٢٩٣ - وشرف الطائفتين المذكورتين أي: الشيعة الإماميّة والصوفيّة ومنزلتهما، بل حقيقتهما، هو بأنّهما حاملا أسرار الأنبياء والأولياء عليهم السلام ظاهراً

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

وباطناً، لأنّ الأنبياء والأولياء كانوا جامعين لجميع الأسرار الإلّهية ظاهراً وباطناً.

فالشيعة قاموا بحمل أحكامهم وأسرارهم بحسب الظاهر والشريعة، والصوفيّة قاموا بحمل أسرارهم وحقائقهم بحسب الباطن والحقيقة، وإن كانت الصوفية بالحقيقة أيضاً هي الشيعة، كما عرفته عند بحث المؤمن الممتحن وغير الممتحن.

١٢٩٤ - وهذا بالحقيقة من ترتيب الوجود وكمال الشريعة الإلهيّة واقتضاء المراتب المذكورة: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[(١)] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[(٢)]. وقد عرفتَ بعض هذا البحث عند بحث الشريعة والطريقة والحقيقة فارجع إليه.

١٢٩٥ - ومنها: أنّه ينبغي أن لا يحكم باعتقاد صاحبه أي: صاحب هذا الكتاب أو هذا المقام إلا على الوجه الذي تقرّر في هذا الكتاب من أوّله إلى آخره، لكن بعد تأمّله وتحقّقه على ما ينبغي، أعني لا ينبغي أن يُعرَف إلا جامعاً بين أسرار الأنبياء والأولياء عليهم السلام بحسب الظاهر والباطن، المعبّر عنهما: بالشريعة والطريقة والحقيقة، والجمع بينهما أي بين الظاهر والباطن بالحقيقة، الذي هو أكمل المقامات وأعظم المراتب، المشار إليه مراراً، بحيث لا يُعَدّ من الشيعة الصرفة ولا من الصوفيّة المحضة، بل متّصفاً بالمقام المحمّدي الذي هو الجامع بين المقامين، لقوله عليه السلام: **«قبلتي ما بين المشرق والمغرب»** المعبّر عنه بالدين القيّم في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)] لأنّ غير ذلك يكون ظنّاً في حقّه، و﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[(٤)] و ﴿ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[(٥)] ولذلك أقول فيه ما قد قال أكمل الخلق وأعظمهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[(٦)].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.
(٢) سورة قَ، الآية: ٣٦.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٥) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

و ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[1]. ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2].

١٢٩٦ - وأقول أيضاً في آخر الكتاب ما قد قلتُ في أوّله، لأنّ النهايات هي الرجوع إلى البدايات، وأقطع الكتاب عليه، وهو هذا:

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن قلبي إلى دينه دان

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة ... فمرعى لغزلان وديراً لرهبان

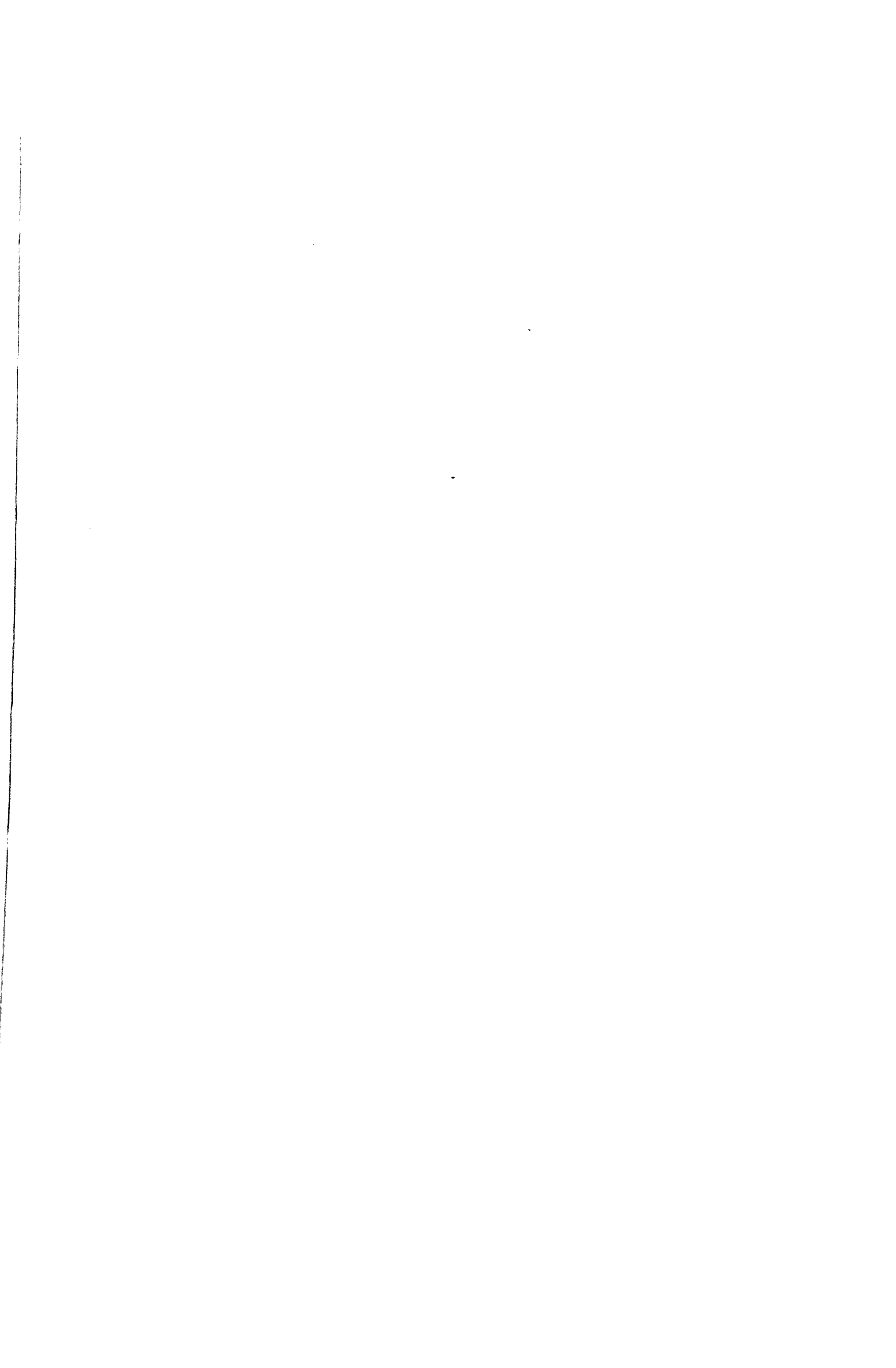
وبيتاً لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن

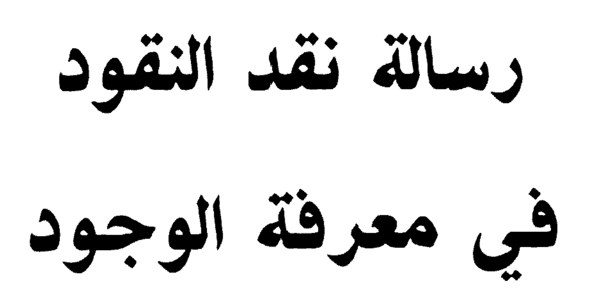
أدين بدين الحبّ أني توجّهتْ ... ركائبه أرسلتُ ديني وإيماني

هذا آخر الوجه وآخر الكتاب والحمد لله ربّ العالمين.



(١) سورة الأعراف، الآية: ٤١.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢١.





رسالة نقد النقود
في معرفة الوجود

تصنيف

سيد حيدر آملي



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وبه نستعين

رسالة نقد النقود في معرفة الوجود لأضعف عباد الله وأحوجهم إلى غفرانه حيدر بن عليّ بن حيدر العلويّ الحسيني الآملي - أصلح الله حاله.

خطبة الكتاب

١ - الحمد لله الذي تنزّه عن الكثرة وعن اعتباراتها، وتلبّس بالمظاهر، وتقدّس عن مقتضياتها، حتّى صدق عليه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[(١)]، وخروج عن أن يكون له في الوجود شبيه ولا نظير. وصلّى الله على السبب الأعظم لظهور صور المخلوقات، والممدّ الأعلى لأشعّة أنواره من مشكاة الموجودات، وعلى آله الموصوفين بأشرف الخصال والفعال، المنصوصين لخلافته من أزل الآزال.

٢ - أمّا بعد: فلمّا فرغتُ من «رسالة الوجود» وما اشتملت عليه من اثبات اطلاقه وبداهته ووجوبه ووحدته وظهوره وكثرته، ومن المعارضة بين المتكلّمين والحكماء الموحّدين، والاستشهاد بكلّ واحد منهم، بعد الاستشهاد بكلام الله تعالى وكلام أنبيائه وأوليائه عليهم السلام و (لمّا فرغتُ أيضاً من توابعها ولوازمها من الأمثال المضروبة والنكات المطلوبة، ألتمس بعض اخواني الذي كان عندي أعزّ من إنسان العين في العين، أن أنتخب منها انتخاباً مختصراً مفيداً، قليلاً في الحجم، كثيراً في المعنى، لأنّها أي: رسالة الوجود كانت مشتملة على مقدّمة وثلاثة أركان:

المقدمة: في بحث الشريعة والطريقة والحقيقة.

والركن الأوّل: في بحث الوجود واطلاقه وبداهته.

والركن الثاني: في بحث وجوبه ووحدته.

والركن الثالث: في بحث ظهوره وكثرته.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٩.

وكان ذلك كثيراً لأنّ كلّ واحد من الأركان كان مشتملاً على أبحاث كثيرة، وكذلك المقدّمة.

٣ - فانتخبتُ من الركن الأوّل لبّه وخلاصته، وكذلك من الركن الثاني والثالث. وما اعترضتُ للمقدّمة بشيء أصلاً. وجعلتُ هذا البحث رسالة برأسها، وبنيتُها على ثلاثة أصول:

الأصل الأوّل: في بحث الوجود واطلاقه وبداهته.

والأصل الثاني: في وجوبه ووحدته.

والأصل الثالث: في ظهوره وكثرته.

أعني أنّ هذه الرسالة رتّبتُها على ترتيب الرسالة الأولى، بلا تغيير ولا تبديل، وسمّيتها: «**بنقد النقود في معرفة الوجود**»، وجعلتها تحفة لأرباب الاستعداد الكامل والذكاء التامّ والفطنة الفطريّة الحقيقيّة، لا لكلّ أحد من الجاحدين، المبعدين عن الحقّ وأهله. نعوذ بالله منهم ومن أمثالهم!.

٤ - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(١) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾(٢) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٣).

علم التصوّف علم ليس يعرفه   إلاّ أخو فطنةٍ بالحقّ معروف
وليس يبصره من ليس يشهده   وكيف يبصر ضوء الشمس مكفوف؟

وسألت الله في اتمامها العون والتوفيق، وفي اتّقانها الكشف والتحقيق. - ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٤). وإذا تحقّق هذا، فلنشرع في الأصول. وهي هذه:

---

(١) سورة قٓ، الآية: ٥٣.
(٢) سورة طه، الآية: ٥٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٤) سورة هود، الآية: ٩٠.



الأصل الأول

في بحث الوجود واطلاقه وبداهته

٥ - اعلم أنّ هذا الأصل مشتمل على بحث الوجود واطلاقه وبداهته من طريق الموحّدين من أرباب التصوّف، عقلاً ونقلاً وكشفاً. لكن قبل الشروع فيه، لا بدّ من تقديم كلمات متعلّقة به على سبيل الخطاب، وهي هذه:

٦ - اعلم أنّه ما شكّ أحد، من أهل العلم والعقل ولا من أرباب الكشف والشهود، في الوجود مطلقاً، وإن عجزوا عن تعريفه وتحقيقه والتعبير عنه، لأنّ كلّ من شكّ فيه شكّ في وجوده، ومحال أن يشك أحد في وجوده، فمحال أن يشكّ أحد في الوجود مطلقاً.

٧ - ومن وضوح الوجود، ذهب الأكثرون إلى أنّه بديهيّ غنيّ عن التعريف، كقول بعضهم مثلاً: «وجود كلّ شخص ضروريّ له».

أعني كلّ شخص يعرف ضرورةً أنّه موجود لا معدوم؛ وإذا كان وجوده ضروريّاً، كان مطلق الوجود ضروريّاً لأنّه جزؤه، وضروريّة المركّب تستلزم ضروريّة جزئه، فلا يحتاج الوجود إلى تعريف.

٨ - وكقولهم أيضاً: «الوجود لا يمكن تعريفه بحسب الحقيقة لأنّه بديهيّ التصوّر، والبديهيّ ممتنع تعريفه لامتناع تحصيل الحاصل. فالوجود، من حيث هو وجود، غنيّ عن التعريف». وأكثر البديهيّات هذا شأنها، أعني أنّها ليست بقابلة للتعريف ولا للتعبير، كالذوقيّات مثلاً فإنّها كذلك، كالوقاع وأكل الحلاوة وما شاكل ذلك، لأنّها ليست بقابلة للتعبير والتعريف حقيقةً.

٩ - ولهذا ما عرّفوه أي: الوجود بشيء يوجب الاطمئنان أو يحصل منه الإيقان، كقولهم: «الوجود ما يصير به الشيء فاعلاً أو منفعلاً». وكقولهم: «الوجود ما يتحقّق

به الشيء في الخارج». وكقولهم: «الوجود هو الشيئيّة المحضة». وكقولهم: «الوجود هو الكون في الخارج».

١٠ - ولعجزهم أيضاً عن معرفته، وعدم اطّلاعهم على حقيقته، ذهب بعضهم إلى أنه أي الوجود بديهيّ؛ وبعضهم إلى أنّه اعتباريّ؛ وبعضهم إلى أنه حقيقيّ؛ وبعضهم إلى أنّه كلّيّ؛ وبعضهم إلى أنّه ذهنيّ؛ وبعضهم إلى أنه خارجيّ؛ وبعضهم إلى أنّه حيّ؛ وبعضهم إلى أنّه ضروريّ، وأمثال ذلك.

١١ - وهذه الوجوه جميعاً عند التحقيق ليست من كلّ الوجوه حقّاً، ولا من كلّ الوجوه باطلاً، لكن الأمر يحتاج إلى مميّز محقق، يتميّز به الحقّ ويبرز من بينها. وما حصلت هذه المرتبة الشريفة العليا، وهذه السعادة الجليلة العظمى، بعد الأنبياء والأولياء عليهم السلام إلا للموحّدين المحقّقين من أهل الله وخاصّته، والكاملين المكمّلين من أرباب التوحيد وخلاصته، لأنّهم ما شرعوا في تحقيق هذا الأمر العظيم، وطلب هذا الشغل الخطير، بعقولهم الضعيفة وأفكارهم الركيكة، بمعاونة ترتيب المقدّمات والنتيجة، حتى يحصل لهم الحرمان من مطلوبهم، ويزيدهم العمى والتحيّر في مقصودهم.

١٢ - بل توجّه الموحّدون المحقّقون إلى جناب الحقّ - جلّ جلاله - حقّ التوجّه، لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١].

وسلكوا سبيله حقّ السلوك، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

والتمسوا منه تعالى الكشف التامّ في تحقيقه، والوضوح الكامل في تعيينه، حتى أعطاهم الحقّ تعالى ما أعطاهم، وعلّمهم ما علّمهم، لقوله في الأوّل: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾[٣].

ولقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٩.

(٣) سورة صٓ، الآية: ٣٩.

(٤) سورة قٓ، الآية: ٢١.

ولقوله في الثاني: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[1].

وقوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[2].

وبذلك عرفه الموحّدون المحقّقون على ما عرفوه، وشاهدوه على ما شاهدوه.

١٣ - ونحن الآن، بعون الله وحسن توفيقه، في صدد اظهار مطلوبهم على ما عرفوه، وفي معرض كشف القناع عن وجه محبوبهم على ما شاهدوه. ونرجو منه تعالى أن يوفقنا في ذلك، أنّه وليّ الإجابة والتوفيق، وهو المستعان، وعليه التكلان. وإذا تقرّر هذا، فلنشرع في المقصود ونبدأ ببحث الوجود.

١٤ - اعلم أنّ أُصولهم الكليّة وقواعدهم الجامعة في هذا الباب بالاتّفاق، هي أوّلاً أنّ الوجود، من حيث هو وجود - أعني الوجود الصرف المحض والذات البحت الخالص المسمّى: بالوجود المطلق - هو الحقّ - جلّ جلاله - لا غير، وليس لغيره وجود أصلاً.

وثانياً: أنّ هذا الوجود على هذا المعنى المحدّد موجود في الخارج. والدليل عليه هو أنّ الوجود المطلق نقيض العدم المطلق، باتّفاق جميع العقلاء وأهل الكشف؛ والعدم المطلق عبارة عن امتناع وجوده ذهناً وخارجاً. فلو كان نقيضه - وهو الوجود المطلق - كذلك، لكان هو هو. فما كان وجوداً، بل كان عدماً صرفاً ولا شيئاً محضاً، وهذا خلف. فيلزم أن يكون الوجود المطلق موجوداً في الخارج، بعكس نقيضه وهذا هو المطلوب.

١٥ - وإن قيل: إنّ النقيض لا يلزم أن يكون من جميع الوجوه نقيضاً، بل يكفي كونه في وجه واحد أو أكثر، وهذا الوجه الواحد هو الوجود الذهنيّ، أعني يكون الوجود الذهنيّ نقيض العدم المطلق، - أجيب عنه بأنّ الوجود، من حيث هو وجود، أعمّ من أن يكون ذهنيّاً أو خارجيّاً، لأنّ المطلق شامل لهما، لأنّهما اعتباران من اعتباراته، ونوعان من أنواعه: كالكليّ والعامّ وغير ذلك، لأنّهما كذلك، لأنّه - أعني: الوجود المطلق - من حيث هو، عين الوجود الذهنيّ والخارجيّ والكليّ والجزئيّ والعامّ والخاصّ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٢) سورة العلق، الآيتان: ٤ - ٥.

١٦ - الذي قلنا نحن أيضاً فيما سبق: أنّه خارجيّ، - هو في الحقيقة من ضيق العبارة؛ وكان هذا رفعاً لتوّهم الوجود الذهنيّ، وتفهيماً للسامع وتنبيهاً له. وإلا فالوجود، من حيث هو وجود، منبيء عن مجموع هذه القيود والاعتبارات. وليس معنى الاطلاق عند التحقيق إلا هذا، أي قطع النظر عن جميع الاعتبارات، عقليّة كانت أم وجوديّة.

١٧ - وأيضاً، لو كان الوجود المطلق ذهنيّاً، لما كان نقيضاً للعدم المطلق، بل كان نقيضاً للعدم الذهنيّ فقط. وكيف يجوز اطلاق الوجود الحقيقيّ، الذي هو عند الأكثرين بديهيّ التصوّر، ضروريّ الحصول في الخارج، على الوجود الذهنيّ معارضةً وجدلاً؟ مع أنّ الوجود، من حيث هو هو، سابق على لأذهان كلّها، بل ليس للذهن وجود إلا به، فضلاً عن أن لا يكون له صورة إلا فيها. جلّ شأن الوجود الحقّ عن أمثال هذه التصوّرات! ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(١).

١٨ - وأيضاً، الذي قيل في تعريف الوجود: يقوم بدفع هذه الشبهة وازالة هذا التوّهم، وهو قول أرباب النظر وأهل المعقول: «الوجود ما يتحقّق به الشيء في الخارج». ومعلوم أنّ الوجود الذهنيّ، على أيّ وجه كان، ليس له صلاحيّة أن يتحقّق به الشيء في الخارج، بل هو في نفسه محتاج إلى شيء يوجده في الخارج وفساد هذا النظر في غاية الوضوح.

١٩ - وقد سنح لنا ههنا، بعناية الله وحسن توفيقه، برهان حسن لطيف، لا يمكن فرار الخصم منه. وهو هذا: اعلم أنّ علماء الإسلام بأجمعهم اتّفقوا على أنّ الله تعالى: «**كان ولم يكن معه شيء**»، أي كان هو ولم يكن شيء موجود في الخارج غيره، كما ورد في الحديث أيضاً: «**كان الله ولم يكن معه شيء**».

واتّفقوا أيضاً على أنّ وجود الواجب خاصّ، وهو نفس ماهيّته. واتّفقوا على أنّ الوجود المطلق نقيض العدم المطلق. فقبل وجود الموجودات كلّها، الوجود المطلق الذي هو نقيض العدم المطلق، يجب أن يكون موجوداً في الخارج، لأنّ وجود الخاصّ بدون العامّ محال، لأنّه ما كان هناك ذهن، بزعم الخصم، حتّى يكون

---

(١) سورة صٓ، الآية: ٢٦.

الوجود ذهنياً؛ ولا يجوز أن يكون هو كنقيضه الذي هو العدم المطلق، أعني لا يكون له وجود لا في الذهن ولا في الخارج.

٢٠ - وأيضاً، لو لم يكن الوجود موجوداً لم يثبت قولهم: «الوجود والعدم لا يجتمعان ولا يرتفعان».

٢١ - وإن قيل: هذا بالنسبة إلى الوجودات الخاصّة وعدمها: أجيب عنه بأنّ عدم الوجودات الخاصّة ضرورةً يكون تحت العدم المطلق، كما عرفته. وإذا كان كذلك، فلا يكون هذا إلا بالنسبة إلى الوجود المطلق وعدمه لا غير. فحينئذٍ، يصدق عليهما أنّهما لا يجتمعان ولا يرتفعان. وإذا ثبت أنّ العدم المطلق والوجود المطلق لا يجتمعان ولا يرتفعان، ثبت أنّ الوجود المطلق كان موجوداً قبل وجود الواجب الذي هو وجوده الخاصّ.

٢٢ - ويلزم من هذا أحد الأمور الثلاثة: أمّا جواز تقدّم وجود آخر على وجود الواجب؛ أو تسمية الواجب المطلق؛ أو ارتفاع اسم الخاصّ عن وجوده.

والأوّل محال بالاتفاق، لأنّه لا يجوز تقدّم شيء على علّة الأشياء وموجدها.

والثالث محال أيضاً: لأنّهم جعلوا وجوده تعالى خاصّاً، ومنعوا قول من قال بأنّ له تعالى وجوداً بين العامّ والخاصّ؛ والحقّ في طرفهم. فما بقي إلا الأمر الثاني، وهو تسميته: بالوجود المطلق، كما هو مذهب أهل الله من الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

فثبت أنّ الوجود المطلق المسمّى: بالحقّ، موجود في الخارج، وليس لغيره وجود أصلاً، وهو المطلوب. والبرهان على اطلاقه، من حيث المجادلة والمعارضة مع المتكلّمين، قد جاء في الرسالة المذكورة كثيراً التي هي الأصل لهذا المختصر. فارجع إليه هناك، لأنّ هذا الموضع لا يحتمل مجموعه.

٢٣ - ولكن نريد أن نتمسّك في هذه الدعوى بكلام بعض المحقّقين، كما تمسّكنا في الأصل استظهاراً لك وتوضيحاً لغرضك. وهو قول المولى الأعظم كمال الحقّ والملة والدين عبد الرزاق الكاشي - قدّس الله سرّه - في أوّل شرحه للفصوص، وهو أنّه قال: «حقيقة الحقّ المسمّاة: بالذات الأحديّة ليست غير الوجود البحت من حيث هو وجود، لا بشرط اللاّ تعيّن، ولا بشرط التعيّن. وهو تعالى من حيث هو، مقدّس عن النعوت والأسماء، لا نعت له ولا اسم، ولا اعتبار

للكثرة فيه بوجه من الوجوه. وليس هو بجوهر ولا عرض، فإنّ الجوهر له ماهيّة غير الوجود، وهو ما يمتاز بها عن غيره من الموجودات. والعرض كذلك، وهو أي العرض مع ذلك محتاج إلى موضوع يحلّ فيه».

٢٤ - «وما عدا الواجب فهو إمّا جوهر أو عرض. فالوجود، من حيث هو وجود، ليس ممّا عدا الواجب. وكلّ ما هو وجود مقيّد فهو به موجود. بل هو باعتبار الحقيقة غيره باعتبار التعيّن. فلا شيء غيره بحسب الحقيقة. وإذا كان كذلك، فوحدته عين ذاته، إذ ما عدا الوجود - من حيث هو وجود - عدم صرف. والوجود لا يحتاج، في امتيازه عن العدم، إلى تعيّن، لعدم اشتراكهما في شيء، إذ العدم لا شيء محض؛ ولا يقبل العدم، وإلا لكان، بعد القبول، وجوداً معدوماً، كما لا يقبل العدمُ الصرفُ الوجود كذلك. ولو قبل أحدهما نقيضه لكان، من حيث هو بالفعل، نقيضه، وهو محال».

٢٥ - «ولاقتضاء القابليّة كان التعدّد فيه أعني في الوجود؛ ولا تعدّد في حقيقة الوجود، من حيث هو وجود، بل القابل لهما: أي للعدم والوجود الأعيان الثابتة في العالم العقليّ، التي تظهر بالوجود وتخفي بالعدم».

٢٦ - «وكلّ شيء موجود بالوجود فعينه غير وجوده. والوجود بذاته موجود، فوجوده عينه، وإلا لكان له ماهيّة غير الوجود، فلم يكن وجوده أوّلاً؛ فإذا وجد، لكان للوجود وجودٌ قبل الوجود، وهذا محال. فالوجود بذاته واجب أن يوجد بعينه، لا بوجود غيره. وهو المقوّم لكلّ شيء سواه، لأنّه موجود بالوجود، وإلا لكان لا شيئاً محضاً.

فهو الغنيّ بذاته عن كلّ شيء، والكلّ مفتقر إليه، فهو الأحد الصمد القيّوم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

٢٧ - والحقّ أنّ هذا الكلام وإن كان برهاناً على مطلوب واحد الذي هو الاطلاق، لكنّه بالحقيقة هو برهان على جميع المطالب التي نحن بصددها: من الاطلاق والبداهة والوجوب والوحدة والظهور والكثرة وغير ذلك.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

٢٨ - هذا، وقد ذكر الشيخ العارف شرف الدين القيصري - رحمة الله عليه - في أوّل شرحه للفصوص أيضاً فصلاً مفرداً، مشيراً إلى مجموع هذا المعنى؛ نذكر بعض ذلك ههنا، ونرجع بعده إلى الغرض الذي نحن فيه. وهو هذا: «اعلم أنّ الوجود، من حيث هو هو، غير الوجود الخارجيّ والذهنيّ، إذ كلّ منهما نوع من أنواعه. فهو من حيث هو، أيْ لا بشرط شيء، غير مقيّد بالاطلاق والتقييد، ولا هو كليّ ولا جزئيّ، ولا عامّ ولا خاصّ، ولا واحد بالوحدة الزائدة على ذاته، ولا كثير. بل تلزمه هذه الأشياء بحسب مراتبه ومقاماته، المنبّه عليها بقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾[1].

فيصير الوجود مطلقاً ومقيّداً وكليّاً وجزئيّاً وعامّاً وخاصّاً وواحداً وكثيراً، من غير حصول التغيّر في ذاته وحقيقته».

٢٩ - «وهو ليس بجوهر، لأنّه موجود في الخارج لا في موضوع، أو ماهيّة لو وجدت لكانت لا في موضوع. والوجود ليس كذلك، وإلا يكون كالجواهر المتعيّنة المحتاجة إلى الوجود الزائد ولوازمه. وهو ليس بعرض، لأنّه عبارة عمّا هو موجود في موضوع، أو ماهيّة لو وجدت لكانت في موضوع. والوجود ليس موجوداً، بمعنى أنّ له وجوداً زائداً، فضلاً عن أن يكون موجوداً في موضوع. بل موجوديّته بعينه وذاته، لا بأمر آخر يغايره عقلاً أو خارجاً».

٣٠ - «وأيضاً: لو كان الوجود عرضاً لكان قائماً بموضوع موجود قبله بالذات، فيلزم تقدّم الشيء على نفسه؛ ويلزم أيضاً أن يكون وجودهما زائداً عليهما، والوجود لا يمكن أن يكون زائداً على نفسه، ولأنّه أي الوجود مأخوذ في تعريفهما أي في تعريف الجوهر والعرض، لكونه أعمّ منهما، فهو غيرهما أي غير الجوهر والعرض».

٣١ - «وليس الوجود أمراً اعتباريّاً، كما يقول الظالمون، لتحقّقه في ذاته مع عدم المعتبرين إيّاه، فضلاً عن اعتباراتهم - سواء أكانت عقولاً أو نفوساً أو غيرهما، كما قال عليه السلام: «**كان الله ولم يكن معه شيء**». وكون الحقيقة بشرط الشيء أمراً

(١) سورة المؤمن، الآية: ١٥.

اعتبارياً، لا يوجب أن يكون لا بشرط الشيء كذلك. فليس الوجود صفة عقليّة وجوديّة: كالوجوب والامكان للواجب والممكن».

٣٢ - «وهو أعمّ الأشياء باعتبار عمومه وانبساطه على الماهيّات، حتّى يعرض مفهوم العدم المطلق والمضاف في الذهن عند تصوّرهما لذلك، بحكم العقل بالامتياز بينهما وامتناع أحدهما وامكان الآخر، إذ كلّ ما هو ممكن وجوده ممكن عدمه، وغير ذلك من الأحكام. وهو أظهر الأشياء تحقّقاً وأنيّةً، حتّى قيل فيه: أنّه بديهيّ.

وهو أخفى من جميع الأشياء ماهيّةً وحقيقةً، فصدق فيه ما قال أعلم الخلق به في دعائه: **«ما عرفناك حقّ معرفتك»**.

٣٣ - «ولا يتحقّق شيء في العقل ولا في الخارج إلا به، فهو المحيط بذاته بجميعها، وقوام الأشياء به، لأنّ الوجود إذا لم يكن لم يكن شيء لا في العقل ولا في الخارج؛ فهو مقوّمها، بل هو عينها، إذ هو الذي يتجلّى في مراتبه ويظهر بصورها وحقائقها في العلم والعين، فيسمّى: بالماهيّة والأعيان».

٣٤ - «فلا واسطة بينه وبين العدم، كما لا واسطة بين الموجود والمعدوم مطلقاً. والماهيّة الحقيقيّة واسطة بين وجودها الخاصّ وعدمه والماهيّة المطلقة الاعتباريّة لا تحقّق لها في نفس الأمر. والكلام فيما له تحقّق فيه، ولا ضدّ له، ولا مثل، لأنّهما موجودان متخالفان، أو متساويان. فخالف الوجود جميع الحقائق، لوجود أضدادها وتحقّق أمثالها، فصدق فيه «ليس كمثله شيء».

٣٥ - «وبالوجود يتحقّق الضدّان ويتقوّم المثلان، بل هو الذي يظهر بصورة الضدّين وغيرهما، ويلزم منه الجمع بين النقيضين، إذ كلّ منهما يستلزم سلب الآخر. واختلاف الجهتين إنّما هو باعتبار العقل، وأمّا في الوجود فتتّحد الجهات كلّها، فإنّ الظهور والبطون وجميع الصفات الوجوديّة المتقابلة مستهلكة في عين الوجود، فلا مغايرة إلا في اعتبار العقل. والصفات السلبيّة، مع كونها عائدة إلى العدم أيضاً، راجعة إلى الوجود من وجه. فكلّ من الجهات المتغايرة، من حيث وجودها العقليّ، عين باقيها. ولكونهما يجتمعان في عين الوجود، يجتمعان أيضاً في العقل، إذ لولا وجودهما فيه لما اجتمعا؛ وعدم اجتماعهما في الوجود

الخارجيّ. الذي هو نوع من أنواع الوجود المطلق، لا ينافي اجتماعهما في الوجود من حيث هو هو. والوجود لا يقبل الانقسام والتجزّي أصلاً، خارجاً وعقلاً، لبساطته. فلا جنس له ولا فصل له، فلا حدّ له».

٣٦ - إلى قوله: «وليست الأشياء عبارة عن الكون ولا عن الحصول والتحقق والثبوت أن أريد بها المصدر، لأنّ كلاً منها عرض حينئذٍ ضرورةً. وأن أريد بها ما يراد بلفظ الوجود فلا نزاع، كما أراد أهل الله بالكون وجود العالم. وحينئذٍ لا يكون شيء منها جوهراً ولا عرضاً، كما مرّ؛ كما لا يكون شيء منها معلوماً بحسب حقيقته، وإن كان معلوماً بحسب أنيّته».

٣٧ - «والتعريف اللفظيّ لا بدّ أن يكون بالأشهر ليفيد العلم؛ والوجود أشهر من غير ضرورةً. والوجود العامّ، المنبسط على الأعيان في العلم الإلّهيّ، ظلّ من ظلاله لتقيّده بعمومه. وكذلك الوجود الذهنيّ والوجود الخارجيّ هما ظلاّن لذلك الظلّ، لتضاعف التقيّد. وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾[1].

٣٨ - «فهو الواجب الوجود الحقّ - سبحانه وتعالى - الثابت بذاته، المثبت لغيره، الموصوف بالأسماء الإلّهيّة، المنعوت بالنعوت الربّانيّة، المدعوّ بلسان الأنبياء والأولياء، الهادي خلقه إلى ذاته، الداعية مظاهرُهُ بأنبيائه إلى عين جمعه ومرتبة أُلوهيّته. أخبر بلسانهم أنّه بهويّته مع كلّ شيء وبحقيقته مع كلّ حيّ. ونبّه أيضاً أنّه عين الأشياء بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]. هذا آخره.

٣٩ - والحقّ أنّه كلام حسن، مشبع في هذا الباب. وغرضنا من نقل كلام الأصحاب، الذي هو مذموم عند البعض، ليس تكثير السواد ولا تسويد البياض، ولا الاشتهار بكثرة التصنيف وجودته، كعلماء الظاهر وأرباب القشور. بل غرضنا بالأحرى اثبات مطلوبنا على أيّ وجه اتّفق. وأيضاً، لأنّ كلامنا وكلامهم كلام

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٣.

واحد ومعنى واحد، لا مغايرة بينهما، فكأنّه صدر عن شخص واحد، كما قيل: «الفقراء كنفس واحدة». وما كان طريق أهل الله وخاصّته دائماً إلا كذلك. وسبب ذلك أنّ مطلوبهم واحد، وكلّهم متّفقون على اثباته وحقيقته. فكأنّهم شخص واحد، في معرض دعوى واحدة؛ فعلى أيّ وجه يمكن اثباتها، يجتهدون فيه ويتظاهرون به.

٤٠ - ومثّل في ذلك الغزالي في كتابه الموسوم باحياء العلوم، وقال: «مثل أهل الله كمثل جماعة محبوسة في بئر، وعلى رأس البئر حجر كبير لا يمكن دفعه ولا منعه إلا بالاتّفاق. فإن قام أحد منهم بمنع ذلك الحجر ودفعه عنهم وتخليصهم عن كمد؟ البئر، يقوم الكلّ بموافقته، ويعضدونه ويساعدونه، ويجتهدون في خلاص أنفسهم عن البئر». ومثل أهل الظاهر وعلماء القشور بعكس ذلك، كما هو معلوم من طريقتهم في عداوة كلّ واحد منهم مع الآخر وبغضه له، وغير ذلك من المخالفات والمعادات الصادرة منهم، المنفّر ذكرها. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

٤١ - وإذا تحقّق هذا، وثبت أنّ الوجود المطلق موجود في الخارج، وليس لغيره وجود أصلاً، وثبت أنّ هذا الوجود المطلق هو الحقّ تعالى - جلّ ذكره - فاعلمْ أنّ مرادهم بالوجود، من حيث هو الوجود، الوجود الصرف والذات الخالص، كما مرّ، أي الوجود بلا اعتبار شيء معه أصلاً، أعني تصوّره من حيث هو هو، لا بشرط الشيء، ولا بشرط اللاشيء، أيْ مجرّداً عن جميع النسب والاضافات والقيود والاعتبارات.

٤٢ - ومعلوم أنّ كلّ شيء له اعتباران: اعتبار الذات، من حيث هي هي؛ واعتبارها من حيث الصفات، أيْ وصفها بصفةٍ ما، أيّة صفة كانت. فهذا هو اعتبار الذات فقط، أعني اعتبار الذات بقطع النظر عن جميع الاعتبارات والإضافات المخصوصة بالحضرة الأحديّة. وأنّ مرادهم بالمطلق هو الذات المطلقة المنزّهة عن جميع هذه الاعتبارات.

٤٣ - وليس اطلاق لفظ: المطلق على الوجود الصرف، إلا من هذه الحيثيّة[2]،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٢.

(٢) الحيثية: أي من حيث هو وجود عن جميع الإعتبارات والإضافات.

لا من جهة المطلق الذي هو بازاء المقيّد، ولا من جهة الكليّ الذي هو بازاء الجزئيّ، ولا من جهة العامّ الذي هو بازاء الخاصّ، لأنّه أي الوجود الصرف من حيث هو، غنيّ عن اطلاق شيء عليه، اسماً كان أو صفة، سلباً كان أو ثبوتاً، اطلاقاً كان أو تقييداً، عامّاً كان أو خاصّاً، لأنّ كلّ واحد منها - أي من هذه الأمور المتقابلة - يقتضي سلب الآخر، أو يقتضي التقيّد والتعيّن فيه.

وهو - أعني الوجود المطلق المحض - منزّه عن الكلّ، حتّى عن الاطلاق وعدم الاطلاق، لأنّ الاطلاق تقييد يقيّد الاطلاق، كما أنّ اللاّاطلاق قيد بعدم الاطلاق، وكذلك التعيّن واللاتعيّن، وغير ذلك من الصفات، كالوجوب والقدم والعلم والقدرة وأمثالها.

٤٤ - وعن هذا التنزيه والتقديس الشريف أخبر مولانا وإمامنا، أمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب عليه السلام في قوله: «**أوّل الدين معرفته. وكمال معرفته التصديق به. وكمال التصديق به توحيده. وكمال توحيده الاخلاص له. وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة. فمن وصف الله- سبحان وتعالى - فقد قرنه. ومن قرنه فقد ثنّاه. ومن ثنّاه فقد جزّأه. ومن جزّأه فقد جهله. ومن جهله فقد أشار إليه. ومن أشار إليه فقد حدّه. ومن حدّه فقد عدّه. ومن قال: فيم؟ فقد ضمّنه. ومن قال: علامَ؟ فقد أخلى منه. كائن، لا عن حدث. موجود، لا عن عدم. مع كلّ شيء، لا بمقارنة. وغير كلّ شيء، لا بمزاولة**». ولهذا الكلام شرح طويل وبسط عظيم قد أشرنا إليه في الرسالة.

٤٥ - والغرض أنّ كلّ ذلك إشارة إلى اطلاقه وتجرّده وتنزّهه وتقدّسه عن الكثرة الوجوديّة والاعتباريّة، لأنّ قوله عليه السلام: «**وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه**» إشارة إلى الوجود المطلق المحض، والذات البحت الخالص، الذي لا يمكن وصفه بشيء أصلاً، ولا يكون قابلاً للإشارة أبداً، كما أشار إليه عليه السلام في موضع آخر في قوله: «**الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة**» إلى آخره.

٤٦ - وعن هذا التنزيه أيضاً أخبر أيضاً - جلّ جلاله - في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] بخلاف قوله في الحديث القدسي: «**كنتُ كنزاً مخفياً، فأحببتُ أن أُعرف، فخلقت الخلق**» أو قوله في القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] لأنّ هذا لا يدلّ على الاستغناء التامّ، كما هو معلوم لأهله. وفيه أسرار جليلة أشرنا إليها في الرسالة (المذكورة التي هي أصل لهذا البحث) فارجع إليها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٣].

٤٧ - هذه عبارة. وبعبارة أخرى، اعلمْ أنّ الحقّ تعالى من حيث الاطلاق والوجود والوحدة والذات، منزّه عن جميع الاعتبارات والاضافات، عقليّة كانت أو وهميّة، ذهنيّة كانت أو خارجيّة، سلبيّة كانت أو ثبوتيّة، كالاطلاق والتقييد والتعريف والتعيين والاسم والصفة والحدّ والرسم والجنس والفصل والنوع والخاصّة، وغير ذلك من الاعتبارات وكذلك هو تعالى منزّه عن جميع المراتب الوجوديّة والكونيّة والذهنيّة، من الكليّ والجزئيّ والعامّ والخاصّ والجسم والجوهر والعرض والعقل والنفس والأفلاك والأجرام والعناصر والمواليد.

٤٨ - وعند التحقيق الواجب والممكن والقديم والحادث والفاعل والقابل والعلّة والمعلول وجميع ما ذكرناه، كلّ ذلك نوع من أنواع مظاهره تعالى وقسم من أقسام مجاليه في مراتب كمالاته وخصوصيّاته، لأنّ كلّ واحد من الواجب والممكن قسمٌ من أقسام الوجود المطلق الذي هو المقسّم للكلّ، والمقسّم بالضرورة يكون غير القسيم، بل في الحقيقة تردّد ورتب وإضافة هذه الأشياء إليه تعالى وإضافته إليها، هو من هذه الحيثيّة لا من الحيثيّة الأولى.

أعني أنّ نسبة الحقّ بالإضافات والمراتب هي من حيث الظهور لا من حيث البطون، ومن حيث الكثرة لا من حيث الوحدة، ومن حيث التقييد لا من حيث الاطلاق، ومن حيث الصفات لا من حيث الذات، ومن حيث الكمالات لا من حيث الوجود، لأنّه تعالى من هذه الحيثيّات، أي من حيث البطون والوحدة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٣) سورة ق، الآية: ٣٦.

والاطلاق والذات والوجود، منزّه عن أمثال ذلك كما مرّ تقريره. وإن كان من حيث الثاني، نُفِيَ كلّ واحدة منها، كما سيجيء بيانه في باب الظهور.

٤٩ - ونظراً إلى هذا المقام قال المحقّق: «إنّ الحقّ، من حيث اطلاقه الذاتيّ، لا يصحّ أن يحكم عليه بحكم، أو يعرّف بوصف، أو تضاف إليه نسبة ما، من وحدة أو وجوب أو مبدئيّة أو اقتضاء ايجاد أو صدور أثر أو تعلّق علمه بنفسه أو غيره، لأنّ كلّ ذلك يقتضي التعيّن والتقيّد».

ولا ريب أنّ تعقّل كلّ تعيّن يقتضي سبق اللاّتعيّن عليه. فكلّ ما ذكرناه ينافي الاطلاق، بل يصوّر اطلاق الحقّ بشرط فيه أن يتعقّل، بمعنى أنّه وصف سلبيّ، لا بمعنى أنّه اطلاق ضدّه التقييد، بل هو اطلاق عن الوحدة والكثرة المعلومتين، وعن الحصر أيضاً في الاطلاق والتقييد، وفي الجمع بين كلّ ذلك، أو التنزّه عنه. فيصحّ في حقّه تعالى كلّ ذلك حال تنزهه عن الجميع. فنسبة كلّ ذلك إليه وغيره وسلبه عنه، على السواء: ليس أحد الأمرين بأولى من الآخر، لأنّ هذه الأمور مرتبة من مراتبه وحضرة من حضراته في مجالي الألوهيّة والربوبيّة والكونيّة والذهنيّة والخارجيّة وغير ذلك.

وهو تعالى من حيث اطلاقه الذاتيّ منزّه عنها، وكذلك عن الصفات كلّها، حتى الوجوب والقدم والعلم والقدرة التي هي أعظم صفاته وأجلّ أسمائه، كما أشرنا إليه.

٥٠ - لأنّه تعالى بنفسه ومن حيث اطلاقه الذاتيّ، لا يحتاج إلى صفة يوصف بها، فإنّه غنيّ عنها. بل نحن محتاجون إليه دلالةً على معرفته وارشاداً إلى سبيله، لأنّا لو لم نتصوّر الممكن، لم يحتج الله تعالى إلى اسم الواجب؛ ولو لم نتصوّر المحدث، لم يحتج الله تعالى إلى اسم القديم.

وكذلك العلم والقدرة، لأنّهما صادقان عليه باعتبار المعلوم والمقدور، أعني لو لم يكن المقدور، ما كان الله محتاجاً إلى اسم القادر؛ ولو لم يكن المعلوم ما كان محتاجاً إلى اسم العالم؛ وهلم جرّاً إلى ما لا نهاية له من أسمائه وصفاته، لأنّ أسماءه وصفاته لا نهاية لها عند التحقيق، وكذلك مظاهره. وهذا البحث مفروغ منه عند المحقّقين الموحّدين وتابعيهم، وكذلك عند الأنبياء والأولياء عليهم السلام وكذلك عند بعض الحكماء.

٥١ - ويشهد بذلك، أيْ بأنّ جميع صفاته تعالى هي عين ذاته، وأنّه ليس لها وجود إلا في الاعتبار العقليّ، قول مولانا وإمامنا محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام[(١)]: **«هل سمّي عالماً وقادراً إلا أنّه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين؟ وكلّ ما ميّزتموه في أوهامكم في أدقّ معانيكم، فهو مخلوق مصنوع مثلكم، مردود مصروف إليكم، والباري تعالى واهب الحياة ومقدّر الموت. ولعلّ النمل الصغار يتوهم أنّ الله تعالى زبانيتين[(٢)]**

كما لها، فإنّها تتصوّر أنّ عدمهما نقصان لمن لا يكونان له. هكذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالى به: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[(٣)].

ذكر هذا النقل المولى الأعظم نصير الحقّ والملّة والدين الطوسي - رحمة الله عليه - في: «رسالة العلم» جواباً لبعض الفضلاء[(٤)].

٥٢ - وذكر أيضاً المولى الأعظم كمال الدين ميثم البحراني - رحمة الله عليه - في شرحه الكبير لنهج البلاغة، في أوّل خطبة منه: «وغرضهم وغرضنا أنّ اطلاق الصفات على الله تعالى ليس للتحقيق والتعيين، بل للتعليم والتفهيم، أو للتنبيه والتعظيم، أو للعلميّة والدلالة عليه، أو لوصفه تعالى بالطرف الأشرف من طرفيْ النقيض: كالعلم والجهل، والعجز والقدرة، والموت والحياة، والوجود والعدم، كما ذكر خواجه نصير الدين الطوسي أيضاً في: «رسالة العلم» في موضعين، الأوّل في: مسألة الإرادة وهو قوله:

٥٣ - «لما كان دأب العقلاء أو يصفوا باريهم بما هو أشرف طرفيْ النقيض، وحسبوا أنّ كلّ ما يوجد بإرادة يكون أشرف ممّا يصدر عنه من غير إرادة، وصفوه

---

(١) قول.. السلام: «ونعم ما قال عالم من أهل بيت النبوة، رسالة العلم للعلامة الطوسي، مخطوط راغب باشا، رقم ١٤٦١/٢٦٦ ألف، آخر الصفحة.

(٢) زبانيتين: قرنا النملة أو العقرب.

(٣) سبحان.. يصفون: «فيما أحسب وإليه المفزع» رسالة العلم للطوسي، مخطوط راغب باشا، رقم ١٤٦١/٢٦٦ ب.

(٤) هو الشيخ كمال الدين هيثم البحراني وسؤال الشيخ البحراني وجواب العلامة الطوسي محفوظان في مجموع راغب باشا، رقم ١٤٦١/ ٢٥٥ ب - ٢٦٨ ألف.

تعالى: بالإرادة؛ وهي أخصّ من العلم ومرتّبة عليه، لأنّ كلّ ما لا يُعلم لا يمكن أن يُراد، وقد يُعلم ما لا يراد».

٥٤ - والموضع الثاني في مسألة الحياة، وهو قوله: «المستند في اثبات الحياة هو الذي ذكرناه في باب الإرادة، وهو أنّ العقلاء قصدوا وصفه تعالى بالطرف الأشرف من طرفيْ النقيض. ولمّا وصفوه: بالعلم والقدرة، ووجدوا كلّ من لا حياة له ممتنع الاتّصاف بهما، وصفوه: بالحياة، لا سيما وهي: أشرف من الموت عندهم»[1]. وذكر العلامة الطوسي بعد ذلك كلّه النقل المذكور فيما تقدم عن الإمام عليه السلام إلى آخره.

٥٥ - ولا شكّ أنّ هذا نظر دقيق ومعنى لطيف، ولكن في التحقيق ليس هذا كلّه إلا من خوف الكثرة الفادحة في اطلاق الوجود ووحدته، والاحتراز من نسبة شيء لا يليق بحضرته.

ولذلك ذهب الأشاعرة إلى أنّ صفاته تعالى زائدة على ذاته، وكذلك وجوده تعالى.

والمعتزلة ذهبت إلى أنها نفس ذاته في الخارج وزائدة عليها في العقل.

وذهبت الإماميّة: إلى أنّها نفس ذاته في الخارج والعقل. وذهب البعض الآخر وهم: الماتريدية والأشاعرة المتأخّرون إلى أنّها لا هي غيره تعالى، ولا هي عينه، وغيره ذلك من وجوه الاختلاف.

٥٦ - والحقّ أنّه موضع خوف يعني خطر ومحلّ احتراز خصوصاً بالنسبة إلى المحجوبين عن الحقّ، المبعدين عن جنابه. وبالحقيقة ما زلّ قَدَم الحكماء المعظّمين من المتقدّمين والمتأخّرين، ولا العلماء الإسلاميّين، إلا في هذا الموضع، أعني: موضع الفرق بين الذات والصفات، والاطلاق والتقييد، والوحدة والكثرة، والماهيّة والوجود، وغير ذلك من الاعتبارات. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا

---

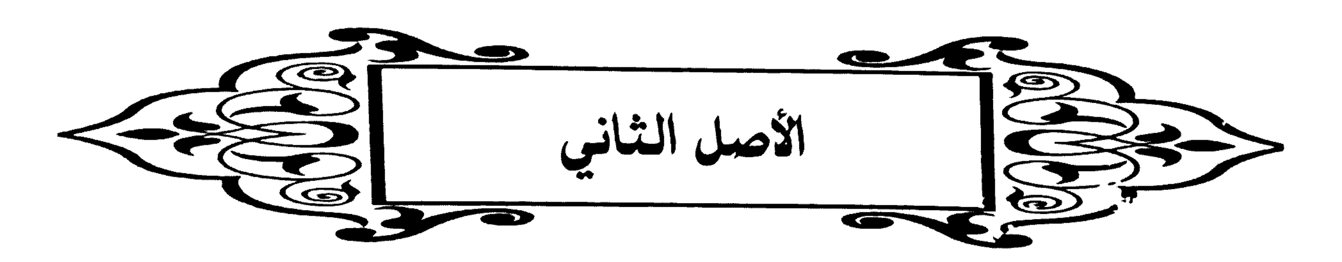
(١) الموت عندهم: الذي هو ضدها (مخطوط راغب المتقم) عندهم: رسالة العلم للطوسي مخطوط راغب باشا ٢٦٦/١٤٦١، إلى ما قبل آخر الصفحة.

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[١]. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[٢] ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٣].

٥٧ - وإذ فرغنا من بحث الاطلاق والبداهة في قضية الوجود بقدر هذا المقام، فلنشرع في بحث الوجوب والوحدة، بعون الله وحسن توفيقه. وهو ما يلي هذا.



(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٩.



الأصل الثاني

في بحث الوجود ووجوبه ووحدته

٥٨ - اعلمْ أنّ هذا الأصل مشتمل على بحث الوجود ووجوبه ووحدته على سبيل الخطاب، مخروجاً بالبرهان.

٥٩ - والحقّ أنّه إذا ثبت اطلاق الوجود وبداهته على الوجه المذكور سابقاً، فلسنا محتاجين إليه في هذا الموطن لاستغنائنا عنه فيما تقدّم، أيْ نحن في الحقيقة في غنية عن بحث الوجوب والوحدة في قضية الوجود، لأنّه من اطلاقه وبداهته ثبت وجوبه ووحدته الزاماً وتضمّناً، بل تطبيقاً، لأنّه إذا تقرّر أنّه لا واسطة بين الوجود والعدم، وتقرّر أنّه أيْ الوجود المطلق نقيض العدم المطلق، وتقرّر أنّ العدم مفهوم واحد، فقد تقرّر ضرورةً أنّ الوجود واحد.

ومن جهة أخرى إذا تقرّر أنّ الوجود، من حيث هو، ليس بقابل للعدم لذاته، ثبت أنّه واجب الوجود لذاته. لكن رعاية للترتيب المذكور والشرط المعلوم في الفهرس، شرعنا فيه. أعاننا الله بفضله وكرمه.

٦٠ - فنقول: الوجود، من حيث هو وجود، ليس بقابل للعدم لذاته، وكلّ ما ليس بقابل للعدم لذاته فهو واجب الوجود لذاته، فيجب أن يكون الوجود واجباً لذاته.

أمّا بيان الدعوى الأولى على سبيل الخطاب - وهو قولنا: الوجود، من حيث هو وجود، ليس بقابل للعدم لذاته - فلأنّه قد تقرّر في تعريف الواجب، عند الخصم، أنّه هو الذي يجب له الوجود لذاته ويمتنع عليه العدم لذاته. والوجود كذلك، فيكون واجب الوجود لذاته ولا يكون قابلاً للعدم لذاته.

وأمّا بيان الدعوى الثانية - وهو قولنا: أنّ كل ما ليس بقابل للعدم لذاته فهو واجب الوجود لذاته - فبحكم التعريف أيضاً بأنّ كلّ ما ليس بقابل للعدم لذاته فهو

واجب الوجود لذاته. فثبت حقيقةً أنّ الوجود واجب لذاته، وممتنع العدم لذاته. وهذا هو المطلوب.

٦١ - **أمّا بيان الصغرى**: على سبيل البرهان فلأنّه لو كان الوجود قابلاً للعدم للزم اتّصاف الشيء بنقيضه، واتّصاف الشيء بنقيضه محال، فمحال أن يكون الوجود قابلاً للعدم. وإنْ قيل: إنّ اتصاف الشيء بنقيضه يكون محالاً على تقدير أن يكون القابل مع المقبول شرطاً فيه، فأمّا إذا لم يكن الشرط موجوداً فلم يكن المشروط موجوداً، فلا يلزم المحال، لأنّه يجوز أن يكون العدم مزيلاً للوجود على سبيل الطريان، لا على سبيل المعيّة، كما في سائر الموجودات، - أُجيب عنه بأنّ العدم ليس بشيء في الخارج حتّى يكون له الطريان على الوجود، وفي الامكان في هذه الحالة تصوّره؛ وإنْ أمكن هذا التصوّر ف) لا يكون (ذلك) إلا بالنسبة إلى وجود الممكن وعدمه الخاصّ فحسب؛ وليس هناك طريان أيضاً عند التحقيق، لأنّه ازالة وجود الممكن عن ماهيّته عبارة عن عدمه مجازاً، وإلا لا يمكن ازالة وجود شيء عن شيء أصلاً، لأنّه كلّ ما وجد في الخارج صار واجباً بالغير، ما دام الغير باقياً.

وهذا الغير، الذي هو الحقّ تعالى، باقٍ دائماً؛ فتكون الموجودات باقية دائمة. ومع ذلك، ليس للوجود ماهيّة حتّى يزول عنها بواسطة العدم وطريان عليه، لأنّه لو كان للوجود ماهيّة للزم منها محالات كثيرة، أقلها الدّور والتسلسل؛ والدّور والتسلسل باطلان بالاتّفاق، فلا يكون للوجود ماهيّة غيره أصلاً.

٦٢ - فالوجود المطلق لا يمكن اعدامه على سبيل الطريان، وإذا لم يكن اعدامه على سبيل الطريان فبطريق المعيّة أولى أيْ عدم امكان اعدامه.

وذلك لاقتضاء المفاسد المعلومة: من اتّصاف الشيء بنقيضه، وغير ذلك من المحالات. ويلزم منه أيضاً انقلابُ الحقائق، أيْ انقلاب حقيقة الوجود بحقيقة العدم؛ وانقلاب الحقائق محال بالاتّفاق أيضاً، فمحال أن يكون الوجود قابلاً للعدم.

ومعلوم أيضاً أنّ اعدام الشيء الموجود مطلقاً محال، كما أنّ ايجاد الشيء المعدوم مطلقاً محال. وإذا كان كذلك، فيكون اعدام الموجود المطلق محالاً، فيكون واجباً بالذات. وهذا هو المطلوب.

٦٣ - **وأمّا بيان الكبرى:** فمسلّم عند الخصم، غير محتاج إلى البيان والبرهان، كما تقرّر بأنّ كلّ من ليس بقابل للعدم لذاته، فهو واجب.

٦٤ - دليل آخر: لو كان الوجود المطلق قابلاً للعدم، فقابليّته لا تخلو من وجوه ثلاثة: أمّا أن يكون قابلاً له من ذاته، أو من غيره الذي هو الممكن عند البعض، أو من ثالث غيرهما، أعني لا من ذاته ولا من غيره.

فأمّا الأمر الثالث، فمعلوم أنّه ليس بموجود، لأنّ الشيء أمّا أن يكون موجوداً أو معدوماً كما تقرّر، إذ لا واسطة بينهما.

فإن كان الشيء موجوداً، ووجوده من ذاته، فهو واجب؛ وإن كان وجوده من غيره، فهو ممكن. فلا يكون هناك اذن أمر ثالث.

فالحكم بالأمر الثالث يكون مستحيلاً. وأمّا قابليّة الوجود المطلق للعدم من الغير، فقد تقرّر أيضاً أنّ غير الوجود ليس بموجود حقيقة حتّى يعدمه أي يعدم الوجود، لأنّ غير الوجود المطلق عدمٌ صرف ولا شيء محض.

٦٥ - وإن قيل: الممكن الوجود موجودٌ، وهو غيره أي كون الممكن موجوداً هو غير كونه ممكناً، - أجيب عنه بأنّه لا يمكن اعدام الوجود المطلق بالممكن، لأنّه الممكن لا يقدر على اعدام الوجود الواجب لذاته، الذي وجوده منه، لأنّ الممكن قسم من أقسام الوجود المطلق، وقائم به من حيث إضافته إليه، فكيف يقدر على اعدامه؟ وهذا ظاهر.

٦٦ - وأمّا قابليّة الوجود المطلق للعدم من ذاته وهو الوجه الأول، أو الاحتمال الأول، من الوجوه الثلاثة المتقدّمة فيلزم أن يكون الوجود معدوماً دائماً، لأنّ الاقتضاء الذاتيّ لا ينفكّ عن الذات، وهذا محال؛ فمحال أن يكون الوجود قابلاً للعدم من ذاته. وإذا لم يكن الوجود المطلق قابلاً للعدم لا من غيره ولا من ذاته ولا من أمر ثالث غيرها، فيكون واجباً بالضرورة. وإذن فيكون الوجود المطلق واجباً لذاته بالضرورة، وممتنع العدم لذاته كذلك. هذا هو المطلوب من هذا البحث كلّه.

٦٧ - وإذا عرفتَ هذا بهذا الوجه، فلنشرع فيه بوجوه أُخر من قول أصحابنا[1]،

---

(١) قول أصحابنا: القائل هو داود القيصري والنص برمته ثابت في «مقدمته على شرح النصوص» انظر مخطوط آيا صوفيا ١٨٩٨/ ٣٢ ألف - ٣٤ ألف

وهو قولهم: «الوجود واجب لذاته، إذ لو كان ممكناً لكان له علّة موجودة، فيلزم تقدّم الشيء على نفسه. لا يقال: الممكن في وجوده يحتاج إلى علّة موجودة، وهو أي الممكن غير موجود عندنا لكونه اعتبارياً، لأنّا نقول: لا نسلّم أنّ الاعتباريّ لا يحتاج إلى علّة، فإنّه لا يتحقّق في العقل إلا باعتبار المعتبر؛ فهو أيضاً أيْ اعتبار المعتبر علّة. وأيضاً، المعتبر لا يتحقّق في الخارج إلا بالوجود، إذ عند زوال الوجود عنه مطلقاً لا يكون إلا عدماً محضاً. فلو كان الوجود أمراً اعتبارياً، لكان جميع ما في الوجود أيضاً اعتبارياً، إذ الماهيّات منفكّةً عن الوجود، هي أُمور اعتباريّة: وهذا ظاهر البطلان.

٦٨ - «وتعقّل الشيء نفسه لا يخرجه عن كونه أمراً حقيقيّاً، ولأنّ طبيعة الوجود، من حيث هي هي، حاصلة للوجود الخاصّ الواجب، وهو في الخارج، فيلزم أن تكون تلك الطبيعة موجودة فيه، لكن لا بوجود زائد عليها. وحيئنذٍ لو كانت تلك الطبيعة ممكنة، لكانت محتاجة إلى علّة ضرورةً: وهذا خُلف.

٦٩ - «دليل آخر: الوجود ليس بجوهر ولا عرض؛ وكلّ ما هو ممكن فهو أيضاً أمّا جوهر أو عرض؛ فينتج أنّ الوجود ليس بممكن، فتعيّن أن يكون واجباً. وأيضاً لا حقيقة له زائدة على نفسه، وإلا يكون الوجود كباقي الموجودات في تحقّقها بالوجود، ويتسلسل الأمر؛ وكلّ ما هو كذلك فهو واجب الوجود بذاته، لاستحالة انفكاك الشيء عن نفسه.

٧٠ - «فإن قلت: الوجوب نسبة تعرض للشيء نظراً إلى الوجود الخارجيّ؛ فما لا وجود له في الخارج زائداً على نفسه، لا يكون متّصفاً بالوجوب، - قلت: الوجوب عارض للشيء الذي هو غير الوجود، باعتبار وجوده؛ أمّا إذا كان ذلك الشيء عين الوجود، فوجوبه بالنظر إلى ذاته لا غير، لأنّ الوجوب يستدعي التغاير مطلقاً لا بالحقيقة، كما أنّ العلم يقتضي التغاير بين العلم والمعلوم، تارةً بالاعتبار وهو عند تصوّر الشيء نفسه، وتارةً بالحقيقة وهو عند تصوّر غيره.

٧١ - «وأيضاً، كلّ ما هو غير الوجود يحتاج إليه أي إلى الوجود من حيث وجوده؛ وتحقّقه أي تحقّق الوجود في الوجود من حيث هو وجود، لا يحتاج إلى شيء، فهو غنيّ في وجوده عن غيره؛ وكلّ ما هو غنيّ في وجوده عن غيره فهو واجب؛ فالوجود واجب بذاته.

٧٢ - «فإن قلت: الوجود، من حيث هو هو، كليّ طبيعيّ؛ وكلّ ما هو كليّ طبيعيّ لا يوجد إلا في ضمن فرد من أفراده؛ فلا يكون الوجود، من حيث هو، واجباً لاحتياجه في تحقّقه إلى ما هو فرد منه، - قلت: إن أردتم بالكبرى البطائع الممكنة الموجود، فمسلّم؛ ولكن هذا لا ينتج المقصود، لأنّ الممكنات من شأنها أن توجد وتعدم، وطبيعة الوجود لا تقبل ذلك.

وإن أردتم ما هو أعمّ منه، فالكبرى ممنوعة؛ بل لا نسلّم أنّ الكليّ الطبيعيّ، في تحقّقه، متوقّف على وجود ما يعرض عليه، ممكناً كان أو واجباً، إذ لو كان كذلك للزم الدور، سواء أكان العارض منوّعاً أو مشخّصاً، لأنّ العارض لا يتحقّق إلا بمعروضه؛ فلو توقّف معروضة عليه، في تحقّقه، للزم الدور.

٧٣ - «والحقّ أنّ كلّ كليّ طبيعيّ، في ظهور مشخّصاته في عالم الشهادة، يحتاج إلى تعيّنات مشخّصة له، فائضة عليه من موجده؛ وفي ظهوره في عالم المعاني منوّعاً، يحتاج الكليّ الطبيعيّ إلى تعيّنات كليّة منوّعة، لا في تحقّقه في نفسه.

٧٤ - «وأيضاً، كلّ ما تنوّع أو تشخّص هو متأخّر عن الطبيعة الجنسيّة والنوعيّة بالذات. والمتأخّر لا يكون علّة لتحقّق المتقدّم، بل الأمر بالعكس أولى. والجاعل للطبيعة طبيعةً، هو أولى منها بأن يجعل تلك الطبيعة نوعاً أو شخصاً، وذلك بضمّ ما يعرض عليها من المنوِّع والمشخِّص. وجميع التعيّنات الوجوديّة راجعة إلى غير الوجود. فلا يلزم احتياج حقيقة، في كونها، إلى غيرها. وفي الحقيقة ليس في الوجود غير الوجود.

٧٥ - «لا يقال: إنّ الوجود الممكن قابل للعدم - لأنّا نقول: وجود الممكن عبارة عن حصوله في الخارج وظهوره فيه؛ وهو أيْ هذا الظهور الخارجيّ للممكن من أعراض الوجود الحقيقيّ الراجع إليه بوجهٍ ما، عند اسقاط الإضافة، لا عينه. وفي الحقيقة، الممكن أيضاً لا ينعدم، بل يختفي ويدخل في الباطن الذي ظهر منه، والمحجوب يزعم أنّه ينعدم. وتوهم انعدام وجود الممكن إنّما نشأ من فرض الأفراد للوجود كالأفراد الخارجة التي للإنسان مثلاً. وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الوجود في مظاهره الخارجيّة. فإنّ الوجود حقيقة واحدة لا تكثّر فيها، وأفرادها موجودة باعتبار إضافتها إلى الماهيّات، والإضافيّ أمر اعتباريّ؛ ليس لها أفراد موجودة

لتنعدم وتزول، بل الزائل إضافتها إليها أي إضافة ماهيّات الممكنات إلى الحقيقة الوجوديّة الواحدة. فلا يلزم من زوالها انعدام الوجودنفسه وزواله، ليلزم انقلاب حقيقة الوجود بحقيقة العدم، إذ زوال الوجود بالأصالة هو العدم ضرورةً، وبطلانه ظاهر»[١].

٧٦ - ولأهل الله وخاصّته أيضاً قاعدة مطّردة في بحث الوجوب والامكان والامتناع نذكرها ههنا توضيحاً لهذا البحث. وبعدها، نشرع في بحث الوحدة وما يتعلّق بها، إن شاء الله تعالى. وهي قولهم:

٧٧ - «الوجوب والامكان والامتناع، من حيث أنّها نسب عقليّة صرفة، لا تحقّق لها في الأعيان تحقّق الأعراض في معروضاتها الخارجيّة، ولا وجود لها إلا في الأذهان، لأنّها أحوال تابعة للذوات العينيّة الثابتة في الحضرة العلميّة، أمّا بالنظر إلى وجوداتها الخارجيّة: كالامكان للممكنات والامتناع للممتنعات، وأمّا بالنظر إلى عين تلك الذات: كالوجوب للوجود من حيث هو هو، فإنّه واجب بذاته وليس وجوبه بالنظر إلى الوجود الزائد الخارجيّ.

٧٨ - «**فالوجوب**: هو ضرورة اقتضاء الذات عينها وتحقّقها في الخارج.

والامتناع: هو ضرورة اقتضاء الذات عَدَمَ الوجود الخارجيّ.

والامكان: هو عدم اقتضاء الذات الوجود والعدم على السواء. فالامكان والامتناع هما صفتان سلبيّتان من حيث عدم اقتضاء الموصوف بهما الوجود الخارجيّ. والوجوب هو صفة ثوبتيّة.

٧٩ - «لا يقال: إنّ الممتنعات لا ذات لها، - لأنّا بيّنا أنّها قسمان: قسم فرضه العقل ولا ذات له؛ وقسم أُمورٌ ثابتة، بل هي أسماء إلّهيّة. وقد تقرَّر في بيان: «الأعيان» أنّ الوجوب يحيط بجميع الموجودات الخارجيّة والعلميّة، لأنّها ما لم يجب وجودها لم توجد لا في الخارج ولا في العقل. فانقسم الوجوب إلى الوجوب بالذات والوجوب بالغير.

---

(١) ظاهر: مقدمات شرح الفصوص لداود القيصري، مخطوط آيا صوفيا ١٨٩٨/ ٣٢ ألف - ٣٤ ألف.

٨٠ - «واعلم أنّ هذا الانقسام إلى الوجوب بالذات والوجوب بالغير إنّما هو من حيث الامتياز بالربوبيّة والعبوديّة. وأمّا من حيث الوحدة الصرفة فلا وجوب بالغير، بل بالذات فقط. وكلّ ما هو واجب بالغير هو ممكن بالذات. فقد أحاطها الامكانُ أيضاً أعني أحاط الامكانُ الذاتَ.

وسبب اتّصافها: أي الذات بالامكان: هو الامتياز بين الذات الواجبة التي هي مقتضى الربوبيّة، والذات الممكنة التي هي مقتضى العبوديّة. ولولاه لكان الوجود على وجوبه الذاتيّ، كما كان في الأزل». هذا آخره. والحمد لله وحده.

٨١ - وإذا ثبت بهذه الدلائل والوجوه أنّ الوجود، من حيث هو وجود، واجب لذاته وممتنع العدم لذاته، فلنشرع في بحث الوحدة وبيانها، بعون الله وحسن توفيقه وهو ما يلي هذا:

٨٢ - اعلم أنّ الوجود من حيث هو وجود. أعني الوجود المطلق، وجود واحد حقيقيّ لا كثرة فيه بوجهٍ من الوجوه. أي أنّه لا يجوز أن يكون الوجود أكثر من واحد، لأنّه لو كان كذلك أي لو كان الوجود أكثر من واحد - للزم دخولها أعني الكثرة تحت المطلق، أي كان كلّ واحد منها يعني من أفرادها مضافاً إلى المطلق بدخوله تحته، لتخصيص كلّ واحد منها بقيد من القيود.

وإذا كان كذلك لم يتحقّق اطلاقه - والتقدير أنّه مطلق - وهذا محال. فمحال اذن أن يكون الوجود، من حيث هو وجود، أكثر من واحد.

٨٣ - وإن قيل: لم لا يجوز أن يكون هناك وجودان مطلقان، موجودان في الخارج، كلّ واحد منهما واجب لذاته، بعكس نقيضه الذي هو العدم المطلق؟ - أجيب: بأنّه لو كان كذلك، لكان كلّ واحد منهما متميّزاً عن الآخر بتميّزٍ ما، وإلا لا يمكن تصوّرهما، ولا الحكم بالاثنينيّة بينهما.

وإذا كان كذلك اشترك كلّ واحد منهما مع الآخر في صفة: الوجود والوجوب؛ فلزم تركيب كلّ واحد منهما من جزئيّ: التميز والاشتراك، فما كانا مطلقين - والفرض أنهما كذلك - وهذا محال. فمحال أن يكون الوجود أكثر من واحد. وهذا هو المطلوب.

٨٤ - وبوجه آخر: وهو أنّه قد تقرّر عند أهل التحقيق، أنّ بين الوجود والعدم

ليس (ثَمّتَ) واسطة أصلاً، لأنّ الشيء: أمّا أن يكون موجوداً أو معدوماً. وإذا لم يكن بينهما واسطة، فالوجود في الخارج بالحقيقة لا يكون إلا واحداً؛ كما أنّ نقيضه، الذي هو العدم، ليس إلا واحداً. وقد عرفتَ في غير هذا الموضع أنّه ليس فرق بين الوجود والعدم وبين الموجود والمعدوم، لأنّ كلّ من قال من هذه الطائفة: «المعدوم»، ما أراد به إلا «العدم»؛ وكلّ من قال: «الموجود»، ما أراد به إلا «الوجود». وهذا بديهيّ ظاهر.

وإذا كان كذلك، فلا يكون الوجود إلا واحداً لأنّه نقيض العدم، والعدم واحد، فيكون الوجود واحداً، كما مرّ مراراً.

٨٥ - وذكر بعض الفضلاء هذا بتعبير آخر أحسن منه، وهو قوله: «النفي أمر واحد لا تعدّد فيه، إذ العدمان لا تمايز بينهما، لأنّ التميّز عبارة عن ثبوت صفة لشيء ليست ثابتة للآخر؛ وثبوت الصفة يستدعي ثبوت الموصوف؛ والعدم ليس بثابت، فلا يكون متميّزاً، فلا يكون متعدّداً، فهو أمر واحد؛ وهو نقيض الوجود، فيجب أن يكون الوجود واحداً، لأنّه لو تعدّد لم تنحصر القسمة في قولنا: الشيء أمّا موجود أو معدوم».

٨٦ - وذكر بعض العلماء أيضاً هذا البحث بعينه بعبارة أُخرى وهي قوله: «حقيقة الواجب أمر واحد ثبوتيّ، لأنّه مدلول دليلٍ واحد، وهو امتناع العدم. فلو فرض فيه أكثر من ذات واحدة، لاشتركا في حقيقة الواجب وامتازا بأمر آخر، فيلزم تركيب كلّ واحد منهما ممّا به الاشتراك وممّا به الامتياز؛ وكلّ مركّب ممكن، كما عرفت، فلا يكونان واجبين. هذا خُلف. فحينئذٍ، لا يوجد من حقيقة الواجب الأوّل إلا ذات واحدة». وأمثال ذلك (أي الأقوال العلماء في هذا الميدان كثيرة).

٨٧ - والحقّ أنّه إذا ثبت أنّه تعالى واجب الوجود لذاته وممتنع العدم لذاته، وأنّه نقيض العدم المطلق، وليس في الخارج غيره، ما كنّا محتاجين في اثبات وحدته إلى زيادة بسط وكثرة مقال؛ وإلا فكلّ ما قيل في وحدة الواجب من دليل التمانع وغيره، يصدق حمله عليه. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

٨٨ - هذا آخر ما أردنا إيراده من بحث الوجوب والوحدة. وإذ فرغنا منه، فلنشرع في بحث الظهور والكثرة ونقطع يعني نختم هذه الرسالة عليه، إن شاء الله.



الأصل الثالث

في بحث الوجود وظهوره وكثرته

٨٩ - اعلمْ أنّ هذا الوجود أو الحقّ تعالى الذي ثبت اطلاقه وبداهته ووجوبه ووحدته، نقلاً وعقلاً وكشفاً - له ظهور وكثرة في صور المظاهر والمجالي، اعتباراً وحقيقةً، اجمالاً وتفصيلاً، وإن كان لا كثرة له، لا اعتباراً ولا حقيقةً، لا اجمالاً ولا تفصيلاً، لأنّه تعالى من حيث ذاته، منزّه عن جميع ذلك، مستغنٍ عمّا عداه وإن كان، من حيث صفاته وأسماؤه وكمالاته وخصوصيّاته، عين كلّ واحد منها، غير مستغن عنها. ونحن نبيّن هذا المعنى في وجوه ثلاثة: الأوّل والثاني من قولنا على الوجه الذي سنح لنا من جانب الحقّ المطلق - جلّ جلاله - الواحد منهما اجمالاً والآخر تفصيلاً؛ والثالث من قول بعض أصحابنا، وهو المولى الأعظم كمال الحقّ والملّة والدين عبد الرزّاق الكاشي - قدّس الله سرّه - تفصيلاً، ونقطع يعني نختم هذه الرسالة عليه، إن شاء الله.

الوجه الأول: من مباحث ظهور الوجود وكثرته اجمالاً

٩٠ - أمّا الوجه الأوّل فهو قولنا اجمالاً: اعلمْ أنّه تعالى عالم بذاته من حيث ذاته أزلاً وأبداً؛ فيكون - جلّ شأنه - عالماً بجميع كمالاته الذاتيّة أزلاً وأبداً. ومن جملة كمالاته تعالى احاطته بالمعلومات الغير المتناهية، الممكنة وغير الممكنة؛ وبأنّ بعض هذه المعلومات، الذي هو الممكن، طالب للوجود الخارجيّ بلسان الحال، وبعضهم غير طالب له، أعني الممتنع؛ وبأنّ ذاته تعالى بذاته قابلة للظهور بصور هذه المعلومات وحقائقها، فيجب ظهوره بصور هذه المعلومات وحقائقها على ما اقتضت ذاته وصارت قابلة لها.

٩١ - وقد بيّنتُ فيما تقدّم أنّ غيره تعالى ليس بموجود في الخارج أصلاً، بل هو عدم صرف ولا شيء محض. والعدم الصرف واللاشيء المحض ليس له قابليّة

الوجود ولا استعداد المظهريّة، فلا يصلح أن يكون مظهراً ولا موجوداً في الخارج. فيجب أن يكون الحقّ تعالى هو بنفسه ظاهراً ومظهراً بحكم اسميْ: «الظاهر والباطن»، أعني يكون تعالى ظاهراً من وجه، باطناً من وجه؛ أيْ يكون ظاهراً من حيث الذات والوجود، مظهراً من حيث الأسماء والصفات. وليس لغيره تعالى ذلك، مع أنّ «الغير» ما له وجود أصلاً، كما تقرّر. وهذا من غاية كماله - سبحانه - وعلوّ شأنه.

٩٢ - وإليه أشار العارفون في قولهم: «كلّ ظاهر في مظهر يغاير المظهر من وجه أو وجوه إلا الحقّ، فإنّ له أن يكون عين الظاهر وعين المظهر». وإليه أشار أيضاً الإمام عليه السلام في قوله: «**كلّ ظاهر غيره غير باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر**». وإليه أشار أيضاً: «**لا يجنّه البطون عن الظهور، ولا يقطعه الظهور عن البطون. قرب، فنأى. وعلا، فدنا. وظهر، فبطن. وبطن، فعلن. ودان ولم يدن**».

٩٣ - وإذا كان الحقّ كذلك، فيكون تعالى هو الظاهر والمظهر، ويكون واجباً وممكناً، وقديماً وحادثاً، ومطلقاً ومقيّداً، وأوّلاً وآخراً، وظاهراً وباطناً. أعني لا يكون الحقّ بهذا الاعتبار منزّهاً من جميع الوجوه، ولا مقيّداً من جميع الوجوه، بل يكون منزّهاً من وجه، وغير منزّه من وجه آخر. أعني أنّه تعالى منزّه من حيث الوجوب والقدم والاطلاق والبطون، غير منزّه من حيث الامكان والحدوث والتقييد والظهور. ويكون القرآن صادقاً في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وكذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾[2].

٩٤ - ويكون العارف أيضاً صادقاً في قوله: «ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالكلّ هو به وفيه ومنه وإليه» وإلى المرتبتين المذكورتين أي مرتبتيْ الاطلاق والتقييد أشار الشيخ الأعظم ابن العربي - قدس الله سرّه - في فصوصه نظماً وهو قوله:

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٣.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٥٣ - ٥٤.

فالكلّ مفتقر ما الكلّ مستغنى هذا هو الحقّ قد قلناه لا نكنى
فإن قال ذكرت غنيّاً لا افتقار له فقد علمت الذي من قولنا نعني
فالكلّ بالكلّ مربوط فليس له عنه انفصال - خذوا ما قلته عنّي

٩٥ - وكذلك عن الأوّل: أعني عن الغناء المطلق، أخبر الله بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وعن الثاني: أعني عن الافتقار المطلق أخبر الله بقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٢).

وكذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٣).

وكذلك: **«كنتُ كنزاً مخفياً فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق»**.

٩٦ - وعن هذا المقام قال بعض العارفين: «ليس بيني وبين ربّي فرق إلا أنّي تقدّمتُ بالعبوديّة» يعني: ليس فرق بين الحقّ والمظاهر إلا أنّه مقدّم عليها بالذات، وهي متأخّرة عنه بالاعتبار. وإلا هي هو، أو بالعكس. وقال بعضهم: «أنا أقلّ من ربيّ بشيئين» يعني بالفقر الذاتيّ والامكان الذاتيّ، اللذين هما من شرط القابليّة، كما أنّ الغنيّ الذاتيّ والوجوب الذاتيّ هما: من شرط الفاعليّة.

٩٧ - ويشهد بمجموع ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٤) لأنّه أيضاً بيان التنزيه في عين التشبيه(٥)، وبيان التشبيه في عين التنزيه(٦)؛ أو بيان الغنى في عين الفقر، وبيان الفقر في عين الغنى أو بيان الاطلاق

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.
(٢) سورة الحديد، الآية: ١٧.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦، وكذلك: أي في الحديث القدسي.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٩.
(٥) لأنه.. التشبيه: بيان ذلك قوله: «ليس كمثله شيء» الذي هو نص في التنويه، أدرج فيه «الكاف» التي هي مفيدة للتشبيه والتمثيل.
(٦) وبيان... التنزيه: بيان ذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] الذي هو نص في التشبيه، أدرج فيه «هو» ضمير الفصل، الدال على الذات المنزهة والمفيد للحصر.

في عين التقييد، وبيان التقييد في عين الاطلاق، الذي ليس كمال معرفته تعالى إلا فيهما، أي في الجمع بين المرتبتين كما تقدّم مراراً.

٩٨ - وإليه أي إلى مقام الجمع بين التنزيه والتشبيه أشار العارفون نظماً ونثراً. أمّا النثر فقولهم: «إيّاك والجمع والتفرقة! فإن الأوّل يورث الزندقة والالحاد، والثاني يورث تعطيل الفاعل المطلق. وعليك بهما! فإنّ جامعهما موحّد حقيقيّ، وهو المسمّى: بجميع الجمع وجامع الجميع. وله المرتبة العليا والغاية القصوى».

وأما النظم فقولهم أيضاً:

فإن قلتَ بالتنزيه كنتَ مقيّداً ... وإن قلت بالتشبيه كنت محدّداً

وإن قلت بالأمرين كنت مسدّداً ... وكنت إماماً في المعارف سيّداً

فمن قال بالاشفاع كان مشركاً ... ومن قال بالأفراد كان موحّداً

فإيّاك والتشبيه إن كنت ثانياً ... وإيّاك والتنزيه إن كنت مفرداً

فما أنت هو بل أنت هو وتراه في ... عين الأمر مسرّحاً ومقيّداً[(١)]

٩٩ - فنرجع ونقول: وسبب ذلك كلّه أنّ الألوهيّة والربوبيّة لا يمكن ولا يتصوّر إلا بوجود المألوه والمربوب. وإليه أشاروا أيضاً بقولهم: «إنّ للربوبيّة سرّاً، لو ظهر لبطلت الربوبيّة»[(٢)].

ومعناه: أنّ الربوبيّة موقوفة على المربوب، الذي هو كناية عن المظاهر الإلّهيّة مطلقاً.

أعني أنّ الفاعليّة موقوفة على القابليّة، لأنّ الفاعل ما لم يكن له قابل لم يكن له أيّ أثر ولا فعل. فلو ظهر هذا السرّ، أيْ لو بطل وارتفع، لبطلت الربوبيّة. وابطال المظاهر وازالتها عن الوجود مستحيلٌ ممتنع، لأنّها شؤون ذاتيّة وخصوصيّات إلّهيّة.

---

(١) ومقيّداً: انظر فصوص الحكم للشيخ الحاتمي، الفص الثالث، فص حكمة سبوحية في كلمة نوحية.

(٢) القائل هو سهل بن عبد الله التستري، انظر الفتوحات ١/٤٣، ٢/٩٣، ٤٦٢، ٤٧٩، ٥٤٣، ٥٥١، وفصوص الحكم، الفص رقم ٧، والنص في كتاب «الاملاء في اشكالات الأحياء» برواية مختلفة (ص١٩ ط. القاهرة بدون تاريخ).

فابطال الربوبيّة وازالتها يكون مستحيلاً ممتنعاً. فيكون كلّ واحد منهما، أيْ من الربّ والمربوب، والظاهر والمظاهر، مربوطاً بالآخر.

وهذا هو المطلوب من هذا البحث، وقد مرّ ذكره. ولا شكّ إنّ هذا نظر شريف وسرّ لطيف.

١٠٠ - وكان الشيخ الأعظم ابن العربي - قدّس سرّه - قد أشار إلى هذا المعنى في فصوصه أيضاً بقوله:

«فلولاه ولولانا لما كان الذي كانا
فأنا أعبد حقّاً وإنّ الله مولانا
وإنّا عينه فاعلمْ إذا ما قلت إنساناً
فلا تحجب بإنسان فقد أعطاك برهانا
فكن حقّاً وكن خلقاً تكن بالله رحمانا
وغذّ خلقه منه تكن روْحاً وريحانا
فأعطيناه ما يبدو به فينا فأعطانا
فصار الأمر مقسوماً بإيّاه وإيّانا»

١٠١ - وبالحقيقة عن هذا السرّ، أخبر الحقّ بنفسه في قوله بالحديث القدسي المذكور: «**كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق**» لأنّ معناه هو أنّه يقول: كنت ذاتاً أو وجوداً باطناً مجرّداً مخفيّاً، بلا مألوه ولا مربوب، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام «**ربّ إذ لا مربوب، وخالق إذ لا مخلوق، وقادر إذ لا مقدور**». «**فأحببت أن أُعرف**» أي أردت أن أكون ظاهراً، بمقتضى ذاتي وكمالاتي، في مظاهر أسمائي وصفاتي، حتّى لا يكون كمال في الوجود إلا لي. «**فخلقت الخلق**» أي ظهرت بصورهم وتعيّناتهم، بل بأعيانهم وماهيّاتهم، وليس في الوجود إلا أنا وأسمائي وصفاتي وكمالاتي.

وليس من هذا في ذاتي نقص ولا في وحدتي قدح، بل هذا عين كمالي ومحض عظمتي وجلالي، كما أخبرتكم عنه وهو قولي: «**العظمة إزاري والكبرياء ردائي**» لأنّ

«الإزار» و «الرداء» كناية عن مظاهري الروحانيّة والجسمانيّة في مدارج أسمائي وصفاتي، كما أشرتُ إليه أيضاً في كتابي: بـ«المشكاة» و «المصباح» و «الزجاجة».

وأشار إليه نبييّ عليه السلام بالحجاب في قوله: «**إنّ لله تعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

وأشار إليه وليّي عليه السلام بالهياكل في قوله: «**الحقيقة نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره**». وكذلك كلّ ما ورد في هذا الباب من الآيات والأخبار.

١٠٢ - وعن هذا أخبر بعض عبادي، موافقاً لقولي وقول نبييّ ووليّي:

جمالك في كلّ الحقائق سائر وليس له إلا جلاله ساتر

تجلّيتَ للأكوان خلف ستورها فنمّت بما ضمّت عليه الستائر

لأنّ «الستائر» هي المظاهر. - وكذلك في قولهم:

ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمرا

لكن بطنتَ بما أظهرتَ محتجباً فكيف يعرف من بالعرف مستتراً؟

وكذلك في قولهم:

مظاهر الحقّ لا تعدّ والحقّ فينا فلا تحدّوا

إنْ أُبطن العبد كان ربّ أو أُظهر الربّ كان عبد

وأمثال ذلك كثيرة في هذا الباب.

١٠٣ - والغرض أنّه ليس في الوجود إلا هو ومظاهره المسمّاة: بالخلق والعالم وغير ذلك، وإن كان له في كلّ مظهر حكم دون غيره بحسب الأسماء والصفات والكمالات، كما تقرّر في الأصل المستخرجة منه هذه الرسالة، وفي الأصلين المذكورين فيها أيضاً. وفيه قيل:

وما حكمه في موطن دون موطن ولكنّه بالحقّ في الخلق سافر

١٠٤ - ولا ينبغي أيضاً أن يتصوّر بينه أي بين الحقّ وبين مظاهره في الخلق من هذا الكلام تقدّمٌ زمانيّ ولا تأخر، ولا تقدّم آخر من التقدّمات العقليّة، لأنّه ليس بينه وبين مظاهره إلا التقدّم الذاتيّ فقط، وما زال كذلك ولا يزول.

أعني: كان الحقّ وما كان معه شيء غيره، ويكون ولا يكون معه شيء غيره، كما أخبر عنه العارف به وبوجوده على ما ينبغي بقوله: «**كان الله ولم يكن معه شيء**».

وأخبر عارف آخر: «وهو الآن كما كان»، لأنّ المظاهر ليست بالحقيقة غيره حتّى يصدق عليها أنّها منه، لأنّها ظهرت عن تنزّله تعالى في مراتب أسمائه وصفاته وكمالاته وخصوصيّاته. وإلا، فهي بنفسها ليست بشيء.

١٠٥ - فحينئذٍ لا يكون في الوجود حقيقةً إلا هو تعالى وأسماؤه وصفاته وكمالاته وخصوصيّاته. ولا يكون المظاهر والخلق والعالم إلا أمراً اعتباريّاً ووجوداً مجازيّاً، في محلّ الفناء وصدد الهلاك، أزلاً وأبداً. ولهذا قال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(١) أي كلّ شيء مضاف إليه من الموجودات الممكنة على سبيل المجاز «**هالكٌ**» أزلاً وأبداً، «**إلا وجهه**» الذي هو عبارة عن ذاته ووجوده، فإنّه باقٍ أزلاً وأبداً، كما قيل: «الباقي باقٍ أزلاً وأبداً، كما قيل: «الباقي باقٍ في الأزل والفاني فانٍ لم يزل»(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾(٣)

١٠٦ - لأنّك إذا نظرت إلى حقيقة الوجود التي يقع عليها ضمير: «الهاء» في الآية المذكورة المتقدّمة وجدت أنّ كلّ موجود بالنسبة إليها فانٍ بنفسه أزلاً وأبداً، كوجود الأعداد بالنسبة إلى الواحد مثلاً، أو الاعراض إلى الجوهر، أو الصورة إلى الهيولى. وعن هذا السرّ قال الشيخ الأعظم - قدّس سرّه: «إنّ العالم غيب لم يظهر قطّ. والحقّ تعالى هو الظاهر، ما غاب قطّ. والناس في هذه المسألة على عكس الصواب، فيقولون: إنّ العالم ظاهر والحقّ تعالى غيب. فهم، بهذا الاعتبار، من مقتضى هذا الشرك، كلّهم عبيد للسوى. وقد عافى الله بعض عبيده عن هذا الداء. والحمد لله».

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) الباقي.. يزل: أصل الفكرة لابن العريف، كتاب محاسن المجالس، نشر آسين پلاسيوس ص٩٧، وانظر الفتوحات ١/١٠٣؛ ٣/٢٩٥ ومقدمة كتاب الفناء في المشاهدة لابن العربي.

(٣) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.

١٠٧ - لأنّ الاعداد، مع كثرتها وعدم تناهيها بحسب الجزئيّات، ليس الظاهر فيها بالحقيقة إلا الواحد التكرّر بحسب مراتبه، وإن كان بحسب الاعتبار ليس الظاهر إلا الاعداد. وكذلك الاعراض والجوهر، والصور والهيولى، والأمواج والبحور أيضاً بالنسبة إلى كلّ واحد منها. وفيه قيل[1]:

البحر بحر على ما كان من قدم   إنّ الحوادث أمواج وأنهار
لا يحجبنّك أشكال يشاكلها   عمّن تشكّل فيها فهي أستار

١٠٨ - ولا أشكّ أنّه ما يخفى، مع هذا المثال، على أحد حقيقة وجود الموجودات وكيفيّتها، أعني نسبتها إلى الوجود المطلق الحقّ تعالى ونسبته إليها، لأنّ مثال البحر والأمواج مثالٌ معقول في صورة محسوسة، لا يشكّ فيها أحد. وعن هذا النظر ورد في اصطلاحاتهم في تعريف: «العالَم» وتحقّقه، كما قالوا: العالم هو الظلّ الثاني، وليس هو إلا وجود الحقّ الظاهر بصور الممكنات كلّها.

فلظهوره تعالى بتعيّناتها أي صور الممكنات سُمّي باسم: «السوي» و «الغير»، باعتبار إضافته إلى الممكنات، إذ لا وجود للممكن إلا بمجرّد هذه النسبة، وإلا فالوجود هو عين الحقّ، والممكنات ثابتة على عدمها في علم الحقّ، وهي شؤونه الذاتيّة.

فالعالم صورة الحقّ والحقّ هو هويّة العالم وروحه.

وهذه التعيّنات، في الوجود الواحد، أحكام اسمه تعالى: «الظاهر» الذي هو مجلى الاسم: «الباطن».

١٠٩ - وبالجملة، لا زال الوجود الحقّ ظاهراً باطناً، أوّلاً آخراً، واحداً كثيراً، خالقاً مخلوقاً، عبداً ربّاً. وليس يمنع ظاهريّته باطنيّته، ولا أوّليّته آخريّته، ولا وحدته كثرته، ولا خالقيّته مخلوقيّته، ولا ربوبيّته مربوبيّته ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

---

(١) وفيه قيل: القائل هو ابن عربي، انظر مخطوط شهيد علي ١٣٤٤/ ١٨٠ أو انظر أيضاً مقدمة شرح التائية الكبرى لداود القيصري، مخطوط آيا صوفيا ١٨٩٨/ ٩٦ أو مخطوط بيازيد ٣٧٥٠/ ٢٠٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٣.

فالحقّ خلق بهذا الوجه فاعتبروا وليس خلقاً بذاك الوجه فاذّكروا
من يدر ما قلتُ لم تخذل بصيرته وليس يدريه إلا من له بصر
جمّعْ وفرّق فإنّ العين واحدة وهي الكثيرة لا تبقى ولا تذر[١].

١١٠ - ولا شكّ أنّ اظهار مثل هذه الأسرار خلاف الأدب والشرع. فأمّا مع أهله فتركُ هذا الأدب أدب! كما قيل:

وآداب أرباب العقول لذي الهوى كآداب أهل السكر عند ذوي العقل

وقيل:

«ومن منح الجهّال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم[٢]

ومع ذلك، فإنّ حالي كحال من قال:

سقوني وقالوا لا تغنّ ولو سقوا جبال حنين ما سقوني لغنّت

١١١ - وأيضاً، كيف أسكت وأكتم وأنا عارف بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[٣]؟ وكيف لا أظهر وأنا مأمور باظهاره، لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[٤]؟ وكيف لا أودّي إلى أهله حقّه وأنا مأمور بأدائه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[٥]؟

وكيف لا أقول وأنا عالم بقول النبيّ ﷺ: «**من كتم علماً نافعاً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»[٦]؟ وكيف يجوز خوف من الملامة واظهار الحقّ وأنا من

---

(١) انظر فصوص الحكم لابن عربي، الفص الرابع، فص حكمة قدوسية في كلمة إدريسية.

(٢) انظر الإحياء: ١/٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٥) سورة النساء، الآية: ٦١.

(٦) حديث أخرجه ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري بإسناد ضعيف ونصه: «من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار» انظر المغني عن حمل الأسفار للشيخ عبد الرحيم بن الحسين العراقي، في ذيل الإحياء ١/٥٧ و١/١٠ حديث رقم٤.

جماعة ورد فيهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾؟[1] والله! لا أرجع عن هذا القول ما دامت الحياة باقية والآذان واعية. والله الحمد والمنة. ومع ذلك، ف: «**تلك شقشقة هدرت ثمّ قرّت**».

١١٢ - وإذ بلغ الكلام هذا المبلغ، فلنشرع في تنزيه تعالى من النقائص المنسوبة إلى المظاهر، لأنّ الجهّال يتوّهمون أنّ أمثال هؤلاء القوم بسبب قولهم: «**ليس في الوجود سوى الله**»، ما فرّقوا بينه وبين مظاهره، مثل إبليس وفرعون وآدم وموسى، أو من الموجودات الخسيسة والحشرات المؤذبة والحيّات والعقارب وغير ذلك. جلّ شأنهم عن أمثال ذلك!.

١١٣ - اعلمْ أنّ المظاهر غير مجعولة باتّفاق المحقّقين، كما سيجيء بيانه. والظاهر لا يظهر في مظهره إلا من حيث هو مظهره ومقتضى قابليّته، لأنّه أي الظاهر ليس له الظهور بصورته فقط. وإذا كان كذلك، فلا تنسب نقائص المظهر إلى الظاهر فيه أصلاً، بل تنسب بالأحرى إلى نفسه أي نفس المظهر.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[2] أي: «وآتاكم من كل سألتموه» بلسان استعدادكم وقابليّتكم.

وقال: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[3] لئلا يكون للناس على الله حجّة باختلاف استعداداتهم وماهيّاتهم وقابليّاتهم.

١١٤ - ومثال ذلك مثال البحر والأمواج. فإنّ البحر مثلاً، قبل الأمواج، كان عالماً بوجود جميع الأمواج الصادرة منه، وبأوضاعها وأشكالها وماهيّاتها وحقائقها. فإذا ظهر البحر بصورة موج من الأمواج، على ما هو عليه من الطول والعرض، فلا يكون له أي للموج حجّة عليه أي على البحر بظهوره في صورته، بكثرة الطول أو قلة العرض، أو غير ذلك من الأوضاع والأشكال. وقسْ على هذا جميع الموجودات بالنسبة إلى الله تعالى، فإنّه لا يخرج عن هذا الأصل شيء منها.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٠.

١١٥ - ومع ذلك، فليس هناك نقص في نفس الأمر حتّى تشكل عليك الحقيقة، لأنّ النقص والكمال أمران إضافيّان ليس لهما وجود في الخارج، لا بالنسبة إلى الواجب ولا بالنسبة إلى الممكن.

أمّا الواجب: فقد ثبت أنّ جميع صفاته وكمالاته عين ذاته، فلا يصدق عليه تعالى الكمال والنقص إلا بالاعتبار.

وأمّا الممكن: فإذا لم يكن له وجود في الخارج - وإن كان فلا يكون هذا الوجود الخارجيّ في الحقيقة إلا اعتبارياً - فأيّ كمال ونقص يمكن أن ينسبا إليه؟ فنقص إبليس لا يكون إلا بالنسبة إلى آدم وكماله.

وكذلك فرعون وموسى. وإلا، فإبليس وفرعون في نفسهما كاملان، لأنّ موسى وآدم وإن كانا من مظاهر أسماء الله اللطفيّة، ففرعون وإبليس كانا من مظاهر أسماء الله القهريّة.

والوجود لا يخلو منهما، لأنّه لا بدّ في نظام الوجود من اللطف والقهر، والرحمة والنقمة.

١١٦ - وبالحقيقة، الجنّة والنار عبارة عنهما أيْ عن اللطف والقهر بل هما - أيْ اللطف والقهر - من كمال الوجود الإضافيّ، وما قام الوجود في الظاهر إلا بهما.

وبالحقيقة هما المسميّان: بـ:«اليدان» في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1].

ومعناه أنّ القهر واللطف، والجلال والجمال، وما شاكل من الأسماء المتقابلة «مبسوطتان» في العالم، مركوزتان في جبلّته.

وقوله تعالى في حقّ آدم: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2] أيْ ركبت في جبلّته قوّة القهر واللطف، والجلال والجمال، ليتمكّن بهما من اصلاحه واصلاح غيره، وغير ذلك من الفوائد الراجعة عليه. وفيه بحث عميق وسرّ دقيق ليس هذا موضعه، وهو لا يخفى على أهله.

١١٧ - ومع ذلك فنحن نذكر ههنا قاعدة كليّة ترتفع بسببها أكثر الشبهات الواردة في هذا المقام.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

وهي أن تعرف أنّه ليس في الوجود نقص أصلاً، لأنّك إذا نظرت إلى المجموع، من حيث هو مجموع، وجدت كلّ موجود منه واجباً وجوده غير زائد في نفس الأمر، كنسبة بدنك بعينه إلى كمالك المعيّن، من حيث الظاهر والباطن معاً، لأنّك في هذه الحالة لا تجد فيك شيئاً زائداً أصلاً وحقيقة؛ وتجد في مقابل ذلك النقص والكمال منسوبين إلى بعض أعضائك وجوارحك لا إليك.

لأنّك إذا رجعت إلى نفسك عرفت أنّ اعوجاج أصابعك واسوداد عينيك هو عين كمالك وكمال عينيك ويديك، لأنّ الأصابع لو لم تكن معوّجة لم يحصل منها القبض والبَسط وغير ذلك من الفوائد الحاصلة منها. وكذلك العين، لو لم تكن سوداء لم تحصل منها الرؤية الصحيحة.

١١٨ - وأنت إذا نظرت إلى المجموع من حيث هو مجموع تحقّقت أيضاً أنّك الفاعل والقابل والقائل والسامع، وليس فيك غيرك لا فاعل ولا قابل.

وعرفت بالتحقيق أنّ النبي ﷺ عن مثل هذه المعرفة أخبر بقوله: **«من عرف نفسه فقد عرف ربّه»**، لأنّه من عرف نفسه بهذه المثابة، لا شكّ أنّه يعرف ربّه كذلك، ولقوله تعالى الشاهد به: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1] الآية. وفيه قيل:

شهدتَ نفسك فينا وهي واحدة كثيرةً ذات أوصاف وأسمائي

ونحن فيك شهدنا بعد كثرتها عيناً بها اتّحد المرئيّ والرائي

١١٩ - وهذا هو مقام مشاهدة العبد نفسه مع كثرتها، في مرآة الحقّ، واحدةً؛ وكذلك مقام مشاهدة الحقّ نفسه، في مرآة العبد، مع وحدتها، كثيرةً.

وهو - أعني هذا المقام الخاصّ - أعلى مراتب العارف وأجلّها. وكيف لا يكون كذلك وهو مقام الجمع الحقيقيّ ومرتبة الوصول الكليّ، الذي ليس فوقه مقام ولا مرتبة؟ لأنّه لو لم يكن كذلك، لما قال الحقّ في الحديث القدسيّ: **«كنتُ سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله»**.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

ولما قال الله في القرآن: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١).

ولما قال النبيّ عليه السلام: «**من رآني فقد رأى الحق**». ولما قال أمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة إليه: «**أنا وجه الله. أنا يد الله. أنا جنب الله. أنا الأوّل. أنا الآخر. أنا الظاهر. أنا الباطن**» إلى آخر الخطبة.

ولما قال أمير المؤمنين أيضاً بالنسبة إلى غيره: «**إنّ لله تعالى شراباً لأوليائه. إذا شربوا سكروا. وإذا سكروا طربوا. وإذا طربوا طابوا. وإذا طابوا ذابوا. وإذا ذابوا خلصوا. وإذا خلصوا طلبوا. وإذا طلبوا وجدوا. وإذا وجدوا وصلوا. وإذا وصلوا اتّصلوا. وإذا اتّصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم**».

ولما قال العارف بالله غيره أيضاً:

أأنت أم أنا هذا العين في العين　　حاشاي حاشاي من اثبات اثنين

ولما قال الآخر:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

إلى غير ذلك من الإشارات المشيرة إلى هذا المعنى نظماً ونثراً.

١٢٠ - ولهذا صار كلّ واحد منهما مرآة للآخر، كما شهد به أيضاً قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «**المؤمن مرآة المؤمن**» لأنّ من جملة أسمائه تعالى الحسنى: «**المؤمن**»، لقوله في القرآن الكريم: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

١٢١ - فحينئذٍ كما لا ينسب الضرر والأذية الحاصلان من يديك وعينيك - مع أنك الفاعل بالحقيقة - إلا إليهما، فكذلك لا ينسب الكمال والنقص - مع أنّ الله فاعل بالحقيقة - إلا إلى المحلّ الخاصّ الصادر منه الفعل.

أعني أنّك إذا ضربت أحداً ورأيته، فضربك ورؤيتك على الاطلاق وإن كانا منسوبين إليك، لكن، من حيث المحلّ، فعل الضرب والرؤية لا ينسب إلا إلى اليد والعين. وكذلك الحكم في الكلّ. وهذا في غاية الدّقة.

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٣.

١٢٢ - فعلى هذا التقدير، فعلى إبليس وفرعون لا ينسب إلا إليهما. وكذلك في الجميع، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(١).

وقال أيضاً: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾(٢).

والخير والشرّ يكونان نسبيين إضافيّين لا حقيقيّين، كما مرّ. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٣) في السماوات والأرض.

١٢٣ - هذا وجه. ووجهٌ آخر: وهو أنّ الوجود، بالاتّفاق، خير محض، كما أنّ العدم، بالاتّفاق، شرّ محض.

وقد ثبت أنّه ليس في الوجود غير الحقّ تعالى ووجوده المسمّى بالذات.

وثبت أنّه كامل بالذات. فحينئذٍ لا يتصوّر في الوجود نقص ولا كمال أصلاً. جلّ جنابه تعالى عن أمثال هذا التصوّر.

١٢٤ - وأمّا تغاير المظاهر وإضافة نقصها إليها، فهو أنّ الله تعالى ما جعل معلومه مجعولاً، ثمّ صار به عالماً، بل كان عالماً بمعلوماته أزلاً وأبداً، لأنّ العلم ما له تأثير في المعلوم.

فإذا أراد الحقّ الظهور بصورهم وتعيّناتهم، من حيث استدعاؤهم بلسان الحال، فينبغي أن يظهر فيها على ما هي عليه، لأنّ المعلوم لا يطلب من الوجود الخارجيّ، بلسان الحال، إلا على ما هو عليه من النقص والكمال.

أعني: ماهيّة فرعون مثلاً حين عدمها، ما طلبت منه تعالى الوجود الخارجيّ بلسان حالها إلا على الوجه التي هي عليه في شيئيّة ثبوتها.

وكذلك إبليس. وقسْ عليه آدم وموسى وغيرهما، حتّى النملة والبقّة. ففرعنة فرعون تكون من اقتضاء ذاته الفرعونيّة، لا من غيره. وكذلك الباقي من المظاهر، ناقصاً كان أو كاملاً. وهذا سرّ غريب وبحث دقيق. وهو قطرة من بحر القدر، المنهيّ اظهاره مع غير أهله. وفيه قيل:

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٤١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٦٠.

لا يكمل الباطن في طوره فاته بعض ظهوراته
فأعطه منك مقداره حتّى توفي حقّ اثباته

١٢٥ - ومثال ذلك أن تفرض مرايا كثيرة، مختلفة الأوضاع والأشكال، من التثليث والتربيع والتسديس والتثمين، والطول والعرض والاستدارة والاستطالة وغير ذلك؛ ويكون في مقابلها وجه واحد أو شخص واحد. فإنّ هذا الوجه الواحد أو الشخص الواحد يظهر في كلّ مرآة من هذه المرايا على وضع تلك المرآة، بلا تفاوت ولا نقصان.

فتربيع هذا الوجه الغير المربّع وغير ذلك من الأشكال، لا يكون إلا من هذه المرايا، لأنّ الوجه في نفس الأمر منزّه عن تلك الأشكال. فكذلك شأن الحقّ ومظاهره. وهذا مثال شريف لطيف في هذا الباب.

فاحفظ واغتنم، فإنّه ينفعك في باب التوحيد كثيراً. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾(١).

وفيه قيل أيضاً:

وما الوجه إلا واحد غير أنّه إذا أنت عدّدت المرايا تعدّدا

١٢٦ - وإذا تحقّق هذا كلّه، فلا ينبغي أن ينسب النقص والكمال إلا إلى المظاهر والمجالي، كما قلناه، لأنّ ذاته تعالى مستغنية عن أمثال ذلك. وأيضاً الفقر والاحتياج، اللذان تقدّم ذكرهما، يكونان نقصاً إذا كانا بالنسبة إلى الغير، فأمّا إذا كانا بالنسبة إلى الشيء نفسه، فلا يكونان نقصاً ألبتة.

وقد ثبت أنّه ليس في الوجود غيره تعالى؛ وثبت أنّ مظاهره ليست مغايرة له؛ فلا يكون احتياجه وفقره إلا لذاته، فلا يكونان نقصاً، لأنّ احتياج الشيء إلى نفسه ليس بنقص له.

١٢٧ - وههنا بحث كثير. وأنت تعرف أنّه ليس الغرض، في هذا المقام، هذا البحث بعينه، بل أنّه نثبت أنّه ليس في الوجود سو: الله تعالى وأسمائه وصفاته

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.

وأفعاله ومظاهره ومجاليه؛ وأنّ الكلّ هو به ومنه وإليه؛ وأنّه الظاهر والمظهر والفاعل والقابل والمحبّ والمحبوب. وقد ثبت ذلك كلّه. والحمد لله ربّ العالمين والصلاة على محمّد وآله أجمعين.

١٢٨ - وإذ قد فرغنا من الوجه الأوّل فلنشرع في الوجه الثاني، بعون الله وحسن توفيقه. ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(١).

الوجه الثاني: من مباحث ظهور الوجود وكثرته اجمالاً وتفصيلاً

١٢٩ - وأمّا الوجه الثاني فهو قولنا فيه أيضاً اجمالاً وتفصيلاً. اعلم أنّ هذا الوجود أو الحقّ تعالى هو فاعل مطلق، لا بدّ له من قابل مطلق مثله يتصرّف فيه، لأنّ الفاعل ما لم يكن له قابل لم يصدر عنه فعل، كما مرّ.

وقد ثبت أنّ غيره تعالى عدم محض، فلا يصلح للقابليّة. فينبغي أن يكون الحقّ هو الفاعل والقابل، أعني أن يكون فاعلاً من وجه، قابلاً من وجه.

١٣٠ - ولهذا قلنا سابقاً: القوابل والحقائق مطلقاً ليست بجعل الجاعل. أعني أنّ الحقائق الممكنة والماهيّات المعدومة والأعيان الثابتة المسمّاة: بالمظاهر الإلٓهيّة، ليست بجعل الجاعل، لأنّها راجعة إلى حقيقة الحقّ وشؤونه الذاتيّة، وحقيقة الحقّ ليست بجعل الجاعل، وشؤونه الذاتيّة كذلك.

لأنّ «الجعل» لا يصدق إلا على الوجود الخارجيّ، والحقائق والأعيان والماهيّات ما كانت موجودة في الخارج أزلاً، إذ لو كانت لكان ايجادها تحصيل الحاصل. فكانت معدومة الأثر، موجودة العين. أعني: كانت موجودة في العلم، معدومة في الخارج.

فلا تكون، من حيث هي هي، مجعولة؛ فلا يصدق عليها أنّها مخلوقة في الخارج والعلم، وكلّ ما لا يصدق عليه أنّه مخلوق في العلم والعين يكون خالقاً بالضرورة، لأنّه لا واسطة بينهما.

---

(١) سورة هود، الآية: ٩٠.

والخالق في الحقيق ليس إلا واحداً، فثبت أنّ الفاعل والقابل واحد ويظهر من ذلك سرّ قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[(١)].

وسرّ «رب الأرباب» لأنّ كلّ اسم من أسمائه تعالى عند أهل الله مخلوق من وجه، خالق من وجه آخر. ولكنّ هذا البحث لا تعلّق له بهذا المقام، لأنّه بحث الأسماء ونحن في بحث الوجود. فنرجع ونقول:

١٣١ - فمجعوليّة الحقائق والمظاهر إلى الخارج أي الوجود الخارجيّ تكون بظهور الفاعل المطلق بصورتها، أي بجعلها موجودة في الخارج، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٢)].

لأنّ «له» ضمير عائد إلى الشيء الموجود في العلم، المعدوم في العين؛ فإذا أراد الحقّ ظهوره في العين يقول له: «كن» في العين - أي في الخارج - كذا وكذا، فيصير الشيء في الخارج على ما هو عليه في القابليّة والاستعداد. وكذلك كان وجود كلّ موجود، وكذلك يكون إلى ما لا نهاية له. وليس أعظم من هذه الآية دلالة في هذا المقام.

١٣٢ - والغرض أنّ الحقائق ليست بجعل الجاعل؛ وأنّ القابل والفاعل، في الحقيقة، هو الله تعالى لا غير. وقد مرّ هذا المعنى مراراً. وإلى هذا أشار الشيخ الأعظم - قدّس الله سرّه - في فصوصه: «وما بقي إلا قابل، والقابل لا يكون إلا من فيضه الأقدس». وتقريره على الترتيب، وهو أنّه يقول في أوّل فصوصه: وهو فصّ آدم عليه السلام:

١٣٣ - «شاء الحقّ - سبحانه - من حيث أسماؤه الحسنى التي لا يبلغها الاحصاء على أعيانها - وإن شئتَ قلت: أن يرى عينه - في كونٍ جامعٍ يحصر الأمر كلّه لكونه متّصفاً بالوجود، ويظهر به سرّه إليه. فإنّ رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته نفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة، فإنّه عندئذٍ تظهر له نفسه في صورة يعطيها المحلّ المنظور فيه ممّا لم تكن تظهر له في غير وجود هذا المحلّ ولا تجلّيه له.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٠.

١٣٤ - «وقد كان الحقّ تعالى أوجد العالم وجود شبح مُسوّى لا روح فيه، فكان كمرآة غيره مجلوّة. ومن شأن الحكم الإلٓهيّ أنّه ما مسوّى محلاً إلا ولا بدّ أن يقبل روحاً إلٓهيّاً عبّر عنه: بـ«النفخ فيه»، وما هو إلا حصول الاستعداد، من تلك الصورة المسوّاة، لقبول فيض التجلّي الدائم الذي لم يزل ولا يزال.

وما بقي إلا قابل، والقابل لا يكون إلا من فيضه الأقدس. فالأمر كلّه منه، ابتداؤه وانتهاؤه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾(١) كما ابتدأ منه».

١٣٥ - وأراد الشيخ ابن العربي: بـ«**الفيض الأقدس**» سرّ التجلّي الذاتيّ الحبيّ، الموجب لوجود الأشياء واستعداداتها في الحضرة العلميّة ثمّ الفعليّة، كما قال في الحديث القدسي: «**كنتُ كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أُعرف**» الحديث.

وفي اصطلاح القوم «الفيض» على قسمين: الأقدس والمقدّس. فأمّا الفيض الأقدس فقد عرفته؛ وأمّا الفيض المقدّس فهو عبارة عن التجلّي الأسمائي الموجب لظهور ما تقتضيه استعدادات الأعيان في الخارج.

١٣٦ - فالفيض المقدّس مرتّب على الفيض الأقدس. والأقدس مرتّب على الأسماء الإلٓهيّة. والأسماء الإلٓهيّة مرتّبة على الكمالات الذاتيّة الأزليّة القدسية. والأقدس أيضاً معناه: أي الأقدس من شوائب الكثرة الاسمائية ونقائص الحقائق الامكانيّة. والمراد: أي الذات المقدّسة من شوائب الكثرة الاسمائيّة ونقائص الحقائق الامكانيّة.

١٣٧ - فالأعيان الثابتة: التي هي القوابل للتجلّيات، كلّها فائضة من الله تعالى بالفيض الأقدس والتجلّي الذاتيّ. ولهذا قيل: أنّها ليست بجعل الجاعل.

١٣٨ - وإذا علمت هذا، علمت أنّه لا منافاة بين هذا القول وبين قوله أي الشيخ ابن العربي في: «الفصّ العزيزيّ» وغيره: «إنّ علم الله في الأشياء هو على ما أعطته المعلومات ممّا هي عليه في نفسها» وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾(٢) وقوله: «فالمحكوم عليه بما هو فيه حاكم على الحاكم أن يحكم عليه بذلك».

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

١٣٩ - فإن قيل: إنّ الماهيّات والحقائق والأعيان هي معدومات ممكنة، فكيف جعلتها خالقة ومخلوقة، جاعلة ومجعولة؟ - أُجيب عنه بأنّ مراد القائل بأنّ الحقائق غير مجعولة، هو أنّ الحقائق عنده هي شؤون ذاتية راجعة إلى حقيقة واحدة وهي حقيقة الحقّ تعالى لا الذي فهم المحجوب عنها. وحقيقة الحقّ لا تكون مجعولة، كما عرفته. فيما سبق.

١٤٠ - وتقرير ذلك في صورة المثال، هو أن تعلم أنّ العلم بحقائق الأعيان والماهيّات، عبارة عن علمه تعالى بذاته وكمالاته الذاتيّة وخصوصيّاته الاسمائيّة، لأنّه إذا صار تعالى عالماً بذاته فقد صار عالماً بجميع الذوات والحقائق المكنونة في ذاته، كالشجرة المكنونة في النواة مثلاً. فإنّ النواة إذا صارت عالمة بذاتها، فقد صارت عالمة بجميع كمالاتها الشجريّة، من الأغصان والأوراق والأزهار وغير ذلك. فتعيّنات الأغصان والأوراق والأزهار والأثمار، من الاستطالة والاستدارة واللطافة والحلاوة والحموضة، لا تكون بجعل النواة، بل يكون هذا في الكمالات الشجريّة المكنونة في النواة، بحيث تكون هي عين النواة بوجه، وغير النواة بوجهٍ آخر؛ عين الشجرة بوجه، غير الشجرة بوجه آخر.

١٤١ - ولهذا المثال مثالٌ ونكات وغرائب وعجائب لا يطلع عليها إلا أهل الاستعداد الكامل والعقل السليم واللبّ الخالص.

وإليه أشار الحقّ تعالى في قوله إن في ذلك: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾(٢). ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾(٣).

١٤٢ - وإذا تحقّق هذا، فاعلم أنّ من علمه تعالى بذاته، على الوجه المذكور، قبل أوّل كثرة فرضت في الوجود. وأوّل تعيّن تعيّنت به الذات كان من علمه تعالى بذاته، لأنّه إذا صار عالماً بذاته صارت ذاته معلومة له.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٤ - ١٢٨.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.

وكلّ معلوم لا بدّ أن يكون معيّناً، فيكون أوّلَ تعيّنه علمهُ بذاته. وإذا صارت ذاته تعالى معلومة له، وصار هو عالماً بها، فلا بدّ أن يكون العلم واسطة بينهما أي بين الله من حيث هو عالم، وبين ذاته المقدّسة من حيث هي معلومة له. فيكون هناك ثلاثة اعتبارات: اعتبار العلم واعتبار المعلوم واعتبار العالم، وهذا عين الكثرة. وإذا كان كذلك، فيكون علمه تعالى بذاته سبب تعيّنه، وسبب تعيّن كلّ واحد من معلوماته التي هي الأعيان والحقائق المسمّاة: بالشؤون الذاتيّة. ويكون تعالى هو الفاعل والقابل حقيقةً واعتباراً لا غيره. وهذا هو المطلوب من هذا البحث.

١٤٣ - ثمّ اعلم أنّ هذه كثرة اعتباريّة لا تحقّق لها في الخارج، لأنّه في الخارج ليس إلا ذات واحدة.

وأمّا الكثرة الخارجيّة فلها ترتيب وتحقيق، واجمال وتفصيل، كما سنبيّنه، إن شاء الله.

١٤٤ - فهي أي الكثرة الخارجيّة عند الاجمال وتحقيقه الكليّ أنّه تعالى تعيّن أوّلاً بحقيقة واحدة، قابلة للكثرة كلّها. وسمّاها: بالتعيّن الأوّل، والعقل، والروح، والنور، والإنسان الكبير، وغير ذلك، كما سيجيء بيانها وبيان اختلاف القوم فيها وفي تحقيقها وتعيينها.

وجعلها أي هذه الحقيقة الواحدة: كالهيولى لصور الموجودات لا لمادّتها كلّها. أعني أنّ هذه الحقيقة الأولى قابلة للصور والأشكال والأوضاع والأحوال كلّها.

فجميع الصور والأشكال والاختلافات في الأوضاع والأحوال هي عارضة عليها، طارئة على جوهرها طريان الأعراض على الجواهر. وجميع الكمالات والنقائص، والسعادة والشقاوة، منسوبة إليها بالنظر؟ إلى مراتبها، فهي يعني إذ هي في مراتب تنزّلتها، موسومة بمجموعها. وهي مظهر الحقّ تعالى فقط، وما عداها فهو مظهرها.

وهي حقيقة قابلة من وجه، فاعلة من وجه آخر. أعني: هي قابلة من حيث الذات للحضرة الأحديّة الذاتيّة، والباقي من الحقائق والموجودات القابلة لها؛ وهي فاعلة

فيها من حيث الكمالات والحقائق المكنونة في ذاتها. وهي التي سمّاها الشيخ ابن العربي[(١)]- قدّس سرّه - بالحقّ المخلوق، والحادث القديم، وغير ذلك.

١٤٥ - وهذا النحو من التفكير وإن كان قريباً إلى مذهب الفلاسفة - فإنّهم قالوا: ما صدر من الحقّ تعالى إلا العقل الأوّل، والباقي صدر من العقل الأوّل - ولكن ليس الأمر كذلك، لأنّه، عندنا، هذه الحقيقة الأولى ومجموعة الحقائق والعالم بأسره على سبيل الكلّ والاجمال، صدر من الحقّ تعالى دفعةً واحدةً، لقوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[(٢)] وكان في الجميع هو الفاعل - جلّ ذكره.

١٤٦ - وهذه الحقيقة الأولى المتعيّنة بالتعيّن الأوّل عندنا هي الوجود العامّ، الفائض على كلّ موجود من الموجودات العلميّة والعينيّة، من الحضرة الأحديّة المسمّاة: بحضرة الذات أزلاً وأبداً، لا كالعقل الأوّل الذي لا يفيض على النفس الكليّة فقط، أو على العقل الثاني، أو على الفلك الثاني، أو غير ذلك، لأنّ هذا تنزيه في عين النقص، لأنّه يلزم منه اعجاز يعني عجز؟ الحقّ - جلّ جلاله - وهذا كفر عند جميع المسلمين. وفيه بحث طويل لسنا في صدد بيانه، لأنّه معلوم لأهله.

١٤٧ - وأمّا هذه الحقيقة الكليّة الأولى فقد اختلفوا في تحقيقها اختلافاً شديداً يكاد يخرج عن الحصر. والكلّ، عند التحقيق، مصيب غير مخطىء فيها، لأنّها قابلة للكلّ؛ كالحقّ تعالى مثلاً، فإنّه قابل للاختلافات والاعتبارات، كما لا يخفى على أهله. ولا غرو! لأنّها أيضاً أعني هذه الحقيقة الكليّة ليست غير الحقّ تعالى في الحقيقة، كما مرّ مراراً. وفيه قيل: «العين واحدة والحكم مختلف[(٣)] . . . وذاك سرّ لأهل العلم ينكشف» ونحن نبيّن اختلافهم بقدر هذا المقام اجمالاً، ثُمّ نرجع إليه تفصيلاً.

---

(١) ابن العربي: انظر الفتوحات: ١/ ٧٧ - ٧٨، ١١٨ - ١١٩ والفصوص: ١/ ٤٩ - ٥٠ وإنشاء الدوائر ١٦ - ١٧، ط. نيبرك.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٠.

(٣) انظر الفتوحات: ٣/ ٤٣٠، وفي موضع آخر من الفتوحات: «وما يعرف الله إلا الله فاعترفوا أن العين واحدة والحكم مختلف» ١/ ٧١٥.

١٤٨ - أمّا اختلاف أهل العلم وأهل الظاهر فهو أنّهم قالوا: أوّل ما خلق الله العقل، وأوّل ما خلق الله القلم، وأوّل ما خلق الله النور. وكذلك الدرة البيضاء، والجوهرة، والعرش، واللوح، وغير ذلك. وليس في هذا خلاف بينهم وبين أهل التحقيق أيضاً إلا في التعبير والتأويل؛ وإلا، فالمجموع صحيح.

١٤٩ - وأمّا الحكماء، فأكثرهم قد اتّفقوا على أنّ أوّل الموجودات هو العقل، ولا اعتبار بـ: رأي الأقل دونهم، واتّفقوا أيضاً على أنّ جميع الموجودات صادرة عنه تفصيلاً. وهذا أيضاً حقّ لا اختلاف فيه مع أهل التحقيق إلا في المعنى.

١٥٠ - وأمّا أهل التحقيق فأقوالهم في هذا الباب كثيرة، فإنّهم سمّوها بكلّ اعتبار لها باسم لها. فسمّوها: بالعقل الأوّل، والنفس الأولى، والحضرة الواحديّة، والحضرة الألوهيّة، والإنسان الكبير، وآدم، وجبرائيل، وروح القدس، والإمام المبين، والمسجد الأقصى، والروح الأعظم، والنور، وحقيقة الحقائق، والهيولى، والجوهر، والهباء، والعرش، وخليفة الله، والمعلّم الأوّل، والبرزخ الجامع، والمفيض، ومرآة الحقّ، والقلم الأعلى، ومركز الدائرة، والنقطة، وغير ذلك، كما سيجيء تعبيرها يعني تفسيرها.

١٥١ - وأمّا بيان الحقائق الكليّة وتحقيقها، وتعيين هذه الحقيقة اجمالاً من لسان القوم، فهو أنّهم قالوا: إنّ الحقيقة تطلق على كلّ ما له تحقّق بالاطلاق العامّ على الجملة. فقد تطلق على حقيقةٍ تحقّقها بذاتها؛ وقد تطلق على حقيقةٍ تحقّقها بتحقيق الحقيقة المتحقّقة بذاتها، أمّا في حضرة الوجود العلميّ، أو في حضرة الوجود العينيّ أبداً، أمّا في بعض مراتبه، أو في جميع مراتب الوجود دائماً أو لا دائماً؛ وعلى هذا يصدق اطلق الحقيقة على الحقّ والخلق، والنسب المعنويّة، والأعراض والجواهر.

١٥٢ - وإذا علمت هذا، فاعلم أنّ الحقائق ثلاث:

الأولى: حقيقة مطلقة بالذات، فعّالة، مؤثّرة بالذات، وجودها واجب لها من ذاتها، وهو عينها، غير زائد عليها. وهذه هي حقيقة الله سبحانه -.

والحقيقة الثانية: هي حقيقة منفعلة بالذات، مقيّدة، متأثّرة، سافلة، قابلة، مستفيدة للوجود من الحقيقة الواجبة، بالفيض والتجلّي. وهذه هي حقيقة العالم بأسره.

والحقيقة الثالثة: هي أحديّة جمعٍ من اطلاق وتقييد، وفعل وانفعال، وتأثير وتأثّر. فهي مطلقة من وجه، مقيّدة من وجه، فعّالة باعتبار، منفعلة باعتبار.

وهذه الحقيقة هي أحديّة جمع الحقيقتين، ولها مرتبة الأوّلية الأولى، والآخريّة العظمى. وذلك أنّ الحقيقة المطلقة الفعّالة تقابلها الحقيقة المقيّدة المنفعلة. وكلّ متفرّقين لا بدّ لهما من أصل واحد يتقدّمهما قبلهما؛ هما فيه واحد، وهو فيهما وبهما متعدّد ومنفصل، إذ الواحد أصل العدد، والعدد تفصيل الواحد.

١٥٣ - ولكلّ واحدة من هذه الحقائق الثلاث، ثلاث مراتب:

الأولى: مرتبة أحديّة جمعها الأوّل التي هي فيها أحديّة لا تفصيل فيها.

والثانية: مرتبة تفصيلها وتعيينها في الأعيان الشخصيّة، الخصيصة يعني المخصوصة بها.

والثالثة: مرتبة أحديّة جمعها في الأحديّة بعد التفصيل أي مرتبة أحديّة الجمع الثاني التي هي فيها أحديّة تفصيليّة.

١٥٤ - فالأولى منها في كلّ مرتبة من هذه المراتب الثلاث تختصّ بحقيقة الحقائق، وذلك بإضافة حقائقها التفصيليّة إليها. هذا آخر أقوال القوم في هذا المعنى.

١٥٥ - واعلم أنّ هذه الحقيقة الكليّة المتعيّنة بالتعيّن الأوّل عند التحقيق ليس لها اسم ولا رسم ولا وصف ولا نعت، لأنّ الحقّ التي هي صورته كذلك(١).

فاختلاف هذه الأسامي المتقدّم ذكرها عليها هو إنّما بحسب اعتباراتها في مدارج كمالاتها، علماً وعيناً.

١٥٦ - فالمراد من تسميتها:

بالعقل الأوّل: لأنّها تتعقّل ذاتها، وذات منشيها، وذات ما عداها.

---

(١) كذلك: أي كما أن الحق عند التحقيق، من حيث ذاته، ليس له اسم ولا رسم ولا وصف ولا نعت فكذلك هذه الحقيقة الكلية من حيث هي صورة الحق، لا اسم ولا رسم لها ولا وصف ولا نعت.

١٥٧ -.وبالتعيّن الأوّل: لأنّها أوّل موجود تعيّنت به الذات المطلقة، المتمحّضة عن جميع الاعتبارات.

١٥٨ - وبالحضرة الواحديّة: لأنّها محلّ تفاصيل الأسماء في الحضرة الأحديّة وتعيين أعيانها.

١٥٩ - وبروح القدس: لأنّها سبب الحياة الساريّة في جميع الموجودات من الملك والملكوت، كالقلب مثلاً بالنسبة إلى جميع الجسد ظاهراً وباطناً، لأنّه أي روح القدس سبب قيامها أي الموجودات وبقائها.

١٦٠ - وبالإمام المبين: لأنّها المتقدّمة على الكلّ والجامعة لجميع الكمالات قوةً وفعلاً.

١٦١ - وبالمسجد الأقصى: لأنّها أقصى غاية التوجّه إلى الله، ونهاية مراتب الأنبياء والأولياء والكمّل والأقطاب.

١٦٢ - وبالروح الأعظم: لأنّها أعظم الأرواح القدسيّة والنفوس الكاملة الملكوتيّة، لأنّ الكلّ منها يستفيضون وبها يعيشون.

١٦٣ - وبالنور: لأنّها ظاهرة بذاتها، مظهرة لغيرها، لأنّها نور ساطع لا ظلمة لها يعني معها أصلاً، لقوله عليه السلام: «**أوّل ما خلق الله تعالى نوري**». وعدم الامكان فيها إشارة إلى عدم ظلمتها[1].

١٦٤ - وبحقيقة الحقائق: لأنّ الحقائق كلّها ترجع إليها، ابتداء وانتهاء.

١٦٥ - وبالهيولى: لأنّها قابلة لجميع الصور والأشكال والفعل والانفعال والألوان، في الأعراض الصوريّة والمعنويّة.

١٦٦ - وبالحضرة الألوهيّة: لأنّها منشأ أحكام الألوهيّة، ومبدأ آثار الربوبيّة.

١٦٧ - وبالإنسان الكبير: لأنها الإنسان الحقيقيّ، القائم به الوجود، المسمّى: بكثرة الذرّ (..؟) آدم الصغير، وذريّته ذريّته، لأنّه كالأب وهؤلاء الذريّة كالأولاد.

أعني أنّ الإنسان الكبير، بالنسبة إلى آدم وذريّته، هو كآدم بالنسبة إلى ذريّته.

---

(١) معنى الجملة: «وعدم... ظلمتها» على هذ النحو غير واضح، على ما يبدو.

أعني أنّه كما كانت ذرّات أولاد آدم في ظهره بالقوّة، كذلك كانت ذرّات وجود الممكنات كلّها في ظهر الإنسان الكبير بالقوّة. وكما ظهرت تلك الذرّات من صلبه بواسطة نكاحه الصوريّ إلى حوّاء ووصولها إليها، كذلك ظهرت تلك الذرّات من صلب الإنسان الكبير بواسطة نكاحه المعنويّ إلى النفس الكليّة ووصولها إليها. وهكذا إلى غير نهاية.

وهذا هو النكاح الدائم المؤبّد[1]؟ بحسب الجنس؛ كما أنّ النكاح الثاني هو النكاح المنقطع، الغير المؤبّد، بحسب النوع.

١٦٨ - وهذه الحقيقة الكليّة تسمّى أيضاً: بجبرائيل، لأنّها واسطة بين الله وبين المخلوقات، بإفاضته الفيض الأعظم عليهم ظاهراً وباطناً؛ ولأنّها القابلة من الله بلا واسطة غيره، كما أنّ جبرائيل هو واسطة فيضه تعالى بإفاضته على الأنبياء عليهم السلام.

١٦٩ - **وبالجوهر**: لأنّها من الجواهر العالية، في بقائها بذاتها وقيام الغير بها.

١٧٠ - **وبالهباء**: لأنّها مادّة الموجودات الممكنات.

١٧١ - **وبالعرش**: لأنّها مستوى اسم: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ الذي هو أوّل اسم بعد اسم «الله»، ولهذا قال تعالى: قال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[2]، لأنّ اسم «الله» استواؤه على روح هذا العرش وحقيقته التي نحن في صدد تعيينها وتحقيقها، لا على جسمه المسمّى: بجسم الكلّ.

١٧٢ - وتسمّى هذه الحقيقة الكليّة أيضاً بخليفة الله، لأنّها الخليفة الأعظم في الوجود كلّه، كما أنّ آدم وداود وأمثالهما خليفته في بعض عباده.

وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتابنا الموسوم: بـ«جامع الأسرار ومنبع الأنوار» في التوحيد، و «رسالة الأمانة» في الخلافة، وغير ذلك.

---

(١) المؤبد: كلمة غير مقروءة بالأصل. هذا ويسمي الشيخ ابن العربي هذا النكاح: «النكاح الساري في جميع الذراري».
(٢) سورة طه، الآية: ٥.

١٧٣ - وبالمعلّم الأوّل: لأنّ من حضرتها ظهرت العلوم والحقائق والكمالات والاستعدادات، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[١].

١٧٤ - وبالبرزخ الجامع: لأنّها الفاصلة بين الظاهر والباطن، والخالق والمخلوق. ولها الربوبيّة الكبرى والألوهيّة العظمى.

١٧٥ - وبالمادّة الأولى: لأنّها مادّة كلّ شيء وأصله صورةً ومعنىً، بخلاف: «الهباء»، لأنّ «الهباء» مادّة الجسمانيّات لا غير، وهذه الحقيقة أي المادّة الأولى هي مادّة العالم ومبدؤه بعد الحقّ - تعالى ذكره.

١٧٦ - وبالمفيض: لأنّ من حضرتها ينزل الفيض على جميع الموجودات مفصلاً، وعليها ينزل مجملاً.

١٧٧ - وبمرآة الحقّ: لأنّ الحقّ تعالى لا يشاهد ذاته على ما هي عليه - أعني من حيث كمالاته الذاتيّة - إلا فيها. وقد مرّ ذكره.

١٧٨ - وبالقلم الأعلى: لأنّ بها تنتقش العلوم والحقائق على ألواح الأرواح وسطوح النفوس كلّها.

١٧٩ - وتسمّى هذه الحقيقة الكليّة أيضاً: بمركز الدائرة، لأنّها كالنقطة بين دائرة الوجود، المنتهية إليها خطوط الموجودات كلّها.

ومنها يعرف سرّ: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٢]، لأنّ الدائرة مثلاً إذا فرض فيها خطّ موهوم، فتكون كالقوسين، المتّصل طرف كلّ واحد منهما بالآخر، عند ارتفاع الخطّ الموهوم.

والقوسان، ههنا، هما قوسا الوجوب والامكان. فإذا ارتفع منها ذ- أي من دائرة الوجود المطلق - خطّ الامكان الذي ينصّف الدائرة بنصفين، تكون الدائرة كما كانت. وهذا هو المعبّر عنه: بـ «أدنى». وإليه أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: **«الحقيقة محو الموهوم مع صحو المعلوم»**.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٢) سورة النجم، الآية: ٩.

١٨٠ - وتسمّى هذه الحقيقة الكليّة أيضاً بالنقطة، لأنّها أوّل نقطة تعيّن بها الوجود المطلق، وسُمّي بالوجود المضاف.

وذلك كنقطة: «الباء» مثلاً، فإنّها أوّل نقطة تعيّن بها: «الألف» في مظاهرها الحروفيّة. وصار باء. ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «أنا النقطة تحت الباء»[١].

وقال: «**لو شئتُ لأوقرتُ سبعين بعيراً من باء بسم الله الرحمن الرحيم**»[٢].
وقال: «**العلم نقطة كثّرها جهل الجهلاء**».

وقال بعض العارفين: «بالباء ظهر الوجود، وبالنقطة تميّز العابد عن المعبود»[٣].

وقال الآخر: «ظهر الوجود من باء بسم الله الرحمن الرحيم».

وأمثال ذلك كثيرة في هذا الباب.

وقد بسطنا الكلام في تفسيرها وتحقيقها في رسالتنا المسمّاة: بـ«منتخب التأويل في بيان كتاب الله وحروفه وكلماته وآياته».

١٨١ - وإذا تحقّق هذا، فلنشرع في ترتيبه التفصيليّ. اعلم أنّ هذه الحقيقة الكليّة المتعيّنة بالتعيّن الأول لها تنزّل في صور الموجودات والمكوّنات، حتى النملة والبقّة وأقلّ منهما وأصغر، كما أنّ للحقّ تنزّلاً بصورها وحقائقها.

أعني أنّه ليس في الوجود موجود إلا وهو مظهر من مظاهر هذه الحقيقة الكليّة وصورة من صورها؛ كما أنّها بنفسها هي مظهر من مظاهر الحقّ وصورة من صوره.

---

(١) أن.. الباء: نقول منسوب إلى الشبلي في مقدمة كتاب الباء لابن عربي والفتوحات ١/ ٧٤ اشارة ١٠٢ تصريحاً؛ ومقدمة كتاب العظمة له أيضاً ولطائف الأعلام، مخطوط جامعة اسطنبول ٢٣٥٥/ ٢٤ وكتاب الباء للجيلي مخطوط حاجي محمود (سليمانية، اسطنبول) ٢٤٥٩/ ٥٣ مذكور بهذه الرواية: لو أردت لبثت في نقطة باء بسم الله سبعين بعيراً».

(٢) «لو شئت.. الرحيم: النص في كتاب كشف الغايات... (مخطوط باريس ٤٨٠١/ ٣ ب) ولطايف الأعلام (مخطوط جامعة اسطنبول ٢٣٥٥/ ١٢٤

(٣) القول لابن عربي انظر الفتوحات ١/ ١٠٢ ومقدمة كتاب الباء وكشف الغايات مخطوط باريس ٤٩٠١/ ٦.

ولهذا ترجع النقائص والكمالات الاعتباريّة وغير الاعتباريّة كلّها إليها عند التفصيل، لا إلى الحقّ تعالى، لأنّه تعالى دائماً هو على تنزّهه الذاتيّ وتقدّسه الأزليّ، لقوله عليه السلام: «كان الله ولم يكن معه شيء»، ولقول بعض عارفي أُمّته: «والآن كما كان». وقد مرّ هذا البحث مراراً.

١٨٢ - والغرض أن يتحقّق أنّ لتلك الحقيقة الكليّة تنزّلات في صور مظاهرها كلّها، وأنّ لتنزّلها ترتيباً بحيث يكون أوّل تنزّلها في صورة النفس الكليّة، المعبَّر عنها بروحها، كما أنّ أوّل تنزّل الحقّ يكون في صورتها المعبّر عنها في القرآن الكريم بـ ﴿نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[1].

وغير ذلك من الاعتبارات المذكورة، المعنيّ بها - «آدم الكليّ» و «حوّاء الحقيقيّة»، المشار إليهما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[2] الآية.

١٨٣ - لأنّ من ازدواج هاتين الحقيقتين أي الروح الكليّ والنفس الكليّة ونكاحهما المعنويّ، ظهرت الموجودات كلّها في الخارج، كما أن من ازدواج آدم وحوّاء ونكاحهما الصوريّ، ظهرت أنواع الإنسان وأصنافه كلّها. والمراد: بالرجال والنساء، ههنا، الذكورة والأنوثة الموجودتان في الموجودات كلّها، المسمّيتان: بـ «النكاح الساري[3] في جميع الذراري». وإلى هذا المعنى أشار الحقّ في قوله: وخلقنا ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[4].

١٨٤ - ثمّ يكون لتلك الحقيقة الكليّة تنزّل في صورة الطبيعة الكليّة، أيْ قوّة النفس الكليّة السارية في جميع الأجسام.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) التسمية النكاح الذراري لابن عربي وهي عنوان كتاب له، انظر فهرس المصنفات رقم ١٨٦ وأجازة للملك المظفر. رقم ١٩٣، والفتوحات ١/ ١٣٩، ٢/ ٦٨٩ وعقلة المستوفر. ٤٦ (ط نيبرك ولطائف الأعلام مخطوط جامعة اسطنبول، (رقم ٢٣٥٥/ ١٧٢).
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧، وسورة هود، الآية: ٤٠.

١٨٥ - ثمّ في صورة الهيولى الأولى، أي الجوهر الذي له طول وعرض وعمق. فهو لها جسم مطلق.

١٨٦ - ثمّ في صورة الأجسام البسيطة، أعني الأفلاك والاجرام والأركان الأربعة التي هي العناصر، واحداً بعد واحدٍ عند البعض، ودفعةً واحدةً عند البعض الآخر، كما تقدّم ذكره.

١٨٧ - ثمّ يكون لتلك الحقيقة الكليّة تنزل في صورة المواليد الثلاثة التي هي: المعدن والنبات والحيوان.

١٨٨ - ثمّ في صورة الإنسان الصغير الذي هو صورة الإنسان الكبير معنىً، والذي هو نهاية المراتب كلّها.

ولذلك يكون ظهوره أي الإنسان الكبير إلى غير نهاية عند التحقيق، وإن كان لبعض هذه المظاهر تبدّل وتغيّر في بعض الأزمان، لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[(١)].

وذلك لأنّ المظاهر مرتّبة على ترتيب الأسماء والصفات والكمالات والخصوصيّات، كما مرّ ذكرها. وهذه ليس لها نهاية، فلا يكون لمظاهرها نهاية. وإلى ذلك أشار الحقّ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[(٢)]. وسمّاها: بالكلمات، لأنّ كلمات الله تعالى بالاتّفاق هي أعيان الموجودات المذكورة وحقائقها المعلومة، كما عرفتها في موضعها. والله أعلم، وعلمه أتمّ وأحكم.

١٨٩ - هذا بعبارة. وأمّا بعبارة أُخرى، فهي أنّ المظاهر، بحسب البسائط والمفردات والكليّات، أربعة عشر في الظاهر، أعني في عالم الملك. هي الجوهر الأوّل والأفلاك التسعة والعناصر الأربعة.

وهي أيضاً أي المظاهر أربعة عشر في الباطن، أعني في عالم الملكوت، أي روح هذه الأربعة عشر وحقيقتها القائم بها عالم الملك، لأنّ الملكوت روح الملك

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

وحياته، لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[(١)]. أي بيده حياة كل شيء، المعبّر عنها بقيوميّة الحق. وملكوت الشيء في اللغة هي حياته وحقيقته.

١٩٠ - فهذه الثمانية والعشرون بسائط في عالمي: الملك والملكوت هي بعينها كالثمانية والعشرين حرفاً من الحروف المفردة البسيطة في عالم الهجاء. وكذلك ترتيب ظاهرها وباطنها، لأنّ المنقوطة منها بازاء الملك، وهي أربعة عشر؛ وغير المنقوطة بازاء الملكوت، وهي أيضاً أربعة عشر. فكما أنّ تركيب هذه الحروف غير متناهٍ بحسب الجزئيات، فكذلك تركيب تلك البسائط غير متناهٍ بحسب الكليّات.

١٩١ - ومعلوم أنّ الموجودات كلّها: أمّا حروف، وأمّا كلمات، وأمّا آيات أي جُمَل. والوجود الكونيّ كالكتاب المشتمل عليها المعبّر عنه بالرقّ في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣﴾[(٢)].

و«الرقّ المنشور» هو الوجود كلّه، لأنّه كالرقّ عند التحقيق، والموجودات العارضة عليه هي كالرقوم والسطور. وقد بسطنا الكلام فيه في الرسالة المذكورة التي هي أصل هذا المختصر.

١٩٢ - ولولا أنّ الوجود مرتّب على الحروف، لما قال العالم الربّانيّ: «**أنا النقطة تحت الباء**»[(٣)]؛ **ولما قال غيره من العارفين: «بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميّز العابد عن المعبود»**[(٤)].

وبيان ذلك وترتيبه هو أنّ «الألف» الذي كان كالذات المطلقة المجرّدة، في عدم تعيّنه وتقيّده، إذا أراد التنزّل، من حيث كمالاته الذاتيّة المكنونة في ذاته، تنزّل أوّلاً من حضرة اطلاقه وتجرّده، وتقيّد بصور البائيّة، المتميّز بها عن صورة الإلفيّة بالنقطة البائيّة وتشخّصها، كما أنّ الحقّ تعالى إذا أراد التنزّل، بحسب كمالاته الذاتيّة المكنونة في ذاته، بصورة الخلقية، المتميّز بها عن صورة الخالقيّة بالنقطة العبديّة وتشخّصها، تنزّل أوّلاً من حضرة اطلاقه وتجرّده، وتقيّد بصورة الإنسانيّة المتميّز بها.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩٠.

(٢) سورة الطور، الآيتان: ١ - ٣.

(٣) انظر ما يتعلق بهذا النص تعليق فقرة رقم ١٨٠.

(٤) انظر ما يتعلق بهذا النص تعليق فقرة رقم ١٨٠.

١٩٣ - فكما أنّ جميع الحروف الهجائيّة، المفردة منها والمركّبة، هي مظهر صورة البائيّة في مراتب الألف وكمالاته الذاتيّة، كذلك جميع البسائط الوجوديّة، المفردة منها والمركّبة، هي مظهر صورة الإنسانيّة في مراتب الحقّ تعالى وكمالاته الذاتيّة.

وهذا هو سرّ قول أمير المؤمنين عليه السلام: **«أنا النقطة تحت الباء»**، وسرّ قوله: **«العلم نقطة كثّرها جهل الجهلاء»** لأنّ من اطّلع على هذه النقطة حقّ الاطّلاع، حصلت له علوم جمّة وحقائق كثيرة بحيث تخرج عن الحصر، كما تقرّر في بحث الأولياء وتحصيل علومهم[1].

١٩٤ - وسرّ قوله عليه السلام: **«لو شئت لأوقرتُ سبعين بعيراً من باء بسم الله الرحمن الرحيم»** شاهدٌ على هذا المعنى، لأنّه لو شاء في تفسير هذا الباء والنقطة المذكورة تحته، المتميّز بها عن الألف، لم يكن يحمله سبعون بعيراً ولا سبعون ألف بعير.

وإلى هذا أشار الشيخ العارف الكامل ابن الفارض المصريّ - قدّس الله سرّه - في قصيدته «التائيّة» في قوله:

«ولو كنت بي من نقطة الباء خفضة»

البيت، كما شرحه الشيخ العارف عزّ الملّة والدين الكاشي - رحمة الله عليه - وهذا هو قوله:

١٩٥ - «الباء صورة الوجود الظاهر المتعيّن المضاف، كما أنّ الألف صورة الوجود الباطن المطلق. وقول بعض العارفين: «ما رأيت شيئاً ألا ورأيت الباء عليه مكتوبة»[2] يوافق هذا المعنى، لأنّ كلّ موجود يختصّ بوجود؛ وأوّل موجود أُضيف إلى الوجود المطلق هو الروح الأعظم، الذي هو واسطة التكوين، ورابطة تعلّق الوجود من الواجب إلى الممكن، وموجب الصاق المحدث بالقديم.

---

(١) انظر ذلك في كتاب جامع الأسرار ومنبع الأنوار، الأصل الثالث، القاعدة الأولى والثانية والثالثة أيضاً مقدمة رسالة الوجود الخاصة بالشريعة والطريقة والحقيقة.

(٢) هذا القول منسوب إلى الشيخ أبي مدين، انظر الفتوحات ١/ ١٠٢ و ٤٨٨. ومقدمة كتاب «الباء» لابن العربي ولطائف الأعلام، مخطوط جامعة اسطنبول ٢٣٥٥/ ٣٤ ب.

والنقطة الواقعة تحت الباء صورة ذات الممكن. فكما أنّ الباء تتعيّن بها وتتميّز عن الألف، فكذلك الوجود المضاف يتعيّن بذات الممكن ويتميّز عن الوجود المطلق. وقول ابن العربي - رحمه الله: «بالباء ظهر الوجود، وبالنقطة تميّز العباد عن المعبود»[1] يشير إلى ذلك.

وأمثال ذلك كثيرة. - وهذا يحتاج إلى تفصيل آخر غير ذلك، توضيحاً وتحقيقاً، وهو هذا:

١٩٦ - اعلم أنّ ظهور الحقّ تعالى في صور الموجودات، هو كظهور الألف في صور الحروف على السواء، لأنّ الألف إذا نزل من حضرة علوّه وارتفاعه واطلاقه وتجرّده إلى حضرة تسفّله وانخفاضه، وتقيّد بصورة الباء، صار تاء وثاء إلى غير ذلك من الحروف.

١٩٧ - ومن حكم ترتيب الحروف أنّه ليس هناك حرف إلا وفيه ألف صورةً ومعنىً.

أمّا الصورة، فكقولك: باء وتاء وثاء، إلى آخر الحروف. وأمّا المعنى، فكقولك: ميم ونون وجيم، لأنّ الواو والياء يقومان - كلّ واحد منهما - مقام الألف في موضع الاحتياج، كما لا يخفى على أهله.

١٩٨ - فحينئذٍ يجوز للعارف بهذه الأسرار - أعني بأسرار الحروف - أن يقول: ليس في الحروف إلا الألف، وليس في الخارج إلا الألف. وكذلك شأن الحقّ تعالى، فإنّه إذانزل من حضرة علوّه وارتفاعه واطلاقه وتجرّده إلى حضرة تعيّنه وتقيّده، التي هي انخفاضه وتسفّله بصورة الخلق، لقول النبيّ ﷺ: «خلق الله آدم على صورته». صار اسمه خلقاً أو عقلاً أو فلكاً[2]؟ أو غير ذلك من الأسامي المذكورة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى باقي الموجودات.

١٩٩ - ومن حكمة ترتيب الوجود أنّه لا يكون هناك موجود إلا ويكون الحقّ معه صورةً ومعنىً.

---

(١) بالباء إلى المعبود: انظر ما تقدم فقرة ١٨٠ ، ١٩٢.

(٢) فلكاً: لفظة غير واضحة تماماً في الأصل.

أمّا الصورة، فلأنّ الصورة عبارة عن ظواهر الأشياء وتعيّناتها وتشخّصاتها. وليست ظواهر الأشياء إلا هو. وأمّا المعنى، فلأنّ المعنى عبارة عن بواطن الأشياء وحقائقها وذواتها. وليس بواطن الأشياء وحقائقها وذواتها إلا هو، لقوله تعالى فيهما أي في معيّة الحق للأشياء في الصورة والمعنى وفي أوليّته وآخريّته أيضاً، ونسبة كلّ واحد منهما إلى الآخر: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] لأنّه بواسطة ظهوره من البطون وبروزه من الخفاء، سمّى نفسه: بالأوّل والآخر والظاهر والباطن.

٢٠٠ - وأيضاً إذا ثبت أنّه ليس في الوجود إلا هو، فلا يكون في الظاهر والباطن والأوّل والآخر، عقلاً ونقلاً وكشفاً إلا هو. وهذا واضح جليّ. فحينئذٍ يجوز للعارف بهذا السرّ أن يقول: ليس في الوجود سوى الله، وليس في الوجود إلا الله، وغير ذلك من الكلام الدالّ عليه، مثل قولهم: لا يعرف الله إلا الله، ولا يرى الله إلا الله، ولا يدلّ على الله إلا الله، ولا يحبّ الله إلا الله.

٢٠١ - وإذا عرفت هذا، فهاهنا نكتة لا بدّ منها، وهي أنّ الألف إذا كان في الأوّل، مثلاً، عالماً بذاته، وبأنّ لها قابليّة أن تظهر بصور جميع الحروف، وعالماً بماهيّات الحروف وحقائقها وأوضاعها وأشكالها، فإذا ظهر هذا الألف مثلاً بصورة الجيم، فلا يكون للجيم على الألف اعتراض ولا حجّة «بأنّك لِمَ ظهرت فيّ بصورة الجيم؟» ذلك لأنّه لو ظهر الألف في الجيم بصورة الدال، مثلاً، لكان خارجاً عن العدل والحقّ، لأنّ العدل هو أنّ الظاهر لا يظهر في مظهر إلا على الوجه الذي ذاك المظهر عليه.

والجيم لا يطلب منه أي من الألف أبداً، بلسان الاستعداد، إلا الظهور بصورة الجيميّة لا غير، وكان يلزم منه أي إذا ظهر الألف في الجيم بغير صورة الجيم قلب الحقائق، وقلب الحقائق بالاتّفاق محال.

٢٠٢ - فحينئذٍ لا يمكن ظهور الألف بصور الحروف إلا على الوجه الذي هي عليه تلك الحروف. وهذا معنى قول المحقّقين، المطّلعين على حقائق الأشياء كشفاً

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٣.

وذوقاً: إنّ الحقائق غير مجعولة بجعل الجاعل. وهذا قطرة من بحر سرّ القدر. وفيه أسرار أُخر لا يجوز افشاؤها أصلاً إلا لأهلها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(١).

٢٠٣ - وإذا علمت هذا، فقسْ عليه ظهور الحقّ تعالى في صور الموجودات كلّها، لأنّك لا تجده إلا مطابقاً: «حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة» كما مرّ تفصيله. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾(٣).

الوجه الثالث: من مباحث ظهور الوجود وكثرته

٢٠٤ - وأمّا الوجه الثالث: فهو قول المولى الأعظم كمال الدين عبد الرزاق الكاشي - قدّس الله سرّه - تفصيلاً. وقد صدر عنه هذا الكلام جواباً للشيخ صدر الحقّ والملّة والدين القونوي - قدّس الله سرّه - في سؤاله كيفيّة صدور العالم عن الله تعالى وترتيب الموجودات معنىً وصورةً ومرتبةً، ومن أوّل موجود إلى آخر موجود، وكيفيّة ارتباط العالم بموجده، وارتباط موجده به من حيث الحقيقة والذات ومن حيث المراتب. وكان جواب الشيخ الكاشي نقلاً عن: الشيخ الكامل المحقّق سعد الحقّ والملّة والدين ابن الحموئي = حمويه - قدّس الله روحه العزيز. وهو هذا:

٢٠٥ - «أمّا الذي يمكن أبيّن ويعبّر عنه من كيفيّة صدور العالم عن الله تعالى، فهو تجلّيه تعالى بأسمائه لذاته. فإنّه بذاته غنيّ عن العالمين. وهو الكنز المخفيّ الباطن. والباطن باطن للظاهر، وإلا لم يكن باطناً. فله فيه أي للباطن في الظاهر جهة الظهور، ولولا ذلك لم يظهر. وما كان ظهوره تعالى إلا علمه بذاته، فإنّ العلم نفس الظهور. فذاته معلومة لذاته. وكلّ معلوم متعيّن بظهوره في نفسه وتميّزه عن غيره. فله فيه التعيّن الأوّل.

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٦.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

٢٠٦ - «فانظر إلى هذا التعدّد في عين اسمه: «**الأحد**» الذي هو حقيقة هويّته باعتبار الفرديّة المقتضية لعدم الغير. فصارت الحضرة الأحديّة بعينها الحضرة الواحديّة والعين الواحدة، التي هي: «الأحد» مع التعيّن المذكور أي التعيّن الأوجل باعتبار كونه عالماً باطناً، ظاهراً معلوماً. فكان تعالى: «أحداً» قبل كونه: «واحداً». فصار «الأحد» «أوّلاً» أي باطناً و «الواحد» «آخراً» أي ظاهراً. وهو تعالى بعينه «الأوّل والآخر والظاهر الباطن».

ومن هنا ظهر معنى الصدور بلا ابتداءٍ من وجهٍ، ومع ابتداءٍ من وجهٍ. و«الآخر» عين «الأوّل». وهذا هو أصل العالم.

٢٠٧ - «وأمّا ترتيب الموجودات من أوّل موجود إلى آخر موجود، معنىً وصورة ومرتبةً، فهو أنّ «الواحد الآخر» بالنسبة إلى «الأحد الأوّل»، هو حقيقة الشيء الموجود حال كون: «**آدم بين الماء والطين**»، كما قال عليه السلام: «**أوّل ما خلق الله نوري**»، وهو العقل المشار إليه: «**أوّل ما خلق الله العقل**». فهو أشرف الموجودات وأوّلها بعد الحقّ تعالى. وهو: «**الاسم الأعظم**» المحيط بكلّ الأسماء معنىً وهو: «**أمّ الكتاب**» الذي حروفه حقائق الأشياء كلّها، وتتعيّن بتعيّنه حقائق عالم الجبروت، ويتفصّل بتفصيله الواحدُ إلى الكثير.

٢٠٨ - «وكما أنّ «الواحد» مظهر «الأحد» على ما بيّن، فهذه: (أعني حقائق عالم الجبروت) كلّها مظاهر الواحد. وهم: «الملأ الأعلى» ﴿ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[1].

وفيها تظهر صفاته تعالى بالنسب التي له إليها، من العلم والإرادة والقدرة، المقتضية لوجود المقدورات.

٢٠٩ - «وهذا الواحد الكثير» وإن كان ظاهراً بالنسبة إلى «الأحد»، لكنّه، من حيث اقتضاؤه لوجود المقدورات، كان باطناً لما يقتضيه من عالم الملكوت الفعّال، المدبّر للأمر والنهي. والملكوت لا ينفكّ عن الملك الذي هو مظهر آثاره، أعني صور العالم من الأفلاك والعناصر. ومن هنا ظهر سرّ: «**لولاك لما خلقتُ الأفلاك**».

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢.

٢١٠ - «وكما أنّ عالم الملكوت هو ظاهر عالم الجبروت، فالملك كذلك هو ظاهر الملكوت، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

وكلّ باطن بالنسبة إلى ظاهره هو غيب؛ وكلّ ظاهر بالنسبة إلى باطنه هو شهادة. وعليك بتطبيق قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾[2].

٢١١ - «وهذا الأمر هو مقتضى اسمه تعالى: «المبدي»، وما هو إلا اختفاؤه فيما أبداه. ونسبته إلى صور العالم، من حيث صور العالم، هي نسبة الروح إلى الجسد. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾[3] في مراتب الأكوان، بحسب ما يظهر منها من النوريّة بالاعتدال؛ وتترقّى رتبه مرتبةً فمرتبةً إلى مرتبة الإنسان.

وتزداد ظهور الكمالات في الأزمان حتّى تنتهي لي ظهور «الحقيقة المحمّديّة» في هذه النشأة الإنسانيّة. فكان الإنسان «آخراً» في الظهور، كما كان «أوّلاً» في الوجود بعد: «الأحد» الحقّ تعالى.

٢١٢ - «فالإنسان آخر موجود بحسب النوع؛ وأمّا الآخر بحسب الشخص فليس بممكن، فإنّ الممكنات غير متناهية. و «الشأن الإلٰهيّ» المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[4]، غير منقطع.

٢١٣ - «فالترتيب المعنويّ هو أنّ كلّ ما هو أقرب إلى الصورة فهو أبعد من الحقيقة الأحديّة، لأنّ الحقيقة الأحديّة هي معنى المعاني كلّها.

- ثمّ العين الواحدة المسمّاة: بالعقل الأول عند بعضٍ، وعقل الكلّ عند بعضٍ، والروح عند بعضٍ - ثمّ النفس الكليّة المدركة للحقائق الكليّة بالذات والجزئيّات بالآلات، وهو القلب باصطلاح الصوفيّة.

- ثمّ النفس المنطبعة المدركة للجزئيات. - ثمّ قواها - ثمّ النفوس النباتيّة. - ثمّ الأرواح المعدنيّة - ثمّ الطبائع العنصريّة، فإنّها أرواح نوريّة مدركة[5](؟) لها، مسمّاة

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٤.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٤.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.
(٥) المدركة: كلمة غير واضحة في الأصل.

عند المحقّقين وفي الشرائع الإلٓهيّة بالملكوت الأرضيّة. - ثمّ الأجرام الفلكيّة - ثمّ الأجسام العنصريّة. وكلّ ما هو نور من الأجرام كالشمس، فهو أشرف من الذي دونه في الضوء والنوريّة. وكلّ ما هو أظلم كالأرض، فهو أخس.

٢١٤ - «وأمّا ترتيب الموجودات بحسب الصورة، فكلّ ما هو أعظم من الأجرام وأشمل احاطةً، فهو أقدم من الذي هو أصغر وأقلّ احاطةً. وكلّ محيط أشرف من المحاط عليه، حتّى الأرض. والبسائط أقدم من المركّبات. والمعادن من المركّبات أقدم من النباتات. والنباتات أقدم من الحيوانات. وآخرها صورةُ الإنسانُ.

٢١٥ - «وأمّا ترتيب الموجودات بحسب الرتبة، فترتيبها من أوّل الموجودات هو بعينه الترتيب المعنويّ، ابتداء من العقل الأوّل إلى الأرض التي هي أدنى المراتب، بل العناصر لتضادّها في الطبائع التي هي نهاية الكثرة، المقابلة للوحدة الذاتيّة المبدئيّة التي هي آخر المراتب.

ومنها يتصاعد الوجود في الشرف والظهور والرتبة: من المعدن، ثمّ النبات، ثمّ الحيوان، ثمّ الإنسان.

وينتهي التصاعد إلى أوّل الموجودات كدائرة متوّهمة على كرة تتحرك حركة وضعيّة لا أينيّة، مثل: حركات الدوائر تتهابط دائماً في إحدى القوسين، وتتصاعد في الأخرى. - فالوجود المحمّديّ هو الذي يشمل القوسين، النازل باعتبار العين من النقطة الأحديّة عند الاختفاء، البالغ إليها عند الظهور.

٢١٦ - «وأمّا كيفيّة ارتباط العالم بموجده، فهو بعينه ارتباط الجسد بالروح. وارتباط موجده به، من حيث الحقيقة والذات - وهو ظهوره بصورته من حيث المراتب - هو ترتيب أسمائه تعالى في اقتضائها بمقتضياتها، التي هي حقائق الموجودات المذكورة، بظهورها فيه.

ثمّ بربوبيّة تلك الأسماء للكلّ، بعد أحديّة الذات الموصوفة: بالسبّوحيّة والقدّوسيّة، وسائر الصفات السلبيّة النافية للغير في مراتب عمومها وخصوصها، من: «الرحمن» الذي هو مبدأ الفيض على الكلّ، إلى: «المنّان» حتّى «الرحيم» الخاتم الذي تتعلّق المراتب بظهور من هو ﴿رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] صلى الله عليه وآله.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

٢١٧ - «وأمّا كيفيّة رجوع الأمر كلّه إلى الحقّ، بعد نسبته إلينا، فمعلومٌ ممّا مرّ، لأنّ الأمر الإلّهيّ هو الإيجاد المعبّر عنه: بـ«كن»، والتدبير هو المسمّى: «شأناً». فالتنزّل في مراتب التعيّنات باسمه: «المبدىء»، على الترتيب المذكور، إلى الأرض، هو الإيجاد؛ والعروج باسمه: «المعيد»، هو التدبير. فالأمر الإيجاديّ يرجع إليه كلّه بالتدبير الذي هو شأنه، في صورة الإنسان الكامل الذي يتّصل بأوّل الوجود؛ ونسبته إلينا، من ابتداء وصوله في العروج إلى النوع الإنسانيّ حتّى الانتهاء إلى النقطة الأحديّة وانتفاء اعتبار القوسين. ويعبّر عن الإيجاد والتدبير معاً: بـ «الأمر»، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾(١).

٢١٨ - هذا آخر كلامه، وآخر الانتخاب من رسالة الأصل أيضاً: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

٢١٩ - واتّفق الفراغ من تسويد هذه الورقات وتبييض هذه الكلمات، بعون الله وحسن توفيقه، خامس عشر جمادى الآخر سنة ثمان وستّين وسبعمائة ٧٦٨ على يد مؤلفها ومنشئها، العبد الفقير إلى الله الغنيّ، الغريق في بحور الآثام، المتمسّك بولاء أجداده أهل البيت عليهم السلام أضعف عباد الله تعالى جِرماً وأقواهم جُرماً، حيدر بن عليّ بن حيدر العلويّ الحسنيّ، الآملي - أصلح الله شأنه - بالمشهد الشريف الغروي. سلام الله على مشرّفه. - حامداً الله ومستغفراً لذنبه ومصلّياً على نبيّه صلى الله عليه وآله الطاهرين.



---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢١.

الفهرس

الموضوع — الصفحة

كتاب رسالة نقد النقود في معرفة الوجود

